

لقد حذف الحق من وصف الفئة الأولى ما يدل عليه في وصف الفئة الثانية . وعرفنا وصف الفئة التي تقاتل في سبيل الله من مقابلتها في الآية وهي الفئة الأخرى . فمقابل الكافرة مؤمنة ، وعرفنا أيضا - أن الفئة الكافرة إنما تقاتل في سبيل الشيطان لمجرد معرفتنا أن الفئة الأولى المؤمنة تقاتل في سبيل الله . ويسمون ذلك في اللغة « حبيك » . وهو أن تحذف من الأول نظير ما أثبت في الثاني ، وتحذف من الثاني نظير ما أثبت في الأول ، وذلك حتى لا تكرر القول ، وحتى توضح الالتجاء بين القتال في سبيل الله والإيمان ، والقتال في سبيل الشيطان والكفر .

إذن فالآية على هذا المعنى توضح لنا الآن : لقد كان لكم آية ، أي أمر عجيب جدا لا يسير ولا يتفق مع منطق الأسباب الواقعية في فئتين ، فعندما التقت الفئة المؤمنة في قتال مع الفئة الكافرة ، استطاعت الجماعة المؤمنة المحددة بالغاية التي تقاتل من أجلها - وهي القتال في سبيل الله - أن تنصر على الفئة الكافرة التي تقاتل في سبيل الشيطان .

وبعد ذلك يقول الحق : « يروهم مثليهم رأي العين » فنحن أمام فئتين ، فمن الذي يرى ؟ ومن الذي يُرى ؟ من الراي ومن المرئي ؟ إن كان الراي هم المؤمنون فالمرئي هم الكافرون . وإن كان الراي هم الكافرين فالمرئي هم المؤمنون ولتر الأمر على المؤمنين :

فإن كان الكافرون هم الذين يرون المؤمنين ، فإنهم يروهم مثليهم ، أي ضعف عددهم ، وكان عدد الكافرين يقرب من ألف . إذن فالكافرون يرون المؤمنين ضعف أنفسهم ، أي ألفين . وقد يكون المعنى مؤديا إلى أن المؤمنين يرون الكافرين ضعف عددهم القليل . وقد يؤدي المعنى إلى أن الكافرين يرون المؤمنين ضعف عددهم وكان عدد المؤمنين يقرب من ثلاثمائة وأربعة عشر ، وضعف هذا العدد هو مائة وثمانية وعشرون مقاتلا .

لأن أخذنا معنى « مثليهم » على عدد المؤمنين ، فالكافرون يروهم حوالي مائة وثمانية وعشرين مقاتلا ، وإن أخذنا معنى « مثليهم » على عدد الكافرين فالكافرون يرون المؤمنين حوالي ألفين . وما الهدف من ذلك ؟ إن الحق سبحانه يتكلم عن

المواجهة بين الكفر والإيمان حيث ينصر الله الإيمان على الكفر . وبعض من الذين يتصيدون للقرآن يقولون : كيف يقول القرآن : « يرونها مثلهم رأى العين » وهو يقول في موقع آخر :

﴿ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَّاتٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَنَّاكُمْ كَثِيرًا لَفَظَنْتُمْ وَلَتَنَزَعَنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَظِيمُ بَدَايَ الصُّدُورِ ۝ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَقَبِيلًا لِكَيْ تَقْبَضَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مُقْتُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝ ١١ ﴾

( سورة الأنفال )

وهذه الآية ثبتت كثرة ، سواء كثرة المؤمنين أو كثرة الكافرين ، والآية التي نحن بصدد تناولها بالخواطر الإيمانية ثبتت قلة ، والمشكلون في القرآن يقولون : كيف يتناول القرآن موقعة واحدة على أمرين مختلفين ؟ ونقول هؤلاء المشككين : أنتم قليلو الفطنة ، لأن هناك فرقاً بين الشجاعة في الإقبال على المعركة وبين الروح العملية والمعنوية التي تسيطر على المقاتل أثناء المعركة ، والحق سبحانه قد تكلم عن الحاليين : قتل الحق هؤلاء في أعين هؤلاء ، وقتل هؤلاء في أعين هؤلاء ، لأن المؤمنين حين يرون الكافرين قليلاً فإنهم يزدودون بالجرأة وطاقة الإيمان ليحققوا النصر .

والكافرون عندما يرون المؤمنين قلة فإنهم يستهينون بهم ويتراخون عند مواجهتهم . ولكن عندما تلحسم المعركة فيما الذي يحدث ؟ لقد دخلوا جميعاً المعركة على أمل القلة في الأعداد المواجهة ، فما الذي يحدث في أعصابهم ؟ إن المؤمن يدخل المعركة بالاستعداد المكثف لمواجهة الكفار . وأعصاب الكافر تخور لأن العدد أصبح على غير ما توقع ، إذن فقول الحق :

﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَيُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَقَبِيلًا لِكَيْ تَقْبَضَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مُقْتُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝ ١١ ﴾

( سورة الأنفال )

يُصور الحالة قبل المعركة ، لأن الله لا يريد أن يتهيب طرف من طرف فلا تنشأ المعركة . لكن ما إن تبدأ المعركة حتى يقلب الحق الأمور على عكسها ، إنه ينقل الشيء من الضد إلى الضد . ونقل الشيء من الضد إلى الضد إيذان بأن قادرا أعلى يقود المشاعر والأحاسيس ، والقدرة العالية تستطيع أن تصنع في المشاعر ما تريد .

لقد قلل الحق الأعداد أولا حتى لا يتهيبوا المعركة ، وفي وقت المعركة جعلهم الله كثيرا في أصين بعضهم البعض فترى كل فئة الطرف الآخر كثيرا ، فتتفجر طاقات الشجاعة المؤمنة من نفوس المؤمنين فيقبلون على القتال بحماسة ، وتخور نفوس الكافرين عندما يواجهون أعدادا أكثر مما يتوقعون . والحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الَّذِينَ آمَنُوا فَمِنْ فِئَةٍ يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافَّةً يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ (سورة آل عمران)

إن هذه الآية هي خير تنبيه لكل مؤمن بالنصر ، وهي في الوقت نفسه خير إنذار لكل كافر بأن الهزيمة سوف تلحق به إن واجه الجماعة المؤمنة . فإياكم أن تقبموا الأمور بمقاييس الأسباب ، فالأسباب المطلوبة منكم هي المقدور عليها للبشر وعليكم أن تتركوا تنمة كل ذلك للقدير ، فلا تخور الفئة المؤمنة أمام عدد كثير ، ولا تغتروا معشر الكفار بأعدادكم الكثيرة ؛ فالسابقة أمامكم تؤكد أن عددا قليلا من المؤمنين قد غلب عددا كثيرا من الكافرين .

ومن معاني الآية - أيضا - أن الكافرين يرون المؤمنين مثل عدد الكافرين ، أي ضعف عددهم . ومن معانيها - ثالثا - أن الكافرين يرون المؤمنين ضعف عدد المؤمنين الفعلي . ومن معاني الآية - رابعا - أن يرى المسلمون الكافرين مثلهم ، أي مثل المؤمنين مرتين ، أي ستائة نفر وقليلا ، وحينئذ يكون عدد الكافرين في عيون المؤمنين أقل من العدد الفعلي لهؤلاء الكافرين . إذن فما حكاية ، مثلهم ، هذه ؟ لقد وعد الله المؤمنين بنصره حين قال :

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قَاتِلْتُمُ الْكُفْرَانَ فَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَكَانَ عِشْرُونُ صَاحِدٍ بِوَاحِدٍ ﴾

مَا تَتَّبِعُونَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا الْفَاسِقِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣٥﴾

(سورة الأنفال)

والنسبة هنا أن المؤمن الواحد يخرج إلى عشرة من الكافرين فيبهرهم ، ذلك وعد الله ، وحين أراد الله التخفيف قال الحق :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَفَّفَ الْهَبْرَ وَعَلَّمَ أَنَّ فِيكَ دَعْمًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مَا تَتَّبِعُونَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ ﴿٣٦﴾

(سورة الأنفال)

لقد خفف الله النسبة ، فواحد من المؤمنين يغلب اثنين من الكافرين ، فالمؤمنون موعودون من الله بالغلبة حتى وهم ضعاف ، والحق يقول في الآية المبشرة للمؤمنين ، المنذرة للكافرين ، والتي نحن بصددتها الآن : « والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعلوة لأولي الأبصار » .

ونحن نسمع كلمة « عبء » كثيرا ، والمادة المأخوذة منها تدل على الدخول من مكان إلى مكان ، فيقال عن ذلك « عبور » ، ونحن في حياتنا العادية نخصص في الشوارع أماكن لعبور المشاة ، أي المسافة التي يمكن للمشاة أن يتفادوا منها من ضفة الشارع إلى الضفة الأخرى من الشارع نفسه . وعبور البحر هو النفاذ من شاطئ إلى شاطئ آخر .

إذن فمادة « العبور » تدل على النفاذ من مكان إلى مكان ، و« العبء » أي الدفعة لأنها تسقط من محلها من العين على الخد . و« العبارة » أي الجملة التي تتكلم بها ، فهي تنتقل من الفم إلى الأذن ، وهي عبور أيضا . و« العبور » أي الراتحة الجميلة التي تستقل من الوردة البعيدة عن الإنسان قليلا لتنفذ إلى أنفه . إذن فمادة « العبور » تدل على « النفاذ » .

وحين يقول الحق : « إن في ذلك لعلوة » أي تنقلكم من أمر قد يغيظكم أيها المؤمنون لأنكم قليل ، وهم كثير ، إنها تنقلكم إلى نصر الله أيها المؤمنون ، وتنقلكم



أيها الكافرون إلى الهزيمة برغم كثرة عدتكم وعدتكم . فالعبرة هي حدث يظلك من شيء إلى شيء مغاير ، كالظالم الذي نرى فيه يوما ، ونقول : إن ذلك عبرة لنا ، أي إنها نقلنا من رؤيته في الطغيان إلى رؤيته في المهانة .

وهكذا تكون العبرة هي العظة اللافتة والتأقطة من حكم إلى حكم قد يستغربه الذهن ، فتذيل هذه الآية الكريمة بهذا المعنى هو إيضاح وبيان كامل ، فالحق يقول في بداية هذه الآية : « قد كان لكم آية في فتين الفتى » . وتنتهي الآية بقوله : « إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار » .

إذن فالعبرة شيء ينقلنا من أمر إلى أمر قد تستغربه الأسباب وذلك إن كنت متروكا لسياسة نفسك ، لكن المؤمن ليس متروكا لسياسة نفسه ؛ لأن الله لو أراد أن يعذب الكفار بدون مواجهة المؤمنين وحرمهم لعذبهم بدون ذلك ، ولكن الله يريد أن يكون عذاب الكافرين بأيدي المؤمنين :

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَسِفِ صُورَكُمْ ﴾

مُؤْمِنِينَ ٥٤

(سورة التوبة)

ولو كان الله يريد أن يعذب الكافرين بغير أيدي المؤمنين لأحدث ظاهرة في الكون تعذبهم ، كزلزال يحدث وينصرهم ، ولكن الله يريد أن يعذب الكافرين بأيدي المؤمنين . « والله يؤيد بنصره من يشاء » ، إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار ، « والأيد » هو القوة ، إذن فهو يريد منك فقط النواة العملية ، ثم بعد ذلك يكملها الله بالنصر ، « وأيد » أي قواه ، ويؤيد الله بنصره من يشاء ، وتكون العبرة لأولي الأبصار .

وقد يقول قائل : أتكون العبرة لأولي الأبصار أم لأولي البصائر ؟ وهنا نقول : إن العبرة هنا لأولي الأبصار ، لأن الأمر الذي نتحدث عنه الآية هو أمر مشهدي ، أمر محسوس ، فمن له عينان عليه أن يصير بهما ، فإذا كان التفكير والتدبر ليس أمرا موهوبا لكل مخلوق من البشر ، فإن البصر موجود للخالقية من الناس ، وكل منهم

يستطيع أن يفتح عينه ليرى هذا الأمر المشهدى .

وإذا ما نظرنا إلى المعركة بذاتها وجدنا الدليل الكامل على صلق العبارة ، فالمؤمنون قلة وعددهم معروف محدود ، وعنداهم قليل ، ولم يخرجوا بقصد حرب ، إنما خرجوا لنقص الاستيلاء على العير المحملة بالأرزاق من طعام وكسوة تعويضا عما اغتصبه المشركون من أموالهم في مكة ، ولو أنهم استولوا على العير فقط لما كان النصر عظيما بالدرجة التي كان عليها ، لأن العير عادة لا تسير بعناد ضخم إنما تحفظ بالحراسة فقط . ولكن الله يريد لهم النصر على ذات الشوكة ، أى الطائفة القوية المسلحة ، لقد وعدهم الله بالنصر على إحدى الطائفتين :

﴿ وَإِذْ يَعِزُّكَ اللَّهُ إِحْدَى الْأُطُفَيْنِ أَنْهَالُكَ وَتَوَدُّونَ أَنْ غَوَّذَاتِ الشُّرَكَ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَيِّطَ الْحَقُّ بِكَلْبَتِهِ وَيَقْطَعَ دَائِرَ الْكُنُفِيرِ ۝ ٧ ﴾

(سورة الأنفال)

لقد كان وعد الله أن ينصر المؤمنين على إحدى الطائفتين ، والأمل البشري كان يود الانتصار على الطائفة غير ذات الشوكة أى الطائفة غير المسلحة وهى العير ، ولكن مثل هذا النصر لا يكون له قوى النصر على الطائفة المسلحة ، فقد كان من السهل أن يقال : إن عمداً ومن معه تعرضوا لجماعة من التجار لا أسلحة معهم ولا جيش ، ولكن الله يريد أن يجعل من هذه المعركة فرقانا وأن يبق الحق .

إنكم أيها المؤمنون لم تخرجوا إلا لنقص العير لى لم يكن استعدادكم كافيا للقتال ، أما الكفار فقد جاءوا بالغير ، لى بكل قوتهم فقد ألقت مكة في هذه المعركة بأفلاذ أكبادها . وعندما يأتى النصر من الله للمؤمن في مثل هذه الموقعة فهو نصر حقيقى ، ويكون آية غاية في العجب من آيات الله . وتصور عبء الغير . لذلك نجد المعجائب في هذه المعركة - معركة بدر - .

الغرائب أنك تجد الأخوين يكون لكل منهما موقف ومجابهة . وتجد الأب والابن لكل منهما موقف ومجابهة رغم عمق الصلة بينهما ، فمثلا ابن أب بكر رضى الله عنه ، وكان هذا الابن لم يسلم بعد ، وكان في جانب الكفار ، وأبوه الصديق مع رسول الله

صلى الله عليه وسلم ، وبعد أن أسلم ابن أبي بكر يحكى الابن لأبيه بشيء من الامتنان والبر : لقد تراءيت في يوم بدر فزويت وجهي عنك . فإرد أبو بكر الرد الإيماني الصديقي : والله لو تراءيت في أنت لقتلتك .

وكلا الموقفين منطلق ، لماذا ؟ لأن ابن أبي بكر حين يلتقي بأبي بكر ، ويرى وجه أبيه ، فإنه يقارن بين أبي بكر وبين ماذا ؟ إنه يقارن بين أبيه وبين باطل ، ويعرف تمام العلم أنه باطل ، فيرجع عند ابن أبي بكر أبوه ، ولذلك يحافظ على أبيه فلا يلحسه . لكن أبا بكر الصديق حينها يقارن فهو يقارن بين الإيمان بالله وأبيه ، ومن المؤكد أن الإيمان يزيد عند الصديق أبي بكر ، فلو رآه يوم بدر لقتله .

والله حكمة فيمن قُتل حل أيدي المؤمنين من مجرمي الحرب من قريش ، والله حكمة فيمن أبقي من الكفار بغير قتل ، لأن هؤلاء مدخرون لقضية إيمانية كبرى سوف يلون فيها البلاء الحسن . فلومات عمالده بن الوليد في موقعة من المواقع التي كان فيها في جانب الكفر لحزننا نحن المسلمين ، لأن الله قد ادخره لمعارك إيمانية يكون فيها سيف الله المسلول ، ولومات عكرمة . لفقدت أمة الإسلام مقاتلا عبقريا .

لقد حزن المسلمون في موقعة بدر لأنهم لم يقتلوا هؤلاء الفرسان ، لأنهم لم يعلموا حكمة الله في ادخار هؤلاء المقاتلين ، لينضموا فيها بعد إلى صفوف الإيمان . والله لم يمكن مقاتل المسلمين يوم بدر من المحاربين الذين كانوا على دين قومهم آنذاك إلا لأن الله قد ادخرهم لمواقع إيمانية قادمة يقفون فيها ، ويحاربون في صفوف المؤمنين ، وهذا نصر جديد .

ونرى أبا عزيز وهو شفيق الصحابي مصعب بن عمير الذي أرسله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشر بنين الله ، ويعلم أهل المدينة ، وكان مصعب فتي قريش المدلل صاحب ترف ، وأمه صاحبة ثراء ، وبعد ذلك رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يلبس جلد شاة بعد أن كان يلبس الحرير ، فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « انظروا إلى الإيمان ماذا فعل بصاحبكم » .

والتقى مصعب في المعركة مع أخيه أبي عزيز ، وأبو عزيز على الكفر ، ومصعب

رضي الله عنه مسلم يقف مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وحين يرى مصعب رضي الله عنه أخاه أبا عزيز وهو أمير لصحاب اسمه أبو اليسر ، فيقول مصعب : يا أبا اليسر اتدد على أسيرك ؛ فإن أمه غنية وذات متاع ، وستفد به مجال كثير .

فيقول له أخوه أبو عزيز : أهله وصاتك بأخيك ؟ فيقول مصعب مشيراً إلى أبي اليسر : هذا أخي دونك . كانت هذه هي الروح الإيمانية التي تجعل الفئة القليلة تنتصر على أهل الكفر ، طاقة إيمانية ضخمة تغلب على عاطفة الأخوة ، وعاطفة الأبوة ، وعاطفة البتوة . وقد جعل الله من موقعة بدر آية حتى لا تجور مؤمن وإن قل عند المؤمنين ، أو قلت عدتهم ، وحتى لا يفتخر كافر ، وإن كثر عدد قومه واعتادهم .

وقد جعلها الله آية للصدق الإيماني ، ولذلك يقال : احرص على الموت توهب لك الحياة . وقد كانت القضية الإيمانية هي التي تحلأ نفس المؤمن ، إنها قضية عميقة متغلغلة في النفوس . ولماذا يترصد الكفار بالمؤمنين ؟ إنهم إن تربصوا بهم ، فسيدخل المؤمنون الجنة إن قبلوا أو يتصرون على الكفار ، وفي ذلك يقول الحق على لسان المؤمنين :

﴿ قُلْ مَنْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا أَهْدَى اللَّهُ الْحُتُوبَ وَعَنْ تَرَبَّصٍ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ يَأْتِيَنَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ۝١٧﴾

(سورة التوبة)

فالظفر هنا بأحد أمرين : إما النصر على الكافرين ، وإما الاستشهاد في سبيل الله ، ونيل منزلة الشهداء في الجنة وكلاهما جميل . والمؤمنون يتربصون بالكافرين ، إما أن يصيب الله الكفار بعذاب من عنده ، وإما أن يصيبهم بأيدي المؤمنين . إنها معادلة إيمانية واضحة جليلة . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ  
وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ

وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ  
مَتَكِّعُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ

### الْعَقَابُ ١١

الموضع الذي أتى فيه هذه الآية الكريمة هو : موقع ذكر المعركة الإسلامية التي جعلها الله آية مستمرة دائمة ؛ لتوضح لنا أن الممارك الإيمانية تتطلب الانقطاع إلى الله ، وتتطلب خروج الإنسان المؤمن عما ألف من عادة تمنحه كل المنع . والمعارك الإيمانية تجعل المؤمن الصادق يضحى بكثير من ماله في تليح نفسه ، ونسليح غيره أيضا .

فمن يقعد عن الحرب إنسان تغلبه شهوات الدنيا ، فيأت الله بهذه الآية بعد ذكر الآية التي ترسم طريق الانتصارات المتجدد لأهل الإيمان ، وذلك حتى لا تأخذنا شهوات الحياة من متعة القتال في سبيل الله وإعلاء كلمته فيقول : « زين للناس حب الشهوات » وكلمة « زين » تعطينا فاصلا بين المتعة التي يحلها الله ، والمتعة التي لا يرضاها الله ؛ لأن الزينة عادة هي شيء فوق الجوهر . فالمرأة تكون جميلة في ذاتها وبعد ذلك تزين ، فتحكون زيتها شيئا فوق جوهر جمالها .

فكان الله يريد أن نأخذ الحياة ولا نرفضها ، ولكن لا تأخذها بزيتها وبهرجتها ، بل تأخذها بحقيقتها الاستيقائية فيقول : « زين للناس حب الشهوات من النساء » . وما الشهوة ؟ الشهوة هي ميل النفس بقوة إلى أي عمل ما .

وحيث ننظر إلى الآية فإننا نجد أنها توضح لنا أن الميل إذا كان مما يؤكد حقيقة استبقاء الحياة فهو مطلوب ومقبول ، ولكن إن أخذ الإنسان الأمر على أكثر من ذلك فهذا هو المفقوت .

وسبق أن ضربنا المثل من قبل بأعنف غرائز الإنسان وهي غريزة الجنس ، وأن

الحيوان يُفَضَّل الإنسان فيها ، فالحيوان أخذ العملية الجنسية لاستبقاء النوع بدليل أن الأنثى من الحيوان إذا تم لقاحها من فعل لا تُمكن فحلاً آخر منها . والفعل أيضاً إذا ما جاء إلى أنثى وهي حامل فهو لا يُقبل عليها ، إذن فالحيوانات قد أخذت غريزة الجنس كاستبقاء للحياة ، ولم تأخذها كالإنسان لذّة متجددة .

ومع ذلك فنحن البشر نظلم الحيوانات ، ونقول في وصف شهوة الإنسان : إن عند فلان شهوة بهيمة . وبالنسبة كانت شهوة بهيمة بالفعل ، لأن البهيمة قد أخذتها على القدر الضروري ، لكن نحن نلصقها ، إذن فمخرجك بالشئ عما يمكن أن يكون مباحاً ومشروعاً يسمى : ذلّة شهوة النفس .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يضمن للكون بقاءه ، والبقاء له نوعان : أن يُبقى الإنسان حياته بالمطعم والمشرب ، وتبقى حياة النوع الإنساني بالتزاوج .

ولكن إن نظرت إلى المسألة وجدت الخالق حكيماً عليماً . إنه يعلم أن طفولة أي حيوان بسيطة بالنسبة لأبيه وأمه ، مثال ذلك : الحماة تطعم فرخها إلى أن يستطيع الطيران ، ثم لا تعرف أين ذهب فرخها ، لكن حصيلة الالتقاء بين الرجل والمرأة ، والتي أراد الله لها أن تنتج الأولاد تحتاج إلى شقاء إلى أن يبلغ الولد ، وذلك ليكون هناك تكافؤ وتناسب بين ما يمرص عليه الإنسان من شهوة ، وما يتحمل من مشاق ومتاعب في سبيل الاستمتاع بها واستبقائها . نقول الحق سبحانه : « زين للناس حب الشهوات من النساء » فمن المزين ؟ إن كان في الأمر الزائد على ضروريات الأمر ، فهذا من شغل الشيطان وإن كان في الأمر الرتيب الذي يضمن استبقاء النوع فهذا من الله .

ونجد الحق يضيف « البنين » إلى مجال الشهوات ويقصد بها الذكور ، ولم يقل البنات ، لماذا ؟ لأن البنين هم الذين يُطلبون دائماً للعزوة كما يقولون ولا يأتي منهم العار ، وكان العرب يثدّون البنات ويخافون العار ، والمحبوب لدى الرجل في الإنجاب حتى الآن هو إنجاب البنين ، حتى الذين يقولون بحقوق المرأة وينادون بها ، سواء كان رجلاً أو امرأة إن لم يزرقه الله بولد ذكر فإنه أو إنا تريد ولداً ذكراً .



ويضيف الحق إلى مجال الشهوات : « والقناطير المقنطرة من الذهب والمصه » ،  
والقناطير هي جمع قنطار ، والقنطار هو وحدة وزن ، وهذا الوزن حددته كثافة  
الذهب ، إلا أن القنطار قبل أن يكون وزناً كان حجماً ، لكنهم رأوا الحجم هذا يرب  
قديراً كميّاً ، فانتقلوا من الحجم إلى الوزن

وكان علامة الثراء الواسع في الزمن القديم أن يأتوا بجلد الثور بعد سلحه ومملأوه  
ذهبا ، وملء جلد الثور بالذهب يسمونه قنطراً ، وكانت هذه عملية بدائية وبعد  
ذلك أخذوا ملء الجلد ذهباً ووزنوه قصور وزناً . إذن فالأصل فيه أنه كان حجماً ،  
فصار وزناً

وساعة تسمع « قناطير مقنطرة من لذهب والمصه » فهو يريد أن يحقق فيها  
القنطارية ، وذلك يعني أن القنطار المقنطر هو القنطار الكامن البور ، وليس مجرد  
قنطار تقريباً ، كما نقول أيضاً : « دبابر مدبرة » وعادة نجد في اللغة العربية لفظ  
يأت من جنس اللفظ يضم إليه كى يعطيه قوة ، فيقال « ظل ظليل » أى ظل كثيف ،  
ويقال « ليل الليل » أى أن الليل في ظلمة شديدة ، وهي مبالغة في كثافة الظلام .

والظلام على سبيل المثال يحجب الشمس ، وحاجب الشمس هنا قد يكون  
حجاباً واحداً ، وقد يكون الشيء الذي يظلك فوقه شيء آخر يظلك أيضاً فيكون  
الظل ظليلاً ، ولذلك يكون الظل تحت الأشجار جميلاً ، لأن ورقة تستر الشمس ،  
ورقة أخرى تستر الورقة الأولى ، وهكذا ، فتصنع تكييفاً طبعياً للهواء

ولذلك فهم يصنعون الآن خياماً مكيمة الهواء مصنوعة من قماش فوقه قماش  
آخر ، وبينهما مسافة ، فيكون هناك قماش يظلل ظلاً آخر ، فإذا ما وضعوا قطعة ثالثة  
من القماش تظل الظلين الأولين ، فإن الظل يكون ظليلاً ، ولذلك قلنا : إن ظل  
الأشجار هو ظل ظليل ، فيه حنان ، فكل ورقة تظل الإنسان تكون نفسها مظلة  
بورقة أخرى ، وتكون أوراق الشجر التي تظلل بعضها بعضاً مختلفة الأوضاع ،  
وتعطي الأوراق للنسيم فرصة المرور ، أما الخيم فهي تحجب النسيم والشاعر حين  
أراد أن يصف الروضة قال :

نصيب الشمس أنى واجهتها

فمنحجبيها وتلد للنسيم  
إذن فحين وصف الحق القناطير بأها مقنطره فذلك يعنى القناطير الدقيقة الخيران ،  
وهى قناطير مقنطرة من ماذا ؟ « من الذهب والفضة والخيل المسومة » . وكانت الخيل  
هى أداة الحرب وأمانة وعلاوة عن العظمة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :  
( الخيل معقود بتواصيها الخير إلى يوم القيامة ) (١) .

قول الحق : « والخيل المسومة » نرى فيه أن اللفظ الواحد يشع فى مجالات متعددة  
من المعانى ، فالمسومة من ساءها يسومها ، ومعنى ذلك أن هذه الخيل مراعى تأكل  
منها كما تريد ، وليست خيلاً مربوطة تأكل ما يقدم لها فقط ، ومسومة أيضاً تعنى أن  
لهذه الخيل علامات ، نهذا حصان آخر ، وذلك أدهم ، وذلك أشقر .

ومسومة أيضاً ، أن تكون مروضة ، ومدربة ، وتم تعليمها ، فالأصل فى الخيل  
أنها لم تكن مستأنسة بل متوحشة ، ولذلك لا بد من ترويضها حتى يتضع بها  
الإنسان . فكم معنى إذن أعطته لنا كلمة « مسومة » ؟

سائمة ، أى تأكل على قدر ما تشتهى لا على قدر ما تعطىها من طعام . ومعلمة  
أى فيها علامات كالغرة والتجمل ، وهذا جواد أدهم ، وذلك جواد أشقر ، أو أنها  
معلمة أى مروضة . فهذا يتطلب الحرب ؟ .

إن الحرب تتطلب الانقطاع عن الأهل ، فوجب ألا تكون شهوة النفس حاجزاً ،  
سواء كانت شهوة للنساء ، أو كانت شهوة العروة للبين ورعايتهم ، أو كانت شهوة  
المال ، فاللؤمن ينفقه فى سبيل الله ، والخيل أيضاً يستخدمها الإنسان فى القتال لإعلاء  
كلمة الله .

ونلاحظ أنه هذه الآية - التى تعد أنواع الزينة - جاءت بعد الآية التى تحدثت عن  
الجهاد فى سبيل الله ، والى يقول الحق تبارك وتعالى فيها .



قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي خُسْفَى أَنْتَقَطَ فِي مَقْعِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَخَرَى كَافَّةً يَوْمَهُمْ  
مِثْلَهُمْ رَأَى النَّبِيُّ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بَصِيرَتَهُ مِنْ بَنِي إِدْنَى ذَلِكَ لَعْنَةُ الْآلِ  
الْأَبْصَرِ ①

(سورة الب هجرات)

وذلك ليرشدنا إلى أن الإنسان المؤمن لا يصح أن يصحى بشهرته الحقيقية وهي إدرائه الشهادة في سبيل الله لو النصر على العدو بسبب الشهوات الزائلة التي تتمثل في النساء ، وفي البس ، وفي القناطير المقطرة من الذهب والفضة ، وفي الخيل المسومة والأعنام .  
وتجد حال الله عن الأنعام في سورة الأنعام :

[illegible]

(مسورہ) (مذہب)

حساب ذلك هو إثبات من الضمان ، وإثبات من المانع ، وإثبات من لإبيل ، وإثبات من البقر أي ثمانية أزواج . ولا يمكن حسابها على أنها ستة عشر كما هو لبعض قديماً ، لا ؛ إن الزوج لا يعنى اثنين من الشيء ، ولكن الزوج واحد ، ولكن بشرط أن يكون مع غيره من جنسه . ومثال آخر هو كلمة « النوام » ، إن النوام هو واحد معه غيره ، وهما نواومان ، وهم نواائم إذا كان العبد أكثر من اثنين

والحق يقول في مجال زينة الشهوات : « دُبرٌ للمسح حُثَّ الشهوات من لِبَاءِ

والبنين والقطاير المقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ،  
وحيث نسمع كلمة « الحرث » فافهم أن المراد بها هنا الزرع ، ولكن الله سبحانه  
وتعالى يريد منك أن تعلم أن الله حين يبت لك أشياء بدون معالجتك فإنه يريد منك  
أيضاً أن تستبث أشياء بمعالجتك ، وهذا لا يتأتى إلا بعملية الحرث .

والحرث هو إهالة الأرض ، فالتربة تكون جامدة ، فلا بد أن يهيئها الإنسان  
بالحرث ، أي أن تلك بيومستها وتلاصق ذراتها ، لأن تلاصق ذرات التربة لا يصلح  
أن يكون بيئة للنبات ، لأن النبات يحتاج إلى الماء ويحتاج إلى الهواء ، ويحتاج من  
الإنسان أن يجهز للشعيرات البسيطة أن تخرج ، وتجد تربة سهلة تتحرك فيها إلى أن  
تقوى .

إذن فالحرث يشتر الأرض ، ويعملها ليئه متعنتة حتى تستطيع البذرة أن تنمو ، لأن  
الله قد أودع في خلقه كل يدره مقومات الحياة إن أن يوجد لها جدر بأحد مقومات  
الحياة من الأرض ، وكلما قوى الجدر في النبات فإن الفيتن نصمحلان ، وتصيران  
جود ورقبتن . فأين ذهب حجم العلقين ؟

لقد قامت لعلقان بتغذية البتة إلى أن استطاعت البتة أن تتغذى بنفسها من  
الأرض ، ولا يمكن حدوث ذلك إلا إذا كانت الأرض عروثة . ولعلك يقولون : إن  
الأرض الطينية السوداء تكون صعبة ، وغير خصبة ، ويقال إن الأرض الرملية  
أيضاً غير خصبة ، لماذا ؟

لأننا نريد صعتين نبتين في الأرض ، الصفة الأولى أن تكون الأرض صالحة أن  
يتحللها الماء ليُشرب الزرع ، والصفة الأخرى ألا تُسرب الماء بعيداً ، فإذا كانت  
الأرض طينية فإن جذور الزرع تختنق وتتعطن ، وإذا كانت رملية فإن الماء يتسرب  
بعيداً ، لذلك نحتاج في الزراعة إلى أرض بين سوداء ورملية ، أي أرض صفراء .  
والله حين يتكلم عن الزرع فإنه يقول : « الحرث » وذلك حتى يلفتنا إلى أن من يريد  
أن يأخذ زرعاً لا بد أن يجتد ويحرث الأرض . وهو سبحانه القائل :

﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴾ ١٧ ﴿ أَمْ تَرْجَوْنَ أَنْ يَحْرُثَ الزَّيْرُونَ ﴾ ١٨ ﴿

وعبر الحق عن الرزق بالحرق لأنه السبب الذي يوجد الرزق . وكل ما تقدم من الشهوات من انشاء والسير والتناظر المقطرة من الذهب والفضة والخليل المسومة والانبام والحرق ، كل ذلك تكون قيمته عند الإنسان ما يوضح الحق بقوله : « ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب »

إن كل ذلك هو متاع الحياة الدنيا ، واليعمل هو أن الإنسان يحشى أن تفرته العمة فلا تكون عنده ، أو أن يعوقها فيموت . وكل ما يموتك أو تفرته ، فلا تفرته به . وعندما تأمل الآية في مجموعها نجد أن فيها مفاتيح كل شخصية تريد أن تنحرف عن مهب الله ، إله سبحانه يقول :

﴿ نَفْسَ النَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْمَنَاطِقِ الْمَقْطُورَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَ حَرْنِ الْقَاطِبِ ٥٥ ﴾

(سورة آل عمران)

هكذا نرى المفاتيح التي قد تجذب الإنسان لينحرف عن مراد الله في مهبه ، إله سبحانه . يطلب من عبده المؤمن أن يسي حركة حياته على مراد الله ، فما الذي يجعل المؤمن يترك مراد الله من حكم لينصرف إلى حكم ساقصه ؟

لاشك أنه الهوى ، والهوى هو الذي يميل ويربح القلوب ، ولكل هوى مفتاح ، ولكل شخصية من الكلمين مهب الله مفتاح هواه ، قواحد مفتاحه النساء ، وواحد مفتاحه البنون ، يحب أن يرعاهم رعايه نفوق دحلّه من عمل أو صناعة مثلا فقد يسرق أو يرتشى ليسعد هؤلاء . وأسس مفاتيحهم الشخصية في المال ، أو في زينة الخليل ، والعدة والعتاد فلكل شخصية مفتاح هوى

والدين يدخلون على الناس ليزينو لهم غير مهب الله بأنون لهم بالمفتاح الذي يفتح شخصياتهم ، فربما كان هناك إنسان لا تفرية نظرة امرأة أو ملايين الذهب ، إنما يملكه حبه لأولاده وهو الهوى العلاب .

إذن فكل واحد له مفتاح لشخصيته ، والذين يريدون إغراء الناس وغوايتهم يعرفون مفاتيح من يريدون إغراءه وإغواءه . ونحن يقول الحق أن هذه الأشياء هي المُرِيَّة للناس قد يقول قائل : إذا كان الله يريد أن يصرفنا عن هذه الأشياء فلماذا خلقها لنا ؟

وعلى هذا القول نرد : إن الحق مادام قد قال : « وَزَيْنٌ » وبناتها - كما يقول النحلة - للمجهول أى لما لم يُتَّسَمَ ماعله ، فمن الذى زين ؟ لقد كان الله قادرا أن يقول لنا من الذى زين تلك الأشياء تحديدا ، لكن الحق يريد أن يعلمنا أنه من الممكن أن يكون الشيطان هو الذى يُزِين لنا هذه الأشياء ، ومن الممكن أن يكون مطلق المنهج هو الذى يزين ، ألم يقل الحق سبحانه دعاء على لسان عباده الصالحين :

﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا مَتَابِعًا لِلْمُتَّقِينَ آمِينَ ﴾

( من الآية ٧٤ سورة الفرقان )

إذن فما المصير في تلك المسألة ؟ الفحص في هذه المسألة أن الحق سبحانه وتعالى جعل لكل نعمة من نعم الحياة عملا يعمل به الإنسان فيها ، فالمرأة إنما أُخْلِدت سكتا أى لارتياحها عندها ، ارتياحا يعطيك كل الحنان والعطف ، وهو سبحانه القاتل :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ٥١ ﴾

( سورة الروم )

إن الحق يريد لنا أن يسكن الرجل إلى حلاله ، وتصرف المرأة الحلال فهي زوجها عن أمراض الناس لكن ماذا في الرجل الذى يُحِبُّ الأبناء ؟ ألم يقل سيدنا زكريا :

﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَيْبٌ الْعَظْمِ مِنِّي وَاسْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ١٠ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَأْيِكَ وَكَانَتِ امْرَأَتِي غَافِرًا فَقَبَّلَنِي مِنْ لَدُنْكَ وَلَبَّيْ ١١ يَرْبُّنِي وَيَرْبُّتُ مِنْ عَالٍ بِعُقُوبٍ وَأَجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ١٢ ﴾

( سورة مريم )

لقد طلب زكريا عليه السلام ولدا يرثه ، والأنبياء لا تُورث منهم أموال ، إنما يُورثون العلم والحكمة . إذن فقد طلب زكريا عليه السلام أن يرث ابنه الحكمة منه ويرث من آل يعقوب وأن يجعله الله رغبيا . فلو كان الأنبياء يُورثون المال ، لكان البعض قد فهم أن طلب زكريا للإبن كى يرثه فى المال ، لكن الحق أراد لأنبيائه ألا يُورثوا المال ، بل يُورثون العلم بمهج الله . وقد طلب زكريا الابن لتثبيت منج الله فى الأرض

وكذلك الذى يريد الأموال لينفقها فى سبيل الله ، وكذلك الذى يريد الحرب ليملأ بطون خلق الله بما يطعمون منه ، كل هؤلاء يتألمهم المدح والثناء والجراة الكثير من الله . لذلك يجب أن نعلم أن الحكم يأتى من الله محتملا أن تتجه به إلى الخير المراد لله ، ومحتملا أن تتجه به إلى الشر المراد لنفسك . وأنت - أيها العبد - حين تنظر إلى أى شهوة من هذه الشهوات فلسوف تجد أنه من الممكن أن تُوجَّهها بجهة خير . بقول الحق :

﴿عَبْنَا مِنْ أَرْوَاحِنَا وَتَرَيْنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا الْقَمَاتِينَ مَلَأًا﴾

(من الآية ٧٤ من سورة الفرقان)

لقد أراد الله للأنبياء والأنبياء أن يكون لهم من الدرية أبناء ليرثوا المهج السلوكى ويكونوا مثلا طيبة للناس يقتدون بهم . إذن فالدور يجب أن تكون ذريته قدوة سلوكية . والذى يجب الخيل يمكن أن يوجه هذا الحب إلى الخير ، ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الحديث الشريف :

عن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : ( من خير معاش الناس لهم رجل محسب جنان فرسه فى سبيل الله يطير على منته كلما سمع هجعة<sup>(١)</sup> أو قرعة طار عليه يبتنى القتل والموت مظانة<sup>(٢)</sup> )<sup>(٣)</sup> .

(١) الهجعة كل ما أفرج من جنب العدو من صوت أو حجج .

(٢) مظانه بنتج الميم والطاء المعجمة وتشديد النون منصوب على الظرفية أى يطله فى المحل الذى يقطن ويحور به طلبا لمصلحة الله تعالى .

(٣) رواه مسلم من حديث أبي هريرة

وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن تُروّض الخيل ، إذن فمن الممكن أن تكون هذه الأشياء مساراً للحبر . وإياكم أن تفهموا أن الله يرهنا فيها أو يتهرب منها ، ولكنه يزهد أن نتعمل ما حلقه لى غير مراده .

ولننظر إلى تعيق الله على الأشياء المُرْتَبَة « ذلك متاع الحياة الدنّ » أى أن الذى ينظر إلى هذه الأشياء المُرْتَبَة نظرة تعلّيدية سطحية سيجدّها مجرد متاع ، وما عمر هذا المتاع ؟ إنه موقوت بالدنيا العانية . ولننظر إلى الإنسان عندما يُضْعَدُ فى عمله قيمة الخير، وتصعيد قيمة الخير . يأتى من تنمية نوعه ، أى الريادة فى نوع الخير ، ومن استدامته ، ومن أن الإنسان لا يترك هذا الخير .

إذن فتصعيد الخير يأتى من عدة صور نبدأ من تنمية الخير نفسه . واستدامة الخير فلا ينقطع ، ونهيه أن يحيا الإنسان للحبر ويعيش له ، وألا يذهب الخير عنه ، وأمر رابع هو ألا تربط هذا الخير بأخبار ، أى أن تربطه بواحد قوى يأتى لك به ، فقد يضعف ، أو يمرض ، أو يعيب ، أو يفتخر بك

إذن فلا بد من أربعة عناصر : الأول : تصعيد الخير ، أى نوع الخير الذى تصعله يكون أرقى من خير آخر ، فنعمل دائماً على زيادته وتنميته . والثانى : استدامة الخير . والثالث : أن تدوم أنت للحبر ، وتحرص على أن تعيش له ، والأمر الرابع : ألا تربط هذا الخير بالأخبار بل عليك أن تعتمد على الله ثم على نفسك .

وكل خير يأتى دون هذا فهو خير غير حقيقى . فإذا نظرت إلى شهوات النساء والمال والبنين والخيول والأعنام والحرف فإنها ستعطيك متاع الدنيا . ولنسلم جدلاً أن شيئاً لن يسلك هذه الأشياء وأنت حى ، وأنها ستظل معك طينة دنياك فما قيمة الدنيا وهى مقامة بآلاف السنين ، والإنسان لا يعيش فيها إلا هدراً محطداً من الأعوام يقرره الحق سبحانه وتعالى .

إذن فالدنيا تقاس بعمر الإنسان فيها لا بعمر ذات الدنيا لغيره ، لأن عمر الدنيا لغيرك لا يخصك . حب أن هذه الشهوات من ساء ومال ويبس وحبل وذهب وفصا

وحرث وأنعام وعده وعناد قد دامت لك ، هي الذي يحدث ؟ إن الدنيا محدودة ولا أحد يستطيع أن يستديم الدنيا ، لذلك من يستطيع أحد أن يستديم الخير لأن عمره في لذي محدود

وحياة الإنسان في الدنيا لم يصنع الله لها حداً يبلغه الإنسان إن الله لم يحدد عمراً يموت فيه الإنسان ، ولكن لكل إنسان عمر خاص محدود بحياته ، فعندما يولد أي طفل لا ترول معه بطاقة تحدد عدد السنوات التي سوف يجيها في الدنيا .

وهو سبحانه قد جعل عدد سنوات الحياة مبها لكل إنسان ، ولذلك يقال إن الإهام هو أعلى درجات لبيان ، الحق أحقى توقيت الموت ومبها عن الإنسان . متى يأن ؟ في أي زمان وفي أي مكان ؟ كل ذلك انتهاء فأصبح على المؤمن أن يكون مترقب للموت في كل لحظة .

إن الإهام للموت هو البيان الوافي ، ومدامت الدنيا مبها طالت فهي محدودة وغير مصمونة للإنسان أن يجيها ، ونعيمه فيها على قدر إمكاناته وقدرته ، وإن لم تذهب الدنيا من الإنسان فالإنسان نفسه يذهب منها . فإذا ما قارنت كل ذلك باسم الحياة التي نجها الآن ، إن اسمها « الدنيا » أي « السفلى » ومقابل « الدنيا » هو « العليا » وهي الحياة في الآخرة ولماذا هي « عليا » ؟ لأنها ستصعد الخير .

بعد انقضاء هذه الحياة المحدودة ، يذهب المؤمن إلى الجنة وبها حياة غير محدودة ، وهذا أول تصعيد . ويضمن المؤمن أن أكلها دائم لا ينقطع . ويضمن المؤمن أنه حالد في الجنة فلا يموت فيها . ويضمن المؤمن قيمة هذه الجنة ، لأن الخير إنما يأن على مقدار معرفة الفاعل للخير . ومعرفة الإنسان للخير جرئية محدودة ، ومعرفة الله للخير كمال مطلق

فالمؤمن في الآخرة يتعم في الخير على مقدار ما علم الله من الخير . إذن فحياتنا هي الدنيا ، أي السفلى ، وهناك الآخرة العليا . فإذا طلب المتبع منا ألا ننخدع بالدنيا ، وألا نعد إلى المتاع فهل هذا لون من تشجيع الحب للنفس أو تشجيع للكراهية للنفس ؟

إنه منهج سهاوي يقود إلى حب النفس ، لأنه يريد أن يصعد الخير لكل مؤمن ،  
لقد بين المنهج أن في الدنيا ألوانا من المتع هي كذا وكذا وكذا ، والدنيا محدودة  
ولا تدوم للإنسان ، ولا يدوم إنسان لها ، وإمكانات الإنسان في العيم الديوي  
محدودة على قدر الإنسان ، أما إمكانات العيم في الآخرة فهي على قدر قدرة الخلاق  
المربي ، فمن انطلق جدا أن يقول الله لا - « ذلك متاع الحياة الدني والله عنده  
حسن المآب » وحسن المآب تعني حسن المرجع

والحق حينما طلب منكم أيها المؤمن أن تعض بصرك عما لا يحل لك ، فقد يظن  
الإنسان السطحي أن في ذلك حرجا على حريته العين ، ولكن هذا الغصن للبصر أمر  
به - سبحانه - إنما ليملأ العين في الآخرة بما أحل الله ، إذن فهذا حب من الله  
للمحلول وهذا تصعيد في الخير

ولنحرص أن معث مبلعا قليلا من المال وقبيل فقيرا مسكيا فآثرت أنت هذا  
الفقر على نفسك ، فأنت تفعل ذلك لشأن في الآخرة نوابا مصاعفا . إذن مقضية  
الدين هي أنانية عالية سامية ، لا أنانية حمقاء ويوضح الله بعد ذلك حسن المآب  
بقوله سبحانه

﴿ قُلْ أَؤْيِبُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِمَنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا عَذْرُوتُهُمْ  
جَبَّتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ حَالِدِينَ فِيهَا  
وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ  
بَصِيرٌ ۝ بِالْعِبَادِ ۝﴾

وحين نسمع كلمة « أؤيبركم » فلما سمعنا بعد ذلك كلام عادي ، أما عندما  
نسمع « أؤيبركم » فلما سمعنا بعدها هو حرج هائل لا يقال إلا في الأحداث العظام ،



فلا يقول أحد لأخر : سأنتك بأنت ستاكل كذا وكذا في العدا ، ولكن يقال : أما أنتك بأنت بليت جائرة كبرى ، ، هذا في المستوى الشرى مما نالنا بالله الخالق الأعز ، ولذلك يقول الله الحق

﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ﴾ ⑤ عَنِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ ﴿١﴾

(هـ) مؤلف كتاب

إِنَّهُ الْأَمْرُ الَّذِي يَقْلِبُ كَيَانَ هَذِهِ الدُّنْيَا كُلَّهَا ، فَحِينَ يَقُولُ الْحَقُّ : « فَرَأَيْتُمْ كَيْفَ يَحْجَرُ عَنْ ذَلِكَ » فَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ يَحْجَرُ بِهَا سَخِيرَ مِنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ ، وَمِنْ ذَلِكَ نَعْرِفُ أَنَّ اللَّهَ قَدْ جَعَلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءَ مَقْيَاسًا ، لِمَاذَا ؟

لأنه مقياس محس ، وأوضح لنا كيمياء التصعيد فقال : « ليسين اتقوا عد  
رهم » ، والمؤمن هو من يتخطى شقة إلى كلمة « عد رهم » أى الرب المتولى التربية  
واندى يتعهد للمؤمن حتى يبلغه درجة الكمال المطلوب منه

والعسلية مما هي عند الرب الأعلى فهاذا أعد المربي الأعلى للمصير ؟ لقد أعد لهم « جنات تجري من تحتها الأنهار » ولهم الخيرية في هذه الجنات ، وهي تقابل في الدنيا الحرث والزرع ، وقد قلنا إن الحق حين تكلم عن الزرع تكلم وأصبع له بـ « الحرث » ليعرف أن الزرع يتطلب من حركة وعملاً

أما في الآخرة فاحتمت جاهرة لا تستلج من المؤمنين حركة أو تبعاً ، ولا يقف الأمر عند ذلك . بل إن هذه الحسنة تخرج من تحتها الأهدر وفيها للإنسان المؤمن ما وعد الله به : « خالدين فيها وأرواح مطهرة » إنه الجنود الذي لا يقى ، ولا يترك الإنسان ولا يترك هو الإنسان .

والأرواح مطهرة هي وعد من الله للمؤمنين ، ومن يحب النساء في الدنيا يعرف أن المرأة في الدنيا بظراً عنها أشياء قد تنظر ، إما حلقاً تكوينياً ، وإما حُماً ، فهناك وقت لا يحب الرجل أن يعرف فيه المرأة ، وقد يكون فيها حصة من الخصال السيئة ففكره الإنسان حماها

لذلك فالرجل قد يتخذ بالمظهر الخارجى للمرأة فى الدنيا ، وقد يقع الإنسان فى هوى واحدة فيجد فيها تحصلة تجعله يكرهها ، أما فى الآخرة فالأمر مختلف ، إنها « أزواج مطهرة » أى مطهرة من كل عيب يعيب ساء الدنيا ، فيأخذ المؤمن جمالها ، ولا يوجد فيها شرور الدنيا ، فقد طهرها الله منها .

« وأزواج مطهرة » من الذى طهرها ؟ إنه هو الله - سبحانه - طهرها خلقاً وخلقاً . فالرجل فى الدنيا قد يهوى امرأة ، وتستمر مضاربه حصة عشر عاماً تستمليه وتجذبه ، ثم تبدأ التجاعيد والترهل والناظر أما فى الآخرة فالمرأة مطهرة من كل شيء ، وتظل على نضارتها وجمالها إلى الأبد ، أليس هذا تصعيد للخير ؟ ونلاحظ أن الحق سبحانه ذكرها امرين .

الأمر الأول . هو جمات تجري من تحتها الأنهار ، ونقارن بينها وبين الحرث فى الدنيا .

والأمر الآخر : هو الأزواج المطهرة ، ونقارن بينها وبين النساء فى الدنيا أيضاً ، ولم يورد الحق أى شيء من بقية الأشياء ، فأين القناطير المقطرة من الذهب ؟ وأين الخيل ؟ وأين الأنعام وأين البنون ؟

إننا نلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل الأمرين المزيين ، واحداً يستهل به الآية ، والأمر الآخر يأتى فى آخر الآية ، ولتقرأ الآية التى فيها التزين : « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث »

إن البداية هى النساء ، ذلك هو القوس الأول ، والنهاية هى الحرث وذلك هو القوس الثانى ، وبين القوسين بقية الأشياء المزيينة ، وقد أعطانا الله عوض القوسين ، وأوضح لنا أنهما الخير المصعد ، ولم يورد بقية الأشياء المزيينة ، وهذا يعنى أن نفهم ذلك فى ضوء أن الرزق ما به انتفع ، أى أن كل ما يتبع به الإنسان رزق ، الخلق الطيب رزق ، سماع العلم رزق ، أدب الإنسان رزق ، حلم الإنسان رزق ، صدق الإنسان رزق ، لكن الرزق يأتى مرة مباشرة بحيث تنتفع به مباشرة ، ومرة أخرى يأتى الرزق لكنه لا ينتفع مباشرة ، بل قد يكون سبباً ووسيلة لما ينتفع مباشرة .

مثال ذلك الخير ، إنه رزق مباشر ، والنقود هي رزق ، لكنها رزق غير مباشر ؛ لأن الإنسان قد يكون حائلاً وعنده جبل من ذهب ، فهو قال واحد لهذا الإنسان : خذ ربيعاً مقابل جبل الذهب سيعطى الإنسان الجائع حل الذهب مقابل الرغيف ؛ لأن الإنسان لا يأكل الذهب ، وكذلك كوب الماء بالنسبة للمعطشان

إذن فهناك رزق لا يطلب لذاته ، ولكن يطلبه الإنسان لأنه وسيلة لغيره ، فالوسيلة لغيره أنت لن تحتاج إليها في الآخرة ؛ لأنك ستعيش بدل الأسباب يقول الحق : « كن » ، فالإنسان لن يحتاج في الجنة إلى مال أو قناطر مطهرة من الذهب والفضة ؛ لأن كل ما تشتهي النفس ستجده ، ومن تحتاج في الآخرة إلى حبل مسومة ؛ لأنك لن تجاهد عليها أو تلذذ وتستأنس بركوبها .

وكل ما لا تحتاج إليه في الآخرة من أشياء أعطاه لك الله في الدنيا لتسعى بها في الأسباب ، ولم يورده الله في قوله : « قل أؤتاكم بحير من ذلكم للذين اتقوا عند ربهم جهات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأرواح مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد » لم يورده في النص الكريم ، لأن عطاء الله في الآخرة بالرزق المباشر ، أما الأشياء التي يسعى بها الإنسان إلى الرزق المباشر في الدنيا فلم يوردها لعدم الحاجة إليها في الآخرة ، فنحن نحب المال ، لماذا ؟ لأنه يحقق لنا شراء الأشياء ، والحبل المسومة نجعلها ؛ لأنها تحقق لنا القدرة على القتال والجهاد في سبيل الله . والأنعام ؛ لتحقيق لنا المتعة .

أما الجنة في الآخرة فالمؤمن يجد فيها كل ما تشتهي النفس ، وكل ما يخطر ببال من يورده الله الجنة سوف يجده ؛ فالوَسَانِطُ لا لروم لها . لذلك تكلم الحق عن الأشياء المباشرة ، فأورد لنا ذكر الجنة التي تجري من تحتها الأنهار ، وذكر لنا الأرواح المطهرة .

وعندما تتأمل قول الحق : « قل أؤتاكم بحير من ذلكم » قد يقول قائل : ألم يكن من المطلق أن يجبرنا الحق مباشرة بما يريد أن يخبرنا به ، بدلاً من أن يسألنا : أيجبرنا بهذا الخير ، أم لا ؟

ونقول : أنت لم تنتعت إلى التشويش بالأسلوب الحميل ، وحمد الله على خلقه إنه سبحانه وتعالى يقول لنا ألا تريدون أن أقول لكم على أشياء تعصل تلك الأشياء التي تسيركم في الدنيا فكأن الحق سبحانه وتعالى قد به من لم يسه . ولم ينتظر الحق أن نقول له قل لنا يارب .

لا ، إنه قول لنا دور طلب ما ، ويقال عن هذا الأسلوب في اللغة إنه « استعهم للتفكير » ، « الإنسان حين يسمع « أؤسكم بخبر من ذلكم » فاندفع يتشغل ، فإن لم يسمع البيا ، فسوف يضل الدهر مشغولاً بالثبا ، ويأتى الجواب على الشياق هتمكن من نفس المؤمن

ويأتى انبأ « للذين اتقوا » ، قصده عن النظر في لشهوات التي تقدمت من ساء ومن فساد طير مقطرة من ذهب وقصه وخيل مسومة وأبعم وتحث ، ألا يكون من الماسب فيها أن يعنى الإنسان ربه في محالها ؟

إن التقوى لله في هذه الأشياء واجبه ، ولذلت قلبك من قبل قصه بزمها على الذين يريدون أن يجعلوا الحياة رهذاً واستحاراً عن الحركة ، وأن يوهوا الحياة على العبادة في أمور الصلاة والصوم ، وأن تركه كل شيء . هؤلاء يقول : لا ؛ إن حركتك في الحياة تعيبك على التقوى ؛ لآنا عرفنا أن معنى التقوى هو أن يجعل الإنسان بينه وبين الدر حجباً ، أو أن تجعل بينك وبين غضب ربك وقاية فإذا ما أخذت نعم الله لتصرفها في صوره مبيع الله فهذا هو حسن استخدام المم .

وقد أوصحت من قبل أن التقوى حين تأتي مرة في قول الحق . « اتقوا الله » وتأتي مرة أخرى « اتقوا النار » فهما ملتقيان ؛ فاتقاء النار حتى لا يصاب الإنسان بأذى ، وعندما يعنى الإنسان الله فهو يعنى غضب الله ؛ لأن غضب الله يورد العذاب ، ولعذاب من جنود النار . إذن هالذين يتقون الله لا يظنون أنهم زهدوا في هذه الحياة لذات الزهد فيها ، ولكن للطمع فيها هر أعل منها ، إنه الطمع في السيم الأخرى الدائم .

ويوضح الحق سبحانه وتعالى بعد ذلك أنكم لن تتمتعوا في الآخرة لضرورة

الحاجة للمتعة ، بحيث إذا ما جلت النعمة عليكم تفرحون بها ، إن الأمر لا يقتصر على ذلك وإن يتعداه إلى أنكم - أي المؤمنون - تحبون فقط أن تروا المنعم ، ههنا المؤمن الذي يدخل الجنة يجد كل ما يشتهي بل إنه لا يشتهي شيئاً حتى يأتيه ، ويستمتع على قدر عطاء الله وقدراته

وإذا لم يشته الإنسان شيئاً في الجنة أو نساء ، ويصبح مشغولاً برؤية ربه من مكانه جنة من الجنان اسمها « عتقون » ودعيتون ، هذه ليس فيها شيء مما نسمعه عن الجنة ، ليس فيها إلا أن تلقى الله . إن الرزق وانعم ليس من أجل قوام الحياة في الجنة ، بل إن الإنسان سيكون له الخلود فيها ؛ فالذي يحتاج إليه الإنسان هو رصوان من الله

إن رصواناً من الله أكبر من كل شيء . ولقد نبأنا الله بما في الجنان ، وسأد بالخبر من كل ذلك . لقد نبأنا الله بأن رصوانه الأكبر هو أن يضمن المؤمن أن يظفر برؤية ربه . وهذا ما يقول فيه الله .

﴿ وَجُورَ يَوْمٍئِذٍ تُنْفِرُ ﴿١٢﴾ إِنَّكَ رَبُّهَا نَاطِرٌ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة النجم)

إذن فهناك في الجنة مراتب ارتقائية . ونخبرنا الحق من بعد ذلك : « والله بصير بالعباد » أي أن الله سيعطي كل إنسان على قدر موقفه من مبع ربه ، فمن أطاع الله رغبة في النعيم بالجنة يأخذ جنة الله ، ومن أطاع الله لأن ذات الله أهل لأن تطاع فإن الله يعطيه شئمة ولذة النظر إليه - سبحانه - تقول رابعة المدونة في هذا المعنى : كلهم يعبدون من خوف سر

ويرود النجاة حظ جزيلاً  
لئن لست مثلهم ولهذا

لست أبعي من أحب بديلاً  
وقات أيضاً : اللهم إن كنت تعلم أني أعبدك خوفاً من نارك فادخليني فيها ، وإن كنت تعلم أني أعبدك طمعاً في جنتك فاحرمي منها ، إنما أعبدك لأني أريد أن أتعبد .

إذن « والله بصير بالعباد » أي أنه سيعطي كل عبد من قدر حركته وبيته في الحركة ، فالذي أحب ما عند الله من النعمة فليأخذ النعمة ويعيضاها الله عليه . أما الذي أحب الله وإن سلب منه انعمة ، فإن الله يعطيه العطاء الأوفى ، وذلك هو مجال مياهاة الله للملائكة . ومن أقوى دلائل الإيمان وكماله .. ليشارة بحجة الله ورسوله على كل شيء في الوجود :

عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاث من كن فيه وجد بين حلاوة الإيمان من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار » (١) . إن هناك العبد الذي يحب الله لذاته ، لأن ذاته سبحانه تستحق أن تعبد ، فذات الله تستحق العبادة ، لأنه الوهاب ، الذي نظم لنا هذا الكون الجميل .

إذن بقوله الحق : « والله بصير بالعباد » يعي أن الله يعلم مقدار ما يستحق كل عبد لربه ، وعلى مقدار حركته وبيته في ربه يكون الجراء ، فمن عبد الله للنعمة أعطاه الله النعمة المرجوة في الجنة ليلحدها ، ومن أطاع الله لأنه أهدى لأن يطاع وإن أخذت - بضم الالف وكسر الخاء - النعمة منه فإن الله يعطيه مكاناً في عليين .

ولذلك قيل : إن أشد الناس بلاء هم الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل ماذا ؟ لأن ذلك دليل صديق المحبة . والإنسان عادة يحب من يحسن إليه ، ولا يحب من تأن منه الإساءة إلا إن كانت له منزلة عالية كبيرة . إنه مطمئن إلى حكمته ، إنه ابتلاه - وهو يعلم صبره - ليعطيه ثواب جزيل وأجر كبيراً ، والحق يقول :

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ ۚ فَنَ كَانَ يَرْحُومًا لِّقَّةٍ رَبِّهِ فَلْيُحْمَلْ عَمَلًا صَوِيحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ۝١١﴾

(سورة الكهف)

لقد قال : « فمن كان يرجو لقاء ربه » ولم يقل حجة ربه وهكذا يجب ألا تشغلنا النعمة - الجنة - عن المنعم وهو الله سبحانه وتعالى ، وإذا كان الحق قد طلب منا ألا نشرك بعبادته ربه أحداً فلنعظم أن الجنة أخذ .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّا أَتَيْنَاكَ بِغَيْرِ عِلْمٍ  
وَنُؤْيِّنَا وَفِينَا عَذَابُ النَّارِ ﴾ (١٦)

إن قولهم . « ربنا إننا آتينا » هو أول مرتبة للدخول على باب الله ، فكان الإيمان بالله يتطلب رعاية من الذي تلقى التكليف لحركة معه ، لأن الإيمان له حق يقتضي ذلك ، كأن المؤمن يقول : أنا ببشرى لا أستطيع أن أوفى بحق الإيمان بك ، فيارب اغفر لي ما حدث لي فيه من غفلة ، أو من ردة ، أو من كبر ، أو من نزوة نفس .

وهذا الدعاء دليل على أنه عرف مطلوب الإيمان كما أوضحه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيانه لمعنى الإحسان حين قال :

« الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١) .

كأنك تستحضر الله في كل عمل ، لأنه يراك .  
وهل يتأتى لواحد من البشر أن يجترأ على محارم من يراه بعينه ؟ حيث يستحضر المؤمن ما جاء إلينا من مآثور القول ، فكانه سبحانه وتعالى يوجه إلينا الحديث يا عبادي إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم ، فاخللوا إيمانكم وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فلم جعلتموني أهون الناظرين إليكم ؟

وكان الحق سبحانه يقول للعبد . هل أنا أقل من عبيدي ؟ أتقدر أن تنسى إلى أحد وهو يراك ؟ إذن فكيف تجرؤ على الإساءة لخالقك ؟

إن قول المؤمنين : « إنا آتينا بغفلة » دليل على أنهم علموا أن الإيمان مطلوباته صعبة « الذين يقولون ربنا إنا آتينا بغفلة »

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي

فلتر على ماذا رغبوا غفران الذنب ؟ لقد رغبوا طلب غفران الذنب على الإيمان .  
لماذا ؟ لأنه مادام الحق سبحانه وتعالى قد شرع التوبة ، وشرع المغفرة للذنب ، فهذا  
معناه أنه سبحانه قد علم ألا أن عباده قد تحوّلوا نفوسهم ، فيتحرفون عن منهج  
الله .

ويختم الحق سبحانه الآية بقوله على السنة المؤمنين : « وقتنا عذاب النار » لأنه  
ساعة أن أعلم أن الحق سبحانه وتعالى ضمن لي بواسع مغفرته أن يستر على الذنب ،  
فإن العبد قد ينجل من ارتكاب الذنب ، أو يسرع بالاستغفار .

ولماذا لا يكون قوله : « فاغفر لنا ذنوبنا » بمعنى استرها يارب عنا فلا تأكل لنا  
أبدا ؟ وإن جاءت فهي على الاستغفار والتوبة . فإذا آفقت قنبا ، واستغفرت ربى ،  
وعلمت أن ربى قد أذن بالمغفرة ، لأنه قال :

﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانُمْ ضَالُّينَ ﴾

( من الآية ١٠ من سورة توبه )

فإن الرجل يمتنع ، والخوف يلعب على ، وأقبل على الله بحجة على تكليفه وأهل  
نفس على تطبيق منهج الله كله . ولذلك حينما شرع الحق سبحانه وتعالى للمخلوق  
التوبة كان ذلك رحمة أخرى . وهذه الرحمة الأخرى تتجلى في المقابل والنفيض .

هب أن الله لم يشرع التوبة وأذن واحد ذنبا ، ويجرد أن أذن ذنبا خرج من  
رحمة الله ، فإذا أصيب المجتمع منه ؟ إن كل الشرور تصيب المجتمع من هذا  
الإنسان لأنه فقد الأمل في نفسه ، أما حينما يفتح الله له باب التوبة فإن ارتكب العبد  
ذنبا ساهيا عن دونه ، فإنه يرجع إلى ربه .

وتلك واقعة الدين الإسلامي ، وليس الدين مجرد كلام يقال ، ولكنه دين يقدر  
الواقع البشرى ، فإنه - سبحانه - يعلم أن العباد سيتركبون الذنوب ، فيرسم لهم  
أيضا طريق الاستغفار . وإذا ما ارتكب العباد ذنوبا ، فإن الحق يطلب منهم أن  
يعتوبوا عنها . وأن يستغفروا الله . فإذا ما لدعتهم التوبة حينما يتذكرون الذنب فإن  
هذه اللذة كلها لذتهم أعطاهم الله حسنة .



كأن غفران الذب شيء ، والوقاية من النار شيء آخر كيف ؟ لأنه ساعة أن يعلم العبد أن الحق سبحانه وتعالى صمد للعبد معفرته ، وهو الخالق المربي ، فإن العبد يذهب إلى الله مستغفرا طالما في العفوة والرحمة إنها دعوة المؤمنين إن كانوا قد نسوا أن يستغفروا لأنفسهم ماذا ؟ لأن الاستمرار من الذب تكليف من الله . وكما قلنا إن الإنسان قد يسي بعضا من التكليف ، لذلك فمن الممكن أن يسهو عن الاستغفار ، ولذا يقول الحق على ألسنة عباده المؤمنين «وقما عذاب النار»

ومعنى التقوى أن تجعل بينك وبين النار وقاية ، أو تجعل بينك وبين غضب ربك وقاية ، فإذا ما أجدت النعم من الله لتصرفها في منبج الله تكون حسنة لك ، وقلنا : «إن اتقوا الله» و«اتقوا النار» ملئقيتان ، لأن معنى «اتقوا النار» كي لا تصيكم بأذى ، «واتقوا الله» نعمي أن تضع بسا وبين غضب الله وقاية ، لأن غضب الله سيأتي .

وبعد ذلك يقول الحق :

## الْمُحْسِنِينَ وَالْمُتَّقِينَ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ

وهذه كلها صفات للذين اتقوا الله ، وأعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، والأزواج المطهرة ، ورضوان من الله أكبر ، وهم صابرون وصادقون وقائمون ومنعمون في سبيل الله ، ومستغفرون بالأسحار .

وصابرون على ماذا ؟ إنهم صابرون على تعيد تكاليف الله ، لأسأ أول ما سمع من التكليف فليعلم أن فيه كلمة ومشقة ، والتكاليف الشرعية فيها مشقة لأنها قيدت حرية العبد .

لقد خلقك الحق خلقا صالحا لأن تعمل كذا وألا تعمل كذا ساعة يقول لك

افعل فإنه قد سد عليك باب « لا تفعل » وساعة يقول لك الحق ، لا تفعل فإنه يكون قد سد عليك باب « فعل » ، وهكذا يكون تنفيذ حركتك وتنفيذ المحلوق على هيئة الاختيار فيه مشقة ، فإذا ما جاء أمر الله بـ « افعل » فقد يكون الفعل في دته شاقا ، فإن صبرت على مشقة الفعل الذي جاء بوساطته « افعل » فأنت صابر ، لأن صبرت على الطاعة . وقد تنصرت عن المعصية ، عندما يلح عليك شيء فيه غصب الله فترفض أن ترتكب الذنب ، فتكون قد صبرت عن ارتكاب الذنب .

إذن فـ « افعل » صبر على مشقتها ، وفي « لا تفعل » صبر عنها ، فالصابرون لهم اتجاهان اثنان ، لأن التكليف إما أن يكون بافعل ، وإما أن يكون بلا تفعل . ساعة يأتي التكليف بافعل فقد تأتى المشقة . وعندما تعد التكليف بافعل فأنت قد صبرت على المشقة . وعندما يأتي التكليف بـ « لا تفعل » كأمر الحق بعدم شرب الخمر ، أو « لا تفرق » فأنت قد صبرت عنها . إذن بـ « افعل » ولا « تفعل » قد استوعبت نوعي التكليف ، وبقيت بعد ذلك أحداث لا تدخل في نطاق « افعل ولا تفعل » ، وهي ما يرسل عنك نزولا قدرها بلون اختيارك بل هي الفهرية والقسرية

ساعة أن يطلب الله منك أن تفعل ، أى إنه قد خلقك صالحا ألا تفعل كما فلنا من قبل إلا إن كنت مجبرا على الفعل فقط . وكذلك إذا قال لك الحق . « لا تفعل » والشئ القدرى الذى لا صلاحية فيه للاختبار ماذا يفعل فيه المؤمن ؟ إنه يصبر على الآلام والمصائب لأنه آمن بالله رجا ، ولرب هو الذى يتولى تربية المرء لبلوغه حد الكمال المشود له فإذا جاء لك الحق بأمر لا خيار لك فيه ، كالمرص أو الكوارث الطارئة ، كوقوع حجر من أعلى أو إصابة برصاصة طائشة ، فكل ذلك هي أمور لا دخل لـ « افعل » ولا « تفعل » فيها .

وهنا يكون الصبر على مثل هذه الأمور هو إيمان بحكمة من أجراها عليك . لأن الذى أجراها رب ، وهو الذى خلقنى فأنا صنيته . وما رأيت أحدا يفسد صنيته أبدا . فهذا ما جاء أمر على الإنسان بدون اختيار منه ، فالذى أجراه له فيه حكمة ، فإن صبر الإنسان على هذه الآلام فإنه يدخل في باب الصابرين

إذن ، فالصابرون أنواع هم . صابر على الطاعة ومشاقها ، صابر عن المعاصي



ومعرباتها ، وصابر على الأحداث العنصرية التي نرى عليه بدون اختيار منه . وإذا رأيت إنساناً قد صبر على أمر الطاعة وصبر عن شهوة المعصية وصبر على الأقدار البازلة به ، فاعرف حبه لربه ورضاه عنه .

ونأتي بعد ذلك لوصف آخر يقول الله فيه « الصابرين » « والصادقين » .

والصدق كما يعلم يقابله الكذب ، والصدق كما يعرف حقيقته ، يأتي حين توافق السبب الكلامية لقي يتكلم بها الإنسان ، النسبة لأخرى الخارجيه الواقعة في الكون .

فإن قلت « حصل كذا وكذا » فتلك نسبة كلامية صدرت من متكلم ، فإن وافقها الواقع بأنه حصل كذا وكذا فعلا يكون المتكلم صادقا ، وإن لم يكن الواقع موافقا لحدوث ما أخبر به يكون المتكلم كاذبا . لماذا ؟ لأن كلام المتكلم العاقل لابد له من نسب ثلاث

الأولى وهي النسبة الذهنية : فقل أن أنكلم أعرض الأمر على ذهني ، وذهني هو الذي يعطى الإشارة لسان ليكنم ، هذه هي النسبة الأولى واسمها « نسبة الدهن » . وقد يس لي أن تأتي النسبة الذهنية ثم أعديل عنها فلا أنكلم ، فتكون النسبة الذهنية قد وُجِدت ، والنسبة الكلامية لم توجد

وقد أصر على أن أبرر إشارة ذهني على لسان فأقول النسبة الكلامية . ونأتي بعد النسبة الكلامية لنرى : هل الواقع أن ما حدث ونحدثت به وقع أم لم يقع ؟ فإن كان قد وقع ، يكون الكلام من صدقا . وإذا لم يكن قد وقع ، وكانت النسبة الخارجيه عن عكس ما أخبرت به . فإننا نقول . « هذا كلام كذب » إذن : فالصدق . هو أن تطابق النسبة الكلامية الواقع . والكذب : هو ألا تطابق النسبة الكلامية الواقع . وكثيرا ما يخطئ الناس في فهم الواقع فيجدون تناقضا في بعض الأساليب .

مثال ذلك ، حينما تعرض بعض المستشرقين لقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ إِنَّا جَاءَكَ الْمُسْمِقُونَ قَالُوا نَسْهَدُ بِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﴾

تلك نسبة كلامية صدرت منهم ، فهل هي مطابقة للواقع أم هي مخالفة له ؟

إنها معاصرة للواقع . ويؤكد الحق ذلك بقوله :

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾

( من الآية الأولى من سورة المائدة )

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُ لَكَاذِبُونَ﴾

( من الآية الأولى من سورة المائدة )

هيم كذب المنفقون ؟ هل كذبوا في قولهم : « إنك لرسول الله » ؟ لا . إن الحق لم يكذبهم في قولهم : « إنك لرسول الله » ، لأن الله قد أيد هذه الحقيقة بقوله : « والله يعلم إنك لرسوله » .

ولكن كذبهم الله فيما سها عنه المستشرق السائد عندما قالوا : « شهد إنك لرسول الله » . لقد كذبهم الله في شهادتهم ، لا في المنهج به ، وهو أن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول من الله . إن الله يعلم أن محمدا رسوله للبعث منه رحمة للعالمين ، لكن الكذب كان في شهادتهم هم

إن كلام المنافقين مرعوب من الله . لماذا ؟ لأن الشهادة تعني أن يواطع اللسان القلب ويوافق . وقولهم شهادة لا توافق قلوبهم وتعني كذبهم

إذن ، فالكذب هو لشهادتهم ، فلو قالوا : « إنك لرسول الله » دون « شهد » لكان قولهم قضية سليمة . ولذلك كان تكذيب الله لشهادتهم ، ومن هنا نترك السر في قول الله : « والله يعلم إنك لرسوله » . إن الحق يؤكد الأمر المشهود به وهو بحث محمد رسولا من عند الحق ، وبعد ذلك يأتي لنا الحق بشهادته إن المنافقين كاذبون في قولهم : « شهد » . فالصدق أن تطابق النسبة الكلامية الواقع . والصدق . كما قلنا من قبل - حق ، والحق لا يتعدد ، وضربت من قبل المثل بأن الإنسان الذي نطلب منه

أن يروى واقعة شهدها بعينه ، وأن يحكيها بصدق لن يتغير كلامه أبداً ،  
 مهها تكرر القول ؛ أو عدد مرات الشهادة لكن إن كانت الواقعة كذبا ، فالراوي  
 تخبط عليه أكاذيبه ، فيروى الواقعة بألوان متعددة لا اتساق فيها ، وقد يشي الراوى  
 الكاذب ماذا قال في المرة الأولى ، وهكذا يكشف سر الكذب . لكن الراوى عن  
 واقع مشهود ويصدق ، هو الذى يحكى ، وهو الذى لا تختلف رواياته في كل مرة عن  
 سابقتها بل تتطابق

فعندما نقول « إن ربنا مجتهد » ، فهذا يعنى أن اجتهدا ريد قد حدث أولا ،  
 ثم يأتى في ذهن من رأى اجتهدا ريد أن يغير مآثر اجتهدا ، ثم يغير بالكلام عن  
 اجتهدا زيد . إن الأمر الخارج وهو اجتهدا ريد قد حدث أولا ، وبعد ذلك تأتى  
 النسبة الذهبية ، وبعد ذلك تأتى النسبة الكلامية

ولكن الإنشاء وهو ضد الخبر ، هو أن يطلب من واحد أن يشي أمرا لا واقع  
 له ، كأن نقول لواحد : اجتهد . إننا هل أن نقول لإنسان ما : « اجتهد » فمعنى  
 ذلك أن الاجتهاد كان أمرا في ذهن القائل ، وعندما ينطقها تصحح « نسبة كلامية »  
 وبعد ذلك يحدث الواقع ، بعد النسبة الذهبية ، والنسبة الكلامية ، وهذا هو  
 الإنشاء

إن الإنشاء الطلبى يعنى أن تحدث لنسبة الخارجية بعد النسبة الكلامية  
 والصادقون هم الذين أراد الله أن يمدحهم ، لماذا ؟ وأين هو مجال صدقهم ؟ إنهم  
 الدين تتطابق حركتهم مع منهج الله ، لأنهم حين قالوا « لا إله إلا الله » ، وأمنوا  
 به ، فهم قد التزموا بكل مطلوبات الإيمان قدر الطاقة . ومعنى « لا إله إلا الله » أى  
 لا معبود إلا الله . ومعنى لا معبود إلا الله أى أنه لا طاعة إلا لله .

والطاعة - كما نعرف - هى امتثال أمر ، وامتثال نهى إذن فمجال « لا إله  
 إلا الله » يشمل أنه لا معبود بحق إلا الله ، ولا مطاع في تكليفه إلا الله ، ولا امتثال  
 لأمر أو نهى إلا للأمر القادم من الله ، فإن امتثال إنسان الأمر من الله بعد قوله :  
 « لا إله إلا الله » كان هل الإنسان صادقا في قوله . « لا إله إلا الله »

وهذا هو صدق القمة ، أن تكون كل تصرفات قائل : « لا إله إلا الله » متطابقة

مع هذا القول والمؤمن الحق هو من يبى كل تصرفاته مرافقة لمهج الله هذا هو الإنسان الصادق أما الذي يقول بلسانه : « لا إله إلا الله ، لا معبود بحق إلا الله » ثم يحالف ربه بعصيانه له ، لنا أن نقول له : أنت كاذب في قولك « لا إله إلا الله » لماذا ؟ لأنه لم يطابق لنفسه التي قاها . إن هذا الإنسان إذا آمن بأى تكليف ثم فعل ما ينافيه قلما له . أنت صادق لماذا ؟ لأننا عندما تكلمنا في أول سورة البقرة عن المنافقين قل : إن المؤمن حين يؤمن بالله يكون صادقا مع نفسه ، لأنه قال : « لا إله إلا الله » وهو مؤمن بها ، والكافر حين ينكر الألوهية يكون صادقا مع نفسه أيضا

أما المنافق فهو لا يصدق مع نفسه ، ولا يصدق مع الناس ، إنه ملذذب بين هؤلاء وهؤلاء . إن المنافق بلا صدق مع النفس ، ولذلك يصعبهم الحق .

﴿مُذَبِّبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾

( من الآية ١٤٢ من سورة النساء )

إن الكافر له صدق مع النفس فهو لا يقول « لا إله إلا الله » لأنه لا يعتقد بها . المنافق فقد قال : « لا إله إلا الله » وهي غير مطابقة لسلوكه ، لذلك يكون غير صادق مع نفسه ، وغير صادق مع ربه . إذن ، فقول الحق « الصادقين » مقصود به هؤلاء الناس الذين يأنون في كل حركاتهم صادقين عن منهج الله ، فلا يؤمنون بقضية ، ويفعلون أخرى . ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى .

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ صَكَبَ مَقْعًا عَدَّ اللَّهُ أَنْ

تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٦﴾﴾

( سورة الصف )

أى أنه حين يكون القول شيئا مختلفا عن الفعل ، لا تتطابق النسبة . فالصادقون هم الذين يصدقون في سلوكهم مع كلمة التوحيد في كل ما تتطلبه هذه الكلمة من هذه السلة : « لا إله إلا الله لا معبود بحق إلا الله » أى لا مطاع في أمر لو نهى إلا الله ، فإن جئت ومطاعت أحدا في غير ما شرع الله بحق للمؤمنين أن يقولوا بك : أنت كاذب في قولك : « لا إله إلا الله » .

« فَمَنْ أَمِ هَرِيرَةً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : لَا يَزِيءُ الزَّالِقُ حِينَ يَرَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ ، وَلَا يَسْرِقُ السَّارِقُ حِينَ يَسْرِقُ وَهُوَ مُؤْمِنٌ وَلَا يَشْرَبُ الْخَمْرَ حِينَ يَشْرِبُهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ » (١) .

هذا هو سمو الإيمان عند المؤمن ، إن المؤمن لا يمكن أن يكذب أو يخالف مقتضيات عقيدته ، لأن المؤمن في كل تصرفاته خاضع لإيمانه بأنه لا إله إلا الله .

ثم يقول الحق : « وَالْقَاتِنِ » والقاتن : هو العابد بخشوع وباطمئنان وباستدانة . والقاتن صادق مع نفسه ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى حين يكلف عباده تكليف ، فقد يكلفهم بشيء يعر على أفهامهم أن تترك حكمته .

وأقبل القاتنون من العباد على هذا التكليف ، لأن الذي أمرهم به إله قادر ، فهم يتقون في حكمته فأتوا الأمر الصادر إليهم لأنهم خاضعون لحكمة الله .

إنهم متعلون للأمر اتقوا من الأمر لا لعبة الأمر . ويعد أن يصنعوا ذلك ؛ يريهم الله بورايه هذا الحكم بأن يعطيهم فرغانا في أنفسهم .

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَرُوا أَنْ تَقُوا اللَّهَ لِيَجْعَلَ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ٥٥ ﴾

( سورة الانفال )

فيقول المؤمن منهم لنفسه بعد أن يرى هذا الفرقان : إن الله قد أراد في هذا الأمر أن أدرك حلاوة طاعة هذا الأمر ، ولذلك قال أحد العارفين بالله :

إن كنت تريد أن تعلم عن الله حكما كلفك الله به دون أن تعلم علته فاتق الله فيه ، وحين تنفي الله في هذا الأمر ، فإنك تجد الحكمة مستتيرة في دهتك ، ولذلك يقول الله :

( ١ ) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد .

## ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعِيبِكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

( من الآية ٢٨٢ من سورة البقرة )

وكأنك قل التقوى لم يعلمك الله ، أما بعد التقوى فإن الله يعلمك ، فنقبل على تنفيذ التكليف لنلمس إشارة في نورانية نفسك ، وهذا هو الفارق بين الأمر من المساوى ، والأمر من الأعلى . وعندما ترتقى كلمة « الأعلى » ، فإنها لا تنطبق إلا على الأعلى المطلق وهو الله ، إنه الأعلى في الحكمة ، والأعلى في المنزلة ، والأعلى في المكانة ، والأعلى في الربوبية .

إذن ، فالإنسان لا يطلب علة حكم إلا من مساو له ، فإن قال لك أحد من بشر : اجعل الشيء العلوى فإنك تسأله : لماذا ؟ فإن أجبتك ، فأنت تقوم بالمعل . وتكون قد قمت بتنفيذ هذا الفصل : لأن المساوى لك قد أجبتك بالحكمة لا بالطاعة له .

ولكن عندما يصدر الأمر من الأعلى وهو الحق سبحانه وتعالى ، فإنك أيها العبد المؤمن تنفذ الأمر خوفاً عشنا في طاعته . والمثال الذي أضربه للتقريب لا للتشبيه ، فإنه الأعلى ، وهو متره عن كل شبيه ، إن الأب يقول لابن في حياتنا اليومية : إن نجحت في المدرسة فأحضر لك هدية هي الدرجة - فهل معنى ذلك أن علة الذهاب إلى المدرسة هي الحصول على الدرجة كهدية ؟ لا ، ليست هذه هي العلة ، إن العلة عند الأب هي أن يتعلم الابن ويتفوق في حياته ، ويكبر ، وعند ذلك يدرك العلة ، ويقول لنفسه : لقد كان أبى على حق .

إذا كان هذا يحدث في الحياة بينا نحن البشر ، فكيف لنا بطاعة الأمر الصادر من الله ؟ إن الحق سبحانه وتعالى حين يكلف العبد تكليفاً ، فإن العبد قد يجد مشقة في فهم العلة . والعبد المؤمن يعرف أن الرصوخ لتكليف الحق إنما هو خضوع للأمر الأعلى .

إن العبد المؤمن يعرف أنه آمن بمن هو أعلى منه وأعلى من كل كائن ، ولا يساويه أحد ، إن العبد المؤمن يعرف أنه آمن أولاً بأن الله هو الإله الواحد - سبحانه - به مطلق .



الحكمة ، وله القوة وله كل شيء في الكون ، وسبق أن صرنا المثل - وفيه المثل الأعلى

إن الإنسان قد يمرض ، وصحة الإنسان أهم شيء عنده ، فيفكر في الذهاب إلى طبيب ، ويقول له : إني أتعلم من معدني ، أو من قلبي أو من أمعائي ، إنه يحدد ما يشكو منه . وعقل الإنسان هو الذي يهتد إلى الطبيب الذي يشخص العلة ، وبعد ذلك يأخذ المريض من الطبيب ورقة مكتوباً فيها الأدوية اللازمة . إن الإنسان يتناول كل دواء من هذه الأدوية دون أن يسأل الطبيب عن حكمة كل دواء ، لأنه لو سأل عن ذلك فهذا معناه الدخول في مناهة كيمياء ، فإن سأل أي إنسان ذلك المريض . لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ فيجيب المريض : لأن الذي كتب لي هذا الدواء هو الطبيب المختص بعلاج المعدة ، أو القلب ، أو الأمعاء أو أي عضو يشكو منه الإنسان

والطبيب قد يخطئ ، إنما حكم الله لا يخطئ أبداً ، فهو جل شأنه منزّه عن الخطأ تماماً . إن الحكمة تكون عند الحق سبحانه وتعالى ، وعندما يتمد المؤمن مطبوب الله فإنه يدرك آثار الحكمة الربانية في نفسه . وكلمة « قاتنين » كما عرفنا هي وصف لمن يعيشون القنوت ، والقنوت هو صادة مع خضوع ، وخشوع واستدامة لاد الخشوع ، والخشوع ؟

لأن الله جل وعلا لم يشرع العبادة ليفيدها الإنسان ، ويقدر نفسه من عذاب النار ، لا ، إنما يرى كثيراً من الناس - إذا ما لاحظنا واقع الحياة - إذا وجدوا رئيساً قوى الشكيمة وقوايته صارمة في أن الموظفين تحب يده يجب أن يحضروا صباحاً في الميعاد المحدد ، وأن ينصرفوا في الميعاد المحدد ، ولا يسمح لهم بالاستغفال وغير العمل ، فلا يشربون الشاي ، ولا يقرأون الصحف ولا يقابلون الأصدقاء ، وغير ذلك من الأعمال . ويأتى واحد من الموظفين فيقول عن هذا الرئيس : إنه شديد المراس ، ولذلك فليس له عدنى إلا أن أحصر في الثامنة إلا خمس دقائق ، ولن أنصرف إلا في الثانية وخمس دقائق ، ولن أقرأ الصحف ولن أفعل أى شيء مما يمتعه . إن هذا الموظف يفعل ذلك مجبراً واستعلاء على رئيسه حتى لا يسمح له بقدر أو تخريج ، فهذا الموظف يمثل ولكن باستعلاء .

إنها طاعة بلا حب ، ولكنها باستعلاء . وقد يحاول عبد أن يقول : ماذا يطلب الله مني ؟ ألا يطلب مني الصلاة والركاة وإقامة العبادات ؟ سوف أفعل ذلك مثل هذا العبد نقول : لا ، إن الله يطلب لعبادة بحب منك وخشوع وطمشان ، لأن التكليف من الحق صدقة أخرى أجراها الله على العبد . إن الحق سبحانه وتعالى قد كلف العبد بالتكاليف الإيمانية ، حتى يكون الإنسان سويا وله قيمة في الحياة .

إن معنى « قامت » هو العبد الذي يؤدي عبادة ربه بخشوع ، وطمشان ، وباستدامة . لماذا ؟ لأن الذي يقبل على الطاعة ثم ينصرف عنها كأنه قد جرب وده لله فسم يجد الله أهلا لمود . أما لعبد الطائع فهو لا ينصرف عن العبادة ، لأنه داف حلوة استدامة العبادة لله ، ومدام قد أدرك حلوة العبادة فهو يقبل عليها بخشوع ، وطمشان ، واستدامة ، ويدخل في دائرة الفائزين .

وبعد « الماتين » يقول الله سبحانه : « والمنفقين » وكلمة أنفق و« نفق » مأخوذة من كلمة « نفق الحمار » أي مات ، و« نفقت السوق » أي انتهت بضائعها وشترها الناس ولم يبق منها شيء . و« نفقة » مأخوذة من هذا المعنى لنشعرنا بأن الإنسان حين ينفق فهو يجهت ما أنفقه من نفسه ، فلا يتذكر أنه أنفق عن فلان كذا ، وعمل فلان كذا ، أي يعلم يقينا أن ما أنفقه هو رزق من أنفقه عليهم وليس له إلا أجر إيصاله إليهم فلا من ، ولا إذلال .

إن الله يريد من كل إنسان يخرج شيئا من ماله أو يهب من ذممه هذا الشيء الذي يخرج من المال فلا يذكره ولا يحس به على أحد . « والمنفق » تقتضي وجود منفق ، ومنمق عليه ، ومنمق به . المنفق كما يعرف هو المؤمن الذي عبده فصل ماله ، والمنفق عليه هو الفقير . والمنفق به هو الخيرات .

ومن أين تأتي هذه الخيرات ؟ إنها تأتي نتيجة الحركة في الحياة ، وحركة المتحرك في الحياة تقتضي قدرة ، فإذا كان الإنسان عاجزا ، ولا يجد القدرة على الحركة ، فمن أين يعيش ؟ إن الله لا يريد أن يصمم له في حركة القادر ما يعوله .

لقد جعل الله القدرة عرضا من أعراض الحياة ، فالقادر اليوم قد يصير عاجزا عدا . ومادامت القدرة عرضا من أعراض الحياة ، فالقادر الآن عندما يسمع لأمر

من الله بأن يتفق على غير القادر ، فلا بد أن يُقدر في نفسه أن قدرته هي عرص من أعراض الحياة ، والقادر الآن من الأغيار ، لذلك مهر عرصه لأن يصير عدا من العاجرين ، ويقول القادر لنفسه : « عندما أصبح عاجرا سوف أجد من يعطيني » ليس ذلك هو التأمين الحق ؟ إنه تأمير المؤمن إن المؤمن يعطي عند قدرته ، وذلك حتى يجبه الله مشقة السؤال إن جاءت الأعيار ، لأن الأعيار إن جاءت سوف يجد من يعطيه .

إننا يجب أن نلحظ في الحكم ، لا ساعة أن طالب أنت بأداء مطلوب الحكم ، ولكن ساعة أن يؤدي العبر إليك مطلوب الحكم فالذي يطلب منه أن يتفق ، عليه أن يقدر أنه قد أصبح عاجزا ، ولما أن سألته لو كنت عاجزا لم تكن تحب أن يعطيك الناس دون من أو أدى ؟

إن هذا هو التأمين الحق ، لأن التأمين في يد الله ، وملامات الأغيار عرضة لأن يصبر القادر عاجرا ويصير العاجز قادرا ، فساعة يتفق للمنفق يجب عليه أن يبيت أنه أنفق فلا يتذكر وجه من أنفق عليه ، ولا ينهر أحدا بما أنفق .

عد الرسول صلى الله عليه وسلم ارجل الذي أنفق حتى لا تعلم شياله ما صنعت يمينه من السبعة الذين يظلمهم الله في طله فقال : ( سعة يعلمهم الله في طله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يعود إليه ، ورجلان تحابا في الله فاجتمعا على ذلك وافترقا عليه ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال إن إني أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأعفاها حتى لا تعلم شياله ما تنفق يمينه )<sup>(١)</sup>

وبعد ذلك على المؤمن المنق أن يقدر ساعة عطائه أنه أذخر ليأخذ ، إما أن يأخذ إن طرأت له الأغيار في الدنيا ، وإما أن يأخذ من يد الله في الآخرة أضعاها مضاعفة ، إذن ، فالمنفق هو الذي يؤمن لغير القادر حركته في الحياة ضمانا لنفسه حين لا يقدر ، أو استهدرا مضاعفا عند الله ، وهؤلاء المنفقون الذين يسمون العاجرين يحصل ما لديهم ، يظهرون حكمة الله في الرجود ، لأن الله مدام قبل خلقنا ، وفيما

القادر ، وهيا العاجز ، فقد أراد الله لنا أن نعرف أن القدرة ليست لأمره في الخلق . فإن قدرت الآن فقد تلب - بضم اللام - ملك هذه القدرة ، ومدامد القدرة يسم سلبها ، فلا بد أن يتمت المؤمن بالقيوم الذي يقيم القدرة لك أيها المؤمن دائما ، وذلك حتى يعرف الواحد منا أنه لم يتفلسف من ربه ، خلقا قاهرين وانتهت المسألة . لا . إن القدرة أعجز تذهب ونجى . ومدامد الأعيار تذهب ونجى . فلا بد أن يصح المؤمن نصب عييه عطاء القادر الأعلى

وقد ساءها إن الله جعل المنعمين وصفا من أوصاف الدين اتقوا ، والدين أعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار ، وذلك حتى يحصى الله الضعيف الذي خلقه الله للحكمة في الوجود . إن الإلهاق ليس أخذا من العبد ، إنما هو مسألة ، هذه المسألة تتصح في به ما كان لك ما يزيد عن حاجتك ، إلا بهركك في الحياة .

وهذه الحركة في الحياة تتطلب عقلا يحفظ للحركة وجوارح تنفذ الحفظ الفكري ، ومادة يتم الفعل فيها سواء كانت أرضا تتم وراعتها ، أو آلة يتم الصنع بها ، ولا شيء للإنسان من هذا في الكون . إن المخ الذي يدبر هو عطاء من الله ، والطاقة التي تنفذ هي عطاء من الله . ونحن نرى في الحياة إنسانا قد مرع الله عنه المخ لدى يمكر ويدبر ، وسجد إنسانا آخر قد نزع الله منه الطاقة التي تنفذ ، فقد يمنح الله عن عبد المادة التي يتفاحس منها .

إذن ، فلا شيء من هذه الأشياء ذات للإنسان ، إنما كلها عطاء من الله . وليعمل المؤمن مضاربا عند الله ، وليعط المؤمن للعاجز حق الله . إن الله لا يأخذ هذا الحق بنفسه إنما يريد الله لأحيك العاجز ، وسوف يطلب الله هذا الحق لك إذا عنت لك حاجة بسبب الأعيار

هكذا تكون « المنعمين » صفة من صفات الدين اتقوا ربهم . والحق سبحانه وتعالى قد جعل في الصبر ، صلابة اليقين لإيمان في النفس البشرية . وفي الصلابة انسجاما مع واقع لا إله إلا الله ، وفي العفة حماية العاجز الذي لا يقدر .

وبعد ذلك يعود إلى نفس المؤمن عودة أخرى فيقول : « والمستعجزين بالأسفار » . إن يجب أن تأخذ هذا الوصف بعد مجيء « لأوصاف الأخرى في النفس البشرية . البداية

هي إقرارهم بالإيمان ، ودعاؤهم الحق - سبحانه - أن يعفو لهم وقد طلبوا الوفاة من عذاب النار ، وصبروا ، وصدقوا ، وفتوا في العبادة ، وأبغوا في سبيل الله ، إن كل هذه الأوصاف تبرىء فئتهم من أهم مقصرون أيضا في حقوق إلههم لذلك بهم بأنهم حال السكون بالليل ، ويستعفرون الله .

إما أن يستغفر العبد لأنه قد فرطت منه هفوة في ذنب ، وإما أن يستغفر لأنه لم يرد فيها بفعله من أمور الطاعة - وكلمة « بالأسحار » توضح لنا لحظات من اليوم يكون الإنسان فيها محل الكل والراحة ، إن الذي سوف يصحو في الحر لا بد أن يكون قد اكتفى من الراحة ، ولم يكن قد أخذ منه كد الحياة كل النهار ، ثم إن بعضهم يأخذ هو الحياة ليلا

وهذا هو وجه الحياة لما يحدث في زماننا . إن كد الحياة - إن أخذ - يأخذ بهار ، وبعد ذلك يأخذنا هو الحياة ليلا ، مما يشاهده من هو الحديث ، وهو السهرات ، وبعد ذلك يأتي الإنسان ليأخذ متأخرا ، فكيف يطلب من هذا الإنسان أن يصحو في السحر ؟ إن الذي يصحو في السحر هو من أخذ حظه في الراحة ، فبعد أن جاء من كد العمل نائم نوما هادئا ، ويصحو من بعد ذلك في السحر ليذكر ربه ، في الوقت الذي نام فيه غيره من الناس ، لماذا ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى في لحظة سكون الليل يوزع رحمته ، وعندما يصحو إنسان في السحر ويدعو الله ، ويستغفره فإنه يأخذ من رحمة الله النازلة .

وعندما يأخذ هذا العبد من رحمة الله النازلة في ذلك الوقت ، فمعنى هذا أنه سيأخذ الكثير من رحمة الله . وإياك أن تقول : لو صبحنا جميعا في الأسحار لتضدت الرحمة والعطاء ولا ، لأن الله قد قال :

﴿ مَا عِنْدَكَ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾

( من الآية ٦٦ من سورة الزمر )

إن قدرته جل وعلا تنسج لعبادنا جميع دون أن ينقص شيء من عنده . إن كل هذه الأشياء من التقوى ، والإقرار بالإيمان ، وطلب المغفرة للذنوب ، وطلب الوفاة من عذاب النار ، والصبر ، والصدق ، والقنوت ، والإنفاق في سبيل الله ،

والاستعمار بالأسحار ، كل ذلك نتيجة للتقوى الأولى .

إب التمرة من « لا إله إلا الله » رسالت هذه هي التمرة من « لا إله إلا الله »  
فليعلم كل إنسان ، أن الله لم يدعك لتستنطها أنت من مفقود ، بل اعلم أن الله قد  
شهد أنه لا إله إلا الله ، وكفى بالله شهيدا . ولذلك يقول الحق

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا  
الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾



وليأخذ الجملة الأولى من الآية الكريمة بمعناها لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو ،  
أي أن الحق قد أحبر بما رآه ، وشاهده ، أو ما يقوم مقام ذلك « شهد » بمعنى  
علم .

إنه الحق الذي نصب الأدلة في الوجود على يوميته ، وعلى أنه إله واحد ، ليس  
في ذلك إقامة للحجة على أنه إله واحد ؟ ومن الذي خلق الأدلة وجاء بها ؟ إله الله .  
إدس ، فقد شهد الله أنه لا إله إلا هو . قلنا ، إن شهادة الله أنه لا إله إلا هو هي  
شهادة الذات للذات ، وشهادة الذات للذات تعني أنها كلمة مُحْكَمٌ منها . فعندما  
يقول الحق :

﴿ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (١٧)

( سورة البقرة )

بالله بولم يكن قد شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو ، وليس هناك من يعارض  
مبغذه ، أكان يجازف ويقولها ؟ إنه الحق لأعل الذي شهد أن لا إله إلا هو ، فباعة

أن يقول : « كى » فإنه قد علم ، أنه لا يوجد إله آخر يقول : « لا تكس » . إن الحق لابد أن يطمئنا أنه لا إله إلا هو ، لذلك فليزم أن يشهد لنفسه أنه لا إله إلا هو . إنما نجد أن من أساء الله الحسى « المؤمن » . بماذا يؤمن الله ؟ إنه مؤمن بأنه لا إله إلا هو ويلقى الأمر ، ويلقى الحكم التسخيرى ، ويعلم أنه لا إله يعرضه

والهمس من مطلوبات الرسول صلى الله عليه وسلم أن يشهد أنه رسول الله ؟ لقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال فى صلاته : « أشهد أن محمدا رسول الله » . ولو لم يشهد بهذه لنفسه فكيف يجازف بالأشياء التى يقربها ؟ ولذلك فسيدينا أبو بكر عندما بلغه أمر بعث محمد رسولا ، قال ما معناه : أفاها محمد ؟ إنه صادق ، ومادام قد قالها فهو حق .

إن أبا بكر الصديق واثق من الرصيد الذى سبق بعث محمد بالرسالة . ونحن نرى فى التاريخ امرأة كان اسبب فى إسلامها لمحة من سيرته صلى الله عليه وسلم . قرأت هذه المرأة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان له حراس من المؤمنين يقومون بحراسته من الكافرين . وبعد ذلك جاء يوم وصرف الرسول صلى الله عليه وسلم هؤلاء الحراس ، وقال لهم ما معناه : إن الله عصمى من الناس فادهيوا أنفسكم .

وقد قرأنا هذه الواقعة كثيرا جدا ، ولكن الفصح جاء من الحق لامرأة ، فشمعتها هذه المسألة ، وتساءلت : ألم يكن هؤلاء الحراس يجرسونه خوفا على حياته ؟ فلماذا قال لهم : « لا تحرسوني » لأن الله هو الذى يجرسنى ؟ فلماذا رسول الله قد غش الدنيا كلها ؟ أكان من الممكن أن يغش نفسه فى حياته ؟

وأجابت المرأة على نفسها . لا يمكن ، لابد أن رسول الله قد وثق تمام الثقة فى أن الله قد أبلى أمر حياته بدليل أنه قام بصرف الحراس ، وإلا فكيف يأمس أن يأتى أحد ليقتله ؟ قالت المرأة : والله لو حذع الناس جميعا ما حذع نفسه فى حياته . أشهد ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . حدث إسلام هذه المرأة من نفحة يسيرة من سيره رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إذن ، « شهد الله أنه لا إله إلا هو ، هو شهادة الذات للذات ، وكفى بالله

شهادا وشهدت للملائكة أيضا ، والملائكة هم العيب الخمس عما ، وتلقى الأوامر من الحق . إن الملائكة لم يروا أحد آخر يعطى لهم الأوامر ، إنه الإله الواحد القادر . وهذه هي شهادة المشهد . ويضاف إلى الملائكة « أولو العلم » ، لقد أخذ « أولو العلم » الأدلة وجلسوا يستنبطون من كون الله أدلة على أنه لا إله إلا الله .

إن هذه أعظم شهادة لأعظم مشهود به من أعظم شهود ، الله في لقمة ، وعهد صلى الله عليه وسلم ، والملائكة وأولو العلم . وقد أخذ أولو لعلم منزلة كبيرة لأن الله قد قرنهم بالملائكة .

إن الحق سبحانه وعدني بيلعنا أنه قد برز في كونه الآيات العجيبة لعدد ، والذي يجلس ، ويتصكر وينذر ، وينطق ويظفر ، فإنه يسخرح الأدلة على أنه لا إله إلا هو ، وكنا قل من قبل - إن أبسط الطرق للتدليل على هذه الحقيقة . إن كانت « لا إله إلا الله » صدقا فقد كذب ، وإن كانت غير صدق فأين الإله الذي أخذ منه الله هذا الكون ، ولم نجربنا ذلك الإله أنه صاحب الكون ؟ فيما أن هذا الإله لاخرم يذر ، أو أنه قد علم ، ولا يستطيع فعل شيء ، إذن فلا يصح أن يكون إلها يراحم الحق الذي أبلغنا أنه لا إله إلا هو .

وتظل « لا إله إلا الله » لصاحبها - جل شأنه - « شهد الله أنه لا إله إلا هو » ربي كل حركة من حركات الحياة نجد أن الانفراد بصدور الحركة قد يعطى علوا ، وقد يعصى استكبارا . لذلك نقول - ها هو ذا الخالق الأعلى الذي « لا إله إلا هو » نجربنا أنه قائم بالقسط . ورغم أنه لا أحد في استطاعته أن يتدرك على الله ، إلا أنه يطمئنا أنه قائم بالقسط .

ولنلاحظ هنا ملحظا جديلا في الأدب « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو اعلم قائما بالقسط » لماذا لم يقل الله إن « الملائكة » و « أولو لعلم » ، الذين شهدوا أنه لا إله إلا هو « قائمين » بالقسط ؟ لقد شهد الله أنه لا إله إلا هو قائما بالقسط ، والملائكة شهدوا هذه القضية والعلماء شهدوا أيضا هذه القضية . لماذا ؟ لأن الله لو قال « قائمين بالقسط » لكان الله مشهودا عليه من هؤلاء ، والشهادة هي له وحده أنه قائم بالقسط والعدل .

لأنه سبحانه خلق الملائكة بالقسط ، فلو كانوا معه في ذلك لما استقام الأمر ،



وأول العلم أيضا مخلوقون بالقسط ، لأن الله قد وزع حركة الحياة عن الناس ، فناس يعملون بعقولهم ، وآخرون يعملون بقلوبهم ، وقوم غيرهم يعملون بجوارحهم ، فهذا هو كون من عدل الله ، وإلا ، فهل يدعى أحد أن إنسانا تتجمع فيه كل المواهب التي تتطلبها الحياة . لا ، وهذه من عدالة الرحمن .

إن من عدالة الحق أنه وزع المواهب بين البشر ، فبدلاً من أن يعتمد الإنسان على نفسه في صناعة الملابس ولماكل ، والمشراب ، جعل الله المهارات موزعة بين البشر فأنتجت مجموعة من البشر حرفة الزراعة لإنتاج الطعام الذي يكفيهم ، ويسد حاجة غيرهم ، وكذلك تبادلوا مع غيرهم المنافع ، فالإنسان - بمفرده - لا يستطيع أن يزرع القطن ويجمعه ويغزله وينسجه ، ليلبس ، والإنسان لا يستطيع أن يزرع القمح ويحصده ثم يطحنه ثم يجزه .

إن الله لم يخلق الناس ليقوم كل فرد بإشباع حاجات نفسه انشوعة ، إنما وزع الله المواهب ، لتداخل هذه المواهب ، ويتكامل المجتمع البشري ، فواحد يزرع الأرض ، وثاني يعزل القطن ، وثالث ينسج القماش ، ورابع يصنع الأدوات . وهذا عدل عظيم ، لأن الطاقة البشرية لا تقوى على أن تقوم بكل متطلبات الحياة ، لذلك جعل الحق هذا التنوع في المواهب ليربط الناس بالناس فهراً عن الناس ، فلم يجعل لأحد تفصلاً على أحد ، فإدام واحد يعرف في مجال ، وآخر لا يعرف في هذا المجال ، فإلى لا يعرف محتاج للآخر ، وهكذا يتبادل الناس المنافع رغياً عنهم

ولذلك نجد الكون متكاملاً . ولينظر كل منا إلى حياته وليندد كم زاوية من زوايا العلم ، وكم زاوية من زوايا القدرات ، وكم زاوية من زوايا المواهب تلزم حتى تخدم حركة الحياة ؟

إن هذه الروايات موزعة عن الناس جميعاً ليجدوا جميعاً حركة الحياة . وهذا قمة انعدل . وحتى يوضح لنا الحق قيمة العدل وقيمة العدالة في إقامة الحياة والاحترام بين البشر ، هينظر الواحد منا إلى الإنسان الآخر البعيد عنه ، ويتساءل فيه وبين نفسه : أهذا الرجل لبعيد عني يعمل من أجل ؟ وتكون الإجابة نعم .

إذن ، فعل الإنسان عندما يرى إنساناً متوقفاً في صعبه ، فليقل : إن متوقفاً في

صنعت عائد إلى وتفوقه في موهبه عائد إلى ، وهكذا منع الله بالعدل الحقد والحسد ، وجعل الناس متكاتفين قهرا عنهم ، لا تفضلا منهم ، إذن ، فكل إنسان يسعى بحركة الحياة إنما يقيم نفسه في رلوية من زوايا الحياة ، ومن العجيب أن الزاوية التي يحسبها الإنسان تكون حاجته فيها أقل الحاجات ، لذلك نجد المثل الريفي الذي يقول « باب السجار مملع » ، وذلك حتى يعلم الإنسان أن موهبة ما تكون عند غيره سوف تنمعه هو ، بدليل أن الموهبة التي عندك لم تنتمع أنت بها إلا قليلا

وبذلك يشجع في الناس اقتناع بأن موهبة كل فرد فيهم ، إنما تعود عليهم جميعا ، وبذلك تحمل المحبة والاحترام مدلا من الحسد والحقد . وعندما سأل أحد الظرفاء . ولماذا يكون باب السجار هو المملع ؟ قال أحد الظرفاء رد عليه : لأنه الباب الوحيد الذي لن يأخذ السجار اجرا لإصلاحه ، وملتفت إلى العجائب في الحكمة الشائنة ، فتحد أطباء اخصائيين في ألوان من المرض ، وصاروا أعلاما في مجالات تخصصاتهم ، ورياء الحق سبحانه وتعالى ألا يصابوا إلا بما برعوا فيه ، كأن الذي برعوا فيه لم يقدمهم هم بشيء ، إنما أماد الآخرين . ولنتظر إلى الآية في مجملها :

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَنَّ إِلَهًا لَّا يَكُونُ لَهِ حِلٌّ وَلَا يَكُونُ لَهِ كُفْرًا وَلَا شِرْكٌ ۚ وَأَنَّ إِلَهًا لَّا يَكُونُ لَهِ حِلٌّ وَلَا يَكُونُ لَهِ كُفْرًا وَلَا شِرْكٌ ۚ وَأَنَّ إِلَهًا لَّا يَكُونُ لَهِ حِلٌّ وَلَا يَكُونُ لَهِ كُفْرًا وَلَا شِرْكٌ ۚ ﴾

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١٨)

( سورة النمل )

لقد استهلها الله بقوله . « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قانها بالقسط » ثم قال بعد ذلك « لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . فكان الآية تقول لنا : إذا ثبت شهادة الذات للذات ، وشهادة الملائكة ، وشهادة الاستدلال من العلماء ، فإن انقاعلة تكون قد استقرت استقرار نهائيا لا شك فيه ، فخدوها مسلمة : « لا إله إلا هو » .

ومادام « لا إله إلا هو » فليكن اعتيادك عليه وحده ، واعلم أنك إن اعتمدت عليه وحده إنما فأنت قد اعتمدت على حرير لا يُغلب على أمره .

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله » ،

ونصم أن الأمة لو اجتمعت على أن يعفوك شيء لم يعفوك إلا شيء قد كتبه الله لك  
ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا شيء قد كتبه الله عليك ، رفعت الأقلام ،  
وجفت الصحف (١) .

فلا يستطيع أحد أن يدخل مع الله في حدال ، إنما يدخل خلق الله مع خلق الله  
في خلاف أو نصال ، لكن لا أحد يجرؤ على أن يدخل في نصال مع الله لأنه عرير  
لا يعلب ، فإن أمنت به وحده ، فبك العور ، وكلمة « وحده » قد يندرون ظاهرها  
تعليلاً للمسد الذي تستند إليه في القياس الشرى ، فيقال : « أنا لآخرى إلى فلان  
وحده » وعندما تكون لاحناً ، إلى عشرين ألا يكون أكثر قوة ؟ لكن هنا لا يكون قياس  
بين اللجوء إلى الله وحده ، بقياس اللجوء إلى مخلوق . إنك هنا تلجأ إلى خالق أعلى  
بيده مفايد كل شيء وهو على كل شيء قدير ، فكلمة « وحده » هنا تنيك وتكفيك  
عن الكل . اعص لوجه واحد . يكفك كل الأوجه ، واعلم أنه لا يوجد من يعليه  
على أمره

وعظمة الحق أنه واحد أحد فرد متبرد مسد ، وهو عرير لا يُعلب على أمره ، وهو  
صاحب كل الحكمة في وضع الأشياء في مواضعها بحيث إذا ما عرفت حكمة  
ما يجريه الله سبحانه وتعالى على خلقه فانت تتعجب من عظمة قدرة الله ، لأن  
الحكمة هي وضع الشيء في موضعه ، ومادمت قد وصفت الشيء في موضعه فإنه  
لا يكون هناك قلق ، ومادام الشيء موصوعاً في مكانه فهو مستقر ، ومادام الشيء  
مستقراً فإنه لا يتلون وترداد الثقة به ، وهذه مأخوذة من « الحكمة » التي نوصع في  
فم الفرس ، والتي سميها « اللجام » وهي كما نعرف تتكون من قطعة من الجلد  
تدخل على اللسان وفيها قطعة من الحديد ، فإن مال إلى غير الاتجاه الذي تريد ،  
يكون من السهل جذبه إلى الاتجاه الصحيح .

إن وجود الحكمة يعني وجود شيء بحكمه فلا يحرف يمينا ولا يسارا ، ومادام الله  
قد شهد أنه لا إله إلا هو ، وشهدت الملائكة وشهد أولو العلم ، وانتهت القصية بعد  
هذه الشهادات إلى أنه لا إله إلا هو ، وأنه العزيز الحكيم ، فكل صبح منه يجب أن  
يُسلم إليه ، وأن يتقاد له . ومادام الله قد شهد لنفسه بأنه إله واحد ، أي لا يوجد له

شريك ينزعه فيها يريد من خلقه ، وليس لله شريك في الخلق ، وليس لله شريك في  
الرزق ، وليس له شريك في التشريع .

إذن .. فالجهة التي يستمد منها مقررات منهجنا هي جهة واحدة ، وكان من  
المعس أن نعلم ونحور هذه الجهة الواحد الخائفة على ما خلقت لأنه ليس لأحد من  
خلق الله حق على الله ، لكن الله سبحانه عادل ، إنه سبحانه بطمئنا ، فهذه  
الوحدانية مقدرتها وجبروتها وعلمها وحكمتها عادلة لا تظلم ، لأنه قال : مع أني إله  
واحد ، لا يراد لي حكم ولا أمر فأنا قائم بالقسط .

واعياد بالقسط يجب أن نتوقف عنه لنعمه جيدا ، إن الحق يقول من نفسه  
« قائما بالقسط » وكلمة قائم تعني أن الله قد خلقهم الخلق الأول ، وهذا الخلق إنما  
قام على العدل والقسط . ونكتيف الحق للخلق قام على العدل والقسط . والعدل  
والقسط يقتضي ميرا لا ترجح فيه كفة على كفة ، وهذا الميراث مسموك بيد القدرة  
القاهرة التي لا توجد قوة أعين منها تميل في الحكم ، والحق سبحانه قائم بالقسط في  
الخلق ، فصل لا يخلقنا أعدا لما تتطلبه حياتنا بالقسط أيضا ، فلم يجعل أمر الحياة  
قائما على الأسباب التي يكلمنا بها لنعيش ، بل حكم بالقسط ، لقد جعل الحق بعضا  
من الأمور لا تدخل لنا بحر العباد فيها ، ولم يفض الحق بذلك على حركتنا ولا على  
حررتنا في الحركة ، فذلك خلق لنا أساما إن شئنا أن نفعل بها وصلنا إلى المسبات ،  
ون شئنا ألا نفعل فنترك الأسباب والسياس .

إذن فالحق سبحانه لم يحمكنا في قصة الخلق الأولى شيء واحد ، بأن يجرنا على  
كل شيء ، بل حررنا منه - سبحانه - لم يدخل أسباب ولا حركتنا في كثير من الحركات  
التي تربت عليها الحياة ، فلم يجعل الشمس بأيدينا ، ولا القمر ، ولا الريح ،  
ولا لظفر كل هذه الأسباب جعلها بيده هو ، لماذا ؟ لأن هذه الأسباب مستعمل  
للمخلوق قبل أن تكون له قدرة . هذه الأسباب تعمل للإنسان قبل أن توجد له  
حياة ، لنمهد للحياة التي يهلك الله إياها ، فلو ترك الله كل هذه الأشياء لأسباب  
الإنسان شاحرت هذه الأشياء إلى أن يوجد للإنسان إرادة ، وتوحد له قدرة وعلم .

لقد جعل الله أسباب الحياة بيده ، كالتنفس مثلا ، إن التنفس لا يخضع لإرادة  
القدرة على الحركة في الحياة ، ولكنه قال لك : أيها الإنسان - وهو سبحانه الإله القادر - تحرك

التففس إلى أن توجد له إرادة . ولا يوجد الإرادة إلا إن وجد عند الإنسان علم بأنه يريد إدخال الأوكسجين إلى الرئتين حتى يعدى الدم والمخ ويسقى الدم والجسم من الأشياء التي تصرفه ، هذا يقتضي العلم ، فإذا كان هذا الأمر يقتضي العلم . فهذا يصنع الطفل الذي ليس له علم ؟ كيف يتنفس ؟

لذلك فمن رحمة الله وعدالته أن جعل أمر التنفس - على سبيل المثال - بيده هو سبحانه ، ولكن الحق سبحانه لم يقصر على مخلوقه بأن يجعله في الكون بلا حرية أو اختيار ، لا ، لقد ترك الحق سبحانه بعضا من الأشياء لحرية الإنسان واختياره

إذن ، فالحق لم يلزم العبد تسخيرا ، ولم يمس تخيرا . وذلك هو العدل المطلق لقد أحترم الحق كبرية الإنسان ، وحياة الإنسان ، ومشية الإنسان ، واختيار الإنسان ، فقال : أنا سأعطيك أسباب الحياة الضرورية ولا أجعل لك دخلا فيها ، لأنك إن تدخلت فيها أفسدتها ، وتأخر وصول خدمتها لك إلى أن تعرف وتعلم ، وأنا - الحق - أريد لها لك ، وأنت أيها الإنسان عاجز قبل أن توجد لك ، وأنت قادر بوجودها الذي أمتحه لك ، لذلك جعلتها بيدي أنا الخالق المأمون على خلقى . ولكن من أنفى عن حريتك ، فإن أردت ارتقاء في الحياة فتتحرك في الحياة ، إن شئت أيها الإنسان أن تفعل فافعل وإن شئت أيها الإنسان ألا تفعل فلا تفعل . وهذا مطلق العدل .

ثم جاء الحق سبحانه وتعالى وجعل قوله : « قاتل بالقسط » مشتملا على التكليف أيضا ، أي إن عدالته في التكليف مطلقة . فأناس يقولون : « لا إله » وأناس آخرون عبدوا الآلهة ، فقام الحق بالقسط بين الأمرين ، هو إله موجود يا من تقول . « لا إله » . وهو إله غير متعدد يا من تشرك معه غيره . وهذا قيم بالقسط . وجاء الحق سبحانه في الأحكام . نحن نجد أحكاما شرعية طلبها الحق سبحانه من العبد طلب باتا ، ولم يتركها لاختيار الإنسان وسجد أشياء تركها الحق سبحانه ليجتهد فيها الإنسان ، فلم يجعل الحق سبحانه العبد حرا طليق يعرِد في الكون كما يشاء ، ولم يجعل الحق سبحانه عبده مقهورا أو مقسورا بحيث لا توجد له إرادة أو اختيار .

لقد جعل الله للإنسان مجالا في القصر ومجالا في الاختيار ، أوجد في الإنسان القدرة على الحركة في الحياة ، ولكنه قال لك : أيها الإنسان - وهو الإله القادر - تحرك

في الحياة وأنا أحمي نتيجة ما تتحرك فيه ، ولكن لي في مالك الذي جمعتك فيه حليقة  
حق عليك أن تعطى بعضا منه لأعبيك المحتاج

لقد أعطى الحق للنفس البشرية أن تكذب ، وأعطى لها أن تكذب ، وحفظ لها  
مملكك ، ولكنه هو الحق لم يطق للنفس البشرية عتاتها ، بل قال : لي حق في  
ذلك وهكذا يجده سبحانه قد عدل في هذا الأمر .

إذن يقول الحق إنه قائم بالقطر - يجده راصحا في كل شيء ؛ فهي الخلق  
والررق والتكليف نجد أنه قائم بالقطر ، ومادام هو إله واحد وقائما بالقسط - هما  
الذي يجمعك أي الإنسان أن تخضع لمراة منك ؟ يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ  
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ  
الْعِلْمُ بَشَيئًا يَبِينُهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ يَأْتِ اللَّهَ فَاكِ  
اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ١١ ﴾

بعد أن قال لنا : إنه إله واحد ، وقائم بالقسط هو نتيجة مطلقة لكونه - سبحانه -  
إله واحد فكان قوله « إن الدين عند الله الإسلام » هو نتيجة لقوله : « شهد الله أنه  
لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط » لماذا ؟ لأنه لا نسليم لأحد  
إلا الله ، ومادام الله إله واحد ، فلا إله غيره ، يشاركه ؛ يقول الحق :

﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِنْتِهٍ إِذَا أَذَّهَبَ كُلُّ شَيْءٍ مَعَ الْحَقِّ وَلَعَلَّ  
بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ مُبَعَّنٌ اللَّهُ عَمَّا يُشْفُونَ ١٢ ﴾

وما دام قد ثبت أنه هو الإله الواحد ، فما الذى يمنعك أيها الإنسان أن تخضع لموجه منك ؟ إذن نقول الحق بعد ذلك : « إن الدين عند الله الإسلام » هو أمر منطقي جدا يجب أن ينتهي إليه العاقل ، ومع ذلك رحنا الله سبحانه وتعالى فأرسل لنا رسلا ليبيهونا إلى القضية السببية ، والمسببية ، والمقدمة والنتيجة « إن الدين عند الله الإسلام » وإذا سألنا ما هو الدين ؟ تكون الإجابة : « إن الدين كلمة لها إطلاقات متعددة فهي من « دان » تقول : دنت لفلال : رجعت له وأسلمت نفسي له ، وانتمرت بأمره . ويطلق الدين أيضا على الجزاء ، فالحق يقول عن يوم الجزاء : « يوم الدين » وهو يوم الجزاء على الطاعة وعلى العصية ، وعن أن الإنسان المؤمن قد دان لأمر الله ، فكلمها تلقى في قول الحق : « إن الدين عند الله الإسلام » يُشعرنا بأنه قد توجد أدبان يخضع لها الناس ، ولكنها ليست أدبانا عند الله ، ألم يقل الحق :

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ① ﴾

( سورة النحل )

إن معنى ذلك أن هلاك ديننا لغير الله فيه خضوع واستسلام ، وفيه تنفيذ لأوامر ، ولكن ليس ديننا لله ، ولا ديننا عند الله ، إن الدين المعترف به عند الله هو الإسلام والدين يطلق مرة على الملة ومرة أخرى على الشريعة ، فإن أراد المؤمن الأحكام المطبوعة فذلك أن تسميها شريعة ، وإن أراد المؤمن الطاعة ، والخضوع ، وما يترتب عليهما من الجزاء فليسمها المؤمن الدين ، وإن أراد الإنسان كل ما يستظم ذلك فليسمها الملة .

إذن فقوله سبحانه : « إن الدين عند الله الإسلام » تعنى أنه لا دين عند الله إلا الإسلام ، وكلمة « إسلام » مأخوذة من عادة « سين » و « لام » و « ميم » و « السين » و « اللام » و « الميم » لها معنى يدور كل اشتقاقاتها ، وينتهي عند السلامة من الفساد وينتهي المعنى أيضا إلى الصلح بين الإنسان ونفسه ، وبين الإنسان وربه ، وبين الإنسان والكون ، وبين الإنسان وحيوانه ، إنه صلاح وعدم فساد ، كل مادة السين واللام والميم تدل على ذلك ، ومادامت المادة المكونة منها كلمة « إسلام » تدل على ذلك فلماذا لا نتبعها ؟

لقد قلنا سابقا إن الإنسان لا يخضع لميله ، لا إذا اقتنع بما يقول ، إن الإنسان

يقول مساويه انذى يأمره لماذا تريدنى ان أفقد أوامرك ؟ إلك لا بد أن تضيق  
بالحكمة من ذلك الأمر ، لكن عندما يؤمن الإنسان بإله واحد قائم بالقسط ،  
ويصدر من هذا الإله أمر ، فعل الإنسان الطاعة .

إذن . . فالإسلام معناه الخضوع ، والاستسلام بكرة وبهم ، وعزة وتعقل ؛  
لأن هناك عبودية تعقل عندما يقف الإنسان عند المعنى السطحي ، وهناك عزة  
تعقل عندما يقف الإنسان عند المعنى الذى لا يأتبه الباطل من بين يديه أو من  
خلفه . إن هذا هو عزة العقل فلا يستهويه أى شيء سوى الخضوع للأمر الثابت  
الذى لا يتناقض أبدا

مهدام الله إله واحد قائما بالقسط فإن كعب من عبده حين أوامره به وأخذ عنه ،  
فهذه عزة فى الفهم وعزة فى التعقل ، وعزة فى العبودية أيضا ، لأننى أعبد الله  
الذى هو فوق كل المخلوقات والكائنات ، ولا أعبد مساويا لى . وإن الذى يعبد  
مساويا له لا يملك إلا إنفة وحمية الدليل ، ومهدام الإسلام هو الخضوع والاستسلام  
له فهو خضوع لغير مساو ، وه أسلم . أى دخل فى السلم ، أى دخل فى  
الصالح ، وعدم انتقام ، وفى لأمان وأراحة ، أى خلص نفسه من كل شيء  
إلا وجه الله ، ولذلك يقول الحق

﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا يَرَجُلٌ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا  
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ ﴾

( سورة الزمر )

كأن الله يريد أن يوضح لك الفرق بين الخاضع لأمر سيد واحد ، وبين الخاضع  
لسادة كثيرين . وضرب الله لك المثل بالأمر المشهور عندنا ، فقال ما معناه : هب أن  
عبدك له من السادة عشرة ، وكل سيد له منه حطب ، فهذا يصنع ذلك العبد ؟ وعبد  
آخر به سيد واحد ، هذا لعبد يكون مستريحاً لأن له سيداً واحداً ، بينما الآخر  
المملوك لعشرة تنصبوب حياته بتصاروب أوامر ساداته العشرة

إذن فالعبد المملوك لشركاء تعيس ؛ لأن الشركاء غير متفقين ، بهم شركاء



متشاكسون ، فإذا رآه سيد يفعل أمرا لسيد آخر ، أمره بالعكس ، ويدلك يتبذل  
جهد هذا العبد ويكثر تعب ، ولكن الرجل السلم لرجل ، هو مستريح ، وكذلك  
التوحيد ، لقد جاء الحق سبحانه بمنزل من رانعا يقرب لنا حلالة التوحيد . إن العبد  
المؤمن بإله واحد يحمد الله لأنه خالص لإله واحد . إذن لما دام الإسلام هو  
لخضوع والاستسلام ومعناه الدخول في السلم بكسر السين - أو الدخول في السلم -  
فتح السين - يقول الحق

﴿ وَإِنْ جَبَحُوا إِلَيْكَ سَطَاحًا فَأَجِخْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ١١١ ﴾

( سورة الانفال )

هذا الخضوع ليس مساو ، بل لأعلى والأعلى الذي يخضع له هو الذي خلق ،  
وهو الأعلى الذي أمدت بقيومته بكل شيء . إذن فإذا أسلم الإنسان ، فإن هذا  
الإسلام له ثمن هو المثوبة من الله . إن من مصلحة الإنسان أن يسلم . « إن الدين  
عند الله الإسلام » ومادام الدين المعترف به عند الله هو الإسلام فهو الدين الذي  
يترتب عليه الثوب والإسلام هو دين الرسل جميعا ، وكلهم قد آمن به : إبراهيم  
نخيل الرحمن قد قال :

﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْ لَنَا مَسَلِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَإِنَّا نَتَّبِعُكَ  
إِنَّكَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ١١٢ ﴾

( سورة البقرة )

ويعقوب عليه السلام يحبر الحق عنه ن قوله لنيه وإجابتهم له

﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ آلُ عِزَّةٍ إِذْ قَالَ رَبِّهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا  
نَعْبُدُ إِلَهِكَ وَإِلَهُ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّهَا وَاحِدَةٌ وَنَحْنُ لَكُمُ  
مُسْلِمُونَ ١١٣ ﴾

( سورة البقرة )

ويقول - جل شأنه -

﴿قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا أَيْمًا مِثْلَ دِينِ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ١٥ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ١٦ لَا شَرِيكَ لَهُ ۚ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ١٧﴾

( سورة الانعام )

إذن فالإسلام دين شائع ، والمسلمون كلمة شائعة في الأديان ، وبذلك لا يقف الإسلام عند رسالة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام فقط، إنما الإسلام خضوع من مخلوق لإله في منهج جاء به رسول مؤيدون بالمعجزات ، إلا أن للإسلام بالنسبة لهذه الرسائل كان وصفا ، لكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تميزت بدعومة الوصف لدينها كما كان لأمم الرسل السابقة ، وصار الإسلام - أيضا - علما لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تضمنت متهى ما يوجد من إسلام في الأرض ، فلم يعد هناك مزيد عليها ، وانفردت أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن صار الإسلام علما عليها .

إذن فالإسلام في الأسم السابقة كان وصفا ، وأما بالنسبة لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد صار علما لأن لم يأت بعدها دين ، فأسلامها إسلام عالمي، ولذلك فنحن بهذا الدين نقول : نحن مسلمون ، أما أصحاب الديانات الأخرى فهم أيضا مسلمون لكن بالوصف فقط نحن الذين نتبع الدين الخاتم سبانا الله في كتابه المسلمين فهذا من إعجازات التسميه التي وافق فيها خليل الله إبراهيم عليه السلام مراد ربه :

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ أَعْتَنَكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِثْلَ أَيْمَنِكَ إِبْرَاهِيمَ ۚ مُوَسَّمَةً لِّلْمُسْلِمِينَ ۚ مِنْ قَبْلُ ۚ وَإِنَّا لَنَكُونُ أَرْسُولًا مَّبِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا

## وَاللَّهُ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

(سورة الحج)

لقد صار الإسلام اسماً لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يُطلق هذا الوصف اسماً إلا على من بالغ في التسليم . كيف ؟ نحن نعلم أن لفظ « الله » علم لواجب الوجود ، ونعلم أن « حى » صفة من صفات واجب الوجود . ونعلم أن « قادر » صفة من صفات الله سبحانه وتعالى . ولكن صارت كلمة « حى » اسماً من أسماء الله ، لأن الله حى حياة كاملة أزلية . إذن لا تكون الصفة اسماً إلا إذا أخذ الوصف فيها الديمومة والإطلاق . وعلى هذا القياس يكون الرسل السابقون من محمد صلى الله عليه وسلم ، والأمم السابقة على أمة الإسلام ، كانوا مسلمين ، وكانوا أمم مسلمة بالوصف ، ولكن أمة محمد صلى الله عليه وسلم تميزت بالإسلام وصفاً وعلماً ، فصار الأمر بالنسبة إليها اسماً ، ونظرنا لأنه لن يأتى شيء بعدها ، لذلك صار إسلام أمة رسول الله « علمياً » . ولقد بشر سيدنا إبراهيم عليه السلام بهذا الأمر :

## ﴿مِلَّةَ أَبِيكَ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمُّكُمُ الْمُسْلِمِينَ﴾

(من الآية ٧٨ من سورة الحج)

إذ الحق قد أورد من لسان سيدنا إبراهيم بالوصوح الكامل « هو سيحكم المسلمين ، ولم يقل الحق . « هو وصفكم بالمسلمين » . لا ، إنما قال : « هو سيحكم المسلمين » . لأن الأمم السابقة موصوفة بالإسلام وأما أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم فهي مسماة بالإسلام . وتجد من إهجازات التسمية ، أننا نجد لأتباع الأديان الأخرى أسماء أخرى غير الإسلام ، فاليهود يسمون أنفسهم باليهود نسبة لـ « يوحنا » ويقولون هم أنفسهم : « موسويون » نسبة إلى موسى عليه السلام . والمسيحيون يسمون أنفسهم بذلك نسبة إلى المسيح عيسى بن مريم . ولم تقل نحن أمة رسول الله عن أمنا : « إنا محمديون » . لقد قلنا عن أنفسنا : « نحن مسلمون » . ولم قلت على لسان أحد فقط إلا هذه التسمية لأمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصار اسم الإسلام لنا شرفاً . [ندى ، يقول الله الحق : « إن الدين عند الله الإسلام » يعنى أنه ، إن حار أن يكون لم رسول أو لأتباع رسول وصف

الإسلام فقد يحيى رسول بشيء جديد لم يكن عبد الأمم السابقة فنريده نحن بالتسليم ، وبريادتنا نحن لمسلمين بهذا التسليم حتم التسليم بنا نحن أمة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبذا صار الإسلام لا يخلق إلا عليا

إن الحق سبحانه ومعالي يوضح لنا أن الدين أوتوا الكتاب قد احتضنوا من بعد ما جاءهم العلم . ولماذا احتضنوا ؟ حصد الإحاطة من الحق الأعلى ( بغيا بينهم ) وكلمة الاختلاف هذه ترحى أن هناك شيئا متفقاً عليه ، ومادام الإسلام هو خصوصاً المسيح الله . لأنه إله واحد وقائم بالقط ، فمن أين يوجد الاختلاف ؟ وما الذى زاد حتى يوجد اختلاف ؟ أقرر إله آخر يناقص الله في مكانه ؟ لا لم يحدث . ومادام الإله واحداً ، ومادام المسيح القادم من عنده منهجا واحداً ، فمن أين جاء هذا الاختلاف ؟

إن الحق يوضح لنا أن الاختلاف قد جاء للدين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءهم العلم وتلك هي الكفاية ، وذلك هو الشر ، فلو كانوا قد شتموا من قبل أن يأت إليهم العلم لقلنا « إنهم معذورون في الاختلاف » ولكن أن يحدث الاختلاف من بعد أن جاء العلم من لإله الواحد القائم بالقط فسا أن نقول لهم : ما الذى حصد لتحتضنوا ؟ إن الذى حصد هو من عالم الأعيان ، ومادام الحصد قد جاء إليهم من عالم الأعيان ، فمعنى ذلك أن هوى النفس قد دخل ، ونريد أن نعرف أولاً معنى الاختلاف ، الاختلاف في حقيقته هو دهاب نفس إلى غير ماهدت إليه نفس أخرى .

ولماذا حدث الاختلاف هنا رغم أن الإله واحد ، وهو قائم بالقط ؟ لابد لنا أن نستنتج أن شيئاً جديداً قد بيت ما هو هذا الشيء ؟ إنه الهوى المختلف ، وحينما يقال : « احتضنوا » فنحن نعلم أن جماعة قد ذهب إلى شيء وجماعة أخرى ذهبت إلى شيء آخر . وقد نستنتج أن طرفاً قد ذهب إلى حق ، وأن الطرف الآخر قد ذهب إلى باطل ، أو أنهم جميعاً قد ذهبوا إلى باطل . والذهاب إلى الباطل قد يختلف ، لأن كل باطل له لون مختلف . هل أراد الحق سبحانه وتعالى أن يقول : أنا أنزلت لأديان ومن رحمى يخلقى تركت بعض من الناس يحتضنون بالحق في ذاته وإن طرأ عليهم أناسي يحتضنون معهم . ولحمداً لذلك في اليهود ، عندما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد اختضنوا ، واسلم منهم أناس وأمنوا برسالة النبی اختتم ، يسما

الآخرون لم يسلموا ، ومن أسلم هم الذين كانوا على الحق ، ومن رحمة الله تعالى أنه جعل الذين علموا برسالة رسول الله أن يعلموا البشارة في كتبهم ولم يكتفوا بذلك العلم بل أعلنوا الإيمان ، بينما أصر البعض الآخر على كتمان ما جاءهم من العلم وأصروا على الإنكار . إن الذين أسلموا هم الذين يتطبق عليهم قول الشاعر :

إن الذي جعل الحقيقة علما

لم يخل من أهل الحقيقة حبالا

وإذا كان الله قد عصم الأجيال المتتالية من أمة الإسلام بأن حفظ لنا لقرآن .  
ففي الأديان الأخرى كان هناك أناس من أهل الحقيقة ، وأنصفهم الله

﴿ لَبِسُوا سَوَآتٍ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ سَاءَ الْبَلِّ لَهُمْ  
يَسْجُدُونَ ﴿١١٦﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ  
الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْحَسَنَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٧﴾ ﴾

( سورة آل عمران )

لقد أنصفهم الله حق الإنصاف ، والذين آمنوا برسول الله من أتباع تلك  
لديانات قد اعتدوا على الحق ، واختلفوا مع غيرهم وقول الحق : « أوتوا الكتاب »  
هذا القول يقتضي أن نقف عند « أوتوا » ونقف عند « الكتاب » وقفة أخرى ، إن  
قول الحق « أوتوا » أي أن شيئا قد جاء إليهم من جهة أخرى إذن فالكتاب ليس  
من أفكار البشر ، لأن المبعج لو كان من أفكار البشر لكان من الممكن أن يختلف فيه  
أو حوله ، وياه « أوتوا » للمفعول يحسن نسأل : من الذي أنعم الكتاب ؟ إنه الله  
سبحانه وتعالى ، ولحق سبحانه وتعالى لا يأتي بمختلف فيه .

وبإمام الكتاب من عند الله فلا يمكن أن يوجد فيه خلاف . يقول الحق :

﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾

( من الآية ٨٢ من سورة النساء )

وكان الله يسهنا بذلك القول إلى أن كل شيء ينبت من الشر لشر ، فلا بد أن تحدث فيه خلافات . إنما الشيء عندما يأتي من الواحد الأحد لا يمكن أن يحدث فيه خلاف أبدا . لا يمكن أن يحدث خلاف فيما اتحد فيه المصدر ولنح إلا إن وجدت . بضم الواو وكسر الجيم . أشياء زائفة عن ذلك ، وهذه الأشياء الرائدة هي أهواء الذين يقولون : إنهم منسوبون إلى الله .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يوضح لنا أن الكتاب لم يأت إليهم من بشر مثلهم ، إنما من إله وحده قادر ، وفي هذا تنبيه لأتباع الديانات السابقة . أي إنكم أيها الأنواع لا تتبعون إلا المسيح الله ، وحين تتبعون المسيح الله الذي جاء به الرسل فأنتم لا تتبعون أحدا من الخلق ، لأن أي رسول أرسل إليكم إنما جاء ليطلعكم بمسيح قادم من ربكم . ولم يقل لكم أحد من الرسل إن المنهج قادم من عنده والرسول يحمل نفسه عن الطاعة والخضوع للمسيح المعلن عليه قلبكم ، وهذه عزة لكم ، ولتبه جميع الخلق أن المنهج الحق دائما قد أحله أرسل من الله

وحين يقول الحق « الكتاب » فلنا أن يعرف أن كلمة « الكتاب » قد وردت في القرآن الكريم في أكثر من موضع ، إن الحق سبحانه وتعالى يسمى القرآن مرة « قرآنا » لأنه يقرأ ، ويسميه الحق أيضا « الكتاب » وذلك دليل على أنه يكتب ، وحين نقول إن القرآن من ( القراءة ) فهذا يعني أن نبرز ما في الصدور بالقراءة ولكن ما في الصدور قد تلوه الأهواء ، لذلك يحرس الحق قرآنه بما في لسطور ولذلك فالقرآن مقروء ومكتوب .

وعندما يقول الحق ( من أهل الكتاب ) ، فإن ذلك تنبيه لنا أن الكتاب هو منبع مكتوب ، أي لم يتم وضعه في الصدور ونسبه النفوس ، لا ، إنه منبع مكتوب ، هكذا حدد الحق أمر المنهج السابق على القرآن ، إنه مكتوب ، فإن لعبت أهواء النفوس كما لعبت ، فإن ذلك يعني تحريف الكلم عن مواضعه . ولك أن تستغل الآن إلى معرته « لعلم » : ما هو العلم ؟ إن العلم هو أن تترك قضية وهذه القضية واقعة في الوجود تستطيع أن تقيم الدليل عليها ، وغير ذلك من القضايا لا يصل إلى مرتبة العلم لأنه لا يستطيع أحد أن يدلل عليه .

مثال ذلك . نحن نقول : « الأرض كروية » ، إن كروية الأرض هي نسبة

حدثت ، ونقول ونحن جازمون بها . والسابقون لنا في عصور سابقة قال بعضهم : « إن الأرض مسطحة » ، وحاول أن يجد من الأساناب ما يقيم الدليل على ذلك ، ولكن الدين أقاموا الدليل على أن الأرض كروية كانوا صادقين بالفعل . وفي العصر الحديث صارت كروية الأرض أمر مرئيا من سمس الفضاء ، وغيرها من الوسائل ، ونحن نعرف أنه « ليس مع العين أبى » إن الكروية بالنسبة للأرض ، هي سبه ، بقوها ونحرم بها ، والواقع أنها كذلك ، وستطيع أن نقيم على ذلك الدليل .

هذا هو العلم المستوفى ، إن فساد الناس أنهم يأتون إلى قضية لم تصل إلى هذه المرتبة ويسمونها « علما » كقولهم : « إن الإنسان أصله فرد ، لا ، إن أحدا لا يستطيع الحرم بذلك ، وتلك قضية ليست من العلم ، إن كلمة « علم » تتعلق على القضية المحروم بها ، وهي واقعة في الوجود ، ونستطيع أن ندلل عليها ، وإذا كانت القضية مجروما بها ، وواقعة في الوجود ، ولكنك لا تستطيع أن تدلل عليها ، فهذا تسمى هذه القضية ؟ هذا ما يطلق عليه « تقليد » تماما كما يفلد الولد أماء قل أن ينصح عقله بقول : « لا إله إلا الله ، الله واحد » . ومثليا يأخذ التلميذ عن أساتذته القضية العلمية ، ولا يعرف كجبة إقامة الدليل عليها ، فهذا يطلق عليه « تقليدا » ، وإلى أن يوضح عقل التلميذ ويحسن استيعابه نقول له : اسألت بحثا آخر لتقيم الدليل

إذن فال تقليد هو قضية مجرور بها ، وواقعة ، ولا يوجد عليها دليل وهكذا يعرف أن « العلم » يمتاز عن التقليد بوجود اقدرة على التدليل ، لكن إذا ما كانت هناك قضية ومجروم بها ولكنها ليست واقعة ، فهذا يسمى ذلك ؟ إن هذا هو الجهل . إن الجهل لا يعنى عدم علم الإنسان ، ولكن الجهل يعنى أن يعلم الإنسان قضية مخالفة للواقع ومناقضة له . أما الذى لا يعلم فهو أسمى يحتاج إلى معرفة الحكم الصحيح ، فالجاهل أمره يختلف ، إنه يحتاج منا أن نخرج من ذهنه الحكم الباطل ، ونضع فى يديه الحكم الصحيح ، وهكذا تكون عملية إضاع الجاهل بالحكم الصحيح هي عملية مركبة من أمرين ، إخراج الباطل من ذهنه ، ووضع الحكم الصحيح فى يديه

ولذلك نحن نجد أن تعب الناس يتأتى من الجهلاء ، لا من الأميين ، لأن الجاهل هو الذى يجرم بفصية مخالفة للواقع ومناقضة له ، أما الأمى فهو لا يعرف ، ويحتاج

إلى أن يعرف . ومادا يكون الأمر حين تكون القضية غير محروم بها ، وتكون سبة  
عدم الحزم ، مساوية للمحرم ؟ هنا يقول . إن هذا الأمر هو الشك ، وإن رجح أمر  
الحزم على عدم الحزم فهذا هو الظن ، وإن رجح عدم الجرم يكون ذلك هو  
الوهم .

إذن فوسائل إدراك انفصاليها هي كالآتي : أولا . علم ثانيا . تقليد ثالث  
جهل . رابعا . شك . خامسا : ظن . سادسا . وهم . والعلم هو أعلى المستويات  
في إدراك القضايا . ولذلك نجد أن الحق يحدد لنا على ماذا يختلف الدين أوتوا  
الكتاب ، لقد اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم . ولم يقل الحق . إنهم اختلفوا بعد  
ما جاءهم التقليد أو النص ، أو الجهل أو الشك ، إنما قال الحق : إنهم قد اختلفوا  
من بعد ما جاءهم الاستيعاء الكامل ، وهو العلم . وما دام هناك أمر قد جاء من  
القائم بالقسط والإله الواحد ، فالمسألة القادمة منه وهي الحق قد وصلت إلى مرتبة  
العلم .

إذن ، فقيم الاختلاف ؟ لابد أن نسأل ما لذي جد . والذي يحد . إنما هو عدم من  
الأخبار ، وهي الأهواء ، ولذلك يحدد لنا الحق هذا الأمر بقوله . « نغيا بينهم » .  
ما البغي ؟ السعي هو طلب الاستعلاء بغير حق . إذن فطلب الاستعلاء ليس  
محمونا في ذاته ، لأن طلب الاستعلاء هو قضية الصريح في الكون . وأن يطلب  
إنسان الرفعة فيجد ويجهد ، ويبدل انعرق ليصل إلى مكانة علمية أو غيرها ، فهذا  
حق طبيعي ، ونحن نعرف أن العالم قد ارتقى بالطموحات الإنسانية . إن العالم  
لواكتفى ونبت عند الذي وصل إليه في جيل ما ، فإن العالم يحكم على نفسه  
بالحمود . ولكن الناس طوب في العالم الذي تحياه بجهد بدله المعص منهم في قصايد  
باصمة ، ثم حاربوا أن يرتقوا بها وبألوا حقهم من التقدير ، وارتفعوا بالعلم بجهد  
حقيقي بذلوه ، وبدراسة لما بذله السابقون عليهم .

إذن فطلب الاستعلاء في حد ذاته غير محموت ، بل محمود مادام قائما على  
الجهد . لكن أن يطلب الإنسان الاستعلاء بغير حق ، فهذا هو البغي . لقد أثبت  
الله لنا في هذه الآية ، أن كل خلاف بين رجال دين ، أو بين دين ودين ، إنما مرجعه  
إلى نشوء ابغى ، ونشوء البغى هو طلب رجال دين الاستعلاء بغير حق . ومظاهر  
طلب الاستعلاء بغير حق هو إعطاء اعتلوى التي توافق أمرجة القوم ، وتحالف  
ما أنزله الحق



إن الواحد من هؤلاء يدعى لنفسه التحصير ، ويعطى من انصاوى ما يفاضل الذى أمره الله ، ويدعى أنه بأحد الدين بروح العصر ، ويدعى لنفسه عدم الجمود ، ويلتزم إلى حد اتهام المتمسكين بدينهم بأنهم متحلمون ، وأهداف الذى يحنى في صدر مثل هذا الإنسان هو الاستعلاء في قومه بغير الحق ، وبحب أن يهزم أن كل خلاف بين أهل دين واحد ، أو بين دين ودين ، منبته قول الحق : « بيا بينهم » . وهذا يعنى اتباع البعض لنهري التابع من بينهم ولم يرله الله .

لماذا ؟ لأن الله سبحانه وتعالى إنما أن ينزل حكما حكما لا رأى فيه لأحد ، ولا يستطيع أحد أن ينقضه ، وإنما أن ينزل الله حكما قابلا للمهم والاجتهاد . ولم يجعل الله الأحكام كلها من لون واحد ، إنما جعل الأحكام على لوتين ، وذلك حتى يحترم الإنسان ما وهب الخالق له من عقل ، ويجعل له مهعة ، فيأقى نفسية ويسجنها ويرجح ميا على مسبب وفى ذلك استخدام من الإنسان لعقله ، إنما رحمة من الله حتى لا يحمى العقل الإنسانى

إذن فإذا رأيت أى خلاف بين رجال دين أو بين دين ودين فاعلم أن انقزل الفصل في هذا الأمر هو ما عبر عنه القرآن : « بيا بينهم » فمن البغى يهب الهوى الذى تنشأ منه الأعاصير ، إن من يحب الاستعلاء بغير الحق هو الذى يحاول البغى فيدعى لنفسه أنه أرقى في الفكر ، أو يستعمل عد من يملكون له أمرا ، أو يستعمل صديقا يوافق حاكما في رأى من الآراء ، ويهرز للمحاكم حكما من الأحكام

إن كلمة « بيا بينهم » يدخل في نطاقها كل موجات الخروج عن منهج الله ، والتي نراها في الكون ، والرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطانا الكعة ضد الأمراض النفسية الناشئة عن البغى ، مثلها يعنى المعاصرون المصل ضد أمراض اليدين التي تعتك بالإنسان ، وحتى لا نفاجتا أمراض المعنى ، نجد الرسول يعطينا المناعة

فيقول لنا صلى الله عليه وسلم : ( ابر حسن الخلق ، والإثم ما حاك في صدرك وكهرت أن يعلم عيه الناس )<sup>(١)</sup> .

ويعلمونا الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك كما في الحديث التلى .

يقول صلى الله عليه وسلم : ( المر ما سكنت إليه النفس واطمأن إليه القلب ، والإثم ما لم تكن إليه النفس ولم يطمئن إليه القلب وإن أعتك المعتون )<sup>(١)</sup> .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يحذروا ليوضح لنا أن أهل ابني لهم لجاج في أن يقولوا ويصدروا الفتوى ، وما معنى الإفتاء الذي يحذروا منه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ هل هو مجرد رأي ؟ أم هو رأي يأتي من إنسان معروف به أنه مشغل بعلم الله وبالأحكام ؟ إن الرسول صلى الله عليه وسلم يهنا إلى ذلك مباحة لنا . فقد يصح أصحاب الحق قلة ، وليس لهم نصيب في إيصال رأيهم للناس ، أو أن الذين يملكون الكلمة الإعلامية ليسوا مع أصحاب الحق بل في جانب رجل يسير الباطل أو الركب .

وهنا نرى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعطاه المذعة حتى لا يئأس المنسكون للحق ، فأمر الدين لن يورحاه ، أو بسلام دائم ، بل سجد قوما يفرون أحكام الدين بنفي بينهم ، ويلوون الأشياء ، لذلك أوضح لنا أن المؤمن حَكَمٌ في نفسه ، ويحذروا من الذين يهتدون بالخفي ، إن الإفتاء يحتاجه إنسان من الذي يعلم ، ولذلك جاءت كلمة « يستفتونك » أكثر من مرة في القرآن الكريم ، لأن الدين يطلبون الفتوى هم الذين يحتاجون إلى توضيح لأمر ما ، لأنهم مشغولون بقضية الإيمان ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم يحذرون من الذين يحاولون إلقاء الفتوى ، ويحذر كل مؤمن من أن يسمع لكل فتوى .

ويقول الحق : « ومن يكفر بآيات الله » . إذن فمن هو الذي يكفر بآيات الله ؟ وفي أي مجال ؟ إن انكفر بآيات الله هنا محدد في الاختلاف ، وفي البعض بهم ، أي طلب الاستعلاء بغير حق ، وسمى الحق كل ذلك « كفرا » والمراد منه هذا التشبه لنا ألا نستر أحكام الله بالاختلاف أو المعنى ، وجاء التحذير في تدليل الآية بقوله : « فإن الله سريع الحساب » . فليكن أن نستطيع أمر الجراء ونقول . سأستمع نتيجة الخفي والاختلاف لخدمة من يهمهم أمر الاختلاف ، ويهمهم أمر الخفي ، لأنك تريد أن تتعجل أشياء تظن أنها نامة لك ، لكن ها هو ذا الحق سبحانه يحذرك أن تستطير حسابك ، لماذا ؟ لأنه من الجائر أن يأن لك الحساب من الله في الدنيا ،

وهب أن الله لم يبتل مثل هذا الإنسان سلاء كبير في الدنيا فإن هذا الإنسان سيكون له الحساب العسير في الآخرة .

وقد يقول قائل إن الحساب في الدنيا قد يؤوله الله إلى الآخرة ، والعلامات الصعري للقيامة نحس في مراحنها ، وما زالت العلامات الكبرى ليوم القيامة لم تظهر . مثل هذا القائل نقول هلاك فرق بين الحدث في ذاته ، وبين الحدث فيما يجري عليه الحدث . هناك فرق بين أن تقوم القيامة على الناس جميعا ، وبين أن تنحصر حياة الإنسان بعادته ليست في حسابها ، فقد يعنى الإنسان فتوى اليوم ، ونأى له حادثة فورية تنقله فجأة إلى مربع الحساب ، فإن استنطأ إنسان الحساب ، فعليه أن يعرف أن الآخرة قد نغىء له أسرع من مسائل الدنيا ، لأن الإنسان لا يملك القدرة على إطالة عمره ، ومفتاح العمر عند الخالق الأكرم ، وهو الذى يملك القدرة على أن يقل إليه من يريد في أى وقت . وهكذا تكون الآخرة بالنسبة للمستطاع . للحساب أسرع من حساب الدنيا ، وكلية « حساب » كلمة تغطي المؤمن إلى أن الله قائم بالفضط لا يتحل حتى عمى كمر به أو عصاه ، إن كل إنسان يأخذ ماله ويدفع ما عليه ، ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَحْيَ اللَّهِ وَمَنْ أَسْلَمَ  
وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ مَا أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ  
أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَكَدُوا فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ  
الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ ﴾

« فإن حاجوك » هذا القول يدل على أن الحق سبحانه وتعالى يلقى مبعجه على الرسل اخطام ، ويعطيه الواقع الذى يحيا فيه ، لقد حابه الرسل صلى الله عليه وسلم ثلاثة معسكرات . المعسكر الأول . هم مشركو قريش ، وكان كمرهم في الفقة . والمعسكر لثاني . هو معسكر اليهود والنصارى وبجمعهم مع لأنهم أهل كتاب . والمعسكر الثالث : هو معسكر المنافقين . والمحااجة قد أتت من المعسكر

الثاني ، لأن كفار قريش لم يدعوا أن عندهم ديناً قد نزل من السماء ، أما أهل الكتاب فهم يدعون أن عندهم ديناً منزلاً من السماء ، وعندما يسطع الشرك ديناً فهذا أمر معقول ، أما أن يوضح أهل دين نزل من السماء رسولا جاء بدين حاتم من السماء فهذا أمر يستحق أن نتوقف عنده

ومعنى « فإن حاجوك » أي أنهم يحتاجون الرسول صلى الله عليه وسلم وتم إدغام الحرفين المتشابهين وهما حرفا « الحيم » حتى لا تصحث ثقل على اللسان . ومعنى الحاجة : أن يلجأ كل واحد من الخصمين بحجته وهذا يعنى النقاش ، وما دام هناك نقاش بين حق وبين باطل ، فإن الله لا يترك الرسول صلى الله عليه وسلم . بل يقول له : « فإن حاجوك » أي إن ناقشوك في أمر الإسلام الذي حثت به كدين حاتم ماضى لوثية أو شرك قريش وما مضى له قام أهل الكتاب بتعبيره من مراد الله فقل يا محمد : « أسلمت وجهي لله » وقد قلنا من قبل . إننا عندما نسمع قول الحق . « قل ، كان من الجائز أن يكتفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمقول القول ، وصرت مثلاً على ذلك ، حين يقول الأب لانه : اذهب إلى عمك وقل له : كذا وكذا . وساعة أن يذهب الابن إلى لعم لعلم يقول له : الأمر كذا ، وكذا : إن الابن لا يقول لعمه . قل لعمك كذا وكذا . . لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حافظ على النص الذي جاءه من ربه لأن النص واضح : « فإن حاجوك فقل أسلمت وجهي لله » فهل هذا رد بالحجة ؟ نعم هذا هو الرد ، لأن أهل الكتاب وكفار قريش يأتي فيهم القول :

﴿ رَبِّهِمْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ أَسْمَانَوَاتٍ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ حَقَّقْنِ أَنْعَرِزُ الْعَلِيمُ ۝ ﴾

( سورة الفرقان )

ويأتي فيهم القول الحكيم .

﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝ ﴾

( سورة الفرقان )

والكون كما نعرف : مكان ، ومكان ، فالمكان : هو السماء والأرض والمكين وهو الإنسان والمكان مخلوق لله ، والمكين مخلوق لله وكان من المطلق

أن نسلم وجهنا لمن خلق .

إذن فقول الحق : « فقل أسلمت وجهي لله » أي انتبهوا أيها الناس ، إنني لم أخرج عن دائرة الإيمان بالإله الواحد ، الذي تؤمنون به . إنه هو الذي خلق وهو الذي أوجد الكون . وبعد ذلك إذا كان في الإسلام خضوع ، فإن الحق يأتي بأشرف شيء في الإنسان ليحمله مظهر الخضوع . لأن الوجه هو السمة العالية المميزة ، وهو الذي يظهر عليه انفعالات لأحداث في الكون من سرور أو حزن ، ويظهر عليه أنك قد تكون قد سجدت وأنت كاره لل سجود ، أو سجدت وأنت مقرب لله سبحانه وتعالى فيمثل وجهه بالبشر والبشاشة .

وقول الحق « أسلمت وجهي لله » تعني أن الوجه المسلم لله وهو أشرف شيء في الإنسان قد خضع للحق ، وكأن القول الكريم لم يسبب الخضوع للبدن ولكن لأشرف شيء في الإنسان وهو الوجه ، والوجه يطلق مرة ويراد به الذات كلها ، فعندما يقول إنسان : « أسلمت وجهي » فهو يعني « أسلمت ذاتي » بكل ما أوتيت الذات من جوارح ومن أعضاء . ولتقرأ قول الحق سبحانه :

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ إِنَّ الْحُكْمَ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

( من الآية ٢٨ من سورة القصص )

أي كل شيء هالك إلا ذاته سبحانه وتعالى ، هذا هو المقصود بـ « إلا وجهه » وإلا إن أخلصنا الوجه على أنه الوجه فقط فقد يقول قائل : أليس لله يد مثلاً ؟ ونقول : إن له يداً في نطاق ليس كمثله شيء ، ولذلك فلا يد الله تمك ولا أي شيء فيه يهلك ، ووجهه يعني ذاته في نطاق ليس كمثله شيء . وأطلق الوجه على الداب ، لأن الوجه هو الشخص للداب ، فلا يستطيع أحد أن يميز أعضاء بدن من أعضاء بدن ، إنما التمييز يأتي بسمة الوجه ، لأنها السمة المميزة وقول الحق في تلقيه لرسول الله : « فقل أسلمت وجهي لله ومن اتبعن » . تدل على أن الرسول قد أسلم وجهه لله ، لأن الله خاطبه برسالة الوحي ، والوحي يشره صلى الله عليه وسلم ، ولكن حين يقول : « ومن اتبعن » فقد قام الدليل لمن اتبعني ، وإن لم يكن مخاطباً من الله مباشرة .

إذن فلا مجال لأن يقول قائل للرسول صلى الله عليه وسلم : أنت أسبغت وجهك لله لأنه خاطبك وحدك ، وكان صاحب هذا القول يريد خطاباً لكل مؤمن ، قال سبحانه . « ومن اتبع ، فمن اتبع الرسول فقد آمن بأن محمداً صلى الله عليه وسلم هو رسول صدق مبلغ عن الله منهج حق ، فلا مجال لطلب البلاغ لكل فرد ، لأن البلاغ قد وصل إليهم بالإيمان بما أنزل الله على رسول الكرم ويأمر الحق سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم « وقل لنذين أوتوا الكتاب والأمين أسلمتم » .

ومسألة نقرأ أو نسمع أسلموا فيه « مرة الاستغهام » فلك أن تعرف أن الاستغهام يُطلب منه أن تعرف الحقيقة ، كقول إنسان لآخر : أعندك محمد ؟ أو أزارك فلان ؟ إن هذا استغهام المراد به فهم الحقيقة ، ومرة يريد الاستغهام مجرد الأمر شيء ، كأن يأتبك ضيف وتجلس معه ويدخل عليك والدك فيقول لك : أصغت قهوة لضيفك ؟ إن ذلك توجه لك إن كنت لم تقم بواجب الضيافة فعليك أن تسرع في القيام بها الواجب . وعلى ذلك نفهم قول الحق : « أسلمتم » ولذلك نقرأ قول الحق سبحانه بعد الكلام عن الخمر

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴾

(سورة المائدة)

إن قول الحق : « هل أنتم منهون » يتضمن استغهاما ، والاستغهام هنا يعني الأمر بالانتهاء من مجال لآفة التي تعرض لها بالمخاطرة بعد قول الحق : « أسلمتم » تعني الدعوة للإسلام ، أي « أسلموا » وجاء بعد ذلك قول الحق الكريم . « فإن أسلموا فقد اهتدوا » ومعنى « اهتدوا » أنهم عرفوا الطريق الموصل للخلافة التي خلق الله من أجلها الإنسان . وهنا يجب أن تعلم أن كلمة « الإسلام » هنا جاءت لتدل على الخضوع ، والخضوع لا يُلحظ إلا من خاضع ، وعملية الخضوع تعرف بالحركة والسلوك ، ولا تعرف فقط بالاعتقاد ، ولذلك فالإمام على كرم الله وجهه الذي أرق شيئا من نفع النبوة في الأداء الإيماني بالأسلوب البين الجميل قال الإمام علي لإخوانه : مناسب للإسلام نسا لم ينسبه قبل أحد : الإسلام هو اليقين ، واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الإقرار ، والإقرار هو الأداء ، والأداء

هو العمل ، والمؤمن يُعرف بإيمانه بالعمل . ونحن في حياتنا العادية نسال ما سب فلان ؟

أى أنا نسال : هو ابن من ؟ ؟ ومعنى كلمة « سابه » عند العرب هو الرجل الذى يعرف سلسلة السب ، ومن ابن من ، هلال ابن فلان ابن فلان ، ابن فلان والإمام على كرم الله وجهه ، حين ينسب الإسلام يسبه بالفعل إلى نسب لم يسبه قبله أحد . وحين يسهى الإمام على كرم الله وجهه إلى أن نسب الإسلام إلى العمل قال :

المؤمن يعرف إيمانه بالعمل . فالدليل الصحيح على إيمان المؤمن هو عمله . ويصيف الإمام على كرم الله وجهه : « لكافر يُعرف كفره بالإنكار ، وإن المؤمن قد أحد دينه من ربه ، ولم يأخذه برأيه . والنية في الإسلام خير من الحسنة في غيره ؛ لأن أسبئة في الإسلام تغفر ، والحسنة في غيره لا تقبل ؛ لأن الكفر يصاحبها بالله ، هل هناك نسب للإسلام أروع من هذا ؟ وهكذا نحدد القول الكريم : « فإن أسلموا فقد اهتدوا » . والمقابل للإسلام يأتى بعد ذلك . « وإن تولوا فإنما عليك اليبلاغ » إن المقابل هو « تولوا » أى لم يسلموا ، إنه الحق بينه رسوله ألا يحزن ، وألا يأسف إن تولوا ، كما جاء في قوله الكريم :

﴿ فَمَعْلَكَ بَنِيخَ نَفْسَكَ عَلَى ءَاتِرِهِمْ ؕ لَئِنْ يُّؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾

( سورة الكهف )

لماذا ؟ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم عليه البلاغ فقط ، ومادام قد جاء في صدر الآية : « أسلمت وجهى لله ومن اتبعه » فإن البلاغ أيضا يشمل السلى صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه ، ولذلك تأتي آية أخرى لتشرح هذه القصبة الإيمانية ، وتبقى الرسالة في أمة صلى الله عليه وسلم ، ولتجبرنا أيضا لماذا لم بعد هناك داع لوجود أنبياء بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ذلك أن المؤمنين برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمناء على أن يعدلوا مساد السلوك في الكون ، فتم يعد العالم في حاجة إلى أنبياء جدد لهذا السب قال ارسول : صلى الله عليه وسلم : ( العلماء ورثة الأنبياء )<sup>(١)</sup>

(١) وراء الإمام أحمد في مسنده وأبو داود والترمذي ومسنده ابن حبان والحاكم

إذن « فعلبك البلاغ » نأخذ منها الفهم الواضح أن البلاغ لا تنهى مهمته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما يشمل كل عالم بالبلاغ الذى وصل إلى رسول الله وأمن به ، فقد كان لهم في رسول الله أسوة حسنة ، ويوضح الحق ذلك في آية أخرى :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُقْسُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْأَكْثَرِ لَكَانَ حَيْرًا لَهُمْ مِمَّنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ١١٠ ﴾

( سورة آل عمران )

ويقول الحق في آية أخرى :

﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَتَّى يُجَاهِدَهُ هُوَ أَوْ جُنُبُكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ١٧٨ ﴾

( سورة الحج )

ومعنى ذلك أنكم تشهدون عن الناس أنكم أبلغتموهم رساله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن لم يقم بإبلاغ الناس برسالة رسول الله فهو لم يأخذ ميراث النبوة . وميراث النبوة كما يكون شرف تبليغ ، فهو أيضا تجلّد وتحمل ، إن ميراث النبوة يكون مرة هونيل شرف التبليغ لرسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومرة أخرى يكون ميراث النبوة هو جلالة التحمل في سبيل أداء الرسالة ، وجلالة التحمل هي التي يجب أن يتصف بها أتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، فكما ورثناه نحن المسلمين في شرف النبوة فإننا نرثه في جلالة التحمل ، وهذا هو معنى القول الحق :

﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾

( من الآية ٧٨ من سورة الحج )



فما معنى الأسوة إذن ؟ إن الأسوة في رسول الله صلى الله عليه وسلم تقتضي أنه مادام قد تحمل مجلادة بلاغ الناس في رسالته ، فعلياً أيضاً أن تقتدى به . لقد نأصل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى أتباع رسول الله أن يتأصلوا في سبل شر الدعوة ، فإن رأيت أهل الدين في استرخاء وترهل وعدم قدرة على الضال في سبيل البلاغ عن الله فلتعلم أن هؤلاء القوم لم يأخذوا ميراث النبوة . ولذلك إذا رأيت عالماً من علماء الإسلام ليس به أعداء فأعلم أنه قد نقص ميراثه من ميراث الأنبياء .

لماذا ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان له أعداء وكان يواجههم ، فساعة أن ترى رجلاً حين وله أعداء فاعرف أنه قد أخذ حظه من ميراث الأنبياء ولنظر لأن إلى قون الحق سبحانه تذييلاً للآية يوضح لما للإسلام . « والله بصير بالعباد » لم يقل الله . إنه عليم بالعباد ، لأن « عليم » تكون للأمور العفدية ، لقد قال الحق في وصف ذاته هنا : « إنه بصير بالعباد » ، وبصير لا يأتي إلا ليدرك حركة وسلوكاً فماذا يرى الله من العباد ؟ إنه - سبحانه - يرى العباد المتحركين في الكون، وعلى حركة العبد منهم تطابق الإسلام أولاً ؟ ومتابعة لحركة تحتاج إلى البصر ، ولا تحتاج إلى العزم ، وكأن الحق سبحانه وبغالي يقول . إن كنتم تعتقدون أن لا أراكم ، فالخلل في إيمانكم ، وإن كنتم تعتقدون أن أراكم فلم جمعلتموه أهول الباطنين إليكم ؟

إذن فقول الحق : « والله بصير بالعباد » نفهم منها أن الإسلام سلوك لا اعتقاد فقط ، لأن الذي يرى هو العمل لا المعتقدات الداخلية . ومادام الله بصيراً بكل سكنات الإنسان وحركاته فإن الإنسان يستحي أن يراه ربه على غير ما يجب ، وأضررت هذا المثل للتقريب لا للتشبيه فالحق سبحانه له المثل الأعلى وليس كمثله شيء ، نحن في حياتنا العادية نجد أن الشاب الذي يدخل يستحي أن يظهر أمام كبار عائلته كمدحس ، فهتبع عن التدخين أثناء تواجده مع الكبار ، فم بالمد بالعباد وهو يعتقد أن الله يراه ؟ وبعد ذلك يقول الحق :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ  
الَّذِينَ يَبْغِي حَقَّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ  
يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

وقلنا إن الحق حين يقول : « إن الذين يكفرون بآيات الله » هم الذين يكفرون بآيات الله على إطلاقها ، وهناك فرق بين الكفر بآيات الله وبين الكفر بالله . لماذا ؟ لأن الإيمان بالله يتطلب اليقين التي تدل على الله ، واليقات الدالة على وجود الله موجودة في الكون .

إذن فالبيات واضحة ، إن الذي يكفر بالله يكون قبل ذلك كافر بالأدلة التي تدل على وجود الخلق . إن الحق لم يقل هنا : إن الذين يكفرون بالله ، وذلك حتى يوضح لنا أن الحق غيب ، ولكن الآيات البيات ظاهرة في الكون ، لذلك قال : « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون الذين » ولنا أن ملاحظ هنا ، أن كلمة القتل تأتي دائما للذين ، أي أنها لا تأتي للذين أعدوا صفة تريد على مهمة التي ، وهو الرسول ، فليس من المعقول أن يرسل الله رسولا ليبلغ منهج الله ، فيقدر الله خلقه على أن يقتلوا الرسول . لكن الأنبياء يرسلهم الله ليكونوا أسوة سلوكية للمؤمنين ، ولا يأتي الواحد منهم بتشريعات جديدة ، أما الرسول فإن الله يعطيه حاملا لمنهج من الله . وليس من المعقول أن يصطفى الله عبدا من عباده ويتخلصه ليبلغ منهجه ، ويمكن الله بعد ذلك بعضا من خلقه أن يقتلوا هذا الرسول

إن الحق لا يقدرون على رسول أرسله الله ، لكنهم قد يقدرون على الأنبياء ، وكل واحد من الأنبياء هو أسوة سلوكية ، ولذلك نحدد أن كل من يتبعه على دين الرسول السابق عليه ، فلماذا يقتل الخلق الأسوة السلوكية . ما دام النبي من هؤلاء قد جاء ليكون محمدا أسوة ، ولم يأت بدين جديد ؟ فلو كان النبي من هؤلاء قد جاء بدين جديد ، قلنا : إن التعصب للدين السابق عليه هو الذي جعلهم يقتلونه ،

لكل النبي أسوة في السلوك ، فسيادا القتل ؟ إن أسى من هؤلاء يؤدي من العادة ما يجعل القوم يتسهون إلى أن السلوك الذي يعمله لشي لا يأتي وفق أهوائهم

إن القوم الذين يقلون النبي هم القوم الذين لا يوافقون على أن يسلوكوا السلوك الإسلامي الذي يعنى إحصاع الجوارح ، والحركة بنطق الدين ولطوق الإسلام . لماذا ؟ لأن أسى وهو مستم بشرع الرسول السابق عليه ، حتما يلتزم بدين الله بين جماعة من غير الملتزمين يكون سلوكه قد طعن عبر الملتزمين .

إن وجود النبي الذي يتصكك بشرع الله ، ويحصى جوارحه ، وسلوكه لمنهج الله بين جماعة تدعى أنها تدين بدين الله ، ولكي لا تتصكك بمنهج الله تحملهم إلى أن يقولوا ماذا يفعل النبي هذا السلوك القويم ، ولماذا يحصى جوارحه لمطلق الإيمان ، ويحصى غير ملتزمين مثله ؟ وهذا السؤال يثير العيب والحقد على النبي بين هذه الجماعة غير الملتزمة بدين الله ، وإن أغضت في ظاهر الأمر التزامها بالدين إنهم يحقدون على النبي لأنه يرتفع سلوكه المسلم ، وهم لا يستطيعون أن يرتفعوا ليكونوا مثله

إن النبي بسلوكه الخاص بمنهج الله يكون أسوة واضحة جليلة يظهر بها الفرق بين مجرد إعلان الإيمان بمنهج الله ، وبين الالتزام السلوكي بمنهج الله ، وتكون أسوة النبي تحفة لهم . ولذلك حين نجد إنسانا ملتزما بدين الله وصيحه ، فإننا نجد غير الملتزم بالملتزم بالسحرية والاستهزاء ، لماذا ؟ لأن غير الملتزم بمثل سلوكه والحقد على الملتزم القادر على إحصاع نفسه لمنهج الله ، ويسأل غير الملتزم نفسه :

لماذا يكون هذا الإنسان قادرا على نفسه محصيا لها لمنهج الله وأنا غير قادر على ذلك ؟ إن غير الملتزم يحاول إراحة الملتزم ويحاف من أمامه لماذا ؟ لأن غير الملتزم يتضاءل في نظر نفسه ونظر الآخرين إذا ما قارن نفسه بالملتزم بمنهج الله ، وعندما يقارن الآخرون بين سلوك الملتزم بمنهج الله وسلوك غير الملتزم بمنهج الله فهم لا يحقدون غير الملتزم ، فيشعر بالصغار النفس أمام الملتزم وأمام الناس . فيحاولون غير الملتزم أن يربح الملتزم ويحبه عن طريقه ، إن غير الملتزم بمنهج الله يحقدون ويتغاضبون عن الملتزم بمنهج الله ، كما يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُتِرُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۝ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ۝ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَسَآئِرُونَ ۝ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِيطِينَ ۝ ﴾

( سورة المطففين )

الا توضح لنا تلك الآيات البينات ما يقوله غير المتزمين في بعض مجتمعاتنا للمتزمين بمنهج الله ؟ ألا سمع قول خير المتزمين للمتزم بمنهج الله : « حدث على جناحك » ؟ إن هؤلاء غير المتزمين ينطبق عليهم قول الحق :

﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ ۝ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ۝ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَسَآئِرُونَ ۝ ﴾

( سورة المطففين )

إن غير المتزمين قد يبرح الواحد منهم ، لأنه استطاع السحرية من مؤمن ملزم بالله . وقد يتهم غير المتزمين إسماعيلاً ملزماً بأن الالتزام حلال . والحق سبحانه وتعالى يرد على هذا الاتهام بالقول الكريم :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفِيطِينَ ۝ ﴾

( سورة المطففين )

الحق يرد على الساحرين من المتزمين بمنهج الله ، فيضحك الذين آمنوا يوم القيامة من الكفار ، وينسأهل الحق بجلال قدرته ونعم جبروته .

﴿ قَالِ يَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ۝ عَلَى الْأَرْءَاكِ يَطْرُونَ ۝ هَلْ تُؤَمُّونَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ۝ ﴾

( سورة المطففين )

هكذا يقال غير الملتزمين عما هم ، فإذا عن الدين يقتلون السيى بغير حق ؟ إن لى  
أن سأل : لماذا وصف الله قتل السيى بأنه « بغير حق » ، وهل هناك قتل لسيى  
بحق ؟ لا يمكن أن يكون هناك قتل لسيى بحق ، وإذ كان الله قد قال : « ويقتلون  
السيى بغير حق » هذا القول الكريم قد أتى ليوضح واقعا ، إنه سبحانه يقول بعد  
ذلك فى سلسلة أعمال هؤلاء الذين يقتلون لسيى بغير حق : « ويقتلون الذين  
يأمرون بالفسط من الناس » إسم لم يكتفوا بقتل السيى ، بل يقتلون أيضا من يدافع  
من المؤمنين عن هذا السيى كيف ؟ لأنه ساعة يُقتل سيى ، فالذين النرموا بجهج  
انسيى ، وكانوا معه لابد هم ن يعصبوا ويكرهوا .

إن أنماع السيى يفعلون يحدث قتل السيى ، فإن استطاعوا منع ذلك القتل لفعلا  
وإن لم يستطع أتباع السيى منع قتل السيى فلا أقل من أن يأمرؤا بالمعروف وينهؤا عن  
المكر ، لكن القتلة يتجاوز طعياهم فلا يقتلون السيى فقط فإذا قال لهم مكر  
لنصرهم : ولماذا تقتلون السيى ؟ عليهم يقتلوه أيضا ، وبالتنسة لرسولا محمد صلى  
الله عليه وسلم ، نحن نعرف أن أعداء قد صنعوا معه أشياء أرادوا بها اغياله ،  
وذلك يدل على عبء الذين فكروا فى ذلك الاغتيال

لماذا ؟ لأنهم لم ينظروا إلى وضعه صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن بيا فقط ،  
ولكن رسول أيضا وما دام رسولا فهو أسوة وحامل لمنهج فى أن واحد ، فهو كان  
محمد صلى الله عليه وسلم نهيا فقط فكان فى استطاعتهم أن يقتلوه كى قتلوا السيى  
من قبل ، لكنه رسول من عند الله ، ولقد راوه يحمل منجها جديد ، وهذا المنهج  
يسمى أحلامهم ، ويوضح أكاديبهم ، من تدليلهم لكتب المروة عليهم .

إذذ ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم رسولا يحمل رسالة ومبها ، وحينما  
أرادوا أن يقتلوه كسبى ، قتلوا عن كونه رسولا ولذلك قال الحق مطمئنا ما ومحدثا  
رسوله صلى الله عليه وسلم

﴿ يَا أَيُّهَا الرُّسُوفُ بَلِّغْ مَا أُرِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ

يَقْصُصُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدَى الْقَوْمَ الْكَاثِرِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾

الرسول الكريم يدن حامل رسالة ومعصوم بالله من أعدائه ، والحق سبحانه وتعالى قد حكى عن الذين يقتلون الأنبياء ، وأراد أن يطمش المؤمنين ، ويطمش الرسول على نفسه ، وأن يعرف خصوم رسول الله أنه لا سبيل إلى قتله ، فيقول الحق :

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾

( من الآية ٩١ من سورة البقرة )

ولماذا يأتي الله بـ « من قتل » هذه ؟ إنه يوضح لنا والمرسل ولأعداء محمد صلى الله عليه وسلم أن مسألة قتل الأنبياء كان من الممكن حدوثها قبل رسول الله ، لكن هذه المسألة صارت منتهية ، ولا يجرؤ أحد أن يمارسها مع محمد رسول الله ، وبذلك طمأن الحق المؤمنين ، وطمأن رسول الله بأن أحدا لن ياله بأذى ، ولذلك قال الحق

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾

( من الآية ٦٧ من سورة المائدة )

وأما الحق الذين يريدون قتل رسول الله فقد قال لهم

﴿ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ ﴾

( من الآية ٩١ من سورة البقرة )

ولو أن المسألة مسألة نبوة ، ورسالة رسول الله غير داخلية في مواجيدهم ، وكان إنكارهم لرسالته عمادا ، لكانوا قد قالوا « إن مسألة قتل الأنبياء لا تتوقف عند » من قبل ، لأننا سنجعلها « من بعد » أيضا ، ولكانوا قد كتلوا قواهم وقتلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لكن الله سبحانه أيأسهم وقطعهم من ذلك ، وذلك من مناط قدرته الله . وإذا كان الحق سبحانه وتعالى يحكى عن أمر قتل الأنبياء ، وقتل الذين يأمرهم بالقسط ، أكان ذلك معصرا لقول الرسول هذا ؟ أو كان هذا الكلام لمن ؟ إنه موجه لبعض من أهل الكتاب ، إنه موجه لمن آمنوا باتباع الذين قتلوا النبيين من قبل ، وقتلوا الذين يأمرهم بالقسط ، لقد آمنوا كإيمان السابقين لهم من قتل الأنبياء ، وقتلهم للذين يأمرهم بالقسط

وهذا تقريع هؤلاء الذين اتبعوا في الإيمان قوما قتلوا لأنبياء من قبل ، وقتلوا  
الذين يأمرهم بالفسط ، به تقريع وتساؤل . كيف يؤمنون كإيمان الذين قتلوا الأنبياء ؟  
وكيف تتعبدون من فعل مثل ذلك ؟ وقد قص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن  
بنو إسرائيل قد قتلوا ثلاثة وأربعين نبيا دفعة واحدة ، فقام مائة وسبعون من أتباع  
الأنبياء لينكروا عليهم ذلك ، فقتلوه<sup>(١)</sup> ، وهذا هو معنى هذه الآية الكريمة :  
﴿ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ  
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾

( من الآية ٢١ من سورة النمل )

لماذا يبشرهم الحق بعذاب أليم ؟ أليس معنى التبشير هو إخبار بما يسر في أمدهم  
أن يؤمن فيه العمل الذي يسر ؟ إن التبشير دائما يكون للعمل الذي يسر ، كتبشير الحق  
للمؤمنين بالجنة ، ومعنى التبشير بالجنة أن الله يحبر المؤمن بأمر يسر له المؤمن ،  
ويعطى الحق لفرصه للمؤمن لينفذ منهج الله ليأخذ الحائزة ولبشارة .

لماذا يكون الحديث بالبشارة موجها لأبناء الذين فعلوا ذلك ؟ لاسا نعرف أن الذين  
قتلوا النبيين وقتلوا الذين أمروا بالقسط من الناس لم يكونوا معاصرين لزول هذه  
الآية . إن المعاصرين من أهل لكتاب لزول هذه الآية هم أبناء الذين قتلوا الأنبياء  
وقتلوا الذين أمروا بالفسط ، وببشرهم الحق بالعذاب الأليم ، لأنهم ربما رأوا أن  
ما فعله السابقون لهم كان صوابا . فإن كانوا قد رأوا أن ما فعله السابقون هم كان  
صوابا فلهم أيضا البشارة بالعذاب .

وتتسع دائرة العذاب لهم أيضا ، ولكن لماذا يكون العذاب بشارة لهم ، رغم أن  
البشارة غالبا ما تكون إخبارا بالخير ، وعملية العذاب الأليم ليست خيرا ؟ إن علينا  
أن نعرف أنه ساعة نسمع كلمة « أبشر » فإن النفس تتفتح لاستقبال خير يسر ،  
وعندما تستعد النفس بالسرور والبساط الأسارير إلى أن تسمع شيئا حسنا يأتي  
قول : أبشر بعذاب أليم ، ماذا يحدث ؟ الذي يحدث هو انصاف مفاجيء أليم ،  
ابتداء مطمح « ببشرهم » وانتهاء مؤتس ( بعذاب أليم ) وهذا يكون لإحساس  
بالخصية أشد لأن الحق لو أسرههم ولو عدهم من أول الأمر بدون أن يقول

« مبشرهم » لكان وقوع الخبر المؤلم هب . لكن الحق يريد ليعبر أن يقع وقوعاً صاعقاً ، ومثال لذلك قول الحق :

﴿ وَإِنْ يَسْتَفِشُوا يَغْثُوا يَمَآءَ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾

( من الآية ٢٩ من سورة الكهف )

إنهم يستفشون في الآخرة ، ويمشون بالفعل ، ولكن بماذا يغثهم الله ؟ إنه يعيثهم بماه كالمهل يشوي الوجوه . إنا ساعه أن نسمع « يغاثوا » قد نظر أن هناك عرجاً قادمًا ، ولكن الذي يأتي هو ماء كالمهل يشوي الوجوه . وهكذا تكون البشارة بالنسبة لمن قتلوا الأنبياء أو لأتباع القتل . الذين آمنوا بمثل ما آمن به هؤلاء القتل . « مبشرهم بعذاب أليم » وكلمة « عذاب » تعني إيلام حتى يحس بالألم . والعذاب هو للحق الذي يظل مثلاً ، أما القتل فهو ينهي النفس الواعية وهذا ليس بعذاب ، بل العذاب أن يبقى الشخص حياً حتى يتألم ويشعر بالعذاب . وقول الحق : « بعذاب أليم » يلفتنا إلى قوته تعالى .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَاقِبَتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّ نَفْسٍ كُفِرَتْ بَدَلَتْهُمْ جُودًا  
عَمِيمًا لِيَأْكُلُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ٢٦ ﴾

( سورة النساء )

أي أن الحق يديم عليهم الحياة ليدوم عليهم لتعذيب . وبعد ذلك يقول الحق .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي  
الْأَلْبَاسِ وَأَلْأَحْزَرَةِ وَمَالُهُمْ مِنْ نَّعِيمٍ ٢٧ ﴾

إنهم الذين كفروا بآيات الله ، وقتلوا السيئين معير حق ، وقتلوا الذين أمروا بالقسط بين الناس ، هؤلاء هم العذاب ، ولهم أيضا حبط العمل في الدنيا



والآخرة ، وكذلك من نصح نصحهم ، ومعنى « حطت » أى لا ثمرة مرجوة من العمل ، إن كل عمل بممّله العاقل لابد أن يكون له هدف يقصده ، فأى عمل لا يكون له مقصد يكون كضربة المجنون ليس لها هدف . إن العاقل قبل أن يفعل أى عمل ينبغي أن يعرف العاية منه ، وما الذى يحققه من النفع ؟ وهل هذا النفع الذى سوف يحققه هو خير النفع وأدومه ، أو هو أقل من ذلك ؟

وعلى ضوء هذه المقاييس يحدد العاقل عمله ، وحينها يقول الحق : « أولئك الذين حبّطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، هم سيجاهنهم يريد أن يجربوا أن يسانقوا قد يفعل عملاً هو في ظاهره خير ، فليكن أن تفتريا بها المؤمنين بأنه عملٌ خيراً ، لماذا ؟ لأن عمل الخير لا يحسب للإنسان إلا سية إيمانه بمن يجازى ، فالإنسان إن عمل عملاً قد يصلح به دنياه فهو عمل حسن ، فهذا يكون عمله هؤلاء حابطاً في الدنيا ، وفي الآخرة ؟ إنه حابط بموازين الإيمان ويكون العمل حطاً لأنه لم يصدر من مؤمن ، لأن ذلك الإنسان قد عمل العمل ثقة بنتيجة العمل ، لا ثقة بالأمر الأعلى

إن الإنسان المؤمن حين يقوم بالعمل يتوكل بالعمل ثقة في الأمر الأعلى وبعض من الناس في عصرنا يأخذون على الإسلام أنه لا يجازى الجراء الحسن للمكفرة الذين قاموا بأعمال مفيدة للبشرية . يقول الواحد منهم . هل يعقل أحد أن « باستير » الذى اكتشف الميكروبات ، والعام الآخر لذى اكتشف الأشعة ، وكل هؤلاء العلماء يذهبون إلى النار ؟ وهؤلاء يقول . نعم ، إن الحق بعدلته أراد ذلك ، ولستأص من أسم إلى أعراف الناس . إن الذى يطلب أجره على عمل يطلبه من ؟ إنه يطلب الأجر من عمل له . فهل كان الله في مال هؤلاء العلماء وهم يفعلون هذه الأعمال ؟ إن بهم كان مشغولاً بالإنسانية ، وقد أعطتهم للإنسانية الحفيد ، وغير ذلك من مكاسب الدنيا ، وينطق عليهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

( إن أول الناس يُنقى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأى به معرفته نعمه ففرغها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : قاتلت معك حتى استشهدت قال : كذبت ، ولكك قاتلت لأن يقال . جرى ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب عن وجهه ، حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأى به معرفته نعمه ففرغها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت معك القرآن قال كذبت ، ولكك تعلمت العلم ليعال هام ، وقرأت القرآن ، ليعال . هو قارىء ،

فقد قيل ، ثم أمر به ، فسحب على وجهه ، حتى ألقي في النار ، ورجل وشع الله عليه ، وأعطاه من أصناف المال كله ، فأنى به ، فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ؟ قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ، ولكنك فعلت ليقال : هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر به فسحب على وجهه ، ثم ألقي في النار (١١) .

إذن فإذا كان الجزاء من الله ، فلنا أن سأل : هل كان الله في بال هؤلاء العلماء حينما أنجبوا محترعاتهم ؟ لم يكن في بالهم الله - والذي يطلب أجرا ، فهو يطلبه من عمل له - ولم يصب الله ثمرة عملهم ، بل دوت عليهم أعمالهم الذكر والجاه والرفعة . لم يضع الله أجر من أحسن عملا

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ (١٢)

( سورة الشورى )

وقد قست بكم قدي - نذكروا المفاجأة التي تحدث لمن عمل عملا هو في ظاهره خير ، ولكن لم يكن ربه في باله ، هذا ينطبق عليه قول الحق

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُوا كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْثَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ لَمَسَهُمْ سَيْفٌ مِنْ رَبِّهِمْ يُصَدِّقُهُمْ عَلَيْهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي سَرَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١٣)

( سورة النور )

إنه يعاقب بوجود الله ، ولم يكن هذا الإله في ماله ساعة أن قام بهذا العمل الذي هو في ظاهره خير ، كأن الله يقول لصاحب مثل هذا العمل : أما لم أكن في بالك ساعة أن قست بهذا العمل ، فخذ جزاءك من كان في بالك - أولئك الذين حطب أعمالهم في الدنيا والآخرة وما لهم من فاصرين - إن أعمالهم حطبت في الدنيا ، لأنهم قد يعملون عملا يراد به الكيد للإسلام ، لذلك لا يمكنهم الله من ذلك ، بل يحذرهم

هيما . وانتصر دين الله رغم قلة العدد وقلة العدد وليس هؤلاء ناصرون . أي ليس لهم من يأتى ويرهم مهرومين أمام خصم لهم وينجدهم ، إسم بن يحدوا ناصرا إذا هزمهم الله ، فليس مع الله أحد غيره . وبعد ذلك يقول الحق

﴿الَّذِينَ آمَنُوا نَسِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ  
يَدْعُونَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ  
مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٢٢)

ويعرف أننا ساعة نسمع قول الحق . ( ألم تر ) . فهذا همزة استهزاء ، وهنا أداة نفي هي « لم » ، وهنا « تر » ومعناها أن يستحدم الإنسان آلة الإبصار وهي العين . فإذا ما قال الله لرسوله : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم معرصون » إن هذه دعوة لأمر واضح . لكن في بعض الأحيان تأتى « ألم تر » في حادث كان رحمه قبل بعثته صلى الله عليه وسلم فلم يره رسول الله كقول الحق .

﴿أَمْ تَرْجَىٰ مَعْلَ رَبِّكَ يَا مُصْحَفِ الْعَمَلِ﴾

( سورة النمل )

إن السرى صلى الله عليه وسلم لم ير أصحاب العميل ، إذن ساعة تسمع « ألم تر » ، إن كان حدثها من المعاصر ، فمن الممكن أن تكون رؤية ، والرؤية تؤدى إلى علم يقين ، لأنها رؤية لمشهود ، وإن جاءت « ألم تر » في أمر قد حدث من قبل ، أو أمر لما يحدث بعد . فهي تعنى « ألم تعلم » ، لأن الرؤية سيادة الأدلة ، فكان الله سبحانه وتعالى ساعة يقول لرسوله في حادث لم يشهده الرسول : ألم تر ؟ فهذا معناه : ألم تعلم ؟

وقد يقول قائل ولماذا لم يأت بـ « تعلم » وجاء بـ ( تر ) ؟ لأن سيادة الأدلة هو الدليل امرئى ، فكان الله يريد أن يحجها بـ « ألم تر » أن تأخذ المعلومة من الله هل أنها

مرئية ، وليكن ربك أوثق عندك من حيثك ، إنك قد لا ترى ما تفعل هذا الأمر الذي يخبرك به الله ، ولكن لأن الفائل هو الله ، ولا توجد قدرة تخرج ما يقوله الله على غير ما يقوله الله ، لذلك فقد قلنا ساعة يعبر الله عن الأمر المستقبل الذي سيأتي بعد ، فإنه قد يعبر عنه بالماضي ، فالحق قد قال :

﴿ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ① ﴾

( سورة النحل )

لهل يسجّم قوله . « أن أمر الله » مع « فلا تستعجلوه » ؟ إن الأمر الذي يجبرنا به الله قد أتى ، فكيف يمكن عدم استعجاله ؟ إن « أن » معناها أن الأمر قد حصل قبل أن يتكلم . يجب علينا إذن أن نعرف أن الذي قال « أن » قادر على الإتيان به ، فكونه أمر واقع ، إنما مسألة لا تحتاج إلى جدال ، لأنه لا توجد قوة تستطيع أن تنارع الله لتبرز أمرا أراد في غير مراده . فكان قوله الحق : « ألم تر » إن كانت تحكى عن حدث فات ربه فالذي يأتي منها هو العلم ، لأنه إخبار الله ، وإن كانت تحكى عن حدث معاصر فالذي يأتي منه أيضا هو العلم ؛ لأنه صادر عن رؤية ومشاهدة

وعندما يقول الحق : « أم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب » « وأوتوا » تلقينا إلى قوم قد نزل إليهم منهج من أعلى . ولذلك يأتي في القرآن ذكر المنهج « نزل » و « أنزل » ، وذلك حتى نشعر بعو المكائنة التي نزل بها المنهج . وما هو النصيب ؟ إنما تسمى النصيب « الحظ » ، أو حارج القسمة ، كأن يكون عند عشرة دنانير ، ونقسمها على أربعة فيكون لكل واحد خمسة ، هذه الخمسة الدنانير هي التي تسمى « نصيبا » أو « حضا » ، والنصيب . « حظ » أو « قسمة » يضاف لمن أخذه

إد ، فلماذا يقول الحق « الذين أوتوا نصيبا من الكتاب » إنما لفظة جميلة ، فالكتاب كله لم يبق لهم ، إنما الذي وصل وانتهى إليهم جزء بسيط من الكتاب ، فكان هذه الكلمة تنه الرسول والسمعيين له أن يعدلوا هؤلاء القوم حيث لم يصلهم من الكتاب إلا جزء يسير منه ، إن نصيبا من الكتاب فقط هو الذي وصلهم .

راجع أصله وخرج أحاديثه الدكتور أحمد عمر هاشم نائب رئيس جامعة الأزهر

ويشرح الحق ذلك في آيات أخرى .

﴿ فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِنْهُمْ لَعَنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ  
وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَآئِيَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ ﴾

( من الآية ١٣ من سورة النجم )

إن الجحرة المسمى من الكتاب لم يأخذ المعاصرون لرسول الله . وقلنا أيضا . إن  
الحق قد أوضح أن بعضهم كتم بعضا من الكتاب .

﴿ الَّذِينَ اتَّبَعَهُمْ أَلَكَتْ يَرْفُوقُهُمْ كَمَا يَرْفُوقُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنْ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ  
الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

( سورة النجم )

ومادام هناك من كتم بعضا من الكتاب فمعنى ذلك كتمانهم عن المعاصرين له ،  
وهناك أساس منهم محدثون ، فشيء من الكتاب قد نسي ، وبالتالي مسح من  
الذاكرة ، وهناك شيء من الكتاب قد كتم ، فصار معلوما عند البعض ، وغير معلوم  
عند البعض الآخر ، وحتى الذي لم يكتبوه ، جاء فيه القول الحكيم

﴿ وَإِذَا مِنْهُمْ لَفِيقًا يَتَوَدَّ السِّتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ  
وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ  
يَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

( سورة النجم )

إذن فالكتاب الذي أرسل إليهم من الله قد تعرض لأكثر من عدوان منهم ، ولم يبق  
إلا حظ من الكتاب ، وهذا الخط من الكتاب هو الذي يحدد القرآن به هؤلاء  
أساس ، إن القرآن لا يجادلهم فيما يبدل عندهم بفعل أجهارهم وورعهم السابقين ،  
ولكنه يجادلهم بالمصيب الذي أوتوه

يقول الحق : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله

ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . وعن أى كتاب الله تتحدث هذه الآية ؟ هل تتحدث عن القرآن ؟ لو كان الحديث عن القرآن فلا بد أنه حُكِّمَ في أمر بينهم وبين رسول الله ، لكن لديهم أوتوا نصيبا من الكتاب قد احتلوا فيها بينهم ، ولماذا يخلعون فيها بينهم ؟ السبب هو أيضا نون من المعنى فيها بينهم . وإذا كان الكتاب هو القرآن ، أليس القرآن مصدقا لما معهم ؟

إذن فعندما يدعون يتم التصديق على ما جاء في كتبهم ، والدعوة هنا لأن يسود حكم القرآن وما معنى « يدعون إلى كتاب الله » ، إن الداعى هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهم المدعون ، وما دام الحق قد قال « أوتوا نصيبا من الكتاب » فهل كان خلافهم في نصيب الذى بين أيديهم أم النصيب المحدوف ؟ إنه خلاف بينهم في النصيب الذى بين أيديهم ، ليكون ذلك حجة على أنهم غير مأمونين حتى على ما وصل إليهم وما هو مكتوب عندهم . وعندما تكلم العلماء عن هذه المسألة أوردوا لذلك الأمر حادثة . لقد احتلقوا في أمر سيدنا إبراهيم وقالوا إن سيدنا إبراهيم يهودى وقال بعضهم : به نصرانى . وجاء القرآن حاسما

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٧)

( سورة النمل )

لماذا . لأن كلمة يهودى ونصرانى قد جاءت بعد إبراهيم ، وكان لابد هم أن يجرحوا من قلة اللفظة وأن يرتوا الأحداث حسب رماها . إذن ففى أى أمر اختلفوا ؟ هل اختلفوا في أمر النبي محمد صلى الله عليه وسلم ؟ هل اختلفوا في حكم موجود عندهم في التوراة ؟ لقد كانت الدعوة موجهة إليهم في ماذا ؟ إنهم « يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم » وذلك يدل على أن كلمة .

﴿ نَفِيًّا بَيْنَهُمْ ﴾

( من الآية ١٩ من سورة النمل )

من حالة شائعة بينهم ، لماذا ؟ لأن العلماء حسبوا ذكروا الحادثة التى دعوا للحكم فيها بكتاب الله ، قال العلماء : إن اسين من يهود حير - امرأة - حيرية ورجل من

خير ، قد ربا ، وكان الاثنان من أشرف لقوم ، ويريد الدين يحكمون في هذا الأمر بكتاب التوراة ألا يبررو حكم الله الذي جاء بالتوراة ، وهو الرجم ، فاحتسبوا حيلة ، وهي أن يذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما إذا يذهبون في هذه الحرية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ إنا نأخذ عهود الذهاب إلى رسول الله انرضاء لحكمه .

لكي لماذا لم يرتضوا من البداية بكل ما جاء به رسول الله ؟ لقد أرادوا أن يذهبوا لعلهم يجدون نفع في مسألة يصبونها ، أما في غير ذلك فهم لا يذهبون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إن مجرد ذهابهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطيهما فكرو عنهم ، لقد كانوا يريدون حكماً يحلها غير الرجم إن الرأي وهو من خير والخيرية الرأية أرادوا أن يستفيد أنفسهم من حكم التوراة بالرجم ، إسمها من شراف خير ، ولأن اليهود قد صنعوا لأنفسهم في ذلك الوقت سلطة زمنية ، فذهب الرأي والرأية ومعهم الأهل الذين يريدون أن يلجأوا حكم الله السابق بزوله في التوراة وهو الرجم وعندما دخلوا على رسول الله كان هناك واحد اسمه « السمان بن أوفى » ، وواحد اسمه « بحري بن عمرو » فقالوا يا رسول الله اقض بين هؤلاء ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه ؟ ليس عندكم حكم ؟ وأصاب رسول الله ما معناه : أيا حنكم إلى التوراة وهي كتابكم ، لماذا قالوا : ؟ قالوا : أخصنا

وكان رسول الله قد بين لهم أولاً حكم الإسلام في الزنا بأنه الرجم ، وجيء بالخبر السابق عندهم من التوراة رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يتضمن الحكم للزنا دليلاً على أن الله أطلعه على أشياء لم تكن في بال أحد فدعا بقسم من التوراة ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما معناه أياكم أعلم بالتوراة ؟ فقالوا : شخص اسمه عبدالله بن صورية فاحضروه ، وأعطاه التوراة ، وقال : اقرأ فحس عبدالله بن صورية يقرأ ، فلما مر على آية الرجم وضع كفه عليها ليحفظها ، وقرأ غيرها وكان عبدالله بن صورية حاضراً ، فقال يا رسول الله أما رأيت قد ستر بكفه آية وقرأ ما بعدها ؟ ورحرح ابن سلام كف الرجل ، وقرأ هو هذا هي آية الرجم .

هذه المسألة تعطينا أن الحكم في القرآن الكريم هو الحكم في التوراة في أمر الزنا ، وتعطينا أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقام الله عليه من إماماته وجاء

بالخروج من التوراة الذي يحصل هذا النص وجاء بعد ذلك جدي من حرد الله هو  
عبد الله بن سلام وكان يهوديا قد أسلم ليظهر به رغبة انقوم في التريب والتزوير

واسلام عبادة بن سلام له قصة عجيبة ، فعند أن احتضر الإيمان في نفسه ، جاء  
إلى رسول الله قائلا : لقد شرح الله صدرى إلى الإسلام ونطق بكلمة : لا إله إلا الله  
محمد رسول الله ، ولكني أحب ديل أن أعلن إسلامي أن تحضر رؤساء اليهود يسألهم  
وأبهم في شخصي ، لأن اليهود قوم هت ، . فيهم افتراء وفيهم الكذب وفيهم  
التضليل ، فلما سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤساء اليهود عن رأيهم في  
عبد الله بن سلام قالوا : سيدنا وابن سيدنا وحيثنا إلخ ، وأفاضوا في صفات  
المدح والإطراء والتعدير فقال عبادة بن سلام أمامهم : الآن أشهد ألا إله  
إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فانقلب رؤساء اليهود ، وقالوا في عبد الله  
بن سلام عكس ما قالوه أولا ، قالوا : إنه خبيثا وابن خبيثا إلخ

لقد عيروا المذبح إلى دم فقال عبد الله بن سلام يا رسول الله أما قلت لك :  
إبهم قوم هت ؟ والله لقد أردت أن أعلحك نوابهم في قبل أن أسلم ، ذلك هو  
عبد الله بن سلام الذي دحرج كف عبد الله بن صوريه عن النص الذي فيه آية  
الرحم في التوراة ، وفي ذلك جاء انقول الحق . ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من  
الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون ، إبهم  
الذين أعرض فريق منهم عن قول الحق

ما سبب هذا الإعراض ؟ هو قصته عامة ؟ أو أن سب هذا الإعراض هو  
السلطة لرسمه التي أراد اليهود أن يتخوها لأنفسهم ؟ ومعنى السلطة الرمية أن  
يجي ، أشخاص فيأخذوا من قداسة الدين ما يخص عليهم هم قداسه ، ويستمتعوا  
بهذه القداسة ثم يستخدموها في غير قصية الدين ، هذا هو معنى السلطة الرمية  
وقد سبق أن كل تخوير في مذهب الله منه لعمى ، والمعروض أن أهل الكتاب من  
أصحاب التوراة كانوا يستصحبون على العرب ويقولون . سيأتى سى من العرب سبنا  
ونفتكم به قبل عاد وإرم ، فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ع عرفوه  
سبنا في كتبهم كعروا به ، ولذلك يقول حق سبحانه وتعالى في مثل هذه القصة  
موضحا موقفهم من قصية الإيمان لعلي



﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمٌ لِكِتَابٍ ﴿١٧﴾﴾

(سورة الزمر)

فكان من عنده علم بالكتاب كان مبروفا فيه أن يشهد لصالح رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلا فلا يقول الله «ومن عنده علم الكتاب» لن يقول الحق ذلك إلا إذا كان عدو علياء من الكتاب ما يتفق مع ما جاء به الله في صدق رسوله صلى الله عليه وسلم في البلاغ عنه ، وكان لئلا في محاولة بعض اليهود للإنكار رسالة رسول الله هو السلطة الرسمية ، وأرادوا أن ييسروا لاتباعهم أمور الدين .

إن كل دعى - أى مريف - في مدأ من المادى - يحاول أن يأخذ لنفسه سلطة رسمية ، فيأتى إلى تكاليف الدين التى قد يكون فيها مشقة على النفس ، ويحاول أن يحذف من هذه التكاليف ، أو يأتى بدين فيه تخفيف على العبادات ، فإذا نظرنا إلى مسيئة الكذب ، بحذفه قد حذف الصلاة حتى يُرعب في دينه من يشق عليه الصلاة ، ويصمم إلى دين مسيئة ، وحذف مسيئة حرء من الركاة ، وهذا يعطى فرصة لتحلل من تكاليف الدين ، ولذلك فالذى أقصد الأديان لساقطة على الإسلام أن يعبأ من رجال الدين فيها كلها رأوا قوما على دين فيه تيسيرات أخذوا من هذه التيسيرات ووضعوها في الدين ، لأن تكاليف الدين شاقة ولا يحمل إنسان نفسه عليها إلا من أمر به إيمان صدق وإيمان حق ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى في عمدة العبادات وهي الصلاة :

﴿وَأَسْمِعُوا بِالنَّاصِرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿١٨﴾﴾

(سورة البقرة)

ويقول في موقع آخر في القرآن الكريم عن الصلاة :

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٩﴾﴾

(سورة طه)

إن الحق عليم حكيم بمن خلق وهو الإنسان ، ويعلم أن الصحف قد يهيب روح الإنسان فلا يصطبر على الصلاة ، أو يراها تكليفا صعبا ، لكن الذي يقبم الصلاة ويحفظ عليها فهو الخاشع لربه . ولذلك فإننا نجد أن كل منحرّف باقى ويحاول أن يخفف من تكاليف الدين ، ويحاول أن يخلل أشياء محرمة في الدين ، ولم ير محرّفا يريد في الأشياء المحرمة إن المنحرفين يريدون إنقاص الأمور الحرام وإذا سأل هؤلاء المنحرفين : لماذا تفعلون ذلك ؟ فإننا نجد أنهم يفعلون ذلك خدب الناس إلى أمور محرمة يخللها هؤلاء المنحرفون . ولذلك أراد بعض من اليهود أن يسهلوا على أتباعهم الدين ، وقال بعض من أحرارهم لا نخافوا من أمر يوم لقيامة . وجاء القول الحق بحكمي عنهم وكأنهم حاولوا أن يهينوا الأمر بأن الله يخلل لهم أموراً ، لا ، إن الله لم يخلل إلا الحلال ، ولم يحرم إلا الحرام . وإذا كان الحق قد قال

﴿ قَدْ مَرَّضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِيَّةَ بَيْتِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ① ﴾

( سورة التحريم )

فهذا القول الحكيم جاء في مناسبة محددة وينطبق فقط في مجال ما حلل الله فلا تحرمه ، أم ما حرم الله فلا يفره ، لقد أرادوا أن يبيحوا للأبضاع يرتكب الأثام ، لأن النار لن نصيبهم إلا أياما معدودة ، وإذا توقف التأمل في القول الحق الذي جاء حل لسانهم ، فإننا نجد الآن إننا نعرف أن بكل حدث زمان ، ولكل حدث قوة يحدث عليها ، ومن ناحية الزمان قال هؤلاء المروّرون لأحكام الله عن يوم القيامة إنها أيام معدودة . فلا حلول في النار ، وحتى لو كان العذاب شديدا فإنه أيام معدودة ، فالإنسان يستطيع أن يتحمل ، ومن ناحية قوة الحدث ، أرادوا أن يخففوا منه ، فعالوا : إنه عذاب ليس بشديد إنما هو مجرد من إصم يحاولون إغراء الناس لإفسادهم وقال هؤلاء الأحرار نحن أبناء الله وأحباؤه أرأيتم أحدا يعذب أبناءه وأحباؤه ؟ لقد أعطى الله يعقوب السوء ، ولا يمكن أن يعاقب ذريته أبد ، إلا بمقدار تحلة القسم

﴿ وَخُذْ يَدَكَ رِجْعًا فَاصْرَبْ بِهِ وَلَا تَحْنُثْ إِنَّ وَجَدَتَهُ صَابِرًا يَتَمَنَّاهُ أَنْجِدَهُ أَنْوَابَ ② ﴾

( سورة ص )

إن أيوب عليه السلام قد حلف أن يضرب امرأته إذا برىء من مرضه مائة صوط ، وأراد الله له أن يخله من هذا انقسم فأمره أن يأخذ حرمة من حبش أو

عشب فيها مائة عود وبصر بها بها صربة خفيفة ليبري قسمه ، وكان ذلك رحمة من الله به وبزوجه التي قامت على رعايته وقت المرض ، وكان أيوب عبدا شاكرا لله ، كان الصربة الواحدة هي مائة صربة ، وهذا تحليل للقسم ، وقال بعض من بنى إسرائيل : إن ذرية بنى يعقوب بن تعدب من الله إلا بمقدار تحلة القسم / وكل ذلك ليزينو للناس بقاءهم من هذا الدين الذي سوف تكون الآخرة فيه عذابا مجرد من النار ، وأيام معدودة ، بادعاء أن بنى يعقوب هم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الله قد أعطى وعدا ليعقوب بأنه لن يعدب أباهم إلا بمقدار تحلة القسم ، وهذا بطبيعة الحال هو تزييف لدين الله ومهجه لقد تولو عن مشيخ الله ، وأعرضوا عنه بعصيان ، يوضح بنا هذا المعنى القول الكريم

﴿ ذَٰلِكَ يَأْتِيهِمْ قَالُوا لَوْ تَمَسَّكْنَا النَّارُ إِلَّا آيَاتًا مَّعْدُودَاتٍ  
وَعَرَّجْهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْقَهُونَ ۝١٤﴾

لقد تولوا وهم معرضون عن حكم الله لقد ظنوا أن النار لن تمسهم إلا أيام معدودات ولنا أن نعرف معنى « عرَّجهم » وننا أن نسأل ما الغرور ؟ إن الغرور هو الإطباع فيما لا يصح ولا يحصل ، فعندما تقول لواحد واعباد بالله : « أنت معرور » فانت تقصد أنه يسلك سبيلا لا يوصله إلى الهدف المنشود إذن فالغرور هو الإطباع فيما لا يصح ولا يحصل ، ولذلك يسمى الله الشيطان « الغرور »

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَعْرِضُكَ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَعْزِيكَ بِاللَّهِ أَنْ تَعْرُورُ ۝١٥﴾  
﴿ إِنْ أَشْطَرَّ لَكُمْ عَدُوٌّ فَأَعْجِدُوهُ عَدَاؤًا إِنَّمَا بَدْعُ عَارِبٍ لِيَكُونُوا مِنْ اتَّخِبِ  
السَّعِيرِ ۝١٦﴾

( سورة فاطر )

إنه الشيطان الذي يزين للناس بعض الأمور ويحث الخلق ليطمعوا في حدوثها ،

وعندما تحدث فإن هذه الأمور لا صواب فيها ، فهي من زينة الشيطان ، لذلك فحصيلتها لا تنال مع الطمع فيها ، والحق سبحانه يقول عن الدنيا

﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَهْوٌ وَوَسْوَسَةٌ وَمُتَاعٌ مِّثْلُ مَا كُنْتُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ تَكْتُمُونَ عَثَرَ الْكُفَّارِ نَارُهُ ثُمَّ يَبْجُ مَنَرُهُ مُصْعَرًا لَمْ يَكُنْ حُطًّا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَعْمَرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ مُّزْمَرٌ ﴿١﴾﴾  
(سورة الحديد)

ويقول عن الرجل الذي ليس له نعمة ، إنه «عر» فبأنى ما شياء بدون عجرة ؛ فلا يسمع منها ، ولا تصح ، إذن ، فكل مادة «العرور» مأخوذة من إطفاء مبي لا يصح ولا يحصل ، لذلك سمي الله الشيطان «العرور» لأنه يطمعنا بمن البشر ما شياء لا تصح ولا تحدث . وهذا سوف يأتي الشيطان يوم القيامة ليساً من الذين اتبعوه ويشتبههم بالبلاهة

﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَتُوبُونِ وَيَوْمَ الْأُنصَابِ مَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ وَمَا نُمِصِّرُكُمْ وَمَا نُمِصِّرُكُمْ إِلَّا أَنْ كُفِّرَتْ بِكُمْ أَمْرُكُمْ مِنْ قَبْلِ إِنَّ تَطْلُبِينَ عَمَّ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾

(سورة إبراهيم)

عامي : وما كان لي عليكم من سلطان ؟ سلطان أي القوة التي تقع الإنسان بعمل فعل ما ، وهو إما أن يكون سلطان الحجة فيصنع بفعل ما ، فتعمله ، وإما أن يكون سلطان القوة ، فترغب أن تفعل ، السلطان - ذب - نوعان . سلطان حجة ، وسلطان قوة . ونعرق بين سلطان الحجة وسلطان القوة القاهرة على العمل . هو أن سلطان الحجة يفعلك أن تعمل العمل وأنت متفتح ، أما سلطان القوة القاهرة فهو لا يقنع الإنسان ، ولكنه يرغم الإنسان على فعل ما ، ولذلك فالشيطان يعين لاتذعه يوم القيامة لم يكن لي سلطان عليكم ،

لا حجة عندى لأقنعكم بعمل المعاصي ، ولا عندى قوة ترعصكم على المعص ،  
لكنكم أنتم كنتم على حرف إتيان المعاصي ودعوتكم لاستجنتم لى . ويضيف  
الشیطان مخاطبا أناسه

﴿ مَا أَنزَلْنَاهُ فَرَجًا وَمَا أَنزَلْنَاهُ إِلَّا مَعْصِرًا ﴾

( من الآية ٢٢ من سورة إبراهيم )

أى أن الشيطان يؤكد أنه لن يفرج لأحد من الدين أسوة ليحذره ، إن كلمة  
« بصرخ » تعنى أن هناك مَنْ يفرج لأحد تلبية لنداء أو استغاثة الشيطان إذن لن  
يسجد أحد من عذاب الله ، ولن يسجد أحد أنشيطان من عذاب الله . وهكذا ذهب  
بعض من أهل الكتاب إلى الغرور فى الدين ، فاعبروا أقوالا على الله ، لم تصدر  
عنه ، وصدقوا افراءاتهم . وبإلت عرورهم لم يكن فى الدين ، لأن العرور فى غير  
الدين يكون لمصيبة فيه سهلة ، لكن الغرور فى الدين هو المصيبة الكبرى ، لماذا ؟  
لأن الغرور فى أى أمر يحصع لقانون واضح ، وهو أن ميعاد كل حدث موقوت  
بمايته ، لكن لعرور فى أمر الدين مختلف ، لماذا ؟ لأن حدث الدين غير موقوت  
بماية الزمان ، إنه مستمر . لأنه منهج قيم صدر من الحق إلى الحق ، إن الغرور فى  
أى جرئية من جرئيات الدنيا ، قد فشلت فاشل يقف عند هذه الجزئية  
وحده ، ولا يتعدى الفشل إلى بقية الزمن . لكن العرور فى الدين يجعل العمر كله  
يضيع ، لأن الإنسان لم يتبع المنهج الحق بل عند الضياع والعذاب إلى العمر الثانى  
وهو الحياة فى الآخرة بقول الحق .

﴿ وَهُمْ فِي دِينِهِمْ مُكَادِرُونَ ﴾

( من الآية ٢٤ من سورة آل عمران )

والافتراء هو نعت الكذب ، إن الحق سبحانه يوضح لهم المعنى ويقول إن  
حصل ذلك منكم وأعرضتم عن حكم الله الذى دعيتم إليه فى كتاب الله ، وعلمتم  
ذلك بأن أنزل لن تمسكم إلا آيات معدودة ، وادعيتم كذب أب الأيام المعدودات هي  
ليام عبادتكم للمعجل ، وادعيتم أنكم آيتاء الله وأحياءه ، إن ذلك كله عرور  
وافتراء ، وبإلتهم كانوا يعلمون صدق هذه الافتراءات ، لكنهم هم الذين  
قالوها ويعرفون أنها كذب ، فإذا جاز ذلك لهم فى هذه الدنيا فكيف يكون موقفهم

وحلهم عندما يجمعهم الله في يوم لا ريب فيه ؟ ول قد يقول الحق

﴿ كَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

إن كدهم مستكشف في هذا اليوم ، فالقاصحة قد جاءت ، والقاصحة هي القيامة ، بها يفضح كل كذاب وكل غشاش وكل داعية غير حق ، إن الخو يسأل : كيف يصعرون ذلك كله في الحشاة التي جمعنا لهم فيها احتبارا ، يفعلون ما يريدون ، ولا يفعلون ما لا يريدون ، يحدث منهم كل ذلك وهم يعلمون أن الحق قد جعل الثواب لمن اتبع تكاليف الله ، وحسن العقاب لمن بخرج عن مراد الله ، كيف تصعرون عندما يسلب الحق منهم الاحتياز ويحيى يوم القيامة ، لقد كانوا في الدب يملكون عطاء الله من قدرة الاحياز بين الدبيلات ، وركز الله لهم في سأنهم أن كل حوارحهم حاصصة لآرادهم كشر من حلل الله ، فمنهم من يستطيع أن يتحده حوارحه فيها يرصى الله ، ومنهم من يسخدم حوارحه السحر له - بمصل الله - فيها لا يرصى الله ، إن الحوارح كما تعلم جميعا حاصصة لآراده لإنسان ، وإراده لإنسان هي التي تميز بين الدبيلات ، لكن ما فعل هؤلاء يوم القيامة ؟ إن الحوارح التي كتب تطيع حوارحين عن مريح الله في الفعل لا تطيعهم في هذا اليوم العظيم ، لأن لظاعه احسار أن يفعل وتطيع ، والحوارح يوم القيامة لا تكون مفهورة لآراده لإنسان ، إن الحوارح يوم القيامة سحل عنها صفه مهر والسحر لمراد الإنسان ، وتصير حوارح عن طيعها

﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ يَوْمَ يَوْفِيهِمْ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴾

( سورة النمل )

إن المسان كان أداة إعلان الكفر ، وهو يوم قيامه يشهد على الكافر ، واليد

كانت أداة معصية الله ، وهي يوم لقيامة تشهد على صاحبها ، والجلود تشهد أيضا ، لقد كانت حناجر خاصة لإرادة أصحابها ، وتفعل ما يريدونها أن تفعل ، ولكنها كانت تفعل الفعل العاصي لله وهي كارهة لهذا الفعل ؛ لذلك يقول الحق .

﴿مَكِيفَ إِذَا جُمِعَتْهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ

لَا يَظْلُمُونَ ۝﴾

( سورة آل عمران )

كيف يكون حالهم يوم يجمعهم الله للمعراء في يوم لا ريب فيه ولا شك في مجيئه وهذا اليوم قادم لا محالة لقيام الأدلة على وجوده ، ورغم خصومتهم لله فإن الله العادل الحق لا يظلمهم بل سيأخذهم بمقاييس العدل .

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ

وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُزِيلُ

مَنْ تَشَاءُ بِإِيدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾

وساعة تسمع كلمة « ملك » ، فلنا أن نعرف أن هناك كلمة هي « مُلْك » تضم الميم ، وكلمة أخرى هي « مِلْك » بكسر الميم . إن كلمة « مِلْك » تعني أن للإنسان ملكية بعض من الأشياء ، كملكية إنسان للابسة وكتبه وأشيائه ، لكن الذي يملك مالك هذا الملك بهذا تسميه « مُلْك » ، فإذا كانت هذه الملكية في الأمر الظاهر لنا ، فإنه يسميه « عالم الملك » ، وهو العالم الشاهد ، وإذا كانت هذه الملكية في الأمر الخفي فإننا نسميه « عالم الملكوت » ، إذن ، نحن هنا أمام « ملك » ، و« مُلْك » و« ملكوت » . ولذلك فعندما نبلي الحق سبحانه وتعالى عن سيدنا إبراهيم خليل الرحمن وكشف له ما حفي عن العيون وما طهر ، قال سبحانه :

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ (١١٦)

( سورة الأنعام )

أي أن الله سبحانه وتعالى أراد لسيدنا إبراهيم أن يشاهد الملكوت في السموات والأرض ، أي كل الأشياء الطاهرة والخالية المحفية عن عيون العباد وهكذا يرى مراحل الحياة كالآتي : ملك ، أي أن يملك الإنسان شيئاً ما ، وهذا سميته مالك لأشياء ، فهو مالك لأشيائه ، ومالك لماله ، أما لدى يملك الإنسان لدى يملك الأشياء فهذا سميته ( ملك ) ، أي أنه يملك من يملك الأشياء ، والقدرة في الأولى سميها : يملك ، فكل إنسان له ملكية بعض من الأشياء ، وبعد ذلك تنحاز إلى الأقل ، أي أن تسبب ملكية أصحاب الأملك إلى ملك واحد ، فالملكبة بالنسبة للإنسان تنحصر في أن يملك الإنسان شيئاً فيصير مالكاً ، وإنسان حر يوليه الله على حاجة من البشر فيصير ملكاً ، هذا في المجال البشري

أما في المجال الإلهي ، فهذا يصعد ليرى من يملك كل مالك وملك ، به الله سبحانه وتعالى ولا يظن أحد أن هناك إنسان قد ملك شيئاً ، أو حاكم في هذه الدنيا غير مراد الله فيه ، هكل إنسان يملك عما يريد الله له من رسالة ، فإد انحراف العبادة ، فلابد أن يولي الله عليهم ملكاً طالما ، لماذا ؟ لأن الأحيار قد لا يحسبون تربية الناس

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَىٰ يَاقُوبَ إِسْمَاعِيلَ نَعْمًا إِذَا كَانُوا يَكُونُونَ ﴾ (١١٧)

( سورة الأنعام )

وكان الحق سبحانه يقول : يا أيها الخير - تشديد الياء - صبح قدما على قدم ولا تلوث يدك بأن تتضم من الظلم ، فسوف أصبح ولايه طام أكبر على هذا لعدم الصغير ، إنني أرى بك أن تفعل ذلك ، وسأنتقم لك ، وأنت يا الخير مره عدى عن ارتكاب الظلم ، ولذلك نجد قول الحق

﴿ وَكَذَلِكَ نُرَىٰ يَاقُوبَ إِسْمَاعِيلَ نَعْمًا إِذَا كَانُوا يَكُونُونَ ﴾ (١١٨)

( سورة الأنعام )



ونحن جميعا نعرف القول الشائع ، « الله يسلط لظالمين على اظلمين » . ولما أن الذين ظلموا منكم من ظلموهم ، ما صنعوا بهم ما يصنعه اظلمون في بعضهم بعضا ، إن الحق يسلط الظالمين على الظالمين ، ويسجى أهل الخير من موقف الانتقام من ظلموهم .

إذن نحن في هذه الحياة نجد « مالك » ، و« ملك » وهناك فوق كل ذلك « مالك الملك » ، ولم يقل الله ، إنه « ملك الملك » ، لاسا إذا دققنا جيدا في أمر الملكية فربنا لن نجد ماسكا إلا الله . « قل اللهم مالك الملك ، إليه المتصرف في ملكه » . وإياكم أن تظنوا أن أحدا قد حكم في خلق الله بدون مراد الله ، ولكن الناس حين تخرج عن طاعة الله ، فإن الله يسلط عليهم الحاكم الظالم . ولذلك فالحق سبحانه يقول في حديثه القلبي :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ( يطوى الله - عروجه - السموات يوم القيامة ، ثم يأخذهن بيده اليمنى ، ثم يقول : أيا الملك ، أيا الجبارون ؟ أيا المتكبرون ؟ ثم يطوى الأرض شيئا ، ثم يقول : أن الملك ، أيا المبرود ؟ أيا المتكبرون )<sup>(١)</sup>

إياك أيها المؤمن أن تظن أن أحدا قد أخذ الملك عصا من الله ، إنما الملك يريد به الله لم يؤدب به العباد . وإن ظلم الملك في التأديب فإن الله يبحث له من يظلمه ، ومن رأى ظلم هذا الملك أو ذاك الحاكم فمن الجائز أن يريه الله هذا الملك أو ذلك الحاكم مظلوما . إنه القول الحكيم يؤكد لنا أنه سبحانه وتعالى مالك الملك وحده .

إن الحق سبحانه يأمر رسوله الكريم « قل اللهم مالك الملك » إن كلمه « اللهم » وحدها فيها عجب من العجائب اللغوية . إن القرآن قد مرل باللسان العربي ، وأمة العرب فصيحة اللسان والبيان والبلاغة ، وشاء الحق أن يكون للفظ الجلالة « الله » خصوصية فريدة في اللغة العربية .

إن اللغة العربية تظم قاعدة واضحة وهي ألا يُنادى ما فيه ، أداة التعريف ، مثل « الرجل » بـ« يا » فلا يقال : « يا الرجل » بل يقال « يا أيها الرجل » لكن اللغة

التي يسرها الله لعباده تخص لفظ الجلالة بالتفديس ، فيكون من حق لعباده أن يقولوا : « يا الله » . وهذا اللفظ بجلاله له غير حتى في مطلق

ولنا أن نلاحظ أن العرب من كبار قريش وهم أهل فصاحة لم يعطوا إلى ذلك ، فكان الله يرغم حتى الكافرين بأن يجعل لفظ الجلالة تميرا حتى في أمواه الكافرين فيقولون مع المؤمنين : « يا الله » أما بقية الأسماء التي تسبقها أداة التعريف فلا يمكن أن تقول « يا الرجل » أو « يا العباس » لكن لابد أن تقول « يا أيها الرجل » ، أو « يا أيها العباس » ، ولا تقول حتى في بدء المسمى « يا السبي » ، أي تقول : « يا أيها السبي »

لكن عند التوجه بالبدء إلى الله فإما نقول « يا الله » ، إنها خصوصية يلفتنا لها الحق سبحانه بأنه وحده المخصوص بها ، وأيضا ما رأينا في لغة العرب علما دخلت عليه « التاء » كحرف القسم إلا الله ، فإما نقول « تالله » ، ولم نجد أسدا من يقول « تريد » أو « نعمرو »

إننا لا نجد التاء كحرف قسم إلا في لفظ الجلالة ، ولا نجد أيضا عليها من الأعلام في اللغة العربية تحذف منه « يا » في البدء وتستبدل بالميم إلا في لفظ الجلالة فتقول « اللهم » كل ذلك ليبدل عن أن اللفظ في ذاته له خصوصية للمسمى « قل اللهم » وكأن حذف حرف البدء هنا يعلمنا أن الله هو وحده المستدعى بدون حرف بدء . « اللهم » وفي بعض الألسنة يجمعون الياء والميم ، مثل قول الشاعر :

إِذَا مَا حَانَتْ الْمَتَا

أَقُولُ يَا إِلَهِي

إنها خصوصية لصاحب الخصوصية الأعلى « قل اللهم مالك الملك » وقد سأل إنسان لماذا لم يقل الحق « ملك الملك » ؟ ها لا بد أن يعرف أنه سبحانه يوم لا تكون فيه أي ملكية لأي أحد إلا الله ، وهو المالك الوحيد ، فهو سبحانه يقول

﴿ رَفِيعُ الثَّرَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ

التَّلَاقِ ﴿١﴾ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَىٰ أَهْلِ سَعِيرٍ ﴿٢﴾ لَقَدْ أَمَلْتُمُ الْيَوْمَ لِلَّهِ  
الْوَحِيدِ الْقَهْرَ ﴿٣﴾

(سورة طه)

إن قول الحق ها - مالك الملك ، توضح لنا أن ملكية الله وهي الدائمة  
والقادرة ، واضحة ، وحية ، ومؤكدة ، ولوقال الله في وصف ذاته : « ملك  
الملك » لكن معنى ذلك أن هناك بشرا يملكون بحاص الله ، لا ، إنه الحق وحده  
مالك الملك ، ومادم الله هو مالك الملك ، فإنه يهبه لمن يشاء ، ويرعه بمن يشاء .  
وه ملاحظ أن قول الحق إنه مالك الملك يعطى الملك لمن يشاء ويرع الملك ممن  
يشاء . تأتي بعد عملية الحاجة ، وبعد أن تهرب بعض من أهل الكتاب من تطبيق  
حكم الله ، بعد أن دعوا إليه ، فتولى فريق منهم وأعرض عن حكم الله ، وعملوا  
ذلك بلا دعاء منهم أبناء الله وأحيائه وأن السر لن تمسهم إلا أياما معدودات

كل هذه خيارات من نطق الله وضعها أمام هؤلاء العباد ، خيارات من اتباع  
حكم الله أو اتباع حكم الهوى ، لكنهم لم يختاروا إلا الاحتيال السيئ ، حكم  
الهوى . ولذلك يأتي الله بحبر اليوم الذي سوف يحى ، ولن يكون لأحد أى قدرة ،  
أو اختيار . إن حتى الاختيار موجود لك في هذه الدنيا ، وعليها أن نحسن الاختيار في  
صوم، صبح الله

ولسائل هذا المثل الذى حدثنا عنه السيرة النبوية الطاهرة ، حينما جاءت غزوة  
الأحزاب إلى اجتماع فيها كل حصون الدعوة ، وشتغل اليهود بالندس والرفيعه ،  
وأراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحمر بمشورة سلمان الفارسي حندقا حول  
المدينة المنورة . ومعنى ، الحندق ، أى مساحة من الأرض يسم حفرها بما يعرف  
التقدم . وكان المقاتلون يعرفون أن الفرس يستطيع أن يقفر مسافة ما من الأمتار

لقد حاول المؤمنون أثناء حمر الحندق أن يكون اتساعه أكبر من قدرة الخيل ،  
ولسفر إلى دقة الإدارة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إن سلمان الفارسي قد  
اقترح أن يتم حمر الحندق ، وفيما يدور أنه قد أخذ الفكرة من بيته وقبل الرسول صلى  
الله عليه وسلم الفكرة وأقرها ، وعملها المسلمون .

إذن فليس كل ما فعله الكفار كان مرفوضاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قبل تطبيق كل الأعمال النافعة ، سواء أكان قد فعلها لكفار من قبل أم لا ، ورأى الرسول صلى الله عليه وسلم أن عملية الحفر مرفهة بسبب جود لأرض وصحريتها في بعض المواقع ، لذلك وصع حصه قدرها أربعون دراعاً لكل عشرة من الصحابة ، وبذلك ورع الرسول الكريم العمل والمسئولية ، ولم يترك لأمر لكل جماعة حشية أن يواكلوا على غيرهم

وتوزيع مسئولية يعني أن كل جماعة تعرف مقدار الواجب من العمل الذي تشارك به مع بقية الجماعات وقد يسأل سائل ولماذا لم يورع الرسول صلى الله عليه وسلم التكليف لكل واحد بمفرده ؟ يقول : إنها حكمة الإدارة والحزم هي التي جعلت الرسول صلى الله عليه وسلم يتعرف عن حميفة وأصحبه ، وهي أن الذين همرون من الصحابة ليسوا متساوين في القدرة والمجهود ، لذلك أراد لكل صعيب أن يكون مسوداً شعبة من الصحابة

إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجعل الأمر مشاعاً ، بل كان هناك تحديد للمسئولية ، لكنه لم يجعل المسئولية مشحونة تشجيعاً أولياً ومحدد بكل فرد ، وذلك حتى يساعد الأقوياء الضعيف من بينهم . لقد ستر رسول الله صلى الله عليه وسلم الضعيف بقوة إخوانه ، وساعده أن يوجد ضعيف بين عشرة من الإخوان يحمدون عنه ويجفرون ، فإن موقفه من أصحابه يكون المحنة والألمة ، ويكون لقوى قد أفاض على الضعيف

وكان عمرو بن عوف صبيح عشرة منهم سليمان الفارسي رضي الله عنه ، فلما جاءوا ليحفروا صادفتهم مطقة يقال عنها « الكنود » ، ومعنى « الكنود » هي المنطقة التي تكون صلبة أثناء الحفر ، فاستأجر إذا ما حفر الأرض قد يجد الأرض سهلة ويوصل الحفر ، أما إذا صادفته قطعة صلبة في الأرض فإنه لا يقدر عليها بمحوله لأنها صخرية صماء ، فيقال له « أكدي الحمار » وعدم صادف عمرو بن عوف وسليمان الفارسي والمعبرة وغيرهم هذه الصحرة الكنود ، قالوا سليمان : « ادع فرجع أمرنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم » ومن هذا نعلم درساً وهو أن المكلف من قبل من يكلفه بأمر إذا وجد شيئاً يعوقه عن أداء المهمة فلا بد أن يعود إلى من كلفه بها

ودفع سليمان الفارسي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحضر رسول الله

صلى الله عليه وسلم مع سليمان إلى الموقع وأخذ المعول وجده على الصخرة الكثرود  
وصربها ، فحدث شرر أصاء من فرط قوة الاصطدام بين الحديد والصخرة ، فهتف  
رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر فتحت قصور بصري بالشام ، ثم صرب  
صخرة أخرى ، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : الله أكبر فتحت قصور الحمراء  
بالروم . وصرب صخرة ثالثة وقال : الله أكبر ، فتحت قصور صعاء باليمن ، فكانه  
حين صرب لصخرة أرواح الله له معالم الأماكن التي سوف يدخلها الإسلام فأنشد  
ومتصرا : فلما بلغ ذلك انقول أعداء رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الأعداء  
للصحابة : يبيكم محمد بفتح قصور صعاء في اليمن ، والحمراء في الروم ، وفتح  
قصور بصري ، وأنتم لا تستطيعون أن تبرزوا لنا للقتال فأمر الله قوله : قل  
الهم مالك أم لك تزق الملك من تشاء وتمتع الملك ممن تشاء .

إن المسألة ليست عرما من هؤلاء المؤمنين ، إنما هي نية على قدر الوسع ، فإن  
فعلت أى فعل على النية بقدر الوسع فانتظر الممد من الممد الأعلى سبحانه وتعالى

إن الله سبحانه هو الذى يعطى الملك ، وهو الإله الخن الذى يبرع ملك الكفرى  
كسرى والروم وصعاء ، يعطى سبحانه الملك لمحمد رسول الله وأصحابه ، ويتزعه  
من قريش ، ويتزع الملك من يهود المدينة حيث كانوا يريدون الملك

إن قول الحق : وتمتع الملك ممن تشاء ، تعبنا تشاءل : ، النزاع ؟ إنه العلم  
شدة ، لأن الملك عادة ما يكون متمسكا بكرسى الملك ، متشناه ، لماذا ؟ لأن  
بعضهم يجلسون على كراسى السلطان يظنون إليه كمعهم بلا تعات فلا عرق  
ولا سهر ولا مشقة أو حرص على حقوق الناس ، إسم يتناسون سؤال النفس : ماذا  
فعلت للناس ؟ إن الواحد من هؤلاء لا يلتفت إلى ضرورة رعاية حق الله فى الخلق  
فيسهر على مصالح الناس ويتعب ويكد وينفق ويحرص على حقوق الناس

إننا ساعة نرى حاكما متكالا على الحكم ، فلنعلم أن الحكم عبء معصم ،  
لا معزم . ولما كان سيدنا عمر بن الخطاب عندما قالوا له : إن فقدانك  
.. ولا بعدك . نولى عبدالله بن عمر ، وهو رجل قرقره الورع فقال عمر  
إن الخطاب رضى الله عنه بحسب ال الخطاب أن يسأل منهم عن أمة محمد رجل  
واحد ، لماذا ؟ لأن الحكم فى الإسلام مشقة ويعب

لقد جاء الحق بالقول الحكيم « وتترع الملك عن تشاء » وذلك ليهيئنا إلى هؤلاء المشبهين بكرواسي الحكم ويرعهم الله منها ، إن المؤمن عندما ينظر إلى الدول في عصورها وحضاراتها وقوتها وسجد أن الملك فيها يسلب من الملك فيها على أهون سبب . لماذا ؟ إنها رادة الخالق الأعلى ، فعندما يريد فلا رد لقضائه .

إن الحق إما أن يأخذ الحكم من مثل هذا الترع من الحكام ، وإما أن يأخذه هو من الحكم ، ونحن نرى كل ملك وهو يوطن نفسه توطيت في الحكم ، بحيث يصعب على من يريد أن يجمعه منه أن يحلعه بسهولة ، لكن الله يقتلح هذا الملك حين يريد سبحانه

وبعد ذلك نقول الحق « وتعر من تشاء وتلد من تشاء » لأن ظواهر الكون لا تقتصر على من يملك فقط ، ولكن كل ملك حوله آس من « ملوك ظل » . ومعنى « ملوك الظل » أي هؤلاء الذين يتمتعون بنفوذ الملوك وإن لم يكونوا ظاهريين أمام الناس ، ومن هؤلاء يأق معظم لشر إنهم يستظلون ويستترون بسلطان الملك ، ويعملون ما يشاءون ، أو يعمل الآخرون لهم ما يأمرؤ به ، وحين يترع الملك فلاشك أن المقلوب بالظلمين يعره الله ، وأما الظالمون لأنفسهم فيذهبهم الله ، لذلك كان ولا بد أن يجيء بعد « تؤق الملك من تشاء وترع الملك من تشاء » هذا القول الحق . « وتعر من تشاء وتلد من تشاء » لماذا ؟ لأن كل ملك يعيش حوله من يتمتع بحده ونموذه ، فإذا ما انتهى سلطان هذا الملك ، ظهر هؤلاء المستمنعون على السطح وهذا مشاهد كل يوم وكل عصر « وتعر من تشاء وتلد من تشاء بيدك الخير » .

ونلاحظ هنا أن إتياء الملك في أعزاف الناس خير ، ونزع الملك في أعزاف الناس شر . وهؤلاء نقول : إن نزع الملك شر على من خيلع منه ، ولكنه خير من أوب الملك . وقد يكون خيرا لمن نزع منه الملك أيضا . لأن الله حين ينزع منه الملك ، أو ينزعه من الملك يخفف عليه مؤونة ظلمه فلو كان ذلك الملك المخلوع عاقلا ، لتصل ذلك وهل : إن الله يريد أن يخلصني لنفسه لمن أتوب .

إذن علونظرت إلى الجزئيات في الأشخاص ، ونظرت إلى الكليات في العموم لوجدت أن ما يجري في كون الله من إتياء الملك وما يتبعه من أعزاز ، ثم نزع الملك

وما يتبعه من إفلال ، كل ذلك ظاهرة حير في الوجود ، لذلك قال الحق ها ، و بيدك الخير ، ولودقق كل من النظر إلى مجريات الأمور ، لوجد أن ، الله هو الذي يؤتي ، والله هو الذي يسرع ، والله هو الذي يعر ، والله هو الذي ينزل ، ولابد أن يكون في كل ذلك صور للخير في الوجود ، فيقول : « بيدك الخير إنك على كل شيء قدير »

إن إنشاء المثلث عملية تحتاج إلى تحضير بشري وبأسباب بشرية ، وأحيان يكون الوصول إلى الحكم عن طريق الانفلاتات العسكرية ، أو السياسية ، وكذلك برع المثلث يحتاج إلى نفس الجهد

إن الحق سبحانه وتعالى يوضح لنا المعنى فيقول ، ليس ذلك بأمر صعب على قدرتي اللانهاية ، لأنني لا أتناول الأفعال بعلاج ، أو يعص ، إنما أنا أقول ، « كسر » ، فتعص الأشياء لإرادتي ، ويأتي الحق بعد ذلك ليدل بنواميس الكون وآيات الله في أحوال على صدق قصبه « إنك عن كل شيء قدير » فيقول وقوله الحق :

تَوَلَّجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ  
وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ  
وَتَرْزُقُ مِنْ شَرِّهِ بِعَمْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾

إن الحق يقول لك ، عندكم ظاهرة تختلف عليكم ، وهي الليل والنهار ، وظاهرة أخرى ، هي الحياة والموت ، إن ظاهرة الليل والنهار كلنا نعرفها لأنها آية من الآيات العجيبة ، والحق يقول عنها « تَوَلَّجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ » إن الحق لم يصنع النهار بكمية محدودة من الوقت متشبهة في كل مرة ، لا ، إنه سبحانه شاء لليل أن ينقص أحيانا عن النهار خمس ساعات ، وأحيانا يزيد لنهار على الليل خمس ساعات .

ولنا أن نتساءل . . هل تنقص الخمس الساعات من الليل أو النهار مرة واحدة  
وهجأة ؟ هل يفاجئنا النهار بعد أن يكون اثني عشرة ساعة ليصبح سبع عشرة  
ساعة ؟ هل يكون الليل مفاجئاً لنا في الطول أو القصر ؟ لا ، إن المسألة تأن تأنعا ،  
بالدورة ، بحيث لا نحس ذلك ، إن هناك نوعاً من الحركة اسمها الحركة الزمنية .  
إننا عندما ننظر إلى الساعة التي تدور نجد أن دورتها تعتمد على التروس ، فهي  
عقرب الساعة في كل لرس ؟ لا ، إن كل لرس له رس يتوقف فيه ، وعندما يتوقف  
فلنا ندفع به ليمد دورته ، ويعمل ، وإذا دفعنا العقرب عقرب الدقائق فلنا  
استطيع أن نلاحظ ذلك

إذن هناك فترة توقف وسكون بين انتقال عقرب الدقائق من دقيقة إلى أخرى ،  
وهذا اللون من الحركة سمي « حركة برسية » ، وهناك حركة أخرى تسمى  
« حركة اسبائية » ، بحيث يكون كل جزء من الررس له حركة ، كما يحدث  
الأمر في ظاهرة السور بالسيرة للإنسان والنبات والحيوان .

إن الطفل الوليد لا يكبر من الصباح إلى المساء بشكل جزئي ، أو محسوس ، إنه  
يكبر بالفعل دون أن نلاحظ ذلك ، وقد يزيد بمقدار ملليمتر في الطول ، وهذا الملليمتر  
شائع في كل ذرات الثواني من النهار ، إن الطفل لا يظل على ورته وطوله أربعاً  
وعشرين ساعة من النهار ، ثم يكبر فجأة عند انتهاء اليوم ، لا ، إن نمو الطفل كل  
يوم يتم بطريقة تشيع فيها قدرة السور في كل ذرات الثواني من النهار ، وهذه العملية  
تحتاج إلى الدقة المتناهية في توزيع جزئيات الحدث على جزيئات الزمان ، وهذه هي  
العظمة للقدرة الخالقة التي يظل الإنسان عاجزاً عنها إلى الأبد

وقد قلت لكم مرة إن الواحد منكم إن نظر إلى منه لوليد ، وظل ينظر له  
طوال العمر فلن يلاحظ الإنسان منكم كبر ابنه على الإطلاق ، لكن عندما يعيب  
الإنسان عن ابنه شهراً أو شهراً ، ثم يعود ، ما يرى في ابنه مجموع نمو الشهور التي  
غلب فيها عنه وقد أصبح واضحاً . ولوررع لإنسان نباتاً ما ، وحلس ينظر إلى هذا  
النبات ، فهو لن يرى أنما نمو هذا النبات لهذا ؟ لأن الحريات تكبر دون قدرة على أن  
يلمس الإنسان طريقة نموه .

ولنا أن نعرف أن كل ما يكبر إنما يصغر أيضاً ، ولا توجد عند الإنسان قدرة



للملاحظة المباشرة لذلك ، وفي الخيلة أمثلة أخرى ، نأخذ منها هذا المثل ، فعندما قام العلماء بتصوير الأرض من الأفبار الصناعية ، كانت الصور الأولى لمدينة نيويورك هي صورة لفظة بسيطة ، وعندما قام العلماء بتكبير هذه الصور ظهرت الجريئات ، كالشوارع وغيرها ، أين كانت الشوارع في هذه النقطة الصغيرة ؟ لقد صغرت الشوارع أثناء التصوير بصورة تستحيل معها على آلات الإدراك عند الإنسان أن تراها ، ولذلك فلابد من التكبير هذه الصور حتى يمكن للإنسان أن يراها ، ونحن نرى الشيء البعيد صغيرا ، ولكننا قربناه كبر في نظرننا .

إذن يقول الله : « تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل » هو لميت للاثاء الشرى إلى أن الليل والنهار لا يفصل بينهما حد قاطع سبة متساوية لكل منهما ، لا ، إنه الحق بقدرته يدخل الليل في النهار ، ويدخل النهار في الليل . إن معنى « تولج » هو « تدخل » ، ومثال ذلك أن يؤذن المؤذن لصلاة المغرب في يوم ما بعد الساعة الخامسة ، ويؤذن المؤذن لصلاة المغرب في أيام أخرى في الساعة السابعة . إن ذلك لا يحدث فجأة ، ولا يفقر المغرب من الخامسة إلى السابعة ، إنما يحدث ذلك بانسيابية ، ورتانة . ومن ذلك نتلقى الدرس والمثل .

إنك أيها العبد إن رأيت ملكا قائما على حضارة مؤمنة ، فاعلم أن هناك عوامل دقيقة لا تراها بالعين تنخر في هذا الملك إلى أن يأتي يوم ينتهي فيه هذا الملك . وهكذا تنهار الحضارات بعد أن تبلغ أوج الازدهار ، ويصل الناس فيها إلى استعدادات ضخمة ومكافات هائلة ، وذلك لأن عوامل الانهيار تنخر دخن هذه الحضارات .

إن الحق يلفنا إلى جلال قدرته وعظمة دقة صنعه ، يمثل الليل والنهار « تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل » ثم يأتي لنا الحق الأعلى يمثل آخر ، فيقول : « ونخرج الحي من الميت ونخرج الميت من الحي » ، إنها القدرة المطلقة بدون أسباب

والوقفه هنا نجعلنا نرى كيف اعتدبنا بما أفاض الله على بعض خلقه من اكتشاف لبعض أسرارته في كونه ، لقد وصل انعم لمعرفة أن لكل شيء حياة خاصة ، فمرى أن ورقة البات تحدث فيها تفاعلات ولها حياة خاصة ، ونرى أن الدرة فيها تفاعلات

ولها حياة خاصة ، والتفاعل مع هذه الحركة ، والحياة كما تعرف مظهرها الحركة ، وعاية ما هناك أنه يوجد فرق في رؤية الحياة عند العامة ، ورؤية الحياة عند الخاصة . إن الإنسان العامي لا يعرف أن الطمة فيه حياة ، وأن الحبة فيها حياة ، ولا يعرف ذلك إلا الخاصة من أهل العلم

إن العامة من الناس لا يعرفون أن الحبة توجد لها حياة مرئية ، ويكمن فيها مور غير ظاهر ، ولا يعرف العامة أن هناك فرقا بين شيء حي ، وشيء قابل لأن يحيا . ومثال ذلك نواة الخبز التي يأخذها ويررعها لتحرج منها الحبة ، إنها كنواة تظل مجرد نواة إلى أن يأخذها الإنسان ، ويضعها في بيئتها ، لتحرج منها الحبة

إذن فالنواة قابلة للحياة ، وعندما ينظر إلى ذرات التراب فإذا لا يستطيع أن يضعها في بيئة لتضع منها شيئا ، ودعم ذلك فإن لدرة التراب حركة ويعمل السماء . إن الحركة الموجودة في ذرات رأس عيدان عينة كبريت واحدة تكفي لإدارة قطار كهربائي بإمكانه أن يلف حول الكرة لأرضه عددا من السوات

إن هذه أمور يعرفها الخاصة ، ولا يعرفها العامة . فإن نظروا إلى العامة عندما يسمعون القول الحق : « وتخرج الحبي من الميت وتخرج الميت من الحبي » كانوا يقولون : إن المثل على ذلك نواة الخبز ، وكانوا يعرفون أن النواة تنمو من نواة ولكن الخاصة يحسوا وكتشموا أن في داخل النواة حياة وعرفوا كيفية النمو . وعرف العلماء أن لكل شيء في الوجود حياة مناسبة لمهمته . فليست الحياة هي الحركة الظاهرة والنمو الواضح أمام العين فقط ، لا ، بل إن هناك حياة في كل شيء

إن العامة يمكنهم أن يجدوا المثال الواضح على أن الحق يخرج الحبي من الميت ويخرج الميت من الحبي ، أما الخاصة فيعرفون قدرة الله عن طريق معرفتهم أن كل شيء فيه حياة ، فالتراب الذي نضع فيه لنبز لو أحدنا نعصا من مكان معروف ، فلن يخرج منه شيء ، هذا التراب هو ما يصفه العلماء بوصف « الميت في الدرجة الأولى » ، وأما النواة التي يمكن أن تأخذها ونضعها في هذا التراب ، فيصنعها العلماء بأنها « الميت من الدرجة الثانية »

وعندما نصل الميت في الدرجة الأولى ليكون وسطا بيثيا للميت في الدرجة الثانية

تظهر ما نتج عن تدلل على حياة كل من التراب والرواة معا ، وقد من القرآن ذلك ما دقفا ، لأن القرآن حين يحاطب بأشياء قد عرفت فيها العقول فإنه يتناولها النول اندى تنقشها به كل العقول ، فعقل الصنوة يتقنها ، وعقل العامة يتصلها أيضا ، لأن القرآن عنده يلمس أى أمر يكى يلمسه بلفظ جامع راق يتقنه الجميع ، ثم يكتشف العقل الشرى تفاصيل جديدة فى هذا الأمر

إن العروا على سسل اشل لم يقل لنا إن الدرة فيها حركة وحياة وبها سحاب من لون معين من الطلعة ، ولكن القرآن ساول لدرة وعبرها من لأشياء بالبيان الإلهى العادر ، وخصوصا أن هذه لأشياء لن يترتب عليها خلاف فى الحكم أو لميح هو معرف الإنسان وقت مرور القرآن أن الدرة فى حلة فها اندى يريد من الأحكام ؟ ولم نأحد أنش أن الدرة ليس فى حلة ، فها لى يقص من أحكام المصح الإيدى ؟ لم يكن الأمر من ناحية لأحكام يريد أو تقصر ، وعندما نأحد العروا نأحد لواعين به ، ونعهم معطيات الألفاظ فها نجد أن كلمة « حية » لها صد هو « الموت » ، وقد ترك الحق سبحانه كلمة « الموت » فى بعض مواضع من الكتاب الكريم وأورد لنا كلمة أخرى هى « الهلاك » قال الحق سبحانه

﴿ يَهْلِكُ مِنْ هَٰذَا عَمْرٌ نَبِيٍّ وَيَخَيَّرُ مَنْ عَمْرٍ نَبِيٍّ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

( من الآية ١٢ من سورة الأنعام )

إن « الهلاك » هاهو مقاس حية ، لماذا لم يورد الحق كلمة « الموت » هاه ؟ لأن الخالق الأعظم يعاده ، يعلم أن العباد قد يخلصون فى مسألة « الموت » بمقص منهم بقول يعرف للميت إنه اندى لا نأحد به حركة أو حى أو مو ، ولكن هذا الميت له حياة ماسة له ، كحياة الدرة أو حياء حة الرمس ، أو حياة أى شىء ميت ، وهكذا عرف من الآية السابقة أن الحياء يقابلها الهلاك ويقول الحق سبحانه عن الأحرار ليوضح لنا ما لى سوف يحدث يوم القيامة

﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾

( الآية ٢٨ من سورة القصص )

لقد استثنى الحق الوحي أو الدواب الإلهية ، وكل ما عداها هالك ، وما دام كل شيء هالكا فمعنى ذلك أن كل شيء كان حيا ، ولم يترك به حياة . إذن فالحياء الحقيقية توجد في كل شيء بما يناسبه ، مرة تدركها أنت ، ومرة لا تدركها

إذن فقولته الكريم : « وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى » يجوز أن تأخذه مرة بالعرف العام ، أو تأخذه بالعرف الخاص ، أى عرف العلماء ، وما دام ذلك أمر ظاهر في لوحه كولوج الليل في النهار ، ولوح النهار في الليل ، أى أن الحق يدخل النهار في الليل ، ويدخل الليل في النهار . وفي اللغة يسمون عطاة الرجل - أى خاصة أصدقائه - « الوليجة » لماذا ؟ لأنها تتداخل فيه ، لأنك إن أردت أن تعرف سر واحد من الشرع فاجلس مع صديق له أو عدد من أصدقائه الذين يتداحون معه

لذلك جاء أمر بإصلاح الليل في النهار وإصلاح النهار في الليل بالوصوح الكامل ، وحدث مسألة الحياء والموت بالفاط يمكن أن يفهمها كل من العامة والخاصة . وإذا كانت تلك الظواهر هي بعض من قدرات الله فمن إذن يسكت على الله قدرته في أنه يؤتى الملك من يشاء ، ويصرف من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويدل من يشاء ؟ لقد جاء الدليل من الآيات المكتوبة ، وراه كل يوم رأى العين . « قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إني على كل شيء قدير » إني أنت يا الله ، الذي أحزبت في كونك كل هذه المسائل وهي كلها أمور من الخير ، وإن بدا لبعض أن الخير فيها غير ظاهر .

إن الإنسان عندما يرى في ابنه شيئا يحتاج إلى علاج فإنه يسرع به إلى الطبيب ويرجوه أن يقوم بكل ما يلزم لشده الأب ، حتى ولو كان الأمر يتطلب التدخل الجراحى . إن الأب هنا يفعل الخير للأب ، والأب قد يتألم من العلاج ، فإذا كان هذا أمر المحتلوق في علاقته بالمحتلوق ، فما بالنا بالخالق الأكرم الذى يجرى في ملكه ما يشاء ، إتياء منك أو سرعه ، وإعزاز أو إدلالا ، فكل ذلك لابد أن يكون من الخير ، وإيات الله تشهد بأن الله على كل شيء قدير لذلك يلتزم بعد الآية السابقة قوله

﴿ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهْرِ وَتُولِجُ النَّهْرَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ نَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١٧)

(سورة النمل)

إذا كان هناك إنسان لم يعطى أبدا مسألة إيلاج الليل في النهار أو إخراج الحي من الميت ، فإنه لابد أن يلتفت إلى رزقه ، فكل واحد منا يتصل برزقه قهر عنه ، ولذلك جاء الحق سبحانه بهذا الأمر الواضح : « وترزق من تشاء بغير حساب » وساعة تسمع كلمة « حساب » فإنك تعرف أن الحساب هو كما قلنا سابقا : بين لك مالك وما عليك .

وعندما نأمل قول الحق : « وترزق من تشاء بغير حساب » فإنه يعلم أن « الحساب » يقتضي « محاسبا » - بكر السين ويقتضي « محاسباً » - بفتح السين ويقتضي « محاسباً عليه » ، إن الحساب يقتضي تلك العناصر السابقة . فعندما يقول الحق : « وترزق من تشاء بغير حساب » فلما أن يقول : « من ؟ » و « إلى ؟ » من أين يأتي الرزق ؟ وإلى أين ؟ إنه يأتي من الله ، ويذهب إلى ما يقدره الله لأن الله هو الرزاق ، وهو الحق وحده ، وهو الذي لا يستطيع ولا يجرؤ أحد على حسابه ، فهو سبحانه الذي يحاسبها جميعا ، لا شريك له ، وهو الصالح لما يريد .

إن الحساب يجريه الله على الناس ، وهو سبحانه لا يعطى الناس فقط على قدر حركتهم في الوجود ، بل يرزقهم أحيانا بما هو فوق حركتهم . وقد يرزق الله من شيء م يكن محسوبا عنده ، لأن معنى الحساب هو ذلك الأمر التقديرى الذى يخطه له الإنسان ، كالعلاج الذى يحسب عندما يروع العداء ويتوقع منه نتائج يساوى كذا لإرداء أو قطاراً ، أو الصانع الذى يقدر لعمه دخلا محسوبا من صناعته . هذا هو الحساب ، لكن الإنسان قد يلتفت فيجد أن غطاء الله له من غير حساب . وقد يحسب الإنسان مرة ولا يأتي له الرزق .

مثال ذلك : قالوا : إن دولة أعلت أنها زرعت قمحا يكفى لذيها كلها ، ولكن عندما نضج المحصول هبت عاصفة أهلكت الزرع ، وأكلت هذه الدولة قمحها من

الخارج من قالوا عن أنفسهم أنهم سيطعمون الناس أطعمهم ليس . أليس ذلك مصداقاً لقول الحق . « من غير حساب » ؟ إنه الحق سبحانه لا يحسب حركتك أيها الإنسان ليعطيك قدرها ، ولكنه قد يعطيك أحياناً فوق حركتك

ومحس يرى دحوتا الدين أفاض الله عليهم ثروة التوراة ، لقد تفجر التوراة من تحت أرجلهم دون جهد منهم ، إنه الله يريد أن يلفت الناس إلى قدرته من وعلا ، وأن الأرزاق في يده هو وسطر إلى الناس الذين يشيرون إلى منطقة التوراة فيتهمرون أهلها بالكسل ، ويحدد أن الحق سبحانه وعالي قد سحر لهم غير الكسالى ليخدمهم ، وعندما أماء على المنطقة العربية بالتوراة احتاجت لهم الدول التي تقول عن نفسها : إنها متقدمة ، إنه رزقي بعير حساب .

إن هذه اللغات إنما تؤكد للمؤمن طلاقة القدرة ، إن الحق قد خلق الأسباب ، ولم يترك الأسباب تتحكم وحدها ، وقد برك الحق الأسباب للإنسان ليعمل بها ، وقد لا يعطيه منها ، ويعطي الحق الإنسان من جهة أخرى لم يحسبها حساباً . والإنسان الذي يتأمل تقدير أموره أو أمور من يعرف يجد أن تدث القضية مستمرة في كل الخلق ، إنه سبحانه يورق بعير حساب ، ولا يقول . « لقد فعلت عن قدر يساوي كذا » ، والحق سبحانه يعطي بعير حساب من الإنسان ، لأن الموازنة التي قد يقوم بها الإنسان قد يأتيها من الأسباب ما يخرقها .

إذن « ويررق من تشاء غير حساب » يعني قدرة الحق المتعلقة على الورق بعير حساب ولا توجد سلطة أهل منه تقول له : لماذا فعلت ؟ أو ماذا أعطيت ؟ أو من غير حساب منه سبحانه لخلق ، فيأتي الورق على ما هو فوق أسباب الخلق ، أو من غير حساب للناس المردودين فيأتى ورقهم من حيث لم يقدروا ، وهذا كانت كل هذه الأمور لله ، وهو مالك الملك ويعطي من يشاء ، ويحر من يشاء ، ويولج الليل في النهار ، ويررق من يشاء بعير حساب ، أليس من الحق أن يذهب إنسان ليولى من لا سلطان له ويترك هذا السلطان ، إن من يوالى عير الله هو الذي استند به العبد . ولنعرض لثلاث قضية الإنجائية أي مبادئ كل الأمور عندنا هيياكم أن توالوا حصوننا ، لأننى أنا الذى بيده كل شيء . هاهودا القرون الحق

وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخْذُوا بِطَانَةٍ مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْمُرُكُمْ بِحَبٍّ وَلَا وُدٍّ وَءَامَعَتُمْ

قَدْ بَدَتْ أَبْصَارُهُمْ مِنْ أَقْوَاهُمْ وَمَا تُحِىْ صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ  
إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾

(سورة آل عمران)

إنه الحق يأمرنا ألا نوالى إلا الله ، فإن كنت تجرى حساسا لكل شيء وتتقدير  
مؤمن فلا نوال إلا صاحب هذه الأشياء ، وإياك أن تعتمد إلى عدو هذه القوة القاهرة  
القادرة المسببة في كل أمور لكون وبواميسه ، إياك أن تعتمد إلى أعداء الله لتتخذ  
منهم أصدقاء ، لأنك لو فعلت تكون غير صائب التفكير .

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ  
الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ  
إِلَّا أَنْ تَكُونُوا مِنْهُمْ ثِقَةً يُحَذِّرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ  
وَالِىَ اللَّهُ الْمَصِيرُ ﴿٣٨﴾

أنت لا تتخذ الكافر وليا إلا إن ناب لك مطهر القوة فيه ، ومطاهر الضعف  
هناك ، إياك عدى تنأى معنى كلمة «ولى» . تجد أن معاني «مدين» و«حين»  
تقول «الله هو الولي» فأما نستخدم الكلمة هنا على إطلاقها ، إن كلمة الولي  
تصاف إلى الله على إطلاقها ، وتصاف بالمسبية والمحدودية لخلق الله ، فالخلق يقول .

﴿لِلَّهِ وَلِىُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

(سورة البقرة ٢٥٧ من سورة البقرة)

إن الله ولى على إخلاله ، والحق يقول

﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ٧ ﴾

( سورة يونس )

إن المفرد لأولياء الله هو « ولى الله » ، فالمؤمن ولى الله ، والحق يقول

﴿ هَٰلِكَ أَوْتَيْنَاكَ لِلَّهِ الْخَبْرَ ۚ هُوَ حَيُّ قَوَّادٌ وَحِيدٌ عَزِيزٌ ١١ ﴾

( سورة الكهف )

هكذا ملاحظ أن الولاية قد تضاف مرة إلى الله ، ومرة إلى خلق الله . إن لله ولى المؤمن ، وهذا أمر مفهوم ، وقد نتساءل : كيف يكون المؤمن ولى الله ؟ إنا نستطيع أن نفهم هذا المعنى كما إلى إن الله هو المعين للمعبود المؤمنين فيكون الله ولى الذين آمنوا ، أى معينهم ومقويهم . وأولياء الله ، هم الذين يتصرون الله ، فينصرهم الله ، وهو - سبحانه - الحق الذى قال

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَتُصَرِّوْا اللَّهَ تَتُصَرِّكُمُ ۚ وَسَيَّتِ أَعْدَاكُمْ ٥ ﴾

( سورة محمد )

ألم يكن الله قادرا أن يتقم من الكفار مرة واحدة وينتهى من أمرهم ؟ ولكن الحق سبحانه قال :

﴿ قَتَلُوهُمْ بِعَدُوِّهِمْ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْرِجُهُمْ وَيُصَرِّكُمُ عَلَيْهِمْ وَيَسْفِى صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ١١ ﴾

( سورة البقرة )

إن الحق لو قاتلهم فإن قتاله هم سيكون أمرا حميا ، وقد يقولون : إن هذه مسائل كبرية في الوجود ، لذلك يأتي بالقتال للمؤمنين الذين استضعفهم الكافرون إذن مرة تطلق « الولي » ويراد بها « معين » . ومرة أخرى تطلق كلمة « الولي » ويراد



بها ، المعان ، لأنك إن كنت أنت ولي الله ، والله وليك فإنه الحق سبحانه ومعين لك وأنت ومعان .

إن الحق سبحانه يريد منهجه أن بسود بإيمان خلقه به ، وإلا لكان الحق سبحانه وتعالى قد استخدم طلاقة قدرته على إرغام الناس على أن يكونوا طائعين ، فلا أحد يقادر على أن يخرج عن قدرة الله ، والإنسان عليه أن يفكر تمكيرا واصحا ، ويعرف أن حياته بين قوسين بين قوس ميلاده وقوس وماته ، ولا يتمك الإنسان في واحد من القوسين ، فلماذا يحاول التحكم في المسافة بين القوسين ؟ إذن القواميس الكونية بيد الله وتسير كالساعة ، إنه سبحانه يقول

﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾

(سورة فاطر)

إن شيئا لم يخرج عن مراد الخالق الأعظم إنما الحق سبحانه وتعالى أحد هذه المسائل في حركة السموات والأرض بقوة قهره وقدره جبروته ، فلا شيء يخرج من يده ، أما بالنسبة للعباد فهو سبحانه يريد أن يأخذ قوما تحب قلوبهم . إن الإيمان طريق متروك لاختيار الإنسان ، صحيح أن الحق قادر على أن يأتي بالناس مؤمنين ، ولكنه يريد أن يرى من يحى إليه وهو مختار ألا يحى .

إن تسخير الأشياء يظهر لنا صفة القدرة الكاملة لله ، واختبارات الإنسان هي التي تظهر صفة المحبوبة لله ، والله يريد لنا أن نرى قدرته ، ويريد منا أن نتجه إليه بالمحبة لذلك يقول الحق : « لا يتحد المؤمنون لكافرين أولياء من دون المؤمنين » لماذا ؟ لأن الكافرين وإن تظاهروا أنهم أولياء لك أيها المؤمن ، فهم يحاولون أن يجعلوك تستنهمهم ، وتطمش إليهم وربما تسفلوا بلطف ودقة ، فدخلوا عليك مدخل المودة ، وهم ليسوا صادقين في ذلك ، لأنهم ماداموا كافرين ، فليس هناك التقاء في الأصل بين الإيمان والكفر ؛ لذلك يقول الحق : « ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء » .

إن من يتخذ هؤلاء أولياء له ، فليس له نصيب من نصرة الله ، لماذا ؟ لأنه يعتقد

ان هؤلاء الكافرين قادرون على فعل شيء له لذلك يحذربا الله ويريد المعنى وضوح  
 أى : لياكم ان تغترو بقوة الكافرين وتتخذوا منهم أولياء ، ولا تفل أيها المؤمن .  
 « ماذا أفعل ؟ » لأن الله لا يريد منك ، إلا أن تبدل ما تستطيع من جهد ، ولذلك قال  
 سبحانه .

﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطٍ انْحِلَالٍ يُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ  
 وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَأَمَّا تَتَّبِعُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَبُوءُ  
 بِالْكَفَرِ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝﴾

( سورة الانفال )

إن الحق لم يقل : « أعدوا لهم ما تعلمونهم به » ، ولكنه قال : « أعدوا لهم  
 ما استطعتم » . إن على المؤمن أن يعمل ما في استطاعته ، وأن يدع الباقي لله ،  
 ولذلك هناك قضية قد يقف فيها العقل ، ولكن الله يعطشها : أى لا تحذروا  
 ولا تظنوا أن أعدائهم الكيرة قادرة على أن يهزمكم ، ولا تسأل . « ماذا أفعل  
 يا الله ؟ » لقد علمنا الحق ألا نقول ذلك ، وعلمنا ما يحسبنا من هذا الموقف لذلك  
 قال

﴿سَأَلَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَضْرِبُوا مَوْقَ الْأَعْتَابِ وَأَظْهِرُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَلَدٍ﴾

( من الآية ١٢ من سورة الانفال )

إذن فساعة يلقي الله في قلوب الذين كفروا الرعب لماذا يصعقون منها كان  
 عددهم أو عدتهم ؟ ليس في ذلك نهاية للمسألة ؟ إن الرعب هو جدى حسن جنود  
 الله ، ولذلك فعلى المؤمن ألا يوالى الكافرين من دون المؤمنين ، لماذا ؟ حتى لا ينطق  
 عليه القول الحق : « ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء » ويصح الحق بعد ذلك  
 الاستثناء : « إلا أن تنفوا منهم نقاة ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير »

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى المبعج بالإسك وهو من خلقه سبحانه ، ويعرف كل  
 غرائزه ، واضعالاته ، وفكره ، وفى أنه قد تأتى له طروب أموى من طاقته ، لذلك

يعامل الحق الإنسان على أنه مخلوق محدود القدرات ، وفي موضع آخر جاء الحق  
بامتهاد آخر فقال -

﴿ وَمَنْ يُؤْلِمْ بِوَجْهِ دُرُّهُ إِلَّا سُتُورًا لِّفَسَادٍ أَوْ مُتَحِيرًا إِلَىٰ مِثْقَلِ ذَرَّةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ  
مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝١٦﴾

( سورة النمل )

إن الحق يقول في هذا الموضع من سورة النمل عمران لا يبعد المؤمنون الكافرين  
أولياء من دون المؤمنين ومن يعمل ذلك فليس من الله في شيء ، إلا أن تنفوا منهم  
نفاة .

« وثقة » مأخوذة من « الوقاية » . إنهم قد يكونون أقرباء للغاية ، وقد لا يملك  
المؤمن بغلبة الظن في أن يتصر عليهم ، وهم الكافرون ، فلا مانع من أن يتقى  
المؤمن شرهم

إن البقية رحصة من الله ، روى أن مبلعة الكذاب جاء برجلين من المسلمين وقال  
لواحد منهما « أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ » قال المؤمن « نعم » قال مسيئمه  
« وتشهد أني رسول الله ؟ » قال المؤمن « نعم » وأحضر مسيئمة المسلم الآخر وقال  
له : « أتشهد أن محمدا رسول الله ؟ » قال المؤمن « نعم » قال مسيئمه « أتشهد أني  
رسول الله ؟ » قال المؤمن الثاني « إن أصم » كيف رد عليه المؤمن بدعوى الصمم ؟ بعد  
علم مسيئمة أنه يدعى الصمم ، ولذلك أخذه وقتله ، ورفع الأمر إلى سيدنا رسول الله  
صل الله عليه وسلم ، فهاذا قال ؟ قال صل الله عليه وسلم « أما المقتول ، فقد صدع  
بالحق فهنيئا له ، وأم الآخر فقد أخذ برحصة الله ، فالتقى رحصه ، والإفصاح بالحق  
فصيلة .

وعبار بن ياسر أحد بالرحصة وبلال بن رباح تمسك بالقرعة

ولنظر إلى حكمة التشريع في هذا الأمر : إن كل مدأ من مبادئ الخير جاء ليواجه ظاهرة من ظواهر الشر في الوجود ، وهذا المدأ يحتاج إلى منهج يأمن من حكام أعلى منه ، ويريد صلاة يقبى ، وفرة عزيمة ، كما يريد تحمل مسيح ، فالتحمل إما يكون من أجل أن يعنى المنهج للناس ، والعزيمة من أجل أن يواجه المؤمن الخصوم ، فلم يشرع الله لتميه بقوله

﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَبِيْهُ مَطْلَبٌ يَّالِئْسَ﴾

(من الآية ١٦ من سورة النحل)

بك خفيفة مستحق للدائبة التي تعدى مذهب الحق بالتصحية بالحياة رحيمة في سبيل الله ، ولكن هل أب كل مؤمن وقف هذا الموقف ضمن يحمل علم الله إلى الآخرين ؟ لذلك يشرع الحق سبحانه وتعالى التمية من أجل أن يقبى من يحمل المنهج ، إنه يقرر له الهداء للعقيدة ، ويشرع لنا النقية من أجل نقاء العقيدة ، لقد جاء الحق بالأمير : أمر لوقوف في وجه الداعل بالامتنع في سبيل الحق ، وهر النقية حمية لبعض الخلق حتى لا يصعب المنهج الحق بوحاء حذار ، واستأنص المؤمنين جميعا ، لذلك يشرع الحق ما يقبى للهداء هوما ، ويقبى للنقاء فوما ليحملوا منهج الله ، هل عرفنا الآن لماذا جاءت النقية ؟ لأن الحق سبحانه وتعالى يريد منها يعمر الأرض، ومورث للأجيال المتتالية ، فهو أن الحق لم يشرع التمية بقوله

﴿مَنْ كَفَرَ بِنَاسٍ مِّنْ عَمَلٍ بَعْدَ إِعْمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَبِيْهُ مَطْلَبٌ يَّالِئْسَ وَلَيْسَ مَنْ شَرَحَ بِاتِّكْفَرٍ صَدْرًا مِّمَّنْهُمْ عَصَتْ مِّنَ اللَّهِ وَهُمْ بِعَذَابٍ عَظِيمٍ﴾

(سورة النحل)

لنبتت الهدائية في العقيدة ، ولرثت الدائبة وحدها لكان أمر المنهج عرصة لأن يزول ، ولا يرثه هوم آخرون ، بذلك شرع الله التمية ليصل أساس حول شحنة الإيمان ، يجمعطون بصونها ، نعل واحد يأخذ بنفسها فيصيء بها بورا وهاجا ولدت ، فلا ولاية من مؤمن لهوم كاثوبين إلا أن تقبى منهم تعاة ، لماذا ؟ لأن الله يحدنا نفسه بقوله : ويحذرکم الله نفسه وإلى الله المصير

هناك أن تقين على السلوك الذي يضعه أمامك الكفار بانسراح صدر وتقول - أنا أقوم بالتقية ، بل لابد أن تكون المسألة واضحة في نفسك ، وأن تعرف لماذا فعلت التقية ، هل فعلتها لتقني منح الخير في الوجود ، أو لخير ذلك ؟ هل فعلتها حتى لا تجعل جود الخير كلهم إلى ماء أو غير ذلك ؟ إنك إن فعلت التقية برعى واستقيت نفسك لمحة استبقاء المنهج الإيمان ، فانت أهل الإيمان ، وعليك أن تعرف جيداً أن الحق قد قال - « ويحذركم الله نفسه وإلى الله المصير » . إنه الحق يقول للمؤمنين : إياكم أن تحلوا على التقية أمراً هو مرغوب لتعوسكم ، لماذا ؟ لأن الحق قد حدها .

﴿ مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَن أَكْرَاهُ وَقَسَرُ مُظْمِيًّا بِالْإِيمَانِ وَنَكَرَ مَرَّ  
مَرَّحًا بِالتَّكْفِيرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ﴾  
(سورة التوبة)

فلا عية إلا الله ، فإياكم أن تغشوا أنفسكم ، لأنه لا عية عند غيره ، فالعية كلها عنده وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ إِن تَحْقُقُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبْذُرُوهُ يَعْلَمَهُ  
اللَّهُ رَيْبَ لَمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى  
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٧﴾ ﴾

لأن الإنسان قد يقوم بالتقية كظاهرة شكلية ، أم المؤمن فلا يفعل ذلك أبداً . لماذا ؟ لأن التحذير واضح في هذه الآية . هل قد يقول قائل إن إخفاء ما في الصدر هو لدى يعلمه الله أم إبداء ما في الصدر فبه قد علمه أحد غير الله ، فليأذا جاء هذا القول ؟ لقد جاء هذا القول الحكيم ، لأنه قد يظن على مالك أن الله غيب فهو يعلم

الغيب فقط ولا يعلم اشهد لكن الله لا يحجه مكان عن مكان أو زمان عن زمان فإنك أن تعتقد أن الله عيب فلا يعرف إلا العيب إن الحق يعلم الغيب ويهم ما يور إلى الوجود وبعد ذلك يقول الحق :

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّخَضَّرًا  
وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا  
بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ  
بِالْعَالَمِينَ﴾

إن العمل في ذاته ظاهره تحدث ونهى ، فكيف بأن الإنسان يوم القيامة ، ويجد عمله ؟ إنه لاشك سوف يجد جراء عمله ، إما حتى الآن يقول ذلك ، لكن حين يفتح الله عل بعض العقول فتكتشف اسراراً من أسرار الكون فقد يكون تفسير هذه الآية فوق ما نصور ، إهم الآن يستطيعون تصوير شريط لعمل ما وبعد مدة يقول الإنسان للآخر انظر ماذا فعلت وماذا فعلت إن العمل المسجل بالشريط يكون حاصر ومصور ، فإذا كان الشر يستطيع أن يفعل ذلك بوسائلنا فهذا عن وسائل الحق سبحانه وتعالى ؟ لابد أنها تفوق قدرة ، إنه الحق يعلم كل شيء ، في الصدر ، أوفى سموات أوفى الأرض : إن الحكم الإلهي يشمل الكون كله مصداقاً لقول الحق

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْطُرُ  
مِنْ ذَرَّةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حِجَّةَ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَظِيٍّ وَلَا يَافِيٍّ  
إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾

ويحتم الحق هذه الآية بقوله « والله على كل شيء قدير » إنه القادر الذي يعلم  
عما الغفلة ، فيسبها دائما إلى كمال قدرته ، كما قال في آية قبلها : « إنك على كل شيء  
قدير » ونحن مخلوقون لله ، وهو القادر الأعلى ، القادر على كل شيء . وباقى لكن من  
بكتاب حسابه يوم الحساب :

﴿ عَمَّا مِّنْ أَوْفٍ كَتَبَ بِحَمْدِهِ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كُنْیَةً ۝۱۱ ﴾

( سورة الحاقة )

إذن فمن تلف في عقله هذه المسألة ، فيقول « ما عملت من خير محصرا »  
يعنى أنه يجد جزاء عمله . أما ما عملته النفس من السوء فهي تود أن يكون بينه  
وبينها أمد بعيد ، أى خاية بعيدة ، ويقول الإنسان لنفسه : « يا ليتها ما جاءت »  
والحق سبحانه يقول : « ومخبركم الله نفعه والله رءوف بالعدو » إن الحق سبحانه  
يكرر التحذير نستحضر قوته المطلقة ، ولكنه أيضا رءوف بنا رحيم ومن بعد ذلك  
يقول الحق سبحانه

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ  
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝۱۲ ﴾

ولما أن نعرف أن كل « قل » إنما جاءت في القرآن كدليل على أن ما سيأتي من  
بعد ما هو بلاغ من الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه ، بلاغ للأمر وللنهي ،  
إن لبعض من في قلوبهم ريب يقولون « كان من الممكن أن يقول الرسول » إن  
كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله « هؤلاء يقولون لو فعل الرسول صلى الله عليه  
وسلم ذلك لكان قد أدى « الأمر به » ولم يؤد الأمر تنهيه . لماذا ؟ لأن الأمر في  
« قل » . . . والأمر به « إن كنتم تحبون الله » وكان الرسول صلى الله عليه وسلم في  
كل بلاغ عن الله بدأ بـ « قل » « إنما يبلغ الأمر » ويبلغ « الأمر به » مما يدل على أنه

سمع عن الله في كل ما يلعبه من الله

إن الدين يقولون : يجب أن تحذف : قل : من القرآن ، وبدلاً من أن نقول  
« قل هو الله أحد » فليست لها « الله أحد » هؤلاء يقولون : إنكم تريدون أن يكون  
الرسول قد أدى « المأمور به » ولم يؤد « الأمر »

إن الحق يقول : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبسكم الله » هذه الآية تدل  
على ماذا ؟ إنهم لا يدعونهم أن يدعوهم إلى الله ، ولكنهم لم يتبعوا الله فيما جاء به  
رسوله صلى الله عليه وسلم ، فكأنهم جعلوا الحب لله شيئاً ، واتساع التكليف شيئاً  
آخر ، والله سبحانه وتعالى له على خلقه إجماع ، وإمداد ، وتلك نعمة ، والله على  
خلقه فضل التكليف ، لأن التكليف إن عاد على المكلف « بفتح الكاف وتشديد  
اللام » ولم يعد منه شيء على المكلف بفتح الكاف بهذه نعمة من المكلف

إن الحق سبحانه لا يحتاج إلى أحد ولا من أحد ، إن الحق سبحانه عندما كلما  
أمر يريد لنا أن نضع قانوناً صيانة حياة الإنسان ، وقد صرنا المثل ، والله المثل الأعلى ،  
بالآلة المصنوعة بأيدي البشر ، إن المهندس الذي صممها يضع لها قانوناً صيانة ما  
يرضع قائمة تعليمات عن كيفية استعمالها ، وهي تنحصر في « اعمل كذا » و « لا تفعل  
كذا » ، ويختار لهذه الآلة مكاناً محدداً ، وأسلوباً معيَّناً للاستخدام

إذن فوضع قائمة بالقوانين الخاصة بصيانة واستعمال الآلة ما وطعمها في كرامة  
صغيرة ، هي لفائدة المتبع بالصيغة ، هذا إن مجال الصيغة لشريعة مما بال نصيحة  
الله عز وجل ؟ إن الله إجماعاً للإنسان ، والله إمداداً للإنسان ، والله تكليفاً للإنسان ،  
والحق قد جعل لتكليف في خدمة الإيجاد والإمداد ، إن الحق لو لم يعطنا نظام حركته  
الحياة في « اعمل » و « لا تفعل » لفسد علينا الإيجاد والإمداد ، إن من تمام نعمة الحق  
على الخلق أن أوحد التكليف ، وإن كان العبد قد عرف قدر الله فأحبه للإيجاد  
والإمداد فليعرف العبد فضل ربه عليه أيضاً من ناحية قول التكليف ، وأن يحب العبد ربه  
لأنه كله بالتكليف الإيمانية .

إنك قد تحب الله ، ولكن عليك أن تلاحظ الفرق بين أن تحب أنت الله ، وأن



يجبك الله إن التكليف قد يبدو شاقا عليك فتهمس التكليف ؛ لذلك نقول لك لا يكفى أن تحب الله لنعمه ، إيجاده وإمداده ؛ لأنك بذلك تكون أهملت نعمه نكيبه التى تعود عليك بالخير ، إن معمة التكليف تعود عليك بكل الخير عندما يؤدبها أيا الإنسان ، فلا تهملها ، ومن الجائز أن تجد عبادا يحبون الله لأنه أوجدهم وأمدهم بكل أمسيات الحياة ، ولكن حب الله لعبده يتوقف على أن يعرف المد نعمته - سبحانه - فى التكليف ، إن الله يحب العبد الذى يعرف قيمة النعمة فى التكليف .

وبعن فى مجالنا البشرى يرى إنسانا يحب إنسانا آخر ، لكن هذا الآخر لا يبادل العاطفة ، والمتنبى قال :

أنت الحبيب ولكى أعوذ به

من أن أكون حيبا غير محبوب  
إن المتنبى يستعيد أن يحب واحدا لا يبادل له الحب . فكأن الذين يدعون أنهم يحبون الله ، لأنهم عبيد لإحسانه إيجادا وإمدادا ، ثم بعد ذلك يستكفرون ، أولا يقتدرون على من نقوسهم عن أداء التكليف هؤلاء يقول أستم قد منعتم شطر الحب لله ، لأن الله لم يكلفكم لصلحه ولكنه كلفكم لصلحكم ؛ لأن التكليف لا يقل عن الإيجاد والإمداد .

فلماذا ؟ لأن التكليف فيه صلاح الإيجاد والإمداد ، والحب - كما نعرف - هو ودادة القلب وعندما تقيس ودادة القلب بالنسبة لله ، فإنت ترى آثارها ، وعملها ، من عفو ورحمة ورضا ، وعندما تقيس ودادة القلب من العبد إلى الله فإنها تكون فى الطاعة إن الحب الذى هو ودادة لقلب يقدر عليه كل إنسان ، ولكن الحق يطلب من ودادة القلب ودادة انقلب ، وعلى الإنسان أن ينحس عن تكاليف الله ليقوم بها ، طاعة لله وحبا لله ، ليتلقى عمة الله له بآثارها ، من عفو ، ورحمة ، ورضا

والحب لطلوب شرها يختلف عن الحب بمفهومه الصحيح ، أقول ذلك لنعلم جميعا ، أنه الحق سبحانه قائم بالقسط ، فلا يكلف شططا ، ولا يكلف فوق الروسع أو فوق الطاقة . إن الحب المراد لله فى التكليف هو الحب العقل ، ولا بد أن يعرف بين الحب العقل والحب العاطفى ، العاطفى لا يقدر له . لا أقول لك ؛ عليك أن تحب فلانا حبا هائليا ، لأن ذلك الحب لعاطفى لا قانون له . إن الإنسان يجب أن يحق ولو كان قليل الذكاء أو صاحب حاجة ، يحبه بعاطفته ، ويكره قليل الذكاء

بمقله

والإنسان حينما يرى ابن جاره أو حتى ابن عدوه ، وهو متفوق ، فيه يحب ابن الجار أو ابن العدو بمقله ، لكنه لا يحب ابن الجار أو العدو بمطعته ، ودليل ذلك أن الإنسان عندما توجد لديه أشياء جميلة فإنه يعطيها لابنه لا لاس الخيران ، هناك - إذن - فرق بين حب العقل ، وحب العاطفة

والتكليف دائما يقع في إطار المقدور عليه وهو حب العقل ، ومع حب العقل قد يسأل الإنسان نفسه - ماذا تكون حياتي وكيف . لو لم أعش هذا الدين ؟ وماذا تكون الدنيا وكيف ، لو لا رحمة الله بنا عندما أكرما هدا الدين ؟ وأرسل لنا هذا الرسول الكريم ؟ إن هذا حديث العقل وحب العقل .

وقد يتسامى الحب فيصير بالعاطفة أيضا ، لكن المكلف به هو حب العقل ، وليس الحب العاطفي ، ولذلك يجب أن نعتن إلى ما روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه - حينما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ( لا يؤمن أحدكم حتى يكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين ) (١) .

وقف سيدنا عمر عند هذه النقطة فقال : أسمعول أن يكون الحب لك أكثر من النفس ؟ إني أحبك أكثر من مالي ، أو من ولدي ، إنما من نفسي ؟ ففي النفس عنها شيء . وهكذا ترى صدق الأداء الإيماني من عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكرمه النبي صلى الله عليه وسلم ثانيا ، وثالثا ، فعرف سيدنا عمر أنه قد أصبحت تكليف وعرف أنها لا بد أن تكون من الحب المقدور عليه ، وهو حب العقل ، وليس حب العاطفة . وهنا قال عمر : « الآن يا رسول الله ؟ » فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر ، أي كمل إيمانك الآن ، أي أن سيدنا عمر قد فهم المراد بهذا الحب وهو الحب العقلي .

ونريد هنا أن نضرب مثلا حتى لا تنفد هذه المسألة حلبة في القلوب أو العقول

- يقول - وهو المثل الأعلى: إن الإنسان ينظر إلى الدواء المر طعما ويسال نفسه هل أحبه أو لا ؟ إن الإنسان يحب هذا الدواء بعقله ، لا بعاطفته

إذن فحب العقل هو ودانة من تعلم أنه صالح لك ونافع لديك وإن كانت نفسك تعلم ، وعندما تنضح لك حدود نفع الشيء فأنت تحبه بعاطفتك . إذا فال مطلوب للتكليف الإيمان « أحب العقل » ، وبعد ذلك يتسامى ليكون « حبا عاطفيا » وهكذا يكون قول الحق « إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله » وهذا الحب ليس دعوى . إن الإنسان منا عندما يدعى أنه يحب إنسانا آخر ، فكل ما يتصل به يكون محبوبا ، ألم يقل الشاعر « وكل ما يفعل المحبوب محبوب » ؟ فإن كنتم تحبون رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاتبعوه بتفديد التكليف الإيمانية ، ولعلقت إلى العرق بين « اسمي » و « اسمع ي » .

إن الامتناع لا يكون إلا في السلوك ، فإن كنت تحب رسول الله فعملك أن ترى ماذا كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن تفعل مثله ، أما إذا كنت تدعى هذا الحب ، ولا تفعل مثله فعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فهذا عدم صلتك في الحب ، إن دليل صدقكم في الحب المدهى متكم أن تتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن اتبعنا رسول الله نكون قد أخذنا التكليف من الله على أنه نعمة ، ونفعلها من الله مع ما فيها من مشقة علينا ، سبحانه الله ، لئلا أثرتا تكليفه على المشقة في التكليف .

إن فهم هذه الآية يقتضي أن نعرف أن الحق يبهنا فكأنه يقول لنا « انتم أحببتم الله للإيمان والإمداد ، وبعد ذلك فهمتم في التكليف لأنه ثقل عليكم ، وهنا نقول : « انظروا إلى التكليف أهو لصالح من كلف أم هو صالح من تنفى التكليف ؟ » إنه لصالح المكلف أي الذي تلقى التكليف .

وهكذا يجب أن نفهم التكليف للنعم ، فتصبح النعم هي « نعم الإيمان » ، و « الإمداد » ، و « التكليف » ، فإن أسببت الله للإيمان والإمداد ، فهذا يقتضي أن تحبه أيضا للتكليف ، ودليل صدق الحجة هو قيام العبد بالتكليف ، وما دامت أنت قد عبرت عن صدق عواطفك بحبك لله ، فلا بد أن يحبك الله ، وكل منا يعرف أن حبه لله لا يقدم ولا يؤخر ، لكن حب الله لك يقدم ويؤخر .

إن قول الحق سبحانه وتعالى فيما يعلمه لرسول الله ليقول لهم : « فأتبعوني بحسبكم الله » أى أن الرسول صلى الله عليه وسلم المرسل من عند الله جاء بكل ما أنزله الله ولم يكتف شيئا مما أوحى بتبليغه ، فلا يستقيم أن يضع أحد تفريقا بين رسول الله وبين الله ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم مبلغ عن الله كل ما أنزل عليه

وبعد ذلك يقول الحق : « ويعمر لكم دينكم » إن مسألة « يعمر لكم » هذه تتضمن ما نسميه القوانين البشرية بالأثر الرجعى ، فمن لم يكن فى بانه هذا الأمر ، وهو حب الله ، واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعليه أن يعرف أن عبية مسئولية أن يبدأ فى هذه المسألة مورا ويتبع الرسول صلى الله عليه وسلم وبعد التكليف الإيماني ، وسيفخر له الله ما قد سبق ، وأى ذنوب يعفوها الله هنا ؟ إنها الذنوب التي فر منها بعض العباد عن اتباع الرسول ، فعند الرسول صلى الله عليه وسلم بالحكم فيها .

وهكذا نعرف ونتيقن أن عدالة الله أنه سبحانه لن يعاقب أحد على ذنب سبق مدام قد قبل العبد أن يفد لتكليف الإيمان ، إن الدين أبصهم رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجب عليهم أن يفطنوا بعقولهم إلى ما أعلنه الرسول لهم ، إن هذا الأمر لا يكون حجة إلا بعد أن صار بلاغا ، وقد جاء لبلاغ ، وتلك يغفر الله الذنوب السابقة على البلاغ ، وبعد ذلك يقول الحق : « والله عفود رحيم » إما نعلم أن المنفرة من الله والرحمة منه أيضا ، وبعد ذلك يقول الحق .

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ قَوْلُوا ﴾

﴿ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴾

وقد قلت من قبل فى مسألة الأمر بالطاعة ، إنها جاءت فى القرآن الكريم على ثلاثة آيات : فمرة يقول الحق « أطيعوا الله والرسول » كما جاء بهذه الآية التي

نحن نصدّد تناولها بحواظنا الإيمانية . وبلاحظ هذا أن الحق سبحانه لم يكرر أمر الطاعة ، بل جعل الأمر واحداً ، هو « أطيعوا » أفإذا سألنا من المطاع ؟ تكون الإجابة : الله والرسول معا .

إذن فنقول لرسول صلى الله عليه وسلم بلاعاً عن الله : اتبعوني بحسبكم الله ، يعني أن طاعة المؤمنين للرسول من طاعة الله . إن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأمرنا بطاعته ، ولكنه يأمرنا بطاعة الله ، ولذلك لم يكرر الحق أمر الطاعة ، إن الحق هنا يوجب أمر الطاعة فيجعلها لله وللرسول معا ، إنه يعطف على انطع الأول وهو الله بمطاع ثاني هو لرسول صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق في كتابه العزيز :

﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَنِّي مَخْلٌ وَعَلَيْكُمْ مَا جِئْتُمْ وَإِنْ يُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَيِّنُ الْعَيْنُ ٥٩ ﴾

(سورة النور)

إن الحق يورد أمر الطاعة ثلاث مرات ، فمرة يكون أمر الطاعة لله ، ومرة ثانية يكون أمر الطاعة للرسول صلى الله عليه وسلم ، ومرة ثالثة يقول الحق

﴿ يَأْتِيهِ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالطَّاعَةِ وَالطَّاعَةِ وَالرَّسُولِ وَأَوَّلِ الْأَمْرِ مَكْرٌ فَلَمَّا تَسَرَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ٥٩ ﴾

(سورة النساء)

فيها مسألة هذه الأوامر بالطاعة ؟ إنها طاعة بالوان التكليف وأنواعها ، إن الأحكام المطلوبة من المؤمنين أن يطيعوا فيها ، مرة يكون الأمر من الله قد جاء بها وأن يكون الرسول قد أكدها بقوله وسلوكه ، إن المؤمن حين يطيع في هذا الأمر الواحد ، فهو يطيع الله والرسول معا ، ومرة يأتي حكم من الله إجمالاً ، ويبقى الرسول لمفصلة

﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاصْبِرُوا لِلرُّسُولِ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ﴾

(سورة النور)

إن الواحد منا لم يكن يعرف كم صلاة في اليوم ، ولا عدد الركعات في كل صلاة ، ولا نعرف كيفيتها لكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد فصل لنا الأمر في كل صلاة ، إذن ، فالمؤمن يطيع الله في الإجمال ، ويطيع الرسول في التفصيل إن علبا أن بلغت إلى أن هب طاعتين - الأولى : طاعة الله ، والثانية : طاعة الرسول ، أما في الأمر المتحد ، فتكون الطاعة لله وارسول ، لأنه أمر واحد ، وأما الأمر الذي جاء من الله فيه تكليف إجمالي فقد ترك الله للرسول صلى الله عليه وسلم بيانه ، فالمؤمن يطيع الله في الأمر الإجمالي كأمر الصلاة ، وإقامتها ، ويطيع الرسول في تفصيل أمر الصلاة ، وكيفيتها ، وأحيانا يحىء الحكم بالتفويض الأعلى من الله للرسول ، فيقول الله لرسوله ما معناه إنك أنت الذي تقرر في هذه الأمور ، كما قال الحق :

﴿وَمَا أَسْأَلُكَ الرَّسُولَ فَعْدُوهُ وَمَا نَسْأَلُكَ عَنْهُ فَأَنْتَهُآ﴾

(من الآية ٢ من سورة الحشر)

بعد ترك الحق سبحانه للرسول أن يصدر الشريعات انلارمة ، لاستقامة حياة المؤمنين ، لقد أعطاه الحق سبحانه التفويض العام ، ومادام سبحانه قد أعطى الرسول صلى الله عليه وسلم التفويض العام ، فإن طاعة المؤمن تكون للرسول فيها بقوله الرسول وإن لم يقل الله به . إننا على سبيل المثال لا نجد في القرآن دليلا على أن صلاة العصر ركعتان ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم هو الذي فصل لنا الصلاة فعربا أن العصر ركعتان ، والظهر أربع ركعات ، والعصر مثل الظهر ، والمغرب ثلاث ركعات ، والعشاء أربع ركعات . إن الدليل هو تفصيل الرسول ، وقول الحق :

﴿وَمَا أَسْأَلُكَ الرَّسُولَ فَعْدُوهُ وَمَا نَسْأَلُكَ عَنْهُ فَأَنْتَهُآ﴾

(من الآية ٧ من سورة الحشر)

إنه دليل من القرآن الكريم . هكذا نعرف أن الأمر بالطاعة جاء بالقرآن عن اللون ثلاثة : اللون الأول : إن اتحد الطاع « الله والرسول » ان عطف الرسول هنا يكون على لفظ الجلالة الأعلى . اللون الثاني : هو طاعة الله في الأمر الإجمالي وطاعة الرسول في تفصيل هذا الأمر ، فإن الحق يقول : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول » اللون الثالث : وهو الذي لم يكن الله فيه حكم ، ولكنه بالتعويض العام للرسول ، بحكم قوله الحق : « وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » هذه طاعة للرسول ، ثم يأتي في أمر طاعة أولى الأمر فيقول الحق

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

(سورة النساء)

إن الحق لم يورد طاعة أولى الأمر مدخجة في طاعة الله والرسول ، لتكون طاعة واحدة . لا . إن الحق أورد طاعة أولى الأمر في الآية التي يصر فيها بين طاعة الله وطاعة الرسول ، ثم من بطن طاعة الرسول تكون طاعة أولى الأمر . لماذا ؟ لأنه لا توجد طاعة داتية لأولى الأمر ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم له الطاعة الداتية . أما طاعة أولى الأمر فهي مستمدة من طاعة أولى الأمر لله ورسوله ، ولا طاعة لأولى الأمر فيما لم يكن فيه طاعة لله وللرسول صلى الله عليه وسلم .

إن الحق يقول « قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » . إن الله يبلغ الرسول أن يبلغ هؤلاء الذين قالوا : إنهم يحبون الله ، بالشروط التي يمكن أن يبادل بها الحق عبادته الخصب ، وذلك حتى تتحقق الفائدة للبشر ، لأن محبة الله تفوق ما يقدمه الشر من حب . إن اتباع الرسول وتغيب التكليف بالطاعة لله والرسول .

ذلك هو أسلوب تعبير العباد عن حبهم لله وللرسول صلى الله عليه وسلم . أما إن تولوا ، أي لم يستمعوا لك يا محمد ، ولم يتبعوك ، فإن موقفهم - والعباد بالله - يستقل إلى الكفر ، لأن الحق يقول عن الذين يتولون عن الله والرسول « فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ » . وليس هناك نفع أكبر من هذا .

إن كلمة « قولوا » توحى بأن الدين استمعوا إلى أوامر الحق قد نفروا وأعرضوا ، فهم لم يأخذوا بحكم الله ، ثم منعهم الكسل من تنفيذه . لا إثم أعرضوا عن حكم الله - والعباد بالله - ولذلك فقد قلت ومازلت أقول : فليحذر الذين يحالون عن أوامر الله ألا يفرقوا بين أمر متقبل على أنه الحكم لحق وبين حمل النفس على اتباع الحكم وتنفيذه .

إياك أيها المسلم أن تنكر حكما لا تستطيع أن تحمل نفسك عليه أو لا تقدر عليه . نك إن أنكرت تنفل نفسك من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر والعباد بالله - ولكن عليك أن تؤمن بالحكم ، وقل : « إنه حكم الله وهو صواب ولكني لا أستطيع أن أقدر على نفسي » إن ذلك يجعل عدم تنفيذ الحكم معصية فقط . ويأى الحق - سبحانه - بعد أن بين لنا أصول العقائد في قوله :

﴿ تَعْبُدُ اللَّهَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَلِيمُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

﴿ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

( سورة الاحقاف )

ويعد أن بشر الحق المزمين بأنه سبحانه وبحلى يعطيهم الملك الإيماني وأنه الإله القادر ، وطلاقة قدرته تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل ، وتخرج الحي من الميت وتخرج الميت من الحي ، ويعد أن رسم سبحانه طريق محم ، فإن كنتم قد أحببتم الله للإيمان والإيمان والإيمان ، وتريدون أن يحكم عليكم بطاعة الله ولرسول من الله عليه وسلم في تنفيذ التكليف

ويعد أن وضع الله سبحانه وتعالى المبادئ الإيمانية عقيدة ونشريعة ، بعد هذا وذاك يعطى لنا نماذج تطبيقية من سلوك الخلق ، ذلك أن هناك فرقا بين أن توضع نظريات ويأى الأمر للتطبيق فلا تجد من يطبق ، إن الحق لم يكلف شططا ولا عبثا ، إن الله يقول لنا : أنا كلفت بالتكاليف الإيمانية ومن الخلق أمثالكم من استطاع أن يسير عليها وأن ينفذها ، لذلك يعرض الحق لنا النماذج التي توضح ذلك

لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوث إلى أمة أمية ، وكان الإسلام جديدا عليهم ، ولذلك يعرض الحق نماذج قديمة ، وهذه النماذج تؤكد لنا أساس دين



الإسلام لا يجد تعصبا، لأن الدين لدى جاء من الله على آدم عليه السلام هو الدين الذي جاء به إبراهيم عليه السلام من عند الله وهو الدين الذي نزل إلى آل عمران وموسى عليه السلام وعيسى عليه السلام

إن الحق يعطى صفات التكريم لأهل أديان مسويين إلى ما أنزله الله عليهم من منهج وجاء الإسلام ليسخ بعضا مما جاء في تلك الرسائل السابقة ويضعها في منهج واحد ماق إلى يوم القيامة ، هو منهج الإسلام ، إنه مطلق العظمة هاهوذا الحق يقول

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ

وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾

إله عدالة القرآن الكريم ، إنه الحق العادل الذي يرسل على الرسول بلاعا يذكر الأناء بظهرة أصون الآباء ، ومن الخسارة أن يصير الآباء إلى ما هم عليه . « إن الله اصطفى آدم ، وكلمة « اصطفى » تدل على اختيار مفضل . ولما أن سأل هل اصطفى الحق هؤلاء المرسل ، آدم ونوحا ، وآل إبراهيم ، وآل عمران فكانوا طائعين ، أم علم الحق أولا أنهم سيكونون طائعين فاصطفاهم ؟ إن الحق علمه أربى ، وعلمه ليس مرتبا عن شيء . وساعة أب تأل أنت بقانونك البشرى وتفترس في إنسان ما ، وتولي أمره ، ويجمع في ، هاتين نفسك بأن فرامتك كانت في محبة ، تعلم الله واقفاده ؟

إله الدين اصطفاهم الله هم الذين علم الله أولا أنهم سيكونون طائعين ، وقد يقول قائل : إنهم طائعون لله بالاصطفاء ، لخل هذا القائل ترد : إنهم طائعون بالنفس العامة ويكونون في مزيد من الطاعة بعد أن يأخذوا التكليف بالنفس الخاصة ، إنهم طائعون من قبل أن يأخذوا أمور التكليف ، ولو تركهم الحق للأمر

العقلية لاهتدوا إلى طاعته ، وعندما جاءهم الأمر التكليفي ويصطفيهم الله يكونون رسلا وحلة منيح سيارى .

عندما يسمع الإنسان قول الحق : « إن الله اصطفى آدم » فقد يتساءل عن معناها ، ذلك أن من اصطفاه الله لآدم تأتى إلى الدهن بمعنى « خصه » بنفسه أو أشد صفوة من غيره ، فكيف كان اصطفاه آدم ، ولم يكن هناك أحد من قبله ، أو معه لأنه الخلق الأول ؟ إننا يمكن أن نعرف بالعقل العادى أن اصطفاه الله لنوح عليه السلام ، كان اصطفاه من بشر موجودين ، وكذلك اصطفاه إبراهيم خليل الرحمن وبعية الأنبياء

إذن ، فكيف كان اصطفاه آدم ؟ إن معنى « اصطفى آدم » - كما قلنا - تمضى أن الله قد اختاره أو أن « المصطفى عليه » يأتى منه ومن ذريته . نعم وقد جاء المصطفى عليه من ذرية ، وهذا المعنى يصلح ، والمعنى السابق عليه يصلح أيضا . إن الحق يقول : « إن الله اصطفى آدم ونوحا » ونس نحن نعلم أن مبدىا نوحا عليه السلام واحة جماعة من الكافرين به ، فأغرقهم الله في الطوفان ، ونوحا نوح ومن معه بأمر الله

﴿ حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا آمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آلٍ وَهَٰؤُلَاءِكَ الْآمَنَ  
صَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ١١ ﴾

( سورة هود )

إن الذين بقوا من بعد نوح عليه السلام كانوا مؤمنين ، ثم تعرضوا للأغيار . وجاءت هذه الأغيار في أعقابهم ، فشأ كفر وإيمان ، لماذا ؟ لأن آدم عليه السلام حين خلقه الله وضع له التحفة التكليمية في الجنة ، كان من الواجب أن ينقل ما علمه له الله لأبنائه .

لقد نقل آدم لهم مسائل صيانة مادتهم وعلمهم كيف يأكلون ، وكيف يشربون ، وغير ذلك . وكان يجب أن تكون معهم النسيم . إن آدم عليه السلام قد أدى ذلك ، وعلم أباءه كيفية صيانة مادتهم وعلمهم القيم أيضا ، ولكن مرور الزمان ، طل بعض من أباء آدم يتخفون من التكليف حتى انتشرت وذهبت . ومن رحمة الله بخلقه يجلد سبحانه وتعالى الرسالة يبعث رسول جديد .

والرسالة الجديدة تعطى ما كان موجودا أولا ، فبما يتعلق بالعقائد والأخبار ، والأشياء التي لا تتغير ، وثاني الرسالة الجديدة بالأحكام المناسبة لزمن الرسالة فإذا ما أمكن للبشر أن يعدلوا من سياسة البشر ، يظل الأمر كما هو ، فإن ارتكب واحد منكرا وضرب قومه على يده ، استعأم أمر لرسالة وبقيت هذه الأمة على الخير لماذا ؟ لأن مصافي اليقين في النفس الإنسانية موجودة ، ونحن نراها ونلمسها ، إن هناك واحدا نجد مصافي اليقين في ذاته ، وقد لا يقدر على نفسه ، فيرتكب المعصية ، وتلومه نفسه ، فيرجع عن المعصية .

ومرة أخرى نجد إنسانا آخر لا يجد في نفسه مصافي اليقين ، ولكنها موجودة في غيره ، فنجد من يأمره بالمعروف ، وينهاه عن المنكر ، فإذا امتنعت المصافي لذاتية الإيمان ، وكذلك امتنعت المصافي الإيمانية في المجتمع ، فلا أمل هناك ، لذلك يجب أن يأتي رسول جديد ، ويهتدي الناس بمعجزة .

لقد شاعت لإضافة الحق سبحانه ألا يأتي رسول آخر بعد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وفي ذلك شهادة لأمة محمد صلى الله عليه وسلم بأن الله أمها على منهج الله ، فإذا منعت من أي نفس مصافيه الذاتية فستبقى مصافيه الاجتماعية ، ولا بد أن يكون في أمة محمد ذلك ، لأن امتناع ذلك كان يستدعي وجود نبي جديد

إن الله أمم محمد على منهجه ، ولذلك لم يأت نبي بعد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد آمن الحق أمة محمد فلم يسمح فيها أبدا لمصافي الذاتية أو الاجتماعية ، ولذلك يأتي القوم الحق :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾

(من الآية ١١٠ من سورة آل عمران)

، إن هذا توجيه لنا من الحق لتعرف أن المصافي الاجتماعية ستظل موجودة في أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، إذن بعد حدوث الغفلة من بعد نوح عليه السلام جاء الله بالصالحين أخرى رحمة به بالعالمين ، ويقول الحق : « إن الله اصطفى آدم ونوح وإبراهيم وآل عمران على العالمين » ونحن نقول على إبراهيم عليه السلام : « أبو الأنبياء » وأورد الحق بها بعض من أبناء آل إبراهيم ، وهم آل عمران وأعظامهم ميزة

وكلمة « عمران » هذه حين ترد في الإسلام فلما أن عرف أن هناك اثنين لها الاسم نفسه ، هناك « عمران » والد موسى وهارون عليهما السلام . وهناك « عمران » آخر ابن عمران والد موسى وهارون كان اسم أبيه « يصهر » وجده اسمه « ماهات » . ومن بعده « لاري » ومن بعده « يعقوب » . ومن بعده « إسحق » . وبعده « إبراهيم » ، أم عمران الآخر ، نهر والد مريم عليها السلام .

وفد حدث إشكال عند عدد من الدرسين هو « أي العمرانيين يقصده الله هنا ؟ » والذي راد من حيرة هؤلاء العلماء هو وجود أخت لموسى وهارون عليهما السلام اسمها مريم ، وكانت ابنة عمران والد موسى وهارون فكذلك اسمها مريم بنت عمران . وكانوا في ذلك الزمن يتعاهلون باسم « مريم » لأن معناه « العابدة » ، ولما اختلفوا لم يفصروا إلى أن القرآن قد أبان وأوضح المعنى ، وكان يجب أن يفهموا أن المقصود هنا ليس عمران والد موسى وهارون عليهما السلام ، بل عمران والد مريم ، ومنها عيسى عليه السلام ، وعمران والد مريم هو ابن ماثان ، وهو من نسل سليمان ، وسليمان من داود ، وداود من أوشى ، وأوشى من يهودا ، ويهودا من يعقوب ، ويعقوب من إسحق .

وكنا قديما أيام طلب العلم نصح لها صبيطا بالحرف ، فنقول « عمم سديا » ومعناها عيسى بن مريم ، ومريم بنت عمران ، وعمران ابن ماثان ، وماثان من سليمان ، من داود من أوشى وأوشى من يهودا ويهودا من يعقوب ويعقوب من إسحاق . لقد التبس الأمر على الكثير وقالوا أي العمرانيين الذي يقول الله في حقه هذا القول الكريم ؟ ولهذا نقول إن محي ، اسم مريم عليها السلام من بعد ذلك يعنى أنه عمران والد مريم ، وأيضا يجب أن نعلم إلى أن الحق قد قال عن مريم

﴿ تَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ إِنِّي لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِشَيْرِ حِسَابٍ ﴿٦٧﴾ ﴾

( سورة العنكبوت )

وزكريا عليه السلام هو ابن ادد ، وأذن كان معاصر لماثان . إن المراد هنا هو عمران واند مريم هكذا حدد أي العمرانين يقصد الحق بقوله . « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران عن العالمين » . وعندما تقول . اصطفت كذا على كذا ، فمعنى ذلك أنه كان من الممكن أن تصطفى واحدا من مجموعة عن الآخرين ، ولذلك نفهم المقصود بـ « على العالمين » أي على عالمي زمانهم ، منهم قوم موجودون وقد اصطفتي منهم واحدا ، أما الذي سيولد من بعد ذلك فلا اصطفاء عليه . فلا اصطفاء على محمد صلى الله عليه وسلم . ويقول الحق بعد ذلك .

### ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

وحيث يقول : « ذرية بعضها من بعض » هل أن سأل : هل المقصود بذلك الأسباب أم الدين والقيم ؟ وبنا أن قلنا أن الحق قد عينا في مسألة إبراهيم عليه السلام أن الأنساب بالدم والنعم عند الأنبياء لا اعتبار لها ، وإنما الأنساب المعرف بها بالنسبة للأنبياء هي أسباب القسم والدين . وكنا قد عرصنا من قبل لما قاله الحق :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ إِبْرَاهِيمُ مِنْ رَبِّهِ الْبَيْعَةَ فَقَالَ إِنِّي سَأَلْتُ النَّاسَ إِيْمَانًا قَالُوا وَمِنْ دِينِكَ ﴾

( من الآية ١٢٤ سورة البقرة )

فردها الله عليه قائلا .

﴿ لَا يَسْأَلُ عَهْدِي الْعَالَمِينَ ﴾

( من الآية ١٢٥ سورة البقرة )

لماذا ؟ لأن الإمام هو المقتدى في الهدايات إذن فالسألة ليست وراثه بالدم وهكذا علم سيدنا إبراهيم ذلك بأن النسب للأبناء ليس بوراثه الدم ، إذن فحين نفهم قول الحق : « ذرية بعضها من بعض » عجل أنها ذرية في توارثها للقيم ونحن نسمع في القرآن .

﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْمَفْسِقُونَ ﴿٧٧﴾ ﴾  
( سورة التوبة )

إن هذا الصاق ليس أمرا يتعلق بالنسب وإنما يتعلق بالقيم ، إنها كلها أمور قيسية ، حين يقال . « والله سميع عليم » أى أن الله يعرف الأقوال وكذلك الأفعال والخبايا وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ ﴾

وعندما تقرأ « إذ » فتعلم أنها ظرف وتقدر لها في اللغة « اذكر » ، ويقال « إذ حثتك » أى « اذكر أى جئتك » وعندما يقول الحق « إذ قالت امرأة عمران » فبعض الناس من أهل الفتح والفهم يرون أن الحق سبحانه سميع عليم وقت أن قالت امرأة عمران « رب إني ندرت لك ما في بطني » ، وهم يحاولون أن يربطوا هذه الآية بما جاء فيها ، بأن الله سميع وعليم . ونقف عند قول امرأة عمران : « رب إني ندرت لك ما في بطني محررا ،

إنا عندما سمع كلمة « محررا » فمعناها أنه غير مملوك لأحد فإذا قسا : « حررت

العبد ، بمعنى بمصرف دونه قيد عليه . أو ، حررت الكتاب ، أصلحت ما فيه . إن تحرير أى أمر ، هو إصلاح ما فيه من فساد أو إطلاقه من أى ارتباط أو قيد . أما قولها : « رب إن نذرت لك ما فى بطنى محررا ، هو مناجاة لله ، فما الدافع إلى هذه المناجاة لله ؟

إن امرأة عمران موجودة فى بيثة ترى الناس تعز بأولادها ، وأولاد الناس - كما نعلم - يحكمون حركة الناس ، والناس تحكم حركة أولادهم ، ويكد الناس من أجل أن يكون الأبناء عزوة ، وقرة عين ، ويتقدم المجتمع بذلك التواصل المادى ، ولم تعجب امرأة عمران بذلك ، لقد أرادت ما فى بطنها محررا من كل ذلك ، إنها تريد محررا منها ، وهى محررة منه . وهذا يعنى أنها ترغب فى أن يكون ما فى بطنها غير مرتبط بشيء أو يحب أو يرعى

لماذا ؟ لأن الإنسان مهما وصل إلى مرتبة اليقين ، فإلى المسائل التى تتصل بالناس وبه ، تمر عليه ، وتشغله ، لذلك أرادت امرأة عمران أن يكون ما فى بطنها محررا من كل ذلك ، وقد يقال : إن امرأة عمران إنما تتحكم بهذا النذر فى ذات إنسانية كذاتها ، ونرد على ذلك بما يلى :

لقد كانوا قديما عندما يندرون ابنا لبيت المقدس فهذا النذر يستمر مادامت لهم الولاية عليه ، ويظل كما أرادوا إلى أن يبلغ سن الرشد ، وعند بلوغ سن الرشد فإن للابن أن يختار بين أن يقتل كما أراد والده أو أن يحيا حياته كما يريد .

إن بلوغ سن الرشد هو اعتراف بذاتية الإنسان فى اتخاذ القرار المناسب لحياته . كانت امرأة عمران لا تريد بما فى بطنها أن يكون قرّة عين ، أو أن يكون معها ، إنها تريد محررا لخدمه البيت المقدس ، وكان يستلزم ذلك فى التصور البشرى أن يكون المولود ذكرا ، لأن الذى كان يقوم بخدمه البيت هم الذكور .

ومعنى يعرف أن كلمة « الولد » يطلق أيضا على البنت ، ولكن الاستعمال الشائع ، هو أن يطلق الناس كلمة « ولد » على الذكر . لكن معنى الولد لعمري هو المولود سواء أكان ذكرا أم أنثى . وعندما نسمع كلمة « مذكر » فلفهم أنها أمر أريد به الطاعة فوق تكليف المكلف من جس ما كلمه به الله .

إن الله قد فرض عليهما خمس صلوات ، فإذا نذر إنسان أن يصلي عددا من الركعات فوق ذلك ، فإن الإنسان يكون قد ألزم نفسه بأمر أكثر مما ألزمه به الله ، وهو من جنس ما كلف الله وهو لصلاة . والله قد فرض صيام شهر رمضان ، وإذا ما نذر إنسان أن يصوم يومى الاثنين والخميس أو صيام شهرين فالإنسان حر ، ولكنه يختار نذرا من جنس ما فرض الله من تكاليف ، وهو الصيام . والله فرض ركعة قدرها بأثنين ونصف بالمائة ، ولكن الإنسان قد يسر فوق ذلك ، كمقدار عشرة بالمائة أو حتى خمسين بالمائة .

إن الإنسان حر ، ولكنه يختار نذرا من جنس ما فرض الله من تكاليف ، إن النذر هو ريدده عما كلف ، التكليف من جنس ما كلف سبحانه . وكلمته « نذرت » من صمن معانيها هو أن امرأة عمران سيدة تقية وورعة ولم تكن بحرة على النذر ، ولكنها بعثت ذلك ، وهو أمر رائد من أجل خدمة بيت الله .

والنذر كما نعلم يعبر عن عشق العبد لتكاليف الله ، فيلزم نفسه بالكثير من بعضها . ودعت امرأة عمران الله من بعد ذلك بقبول ذلك النذر فقالت « فتقبل منى » . « والتقبل » هو أحد الشئ برضا ، لأنك قد تأخذ بكراه ، أو تأخذ على مضض ، أما أن « تتقبل » فذلك يعنى الأحذ ببول وبرضا . واستجابة لهذا الدعاء جاء قوب الحق .

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ ﴾

( من الآية ٢٧ سيدة آل عمران )

ونلاحظ أن امرأة عمران قالت فى أول ما قالت . « رب إن نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم » ، ولم تقس « يا الله » وهذا لنعلم أن الرب هو المتولى التربية ، فساعة ينادى « ربي » فالمفهوم فيها التربية . وساعة يُنادى به « الله » فالمفهوم فيها التكليف . إن « الله » نداء للمعبود الذى يطاع فيما يكلف به « أما « رب » فهو المتولى التربية .

قالت امرأة عمران : « رب إن نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم » . هذا هو الدعاء ، وهكذا كانت الاستجابة : « فتقبلها ربيها »



بقول حسن ، وبعد ذلك تكلم الحق عن الأشياء التي تكون من جهة التربية « وأنتها نباتا حسنا . وكملها زكريا » . كل ذلك متعلق بالتربية وباربونية ، فساعة تادت امرأة عمران عرفت كيف تنادي وتلد ما في بطنها . وبعد ذلك جاء الخواب من حسن ما دعت بقمة القبول وهو الأخذ برضا . « فقبلها ربه بقول حسن » .

فالحسن هنا هو زيادة في الرضا ، لأن كلمة « قبول » تعطينا معنى الأخذ بالرضا ، وكلمة « حسن » توضح أن هناك زيادة في الرضا ، وذلك مما يدل على أن الله قد أخذ ما فعلته امرأة عمران برضا ، ويشيء حسن ، وهذا دليل على أن الناس مستلمح في تربيتها شيئا فوق الرضا ، إنه ليس قولاً عادياً ، إنه قبول حسن « وأنتها نباتا حسنا » ، مما يدل على أن امرأة عمران كانت تقصد حين تلدت ما في بطنها ، ألا ترى ما في بطنها إلى العمر الذي يستطيع فيه المولود أن يخدم في بيت الله . ولكنها تلدت ما في بطنها من السحرة الأولى للميلاد . إنها لن نتعم بالمولود ، ولذلك قال الحق : « وكملها زكريا » ، وزكريا هو روج خالة السيدة مريم . وبعد دعاء امرأة عمران ، يحى القول الحكيم :

فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَآلَهُ  
أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا  
مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَدَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ  
الرَّجِيمِ ﴿٢١﴾

لقد جاء هذا القول منها ، لأنها كانت قد قالت : إنها تلدت ما في بطنها محرراً لخدمة البيت ، وقولها : « محرراً » تعني أنها أرادت ذكرًا لخدمة البيت ، لكن المولود جاء أنثى . فكانت قد قالت : إن لم أفكر من الوفاء بالذر ، فلأن قدرك سبق ، لقد جاءت المولودة أنثى . لكن الحق يقول بعد ذلك : « والله أعلم » .

بما وصعت . وهذا يعنى أنها لا تريد إخبار الله ، ولكنها تريد أن تظهر التحسر ، لأن العبدية من بذرها لم تتحقق وبعد ذلك يقول الحق : « وليس الذكر كالأنثى » فهل هذا من كلامها ، أم من كلام الله ؟

قد قالت : « إن وصعتها أنثى » وقال الله : « وليس الذكر كالأنثى » .

إن الحق يقول لها : لا تظنى أن الذكر الذى كنت تمنينه يصل إلى مرتبة هذه الأنثى ، إن هذه الأنثى لها شأن عظيم أو أن القول من تمام كلامها . « إن وصعتها أنثى » ويكون قول الحق : « والله أعلم بما وضعت » هو جملة اعتراضية ويكون تمام كلامها « وليس الذكر كالأنثى » . أى أنها قالت : يارب إن الذكر ليس كالأنثى ، إنها لا تصلح لخدمة البيت .

وليأخذ المؤمن المعنى الذى يحبه ، ومسجد أن المعنى الأول فيه إشراق أكثر ، إنه تصور أن الحق قد قال أنت تريدين دكرا بمجهومك في الوفاء بالذر ، وليكون في خدمة البيت ، وقد وهبت لك المولود أنثى ، ولكنى سأعطى فيها آية أكبر من خدمة البيت ، وأن أريد بالآية التى سأعطىها هذه الأنثى مساندة عقائد ، لا مجرد خدمة رفعة مقام بيها شعائر .

أى سأجعل من هذه الآية مواصلة لمسيرة عقائد في الدنيا إلى أن تقوم الساعة . ولأننى أنا الخالق ، سأوجد في هذه الأنثى آية لا توجد في غيرها ، وهى آية تثبت طلاقة قدرة الحق ، ولقد قلت من قبل : إن طلاقة القدرة تختلف عن القدرة العادية ، إن القدرة تخلق بأسباب ، ولكن من أين الأسباب ؟ إن الحق هو خالق الأسباب أيضا .

إذن فهى إمام الخالق للأسباب أراد خلقا بالأسباب فهذه إرادته . ولذلك أعطانا الحق القدرة على رؤية طلاقة قدرته ، لأنها عقائد إيمانية ، يجب أن تظل في بؤرة الشعور الإيماني ، وعلى بال المؤمن دائما لقد خلق الله بحصا من الخلق بالأسباب كما خلقنا نحن ، وجمهرة الخلق عن طريق التناسل بين أب وأم ، أما خلق الحق لأدم عليه السلام فقد خلقه بلا أسباب . ونحن نعلم أن الشيء الدائر بين اثنين له قسمة عقلية ومطقية ، فهى إمام هناك أب وأم ، ذكر وأنثى ، مسبح ومسيح ، منها تكاثر .

إن الحق يقول

﴿ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

( سورة النجم )

وعندما يجمع الزوجان ، فهذه هي الصورة الكاملة ، وهذه الأولى في لقمة المنطقية والتصور العقلي ، وإما أن يعدم الزوجان فهذه هي الثانية في القسمة المنطقية والتصور العقلي ، أو أن يعدم لروح الأول ويبقى لطرف ثلث ، وهذه هي الثالثة في القسمة المنطقية والتصور العقلي ، أو أن يعدم الروح الثاني ويبقى الطرف الأول ، وهذه هي الرابعة في القسمة المنطقية والتصور العقلي .

بل إن أربعة تصورات للقسمة لعقبة ، وجميعها جاء من اجتراح العصور ، الرجل والمرأة ، أما آدم فقد خلقه الله بطلاقة قدرته ليكون السبب . وكذلك تم خلق حواء من آدم وأخرج الحق من لقاء دم وحواء سلا . وهناك أنثى وهي مريم ويأتي منها المسيح عيسى بن مريم بلا ذكر . وهذه هي الآية في العالمين ، وثبتت قمة عقديّة فلا يقول أحد : ذكر ، أنثى ، لأن بنة امرأة عمران في لطاعة أن يكون مولود ذكر ، وشاء قدر ربكم أن يكون أسى من تعدير امرأة عمران في انطه ، لذلك قال : « وليس الذكر كالأنثى » أي أن الذكر ليس يصل إلى مرتبة هذه الأنثى .

وقالت امرأة عمران : « وإن سميتها مريم وإن أعينها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » إن امرأة عمران قالت ما يدل على شعورها ، فحينما قامت المولودة بأبوتها أن تكون في خدمة بيت الله فقد تمت امرأة عمران أن تكون المولودة طائعه ، عابدة ، فسمتها « مريم » لأن مريم في لغتهم - كما قلنا - معناها « العابدة » .

وأول ما يعترض العودية هو الشيطان . إنه هو الذي يجعل الإنسان يشرد عن العودية . إن الإنسان يريد أن يصير عابداً ، فيجئ الشيطان ليرى له المعصية وأرادت امرأة عمران أن تحمي ابنتها من مرغ الشيطان لأنها عرفت بتجربتها أن المعاصي كلها تأتي من نزع الشيطان ، وقد سميتها « مريم » حتى تصبح « عابدة لله » ، ولأن امرأة عمران كانت تمتلك عقلية إيمانية حاصره وتحمل المهج النعدي كله لذلك قالت : « وإن أعينها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » .

إن المستعاض به هو الله / والمستعاض منه هو الشيطان / وحيثما يدخل الشيطان مع خلق الله في تزيين المعاصي ، فهو يدخل مع المخلوق في عراك ، ولكن الشيطان لا يستطيع أن يدخل مع ربه في عراك ، ولذلك يقال عن الشيطان إنه إذا سمع ذكر الله فإنه يحس أي يتراجع ، ووصفه القرآن الكريم بأنه « الخاس » ، إن الشيطان إنما ينفرد بالإنسان حين يكون الإنسان بعيداً عن الله ، ولذلك فالحق يعلم الإنسان .

﴿ وَإِنَّمَا يَنزَغُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

( سورة الاحزاب )

إن الشيطان يرتعد فرقا ورعدة من الاستعانة بالله . وعندما يتكرر ارتعاد الشيطان بهذه الكلمة ، فإنه يعرف أن هذا الإنسان اعبد لنبيد عن طاعة الله إلى المعاصي . وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يجيء الرجل امرأته ، ويجيء الأهل هو مظنة لمولود قد يجيء ، فيقول العبد « اللهم جنس الشيطان وجنس الشيطان ما رزقتي » ( من دعاء رسول الله ) .

إن من يقول هذا القول قبل أن يحدث التحلق « هل يكون للشيطان ولاية أو قدرة على المولود الذي يأتي بإذن الله » ولذلك قالت امرأة عمران « وإن أعبدتها بك وذريتها من الشيطان الرحيم » . والدرية قد يفهمها أساس على أنها السبل المتكاثرة ، ولكن كلمة « درية » تطلق على الواحد وعلى الاثنين ، وعلى الثلاثة أو أكثر . والدرية هنا بالنسبة لريم عليها السلام هي عيسى عليه السلام ، وتنتهي المسألة . وبعد دعاء امرأة عمران « وإن أعبدتها بك وذريتها من الشيطان الرحيم » يجيء القول الحق

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا  
وَكَلَّمَهَا بِكَرِيمٍ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ

عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَنْصَرِمُ أَنَّى لِّلِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ  
عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

وقد عرفنا القبول الحسن والإببات الحسن ، أما قوله الحق « وكفها زكريا »  
فهذا يعنى أن المسألة جاءت من عل ، إنه الرب الذى تقبل بقوى حسن ، وهو  
الذى أستنها من حسا إدب ، فرعاية زكريا لها إنما جاءت بأمر من الله والدليل  
على ما حدث عند كماله مريم . لقد اجتمع كبار القوم رغبة في كمالها وأجروا بينهم  
قرعة من أجل ذلك وساعة تجد قرعة ، أو إسهما . فالتاس تكون قد خرجت من  
مرادها المختلفة إلى مراد الله . فعندما نحذف كل شيء فإننا مجرى قرعة ،  
ويخصص سهم لكل مشترك فيها ، ويرى بعد ذلك من الذى يخرج سهمه ، ويلجأ  
الناس لهذا الأمر . لينتصروا هوى البشر عن التدخل في الاختيار ، ويصبح الأمر  
خارجا عن مراد الشر إلى مراد الله سبحانه وتعالى ، وهذا ما حدث عند كماله زكريا  
لمريم . ولذلك فالحق يقول لسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ نِّسَاءِ الْعِيبِ يُرْحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَتَمَهُمُ إِلَهُهُمْ يَكْمُلُ  
مَرِيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ (٣٧)

(سورة النور)

إذن فالكفالة لمريم أحدث لها ضجة ، وهذا دليل على أنهم اتفقوا على إجراء  
قرعة بالسهة بكمالها ، ولا يمكن أن يكونوا قد ذهبوا إلى هذه القرعة إلا إذا كان قد  
حدث تنازع بينهم ، عن أيهم يكفل مريم ، ومن فضل الله أن زكريا عليه السلام  
كان متزوجا من « إشاع » « أخت » « حنة » وهى أم مريم ، فهو روج حالتها .

وكلمه « أفلامهم » قال فيها المفسرون إنها القدامح التى كانوا يصنعونها قديما ،  
أو الأقلام التى كتبوا بها التوراة ، فرموها في البحر ، فمن طلقا كلمه لم يأخذ رعاية  
مريم ، ومن عرق قلمه في البحر فهو الذى فاز بكمال مريم . إذن فهم قد خرجوا

عَنْ مُرَادَاتِهِمْ إِلَى مُرَادِ اللَّهِ

والخروج عن المرادات ، والخروج عن الأهواء بجسم ليس به اختيار - كقذاح  
الفرعة - لا يوجد في العنق عضاية لكن لو كان هناك من سيأخذ رعايه مريم  
بالقوة والعصب فلا بد أن يجد نفوس الآخرين وقد املأت بالمرارة أو العصب  
ولذلك فقد كان سائدا في ذلك العصر عملية إحراء اسهام إذ ما حافوا ل يقع  
الظلم على أحد لو أن يسه الطن يأخذ ، وهناك قصة سيدنا يونس عندما غارت  
السفينة على العرق ، وكان لابد لإنقاذها أن يرسل واحد إلى البحر ، وجاء القول  
الحكيم

وَإِنْ يَنْزِلِ إِلَيْكُمُ الْمُنَادِي فَقُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۚ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مُخْرِجُ الدُّمُوعِ مِنَ الْبُطُونِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ لِّمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾  
 الْمُدْحَضِينَ ﴿١٢٨﴾ فَأَتَقَمَّهُ الْخَوَافُ وَهُوَ يُجِيبُهُ ۚ يَرْجُونَ أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ أَرَادُوا أَنْ يَخْلُقُوا كَلْبًا مُدْبِرًا بِأَنْفِهِمْ ۖ فَذَلِكُمْ أَكْثَرُ الْفَاجِرِينَ ۚ  
 لَّئِنْ لَمْ يَنْزِلْ بِسُورَةِ الْبُرُجِ لَخَالَتْ تِلْكَ الْقُرَىٰ عَسَافًا ۚ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ وَلَاحِقَهُمْ عَذَابُ الْبُورِ ﴿١٢٩﴾

سورة الصافات

كان لابد أن يرون واحد من تلك السفينة ، لدلت ثم إحراء قرعة بالسهم حتى لا تقوم معركة بين الموجودين على ظهر السفينة ، وحتى لا تكون تعبئة للأنياباء ، ولكن القرعة حلت الناس من طيهم بعضهم بعضا قالوا لنجر قرعة السهام . فخر يخرج سهمه فهو الذي يلتزم به ، وكان على يوس عليه سلام ن يزل إلى اليم حيث تقم الخوت . ولأنه من المسيحيين فإن الله يعمده . لقد قبل يوس عليه السلام اختبار الله ولم يس تسبح الله فكان في ذلك الإعاده . وهكذا قرأ قول الله لهم أن كماله زكريا كانت باختيار الله . ولتقبلها رحما بقول حسن وأنها سات حسن وكملها زكريا .

وكلمة « كملها » أى تولى كل مهمة نربتها ، هذه هى الكلمة ، ونحن نعرف أن  
الكامل فى عرفنا هو الضامن ، والضامن هو من يسد القصر عندنا يحجر الإنسان  
عن السداد ، وقوله الحق : « وكمها ركز » يعطيا المعنى الواضح بأن ركزنا عليه



من يشاء بغير حساب ، وأثارت هذه المسألة في نفس زكريا برزق شقي ، إنها مسألة غير عاديه ، لهذا أخبرته مريم أن برزق الذي عنده هو من عند الله الذي يرزق من يشاء بغير حساب ، إنه الإله هو لقادر على أن يقول : « كن » فيكون

وهو ذكر زكريا نفسه ، وكان يصبه قد حدثه : « إن كانت لمغدره طلاقة في أن تعمل بلا أساس ، وتعطي من غير حساب ، فأنا أريد ولدا يعني ، ودعم أبي على كبر ودعم بلوعي من المس عينا ، واسرائق عاقر ، إن مسألة الرزق لدى وحده زكريا كلف دخل على مريم هي التي نهت زكريا إلى ما يتمي ويرعب

ويحبى يعلم أن المعنومات التي تمر عن خاطر النفس الشربه كثرة ، ولكن لا يستمر في بؤرة الشعور إلا الذي يصير عليه الإنسان ، وهناك فرق بين معنومات توجد في بؤرة الشعور ومعنومات في حاشية الشعور يتم استدعاؤها عند البروم ، على وجد زكريا الرزق المنوع عند مريم وقالت له من مصدره : « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » هنا تساءل زكريا كيف فأنى هذا الامر ؟ ولذلك يقول الحق عن زكريا

﴿ هَٰذَا نَذَارٌ لِّكَ دَاعَاكَرِيَّارَبِّهٖ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۚ إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴾ ٧٨

بها ساعة أن قالت له : إن الرزق من عند الله ، وأنه الحق الذي يرزق من يشاء بغير حساب ، هذا أبطلت فيه المعصية لإيمانية فجاءت أمسية إلى بؤرة الشعور ، فقال زكريا لنفسه : هل يطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا ، ومادام قد قال هذا القول فلماذا أنه قد صدق مريم في قصتها ، بأن هذا الرزق الذي يأتيها هو من عند الله ، ودليل آخر في التصديق ، هو أنه لابد وقد رأى أن الألوان المتعددة من الرزق التي توجد عند مريم ليست في بيته ، أو ليست في أواها ، وكل ذلك في المحراب .



وحتى نعرف أن المحراب كلمة يراد بها بيت الصلاة يقول الحسن .

﴿ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَنَمِيلٍ وَجَعَلْنَا كَاجِرًا وَفَعُولًا وَأَنبَتْنَا فِيهِ أَشْجَارًا عَالِيَةً دَاوُدُ شَكَرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

(سورة سبأ)

أو «المحراب» وهو مكان الإمام في المسجد ، أو هو حجرة يصعد إليها يسلم ، كالمبلغات التي تقام في بعض المساجد . ومما دامت مريم قد أحبرت ذكرها وهي في المحراب بأن الرزق من عند الله ، وأيقظت بذلك تلك القضية الإيمانية في بؤرة شعوره ، فهذا يكون تصرفه . هنا دعا ذكرها الله وجوده في المحراب . «رب هب لي من ذاك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء» إنه من يطلب الولد ولكن لابد أن نلاحظ ما بين

- هل كان طلبه لولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون ذرية لدخلاء أو «عروة» أو ذكرا؟ لا ، إنه يطلب الذرية الطيبة ، وذكر ذكرها الذرية الطيبة بعد معرفته أن هالك ذرية غير طيبة . وفي قول ذكرها الذي أورده الحسن

﴿ يَرْبِي وَيَرْبِي مِّنْ عَالٍ يَعْقُوبُ ﴾

(من الآية ٦ سورة مريم)

أي أن يكون دعاء لإرث النبوة وإرث المهج وإرث القيم ، هكذا طلب ذكرها الولد . لقد طلبه لهاام كبيرة ، وقول ذكرها «رب هب» تعني أنه استعطاء شيء بلا مقابل ، إنه يعترف أنا ليس لي المؤهلات التي تجعل لي ولدا ، لأن كبير السن وامرأ غافرة ، إذن معطائك يارب لي هو هبة وليس حقا ، وحتى الذي يملك الاستعداد لا يكون هذا الأمر حقا له ، فلا بد أن يعرف أن عطاء الله له يظل هبة ، فإنك أن ينص أب اكتمال الأسباب والشباب هي التي تعطى الذرية ، إن الحق سبحانه يسها ألا يضع في حديعة وعش أنفسنا بالأسباب .

﴿ إِنَّكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِحَقِّ مَا يَشَاءُ يَبْهِي لِعَمِّ يَشَاءُ إِنَّا تَبَاهِي وَبَاهِي ﴾



فَادَّتُهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ  
أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِخَيْرٍ مُّصَدِّقًا لِّكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا  
وَخَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٩﴾

هل كل ملائكة احتتموا أو نادوا ركزياً ؟ لا ، لأن حبريل عليه السلام الذي ناداه ولما جاء نفوس الحق بها بأن الملائكة هي التي نادته ؟ لقد جاء هذا بقول حق لعطش إلى شيء هو ، أن الصوت في الحدث - كالإنسان - له جهة يأتي منها ، أما الصوت القادم من الملاء لا يعرف للإنسان من أين يأتيه ، إن الإنسان يسمعه وكأنه يأتي من كل الجهات ، وكان هناك مكانا في كل مكان

والعصر الحديث الذي يعيشه قد ارتقى في لصوتيات ووصل لدرجة أن الإنسان أصبح قادراً على جعل المؤثر الصوتي يحيط بالإنسان من جهات متعددة ، إذن فقوله الحق : « نادته الملائكة » فهذا يعني أن الصوت قد جاء لركزياً من جميع الجهات

فَادَّتُهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِخَيْرٍ مُّصَدِّقًا لِّكَلِمَةٍ  
مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَخَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٩﴾

( سورة النمل )

لقد نادته الملائكة في أروع بقائه مع ربه ، أو هو حينما دعا أحدهم علمه الله للأسيء إذا حاربهم أمر فدموا إلى الصلاة ليس طمعه من الله ؟ إذن فليقف بين يدي الله ولحربها كل واحد ما عندما يصعب عليك أي شيء ، وتتأزم الأمور ، وتمتنع الأساليب ، فليقم ويوخصاً وصراً حديداً ويبدأ بالية حتى ولو كان متوصلاً . وليقف بين يدي الله ، وليقل - إنه أمر يارب عز وجل في أسبابك ، وليصل بحشوع ، وأما أكرم بأن الإنسان ما إن يسم من هذه الصلاة إلا ويكون للروح قد جاء ألم تلقى عن رسول الله هذا المسؤل لبديع ؟ إنه كلما حربه أمر نام إلى الصلاة ؟

ومعنى حربه أمر ، أى أن أسبابه ضايق ، لذلك يذهب إلى الصلاة لحالته  
لأسباب ، إنها ذهبت إلى المسب . وبدلاً من أب تلف وتدور حول نفسك ، اذهب  
إلى الله من أقصر الطرق وهو الصلاة ، لماذا تتعب نفسك أبداً العبد ولك رب  
حكيم ؟ وهدينا قتنا ، إن من له أب لا يحملهما ، والذي له رب ليس وى  
بالإطمئنان ؟

إن زكريا قد دعا الله في الأمر الذى عزبه ، ومجرد أن دعا في الأمر الذى حربه ،  
قام إلى الصلاة ، عادته الملائكة ، وهو قائم يصلى ، إذ الملائكة لم تستطع إلى أن ينهى  
من صلاته ، « عادته الملائكة وهو قائم يصلى في المحراب أبى الله يشرك »

والشارة هي إخبار بخير زمنه لم يأت ، فإذا كانت ابشارة بخير ربه لم يأت فليس  
من الذى يحذر بالشارة ؟ أم يفتقر على إيجاده أم من لا يفتقر ؟ فإذا كان الله هو الذى  
يشرك ، فهو الذى يفتقر ، لذلك فليشرك به قادم لا محالة ، « إن الله يشرك بيهي »  
لقد قال له الله سأعطيك وزيادة على العطاء سواه الله بـ « يحيى » وهو كل  
ذلك : « مصدق بكلمة من الله »

ولننظر إلى دقة الحق حين يقول « يحيى مصدقاً » هذا دليل على أنه سعيد  
بمنح الله وما يعرفه من الطاعات سيسير في هذا الطريق وهو مصدق ، وهو سائر  
بكلمة من الله ، أو هو ناطق ليصدق بكلمة من الله ، لأن سدياً يحيى هو أول من آمن  
برسالة عيسى عليه السلام . وهو موصوف بالقول الحق « وسيدا وحضور وبياً من  
الصالحين » ، أى ممنوعاً عن كل ما حرم عليه ، أو ممنوعاً عن قبة العرائر وهي  
الشهوة ، وهو نبي ، أى قلوة في اتباع الرسول الذى يحيى في عصره ، لقد دعا  
زكريا ، وقام ليصلى ، وتلقى الإشارة بيهي ، وهذا أوجب الأمور على شربة  
زكريا ، وبصوره الحق بقوله .

قَالَ رَبِّ أَنِّي كُنُّ لِيْ غَنَمٌ وَقَدْ مَلَعَنِ  
الْكِبَرُ وَأَمْرَانِيْ عَافِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ  
يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١﴾

إن زكريا - وهو اطفال - يصيبه لتعجب من الاستحاجه فيتساءل كيف يكون ذلك ؟ والحق يورد ذلك ليعلم أن لنفس الشريد دائما يكون في دوائر التنوير . وليست في دوائر التمكين . وذلك ليعطي الله لخلقه الدين لا يهدون إلى نصير ط المستقيم الأمور في أنه إذا ما حدث له بلاء فعليه الرجوع إلى الله ، فيقول زكريا : « أن يكون لي علام وقد بلعني الكبري وامرأى عافرا »

إن بلوغ الكبر ليس دليلا على أنه عاجز عن الإحجاب لأنه قد يكون كبير لعمره . وقادرا على إحصاء امرأة . ذلك أن الإحصاء بالنسبة لبعض الرجال ليس أمرا عسيرا مهما بلغ من العمر إن لم يكن عافرا ، ولكن المرأة هي العنصر المهم ، من كانت عافرا ، فذلك نعمة العجز في الأسباب ولو أن زكريا قال فقط : « وامرأى عافرا » لكان أمرا غير مسحب بالنسبة لزوجته ، ولكن معنى ذلك أنه سب لعمه الصلاحية وهي غير المأذرة

فهو أدب البوة وهو أدب عدل ، لذلك أوردتها من أروها « وقد بلعني الكبر وامرأى عافرا » ولزوجه يقول في « معنى الكبر » : « إنه لم يقل » « بلعت الكبر » بل يقول : « إن الكبر هو الذي جاءني ولم أجيء أنا إلى الكبر » لأن بلوغ الشيء يعني أن هناك إحساسا ورغبة في أن نذهب إليه ، وذكر زكريا « وامرأى عافرا » هو تصحيح لطلاقة القدرة عند من يمنع بقصة ، لقد أورد كل الخواص البشرية ، وبعد ذلك يأتي القول الفصل : « قال كذلك الله يفعل ما يشاء » إنها صلافة للقدرة التي فوق الأسباب لأنها خالقة الأسباب ، ويقول زكريا :

قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ  
النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْرًا وَادَّكُرَ رَبُّكَ كَثِيرًا  
وَسَكِّحْ بِالنَّصِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿١١﴾

إن زكريا يطلب علامة على أن لقول قد انتقل إلى معن

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَعَسَتْ أَفْرَأَى غَافِرًا وَقَدْ بَلَغْتَ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾  
 ﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْئٍ وَقَدْ خَلَقْتَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْلَا نَكْ شَيْطَانٌ ﴾ (١)  
 ( سورة مريم )

لقد كان هذا القول تأكيداً لاشك فيه ، فمجرد أن قال الرب فقد انتهى الأمر  
 فهاذا يريد زكريا من بعد ذلك ؟ إنه يطلب آية ، أى علامة على أن يحيى قد تم  
 إنجاده في رحم أمه ، ومادامت المرأة قد كبرت فهي قد تقطع عنها الحيض ، ولأنه  
 عرف الآية لأنه يعرف سبقاً أنها عاقرة لكن زكريا لم يرغب أن يفوت على نفسه  
 لحظة من لحظات هبات الله عليه ، ومادام الحمل قد حدث فهذا كانت استعانة  
 زكريا ، لا تركى يارب إلى أن أفهم بالعلامات الظاهرة المحسوسة ، لأنى أريد أن  
 أعيش من أول نعمتك عزى في إطار الشكر لك على النعمة ، فمجرد أن يحدث  
 الإحصاب لأبد أن أحيا في نطاق الشكر ، لأن النعمة قد تاتي وأنا غير شاكر

إنه يطلب آية ليعيش في نطاق الشكر ، إنه لم يطلب آية لأنه يشك . معاد الله - في  
 قدرة الله ، ولكن لأنه لا يريد أن يفوت على نفسه لحظة النعمة من أول وجودها ، لا  
 ومعها الشكر عليها ، والذي يعطيها هذا المعنى هو القول الحسن . وقال أليك ألا  
 تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا وادكر ربك كثيرا ، وسبح بالعشي والإيكار ، لأنه أن  
 معناها أنه يرغب في الكلام فلا يستطيع

إن هلك فارما بين أن يقدر على الكلام ولا يتكلم ، وبين ألا يقدر على الكلام  
 ومادامت الآية هبة من الله . فالحق هو الذي قال له : سامعت من أن تتكلم ،  
 فساعة أن تمهد نفسك غير قادر على الكلام فاعرف أنها العلامة ، وستعرف أن تكلم  
 مع الناس رمزا ، أى بالإشارة ، وحتى تعرف أن الآية قادمة من الله ، وأن الله علم  
 عن عبده أنه لا يريد أن يمر عليه لحظة مع نعمة الله بدون شكر الله عليها ، فربما  
 تعلم أن الله سيقطعه . . . وادكر ربك كثيرا وسبح بالعشي والإيكار

لقد أراد زكريا أن يعيش من أول لحظة مع نعمة المنعم شكرا ، وجعل كل وقته  
 ذكرا ، فلم يشغل بالناس أو بكلام الناس ، وذكر الرب كثيرا هو ما علمه  
 . سبحانه - عن زكريا عندما طلب الآية ليصبحها دائما بشكر الله عليها ، إن قوته



« وادكر ربك كثيرا » تعبد أن ركزي قادر على الذكر وغير قادر على كلام الناس ،  
لذلك لا يريد الله أن يشعنه بكلام الناس ، وكان الله يريد أن يقول له : « مادمت قد  
أردت أن تعبد مع النعمة شكرا » فأجعلت غير قادر على الكلام مع أساس لكث  
قادر على الذكر

والذكر مطلقا هو ذكر الله بالأنه وعظمته وقدرته وصعاب الكمال له . والسيح هو  
السيرة لله ، لأن ما فعله الله لا يمكن أن يحدث من سواء ، فسبحان الله ، معصمه  
تزيهه ، لأنه القادر على أن يعمل ما لا تعمله الأسباب ولا يقدر أحد أن يصمه  
إنه يريد أن يشكر الحق الذي يورق من يشاء بغير حساب تلك الدفعة التي  
جاءت من قبل من مريم لركريا .

وزكريا كما تعلم هو الكميل لها ، فكانها نطق بهذه العبارة دلالة على أن الله مهد  
ها بالبرق ، يحسنها من غير ركريا ، بأنها سائق شيء من غير أسباب . وكان التحيرة  
قد أراد الله أن تكون من داتها لداتها ، لأنها ستعرض لشيء يتعوى بعرض المرأة ،  
فلما أن تعلم مسبقا أن الله يورق من يشاء بغير حساب ، وبدون أسباب فإن  
جاءت بولد بدون سبب من أبوة . فلتعلم أن الله يورق من يشاء بغير حساب

فلم سمع ركريا منها ذلك قال : « مادام الله يورق من غير حساب ويأتي بالأمور  
بلا أسباب ، فأنا قد بلغت من الكبر عتيا ، وامرأت عاهر ، فلماذا لا أطلب من ربي  
أن يهيى علاما ؟ إذن » مقولة مريم : « إن الله يورق من يشاء بغير حساب » قد  
لغت ركريا ، ونهت إيماننا بوجودنا في أعماقه وحاشية شعوره ، ولا نقول أوجدت  
إيمان حديدا لركريا بأن الله يورق من يشاء بغير حساب ، ولكنها حرجت القضية  
الإيمانية من حاشية الشعور إلى نوبة الشعور ، فقال ركريا : « مادام الأمر كذلك ،  
فإن أسأل الله أن يهيى علاما » وهول ركريا : « هب لي من لدنك درية طيبة » دل  
على أنه وورعته لا يملك أن اكتسب الأموه والأمومة ولدلت طلب الهبة من الله . واهبة  
شيء بدون مقابل

فلم سأل الله ذلك . استحباب الله له ، وقال له سبحانه : « سأهبك علاما بدون  
أسباب من حصونتك في التنقيح أو حصونه الروحة في الحمل ، ومادامت المسألة  
ممكنون بلا أسباب وأن - الخالق - سأتولى الإحباب - « كن » ونعني سام شريف  
سامحككم شيك حر تقومون به أنتم معشر الأناء والأمهات - عادة - إنه تسمية

مولود ، فافاض الحق عليهم نعمه آخرون وهي تسمية المولود بعد أن وهبه لهم . هنا  
رفعهم عند الله بالاسم

﴿عَادَةُ الْمَلَائِكَةِ وَهُوَ أَنْ يَصَلِّيَ فِي الْمَحْرَابِ أَنْ اللَّهَ يُشْرِكَ بِحَبِيٍّ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ  
مِّنَ اللَّهِ وَمُيَدًّا وَحُضُورًا وَيُبَيِّنُ مِنَ الْفَاضِلِينَ﴾ (٣٩)

(سورة الن عشرين)

حين يولد لندس ولد فهم يسمونه ، فتسمية أمر شائع في عادات الناس . ولكن  
من بينهم أمر لوحيد حين يقدمون على تسميته ، فهم يحاولون أن يتفاهلوا ، فيسمونه  
اسم يرجون أن يتحقق في حسمى ، فيسمونه : سعيد ، أملا في أن يكون سعيدا ، أو  
يسمونه : فضلا ، أو يسمونه : كرى . . . بهم باتون بالاسم الذي يحبون أن يحدوا  
ولدهم على صنت ، وذلك هو الاسم منهم ، ولكن أنى المقادير على وفق لأمال ؟

قد يسمونه سعيد ، ولا يكون سعيدا ، ويسمونه فضلا ، ولا يكون فضلا  
ويسمونه عرا ، ولا يكون عرا . ولكن ماذا يحدث حين يسمى الله سبحانه وبهالى ؟  
لأنه أن يحذف المرفع تمام ، فإذا قال اسمه « يحيى » دل على أنه سيعيش . وقد  
قال الشاعر حين تدهن بتسميته انه يحيى

سميته يحيى ليحيى

فلم يكن لرد قصه الله فيه سبيل

كان لشاعر قد سمى ابنه يحيى أملا أن يحيى ، ولكن الله لم يرد ذلك ، فبات  
الابن لماذا ؟ لأن المسمى من البشر ليس هو الذى يحيى ، إن المسمى إسان قدرته  
عاجزه ، ولكن « المحيى » له طلاقه اقدره ، يحيى يسمى من له طلاقة القدرة على  
إرادته أن يحيى . فلماذا من أن يحيى حياة متميرة ؟ وحتى لا يفهم أن الحياة التى أشار الله  
إليها بموهبة . « سمى يحيى » بأنها حياة المعروفة للبشر عادة . لأن الرجل حينما يسمى  
انه « يحيى » يأمل أن يحيى الابن متوسط الأعمال ، كى يحيى الناس . ستنى عاما ، أو  
سبعين ، أو أى غلد من السموات مكتوبة له في الأول .

لكن الله حينما يسمى « يحيى » فانه لا يأخذ « يحيى » على قدر ما يأخذه الناس ،



على لا بد أن يعطيه أطوار من حدود أعيان الناس ، ويصير له الحق من حصومه ومن أعدائه من يقله ليكون شهد ، وهو بالشهادة يصير حياً ، وكأنه يحيا ذاتها ، والشهادة أسبغ عند ربهم برزقون

وهكذا أُرِدَ اللهُ ليُحْيِيَ عنه السلام أُنْ حَيَا كَحَيَاءِ النَّاسِ ، وَحَيَا حَيَاةً أَطْوَلَ مِنْ حَيَاةِ النَّاسِ ، إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ ، وَأَيْضًا بِأَحَدٍ مُلْحَقًا فِي أَنْ ذَكَرْنَا حَيَاةً تُشِيرُ أَنَّ اللَّهَ سَيُهَيِّئُ عَلَامًا وَيُؤَيِّدُ بِهَا ، بِحَدِّهِ هَذَا اسْتَقْبَلَهَا بِالْحُبِّ ، كَيْفَ يَسْتَقْبَلُ ذَكَرْنَا مَسْأَلَةَ الرُّوحِ بِالْوَلَدِ مَعَهُ ، بِهِ رُوحُ اللَّهِ كَانَ بِحَدِّهِ عِنْدَ مَرْسَمٍ ؟ وَبَرَزَ مِنْ بَشَرَةٍ يَغْتَبِرُ حَضَرَهُ .

وبأن صور أن تحت أن يمر مثل هذا الأمر خارق للعادة والخارق للاموس  
على سبيله وكري كانه أمر عيسى لا يدهش له ولا يتعجب ؟ لا ، لابد أن يدهش  
ويتعجب لذلك قال : « أي أن يكون في علام » فكان الدهشة نفسه إلى به سائق  
به عجب ، ولو لم يكن ذلك الدهشة بكتاب المسألة ريبه وكأن أمر عيسى يدين ،  
فهو يلعب إلى الأمر لعجب لدى حصه الله به . ويجب جاءت المسألة على خلاف  
باموس الكاثير والإيجاب والسبل « قد يلعب الك . و مرأى غافرا »

إِنَّ الْمَسْأَلَةَ كُلَّهَا بِفَضْلِ وَجْهِهِ مِنَ اللَّهِ فِي حَالِهِ سَعَادَةٍ ، أَوْ يَمُوتُ اللَّهُ لَهُ نَبِيٌّ  
سَاهَتْ الْعِلَامُ وَاسْمُهُ خَيْرٌ مِنْ أَمْرَانِ هَذِهِ ، أَوْ وَاسَتْ عَلَى حَالَتِهِ هَذِهِ فَيَسْكُنُ  
وَهُدًى يَسُورُ بِرَبِّهِ بِأَنَّ الْعِلَامَ الَّذِي اسْمُهُ خَيْرٌ مِنْ وَاسٍ عَلَى هَذِهِ حَالِهِ ،  
مَرَأَى عَافِيَةً وَبَعْدَ هَذَا الْكَبَرِ ، أَوْ تَمَارِدُ اللَّهُ فَسَادًا حَتَّى يُسْتَطِيعَ الْإِنْجَابُ ،  
أَوْ تَأْتِي مَرَأَهُ حَرِيٌّ فَيَبْرُؤُهَا وَتُحْبَبُ

إذ لم يسمع في الخيئة التي سيظهر عليها الإحجاب بقوله : « أن يكون لي غلام  
وقد دعيت لكثيراً ومررت عافراً ، وقد تساور من كبريا بهدف في معرفة أهية أو  
أخوة التي سأقربها الإحجاب ، لأن الإحجاب يأتي على حالات معدده ، فلما كد الله  
ذلك قال : « كذبت » عاد يعني كذلك ، « ما تعني » الإحجاب ساق منك ومن  
روحك ، أسأها على حالكم ، أنت قد بدت من الكبر عتياً ، وأمرت عافراً لأن  
أخوته يحضون بذلك ، أكار من محضون أن يرددهم الله ثبات حتى يسعداه أن يهبط  
يولد ؟ لا ذلك قال حتى : « كذلك الله يفعل ما يشاء » في كمال أسما ، وعلى  
حالتكم

لقد جعل الحق الآية ألا يكلم زكريا الناس ثلاثة أيام إلا بالإشارة ، وقد يكون عدم الكلام في نظر الناس مرضا لا ، إنه ليس كذلك ، لأن الحق يقول له : « وادكر ربك كثيرا وسبح بالعنق والإبكار » إن الحق يجعل زكريا قادرا على التسبح ، وغير قادر على الكلام وهذه قدرة أخرى من طلاقة قدرة الله ، إنه اللسان الواحد ، غير قادر على الكلام ، ولو حاول أن يتكلم لما استطاع ، ولكن هذا السان نفسه - أيضا - يصح قادرا فقط على التسبح ، وذكر الله بالعنق والإبكار ، ذكر الله باللسان ويسمعه الناس ، وذلك بيان لطلاقة القدرة .

وبعد ذلك يتفل ما لحق إلى مسألة أخرى تتعلق بمريم ، لأن مريم هي الأصل في الكلام ، فالورق الذي كان يأتيها من الله بغير حساب هو الذي له سيدنا زكريا إلى طلب الولد ، وجاء الحق لنا بقصة زكريا والولد ثم عاد إلى قصة مريم .

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ  
وَوَهَبَ لَكِ وَهَبًا عَظِيمًا ۝ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ اقْنُصِي  
إِلْمَكَ وَابْسِطِي الْيَدَيْنِ وَلَا نَبْهَتِي الْوَحْشَ وَالْجَبْنَ ۝ وَابْسِطِي  
إِلْمَكَ وَابْسِطِي الْيَدَيْنِ وَلَا نَبْهَتِي الْوَحْشَ وَالْجَبْنَ ۝ وَابْسِطِي  
إِلْمَكَ وَابْسِطِي الْيَدَيْنِ وَلَا نَبْهَتِي الْوَحْشَ وَالْجَبْنَ ۝

« وإذ قالت الملائكة » المراد بها جبريل عليه السلام ، والسبب في أن الحق يورد ذلك هو قالت الملائكة ، لأن كلام المنكلم - أي الإنسان - له - كما قلنا - رابطة انغلاق يأتي من جهتها الصوت وتستطيع أن تتأكد من ذلك عندما يجرى لك صوت ، فأنت تجد ميل أذنك لجهة مصدر الصوت ، فإن جاء الصوت من ناحية أذنك اليمين فأنت تلتفت وتميل إلى يمينك ، وإذا جاءك الصوت من شمالك تنتفت إلى الشمال . لكن المنكلم هنا هو جبريل عليه السلام ، ويأتى صوته من كل جهة حتى يصر الأمر عجيبا ، لهذا جاء لكلام منسونا إلى الملائكة

فلماذا قال جبريل ؟ قال جبريل مبلعا عن رب العزة : « يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين » وما الاصطفاء ؟ إن الاصطفاء اختيار واجتماع ، وهو مأخوذ



لقد عرفنا أن الاصطفاء هو الاحتباء والاحتيار ، وبفتحي « مصطلحي » مفتاح  
لغاه . وبفتحي « مصطلحي » بكسر الهمزة ، والمصطفى هو الله . لكن مداه  
لاصطفاء ، إن الذي يصطفيه الله إنما يصطفيه بجهة ، وتكون مهمة صعبه . إذن  
هو يصطفيه حتى يشيع اصطفاؤه في الناس . كذا الله قد حصه بالاصطفاء من أجل  
لنفس ومصالحهم . سواء أكان هذا الاصطفاء لمكان أم للإنسان أم لزمان ليشتيع  
صفاؤه في كل ما اصطفي عنه . لقد اصطفي الله الكعبة من أجل مداه حتى ينحه  
كل إنسان إلى الكعبة . إذن فقد اصطفاها من أجل البشر وليست اصطفاؤها في كل  
مكان آخر ، ولذلك قال الحق عن الكعبة

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾

(سورة آل عمران)

وبما اصطفي الحق سبحانه زمانا ، كاصطفاؤه لمصدا ، فلهذا اصطفاؤه « ليشتيع  
صفاؤه » وصفاؤه من أول فيه في كل زمان . إذن فاصطفاؤه الحق للشخص أو للمكان  
أو للزمان هو مصلحة نية الناس أو الأمكنة أو الأزمنة ، لماذا ؟ لأن أحدا من الخلق  
ليس إلا الله ، وليس هناك مكان أو شيء يمكن عند الله . ولكن الله يصطفى زمانا على  
زمان ، ومكانا على مكان ، وإنسانا على إنسان . يشتيع اصطفاء المصطفى في كل  
ما اصطفي عنه . إذن فهل يجب على الناس أن يفرحوا بالمصطفى ، أو لا يفرحوا  
به ؟ إن عليهم أن يفرحوا به ، لأنه جاء لمصلحتهم ، وأحق سبحانه يقول

﴿ يَنْعَزِمُ أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي ﴾

مَعَ أَرْكَعِيكَ ﴿٤٣﴾

فكان ما تقدم من حيثيات لاصطفاء الأول ، والاصطفاء الثاني ، يستحق من  
القبول ، أي العادة الخالصة الخاصة بالخشعة والقبول ، وقد يقول قائل : ولماذا يصطفى

الله وحده ، يشيع اصطفاؤه في الناس ؟ لأن الاصطفاء من الحق لابد أن يرثه من كل ما يمكن أن يقع فيه نظيره من الاختيارات عبر المرحية ، والحق - سبحانه - يريد عودها لا يقع منه إلا الخير ، وأمثال الكامل على ذلك صطفاهم الحق سبحانه برسوله محمد صلى الله عليه وسلم من أول الأمر وجعله لا يفعل إلا السلوك نطيب من أول الأمر ، وذلك حتى يعطيا الرسول لقدرة الإيجابية في ثلاث وعشرين سنة هي مدة الرسالة المحمدية

واحد يقول لمريم على لسان الملائكة : يا مريم اتقي لربك ، إنه أمر بالمعصية الخاشعة المستندية لربها ، وكلمة « لربك » تعني التربية ، فكان الاصطفاءات هي من نعم الله عليك يا مريم ، وتستحق منك تقوى ، واسجدي واركعي مع الراكعين ، وه اسجدي ، أي بالغ في خشوع ، والخضوع ، بوضع الجبهة التي هي أشرف شيء في الإنسان على الأرض ، لأن السجود هو أعلى مرتبة من الخضوع .

لكن أيعني هذا اللون من الخضوع مما يكون من الركوع لله مع الناس ؟ لا ، إنه الأمر الحق يصدر لمريم ، واركعي مع الراكعين ، ولا ينميك من الركوع أنك فعلت الأمر الأعلى منه في الخضوع وهو السجود ، بل عليك أن تركعي مع الراكعين ، فلا يحس لك يا مريم أن تقوى ، لقد أمر الله بمرء أعلى من لقد الأمر الأدب .

إن الحق بأمرها أن تكون أيضا في ركب الراكعين مثلي بقراء قوله الحق عن الكفار .

﴿ مَا سَأَلْتَهُمْ فِي سَعَرٍ ۚ قَالُوا آتَيْنَاكَ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ ١١ ﴾

( سورة المائدة )

إنهم كفار ، فكيف يصلون ؟ إنه اعتراف منهم بأنهم كفار ، ولم يكونوا مسلمين في ذلك من يصل ، واعتراف بأنهم لم يكونوا مسلمين أو مؤمنين بالله . وهنا يسأل سائل كريم : لماذا قال سبحانه وتعالى في خطابه لمريم : يا مريم اتقي لربك واسجدي واركعي مع الراكعين ، ولم يقل الحق : مع الراكعات ؟ هذا هو السؤال

واجابة على هذا السؤال نحب أن نعهد تهييذا بسيطاً إلى فلسفة الأسماء في وضعها على مسميات . إن الأسماء ألغاط من اللغة تعين مسمياتها . والمسميات مختلفة ، ومنها الحيات ، ومنها البات ، ومنها الحيوان ، ومنها لأسماء التي تدل على عالم الغيب كالخى ، والملائكة ، وكل ما عيب الله هذه الأسماء تدل على معانيها .

وهدى الله سبحانه الشر إليها بما علم آدم من لأسماء ، فكيف كان باستطاعة آدم الصغير عن معانيات الأسماء بمسمياتها ؟ إند لا بد أن يوجد لكل شيء اسم حتى يستطيع حين نعامهم على الشيء أو الكائن بأن يذكر لفظاً واحداً موحداً يشير إليه ولو لم يكن يذكر هذا ، فكيف كان باستطاعة إنسان أن يتكلم مع إنسان آخر عن الحبل مثلاً ؟ أكان على المتكلم أن يأخذ السامع إلى الحبل ويشير إليه ؟ أم يكفى أن يقول له لفظ « حبل » حتى يستحضر السامع في ذهنه صورة لهذا المسمى ؟

إند .. فلسفة تعليم الحن للأسماء أن أراحت عما عينا كبيراً من صعوبة النعام . ولولا ذلك لما استطاعوا أن نعامهم على شيء إلا إند واجهها الشيء وأشرها إليه . فكلمة « جبل » وكلمة « صخر » وهبهما من الكلمات هي أسماء لمسميات . وعندما أنكم على سبيل انثال عن أمريكا فإننى لى حد السمع إليها وشير إليه فائلاً . إن هذه هي أمريكا ، لكن كلمة واحدة هي « أمريكا » تعطى السامع معنى للمسمى ، فتلحق الأحكام على مسمياتها . ومادامت المسألة هكذا فلا بد من مجرد أسماء لمسميات ، هذه الأسماء علمها الله للإنسان حتى نعامهم بها والإنسان أصله من آدم .

وكلمة « آدم » حبي تتكلم بها تجدها في النجوم مذكورة ، والمذكر يقابله المؤنث . وقد خلق الحن الأعم الذكورة والأنوثة ، لأن من تراوحيها سيخرج النسل . إند فكان لابد من التمييز بين النوعين للجنس الواحد . فذكر والأنثى ، هما بو آدم ، ومنها ينشأ النكاح ، لكن العجيب أن الله حين سمى آدم ويطعمه أسماً مذكراً وسمى « حواء » ويطعمه اسماً مؤنثاً ، وجعل سبحانه الاسم الأصل الذى يحدد منه الخلق هو « نفس » . لقد قال الخن .

﴿ يَتْلَاهَا النَّاسُ أَنْفَعُوا رَبُّكَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا رَوْجَهَا وَبَثَّ

مِنْهَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَأَنْفَعُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۚ وَالْأَرْحَامُ ۚ إِنَّ اللَّهَ

## كَانَ عَظِيمًا رَقِيبًا ﴿١١﴾

( سورة النمل )

لقد سمي الحق آدم بكلمة نفس ، وهي مؤنثة ، إذن فليس معنى التأنيث أنه أقل من معنى التذكير ، ولكن « التذكير » هو فقط علامة توضع الأشياء في مسمياتها الحقيقية وكذلك التأنيث . إن الحق سبحانه يطلق على كل إنسان ما « نفس » وهي كلمة مؤنثة ، وحين نكلم الحق سبحانه كلاماً آخر عن الخلق قال

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعْرًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَعْلَمُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾

( سورة الحجرات )

وكلمة « ناس » تعني مجموع الإنسان . وهكذا يعرف أن كلمة « إنسان » تطلق مرة على الذكر ، ومرة أخرى على المؤنث . إذن فالحق قد أورد مرة لفظاً مذكراً ، ومرة أخرى أطلق لفظاً مؤنثاً ، وذلك حتى لا نقول : إن الذكر أفضل وأحسن من المؤنث ، ولكن ذلك وسيلة للتفاهم فقط ، ولذلك يؤكد لنا الحق سبحانه أنه قد وضع الأسماء لمسمياتها لتتعارف بها

﴿ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعْرًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ ﴾

( من الآية ١٢ سورة الحجرات )

ومعنى « لتتعارف » أي أن يكون لكل منا اسم يعرف به عند الآخرين وفي حياتنا العادية . والله المثل الأعلى - نجد رجلاً عنه أولاد كثيرون ، لذلك يطلق على كل ابن اسماً ليخبره المجتمع به ، والعجيب في هذه الآية الكريمة : « وجعلناكم شعوراً وقبائل لتعارفوا » . أننا نحدد كلمة « شعوباً » مذكورة وكلمة « قبائل » مؤنثة إذن فلا تباير بالأحسن ، ولكن الكلاليب هـ مسميات لتتعارف ، والحق الأعلى يقول .

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ ذَا الْإِنْسَانِ لَيْ حُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الْبَئْسَ عَمَلًا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝٣ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٤ ﴾

(سورة العصر)

ذل : هنا وضع الساء الثلاثي آمن ؟ إمن يدخلن همن « الذين اموا » ولما دا  
أدخل الله المؤنث في المذكر ؟ لأن المذكر هو الأصل ، والمؤنث جاء منه فرعاً إذن  
المؤنث هو الذي يدخل مع المذكر في الأمور المشتركة في الجنس .

﴿ نَأْتِيهِ أَنْفَاسٌ مُّعْدِدَةٌ وَنَكُّهُ الْأَيْدِي حِفْظُكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَنَكُمُ تَتَّقُونَ ۝١١ ﴾

(سورة العنكبوت)

وهذا يعني أن « المؤنث » عليه أن يدخل في تكليف العبودية لله

والمعنى العام نحدد أن المعبود لله العباد هو الإنسان كحس وبهوية الذكر  
والأشئ . وفي الأمر الخاص بالمرأة ، يحدد الله المرأة بذاتيتها فالحق سبحانه وتعالى  
يقول -

﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۚ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ وَفَّقْنَا لَعَمَلِهِ ۚ ﴾

(سورة الاحزاب)

لما ؟ إن امسالة هنا تشمل النوعين من الحس الواحد : الرجل والمرأة ، روح  
وروجة ، فمثلاً نجد زوجاً يريد تطبيق زوجته ، فيأخذ الحق بتفصيل يوضح ذلك .  
وإذا كان هناك أمر خاص بالمرأة فالحق سبحانه وتعالى يحدد الأمر فيها هوذا قوله  
الحكيم

﴿ بَنِيَّاتُ الْأَمْمَارِ لَيْسَ لَكُمْ عَلَى الْأَمْمَارِ أَنْ تَنْفِيَنَّ عَنْهَا بَعْضَ الْأَقْوَالِ فَيَطْمَعِ الْأَيْدِي  
فِي قَبَائِلِهِمْ مَرْصُوفٌ وَقُلْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ۝٢٧ وَقُلْ لِي بِبُيُوتِكُمْ وَلَا تَبْرَحْ مِنْ بَيْتِكُمْ



(سورة الاحزاب)

ولكن إذا جاء أمر يتعلق بالإنسان بوجه عام وإن الحق يأتي بالأمر شاملاً للرجل والمرأة ويكون مذكراً ، ولذلك فعندما قالت السماء لماذا يكون الرجل أحسن من المرأة ، جاء قول الحق :

(سورة الاحزاب)

﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أُولَٰئِكَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ  
وَلَا يُقْلَقُونَ نَفِيرًا﴾ ﴿٢٢١﴾ ﴿

(سورة النساء)

إن الذكر والأنثى هما يدخلان في وصف واحد هو : « وهو مؤمن » إذن فعندما

لأهمسية على الستر والحجاب ، مطمورة فيه . داخله معه . هذا قال الحق سبحانه لمريم « واركعي مع الركعين » فالركوع ليس خاصا بالمرأة حتى يقول « مع الركعات » ولكنه أمر عام يشمل الرجل والمرأة ، لذلك جاء الأمر لمريم بأن تركع مع الركعين ، وبعد ذلك يقول الحق :

حِجْرٌ ذَٰلِكَ مِنَ أَنْبَاءِ الْعَيْبِ نُوحِيْدٌ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ  
لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُوْنَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ  
وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُوْنَ ﴿١١﴾

وقد قلنا من قبل . إن كلمة « نأ » ، لا تأتي إلا في الخبر العظيم والعيب هو ما عاب عن الخس وهناك « غياب عن الخس » من الممكن أنه يدركه مثلك وهناك غياب عن الخس لا يدركه مثلك . وقلنا من قبل إن حجب العيب ثلاثة مرة يكون الحجاب في الزمن ماضيا ، ومرة مستقبلا ، ومرة ثالثة يكون الحجاب في المكان لماذا ؟ لأن ظروف الأحداث زمان ومكان فإذا أنبأ مني ، بخبر مضى زمة فهذا اختراق للحجاب الزمن الماضي ، فالحدث يكون قد وقع من سنوات وصار ماضيا ، وإذا أخبرني به الآن فهذا يعني أنه اخترق حجاب الزمن الماضي ، وإذا قال لي عن أمر سيحدث بعد سنتين من الآن فهذا اختراق حجاب الزمن المستقبل . وهب أنه أخبرك سبأ معاصر لزمك الآن . يقول هنا يوجد حجاب المكان ، فمتدحا أكون معكم لأن لا أعرف ما الحادث في مدينة أخرى غير أني نحن بها ، ورغم أن الزمن واحد

لذلك فعليا أن معرف ، أنه مرة يكون الحجاب حجاب زمان . أي قد يكون الزمن ماضيا ، أو يكون الزمن مستقبلا ، وقد يكون حجاب مكان . فإذا كان الله ينبيء رسوله بهذا النأ ، فوسائل علم رسول الله ص الله عليه وسلم ثلاث ؛ لأن وسيلة العلم بالنبا أحد ثلاثة أمور : مشاهدة ، أو سماع ، أو قراءة .

والوسيلة الأولى وهي مشاهدة النبا يشترط أن يوجد في زمن هذا النبا ، ولنبأ  
اندى أحبر الله به رسوله حدث من قبل بعث الرسول عمالا يقل عن ستة قرون .  
إذن فالمشاهدة كوسيلة علم بهذا النبا لا تصح ؛ لأن النبا قد حدث في الماضي .  
قد يقول قائل : لعل الرسول صلى الله عليه وسلم قد قرأها ، أو سمعها ، وبإقرار  
خصوم محمد صلى الله عليه وسلم أنه ليس بقارئ ، فامتنعت هذه الوسيلة أيضا ،  
وبإقرار خصومة صلى الله عليه وسلم أنه لم يجلس إلى معلم فلم يستمع من معلم  
إذن فلم يكن من سبل لمعرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذا النبا  
إلا بالوحي ، لذلك قال الحق سبحانه

﴿ ذَٰلِكَ مِنْ نَّبَاِ الْغَيْبِ يُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَفْلَحَ هُمُ أَيَّامُ  
يَكْمُلُ مَرَجٌ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ۝ ﴾

( سورة آل عمران )

وقلنا قديما إن الوحي ، هو إعلام بخفاء ، لأن الإعلام العادي هو أن يقول إنسان  
لإنسان خبرا ما ، أو يقرأ الإنسان الخبر ، أما الإعلام بخفاء فاسمه « وحي » والوحي  
يعنى « موحى » وهو الله ، « وموحى إليه » وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
والموحى به « وهو القرآن الكريم .

وإذا نظرنا إلى الإعلام بخفاء لوحدنا له وسائل كثيرة . إن الله يوحى . لكن  
الموحى إليه يختلف . الله سبحانه وتعالى يوحى للأرض .

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَاتَّخَذَتِ الْأَرْضُ تَنَاقُلًا ۝ وَقَالَ  
الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُخْبِتُ أَعْيُنُهُمْ ۝ يَا أَيُّهَا الْوَحْيُ هَٰذَا ۝ ﴾  
( سورة الزلزلة )

إنه إعلام بخفاء ، لأن أحدهم لما يسمع الله وهو يوحى للأرض ، والحق سبحانه  
يوحى للملح ، ويوحى للملائكة ، ويوحى للأنبياء ، وهناك وحى من غير الله ،  
كوحى الشياطين .

﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَدِّلُوا ۚ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ  
مُتَّبِعُونَ ﴾

( سورة الأنعام )

وهناك وحي من البشر للبشر .

﴿ وَكَذَٰلِكَ خَلَقْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ  
رُّتُوفَ الْقَوْلِ ۚ طُورُوا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۚ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٦﴾ ﴾

( سورة الأنعام )

لكن الوحي إذا أطلق ، ينصرف إلى الوحي من الله إلى من اختاره لرسالة ،  
وما عدا ذلك من أنواع الوحي يسمونه « وحيًا لغويًا » إنما الوحي الاصطلاحي  
وحي من الله لرسول ، إذن هو وحي الله للأرض ليس وحيًا اصطلاحيا ، وحي الله  
للبحر ليس وحيًا اصطلاحيا ، وحي الله لأم موسى ليس وحيًا اصطلاحيا ، وحي  
الله للحواريين ليس وحيًا اصطلاحيا ، إن الحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِذْ وَحَّيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ أَنِ امْضُوا فِي رَسُولِي قَالُوا أَمَّا نَأْتِيهِمْ بِآيَاتِنَا  
مُتَّبِعُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

( سورة المائدة )

إن هذا لون من الوحي غير اصطلاحيا ، بل هو وحي لغوي ، أي أعلمهم  
بجاء . لكن الوحي الخفي أن يعلم الله من اختاره لرسالة ، وهذا هو الوحي  
الذي جاء للرسول صلى الله عليه وسلم . يقول الحق . « ذلك من آباء الغيب نوحيه  
إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ  
يختصرون » .

هكذا نعرفنا الحق أن الرسول تلقى هذا السبأ بالوحي ، فلم يقرأه ، ولم يشاهده ،  
وحي معروف أن حصوم رسول الله شهدوا أنه لم يقرأ ولم يستمع من معلم . وهكذا  
نعرفنا الحق أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن موجود مع قوم مريم حين القوا  
أقلامهم .

والقسم يُطلق على القلم الذي نكتب به ، أو يطلق القلم على القداح التي كانوا يقرعون بها إذا اختلفوا على شيء . وكانوا عندما يختلفون يحضرون قداحا ، ليقرعوا من يظهر بأشياء مختلفة عليه وسميها نحن القرعة ، والقرعة يقومون بإجرائها لإخراج الهوى من قسمة شائعة بين أفراد ، وذلك حتى لا يميل الهوى إلى هذا أو إلى ذاك مفضلا له على الآخرين ، ولذلك فنحن أيضا نجرى القرعة فنصنع لكل واحد ورقة .

إذن علا هوى لأحد في إجراء قسمة عن طريق القرعة ، وبذلك نكون قد تركنا المسألة إلى قدر الله لأن الورقة لا هوى لها ، ولما اختلف قوم مريم على كفالتها ، واختصموا حول من الذي به الحق في أن يكفلها . هنا أرادوا أن يعزلوا الهوى عن هذه المسألة ، وأرادوا أن تكون قسرية ، ويكون القول فيها عن طريق قلع لا هوى له . وهذا القلع سيجرى على وفق العادير . أما « أقلامهم » فقد يكون هو القداح التي يقسمون بها القرعة ، أو الأقلام التي كتبوا بها التوراة تبارك .

وتسأل البعض ، ما المقصود بقول الحق « إذ يلقون أقلامهم » وأين تم إلقاء هذه الأقلام ؟ قيل : إنها ألقيت في البحر وإذا ألقيت الأقلام في البحر فمن الذي يتميز في ذلك ؟ قيل : إنه إذا ما أهل قلم بسبه إلى أهل فصاحبه الفائز ، أو إذا عرفت كل الأعلام وطفا فلم واحد يكون صاحبه هو الفائز . ولا بد أنهم اتفقوا على علامة أو سمة ما غير القلم الذي كان لصاحبه فضل كفالة مريم . « وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكمل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون » .

وكلمة « إذ يختصمون » تدل على حرارة المنافسة بين القوم شوقا إلى كفالة مريم ، لدرجة أن أمر كفالتها دخل في خصومة ، وحتى تنتهي الخصومة لحثوا إلى الإفراع بالأعلام .

وننتقل الآن إلى مرحلة أخرى .

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكَ  
بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِهًا فِي  
الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٥﴾

لقد كانت المرحلة الأولى بالسنة لإعداد مريم هي قوله الحق على لسانها : « إن الله يرزق من يشاء بغير حساب » . وبذلك تعرفت على طلاقة قدرة الله ، والمرحلة الثانية هي سماعها للحكاية زكريا وعيسى وتأكيد الحق لها أنه اصطفاها عن سائر العالمين ، ول ذلك أمر يتعلو بالسنة ، وكان ذلك إيماساً من الحق ها ، ويدخل مريم إلى مرحلة جديدة

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾

( من الآية ٤٥ سورة آل عمران )

والبشارة لا تكون إلا بخبر عظيم مصرح ، وقد ينسأل البعض ؟ ماذا يقصد الحق بقوله : « كلمة منه » ؟ والإجابة هي : أن الحق سبحانه وتعالى يزاول سلطانه في ملكه بالكلمة ، لا بالعلاج ، فالحق سبحانه عمسا ذلك بقوله :

﴿اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا تَصَيَّى أَمْرٌ فَلَهُمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

( من الآية ٤٧ سورة آل عمران )

وهذا القول هو مجرد إيضاح ك وتقريب لانه لا يوجد عندنا أنصر في الأمر من كلمة « كن » إن قدرته تادرة مطلقنها أن تسبق نطقنا بالكاف وهي الحرف الأول من « كن » ، ولكن الحق يوضح لنا بأنصر أمر على طريقة البشر ، إن الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أمراً فإنه يقول له كن فيكون ، وذلك إيضاح أن مجرد الإرادة الإلهية لأمر ما تجعله ينشأ على الفور ، و« كن » هي مجرد إظهار الأمر للخلق ، هكذا عنهم معنى بشارة الحق لمريم : « كلمة منه » ، ويقول الحق : « اسمه المسيح عيسى ابن مريم » . إنها ثلاثة أسماء ، « المسيح » ، « عيسى » ، « ابن مريم »

ما معنى المسيح ؟ قد يكون المسموح من الذنوب ، أو أن تكون من آياته أن يمسح على المريض فيبرأ ، أو المسيح المبارك .. أما عيسى فهذا هو الاسم ، والمسيح هو النقب ، وابن مريم هي الكنية . ونحن نعرف أن القلم في اللغة العربية يأتي على ثلاثة أنواع . اسم أو لقب أو كنية . وابن مالك يقول : « واسم أتى وكنية ولقب ، إن القلم على الشخص له ثلاث حالات إما اسم وهو ما يطبق على المسمى أولاً والاسم الثاني الذي أطلقه عليه إن كان يشعر برفعة صاحبه أو يضيفه تسميه لقبا أما ما كان فيه أب أو أم فيقال له : « كنية » وحات الثلاث في عيسى : اسمه المسيح عيسى بن مريم »

« المسيح » هو اللف « عيسى » هو الاسم « وابن مريم » هو الكنية . وحيى عيسى بالنقب والاسم والكنية سيكون لها حكمة تظهر لنا من بعد ذلك . ويقول عنه الحق : « وجيها في الدنيا والآخرة » .

ونحن في حياتنا نستعمل كلمة فلان وحيه من وجهاء القوم ، والوجه هو الذي لا يرد مستورا للكرمه في وجهه « ونحن نسمع في حياتنا اليومية فلان لا يصح أن يسب له الخجل برهض أى طلب له . وكما يقول العامة : ( هو الوجه ده حد يكسفه ) إذن فالوجه هو الذي يأخذ سمة وتغيرا بحيث يستحي الناس أن يردوه إذا كان طالبا ، وهناك إنسان آخر قد يسأل أو يسأل الناس ، فلا يبالي به أحد ، إنه يريق ماء وجهه وتنتهي المألة

إذن فقول الحق في وصف عيسى بن مريم : « وجيها في الدنيا والآخرة » أى أن أحدا لا يرده إن سأل . لكرم وجهه ، فلإنسان يخجل أن يرد صاحب مثل هذه الكرامة ، لذلك نجد أن السائل قد يقول أعطني لوجه الله أى أنه يقول لك لا تنظر إلى وجهي ، ولكن انظر إلى وجه الله ؛ لأن الله هو الذي جاء به إلى الدنيا ونحشى ، وما دام قد جاء به الخالق إلى الدنيا فهو المتكفل برزقي ، فأنت حينها تعين على رزق من استدعاه الله إلى الوجود تكون قد أعطيت لوجه الله ، إنه الخالق الذي يورق كل مخلوق له حتى الكافر

إذن فعطاء الإنسان للسائل ليس عطاء لوجه السائل ، ولكنه عطاء لوجه الله والحق يقول عن عيسى بن مريم : « وجيها في الدنيا والآخرة » وعرفنا كيف يكون

الإنسان وجهها في الدنيا ، فلماذا نص الحق على وجهة عيسى في الآخرة ؟ وخصوصاً أن كل وجوه المؤمنين ستكون باصرة ، لقد نص الحق على وجهة عيسى في الآخرة لأنه سرف يسأل سؤالاً يتعلق بالقمة الإيمانية .

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لَكَ أَنْ أَقُولَ مَا نَحْبِسُ لِي بِحَقِّكِ إِنْ كُنْتَ قُلْتَهُ فَعِزَّةٌ عَلَىكَ تَعْلَمُ مَا فِي صَدْرِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ١١٦ ﴾

( سورة المائدة )

إياك أن تظن أن هذا السؤال هو تعريض من الله لعيسى بن مريم . لا . إن الحق يريد أن يعرف من قالوا هذا الكلام . ولذلك يقول عنه الحق

﴿ وَأَنْتُمْ عَلَىٰ يَوْمٍ وُلِدْتُمْ وَيَوْمَ تُمُوتُونَ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ١١٧ ﴾

( سورة مريم )

لأن ميلاده كان له صيغة ، وبعض بني إسرائيل اتهموا ولياد بالله أمه مريم النور ، وه يوم الممات ، كذب يعرف حكمة الصلب وكان لها ضجة . إنه لم يصيب ولكن صلب من خاتمه ووثنى به فالتقى الله شه عيسى عليه فقتلوه ، ويوم الحث حيا يوم يسأله الله

﴿ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّبِعُونِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لَكَ أَنْ أَقُولَ مَا نَحْبِسُ لِي بِحَقِّكِ ﴾

( من الآية ١١٦ سورة المائدة )

به عيسى ابن مريم الذي أكرم الله عليه بالسلام في هذه الوقف الثلاثة . ويتابع الحق فيصف عيسى ابن مريم بقوله : « وجهها في الدنيا والآخرة ومن المقربين » إن كلمة « من المقربين » تدل على تعالى الحق في عظمته ، فعين بعين بعض البشرى واحد منهم قد يعصف بعضهم من لشخص الذي فتن الآخرون فيه مع أنه يس له حب في ذلك .

والحق سبحانه يعلمنا أن للمغالي جزاء ولكن المغالي فيه تنجيح رحمة العفار .



إن الحق يعلمنا أن غنة بعض الناس بعيسى ابن مريم عليه السلام لا تؤثر في مكانة عيسى عليه السلام عند الحق ، إنه مقرب من الله ، ولا تؤثر غنة الآخرين في مكانته عند الله ، ويقول الحق

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا

وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٦﴾

الكلام : معناه المعط الذي يقل فكره التاطق إلى السامع ، ويقول الحق : « يكلم الناس في المهد » ، معناه أن المواجه لعيسى عليه السلام في المهد هم الناس « المهد » هو ما أعد كعراش للوليد . ولقد أورد الحق « لمهد وكهلا » بمعنى لشيء ، وهي أن عيسى ابن مريم من الأغيار ، يطرأ عليه مره أن يكون في المهد ، ويطرأ عليه مره أخرى أن يكون كهلا ، ومادم في عالم الأغيار فلا يصح أن يقتس به أحد ليقول إنه « إله » أو « ابن إله »

ونعهم أيضا من « ويكلم الناس في المهد » سر وجود آية المعجزة لقي وهبها له الله وهو طفل في المهد . لأن مسألة تعلقت بعرض أمه وكرامتها وعفتها ، فكان من الواجب أن تأتي آية لتعجز عجزا من الناس حين يرونها تلد بدون أب هذا الوليد أو رواج لها . وهذه المسألة لم نجد لها وجودا ، مع أنها مسألة كان يجب أن تقا لآلهم يمجدون نبهم ، وكان من الواجب ألا يفتلوا عن هذه المعجزة ، إن كلام طفل في المهد لما كان أمرا عجيبا كان لابد أنه سيكون محل حفظ وتداول بين الناس ، ولن يكفى الناس برواية واقعة كلامه في المهد فقط ، بل سيحفظون ما قاله ، ويرددون قوله

والكلمة التي قالها عيسى عليه السلام في المهد لا تسعف من يصيب عيسى عليه السلام بوصف يناقص شريته ، لأن الكلمة التي نطق بها أول ما نطق . إن عبدا لله ، فأنعموهم هذه المسألة كلها لأن هذه الكلمة تنقص القصبة التي يريدون

أن يضعوا فيها عيسى عليه اسلام ، إن الحق يقول : « ويكلم الناس في المهد وكهلا » .

ويعرف أن الكلام في المهد أي وهو طفل وهو كهلا ، أي بعد الثلاثين من العمر ، أي في العقد الرابع . والبعض قد قال : إن الكهولة . بعد لأربعين من العمر وهو قد حدث له في رواياتهم حكاية الصلب قبل أن يكون كهلا ، فإذا كان قد تكلم في المهد فيشئ أن يتكلم وهو كهل ، وقالوا إن حادثة الصلب أو عدم الصلب ، أو الاحتفاء عن جس البشر قد حدثت قبل أن يكون كهلا ، إذن فلا بد أن يأتي وقت يتكلم فيه عيسى بن مريم عندما يصير كهلا ، وأيضا قوله الحق : « ويكلم الناس في المهد وكهلا » أي أنه تكلم في المهد طفلا ويتكلم كهلا ، أي ناصح التكوين ، وبذلك يعرف أن عيسى بن مريم فيه أعيار وفيه أحوال ، فإذا كنتم تقولون إنه إله فهل الألوهية في المهد هي الألوهية في الكهولة ؟ \*

إن كانت الألوهية في المهد فقط فهي ناقصة لأنه لم يستمر في المهد ، وحدثت له أعيار ، ومادام قد حدثت له أعيار فهو محدث ، ومادام محدث فلا يكون إلها ، وبعد ذلك يقول الحق عن عيسى ابن مريم : « ومن الصالحين » ما حكايتهما ؟

إن العجبة لقي قال عنها الله إنه يكلم الناس في المهد لم يكن باختياره ، وكلامه وهو كهل سيكون بالوحي ، أي ليس له اختيار فيه أيضا ، « ومن الصالحين » مقصود بها عمله ، أي الحركة السلوكية لماذا ؟ لأن لا يكفى أن يكون مسلما ، ولا يكفى أن يكون حامل آية ، بل لابد أن يؤدي السلوك الإيمان .

ويقول الحق على لسان مريم الشول

قَالَتْ رَبِّ أَنِّي يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّ سَنِي بَشَرٌ

قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا

يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٧﴾

ويريد أن يفهم قصة ذهبية تدبره عند قولها : « قالت رب أن يكون لي ولد ولم يمسس بشر » عنواها سكنت عند قوله : « أن يكون لي ولد » فكان أمراً معقولا في ساؤلها ، ولكن إصابتها : ولم يمسس بشر ، تثير سؤالا : من أين أتت هذا القول ؟ ولم يمسس بشر ، هل قالها أحد ؟ إنك مستلبدين ولدا من غير أب ؟ إن املاكك لم تحرمها بذلك ، لذلك انصرف ذهبا إلى مسألة المسألة : إنها عطرة وعطية المهية وابعده للتفكير عن الله ، عندما قال لها : « المسح عيسى ابن مريم »

قالت لنفسها : إن سببه بأمر الله من لي ، فلا أب له ، لقد قال الحق : إنه من مريم ، ولذلك جاء قوله : « ولم يمسس بشر » ذلك ، أنه لا يمكن أن يمس الطفل نلام مع وجود الأب ، هكذا يرى عبده التلوي عن الله في مريم ، القول : لقد مر بها خوف عندما عرفت أن عيسى مسبوب إليها وقالت لنفسها : من الخلق عيسى لن يكون بواسطة أب ، وكيف يكون يحمل دون أن يمسس بشر ، وقال : عانى الأكرم : « كذلك ، أي لن يمسك بشر » ولم يقل : « لقد سمعنا لك لانت سدورة الخدمة البت ، ولكن الحق قال : « كذلك » تأكيد لما فهمته عن إيجاب عيسى دون أن يمسسها بشر . وتنبأ علاقة القدرة في قوله سبحانه : « الله يخلق ما يشاء »

بها طلاقة القدرة ، وعلاقته القدرة في الإنسان أو الإيجاب أو في عدم التكثير بالنسبة للإنسان ، وعلاقة القدرة لا توقف على إيجاد ذكورة وأنوثة ، ولو كانت طلاقة القدرة متوقفة على إيجاد ذكورة وأنوثة فكيف خلق آدم أو علق ؟ إن طلاقة القدرة في الخلق لا توقف على إيجاد ذكورة وأنوثة ، إنه الحق الأعلى القادر على أن يخلق دون ذكورة أو أنوثة ، كخلق آدم عليه السلام ، ويخلق الحق سبحانه الواحد منها ، كخلق سبحانه الخراف ، وخلق عيسى عليه السلام ، ويخلق الخلق الأعلى بالذكورة والأنوثة ، وهذه تنصح في خلقهم البشر ، ولا يظنوا أن حاجتهم الذكورة والأنوثة يمكن أن يخلق الخلق ، فقد يوحد الذكورة والأنوثة ولا يوجد إيجاب ، هذه القول الحق

لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْدِيرٍ  
وَرَدُّوهُمُ إِلَى آخِرَتِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَنبَئَهُمْ بِأَنبَاءِهِمْ  
وَيَبْنِئُهُمْ بِأَنبَاءِهِمْ

## إِنَّهُ عَزِيزٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

(سورة الشورى)

هذه هي إرادة الحق ، إذن فلا تقل إن اكتمل عصرى المذكورة والأموثة هو الذى يحدث الخلق ، لأن الحق يحدث بإرادة الحق ، « كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا ما يقول له كن فيكون » فأنتم أيها المتحدثون بمعنويات بالأسباب ، لكن الذى خلقكم وخلق لأسباب لكم هو الذى بيده أن يوجد بلا أسباب ، لأنه أنشأ العالم أول ما أنشأ بدون أسباب

ويقول الحق سبحانه عن عيسى عليه السلام

## ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾

وساعة سمع « يعلمه الكتاب » فنحن نفهم أن المقصود به الكتاب المبرور ، ولكن مادام الحق قد أتبع ذلك بقوله : « والتوراة والإنجيل » فلا بد لنا أن نسأل : إذن ما المقصود بالكتاب ؟ هل كان المقصود بذلك الكتاب المكتبة المتقدمة ، كالزبور ، والصحف الأولى ، كصحف إبراهيم عليه السلام ؟ إن ذلك قد يكون صحيحا ، ومعنى « يعلمه الكتاب » أن الحق قد علمه ما برز منه من زبور داود ، ومن صحف إبراهيم ، وبعد ذلك توراة موسى الذى جاء عيسى مكملها

وبعض العلماء قد قال : أُرِثَ عن عيسى عليه السلام أن تسعة أعشار حمل الخط كان في يده ، وبذلك يمكن أن نفهم « يعلمه الكتاب » أى القدرة على الكتابة وما المقصود بقوله : إن عيسى عليه السلام تلقى عن الله بالإضافة إن « يعلمه الكتاب » أنه تعلم أيضا « الحكمة والتوراة والإنجيل » وكلمة الحكمة عادة تأتي بعد

كتاب منزل ، مثال ذلك قوله الحق :

﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَنْتَظِرُنِي يَوْمَ تُنْفَخُ مِنْ أَيْدِي اللَّهِ وَالْحِكْمَةُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾

( الآية ٢١ من سورة الأحزاب )

كتاب الله المقصود هنا هو القرآن الكريم ، والحكمة هي كلام الرسول عليه الصلاة والسلام فالرسول له كلام يتفاه وسلعه ، ويعطيه الحق أيضا أن يقول لحكمة ، أما التوراة التي علمها الله لعيسى عليه السلام فقد علمها له الله ، لأننا كما نعلم أن مهمة عيسى عليه السلام جاءت لتكمل التوراة ، ويكمل ما نقصه اليهود من التوراة ، فالتوراة أصل من أصول التشريع لعصره والمجتمع السعوث إليه فهو بالمضي لقرآن .

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَقِيَّ سَرِّهِ يَلْ أُنِي قَدْ جِئْتُكُمْ بِثَابِتٍ  
مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ  
الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُزَيِّتُ  
الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ  
وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ  
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾﴾

إن كلمة رسول تحتاج إلى علامة ، فليس لأي أحد أن يقول « أنا رسول من عند الله » بل لابد أن يقدم بين يدي دعواه معجزة تثبت أنه رسول من الله . والآية كما نعرف هي الأمر العجيب الذي خرج من القوانين والنواميس لشيء خلق

الرسول في البلاغ ، وما دامت المعجزة خارجة عن تواميس البشر ، فالمحالف نقول له : أنت حين تكذب أن حامس المعجزة رسول ، فكيف تعلق أنه جاء بمعجزة خرجت عن التاموس ؟ إذن ، فالمعجزة تلزم أنكر الذي يتحدى وتفحصه ، لأنه لا يستطيع أن يأتي بمثله ، ولذلك قلنا : إن من لروم لتحدي ألا يتحدى الله حين يعطي رسولا معجزة إلا بشيء يخ فيه القوم المبعوث إليهم ذلك الرسول ، لأن الحق لو جاء هم شيء لم يدرسوه ولم يعرفوه ، فالرد منهم يكون للرسول بقوسم : إن هذا امر لم تروض أنمسا ولم ندر بها عليه ، ولو روضنا أنمسا عليه لاستطعنا أن نعمل مثله ، وأنت قد جئت لن بشيء لم نورد أنمسا عليه ، لذلك يرسل الحق الرسول - أي رسول - بمعجزة من جنس ما ينبغي فيه القوم المرسل إليهم ، . مثال ذلك ، موسى عليه السلام ، أرسله الله إلى قوم كانوا نابعين في السحر ، فكانت معجزته تقرب من السحر

وإياك أن تقول إن معجزة موسى كانت سحر ؛ لأن موسى عليه السلام لم يرسل سحر ولكن بمعجزة . كانوا هم يحملون للناس أشياء ليست واقعاء لذلك نجد القرآن يعطيك الفارق بين ما يكون عليه ما يأتي به الله على يد رسول من الرسل من معجزة وسحر لقوم ، يقول القرآن -

﴿ وَمَا تِلْكَ يَمِينُكَ يَمُوءُ ﴾ ١٧ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَاهْتَسِبُ بِهَا عَلَى عَنِينِ  
وَلِي فِيهَا مَقَارِبُ أُتْرَى ١٨ قَالَ أَلَيْسَ فِيهَا يَمُوءُ ١٩ قَالَتْهَا فَمَا نَأْنِي حَيَّةً تَسْعَى ٢٠ ﴿

( سورة طه )

كان الحق يقول لموسى عليه السلام : إن حدود علمك بما في يديك أنها عصا تنوكتا عليها وتمس بها على عنك ، أم على أنها فهو علم آخر ، لذلك يأمره أن يلقى العصا ، فلما ألقاها رجدها حية تسعى ، فأوحس في نفسه خيفة إن « أوحس في نفسه خيفة » هي التي فرقت بين سحر القوم ومعجزة موسى عليه السلام .

لماذا ؟ لأن الساحر يلقى العصا فيراها الناس حية وهو يراها عصا لأن الساحر لو رآها حية لخاف مثل الناس ، لقد خاف موسى عليه السلام لأنها تغيرت وصارت حية فعلا ، ولذلك قال له الله :

## ﴿ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَحْفَظْ سَعِيدُهَا سِرُّهَا الْأَوَّلُ ۝ ﴾

(سورة طه)

هلو كانت من جس السحر لما أوجس في نفسه خيفة لأنه سوف يراها عصا وإن رآها عبره حية ، وهذا هو الفارق . وقوم عيسى أيضا كانوا مشهورين بالحكمة والطب ، إذن فتحت الأيات من جس الحكمة والطب ، ثم تناسى المعجزة ، لأن الذي يطلب حسيما ويدأويه لا يستطيع أن يعمد الميت إلى الحياة ، لأن الإنسان إذا مات فقد خرج الميت عن دائرة صلاح الطبيب . وبذلك رقى الله آية عيسى ، إنه يشفي المرنى ، ويحيى المرق أيضا ، وهذا ترقى في الإعجاز . قال عيسى : ' وأنا قد حشكم بأية من ربكم أن أخلق لكم من الطير كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ' . إن كلمه ' أخلق ' محتاج إلى وقفة وكذلك ' الطير ' وه الهية ' وه الطير ' .

' أخلق ' مأخوذة من الخلق ، والخلق هو إيجاد شيء عن تقدير ، فأنت تتحمله وتقدره في ذهنك أولا ثم تأتي به على هذه الحالة . فإن كان قد أتى على غير تقديرك وليس حلقا ، إنما هو شيء حررق جاء على غير علم وتقدير ، وإن من يأخذ بقطعه من لحي ويصنع منها أى شيء فهذا ليس حلقا . إن الخلق هو المطلوب عن تقدير . مثال ذلك الكوب أو الكأس البلور الذى يشرب فيه حينما صممه الصانع هل كانت هناك شجرة تمزج أكواب ، أم أن الصانع أخذ الرمال وصهرها وورص عليها مواد كيميائية فخلبها من الشوائب ، ثم قام بتشكيلها على هيئة الكوب ؟

إذن الكوب لم تكن موحدة ، ووجدت على تقدير أن تكون شكل الكوب ، فهي خلق . لوحد عن تقدير . لماذا عن خلق الله ؟ إنه يخلق على تقدير ، وخلق بين صفة لبشر حين يخلق ، وبين صفة الله حين يخلق . إن صفة البشر حين يخلق ، إنما يخلق من موجود ، وحين يخلق الله فهو يخلق من معدوم . وهذا هو أول فرق ، به سبحانه يخلق من عدم ، أما الإنسان فيصنع الأشياء نظام يحدث فيها تفاعلات أرضها الله فتوحده ، فلا يوجد من يستطيع على سبيل المثال - من يصنع كوبا من غير المادة التي خلقها الله .

إن هذا أول فرق بين خلق الله ، وخلق الإنسان ، فخلق الله يكون من عدم ،

وحلق الإنسان من موجود ، وإن كان الإنسان على تقدير . وأيضا يعطى الله خلقه سرا لا يستطيع الشر إعطاءه لصعته ، فإله يعطيه سر الحياة ، والحياة فيها غو ، وفيها تكاثر ، لكن الشر يصنعون الكوب مثلا ، فتطل كوبا ، ولا يوجد تكاثر بين كوب ذكر وكوب أنثى .

إن الإنسان يوجد صنعته فتطل على حالتها ، ولا يستطيع أن يصنعها صعبة ثم تكبر ، لكن صفة الله هي صفة القادر الذي يهب الحياة ، فتكبر مخلوقاته وتتطور وتبرأحل ، وتعطى مثلها . إذن ، فالمخلق إيجاد على تقدير ، هذا الإيجاد يوجد معدوما ، والمعدوم موجوده مادته ، هذا في خلق الإنسان ، أما في خلق الله ، فإله يخلق من معدوم لا توجد له مادة . والله يخلق من الشيء ذكرا وأنثى ويعطيها القدرة على التناسل ، وهذا قول الحق سبحانه

﴿وَلَقَدْ حَلَفَ الْإِنْسَانُ مِنْ سُئَلِهِ مِنْ رَبِّهِ ﴿١﴾ ثُمَّ حَسَنَهُ نُسْجَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿٢﴾

﴿ثُمَّ حَقَّقَ النُّطْقَةَ عَلَّقَةً حَقَّقْنَا الْعَصْفَةَ مُصْعَةً حَقَّقْنَا الْمُصْعَةَ عِظْمًا ﴿٣﴾

فَكُونُوا الْعِظَمَ لِحَبَائِمٍ ثَمَّ لِنَسَائِهِ خَلَقْنَا نَحْرَ فَمَشَارِكِ اللَّهِ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿٤﴾﴾

( سورة المؤمنون )

ولم يمنع الحق خلقه أن يخلقوا أشياء ، ولكن خلق الله أحسن ، لماذا ؟ لأنه يخلق من عدم ، والبشر يخلقون من موجود . وهو الحق يخلق ويوجد في مخلوقاته حياة وتكاثر ، والبشر يخلقون بلا غو ولا حياة ، إنه الحق أحسن الخالقين ، إذن قول عيسى عليه السلام : « أنخلق لكم من الطين كهينة » الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ،

يعنى أن كل إنسان يستطيع أن يصنع مثلا كهينة الطير . لكن الله أوحد معجزة عيسى وجعله يخلق من الطين كهينة الطير ، وينفخ فيه ، وقد تسأل ، في ماذا ينفخ ؟ أينفخ في الصير ، أم في الطين ، أم في كهينة ؟ إن قلنا : إن النفخ في الطين بعد ما يصير طيرا . يكون النفخ في الطين ، كالنفخ في الطير ، وجاءت في آية أخرى أنها نفخ في الطينة



﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِمِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ادْكُرِي عَلَىَّ وَاعْلَيٰ وَلَدَتِكَ إِذْ يُدْعُوكَ بِرُوحِ  
الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكِ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَالتَّوْرَةَ  
وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِوَدْعِي فَقُفُّْ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا  
بِإِذْنِي﴾

(سورة النحل)

إذ «النفخ فيه» ، تكون للطير أو الطير «وه النفع فيها» تكون لله ، وهناك  
آية بالنسبة للسيدة مريم التول :

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُّوحِنَا وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ  
رَبِّهَا وَكُنِيَءٌ رَكَاتٍ مِنَ الْقَلِيلِ ١١﴾

(سورة المحريم)

إذ انتفع هنا في الفرج ، وآية أخرى بالنسبة للسيدة مريم التول

﴿وَالَّتِي أَحْصَتَ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَتَ  
آيَةَ لِّمُتَعَلِّبِينَ ١١﴾

(سورة الانبياء)

مرة يقول . «نفخنا فيه» أي في الفرج ، مرة يقول «نفخنا فيه» أي فيها  
هي ، ولقولنا متساويان ، وهنا في هذه الآية ، نجد أن الإعجاز ليس في أن عيسى  
صنع من طير كهية الطير ، لأن أي إنسان يستطيع أن يفعل ذلك ، فكانه حسيما  
قال : «أنا أخلقكم من الطين كهية الطير فأصبح فيه فيكون طيرا بإذن الله» .

كانه صار طير من النفخة ، أما من أمر صناعة طير من الطين فأي إنسان يمكن أن  
يفعلها ، لكن عيسى عليه السلام يفعل ذلك بإذن الله ، ولا بد أن يحى الأمر

عقلها ، و « ياد الله » هنا تصم صنع الطير ، والتفخ فيه

إن عيسى لم يكن ليحتريه ويصنع ذلك كله إلا ياد الله ، وحادث كلمه « ياد الله » من عيسى وعلى لسانه كاعتراف منه بأن ذلك ليس من صناعته ، وكأنه يقول لقومه إن كنتم فتقم بهذه . فكان يجب أن تعتبروا بإبراهيم من باب أولى ، حينما قطع الطير وجعل من كل جبل جزءا منهم ثم دعاهم

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ لَوْ لِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أُولَٰئِكَ تُؤْمِنُونَ ۖ فَلَمَّا بَلَغَ لَيْلَىٰ وَلَئِنَّكَ لَمِنَ الْكَافِرِينَ ۚ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ مِثْرًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٥٠﴾

(سورة النحل)

إذن كان من الأولى الفتنة بما أعطاه الله إبراهيم عليه السلام من معجزة ، فإن كانت الفتنة من ناحية الأحياء لكن ما صنعه إبراهيم عليه السلام أولى بها ، وإن كانت الفتنة من ناحية أنه جاء إلى الدنيا بدون أب فكانت لعنة أكثر في خلق آدم ، لأن الله خلقه بلا أب أو أم إذن فالفتنة لا أصل لها ، ولا منطق يردعها . وشاع الحق سبحانه عن لسان عيسى ابن مريم عليه السلام « وأبىء الأكمة والأبرص راحي الموت بلذن الله » .

لماذا تعرض عيسى ابن مريم لحديث المرضين ؟ لأننا كانت الأمراض المستعصية في ذلك العصر ، والأكمة هو الذي ولد أعمى ، أي لم يحدث له البصر من بعد ميلاده والبرص ، هو ييصا ببقعة في الجلد وإن كان صاحبها آدم أو أسود . وبعد ذلك تنتشر بقع مسافرة في كافة الجسم بدون أيص ، مما يدل على أن لون الجلد له كيميائيات في الجسم تغذي هذا اللون ، فإن مُنعت الكيمائيات في الجسم صدر أبرص .

وتبين صدق هذا في أن العنم المعاصر قد عرفت أن الملونات للجلد هي عدد خاصه توجد في الجسم ، واسمها ألفند الملونة ، فإن امتنعت الفند الملونة من إعطاء الألوان ، جاء البرص والعياذ بالله . وهو مرض صعب ، لم يكن باستطاعتهم أن

يداووه ، فعندما جاء عيسى ابن مريم أعطاه الله الآية من جنس ما سمعوا فيه وهو الطيب . وجاء لهم بآية هي إبراء ما كانوا على حين غرة .

ربعض القوم الذين يحاولون أن يقربوا بين المعجزة وعقول الناس يقولون : إن هذه المعجزات إنما هي سين زمني ، بمعنى أنه من الممكن أن يتوصل الإنسان إلى أن يكتشف علاجا لهذه الأمراض ، لكن هؤلاء يقول : لا ، إن المعجزة تظل معجزة إلى أن تقوم الساعة . كيف ؟

لنأخذ مثالا من طب العيون . عندما قالوا إن هناك علاجاً للعمى « سنقوم بتزكيب قربة » أو أن نأخذ مثالا من طب الجلد لو قالوا « سنداوى البرص » واكتشفوا ألوانا مختلفة من العلاج لمحاول أن يجعل الجلد على لون واحد ، لكنه لا يستعيد لونه الأصلي . ولذلك قال البعض : « إن معجزة عيسى كانت مجرد سبق زمني » هؤلاء يقول : لا ، نأخذ كل أمر بأدواته .

إن عيسى بن مريم عليه السلام كان يرى بالكلمة والدعوة ومهي تقدم العلم فلم يستطع العلم أن يرى بفرض بالكلمة والدعوة ، إنه سيأخذون أشياء ويقوم بتحليل تلك الأشياء ، وخطط الكمبيوتر وإجراء الجراحات ، لذلك تظل المعجزة التي جاء بها عيسى ابن مريم عليه السلام معجزة ، لأنه كان يرى بالكلمة والدعوة

ويضيف الحق على لسان عيسى ابن مريم « وأحيى الموتى بإذن الله وأبشكم بما تأكلون » ومساءلة إحياء الموتى لم يأخذها عيسى هكذا على إطلاقها فيحيى كل ميت ، إنما قام بها وفي وحدات تثبت صدق الآية ولا تعمم مدلول المعجزة كسام بن نوح مثلا ، وه عابر « إنما أشياء لمجرد إثبات المعجزة ، ولكنها ليست مطلقة ، ذلك أنه من رسول من الله فلا يمكن أن يصادم قدر الله في لأجل . ولذلك قالوا : إنه عندما أحيى سام بن نوح ، أحياه حتى نطق بكلمة ، ثم عاد سام إلى الموت من بعد ذلك ويضيف الحق على لسان عيسى ابن مريم عليه السلام

﴿ وَأَبْشِرْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْرُجُونَ فِي يَوْمٍ نَّكَرٌ ﴾

( من الآية ٢٩ سورة آل عمران )

لماد ؟ لأن كل إنسان يعلم جزئية من أحداثه الحياتية الخاصة ، يكون هذا العلم

خاصا به ، وكل إنسان - مثلا - يأكل طعامه بألوان مختلفة يعرفها هو ، ولا يعرفها الآخرون . إن الأمر الأول كخلق الطير ، وإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى ، هي أمور عامة للجميع . أما الإنشاء بألوان الطعام التي يأكلها كل إنسان فهي خاصة . أحداث ، لأن كل واحد يأكل أكلا معيناً فيقول له عيسى ابن مريم ماذا أكل . وليس من المعقول أن يكون عيسى ابن مريم قد دخل كل بيت أو جاءت له أخبار عن كل بيت .

وكذلك أمر الإحصاء . وذلك حتى نتسنى شبهة أنه كان يشم رائحة الإنسان فيعرف لون الطعام الذي يأكله ، لذلك كان الإحصاء بما يدخر كل واحد في بيته ، بهذه مسألة توصلح بالجللاء التام أنها آية من إخبار من يعلم معيشت لأمر

﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُم مِّنْ مُّؤْمِنِينَ﴾

( من الآية 29 سورة آل عمران )

إن هذه آية عجيبة تثبت أن هناك قوة أعلى فاعرة هي قوة الله الحق هي التي تعطيه هذه الأشياء ، فإن كنتم مؤمنين بوجود قوة أعلى فعلكم تصديق الرسالة التي جاء بها عيسى ابن مريم ، لأن معنى ( رسول ) أنه مخلوق اصطفاه الله وأرسله سبحانه إلى الأديمة ، فالذي يؤمن بالآية هو الذي يؤمن بوجود إله أعلى قادر ومن يريد أن يتشب - مع إيمانه بالله - من الآية إلى معناه الله مع عيسى ابن مريم ، فالإيه واضحة . أما غير المؤمنين بالله فلن نفيد الآية في الإيمان ويقول الحق مساعا على لسان عيسى ابن مريم :

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِجْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝٥﴾

وقد قلنا إن « مصدق » تعني أن ما جاء به عيسى بن مريم مطابق لما جاء في

التوراة . وقلنا إن ما بين يدي الإنسان هو الذي سبقه ، أي الذي جاء من قبله وصار أممه . ومادام عيسى ابن مريم جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة في زمانه ، وكانت التوراة موجودة ، فلماذا جاءت رسالته إذن ؟

لكن القول الحق يتضمن هذا المعنى : إن عيسى سيأتي بأحكام جديدة ، ويتضح ذلك في قوته الحق سبحانه على لسان عبده عيسى ابن مريم . « ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم » ، إذن فليس المهم هو لتصديق فقط ، ذلك أن عيسى جاء ليحل بعضا من البلى حرمة التوراة

وقد يقول قائل : إذا كانت الكتب السماوية تأتي مصدقة بعضها بعضا مما فاتت توالي نزل الكتب السماوية ؟ والإجابة هي : أن فاتت الكتب السماوية اللاحقة أنها تذكر من سبها من الكتب السابقة ، هذا في المرتبة الأولى ، وثانيا : تأتي الكتب السماوية بأشياء / وأحكام تناسب التوقيعات الرمية التي تنزل فيها هذه الكتب . هذه هي فوائد الكتب السماوية التي تواتت نزولا من الحق عن رسله ، إنما تذكر من عقل وتعقل في بعض الأحكام

ومن الطبيعي أنا جميعا نفهم أن العقائد لا تبدل فيها ، وكذلك الأجر والقصص ، لكن التبديل يشمل بعضا من الأحكام . ولهذا جاء القول الحق على لسان عبده عيسى ابن مريم : « ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم » ونحن نعرف أن أقوم الذي أرسل الله عيسى ابن مريم لهم هم بنو إسرائيل ، والتحرير والتحليل يكون بحكمه من الله .

إن الله حكيم فيما يحلل وحكيم فيما يحرم ، إنما إننا أن نفهم أن كل شيء يحرمه الله يكون صار ؛ قد يحرم الله أشياء لتأديب الخلق ، فيأمر بالتحريم ، ولا يصح أن تسأل عن الضرر فيها ، وقد يعيش المؤمن دينه ولم يثبت له ضرر ببعض ما حرم الله فإن تسأل أحد : لماذا حرم الله ذلك ؟ تقول له : من الذي قال لك إن الله حين يحرم فهو يحرم الشيء الضار فقط ؟ إنه الحق سبحانه يحرم الضار ، ويحرم بعضا مما هو غير ضار ، ولذلك قال الحق :

﴿ فَبُظْلِمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٌ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبُصِّدَتْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ۖ ﴾

( سورة النساء )

وتفصيل ذلك في آية أخرى :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمًا كُلُّ ذِي طُورٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْأَنْعَمِ حَرَّمًا عَلَيْهِمْ نُحُومُهُمَا إِلَّا مَا حَمَّ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبُغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۖ ﴾

( سورة الانعام )

إذن التحريم ليس ضروريا أن يكون لما فيه الضرر ، ولهذا جاء قول الحق على لسان عبده ورسوله إلى نبي إسرائيل عيسى ابن مريم : « ولأحل لكم بعض الذي حرم عليكم » لقد جاء عيسى ابن مريم ليحل لهم بأمر من الله ما كان قد حرمه الله عليهم من قبل

وبعد ذلك يقول الحق على لسان عبده ورسوله عيسى ابن مريم : « وجئناكم بأية من ربكم فاتقوا الله وأطيعوه » وجموعة هذه الأوامر التي نزلت هي أية أي شيء عجيب ، بلغت القوم الذين أرسل الله عيسى إليهم ، إنه كرسول وكبشر لا يستطيع أن يجيء بالآية المعجزة بمفرده بل لابد أن يكون معوثا من الله . يجب أن يلتفتوا إلى أن الله الذي أرسله ، وله طلاقة القدرة في حرق النراميس هو سبحانه الذي أجرى على يدي عيسى هذه الأمور ، ويأمرهم عيسى ابن مريم بتقوى الله تنجاة لذلك ، ويدعو القوم لطاعته في تطبيق مosaic الله .

وبعد ذلك يقول الحق على لسان عيسى ابن مريم .

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ

مُسْتَقِيمٌ﴾ ٥١

إذن اجتمع الرسول والمرسل إليهم في أنهم جميعا مريدون إلى إله واحد ، هو الذي ينول تربيهم والتربية تقتضي إيجادا من عدم ، وبتفصيل إمدادا من عدم ، وتقتضي رعاية قيومية ، وعيسى ابن مريم يقر بعبوديته لله وكأنه يقول : وأنا لم أصنع ذلك لأكون سيذا عليكم ، ولكن أنا وأنتم مشتركون في العبودية لله : « إن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم »

ومعنى « هذا صراط مستقيم » أي أنه صراط غير ملتوي لأن الطريق إذا التوى ، انحرف عن الهدف ، وحتى تعرف أن الكمل يسير على طريق مستقيم واحد ، فتعلم أنك إذا نظرت على سبيل المثال إلى الدائرة ، فتجد أن لها محبطا ، ولها مركز ، ومركز الدائرة هو الذي نضع فيه « س أنفرجار » حتى نرسم الدائرة ، وبعد ذلك تصل من المركز إلى المحيط بأنصاف أقطار ، وكلها بعدنا عن المركز راد الفرق ، وكلها تقرب من المركز تتلاشى الفروق .

فإذا ما كان الخلق جميعا ينتفون عند المركز الواحد فهذا يعنى الاتصاف ، لكن الاختلاف يحدث بين الشر كلها بعدوا عن المركز ولذلك لا تجد للناس أهواء ولا نجد الناس شيئا إلا إذا انتعدوا عن المركز الجامع لهم . والمركز الجامع لهم هو العبودية للإله الواحد ، وملائمت عبوديته للإله واحد ففي هذا جمع للناس بلا هوى أو تفرق

إنه حتى في الأمر الحسى وهو الدائرة المرسومة ، نجد أن الأقطار المتأخودة من المحيط وتمر بمركز الدائرة ، مسجدة أنه في مسافة ما قبل المركز تتداخل الأقطار إلى أن تصبح عند نقطة المركز شيئا واحدا لا انفصال بينها أبدا . وهكذا الناس إذا انتفوا جميعا عند مركز عبوديتهم للإله الواحد ، فإذا ما احتلموا ، بعدوا عن العبودية للإله الواحد بمقدار ذلك الاختلاف .

ولذلك دعا المسيح عيسى ابن مريم الناس لعبادة الله : « إن الله ربي وربكم فاعبدوه »

هذا صراط مستقيم ، ذلك هو منطق عيسى . كان منطق الأول حينما كان في المهدي

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ؕ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ ﴾

(سورة مريم)

إن قصبة عبديته لله قد حُسمت من البداية ، وهي قصبة القصة ، به عبدالله والقصبة الثانية هي قصبة الرسالة وبصل مراد الله وتكليفه إلى خلق الله خلق ينوا حركة حياتهم على مقتضى ما أتول الله عليهم ، ومن الطبيعي أن أي رسول عندما يأتي بمنهج من عند الله ، فالهدف أن يحمل الناس جميع على سلوك هذا المنهج ، ويحدد حركة حياتهم بـ « افعل كذا » و « لا تفعل كذا » وعندما يسمع الواحد من الناس الأمر بـ « افعل » فقد يجد في التكليف مشقة ، لهذا ؟ لأنها تلزمه بعمل قد يفعل عليه ، و « لا تفعل كذا » فيها مشقة ، لأنها تبعده عن عمل كان يحبه .

والمرء في الأحداث بين اثنين : عمل يشق عليه فيحب أن يمتنه ، وعمل يستهويه فيحب أن يقترب منه ، ولملح جاء من السماء ليقول للإنسان « افعل » ، ولا « تفعل » إذن فهناك مشقة في أن يحمل الإنسان نفسه على أن يقوم بعمل ما من أعمال التكليف ، ومشقة أخرى في أن يتبعد عن عمل نهي عنه التكليف

ومعظم الناس لا يلتفت إلى العاية الأصلية : ولا يفهمونها حتى الفهم ، فيأتي أنصار الشر : ولا يعجبهم حمل نفوسهم على مرادات مخالفهم . إن أفكار الشر تلج على صاحبها فيتمرد على التكليف الإيماني ، وأفكار الشر تحاول الاقتراب بصاحبها من فعل الأمور التي حرمها التكليف . ولذلك ينقسم الناس لأنهم لم يحددوا هدفهم في الوجود .

إن كل حركة في الوجود يمكن أن نعرف أنها حركة إيمانية في صالح انسجام الإنسان مع الكون ، أو هي حركة غير إيمانية تفسد انسجام الإنسان مع نظريته ومع الكون ، فإذا كانت الحركة تصل بالإنسان إلى هدفه الإيماني . فستكون حركة طيبة وحسنة بالنسبة للمؤمن ، وإلا كانت تبعده عن هدفه تكون حركة سيئة وباطلة ، وهكذا جرى أن الهدف هو الذي يحدد الحركة .



إن التعميد الذي يذهب إلى المدرسة له هدف بأن يتحرق في مهنة ما ، ومادام ذلك هو هدفه فمنه نفي حركة سلوكه ، هل هي حركة تقريه إلى اهدف أم تبعه عنه ؟ فإن كان مجتهدا فاجتهاده حركة تقرب له اهدف ، وإن كان كسولا ، خاملا فإنه يتبع نفسه عن اهدف ، إذن يجب أن نحدد اهدف حتى نعرف من يكون هذا العمل صالحا . أو غير صالح

وآفة الناس أنهم عندما يحددون أهدافهم يقعون في اعتار ما ليس باهدف هدفنا وعاية ومادام هناك من يعتبر غير اهدف هدفنا فلا بد من حدوث اضطراب وصال ، والذي يعتبر أن الحياة هي اهدف ، فهو يريد أن يحقق لنفسه أكبر قدر من اللذة فيها . أما الذي يعرف أن اهدف ليس هو الحياة ، إنما الحياة مرحلة ، يسأله . ما اهدف إذن ، فيقول : إنه لله الله والأخرة

هذا المؤمن سيكون عمده من أجل هذا اهدف . تكن الضال الذي يرى الدنيا وحده هدفه ولا يؤمن بالجنة أو النار ، هو غارق في صلاله ويقبل على ما تشتهيه نفسه ، ويتبعه عما يتبعه وإن كانت فيه سعاده

ولكن المؤمن يعرف أن اهدف ليس هو لدني ، وأن اهدف في مجال آخر ، لذلك يسعى في تطبيق التكاليف الإيمانية ليصل إلى اهدف ، وهو الخه . إذن ما يقصد سلوك الناس هو جعلهم بالهدف ، وحين يوحى اهدف ، فالإنسان يحاول أن يعرف العمل الذي يقربه من اهدف ، فيفعله ، فهذا هو الخير . أما الذي يبعده عن اهدف ويعمل عكس الموصل إليه فهذا هو الشر .

وإذا كان الأمر كذلك والمسألة هي في تحديد اهدف يجب أن تعلم أن الناس يستقلون الكثير من الأحداث بما يناقض معرفة اهدف ، ومادام اهدف هو أن تذهب إلى الآخرة لتلقى الله فلماذا يفرق في الحزن إنسان لأن له حبيبا قد انتقل إلى رحمة الله ؟

عد الإنسان بإمكانه أن يسأله ، لماذا تحزن وقد قصر الله عليه خطواته إلى هدف ؟ لا بد أنك حزين على نفسك لأنك مستوحش له ، ولأنك كنت تأس به ، أما حزنك من أجله هو ، فلاحزن ، لأنه اقرب من اهدف ووصل إليه

وفي حياتنا اليومية عندما يكون هدف جماعة أن تصل إلى الإسكندرية من القاهرة ، نجد إنسانا ما يذهب إلى الإسكندرية ماشيا ، لأنه لا يجد نقودا أو وسيلة توصله ، وتجده آخر يذهب إليها راكبا حمارا ، وثالثا يذهب إليها راكبا حصانا ، ورابعا يصل إليها راكبا « أتوبيسا » ، وخامسا يصل إليها بركوب الطائرة ، وسادسا يصل إليها مصاروح ، وكل ما حدث هو أن كل واحد في هذه الجماعة قد اقترب من الهدف بالوسيلة التي توافرت به ، وهكذا نجد إنسانا يذهب إلى الله ماشيا في سبعين عاما ، وآخر يستدعيه الله هورا ، فلماذا نحزن عليه ؟

إن لك أن تحزن على الإنسان الذي لم يكن موقفا في خدمة الهدف ، أما الموفق في خدمة الهدف فلما أن صرح له ، ويقول : إن الله قد قصر عليه المسافة ، وأغلبنا إن كان عبده ولد حبيب إلى قلبه وصغير ويعقده فهو يتفرق في الحزن قائلا : إنه لم ير الدنيا ، لهذا الإنسان نقول : يا رجل إن الله جعل لك قصر الخطايا ويتجاوزها وأخذك إلى العاية ، مما الذي يجزئك ؟ إن عليك أن نحس استغفار ما يقضى به الله في خلقه ، ونعرف أنه حكيم ، وأنه رحيم وأن كل شيء منه يجب ألا نعهده خارجا عن الحكمة

وبعد تلك الآيات الكريمة لقي نحدث فيها الحق عن مريم وعيسى عليه السلام قال الحق سبحانه

﴿ فَلَمَّا أَحْسَنَ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي ۚ  
إِلَى اللَّهِ قَالُوا الْخَوَارِيُّونَ يُحِبُّونَ أَنْصَارَ اللَّهِ ؕ أَمَّا بِاللَّهِ  
وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾

لقد ذكر عيسى ابن مريم المضية الجامعة المائعة أولا حين قال .

﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴾

وأوضح عيسى ابن مريم بما لا يقبل الجدل : « أنا معكم سواء في مريريتنا إلى إله واحد ، وأنا لم أحيء لأعنتكم لأن تميرت عنكم بشيء ، فيها يتعلق بالعبادة بحس سواء ، والله رب لي ورب لكم ، والصراط المستقيم هو عادة الله الحق

ونحن سادة نسمع » الصراط المستقيم « إما تتجول على الفور الطرق الموصلة إلى الغاية ، ونعرف جميعاً أنه لا يوجد طريق في الحياة مصنوع لدات الطريق ، إنما الطريق يصنع ليوصل إلى غاية . وساعة نسمع « صراط » إما نعلم على الفور الغاية لنرى أن نصل إليها . والحق سبحانه يقول :

﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ أَتَّقُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

(سورة النمل)

ومادام هناك طريق لغاية ما فلا بد لنا أن نحدد الغاية أولاً ، ونحدد الغاية إنما يهدف إلى إنصاح السبيل أمام الإنسان ليسلك الطريق الموصل إلى تلك الغاية . وهكذا يقول الحق على لسان عيسى بن مريم : « إن الله ربى وربكم فاعبدوه » .

والعبادة هي إطاعة العائد لأمر المعبود ، وهكذا يجب أن نعلم أن العبادة لا تقتصر على إقامة الأركان التعبدية في الدين من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وحضور رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، إن هذه هي أركان الإسلام ولا يستقيم أن يفصل الإنسان المسلم عن ربه بين أوقات الأركان التعبدية ، إن الأركان التعبدية لازمة ، لأنها تشعشع الصاغة للإيمانية للنفس حتى تقبل على العمل الخاص بعبادة الدين ، ويجب أن نعلم أن العبادة في الدنيا هي كل حركة تؤدي إلى إسعاد الناس وعبادة الكون

ويجب أن نعرف أن الأركان التعبدية هي تقسيم مصطلحي وضعه العلماء في العقيدة كجباب العبادات وباب المعاملات ، لكن علينا أن نعرف أن كل شيء يأمر به الله اسمه « عبادة » إذن فالعبادة منها ما يتصل العبد بالمعبود ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالق الكون ، ومنها ما يتصل بعبادة الكون . ولذلك قلت : إنك حينما

تتصل من الله أمرا بعبادة ما ، فانت تتلقاه وانت موصول بأسباب الله بحثا عن الرزق وغير ذلك من أمور الحياة ، ولكل النواصح لذلك هو قول الحق .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا بُدِيَ الصَّلَاةُ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ  
ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١﴾ ﴾

( سورة الجمعة )

إن هذا الأمر بالصلاة الجامعة يوم الجمعة يخرج بالإنسان من أمر البيع ، وهذا الأمر بالصلاة لم يأخذ لإنسان من فراع ، إنما أخذ للإنسان من عمل ، هو البيع . ولو نظرنا إلى دقة الأداء في البيع لوحدناها قمة الأحد المباشر للرزق . إن كلام الله يصل في دقته إلى ما لا يصل إليه كلام بشر . فلم يقل الله مثلا « اتركوا الصنعة » « اتركوا الحرف » ولكن الحق جاء بالبيع هنا لأنه قمة المعية العاجلة

إن الذي يحرق ويذرع ينتظر وقتا قد يطول حتى تصبح الثمار ، لكن الذي يبيع شيئا ، فإنه ينال المنفعة فورا ، لقد جاء الأمر بترك هذه الثمرة العاجلة لأداء صلاة الجمعة ، ويتضمن هذا الأمر برك كل الأمور التي قد تأتي ثمراتها من بعد ذلك لأداء الصلاة .

إن البيع هو التعبير الدقيق لأن المتكلم هو الله ، والحق لم يتكلم هنا مثلا عن الشراء ، لأن الشئ قد يشتري وهو كاره ، لكن البائع يملأ السرور وهو يبيع فقد يذهب رجل لشراء أشياء لبته فيسمع الأذان فيسرع إلى الصلاة ويقول لأهله من بعد ذلك . لقد ذهبت إلى الشراء ، لكن المزدن قد أذن لصلاة الجمعة . ذلك أن الإنسان يجب ألا يدفع مقودا ، لكن البائع يستفيد بقمة المائدة بذلك يخرجنا الحق من قمة « كل الأعمال ونهاية كل الأعمال وهي مبادنة السلع بأهلها » لكن ماذا بعد انقضاء الصلاة ؟

﴿ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْشُرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢﴾ ﴾

( سورة الجمعة )

لقد أخرجنا من الصلاة إلى الحياة بتغنى من فضل الله ، ولذلك يكون الانتشار في الأرض والبحث عن الرزق عبادة .

ولننظر إلى الدقة في قوله الحق : « فانتشروا في الأرض » إن الانتشار يعني أن يتساح البشر ليتظموا في كل حركات الحياة ، وبذلك تعم كل حركة فيها . إن كل حركة في الحياة هي عبادة ، وهكذا يستوعب قوله الحق على لسان عيسى بن مريم : « إن الله دين وربكم فاصدوه هذا صراط مستقيم » ومن بعد ذلك يقول الحق : « فلما أحس عيسى منهم الكفر » لقد حسم عيسى بن مريم أمر العقيدة حين قال : « إن الله دين وربكم » إن في ذلك تحديراً من أن يقول أتباع عيسى أي شيء آخر عن عيسى غير أنه عبادة خاضع لله ، مأمور بالطاعة والعبادة لله . ووضع أمامهم المخرج ، فقال : « هذا صراط مستقيم » .

وقول الحق : « فلما أحس عيسى منهم الكفر » يدل على أن كل صاحب فكرة ، وكل صاحب مهمة ، وكل صاحب هدف لا بد أن يكون بقط الأحاسيس ، لأن صاحب الفكرة وخاصة لذنية يخرج الناس من الظلمات إلى النور

وقد يقول قائل : لماذا يعيش الناس في الظلام ولا يتجهون إلى نور من أول الأمر ؟ وتكون الإجابة : إن هناك أناساً يستعبدون من وجوه جموع الناس في الظلمات ، لذلك يكون بينهم أناس ظالمون وأناس مظلومون ، والظالم الذي يأخذ - احتساباً - خبراً لأخريين ويمرّد في لكون يحاف من رجس الدعوة الذي يتناه عن الظلم ، ويدعوه إلى الهداية إلى منطق العقل ، ومثل هذا الظالم عندما يسمع كلمة المطلق والدعوة إلى الإيمان لا يجب أن تنطق هذه الكلمة ، إنه يكره الكلمة والفائل ها

إن الداعية مأمور من الله بأن يكون بقطاً لأنه إن اعتدى بكلماته أناس وسعدوا بها ، فإنه يعصب أناساً آخرين ، ذلك أن المجتمع العائد بوحده يستعبدون من الفساد ، فالداعية عليه أن يعرف بقطه الحسن ، وبقطه الحسن معناه الالتفات إلى الأحاسيس الحسية الموجودة عند كل إنسان ، ونحن نسمي الأشياء الظاهرة منها الحواس الخمس ، اللمس ، والروية ، والسمع ، والتذوق ، والشم .

إن رجس الدعوة مأمور بأن تعمل كل حواسه حتى يعرف من الذي يحسن ويرتفع

لحظة أن تأتي دعوة الخير ، ومن الذي يطمئن ويحس الراحة لدعوة الخير . إن رجل الدعوة مأمور بدقة اليقظة والإحساس ليحير بين الذي تتغير سمعته لحظة دعوة الخير ، ومن الذي يستبشر ويفرح

وعندما أعلن عيسى ابن مريم منهج الحق ، وجد أنصار الظلم وأنصار الضغنى ، وأنصار الظلمات غير معجبين بالمنهج الواضح للإيمان بالله ، لذلك أحس منهم الكفر لقد كان مليئا باليقظة والانتباه . إنه يعلم أنه قد جاء برسالة من الله ، ليخرج أساسا من مفسدة إلى مصلحة . وعندما أحس منهم الكفر ، أراد أن يتدب جماعة ليعينوه على أمر الدعوة . قال من أنصاري إلى الله ؟

إن الدعوة تحتاج إلى معركة ، والمعركة تحتاج إلى تضحية . ولتضحية تكون بالنفس والنفس ، لذلك لابد أن يستبشر ويحرك من يجد في نفسه العود على هذه المسألة . وهو لم يناد أفرادا محددين ، إنما طرح الدعوة ليأتى الأنصار الذين يستشرفون في أنفسهم القدرة على حمل كواء الدعوة ، ولكون التضحية بإقبال نفس لا استجابة لداع . فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله ، وكلمة « أنصار » هي جمع « نصير » . والنصير هو المعين لك بقوة على نيتك .

وعندما سأل عيسى : « من أنصاري إلى الله ؟ » كانت إلى في السؤال تعبد العاية ، وهي الله ، أي من ينصرون نهرا نصير غايته إلى الله وحده لا إلى أهواء البشر ؟ إنه لا يسأل عن أناس يدخلون في لواء الدعوة عن أجل الغيبة أو يدخلون من أجل الحلا ، أو غير ذلك ، إنه يسأل عن أهل الحرم ليكون كل منهم متجها بصفاته إلى بصرة الله وحده

ومثال ذلك ما دار بين رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وبين رجال من المدينة في أثناء مبايعتهم به في العفة فقد قال لهم رسول الله : « أبايعكم على أن تمتنعوا عما تمنعون فيه نساءكم وأبنائكم » فأخذ الداء بن معرور بيده ثم قال : « نعم ، والذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع منه أزونا ، فبايعوا رسول الله على ذلك فقام أبو الهيثم بن التيهان فقال : يا رسول الله إن بيننا وبين اليهود حبالا ولنا فاطمونها فهل عسيت إن تمنع فملا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ » فبسم رسول الله ثم قال : « بل الدم الدم ، والهدم الهدم أنا منكم وأنتم مني ، أحارب من حاربتم وأسالم من أسلمتم »

أي ذمتي ومنكم وحرمتي حرمتكم<sup>(١)</sup>

أقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنكم مستهلكون الأرض ، وستسودون الدنيا ، أو ستتصرون على أعدائكم ؟ لا . بل قال صلى الله عليه وسلم أيا منكم وأنتم بمنى لماذا ؟ لأنه لو قال لهم ستتصرون على أعدائكم ، فقد يدخلون المعركة ، ويموت واحد منهم ، ولا يرى النصر ، لكن الأمر الذي سيراه كل المؤمنين أن رسول الله منهم وأنهم من رسول الله وما دعوا كذلك فسيدخلون معه الجنة وهي العاية الأصيلية .

وعندما سأل عيسى ابن مريم : من أنصاري إلى الله ، فكأنه كان يسأل : من يعينني معونة غايتها الله ؟ وماذا نأخذ هذا المعنى ؟ تكون الإجابة : أنا أخذ المعنى من قدر دهمي : لأن مرادات الله في كلامه لا تنهاى كملاً ، وقد يأتي غيري ويأخذ منها معنى آخر ومعنى « النصير » : هو « من ينصر بجهد وهوة » . ونظر النصير في الإيمان كيف يأتي ؟ إن الحق سبحانه وتعالى حينئذ تكلم عن النصير في الإيمان قال :

﴿ يَتَّبِعُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَصَّرُوا اللَّهُ يَنصُرْكُمُ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ٥٦ ﴾

( سورة محمد )

لقد فالنصر منا لله بأن نطبق دينه ، وهذا مراد الله ، ولذلك يأتي النصر مرة من المؤمنين لربه ، ومرة من الرب عربويه ، وقد يكون مراد عيسى - عليه السلام - من الذي يتصرف كي ينضم إلى الله في النصر ؟

وبحق هنا أمام معسكرين ، معسكر الإيمان ، ومعسكر الكفر . لقد سأل عيسى : من أنصاري إلى الله ؟ أي أنه يسأل عن الدين بإمكانهم أن يضموا إلى غاية هي الله ، وتتفهم نحن هذا المعنى على صوره ما قاله الحق :

﴿ يَتَّبِعُ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَصَّرُوا اللَّهُ يَنصُرْكُمُ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ٥٦ ﴾

( سورة محمد )

ويعرف أيضاً أن هناك نصراً من المؤمنين لله ، وهناك نصر من الله للمؤمن . وهكذا

يكون سؤال عيسى بن مريم « من أنصاري إلى الله ؟ » قد أفاد المفسرين معاً . وكانت الإجابة . « قال الخواريون نحن أنصار الله ، أما بالله واشهد بأننا مسلمون . » والخراريون مأخوذة من الخور ، وهو شدة البياض ، وهم جماعة أشرقت في وجوههم سبباً للإيمان ، فكانها مشرقة بالنور ونور الوجه لا يقصد به البشرة البيضاء ، ولكن نور الوجه في المؤمن يكون بإشراقه للإيمان في النفس ، ولذلك يصف الحق المؤمنين برسالة رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ يُشَدُّونَ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمًا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُمْ رُكُومًا مُجْتَمِعًا يَتَنَصَرُونَ فَصَلِّ عَلَى الَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِالتَّائِبِينَ مِنَ الْأَشْجَارِ ﴾  
( من الآية ٢٩ سورة الفتح )

فحتى لو كان المؤمن أسرد اللون فمن له سمة على وجهه . كيف ولماذا ؟ لأن الإنسان مكون من أجهزة ، ومكون من دوات ، وكل جهاز في الإنسان له مطلوب محدد . وساعة ان تنجه كل الأجهزة إلى ما أراده الله ، فإن الذي يحدث للإنسان هو انسجام كل أجهزته ، ومادامت الأجهزة مسهجة فإن النفس تكون مرتاحة ، ولكن عندما تتضارب مطلوبات الأجهزة ، تكون السحنة مكشجرة

عندما قال عيسى : « من أنصاري إلى الله » سمع الاستجابة من الخواريين ، والخراريون قوم لهم إشرقات انسجام النفس مع الإيمان ، أو هم قوم يقض المعاني ، أي أن معانيهم بيضاء ومشرقة . والبي صلى الله عليه وسلم سمى بعضاً من صحبته حوارى رسول الله ، وهم الذين جعلهم رسول الله معه طوال الوقت .

وحين قال الخواريون : « نحن أنصار الله » كان ذلك يعنى أن كل إنسان منهم يريد نصرته الله . فينضم إلى الله ناصراً للمنتج ، وهذا يتطلب أن يعرف كل منهم المنتج . ونحن نعرف مقومات النصرته لله . إنه الإيمان . وما الإيمان ؟ به اطمئنان القلب إلى قضية ما ، هذا هو الإيمان في عموميه . فلولم أكن مؤمناً بأن الطريق الذي أسير فيه موصول إلى غاية مطلوبة لي لما سرت فيه

مثال ذلك المسافر من القاهرة إلى دمياط لو لم يعتقد صحة الطريق لما سلك هذا الطريق . وإن لم اعتقد أنه إن لم لداكر دروسى سوف أرسب لما ذاكرت . إذن فكل امر



في الدنيا يتم بناؤه على الإيمان ، لكن إذا أحلق الإيمان بالحق الخاص ، فهو اطمئنان القلب إلى قمة الفصايا ، وهي الإيمان بالله ، وبذلك فأسلحة النصر إلى الله هي إسلام كل جوارح الإنسان إلى الله . ولذلك قال الخواريون : « نحن أنصار الله آمنّا بالله واشهد بأننا مسلمون »

لماذا يشهد الرسول لهم ؟ لأن المفروض في الرسول أن يبلغ انقوم عن الله ، فيشهد عليهم كما قال الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَفِي هَذَا لَيَكُونَنَّ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِمُْوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴾

( من الآية ٧٨ سورة الحج )

ول أن يلحظ أن الحق أورد على لسانهم - الخواريين - الإيمان أولاً ، لأنه أمر عيسى عقدي في القلب ، وجاء من بعد ذلك عن لسان الخواريين طلب اشهادة بالإسلام ، لأن الإسلام مخصوص لمطلوبات الإيمان وأحكامه . إن قولهم « واشهد بأننا مسلمون » هو أيضا طلب منهم يسألونه لعيسى ابن مريم أن يعلمهم كل مطلوبات الإسلام قل لنا افعلو كذا ولا تفعلوا كذا إسم قالوا : « آمنا » وما داموا قد أعلنوا الإيمان بالله ، فهم آمنوا بمن يعلمهم عن الله ، والمطلوب من عيسى ابن مريم أن يشهد بأنهم مسلمون ، ولا تتم الشهادة إلا بعد أن يعلمهم كل الأحكام وقد يعلمهم ذلك وعملوا به وقالوا من بعد ذلك :

﴿ رَمَاءَ أَمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾

هذه تكون إعلانهم للإيمان ، يعني إيمانهم بتشريعات رسالة سابقة ، لا ، إن الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند الله ، لأن كل رسول جاء بشيء من الله ، فورا

يحيى ، رسول جديد أمر يريد الله إبلاغه للناس ، ونحن نعلم أن العقائد لا تعبر فيها ، وكذلك الأخيار ، وكذلك القصص ، ولكن الأحكام هي التي تعبر فكان إعلان الخواريين هو إعلان بالإيمان بما جاء سابقا على عيسى ابن مريم من عقائد وبما جاء به عيسى ابن مريم من أحكام ونشريعات

وقولهم « ربما أما بما أزلت » كلمة « بما أزلت » تدل على مذهب مرسل من أهل إلى آدم ، ونحن حين نأخذ الشريعة فنحن تأخذه من أعلى . وبذلك فله سابقا - إن الله حينما يبدى من أمر به ليتبع مذهب الإيمان يقول « تعالوا ، أي ارتدعوا إلى مستوى التلقى من الإله وحلوا منه المنهج ولا تظنوا في حصيص الأرض ، أي لا تتبعوا أهواء بعضكم وآراء بعضكم أو تشريع بعضكم ، وما دام المؤمن يريد العلو في الإيمان ، فليذهب سلوكه في الأرض إلى مذهب السواء

وقولهم « ربما أما بما أزلت واتبعنا الرسول » . إن المنهج عادة يقتض عن اتبعه أولا ، حتى يكون الانواع صادرا من قيم النفس لا من الإرغام فهرا أو قسرا ، ونحن قد نجد إنسان يرغم إنسانا آخر على السير معه ، وهذا لا يقال عن المرغم . إنه « اسع » إنما الذي يتبع ، أي الذي يسير في نفس طريق صاحبه يكون ذلك بمحض إرادته وعرض اختياره . فلو سار شخص في طريق شخص آخر بالقهر أو القسر لكان ذلك الاتباع بالقالب ، لا بالقلب . وبذلك فمن الممكن لتجبر أن يمسك سوطا ويقهر مستصعبا عن السير معه ، وفي ذلك إخضاع لقلب المستصعب ، لكنه لم يخصص قلبه ، فالإكراه يخصص القلب لكنه لا يخصص القلب

﴿ لَعَلَّكَ نَجَّعَ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ إِنَّ نَاشِئُونَ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةٌ فَعَلَّكَ آعَنَهُمْ فَآ خَصِمِينَ ﴾

( سورة الشعراء )

إن الحق يضر رسوله أن أحد من العباد . لا يستعصى على حالقه ، وأنه سبحانه القادر على الإحياء والإماتة ، ولو أراد الله أن ينزل آية تخضع أعناق كل العباد لعقل . لكن الحق لا يريد أصناف الناس ، ولكنه يطلب القلوب التي تأتي طواعية وبالاختيار ، وأن يأتي العبد إلى الإيمان وهو قادر ألا يحيى . هذه هي العظمة

الإيمانية . وقال الحواريون بعد إعلامهم بالإيمان بما جاء به عيسى : «فاكتبنا مع الشاهدين » إنه الطلب الإيماني العالي الرغبي ، الفاعل لهم يحملون أمانة التبليغ عن الرسول ، ويشهدون كما يشهد الرسل لأهمهم ، ويطلبون أن يكتبهم الله مع الذين يشهدون أن الرسل يملعون رسالات الله وأهم يحملونها من بعدهم ؛ ولذلك قلنا عن أمة محمد عليه الصلاة والسلام إنها الأمة التي حملها الله مهمة رسل بلاغ الرسالة المحمدية إلى أن تقوم الساعة ماذا ؟ ماهو ذا القول الحق

﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا حَصَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ  
مِنَ اللَّهِ أَبَركُمْ إِلَهُه ۚ هُوَ يَخْتَارُ الْمُتَّبِعِينَ مِنْ قَبْلُ وَيَوْمَ هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ ثَمِينًا  
عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا  
بِأَلْفِهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾

(سورة الحج)

ولذلك قلنا بأن أنبياء أو رسل من بعد أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، لقد اثنى الله أمة محمد ، بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، بذلك فلا مبررة من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد ذلك يجبرنا الحق .

﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴿٥٠﴾﴾

إن الأشياء التي يدركها العقل هي مسميات ولها أسماء وتكون أولا بالحق ، لأن الحق هو أول مصاحب للإنسان لإدراك الأشياء ، وبعد ذلك تأتي المعاني عندما تكبر وتعرف الحقائق . إن البداية دائما تكون هي الأمور المحسوسة ، ولذلك يقول الله عن المنهج الإيماني : إنه طريق مستقيم ، أي أن يعرف الغاية والطريق للوصول إليها

وكلمة « الطريق المستقيم » من الأمور المحسنة والتي يتعرف الناس عليها بالتطبيق لقواعد المنهج .

إن كلمة « مكر » ، مأخوذة من الشجر ، فإذ أن يرى لشجره لقي لا تلبس أغصانها على بعضها فإن الإنسان يستطيع أن يحكم أن ورقة ما ، هي من فرع ما . ولكن هناك نوع من الأشجار تكون فروعه ملتصقة عن بعضها بحيث لا يستطيع الإنسان أن يعرف أي ورقة من أي فرع هي ، ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « المكر » . فالرجل الذي يلبس ويدور ، هو الذي يمكر ، فالذي يلبس على إنسان من أجل أن يستخلص منه حقيقة ما ، والذي يحتال من أجل إبراز حقيقة ما ، فإن كان ذلك بغير قصد الصرر نسميه حيلة ، وإن كان بقصد الصرر فهذا هو المكر السيئ . وبذلك فالحق يقول :

﴿ وَمَكْرُ السَّيِّئِ لَا يَحِثُّ أَلَمَكُ السَّيِّئِ إِلَّا يَأْمُرُ بِهِمْ فَعَلٌ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأُولَىٰ هَٰذَا هِيَ سُنَّتُ اللَّهِ لَا يَجِدُ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَدْوِيلًا وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

( من الآية ٢٣ سورة النمل )

ومعنى ذلك أن هؤلاء مكرأ غير سيئ ، أي أن المكر الذي لا يقصد منه إيقاع الضرر بأحد ، وإنما نسميه مكر خبير ، أم المكر الذي يقصد منه إيقاع الضرر فهو المكر السيئ . ولما أن سأل : ما الذي يدع إنسانا ما إلى المكر ؟ إن الذي يمكر يدأري نواياه ، فقد يظهر لك الحب سنا هو مغص ، ويريد أن يرين لك عملا ليحكم بك ، فيحاول مثلا أن يصحبك إلى مكان بعيد غير مأهول بالناس ويريد أن يوقع بث أبلغ الضرر ، وقد يكون القتل

إذن ، فمن أسس المكر التبييت ، والتبييت يحتاج إلى حكمة وخبرة ، لأن الذي يحاول التبييت قد يجد قبالة من يلتفت غيبا التبييت بالخدس والتعمين ، ومادام المكر يحتاج إلى التبييت ، فإن ذلك علامة على الضعف في البشر لأن القوى لا يكر ولا يكيد ولكن يواجهه .

إن القوى لحطة أن يمسك بخصم ضعيف ، فمن الممكن أن يطلقه ، لأن القوى مطمئن إلى أن قوته تستطيع أن تؤذى هذا الضعيف . لكن الضعيف حين يمسك قويا ، فإنه يعتبر الأمر فرصة لن يتكرر ، ولذلك فاشاعر يقول

وضعيفة فإذا أصابت فرصة قتلت  
كذلك قسرة الضعفاء

إن الضعيف هو الذي يكر ويبت والذى يكر قد يضع في اعتباره أن خصمه أقوى منه حيلة وأرجع عقلا ، وقد ينكل به كثيرا ، لذلك يحس الماكر أمر مكره أو بهيته . فإذا ما أراد حصوم المنهج الإيمان أن يمحروا ، فعلى من يمحرون ؟ إن الرسول لا يكون في المعركة بمفرده ولكن معه الله

﴿ يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالدِّينَ أَمْرًا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ (١)

( سورة البقرة )

قل الله يعلم ما يبيت أى إنسان ، ولذلك فعندما يريد الله أن يبرز شيئا ويوجهه فليس يستطيع أحد أن يواجه إرادة الله وأمره ، إذن فمكر الله لا قبل لأحد لمواجهته .

﴿ وَمَكْرُؤًا وَمَكْرًا اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ ﴾ (٢)

( سورة آل عمران )

وساعة نجد صفة مستبعد أن يوصف بها الله فاعلم أنها جاءت للمشاكلة فقط وليست من أسماء الله الحسنى . إن المؤمنين يسمونهم أن يقولوا للمكافرين : إنكم إن أردتم أن تبتروا لنا ، فإن الله قادر على أن يقبل المكر عليكم . أما أسماء الله وصفاته فهي توقفية ، نزل بها جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكن إذا وجد فعل لله لا يصح أن يشتق نحن منه وصفا ونجعله اسما لله ، لا ومكرو ومكر الله والله خير الماكرين ، فليس من أسماء الله محادع ، أو ماطر ، إياك أن تقول ذلك ، لأن أسماء الله وصفاته توقيفية وجاء القلوب هنا بمكر الله كعقائل لمعل من البشر ، ليدلم على أنهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله ، ولا يستطيعون أن يمحروا بالله ، لأن الله إذا أراد أن يكر بهم ، فهم لا يستطيعون مواجهة ذلك . إن الحق يقول

« ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين »

إذن فهناك « مكر خبير » . . وذلك دليل على أن هناك من يصنع المكر ليؤدي إلى الخير . ولماذا تأتي هذه الآية هنا ؟ لأن هناك معركة سيدخلها عيسى ابن مريم عليه السلام ، وعيسى عليه السلام لم يجهز ليقاتل بالسيف ليحمي العقيدة ، إنما جاء واعظا ليدل الناس على العقيدة ، إن الصرة لا تكون بالسيف فقط ، ولكن بالحجة . ونحن نعرف أن السماء كانت لا تطلب من أي رسول أن يجازي في سبيل العقيدة لأن السماء هي التي كانت تتولى التأديب .

﴿ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ مِّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّبَاحَةُ وَمِنْهُمْ مَّنْ خَسَفَ بِهِ الْأَرْضُ وَمِنْهُمْ مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ١٠١ ﴾

( سورة العنكبوت )

ولم يجهز قتال إلا حينما طلب بنو إسرائيل .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ مَنبُتٍ إِسْرَءِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَجْرِ لَهُمْ رَبَّنَا أَنفِقْ لَنَا مَلِكًا نَّقْتَلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ مَلَّ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا لَا نُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْيَاسًا قُلْتُ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ تَرْتَلُونَ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ الْغُطَّلِينَ ١٠٢ ﴾

( سورة البقرة )

ولكن أمة محمد صل الله عليه وسلم هي التي أدن الله لها أن تحمل السيف لتؤدب به الذين يحولون دون بلوغ العقيدة الصحيحة للناس . إن السيف لم يأت ليعرض العقيدة ، إنما ليحمي الاختيار في النفس الإنسانية ، فبدلاً من أن يترك الناس

مفهورين على اعتناق عقيدة خاطئة فالمسلمون يرفعون السيف في وجه الظالم الظاهر  
لعباد الله وعباد الله لهم أن يختاروا عقيدتهم

ولذلك عندما يقول أعداء الإسلام : « إن الإسلام انتشر بالسيف » . مرد  
عليهم : إن الله قد بدأ الإسلام بصعف حتى يفظ هذا لاثام ، لقد كان المسلمون  
الأوائل ضعفاء لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم ، فنتجهم بعضهم إلى الحبشة ،  
ويهاجرون بحثا عن الحياة ، فلو كان الإسلام قد انتشر بالسيف فلما أن نسال : من  
الذي حمل أول سيف ليكره أول مؤمن ؟ إن المؤمنين رضوا الإسلام ديناً وهم في غاية  
الضعف ومنهاله إن الإسلام قد بدأ واستمر ومارل بحيا بقوة الإيمان

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء في أمه أمية ، ومن قبيلة لها شوكتها ،  
وشاء الحق ألا ينصر الله دينه بإسلام أنبياء قريش أولا ، بل آمن بالرسول صلى الله  
عليه وسلم الضعفاء وخاص رسول الله صلى الله عليه وسلم رحلة الدعوة  
الإيمانية مدة ثلاثة عشر عاما ، دعوة للإيمان بالله ، ثم هاجر رسول الله إلى المدينة ،  
إلى أن صار كل المسلمين وحدة إيمانية قوية ، وارتفع السيف لا يفرض العقيدة ،  
وبكن ليحمي حرية اختيار الناس للعقيدة الصحيحة ولو أن الإسلام انتشر  
بالسيف فكيف نمر وجود أبناء لديانات أخرى في البلاد اسلمة ؟ لقد أتاح  
الإسلام فرصة اختيار العقيدة لكل إنسان .

إذن فكل مسلم يمثل وحدة إيمانية مستقلة ، وواجب كل مسلم أن يعرف أن  
الإسلام قد انتشر بالأسوة احسنة ، وأنه كمؤمن بالله وبدين الله ، قد اصطفا الله  
لطبق السلوك الإيماني ، فقد مكن الله للإسلام في الأرض بالسلوك والقدرة .

إن كل مسلم عليه واجب ألا يترك في سلوكه ثغرة يغتد منها خصوم الإسلام إلى  
الإسلام ، ذلك أن احتلال نورى سلوك لمسلم بالنسبة لمهج الله هو ثغرة يغتد منها  
خصوم الإسلام ، ولذلك فالمعكروى في الأديان الأخرى حيسا يذهبون إلى الإسلام ،  
ويقتنعون به ، إنما يقتنعون بالإسلام لأنه صريح حق . إنهم يحصونه بأعجل ،  
ويبتدون إليه بالعطرة الإيمانية . أما الدين يريدون الطعن في الإسلام ، فهم ينظرون  
إلى سلوك بعض من المسلمين ، فيجدون فيه من الثغرات ما يتهمون به الإسلام .

إن المكربين المصنفين يفرقون ذاتيا بين العقيدة ، و تمتع العقيدة ، ولذلك فأعلب المكربين الذين يتبعون هذا الاتجاه ، يلجأون إلى الإسلام ويؤمنون به . ولكن الذين يذهبون إلى الإسلام من جهة أتباعه ، فإن صادعوا تابعا للإسلام ملتزما دعاهم ذلك إلى أن يؤسوا بالإسلام ، ولذلك كانت الجمهرة الكثيرة الوفيرة في البلاد الإسلامية المعاصرة في بلاد لم يدخلها فتح إسلامي ، وإنما دخلتها الأسوة الإسلامية في أفراد تابعين ملتزمين ، فراق الناس ما عليه هؤلاء المسلمون من حياة و رعة ، ومن تصرفات مستقيمة جميلة ، ومن أسلوب تعامل سمح أمين ، نزيه ، نظيف ، كل ذلك لغت جمهرة الناس إلى الإسلام ، وجعلهم يتساءلون . ما الذي جعلكم على هذا السلوك الطيب ؟ قنوا : لأنا مسلمون . وتساءل الناس في تلك المجموعات : وما معنى الإسلام ؟ وبدأ المسلمون يشرحون لهم الإسلام

إذن ، فالذي لغت إلى الإسلام هو السلوك المبهج الملتزم . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حين يعرض صبح الدعوة الشاححة يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ (سورة فصلت)

والدعوة إلى الله تكون باللسان والعمل الصالح ، لئلا المؤمن عن أن ما يدعو إليه غيره قد وحده مفيدا فالترمه هو ، فالعمل الصالح هو شهادة للدعوة باللسان . ولا يكتفى المؤمن بذلك ، إى يعلن ويقول : إى من المسلمين ، يقول ذلك لمن ؟ يقوله لمن يرويه على السلوك السصح ارمى الطيب . إىما لغتة من ذاته إلى ديه .

إن هذا يفسر لنا كيف انتشر الإسلام بوساطة جماعة من التجار الذين كانوا يذهبون إلى كثير من البلاد ، وتعاملوا مع اناس بأدب الإسلام ، وبوقار الإسلام ، وبورع الإسلام ، عصار سلوكهم الملتزم لافقت ، وعندما يسأهم الفوم عن السر في سلوكهم الملتزم ، يقول الإنسان منهم : أنا لم أحرء بذلك من عندى ولكن من اتباعى لدين الله الإسلام .

ومثال ذلك في السلوك الأسوة : المسلمون الأرائل من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم لقد كان صحابته رضوان الله عليهم يحذون عليه من خصومه ، فكانوا



يتناوبون حراسته ، ومعنى تناوب الحراس أنهم أرادوا أن يكونوا المصد للخطر يتدارلون ذلك فيما بينهم . وأراد الحق سبحانه أن يهاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة خفية ، ونام على بن أبي طالب رضى الله عنه وأرضاه مكان الرسول صلى الله عليه وسلم . لقد أراد على - بكرم الله وجهه - أن يكون هو المصد ، فإذا جاء خطر فإنه هو الذى يصد.

لا شك أنه كان يعمل ذلك لأنه رآه أن بقاء الرسول صلى الله عليه وسلم خير للإسلام حتى ولو افتده برحمة . هذا هو انتقامى العالى من صحابه رسول الله صلى الله عليه وسلم . كان الواحد منهم يحب الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الأسوة بالرسول واتباع دين الله إنما يعود ذلك عليه بالخير العجم . وعندما يموت واحد منهم فى سبيل المحافظة على من أرسله الله رسولا ليبلغ دعوته بقدر نال الشهادة فى سبيل الله .

هذا هو أمر بكر الصديق رضوان الله عليه مع رسول الله فى العار . ألم يجد الصديق شقوقه فيخرج من ثيابه ليمسح الشقوق ؟ ألم يصع قدمه فى شق لأنه يخشى أن نجىء حشرة من الحشرات قد تؤذى حصره التى صلى الله عليه وسلم ؟ لقد أراد أن يحافظ على الرسول صلى الله عليه وسلم حتى ولو افتداه ، وهذه شهادة بأن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم آمنوا بأن بقاء الرسول خير لهم وللإيمان ولأنفسهم من قائلهم هم أنفسهم .

وهكذا أراد الله بصرة رسوله على الكفار ، عندما مكروا ويترأ أن يخلوه قتل لهجرة ، وهكذا أراد الله بصرة رسوله صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة عندما واجه أعداء الإسلام فى القتال ، لقد مكروا ، ولكن الله خير الماكرين .

وكان الحق سبحانه وتعالى يقول بهذا النص من الله : من تستطيعوا أن تفلحوا عمدا لا بالوانجة ولا بالتبصير . وما هوذا تابع من أتباعه صلى الله عليه وسلم هو سيدنا عمر رضى الله عنه يهاجر عنا ، ويقول : من أراد أن تكله أمه ، أو ترمل روحته ، أو يئتم ولده ، فليلقى وراء هذا الوادى بيني هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم خفية .

لماذا ؟ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة للضعيف ، إن القوى يستطيع حماية نفسه ويخرج إلى المحرقة مجاهداً ، أما الضعيف فلا بد أن يهاجر خفية ، لذلك فالأسوة للضعيف كانت في رسول الله صلى الله عليه وسلم . لقد مكر أعداء الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولكن الله مكرهم

﴿ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ يُتَوَلَّىٰ مَتَّٰلِجًا ۝٤٥ ﴾

( سورة إبراهيم )

إن مكرهم رغم عنقه وشدة والذي قد يؤدي إلى زوال الجبال ، هذا المكر يور عند مواجهته لمكر الله الذي يحسم رسله وعباد الصالحين . لقد جاء مكر بني إسرائيل وأثروا فيه الله قوله الحكيم . « ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين » لأنهم أرادوا أن يتخلصوا من سيدتنا عيسى ابن مريم عليه السلام . فقال الحق سبحانه .

﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْكُرْ وَرَافِعُكَ إِلَىٰ  
وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ  
اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَىٰ  
مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ  
تَخْتَلِفُونَ ۝٤٥﴾

لقد جاء الحق سبحانه بعد عرصة لمسألة المكر هذا القول الحكيم ، وذلك دليل على أن عيسى عليه السلام أحسن من بني إسرائيل الكفر ، والتبعية ، ومؤامرة للقتل . فطمأن الله عيسى إلى نهاية المعركة . « إن متويعك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفرو وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة » إنها أربعة موافق ، أرادها الله لعيسى ابن مريم عليه السلام

ونريد أن نقف الآن عند كلمة قول الحق : « متوفيك » . نحن غالباً ما نأخذ معنى بعض اللفاظ من الغالب الشائع ، ثم نموت المعاني الأخرى في اللفظ ويزوج المعنى الشائع فنفهم المقصد من اللفظ . إن كلمة « التوفى » تفهمها على أنها الموت ، ولكن علينا هنا أن نرجع إلى أصل استعمال اللفظة ، فإنه قد يطلب معنى على لفظ ، وهذا اللفظ موضوع لمعان متعددة ، يأخذ واحد ليضعه خاصاً بواحد من هذه . إن كلمة « التوفى » قد يأخذها واحداً بمعنى « الوفاة » وهو الموت ، ولكن ، ألم يكن ذلك الذى قال : « إن متوفيك » ؟ وهو القائل في القرآن الكريم :

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٥١ ﴾

( سورة الأنعام )

إذن « يتوفاكم » هنا بأي معنى ؟ ، بمعنى يومكم . فالنوم معنى من معاني التوفى . ألم يقل الحق في كتابه أيضاً الذى قال فيه : « إن متوفيك »

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَبِئْسَ الْكُفَىٰ قُضَىٰ عَلَيْهَا ٥٢ أَلَمْ نَقُذِّرْ لِلْآخِرَةِ عَلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ٥٣ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ٥٤ ﴾

( سورة الزمر )

لقد سمى الحق النوم موتاً أيضاً . هذا من ناحية منطق القرآن ، إن منطق لقرآن الكريم بيننا أن كلمة « التوفى » ليس معناها هو الموت فقط ولكن لها معان أخرى ، إلا أنه على اللفظ عند المستعملين للغة على معنى فاستغل اللفظ عندهم بهذا المعنى ، فإذا ما أطلق اللفظ على هؤلاء لا يصرف إلا لهذا المعنى ، وهؤلاء يقول : لا ، لا ، لا ، بل قد صدق جيداً في اللفظ ولماذا جاء ؟

وقد يقول قائل . ولماذا يختار الله اللفظ هكذا ؟ والإجابة هي : لأن الأشياء التى قد ينفذ فيها العقل لا تؤثر في الأحكام المطلوبة ويأتى فيها الله بأسلوب يحتمل هذا ،

ويحتمل ذلك ، حتى لا يقف أحد في أمر لا يستأهل وقفة . فإلدي يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رفع الله إلى السماء ما الذي راد عليه من أحكام دينه ؟ ولدي لا يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رفع ، ما الذي يقص عليه من أحكام دينه ، إن هذه القضية لا تؤثر في الأحكام المطلوبة للدين ، لكن العقل قد يقف فيها ؟ ويقول قائل كيف يصعد إلى السماء ؟ ويقول آخر . لقد نوحاه الله . وليعتقدها أي إنسان كما يريد لأنها لا تؤثر في الأحكام المطلوبة للدين

إذن ، فالأشياء التي لا تؤثر في الحكم المطلوب من الخلق يأتي بها الله بكلام مجمل المهم على أكثر من وجه حتى لا يترك العقل في حيرة أمام مسأله لا تنصر ولا تنسج وعرفنا الآن أن « تنوي » تأتي من الوفاة بمعنى لنوم من قوله سبحانه

﴿ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقَاسَى أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

( سورة الأنعام )

ومن قوله سبحانه وتعالى

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَاسِكِهَا فَمَتِّعُ الْبَاقِيَا أَلْعَمَوتَ وَيَرْسِلُ الْأَحْيَاءَ إِلَى الْأَحْيَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

( سورة الزمر )

إن الحق سبحانه قد سمى النوم موتاً لأن النوم عيب عن حسن الحياة والدعة العربية توضح ذلك ، هانت تقول - عني سيب الكل - لمن أقربت مبلغاً من المال ، ويطلب منك أن تتناول عن بعضه لا ، لا بد أن استوي مالي ، وعندما يعطيت كل مالك ، تقول له : استويت مالي تماماً ، فتويت ، أي أنك أخذته تمامه

إذن ، معنى « تنوبك » قد يكون هو أخذك الشيء ، تماماً . أقول ذلك حتى يعرف

الفرق بين الموت والقتل ، كلاهما ينتمى فى أنه سبب للحياة ، وكلمة « سلب الحياة » قد تكون مرة بنقص النية ، كضرب واحد لأخر على جمجمته فيقتله ، هذا لكون من سلب الحياة ، ويكن بنقص النية أما الموت فلا يكون بنقص النية ، إنما يأخذ الله لروح ، ونقص النية كمى هى ، ولذلك فرق الله فى قرآنه الحكيم بين « موت » و « قتل » وإن اتحدا معا فى إزهاق الحياة

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَسْلُبْ عَلَى عَهْدِهِ فَعَلَىٰ يَعْقِبِهِ ۚ فَلَئِنْ يُبْصِرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١١١﴾ ﴾

( سورة آل عمران )

إن الموت والقتل يؤدى كل منهما إلى انتهاء الحياة ، لكن القتل يمس الحياة بنقص نية، ولذلك يقدر بعض البشر على البشر فيقتلون بعضهم بعضا لكن لا أحد يستطيع أن يقول : « أنا أريد أن يموت فلان » ، فملوب هو ما يجزيه الله على عبادته من سلب للحياة برع الروح إن البشر يقدرون على السب بالقتل ، ونسبة ليست هى التى تنزع الروح ، ويكن الروح تحل فى اداة متحيا ، وعندما ينزعها الله من المادة تموت وترم أى نصير رمة

إذن ، فالقتل إنما هو إحلال بالمواصفات الخاصة لتي رادها الله لوجود الروح فى المادة ، كسلامة المسح أو القلب هذا احتل شئ من هذه المواصفات الخاصة الأساسية فالروح تقول : « أنا لا أسكن هاهنا » إن الروح إذا ما انتزعت ، فلاها لا تريد أن تنتزع لآى سب ولكن النية لا تصلح لسكنها وضرب مثل والله الخلل الأعلى

إن الكهرباء التى فى المثل بسم تركيبها ، وتعرف وجود الكهرباء بالمصباح الذى يصدر منه الضوء إن المصباح لم يأت بالور ، لأن الور لا يظهر إلا فى سبه هذه المواصفات بدليل أن المصباح عندما يكسر تطل الكهرباء موجودة ، ولكن الضوء يذهب وكذلك الروح بالنسبة لجسد إن الروح لا توجد إلا فى جسد به مواصفات خاصة وأهم هذه المواصفات الخاصة أن تكون خلايا النية متناسبة ، فإن توقف القلب ، فمن الممكن تديكته قبل مرور سبع ثوان على التوقف ، لكن إن

صليت حلأيا ملح ، فكل شيء ينتهي لأن المواصفات احدثت

إذن ، فالروح لا تحل إلا في سبة لها مواصفات خاصة ، وانقل وسيلة أساسية  
لهدم السبة ، وإذهاب الحياة ، لكن الموت هو إزهاق الحياة بغير هدم السبة ،  
ولا يقدر على ذلك إلا الله سبحانه وتعالى ولكن خلق الله يقدر على السبة ، لأنها  
مادة ولذلك يستطيعون تخريبها

إذن ، « متوفيك » تعني مرة تمام الشيء ، « كاستيما المأل » وتعني مرة  
« اسوم » وحين يقول الحق : « إلى متوفيك » ماذا يعني ذلك ؟ إنه سبحانه يريد أن  
يقول : أريدك تماما ، أي أن خلقي لا يقدر على هدم سبتك ، إن طالك إلى  
تام ، لأنك في الأرض عرصنة لأغيار الشر من البشر ، لكني سأأتيك في مكان  
تكون حالصا لي وحدي ، لقد أخذتك من البشر تماما ، ومعنى « تاما » ، أي أن  
الروح في حسبك بكل مواصفاته ، فليس يقدر على هدم المادة لن يتمكنوا  
منه .

إذن ، يقول الحق : « وراعتك إلى » هذا القول الحكيم يأتي مستقيم مع قول  
الحق : « متوفيك » . وقد يقول قائل : ماد نأخذ الوفاة بهذا المعنى ؟ يقول : إن  
الحق بجلال قدرته كان قادر على أن يقول : إلى رعتك إلى ثم أتواك بعد ذلك .  
ويقول أيضا من الذي قال : إن « الراو » تقتضي الترتيب في الحدث ؟ ألم يقل الحق  
سبحانه :

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذْرِي ﴾

( سورة النمر )

هل جاء العذاب قبل النذر أو بعدها ؟ إن العذاب إنما يكون من بعد النذر . إن  
« الراو » تعيد الجمع لسحذين فقط . ألم يقل الله في كتابه أيضا

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَآدَمُ وَنُوحٌ وَإِسْرَافِيلُ وَمُوسَى وَهَارُونَ ﴾

﴿ وَآخِذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴾

( سورة الأعراف )

إن « الواو » لا تفتحي ترتيب الأحداث ، فعل فرض أنك قد أخذت « متوفيك » أي « محبتك » ، فمن الذي قال . إن « الواو » تقتضي الترتيب في الحدث ؟ بمعنى أن الحي يتوفى عيسى ثم يرفعه . فإذا قال قائل : ولماذا جاءت « متوفيك » أولا ؟ نرد على ذلك . لأن البعض قد يظن أن الرفع نيرة من الموت . ولكن عيسى سيموت قطعاً ، فالموت صربة لأرب . ومسألة هو بها كل الشر هذا الكلام من ناحية النص انقضى . فإذا ما ذهبنا إلى الحديث وجدنا أن الله فرض رسوله صلى الله عليه وسلم بشرح ويبين ، ألم يقل الحق

﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

( من الآية ١٤ سورة النحل )

فالحديث كما رواه البخاري ومسلم : ( كتب الله إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم ) ؟

أي أن النبي صلى الله عليه وسلم بين لنا أن ابن مريم سيرل مرة أخرى ونقف الآن وقفة عقلية لمواجه العقلايين الذين يحاولون إشاعة التعبد في الدنيا فنقول . يا عقلائيون أفلستم في بداية عيسى أن يوجد من غير أب عن غير طريقة الخلق في الإيجاد والميلاد ؟ سيفولون نعم ها نفور إذا كنتم قد قبلتم بداية مولده بشيء عجيب حارق للنواميس فكيف تقبلون في نهاية حياته إن كانت حارقة للنواميس ؟ إن الذي جعلكم تقبلون العجبة الأولى يهد لكم أن تقبلوا العجبة الثانية إن اتفق سبحانه يقول

﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذِّمَّةِ كَفَرُوا رَجَعُوا إِلَى الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوَقَّ

الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَيَّ يَوْمَ النِّعْمَةِ ﴾

( من الآية ٥٥ سورة آل عمران )

إنه سبحانه يرفع عيسى إلى ساحدك تماماً غير مقدور عليك من الشر ومطهرك من حيث هؤلاء الكافرين وبجاستهم ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم النقيامة . وكلمة « اتبع » تدل على أن هناك « متبعاً » يلو متبعاً . أي أن المتبع هو

الذي يأتي بعد ، فمن الذي جاء من بعد عيسى بفتح من السماء ؟ إنه محمد صلى الله عليه وسلم . ولكن على أي مذهب يكون الدين اتبعوك ؟ أهل المذهب الذي جازوا به أم المذهب الذي بدعت أنت يا عيسى ؟ إن الذي يتبعك عن غير المذهب الذي بدعت له لن يكون تبعاً لك ، ولكن الذي يأتي ليصحح الرضخ على المذهب الصحيح فهو الذي اتبعك . وقد جاء محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصحح الوضع ويبلغ المذهب كما أراد الله . وجاعل الدين اتبعوك فوق الدين كفروا إلى يوم القيمة . فإن أئمتنا المعنى بهذا ؟ فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي التي اتبعت مذهب الله الذي جاء به الرسل جميعاً ، ونزل به عيسى أيضاً ، وأن أمة محمد قد صححت كثيراً من المصائب التي انحرف بها النجوم . فنقول ليس المراد هنا من « هرق » العدة والتصر ، ولكننا نريد من « هرق » الحجة والبرهان . وذلك إما يحدث في حالة وجود قوم منصفين عقلاء يبرهنون الأمور بحججها وأدلتها وهم لن يجدوا إلا قضية الإسلام وعقيدة الإسلام

إدراك ، فالنوعية هي غومية ظهور دليل وقوة برهان . ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَلَكِنَّ كَثِيرًا

مُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾﴾

( سورة التوبة )

وفي موقع آخر من القرآن الكريم ، يؤكد الحق ظهور الإسلام عن كافة الأديان وهو الشاهد على ذلك

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ۚ وَكُنِيَ بِاللهِ

شَيْدًا ﴿٣٣﴾﴾

( سورة الفتح )

ومعنى ذلك أن الله قد أراد للإسلام أن يظهر على كل الأديان . فقد يقول قائل إن في العالم أدياناً كثيرة ، ولم يظهر عليها الإسلام ، والموجهون من المسلمين في العالم الآن مليار وأصناف ذلك من البشر عن ديانات أخرى . نقول نحن هذا القائل إن



الله أراد للإسلام أن يظهره إظهار حجة ، لا من قبلكم أنتم فقط ولكن من قبلكم هم كذلك . والناس دائما حين يجمعون ليشرعوا القوانين وليحددوا مصالح معصهم بعضا ، يملحواون أحبا إلى الإسلام . فليظر إلى من يشرع من حسن تشريع الأرض ولنسال أرايت تشريعا أرضيا ظل عن حالة ؟ لا ، إن التشريع الأرضي يتم تعديله دائما .

فاما ؟ لأن الذي وضع التشريع الأول لم يكن له من العلم ما يبدله على مقتضيات الأمور التي تحدث ، فيها جدت أمور في الحياة لم تكن في ذهن من شرع أولا ، احتاج الناس إلى تعديل التشريع . ولنعلمك بأي قانون بشرى معدل في أي قضية من قضايا الكون ، ولنظر إلى أي اتجاه يسير ؟ إنه دائما يتجه إلى الإسلام ، وإن لم يلتق مع الإسلام فإنه يقرب من الإسلام . وعندما قامت في أوروبا صيحة عن الطلاق في الإسلام ، ما الذي حدث ؟ جاء التشريع بالطلاق في إيطاليا تحت سماع وبصر المائتيكان . هل شرعوا الطلاق لأن للإسلام أباح الطلاق ؟ لا ، إنما شرعوه لأن أمور الحياة أحصتهم إلى ضرورة تشريع لطلاق ، فكانهم أقاموا الدليل بحصولهم لأمور الحياة على أن ما جاء به الإسلام قبل التجربة كان حقا . بتدليل أن أوروبا لحقت إلى تشريع الطلاق لا كمسلمين ولكن لأن مصالح حياتهم لا تنأى إلا به .

وهل هناك ظهور وعلة أكثر من الدليل الذي يأتي من الخصم ؟ تلك هي العلة لقد وصلوا إلى تشريع الطلاق رغم كراهتهم للإسلام كدليل على صدق ما جاء به الإسلام . وفي الرب ، الذي يريد أبغض ما أن يخلقه ، لمجد أوروبا لمحتوى التحلل منه ، لأنهم بوصفوا بالتحجرة إلى أن المال لا يؤدى وطيف في الحياة إلا إذا انحصرت العائلة إلى صغر أي أنهم حرروا أن إلغاء الرضا ضرورى حتى يؤدى المال وطيفته الحقيقية في الحياة ، والذي أحدهم إلى الوصول إلى هذه الحقيقة هو أن فساد الحياة سببه الرضا ، فإرادوا أن يسموا الرضا . لقد وصلوا إلى ما بدأ به الإسلام من أربعة عشر قرنا . أتريد غلبة ، وتريد فوقا ، وتريد ظهور ، أكثر من هذا بالنسبة لدين الله ؟

إذن ، معهم الخصوم ما يصلح أمر الحياة صطوهم إلى الأحاد عبادى الإسلام . ويتابع بالتأمل قول الحق : « ومن عمل الدين استوك فوق الدين كفروا إلى يوم القيمة » . أى أن الحق جاعل الدين ساروا على المنهج الأصيل القادم من الله فوق الدين كفروا . فالتدين بقولون هيك يا عمى ابن مريم ما لا يعال من الوهية ، هل

اتعوك ؟ لا . . لم يبعوك .

إن الذي يتبع عيسى هو الذي يأتي على المنهج القادم من الله . إن عيسى ابن مريم رسول إلى بني إسرائيل . وديانات السماء لا تأتي لعصبيات الجنس أو القومية أو الأوطان أو غير ذلك ولكن المنهج هو الذي يربط الناس بعضهم ببعض ، ولذلك جاء لنا الحق بقصة سيدنا نوح لتعرف عن هذه المعاني لقد وعد الله سيدنا نوحا أن يحى له أهله . وعندما دعا نوح عليه السلام ، لله ليركب معه : وبكى ابن نوح رفضاً ، فقال نوح عليه السلام لله

﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ

الْحَكِيمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

( سورة هود )

هل الاهلية بالنسبة للأبناء هي التي قالها نوح هل اهلية الدم ؟ لا ، لأن الحق قال .

﴿ قَالَ يَنْسُوحُ بَعْدَ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

( سورة هود )

لماذا ؟ لأن أهل النبوة هم المؤمنون ساء ما للذين اتبعوا المنهج الذي جاء به المسيح من عند الله يس من يطلق على نفسه النسب للمسيح ، ومن يطلق على نفسه أنه يهودي إن هذه أسماء فقط إن المتبع الحق هو من يتبع المنهج المنزل من عند الله . إن الأنبياء مرانهم المنهج والعلم . ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سيدنا وهو هارسي لا يجتمع مع رسول الله في أرومة عروية :

( سيدنا ما آل البيت )<sup>(١)</sup>

(١) هذا الحديث رواه الحاكم والطبراني في الكبير

وهكذا انتسب سليلك إلى آل البيت بحكم إيمانه ، وتنص حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

إذن : « وجاعل الدين اتبعوك فوق الدين كمررا إلى يوم القيامة » ، أى أن الحق سبحانه قد جعل الموقية للدين يتبعون المنهج الحق لقادم من عند الله ، والذي يصوب منهج عيسى هو محمد رسول الله هل تكون الموقية هي فوقية مساحة جغرافية ؟ لأن رقعته من لأرض التي تتسع الديانات الأخرى غير الإسلام أكبر مساحة من رقعته أرض المؤمنين بالإسلام ؟ لا . فالموقية تكون فوقية دليل

وقد يقول قائل إن الدليل لا يرم . بره قائلين : كيف لا يلزم الدليل ؟ ونحن نرى الدين لا يؤمنون به يدللون عليه . كيف يدللون عليه ؟ إنهم يسبرون فيها يقسون من قرايب الشر إلى ما سبق إليه نصيب السماء . وما دام هنا في هذه الآية كلمة « فوق » وكلمة « كفروا » وهناك أنباء ، إذن ، هناك قضية وحسومة ، وهناك حق ، وهناك باطل ، وهناك هدى ، وهناك ضلال . فإلا من الفصل في هذه القضية . وبأن الفصل ساعة ألا يوجد للإنسان تصرف إرادى لا على ذات نفسه ولا على غيره .

إن العالمين يستطيعون التصرف في لأرض ، لكن عندما يكون المرجع إلى الله فأنه يقول : أن ملكيتكم وأنتم عصاة لى في كثير من الأسباب ، لكن هناك وقت تروى فيه ملكيتكم للأسباب . إذن . فالعالم قد يتحكم على الأرض وكذلك الباطل لأن الله أوجد لنا جميع إرادات ومرادات اختيارية . لكن في يوم القيامة فلا إرادات إلا إرادة الله

﴿ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿١٥٠﴾ ﴾

(سورة النور)

( إذن فالحكم قدم بدون منزع . . والذي يدل على ذلك قوله الحق :

﴿ ذَٰلِكَ نَبَأُ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ

﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَسْمَعُ مِنْهُمْ كَمَا تَبَيَّنَّا وَأَمَّا كَذَلِكَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنَّمَّا كُنَّا نَسْمَعُ مِنْهُمْ وَمَا هُمْ بِمُخْرِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ (١٣٧)

( سورة البقرة )

إن الذي اتبع واحدا على ضلال يأتي يوم القيامة ليحد أن صاحب الضلال يتبرأ منه ، فيقول المتبعون سائلين الله : يا رب ارجعنا إلى الدنيا لنستقيم ممن حذرونا . هذا من ناحية علاقة البشر بالبشر . أما من ناحية الجسد الواحد نفسه ، سوف يحد شهادة الجلود والألسنة والأيدي ، بعد أن تسقط عنها إرادة الإنسان ويسقط تسخير الحق لهذه الجوارح والحواس لخدمة الإنسان ، تقول الجوارح والحواس : لقد كانت لصاحبنا إرادة توغمني على أن أفعل ما لا أحب ، لكن ها هوذا يوم القيامة ، فلا قهر ولا إرغام ولا تسخير لأن أملك كنه الله . لذلك تشهد الألسنة والجلود ولهذا يقول الحق : ثم إلى مرجعكم فاحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون .

إن الحق يحكم فيما كانوا فيه يختلفون لتكون ثمرة الحكم هي ما ؟ هل هناك تكليف بعد ذلك ؟ لا . لكن ثمرة الحكم هي الخزاء في الآخرة لا عمل هالك ، والحكم فيها لتجاء وكما قلنا : مادام هناك متبعون وكافرون ، وجماعة فوق جماعه ، وإلى الله مرجعهم ، فلابد لنا أن نرى ما هو الحكم الذي سوف يكون ؟ ها هوذا القول الحكيم

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَابُ اللَّهِ شَدِيدٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ (١٣٨)

لماذا لم يأت الله بالحكم على المؤمنين أولا ؟ لأن المؤمنين يؤمنون بذلك تماما ، إيمانهم يعرفون ذلك ويعونه . ولنتنبه هنا إلى أن الحكم لا يشمل العذاب في الآخرة فقط ولكنه يشمل على العذاب في الدنيا أيضا ، عذاب الدنيا سيكون قبل الحكم .

وكان الحق يقول لنا : لا تعتقدوا أن تعذيب إياهم في الدنيا بمعصيتهم من تعذيب إياهم في الآخرة ، لأن لتعذيب في الدنيا فقط قد يصيب من آمن في

أما من كفر في ، إياي أعذبه في الدنيا وأعذبه في الآخرة إني لا أزعج العذاب للكافرين إلى الآخرة فقط ولكن سأضرم عذاب الدنيا إلى عذاب الآخرة .

إن الحاصلة بعد كل شيء هي أن يعذب الكافر في الدنيا وفي الآخرة . ويقول الحق عن هذا العذاب : إنه عذاب شديد ، لأن الحدث حين يقع لابد أن تلحق به القوة التي تناسب من أحدث . ولنضرب هذا المثل وثمة المثل الأعلى :

إن انطلق قد يكسر شيئاً في حدود قوته كقطر ، والشاب قد يكسر شيئاً مناسباً لقوته . إذن ما حدث يجب أن نأخذ قياساً بالسبب لفاعله ، فإذا كان الفاعل هو الله ، فهل لأحد طاقة على عذاب الله ؟ لا أحد يتصور ذلك ، وليس لأحد من هؤلاء من ناصر ، لأن الذي يهرمه الله ويعذبه لا ناصر له ، وبعد ذلك باق الحق بالمقابل :

وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ

فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَآلَهُ لَا يَجِبُ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾

أي هادام الذين كفروا سينالون العذاب لشدة من الله . فالذين آمنوا سيالون اسعيم المقيم يلاون الله .

ذَٰلِكَ نَسْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ

الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

يقول الحق تبارك وتعالى .

« ذلك » إشارة لما سبق من الأحداث ، في شأن امرأة عمران ، ومريم ، وركريا ، ويحيى ، وعيسى ، وكان لكل واحد من هؤلاء قصة عجيبة يخرق فيها ناموس الكون ، وكلها آيات ، أي عجائب . وقد نقلت إليها هذه العجائب من واقع ما رآه الذين عاصروا تلك الأحداث ، وجاء الخبر ليمس تلك العجائب في قرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الكتاب الحق الموصوف من الله بأنه « الذكر الحكيم » عظموا - أي المؤمنون - إن أن ما وصلكم عن طريق القرآن ، إنما حكى واقعا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فما جاء به من اختبار عن تلك الآيات هو ما يطابق الواقع الذي عاصره الناس وحكوه

وبعد ذلك يعرض الحق لما سبحانه قضية سيدنا عيسى عليه السلام ، وهي قضية يجب أن ننتبه إليها تنبها جديدا فنعرض وجهة نظر الذين يصنعونه في غير الموضع الذي أراده الله ، كما نعرض وجهة نظر الذين يصنعونه في الموضع الذي يريد الله ، فالمسألة ليست انتصارا منا في الدنيا على فريق يقول كذا ، وليست انتصارا لفريق آخر في الدنيا ليقول كذا ، لأنها مسألة لها عاقبة تآثر في الآخرة ويحاسب عليها الحق تعالى ، لذلك كان من المهم جدا أن نضعها توضع يتضح فيها الحق ، حتى لا يظلم أحد نفسه .

لقد جاء عيسى عليه السلام على دين اليهودية ، أي طرأ على دين اليهودية ونحوه نعم أن دين اليهودية قد تم تحريفه من اليهود تحريف جعله يسحاز إلى الأمور المادية الصرفة ، دون أدنى اعتناء للأمور الروحية والإيمان بالعيب ، فهم ماديون ، وتمثل ماديتهم في أنهم قالوا لموسى عليه السلام ما حكاه القرآن الكريم .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَهُودُ مَنْ لَكَ حَقُّ نَرَى اللَّهَ هَهْهَ نَأْخُذُكَ الضَّعِيفَةُ وَأَنْتُمْ  
تُظَاهِرُونَ ﴾

(سورة البقرة)

إنهم لم يلتفتوا إلى أن بعضا من كهال وجلال الله غيب ، لأنه لو كان مشهورا  
محسا ، لحد - بضم الحاء وكسر الدال - وخيّر ، ومادام قد خلّد وخيّر في تصورهم  
فذلك يعني أنه سبحانه قد يرجد في مكان ولا يوجد في مكان آخر ، والحق سبحانه  
متزه عن مثل ذلك لأنه موجود في كل الوجود ، ولا نراه بالعين ، لكن يرى آثار  
أعماله وجهل صنعه في كل الكون

إذن فكون الله حيا هو من تمام الجلال والكمال . به .

لكن اليهود قد صوروا الأشياء كلها على أنها حسية ، حتى أمور اقتيات حياتهم  
وهي الطعام ، لقد أرادها الله لهم غيبا حتى يربحهم في التيه ، فأرسل عليهم المن  
والسلوى ، كروق من العيب الذي يأك إليهم ، لم يستنبوه . ولم يستوردوه ، ولم  
يعرفوا كنهه ، ولم يجتهدوا في استخراجيه ، إنه رزق من الغيب ، ومع ذلك تمردوا على  
هذا الرزق القدام لهم من لعب وقالوا كما أخبر الله عنهم :

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَهُودُ مَنْ لَكَ حَقُّ نَرَى اللَّهَ هَهْهَ نَأْخُذُكَ الضَّعِيفَةُ وَأَنْتُمْ  
تُظَاهِرُونَ ﴾

(من الآية ٦١ سورة البقرة)

إنهم يريدون أن يكون طعامهم كما المو ، وأن يروا هذا الطعام كأمر مادي من

أمور الحياة ؛ لذلك تشككوا في رزق الغيب ، وهو الرزق والسلوى ، وقالوا : « من يدرينا أن المر قد لا يأتي ، وأن السلوى قد لا تنزل علينا » فلم تكن لهم نقة في رزق وهب لهم من الغيب ؛ لأنهم تناولوا كل أمورهم بمادية صرفة . ومادامت كل أمورهم مادية فهم في حاجة إلى حرة عيفة نهر أوصال مدينتهم هذه ؛ لتخرجهم إلى معنى يؤمنون فيه بالغيب

ونحن نعلم أن الفكر المادي لا يرى الحياة إلا أسماء ومبانيات ، فأراد الحق سبحانه وتعالى أن يخلق منهم ذلك الفكر المادي ، لذلك جاء يعيسى عليه السلام عن غير طريق النعوس الذي يأتي عليه البشر ، فحصله من امرأة دون أب ، حتى يزلزل قواعده لمادية عند اليهود . لكن الفتنة جاءت في نومه ، فقالوا بنوته للإله ، وسبحانه منه عن أن يكون له ولد

ولما أن سأل ما الشبهة التي جعلتهم يقولون هذه السورة ؟

قالوا : إن الأمومة موحودة والذكورة ممتمة ، والشبهة إنما جاءت من أن الله نفع فيه لروح ، فأنه هو الأب .

نقول لهم : لو أن الأمر كذلك لوجب أن تقتوا في آدم أوى من أن تقتوا في عيسى ؛ لأن عيسى عليه السلام كان في حلقه أمومة ، أما آدم فلا أمومة ولا أبوة ، فتكون الفتنة في آدم عليه السلام أكبر ، وإن قلتم . « إن الحق قال . إنه نفع فيه من روحه » ، فلكم أن تعرفوا قول الله في آدم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِّقُ بَشَرًا مِّنْ صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿١٩﴾ فَبَدَأَ نَسْتَهْ وَنَصَحْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٠﴾ ﴾

(سورة الحجر)

إذن فالنفع هنا في دم موجود ، فلماذا سكتكم عن هذه الحكاية منذ آدم وحتى عيسى عليه السلام ، وهكذا يتم دحض تلك الحجة ونهايتها . وبعد ذلك تأتي إلى قصبة أخرى ، وهي نوحه أو وفاته ، إلى القصيتين معا - نوحه ووفاته - حتى



سَبَّ الرَّايِسَ مَعَا . وَهَذَا تَسْأَلُ . هَذَا فَتَسْمَعُ فِي ذَلِكَ ؟ يَقُولُونَ : لَقَدْ أَحْبَبَا عِيسَى الْمَوْقَ ، وَيَقُولُ هُمُ : أَلَمْ تَأْجِدُوا نَارِيحَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثَمَا قَالَ اللَّهُ لَهُ :

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ارْنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُ ۖ قَالَ بَلَى وَلَئِنْ لَبِثْتُ لِقَلْبِي قَلِيلًا قَدْ فَتَدَّ أَرْبَعَةً مِّنَ أَنْبَارٍ قُصِرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلُ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ أَدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٥١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إِنَّ مَجَالَ الْعَتَّةِ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَبِيرٌ ، وَكَذَلِكَ ، أَلَمْ يَحْيَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَايَةَ هِيَ الْعَصَا ؟ إِيَّاهُ لَمْ يَحْيَ . مَيِّتًا كَانَتْ فِيهِ حَيَاةٌ ، إِنَّمَا أُحْيِيَ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ حَلْقَ الْحَيَاةِ فِيهَا لَمْ تَثْبِتْ لَهُ حَيَاةٌ ، فَاصْبَحَتْ الْعَصَا - وَهِيَ حِمَادٌ - حَيَّةً تَسْمَعُ لِمَا دَا إِيَّاهُ لَمْ تَقْتَنُوا فِي عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ؟

وَهَكَذَا نَعْرِفُ أَنَّهُ لَا يَصِحُّ أَنْ يَفْشَ أَحَدٌ فِي السَّجَرَةِ الَّتِي جَاءَتْ بِعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ، أَوَّلَ إِحْيَائِهِ الْمَوْقَ بِإِذْنِ اللَّهِ ، وَأَتَّبَعَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَتَّقُونَ مَعَا أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غَيْبٌ ، وَلَكِنَّهُمْ يَخْتَلِعُونَ مَعَا فَيَقُولُونَ : إِنْ اللَّهُ أَرَادَ أَنْ يُوَسِّسَ الْبَشَرَ بِصُورَةٍ يَتَجَلَّى لَهُمْ فِيهَا بَشَرًا فَهَاءَ نَعْبُدُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَتَحَقَّقَ لَهُمْ ذَلِكَ لِأَنَّهُمْ .

وَيَقُولُ هُمُ : نَسَحَتْ هَذِهِ السَّأَلَةُ بَنُونَ حَسَّاسَةً ، وَيَدُونُ عَصِيَّةً ، بَلْ بِالْعَقْلِ ، وَسَأَلُ هَلْ خَلَقَ اللَّهُ عِيسَى لِيُعْطَى صُورَةٌ لِلَّهِ ؟ إِنْ عِيسَى كَانَ طِفْلًا ، ثُمَّ كَبُرَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ ، فَأَيُّ صُورَةٍ مِنْ صُورَةِ الْمَرْحَلَةِ كَانَتْ تُمَثِّلُ اللَّهَ ؟

إِنْ كَانَتْ صُورَةٌ طِفْلٍ هَلْ هِيَ صُورَةُ اللَّهِ ؟ وَإِنْ كَانَتْ صُورَةٌ كَهْلٍ هَلْ هِيَ صُورَةُ اللَّهِ ؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ صُورَةٌ وَاحِدَةً لَا يَرَاهَا وَلَا نَعْرِفُ كَيْفَ هِيَ فَهُوَ مَسْحَانَةٌ ، لَيْسَ كَمَثَلِهِ شَيْءٌ ، غَايَةُ صُورَةٍ مِنَ الصُّوَرِ أَيْ يَقُولُونَ : إِنَّمَا صُورَةُ اللَّهِ ؟

وَإِنْ كَانَ اللَّهُ عَنِ كُلِّ هَذِهِ الصُّوَرِ فَهِيَ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ أَغْيَارًا ، وَهُوَ مَسْحَانَةٌ مَرَّةً عَنْ ذَلِكَ . وَلَوْ كَانَ هِيَ صُورَةٌ وَاحِدَةً لَقُلْنَا : إِيَّاهُ الثَّلَاثُ وَالْأَمْرُ كَذَلِكَ فَهُوَ

- سبحانه - الحق الذي لا يتغير إسمه يقولون : إن الله أراد أن يجعل صورته في بشر ليؤس الناس بالإله ، فتمثل في عيسى .

ولنا أن نسأل : كم استغرق وجود عيسى على الأرض ؟ والإجابة : ثلاثين عاما أو يزيد قليلا . وهكذا تكون فترة معرفة الناس بالصورة الإلهية محدودة بهذه السنوات الثلاثين طقا لتصوركم . ولا بد أن نسأل : ما عمر الخلق البشري كله ؟ إن عمر البشرية هو ملايين السنين . فهل تراء الله خلقه السابقين الأولين بدون أن يبدى لهم صورته ، ثم ترك حلقه الآخرين الذين قدموا إلى الحياة بعد وفاة عيسى - أي تمام مهمته - ورفعهم ، بدون أن يعطيهم صورة له ؟ إن هذا تصور لإله ظالم ، وسبحانه وتعالى مزه عن الشرك والظلم . فلا يعقل أن يضمن بصورته فلا يقيها إلا ثلاثين عاما ؟ إن هذا قول لا يقبله عقل يتق في عدالة الله المطلقة .

ثم إنهم يقولون : إن عيسى عليه السلام قد صلب ، وهم معذرون والحق سبحانه وتعالى قد عذّرهم في ذلك فلورد التلويح الحق العادل ، حين يقول :

﴿ وَفَوَيْهِمْ أَنْ قَتَلُوا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظُّلُمِ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴾ (١٥٧)

(سورة البقرة)

لقد جعل الله لهم عذر في أن يقولوا : إنه قتل أو صلب ؛ لأنه شبه لهم وكان من المعقول أن يلتصقوا من الإسلام حلا لهذه المشكلة ، لأن الإسلام جاء ليقول : لا ، لقد شبه لكم ، فإما قتلوه وما صلبوه ؛ لأن هذا الفعل - القتل أو الصلب - ينقص فكرتهم عن أنه إله أو ابن إله . لأن الصلب لو كان إلها أو ابن إله ، لكانت لديه القدرة التي تغلب الصليب ، فكيف يعقل الإنسان أن يتقلب الإله - أو ابن الإله - مقنورا عليه من مخلوق ؟ والإسلام عندما يقول : إن عيسى ابن مريم لم يصلب فقد كرمه الله . وهكذا ترى أن الإسلام قد جاء ليصمى العقائد كلها من عيوب التحريف التي قام بها المتعبدون لتلك الأديان .

وبعد ذلك يأتي الحق سبحانه وتعالى ليعرض علينا قضية جدلية حدثت في أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى يحرج الناس - مسلمين ونصارى ويهودا - من هذه البسلة ، وأن يتم ذلك في مودة ، لأهم كلهم مؤمنون بالعبودية لمعبود واحد . فقد جاء وفد من نصارى فجران إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، والنقوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان هؤلاء انقوم جدل مع اليهود ، ولم جدل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما كان لليهود والنصارى معا جدل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والجدل بين اليهود والنصارى مصدره أن لليهود والنصارى قولاً متضارباً في بعضهم بعضاً برويه لنا الحق .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَنَبِيِّنَا أَنْصَارِي عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَنَبِيِّنَا الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ أَتَمُّنَ الْكِتَابِ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ بِمِثْلِ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَيَا كَاؤُا فِيهِ يَحْكُمُونَ ﴿١٣٠﴾

(سورة البقرة)

فاليهود يقولون : « كان إبراهيم يهودياً ، والنصارى يقولون لا ، كان إبراهيم نصرياً ، وأما الجدل بين النصارى وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسيب أنهم قد أرادوا أن يتكلموا في مسألة عيسى ، وأراد الحق سبحانه وتعالى أن يصفى القضية تصفية نهائية حتى لا تظل معلقة تلوكها الألسنة وتجعلها مثاراً للفتن . فلما اجتمع نصارى حوران تحت لواء رؤسائهم ، ومن هؤلاء الرؤساء من اسمه السيد ، ومنهم من يسمى العاقب صاحب المشورة ، ومنهم عيسى ، فقال لهم صلى الله عليه وسلم : ماذا تقولون في عيسى ؟ قالوا : إنه ابن الله . وقال لهم الرسول : إن عيسى عليه السلام قال : « إن عبيد الله » و « رعيه » و « رسوله » وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول ، فغضبوا وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : هل رأيت إنسان قط من غير أب ؟ . إن كنت قد رأيت مثل ذلك فأخبرنا به .

وهي رلت الآية الكريمة :

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ  
مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

لقد جاء القول الفصل بالحجة الأقوى ، فإذا كان عيسى عليه السلام قد جاء بدون أب ، فإن آدم عليه السلام قد جاء بدون أب ، وبدون أم ، وقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تعلمون أن رسول الله وأبى سبى هذه الأمة ، فقالوا : أنظروا عدا نكلم في هذه المسائل ، ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان فقالوا : لا .

وعندما يعرض الحق سبحانه صراع قضية حتى مع قضية باطل فهو يقول :

﴿وَإِنَّا أَوْلَىٰ بِالْحَقِّ هِدَىٰ أَوْىٰ ضَلَلٍ مُّبِينٍ﴾

(سورة سبا)

أى إن طرفا واحدا على هدى ، والطرف الآخر على ضلال مبين ، لماذا ؟ لأن المضيئين متقاصتان ، ولا يمكن أن يجتمعا ، ودعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن يجتمع بهم في مكان ظاهر ، ويدعو انظر هاهنا الأنساء والنساء ، ويستهل الجميع إلى الله الحق أن تستنزل لعة الله على الكاذبين ، وفي هذا جاء القول الكريم :

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ  
تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ  
وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ  
عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٦١)

لقد جاء الحق البين ولقول الفصل من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم فلا مجال للشك أو المراءى . ومن يرد أن يحكم إلى أحد فليقل الاحتكام إلى الإله العادل الذى لن يحكم بالباطل أبداً ، فهو سبحانه الحق ، وعيى « هذا القول . » « تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين . » إن الطرفين مدعوان ليوحها الدعوة لأسائهم ونسائهم ، فالرسول صلى الله عليه وسلم مدعو لدعوة بنيائه وسائهم ، ومن له الولاية عليهم ، وبحضوره هم صلى الله عليه وسلم ، وهم مدعون لدعوة آبائهم ونسائهم وأنفسهم للابتهال

وقد يسأل سائل . ولماذا يكون الدعوة للأبناء وللساء ؟ والإجابة هي أن الأبناء والنساء هم القرابة القريبة التى هم كل إنسان ، وإن لم يكن رسولا ، إهم بضعة من نفس واحد . فكان الرسول صلى الله عليه وسلم مأمور بأن يقول لهم : « هاتوا أحبائكم من الأبناء والنساء لأهم أعزة الأهل والصقهم بالقلوب وادخلوها معنا فى مباهلة » « والمباهلة » . هي التصرع فى الدعاء لاستئصال اللعنة عن الكاذب ، والمباهلة - بضم الباء - هي النعمة ، وعندما يقول الطرفان : « يارب لترى لعنتك على الكذاب ما » فهذا دعاء يحمل مطلقا لعدالة : فالإله الذى يستطيع أن يرسل الدعوة هو الإله الحق . وهو سيرسل النعمة على من يشركون به ، ولو كانت النعمة ترسل من الألهة المتعددة فسوف ترسل النعمة على أتباع الإله الواحد

ولهذا كانت الدعوة إلى المباهلة وللبهلة - كما قلنا - وهي ضراعة إلى القوة القاهرة التى تنصرف فى الأمر لتبطل الخلاف ، ثم صار المراد بالمباهلة هنا مطلقا لدعاء ،

فنحن نقول : « يتهل إلى الله » ، أي ندعو الله .

إذن فالرسول صلى الله عليه وسلم جاءهم بالأمر المحل من عبد الله الحق مدعوة الأبناء والنساء والأهس ، لكنهم قالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : « أنظرنا إلى عد ومان إليك »

ثم أرسلوا في الصباح واحدا منهم ليرى ماذا فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ وهل هو مستعد لهذا الأمر حقيقة ، أو هو مجرد قول منه أراد به التهديد فقط ؟ ووجد رسولهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد جاء ومعه الحسين والحسن وقاطمة وعمل بن أبي طالب . لذلك قالوا : « لئن استطيع الماهلة » ، والله ما باهل قوم نبي إلا أخذوا ، وحاولوا نرصة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالوا : « لنظل على دينا ويطل محمد وأناعه على دينه » لقد طخوا أن الدعوة إلى اساهلة هي مجرد هديد من بعده الرسول ، لكن صاحب اليقين الصادق جاء ومعه أهله استعدادا للماهلة ، ولن يُقبل على مثل هذا الموقف إلا من علمه حمق الإيمان واليقين ، أما الذي لا يملك يقينا فلا يقبل عن الماهلة بل لابد أن يرجع عنها . وقد رحعوا عن الماهلة ، وقالوا للرسول صلى الله عليه وسلم : « لنصق معك ألا تعزونا أو نجيبا على أن نرسل لك الحربة في رجب وفي صفر وهي من الخيل وغير ذلك » لقد مرو من اساهلة لعرفهم أنهم في شك من أمرهم ، أما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان على يقين بما أمره الله عليه وكان العرب إذا خرجوا إلى الحرب يأخذون نساءهم معهم ، وذلك حتى يحصل الرجل من الفرار ، وحتى لا يترك أولاده ونساءه لكيلا يدلوا من بعد موته . فإن قتل قتلوا معه هم أيضا .

إذن إن أردنا نحن الآن أن نرى الخلد في مسأله عيسى عليه السلام فسمع قول الحق سبحانه وتعالى : « إن مثل عيسى عبد الله كمثل دم حلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » الحق من ربك فلا تكن من الختيرين » إنه الحق القادم من الروية فلا تكن أيها السامع من الشاكين في هذه المسألة . ومن أراد أن ياق صحة مضادة للحجة القديمة من الله فلنا أن نحسبها بأن نقول : « تعالوا ندع أساءنا وأسائكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأعسكم ثم يتهل فجعل لعنة الله على الكاذبين » .

ولن يجزئ واحد منهم على ذلك . لماذا ؟ لأن السابقين عليهم قد مروا من الميابه

ولأن الله - سبحانه - يريد أن يريد المؤمنين إيماناً وطمئناً إلى أن ما ينزله على رسوله هو الحق قال - جل شأنه - .

﴿إِنْ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ  
وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

وقوله الحق : « إن هذا هو القصص الحق » ، يلغتنا إلى أن ما يرويه الحق لنا هو الحق المطلق ، وليس مجرد حكاية أو قصة ، أو مرجع خيال بوقع ، كما يحدث في العصر الحديث ، عندما أخذت كلمة القصة في الحرف لأدبي الحديث - القادم من حضارة الغرب - ، إن القصة بشكها الحديث المعروف إنما يلعب فيها الخيال دوراً كبيراً ، لكن لو عرف أن كلمة « قصة » مشتقة من قص الأثر ليبحث أهل الأدب فيما يكتبون من روايات وحيالات عن كلمة أخرى غير « قصة » ، فالقصص هو تتبع ما حدث بالفعل لا تبديل فيه ولا أحيله

وها هو ذا الحق سبحانه وتعالى يقول : « إن هذا هو القصص الحق وما من إله إلا الله » فإذا جاء القصص من الإله الواحد فليطش إلى أنه لا يوجد إله آخر سيقب القصص أخرى ، ولأن الله الواحد هو « العزيز الحكيم » أي العالب على أمره ، ومع أنه غالب على أمره فهو حكيم في تصرفه .

لكن هن انعط القوم الذين جادلوا ؟ لا ، إن الحق يقول

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ مُنْتَصِرٌ﴾

إن قوله « فإن تولوا » يدل على أن الله قد علم ألا أنهم لن يقبلوا الهدى ، وهكذا حكموا على أنفسهم بأنهم المفسدون ، فصدق الحق سبحانه في قوله : « فإن تولوا فإن الله عليهم بالفسدين » ومع ذلك فقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يدعوهم إلى الدين الكامل لأسم مؤمنون بالإله ، وبالسياء ، وبالكتاب ، لذلك يقول الحق :

قُلْ يٰٓأَهْلَ الْكِتَابِ تَمَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ  
بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ  
شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ  
اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا آمَنَّا بِمَا مُسْلِمُونَ



إنها دعوة إلى كلمة مستوية لا التواء فيها « ألا نعبد إلا الله » وهذا أمر لا جدال فيه ، ثم « ولا نشرك به شيئا » أى لا ندخل معه من لا يقدر على الارتجاع إلى جلال كماله ، فالمعقوب السلبية ترفض كلمة « الشرك » لأن الشرك يكون على ماذا ؟ هل الشرك على خلق الكون ؟ إن كل مخلوق أشركوه في الألوهية إنما جاء من بعد أن خلق الله الكون . أو يكون الشرك على إدارة هذا الكون ؟

إذا كان هذا هو النسب في الشرك فهو أنه من أن يكون سبب لأن الحق سبحانه قادر على إدارة الكون ، وأنزل منهجا إذا ما اتبعه الإنسان صار الكون مسجيا . إذن نأى شرك لا لروم له . وإن كان - والعباد بالله - له شريك ونمتع إله ما بقدرات خاصة فهذه القدرات تنقص من قدرات الإله الكنى . وهذا عجز في قدرة هؤلاء الأئمة . ولهذا يحسم الحق هذا الأمر بقوله الكريم :



﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَتَتْ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا هُنَّ مُوعَدَاتٌ ۚ وَمَا يَعْصِيهِمْ عَلَى تَعَصٍّ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

(مسورة النومرون)

إذن بمسألة الشركاء هذه ليست مقبولة ، وبعد ذلك يقول الحق : « ولا يتعد بعضها بعضا أربابا من دون الله » . أى ألا تأخذ من بعضها كهوت وكهنة ، يضع الواحد منهم الحلال لنا أو الحرام علينا ، فالتحويل والتحرير إنما يأتي من الله ، وليس لمخلوق أن يحلل أو يحرم . ثم يقول الحق : « فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » أى إن من لا يقبل عبادة الإله الواحد الذى لا شريك له ولا أرباب تحلل أو تحرم ، إنما يريد أربابا وشركاء ، وهذا معناه أن قلبه غير مستعد لتقبل قصة الإيمان ، لأن قصة الإيمان تتميز بأن مصدرا واحدا هو الذى له مطلق القدرة ، وهو مصدر الأمر فى الحركة وهو الواحد الأحد ، فلا تتضارب الحركات فى الكون .

ب. حركاتنا كلها وهي الخاضعة لنهيج الله بـ « افعل » و « لا تفعل » علو أن هناك  
إلها قال : « افعل » والله آخر قال « لا تفعل » ، لكأن معنى ذلك والعباد بالله أن  
هؤلاء الآلهة أغيار لها أهواء وولحق سبحانه يحسم هذا بقوله :

﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفُتَّتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ﴾ ﴿٧٦﴾ ﴿٧٧﴾

( سورة الأعراف )

وهكذا كانت دعوة الله على لسان رسوله محمد صلى الله عليه وسلم : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » ، إنها آية تحمل دعوة مسيحية بلا تنوعات ، فلا عبادة إلا لله ، ونحى لا نتخذ « افعل » ، ولا « لا تفعل » إلا من الله ، ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا كهونا أو مصدرا للتحليل أو التحريم ، فإن رفضوا وتولوا ، فليقل المؤمنون . « اشهدوا بأنا مسلمون » أى أنه

لا يوجد إلا إله واحد ، ولا شركاء له ، وبعضنا لا يتحد بعضنا لربابا ، وذلك شهادة بأن الإسلام إنما جاء بالأمر السوي الذي لا عوج ولا تنوء فيه ويحس متبعون ما جاء به

وبعد ذلك يقول الحق

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ  
وَمَا أُنزِلَتْ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا قُلْنَا  
تَقُولُونَ ﴿٦٥﴾

إن الحق يسألكم - لماذا يكون جدالكُم في إبراهيم خليل الله ؟ إن اليهود منكم يسيئون أنفسهم إلى موسى ، والنصارى منكم يسيئون أنفسهم إلى عيسى ، وإبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديا كما يسعى اليهود ، فاليهودية قد جاءت من بعد إبراهيم والنصارى لا يمكنهم الادعاء بأن إبراهيم كان نصرانيا ، لأن النصرانية قد جاءت من بعد إبراهيم عليه السلام ، فلم لحاجة إذن ؟ لقد أنزلت التوراة والإنجيل من بعد إبراهيم فكيف يكون تابعا للتوراة والإنجيل ؟

وبعد ذلك يقول الحق :

هَٰؤُلَاءِ حَبَشَتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ  
فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ  
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

أى لقد جادلتم فيما بيني عندهم من التوراه وتريدون أن نأجلوا الجدل على أنه  
باب مفتوح ، نجادلوا في كل شيء ، وأنتم لا تعملون ما يعلمه الخالق الرحمن علام  
الغيب

ويوضح الحق هذا الأمر فيقول :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ  
حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

وبذلك يتأكد أن إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا ، لأن اليهودية جاءت من  
بعده ولم يكن إبراهيم نصرانيا ، لأن النصرانية جاءت من بعده ، لكنه وهو خليل  
الرحمن « كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » وحرر بهم أن كلمة « حنيفا »  
تعني الدين الصافي انعدام من الله ، والكلمة مأخوذة من المحسات ، فالحنيف هو ميل  
في السائقين من أسفل ، أى اعوجاج في الرجلين ، ثم نقل الحنف إلى كل أمر غير  
مستور

وهنا يتساءل الإنسان ، هل كان إبراهيم عليه السلام في العوج أوفى الاستقامة ؟  
وكيف يكون حنيفا ، وحنيف عوج ؟ وهنا يقول : إن إبراهيم عليه السلام كان عن  
الاستقامة ، ولكنه جاء على وتبيه واعوجاج طاع فالعالم كان معوجا وجاء إبراهيم  
ليخرج عن هذا العوج ، ومادام منحرفا عن العوج فهو مستقيم ، لماذا ؟ لأن الرسل  
لا يأتون إلا على فساد عفى وتشرى طاع ، والحق مسحاه وتعالى ساعة ينزل  
منهجه يجمع في كل نفس حلية إيمانية والحلية الإيمانية تستيقظ مرة ، فتلتزم ،  
وتعمل مرة ، فتتحرف ، ثم يأتى الاستيقاظ بعد الانحراف ، فيكون الانتبه ،  
وهكذا توحد النفس اللوامة ، تلك النفس التي تهمس للإنسان عند الفعل  
الخاطيء ، إن الله لم يأمر بذلك

ويعود الإنسان إلى مسيح الله تائبا ومستعبرا ، فإن لم توحّد النفس البوامة صارت النفس أمدرة بالسوء ، وهي التي تنسج دائها إلى الانحراف ، وحول النفس الواحدة توحّد موسى متعددة محاول أن تقاوم وتقوم المعوج ، وهي موسى من لبيبة والمجتمع ، فعمره يكون الاعتدال والاتجاه إلى انصواب بعد الخطأ فاقما من ذات الإنسان أى من النفس البوامة ، مرة لا توحّد النفس البوامة ، بل توحّد النفس الأمدرة بالسوء ، لكن المجتمع الذي حول هذا الإنسان لا يعلم أن يكون فيه حليلة من الخير تهديه إلى الصواب ، أما إذا كانت كل الخلايا في المجتمع قد أصبحت أمدرة بالسوء فمن الذي يمدّها ويصوب ؟

هنا لابد أن يأتي الله برسول جديد ، لأن الإنسان يقتصد الردع من دائية النفس بحلاياها الإيمانية ، ويقتصد الردع من المجتمع الموجود لخلوه كدلت من تلك الخلايا الطيبة ، وهكذا يظلم الظلام ويعم ، فيرسل الله رسولا ليعيد شعلة الإيمان في انموس والله سبحانه وتعالى قد صمّم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم ألا يأن لها من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا فمن الضروري أن يوجد فيها خير ويبقى ، فالخير يبقى في الدات المسلمة ، فإن كانت العقلة والنفس اللزومة تصوب ، وإن كانت هناك نفس أمدرة بالسوء هناك قوم كثيرون مطعمون يهدون النفس الأمدرة إلى الصواب

وهكذا لن نخلو أمه محمد في أى عصر من العصور من الخير ، أما الأمم الأخرى المبدقة فأمرها مختلف ، فإن الله يرسل لهم الرسل عندما سطىء كل شعوع الخير في النفوس ، ويعم ظلام الفساد فتدخل السماء ، وحين تدخل السماء يقال : إن السماء قد تدخلت على عرج لتميله وتقومه .

إن إبراهيم عليه السلام جاء حيفا ، أى مائلا عن المائل ، ومادام مائلا عن المائل فهو مستقيم ، فالجميعية السمحة هي الاستقامة . وهكذا يفهم قول الحق : « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » .

إن إبراهيم هو أبو الأنبياء ، ولو لم تكن اليهودية قد حُرمت وبذلت ، وكذلك النصرانية لكان من المقبول أن يكون اليهود والنصارى على ملة إبراهيم ، لأن الأديان لا تختلف في أصولها ، ولكن قد تختلف في بعض التشريعات المناسبة للعصور ،

ولذلك فسيدنا إبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديا باعتباره التحريف الذي حدث منهم ، أى لا يكون موافقا لهم في عقيدتهم ، وكذلك لا يمكن أن يكون نصرانيا للأسباب نفسها ، لكنه « كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين » أى أنه مائل عن طريق الأعوجاج .

قد يقول قائل : ولماذا لم يقل الله : « إن إبراهيم كان مستقيما » ولماذا جاء بكلمة « حنيفا » التى تدل على العوج ؟ ونقول : يقال : « مستقيما » لظن بعض الناس أنه كان على طريقة أهل زمانه وقد كانوا فى عوج وصال ولذا يصف الحق إبراهيم بأنه « كان حنيفا مسلما » ركنه « مسلما » تقتضى « مسلما إليه » وهو الله ، أى أنه أسلم زمانه إلى الله ، ومُسْلِما فيه وهو الإيمان بالمهج .

وعندما أسلم إبراهيم زمانه إلى الله فقد أسلم فى كل ما ورد به « افعل ولا تفعل » وإذا ما طبق هذا الاشتقاق على موكب الأنبياء والمرسلين فسند أن آدم عليه السلام كان مسلما ، ونوحا عليه السلام كان مسلما ، وكل الأنبياء الذين سبقوا رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا مسلمين .

كان كل نبي ورسول من موكب الرسل ينقل زمانه فى كل شيء إلى مُسْلِما إليه ، وهو الله ، ويعطى المنهج الذى نزل إليه ، وبذلك كان الإسلام وصفا لكل الأنبياء والمؤمنين بكتب سابقة ، إلى أن نزل المنهج الكامل الذى احتتمت به رسالة السماء على محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم به « افعل ولا تفعل » ولم يعد هناك أمر جديد يأتى ، ولما شرع أحد إسلاما لله غير ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد اكتملت الغاية من الإسلام ، ونزل المنهج بتمامه من الله ، واستقر الإسلام كعقيدة مصفاة ، وصار الإسلام على الأمة المسلمة ، أمة محمد صلى الله عليه وسلم وهى التى لا يُستدرك عليها لأنها أمة أسلمت لله فى كل ما ورد ونزل على محمد صلى الله عليه وسلم . لذلك قال الحق :

﴿ إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا

## النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

ولما أن ملحظ أن كل رسول من الرسل السابقين على سيدنا رسول الله إنما نزل لأمة محددة ، فموسى عليه السلام أرسله الله إلى بني إسرائيل ، وكذلك عيسى عليه السلام ، قال تعالى : «ورسلنا إلى بني إسرائيل » أي رسولا مسلما في حدود تطبيق المصح الذي جاء به ونزل إلى هؤلاء الرسل ، فلما تغير بعض من التشريع وقت تصفية المصح بالإيمان بالرسالة الخاتمة ، وهي رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهي عامة لكل البشر فقد آمن بعض من أهل تلك الأمم برسالته عليه الصلاة والسلام ، كما آمن بها من أرسل فيهم سيد رسول الله ، واستمر موكب الإيمان بالدين الخاتم إلى أن وصل إلينا وهكذا صارت أمة محمد صلى الله عليه وسلم هي حائلة الأمم الإسلامية ؛ لأن رسولا الله صلى الله عليه وسلم هو خاتم الأنبياء والمرسلين

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « مثل ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجملته إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون به ، ويقولون : هلا رصمت هذه اللبنة ، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين » (١) .

وحين يقولون : إن إبراهيم عليه السلام كان يهوديا أو نصرانيا إنما أوردوا ذلك لأن إبراهيم عليه السلام فيه أدلة الأنساء . وهم قد أرادوا أن يسحضروا أصل الخلية الإيمانية في محاولة لأن ينسوها إلى أنفسهم وكأنهم تناسوا أن المسألة الإيمانية ليست بالخص أو الوطن أو الدم ، أو إلى انتهاء آخر غير الانتهاء لمصح الله الواحد ، ولذلك فأولى الناس بإبراهيم ليسوا من جاءوا من ذريته ، بل إن أولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه ، وبينا محمد صلى الله عليه وسلم قد اتبع إبراهيم عليه السلام ، لذلك فلا علاقة لإبراهيم بمن جاء من نسله ، ممن حرقوا المنهج ولم يواصلوا الإيمان ، لقد حسم الله هذه القضية مع إبراهيم عندما قال سبحانه .

﴿ وَإِذْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُؤْيَاهُ فَلَمَّحَ بِنَافِثِهِ فَأَنفَرْنَا بِهِ نِفَافًا طَائِفًا لِّئَلَّا يَقُولَ لَهُ مِثْلُ الْقَائِلِينَ إِنِّي أَتَى اللَّهَ بِعَبِيدٍ ۖ فَذَرْنَاهُ وَمَنْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِ طَبَقًا مِّنْ هَؤُلَاءِ الَّتِي أَحْزَمْنَاهُ بِنَحْنِهِ ۚ فَجَاءَ رَبَّهُ بِأَنفُسٍ أَفْوَاجًا ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا فَحَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَعَامَهُمْ الَّتِي كُفِّرُوا عَنْهَا ۚ وَآخَرُهَا ۚ وَلَهُمْ فِيهَا عَذَابٌ عَظِيمٌ ۚ ﴾

(سورة البقرة)

لقد امتحن الحق إبراهيم بكلمات هي الأوامر والنواهي ، فأتىها إبراهيم عليه السلام تماماً على أقصى ما يكون من الالتزام ، ولم يكن مجرد إتمام بتظاهر بالشكليات ، إنما كان إتماماً بالشكل والمضمون معا .

والمثل عن تمام الأوامر والنواهي بالشكل فقط هو رؤيتنا لمن يتلقى الأمر من الله بأن يصنع خمسة عروص ، فيصلي هذه العروص الخمسة كأجراء شكل ، لكن هناك إنساناً آخر يصلي هذه العروص الخمسة بحفها في لكنها مضمومة وشكلا ، إنه يتم الأوامر الإلهية إتماماً يرضى عنه الله .

ولقد أدى إبراهيم عليه السلام الالتزامات التي جاءت بالكلمات التكليمية من الله على أكمل وجه . ألم يأمر الله إبراهيم عليه السلام على أن يرفع القواعد من البيت ؟ أما كان يكفي إبراهيم عليه السلام ليتفقد الأمر برفع بناء الكعبة إلى أقصى ما تطوله يده ؟ إنه لو فعل ذلك لكان قد أدى الأمر ، لكن إبراهيم عليه السلام أراد أن يوفي الأمر بإقامة القواعد من البيت تمام الوفاء ، فبنى الكعبة بما تطوله يده ، وبما تطوله الحيلة أيضاً ، فجاء إبراهيم عليه السلام بحجر ليقف من فوقه ، ويريد من طول جدار الكعبة مقدار الحجر ، لقد أراد أن يوفي البناء بطاقته في اليدين وبحيلته الابتكارية أيضاً ، فلم يكن معروفاً في ذلك الزمان « السفالات » وغير ذلك من الأدوات التي تساعد الإنسان على الارتجاع عن الأرض إلى أقصى ما يستطيع .

ولو أن إبراهيم عليه السلام قد رفع القواعد من البناء على مقدار ما تطوله يده ، لكان قد أدى تكليف الله ، لكنه أراد الأداء بإسكاته الذاتية الواقعية ، وأصاف إلى ذلك حيلة من ابتكاره ، لذلك جاء بالحجر الذي يقف عليه ليزيد من جدار الكعبة ، وهذا ما نعرفه عندما نرور البيت الحرام بـ « مقام إبراهيم » فلما أتم إبراهيم لكلمات

هذا الإجماع قال الحق سبحانه لإبراهيم :

﴿ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾

( من الآية ٢٤ ، سورة البقرة )

أى إنك يا إبراهيم مسمون على أن تكون إماما للناس في دينهم لأنت أديب و افعل ولا تفعل ، بنام وإتقان . ولرغبة إبراهيم عليه السلام على منهج ربه ، إنه لم يرد أن يستمر المنهج في حياته فقط ، ولكنه طلب من الله أن يظل المنهج والإمامة في ذريته ، فقال الحق سبحانه على لسان إبراهيم طالبا استمرار الأمانة في ذريته :

﴿ رَبِّ زِدْنِي ﴾

( من الآية ١٢٤ سورة البقرة )

ل سيدنا إبراهيم قد امتلأ بالغيرة على المنهج وحاج عليه حق من بعد موته ، لكن الحق سبحانه وتعالى يُعصم الخلق جميعهم من خلال إبراهيم فيقول سبحانه :

﴿ لَا يَتَّبِعُ اهْدَى الظَّالِمِينَ ﴾

( من الآية ١٢٤ سورة البقرة )

أى أن المسألة ليست وراثية ، لأنه سيأتى من ذريتك من يكون ظالماً نفسه ويعدل في المنهج بما يناسب هواه ، وهو بذلك لا تتوافر فيه صفات الإمامة . إن الحق يعصمنا قواعد إرث النبوة ، إن تلك القواعد تقضى أن يرث الأنبياء من هو قادر على تطبيق المنهج بتأيمه دون تحريف ، والمثال على ذلك ما عصمه بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال لسليمان الفارسي « سلمان منا آل البيت »<sup>(١)</sup>

إن سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم لم يقل لسليمان الفارسي « أنت من العرب » لا . بل سبه لآل البيت ، أى سبه إلى إرث النبوة بما يتطلبه هذا الإرث



من تطبيق المنهج بنهاية ، لقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عظمه الحق سبحانه سيدنا إبراهيم عليه السلام عن إرث النبوة ، فليس هذا الإرث نالهم ، إنما تنطبق المنهج بصا وروحا ، كما تعلم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بما عساه له الحق عن نوح عليه السلام ، لقد وعد الحق نوحا بأن يسقيه وأهله من الطوفان ويرى نوح عليه السلام ابنه مشرفا على العرق ، فيسأله : ألم يعدني الله أن يسقي أمي ؟ فيبأدي نوح عليه السلام ربه ، بما أورده القرآن الكريم حين قال

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ لَحَقُّ وَأَنْتَ أَخْبَرُ

الْحَكِيمُ ﴿١٥﴾

(سورة هود)

فيقول الحق ردا على طلب نوح نجاة ابنه .

﴿ قَالَ يَنْفِرُ إِنَّهُ نَسِيَ مِّنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تُصَلِّ عَلَىٰ مَن يَسَّىٰ لَكَ يَوْمَ نَسِيٓ

لَاقٍ أَصْحَابُكَ أَن تَسْجُدَ مَعَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٦﴾

(سورة هود)

ولننظر إلى التحليل القرآني لانتفاء الأهلية عن ابن نوح عليه السلام : إنه ليس من أهلك ؟ بلدا ؟ إنه ممن غير صالح ، إن الحق لم يعمل : إنه عامل غير صالح : الذاتية ممنوعة - لأن العمل هو الذي يحاسب به الله ، فالإيمان ليس ببا ، ولا انتهاء لبلد ما ، أو انتهاء لفوم ما ، إنه العمل ، فمن يعمل بشرع أي رسول يكون من أهل هذا الرسول ، إن السعة للأبياء لا تأتي للذات التي تنحدر من نسب النبي ، بل يكون الانسحاب للأبياء بالعمل الذي تصعبه الذات

ون موقع آخر يعلمنا الحق عن سيدنا إبراهيم موقفا بصور رحمه الخالق بكل خدقه من آمن منهم ومن كفر . فقد طلب إبراهيم عليه السلام سعة الرزق لأهل بيته لدين جعل إقامتهم بمكة ، كما جاء في الكتاب الكريم

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنْ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾

( من الآية ١٢٦ سورة البقرة )

فهل استجاب الحق لدعوة إبراهيم برزق لذين آمنوا فقط من أهل مكة ؟ لا ، بل رزق المؤمنين والكافرين وعلم إبراهيم ذلك حينما قال له

﴿ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّمُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَفِي سَآئِرِ آيَاتِهِ ﴾

( من الآية ١٢٦ سورة البقرة )

إن الرزق المادى مكفول من الحق لكل الخلق ، مؤمنهم وكافرهم ، والانتديات المادى مكفول من قبل الله لأنه هو الذى استدعى المؤمنين والكافرين إلى هذه الدنيا . أما رزق المهج فامر مختلف ، إن اتباع المهج يقتضى التسليم بما جاء به دون تحريف وهذا المهج م بيحه أحد عن جاءوا بعد إبراهيم عليه السلام إلا القليل ، فمن آمن برسالة موسى عليه السلام دون تحريف هم قلة

ثم جاء عيسى عليه السلام برسالة تبعه بنى إسرائيل عن المادية الصرفة إلى الإيمان بالعب ، لكن رسالة عيسى عليه السلام تم تحريفها أيضا ، وعلى ذلك فأولى الناس بإبراهيم عليه السلام هم الذين اتبعوا المهج الخاتم الصحيح والمصى لكن ما سبق من رسالات ، وهؤلاء هم الذين آمنوا برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، والله ولى المؤمنين جميعا من آمن منهم برسالة إبراهيم خليل الرحمن ، إيماننا صحيحا كاملا ، ومن آمن برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . بعد ذلك يقول الحق سبحانه .

﴿ وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أَن يُخَالِفُوا مَا يَصِلُونَ إِلَّا أَنَّهُمْ وَمَا يَعْلَمُونَ ﴾

إن معنى « وبت » هو « تحت » و« أحييت » . ولماذا أحيوا أن يضلوا المؤمنين ؟ لأن المنحرف حين يرى المستقيم ، يعرف أنه كمنحرف لم ينجح في أن يضبط حركته على مقتضى التكليف الإيمان لـ « افعل » و« لا تفعل » ، أما الملتزم المؤمن فقد استطاع أن يضبط نفسه ، وساعة يرى غير الملتزم إنسانا آخر ملتزما ، فإنه يحتقر نفسه ، ويقول بينه وبين نفسه حسدا للمؤمن : لماذا وكيف استطاع هذا الملتزم أن يقدر على نفسه ؟

ويحاول المنحرف أن يأخذ الملتزم إلى جانب الانحراف ، وعندما لا يستطيع جذب الملتزم إلى الانحراف فهو يسحره ، وجزأ به ، ويحاول أن يمثال عليه يأخذ به إلى جانب الانحراف ثم يقل الله سبحانه ونعلى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ۚ (١) وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَرُونَ (٢) وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ (٣) وَإِذَا رَوُّهُمْ قَالُوا لَئِنْ هَٰؤُلَاءِ لَهَٰكُلُونَ (٤) وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ خَمِيمِينَ (٥) ﴾

(سورة المطففين)

وهذا ما يحدث الآن عندما يرى أهل الانحراف إنسانا مؤمنا ذا استقامة ، ليسخروا منه بكلمات كالتي تسمعها « خذنا على جناحك » أو يجادلون النبي من إيمانه وعندما يعود أهل الانحراف إلى أهلهم فهم يروون يتنكر كيف سخروا من المؤمنين ، وكلتهم يحققون السعادة هؤلاء الأهل بحكايات السخرية من الإنسان المؤمن ، ويعلمون الحق للمؤمن بأن لهم يوما يصحكون فيه من هؤلاء الكفار :

﴿ مَا يَهَيِّئُ اللَّهُ لَكَ أَشْرَءَ مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (٦) عَلَىٰ الْأَرْآءِ بِنُظُرُونَ (٧) ﴾

(سورة المطففين)

ويسأل الحق أهل الإيمان :

﴿ هَلْ يُؤْتُونَ الْكُفْرَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

(سورة التوبة)

أى قد عرفتكم كيف أجارى بالعقاب اهل الكفر .

لذلك فأولى الناس بإبراهيم هم المؤمنون برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ولا يمتنع بعض من اهل الكفر من محاولة جذب المؤمنين إلى الضلال إنهم يحبون ذلك ويتمنونه ، ولكن ليس كل ما يوده الإنسان يحدث ، فالتقى هو أن يطلب الإنسان أمر مستحيلا أو عسير المال ، هم يحبون ذلك ولكن لن يصلوا إلى ما يريدون ، يشير إلى ذلك قوله تعالى : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلوكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون »

إنهم يتمنون إضلال المؤمنين ، لكن هل يستطيعون الوصول إلى ذلك ؟ لا والمثال على ذلك هو ما فعله بعض أهل الكتاب من ايهود عندما ذهبوا إلى معاد بن جبل وإلى حديفة الصعابين الحليلى ، وذهبوا أيضا إلى عمار لصحابي الحليل وحاولوا فتنه معاد وحديفة وعمار لكنهم لم يستطيعوا

وعليها أن تعرف أن « الضلال » يأتي على معان متعددة ، فقد يأتي لضلal مرة بمعنى الذهاب والمساء في الشيء ، مثل قوله الحق

﴿ وَقَالُوا إِذَا صَلَّيْنَا فِي الْأَرْضِ نُبَاهِيَ حَلِيقِ حَدِيدٍ سَلَّ هُمْ يَلْتَمِزُوا رَبَّهُمْ تَكْفُرُونَ ﴾

(سورة السجدة)

لقد نساءل المشركون : أبعد أن نذوب في الأرض وتنصكك عناصرها الأولية نعود ثانية ، ونبعث من حديد ؟ . وقد يأتي الضلال مرة أخرى بمعنى عدم اعتناء الإنسان إلى وجه الحق ، كما قال الحق وصفا لرسوله صلى الله عليه وسلم عندما رفض عبادة الأصنام وظل يبحث عن المنهج الحق .

﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ﴾

(سورة الصحرى)

أي أنك يا محمد لم يعجبك صبح قریش في عبادة الأصنام ، وظلمت تبحث عن المنهج الحق ، إلى أن هدأك الله فأنزل إليك هذا المنهج القويم . لقد كنت صلا تبحث عن الهداية ، فجاءتك النعمة الكاملة من الله .

وهناك لون آخر من الضلال ، وهو أن يتعرف الإنسان على المنهج الحق ، ولكنه يحرف عنه ويتجه بعيدا عن هذا المنهج مثل قول الحق : « ودت طائفة من أهل الكتاب لريضلونكم وما يفلون إلا أنفسهم »

ونسأل . كيف يحدث إضلال النفس ؟ وتكون الإجابة هي : أن الصال الذي يعرف المنهج ويكره إنما يرتكب إثما ، ويرداد هذا الإثم جُرْماً بمحاولة الصال إضلال غيره ، فهو لم يكتب بصلال ذاته بل يرداد صلالا بمحاولة إضلال غيره . وهذا القول الكريم قد حل لنا إشكالا في فهم قوله تعالى

﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰٓ جُنُودٍ لَّا يُحْمَلُ بِهَا شَيْءٌ ۚ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۚ ﴾

( من الآية ١٨ من سورة طه )

وفي فهم قوله - جل شأنه -

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِيََّةً يَوْمَ الْعِيشَةِ ۚ وَمِنَ الَّذِينَ يُصَلُّونَ يَقِرُّ عَنِ الْأَسَاءَةِ مَا يَرُونَ ۚ ﴾

( سورة النحل )

وهكذا نعرف أن الوزر في آية طه هو وزر الضلال في الدنات والأوزار في سورة النحل هي لإضلال غيرهم فهؤلاء الصالون لا يكتبون بصلال أنفسهم ، بل يريدون من ضلال أنفسهم أوزارا بإضلال غيرهم فهم بذلك يزدادون صلالا مضافا إلى أنهم يحملون أوزارهم كاملة . « وما يفلون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

إنهم لا يشعرون بالكارثة التي سوف تأتي من هذا الصلابة لمركب الذي سينالون عليه العقاب . ولو أنهم تعمقوا قليلا في الفهم لترقوا عن إضلال غيرهم ، ولو بحثوا عن اليقين الحق لتوقفوا عن صلال أنفسهم

ومن بعد ذلك يقول الحق :

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ  
وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

إن الحق سألهم على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم لم تكفرون بآيات الله العجيبة وأنتم تشهدون ؟ وما قد يسأل سائل هل شهد أهل الكتاب الآيات العجيبة في زمن رسول الله ؟ .

والإجابة هي ألم يستفتح اليهود على من يقاتلونهم بمجيء نبي قادم ؟ إنهم كانوا يدعون الله قائلين : إنا نسألك بحق النبي الأمي الذي وعدتنا أن تخرجنا لنا في آخر الزمان إلا تنصرونا عليهم فكانوا يصرون على أعدائهم فلما بعث - صلى الله عليه وسلم - كفروا به بغيا وحسدا قال الله تعالى

وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفِهُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾

(سورة البقرة)

قد كفروا من أجل السلطة الزمنية فقد كانوا يريدون الملك والحكم وهذا عبادة بن سلام الذي كان يهوديا فأقسم قد قال عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابي ومعرفتي لمحمد أشد .

إذن فمعرفتهم بمعبد رسول الله ووصفه موجودة في آيات التوراة ولقد شهدوا  
الآيات البينات ، فكذبوا أنكروا الآيات طمعا في السلطة الزمنية حتى ولو تطلب ذلك  
أن يحرق بعضهم منحه الله سبحانه وتعالى ويحولوا هذا التحريف إلى سلطة رسمية  
فاسدة كهؤلاء الذين باعوا صكوك القرآن ولذلك قال الحق عن هؤلاء الذين يحرفون  
منهج الله :

﴿ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا  
قَلِيلًا هَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ كَتَمَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ ﴾

(سورة البقرة)

إن لعذاب هر مصر هؤلاء الذين يحرفون كلام الله ومنهجه .

ويقول الحق سبحانه :

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلِيْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ  
وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

ومعنى « تليس » هو إدخال شيء في شيء ، فتحن عندما يرتدى ملابسنا ، إنما  
مدخل أحدها في الآخر ، وبهذا يختلف منظر اللباس والملبوس .

وفي مجال الدعوة إلى الله نجد دائما الحق وهو يواجه الباطل ، إنهم يحبطون الحق  
بالباطل فهذه الآية تتحدث عن محاولة من بعض أهل الكتاب لإلباس الحق  
بالباطل ، وقد حدث ذلك عندما حرقوا التوراة والإنجيل وأدخلوا فيها ما لم يأت به  
موسى عليه السلام أو عيسى عليه السلام ، وكانت هذه هي محاولة ضمن محاولات  
أخرى لإلباس الحق بالباطل ، ثم جاءت أكثر المحاولات لإلباس الحق بالباطل وهو

إنكارهم لبشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رغم أنها وردت في كتبهم  
الساوية

لقد أعلنوا الإيمان بموسى أو عيسى ، ولم يؤمروا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، لقد  
أنكروا بشارة موسى وعيسى برسالة محمد الخاتمة ، وكان ذلك فمذ الناس الحق  
بالباطل ، لأنهم أعلنوا الإيمان برسولين ثم أنكروا الإيمان بالسبي الخاتم وذلك لأنهم  
كانوا يعلمون أن الإسلام الذي جاء به محمد رسول الله هو الدين الحق ، وكانوا إذا  
ما حلوا إلى أنفسهم عربوا ذلك وبكتمهم بمحدوبه .

﴿ وَخَلَّوْا بِهَا وَأَسْبَقَتْهُمُ نَفْسُهُمْ ظَلَمَ وَعَلُوا ﴾

( من الآية ١٤ سورة النحل )

ومع ذلك فهم يحاولون العثور على حيلة ليتعد بها الناس عن تلك الرسالة  
الخاتمة ، فنادى بهم في الكفر ، ونزل قول الحق :

﴿ وَقَالَتْ طَافَّةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي  
أُنْزِلَ عَلَى الدِّيكِ ءَامِنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَآكُفُّوا ءَاخِرَهُ  
لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾

لقد أراد بعض من أهل الكتاب أن يشككوا المسلمين في أمر المسيح ، بذلك  
اصطنعوا تلك الحيلة ، فالمؤمنون من العرب وقريش في ذلك الزمن كانوا أميين وكبوا  
يعرفون أن أهل الكتاب على علم بمناهج السباء ، ولم يكن القرآن كله قد نزل على  
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإذا ما آمن بعض منهم برسالة رسول الله رُجِه  
النهار وكفروا به آخر النهار فهذا خلط للحق بالباطل . وفي هذا خداع للمؤمنين



ولما أن نعرف أن « وجه النهار » مقصود به ساعات الصباح والظهر ، فالوجه هو أول ما يواجه في أي أمر ، ونحن تأخذ ذلك في أمثلة حياتنا اليومية ، فنقول عن بائع العاكهة : « لقد صنع وجهها لعاكهة » ، أي أنه قد وصع أصبح النهار في واجهة المربة ، وأحمى حلف الثمار الصالحة الناضجة ثمارا أخرى فاسدة . وعندما يفعل التاجر مثل هذا الفعل فمقصده النش والخداع ، لأن الإنسان إذا ما اشترى أي مقدار من هذه العاكهة مسيجد ربح ما اشترى هو من واجهه العاكهة ، وابقى من الثمار الفاسدة

وكذلك حارل بعض من أهل الكتاب أن يبدعوا المؤمنين بإعلان الإيمان أول النهار ثم إعلان الكفر آخر النهار ، والمهدف بطبيعة الحال هو إشاعة لشك وزراعة البلبلة في نفوس المؤمنين بخصوص هذا الدين ، فقد يقول بعض من الأميين : « لقد احتبر أهل الكتاب هذا الدين الجديد وهم أهل علم بماهج السماء ولم يحدوه مظابقا لماهج السماء »

أو أن الآية قد تولت في مسألة تحويل القبلة إلى الكعبة ، فإذا كان الحق سبحانه قد أمر سيدينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحول لقبله من ييب المقدس إلى الكعبة ، بالكافرون من أهل لكتاب أرادوا منقص ذلك ، وقالوا : « فلسبح أول النهار كلام محمد ونتوجه في الصلاة إلى الكعبة ثم نصل آخر النهار ونجعل قلتنا بيت المقدس »

وكان الحق قد أراد بذلك أن يكشف لـ أن كل أساليب الكفر هي من تمام فنة الفطنة وعدم القدرة على حسن التدبر ، لقد أرادوا إشعال الحرب المصية ضد المسلمين ، لعل بعضا من المسلمين يتشككون في أمر الدين الجديد ، لكنهم دون أن يلحظوا أنهم قد نصحوا أنفسهم ، واعترفوا دون قصد منهم بأن الدين أموا بالقرآن هم المؤمنون حقا بينما هم قد أهدوا لأنفسهم موقف الكفر الذي هو نقيض للإيمان ، قال سبحانه حكايه عنهم : « أمتوا بالذي أول على الدين أموا وجه النهار واكفروا آخره » فهم قد ارتكبوا لأنفسهم الكفر .

بعد أعلن هؤلاء المشككون التصديق بالإسلام ؛ وذلك ليعرف أساس عهم ذلك ، ولكوسهم أهل كتاب فهم قادرين على حكمه عليه ، فإذا ما رجعو عن

الإسلام من بعد معرفته ، فيقولون : إن رجوعنا ليس بسبب الجهل أو التعصب ، إنما بسبب احتسابنا هذا الدين ، فلم نجد ما سببا ولا متوافقا مع ما نزل على رسولنا وهذا من أساليب الحرب النفسية

والحق سبحانه وتعالى يكشف ذلك للمكر والخداع للذين حاولوا أن يكتبوا خداعهم ولعنهم المأخرة ، والتي أرادوا بها التشكيك والخداع . فبشر على رسوله هذا القول الحق

وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِيكَرُ قُلْ إِنَّ الْهُدَى  
هُدَى اللَّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ  
عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ  
وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٢﴾

إن الحق سبحانه يكشف للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين به من الأميين لعة إيمان بعض من أهل الكتاب بالإسلام وجه النهار والكفر به آخر النهار ، لقد طالب المتآمرون بعضهم بعضا أن يظل الأمر سرا حتى لا يفقد المكر هدفه وهو إبادة المسلمين من الأميين ، ولذلك قال هؤلاء المتآمرون بعضهم لبعض : « ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم » أي لا تكشفوا سر هذه الخدعة إلا لمن موافق شاكلتكم ، لكن الحق يكشف هذا الأمر كله بنزول هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم وبلاغه إياها للمؤمنين ، وبذلك فسد أمر تلك البلية ، وارتدت الحرب النفسية إلى صدور من أشعلوها ، ويستمر القول الكريم في كشف خديعة هؤلاء البعوض من أهل الكتاب فيقول سبحانه : « قل إن الهدى هدى الله أن يؤق أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم »

إن الحق سبحانه يكشف فعل الماكرين من أهل الكتاب الذين أرادوا إعلان الإيمان أول النهار كلون من هدى النفس ، لكه من صميم الضلال والإضلال ودريعة له ، ولم يكن هدى من الله ؛ لأن هدى الله إنما يوصل الإنسان إلى العاية التي يريد الله ، وهؤلاء البعض من أهل الكتاب أرادوا بالخدعة أن يجعلوا سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم دون أنواع يؤمنون بالإسلام ؛ لقد توأصى هؤلاء القوم من أهل الكتاب بأن يكتفوا بتماقفهم على تمثيل الادعاء بالإيمان وجه النهار والكفر به في آخره ، والاعلوا ذلك إلا لأهل ديارهم حتى لا يفتد المكر هذبه ، وهو ليلة المسمين

لقد أحلهم الخوف ؛ لأن الناس إن أخذوا بيد محمد صلى الله عليه وسلم لا ونوا مثلاً أولى أهل الكتاب من معرفة بالمنهج ، بل إن المسيح الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم هو المسيح الخاتم ، وأهل المكر من أهل الكتاب إنما أرادوا أن يجرموا الناس من الإيمان ، أو أنهم حادوا أن يدخل المسلمون معهم في المحاجة في أمر الإيمان ، وكان كل ذلك من قلة العظمة التي تصل إلى حد العناء

لمدا ؟ لأنهم توهموا أن الله لا يعرف باطن ما كتموا وظاهر ما فعلوا ، إنهم ساسوا أن الحق يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور ، وتعاقب ذلك مع سابق فعلهم عندما خرجوا من مصر ، ودهوا إلى التيه أثناء عبور الصحراء ، وادعوا أن الله قال لموسى عليه السلام : « علموا بيوتكم أيها الإسرائيليون ، لأن صابروا وأبطش بالبلاد كلها » وكانهم لو لم يصنعوا العلامات على البيوت قل يعرفها الله ، به كلام حائب للعاية بل هو منتهى الخيبة والضلال ، ويبلغ الحق رسوله الكريم : « قل إن الفصل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم » .

ومادام الفصل بيد الله فلن تستطيعوا يا أهل المكر المسلمين أن تأخذوا أساساً كما تودون ، وبعد ذلك تريدون أن تحذوهم ؛ لأن الفصل حين يؤتيه الله لمن آمن به فلن يزرعه إلا الله

فالخيلة لن تسرع فصل الإيمان بالله مادام قد أعطاه الله ، والله واسع بمعنى أنه قادر على إعطاء الفصل لكن الخلق ، ولن ينقص ذلك من فصله شيئاً ، والحق سبحانه عليم بمن يستحق هذا الفصل لأن قلبه مشغول بربه

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه .

يَخْلُصُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ

الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

إن أحد الیس له حق علی الله ، فكل لحظة من لحظات الحیة هی فصل من الله ، وهو سبحانه یعطی رحمته بالإیمان بمهجه لمن یشاء وهو صاحب الفضل المطلق وبعد ذلك یقول الحق سبحانه .

وَمِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنۢ إِن تَأْمَنۡهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦ

إِلَیْكَ وَمِنْهُمْ مَنۢ إِن تَأْمَنۡهُ بِدِينَارٍ لَا یُؤَدِّهِۦ إِلَیْكَ إِلَّا

مَا دَقَّتْ عَلَیْهِ قَآئِمَۤا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَیْسَ عَلَیْنَا فِی

الْأَمْنِ شَیْءٌ سَبِيلٌ یَّقُولُونَ عَلٰی نَلَّ الْكَذِبَ وَهُمْ

یَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

إنه مطلق الإنصاف الإلهی ، فإذا كان الحق قد كشف للرسول بعضا من مكر أهل الكتاب فذلك لا یعی أن هناك حملة علی أهل الكتاب وکأنهم کلهم أهل سوء ، لا ، بل منهم من یتیمر بالأمانة ، وهذا القول إنما یؤكد إنصاف الإله النصف العدل

راجع أهله وأخرج الحدیث الدكتور احمد عمر حاشم نائب رئیس جامعة الأزهر

إن الحق سبحانه يخاطب النفوس التي يعلمها ، فهو يحلم أن دعوة محمد صلى الله عليه وسلم ، قد برزت رحمة للناس أجمعين ، ويخاطب بها العالم كله بما فيه من أهل الكتاب ، وهم الذين يعرفون الآيات والعلامات التي تدل على محي . رسالة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومتهم أناس قد جعلوا دعوة محمد صلى الله عليه وسلم في بؤرة شعورهم يدرسوها ويؤمنوا بها . ولو أن الله قد جعل الحملة على كل أهل الكتاب ، لقال الذين هكروا في الإيمان برسول الله . « كما نفكر في أن يؤمن » ونحن نريد أن نعهد تعاليم الله لنا لكن محمداً يشر حملة على كل أهل الكتاب ونحن معهم .

مسألة يقول الله إن بعض من أهل الكتاب يتميرون بالأمية فإن من تراوده فكرة الإسلام يقولون إن محمداً صلى الله عليه وسلم لا يتكلم إلا عن نور من ربه ، لكن لو عزم القرآن احكم على الكل ، لتساءل الذين يشغفون برصة الإيمان بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لماذا نعم الحكم الجميع ونحن سيرة الطريق إلى الإيمان ؟

ولهذا يصح الحق القول الفصل في أن مهم أناساً يتجهون إلى الإيمان .

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّبِعُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاثَاءَ ثَلَاثٍ وَفَمِنْهُمْ يُسْمِعُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وفي هذا ما يطمش الذين شعلوا أنفسهم بدراسة هذا الدين والصكير في أن يؤمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم .

لو كان القرآن قد نزل بلغتهم جميعاً لقال الذين بهكروا مهم في الإيمان « نحن لنا كذلك ولا نستحق اللعة ، فلماذا يأتي محمد بلغتنا ؟ »

ذلك نرى القول بأن « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بضطار يؤده إليث » العدل انطلق في الإصناف :

وقد قال بعض المعسررين إن القرآن يقصد بها من « أهل الكتاب » النصارى :

لأن منهم أصحاب ضمير حي ، ونحن نعرف أن المقصود بأهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، وفي هذا التفسير إيضاح للمصري قصعة الخير لهم لا يتكرف الله ، بل يشبعها في قرآنه الذي يُتل إلى يوم الدين ، وذلك ليصدق أيضا أهل لكتاب أي أمر به . فتزل فيه آيات من القرآن ، لأن القرآن مصف مطلق الإيضاح . فإدام قد قال حصة الخير فيهم فلا بد أن يكون صادقا عندما يقول الأمور السينة التي انصفوا بها . وعندما يقول الحق سبحانه : « من أهل الكتاب من إن تأمنه بقطار يؤده إليك » فالقطار هنا للمبالغة في القدر الكبير من المال ، وكلمة الأمانة خيما ستعرضها في كتاب الله صر وجل نجد أنها مرة تتعدى بالياء ، كمثل هذه الآية : « من إن تأمنه بقطار » ومرة تتعدى بـ « على »

﴿ قَالُوا يَا بَنَاتَ مَا لَكَ لَا تَأْمَنُ عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ سَنَصُحُونَ ﴾

( سورة يوسف )

وقوله الحق .

﴿ قَالَتْ هِيَ مَأْمُوكَةٌ بِمَا لَكُمْ أَمْنٌ عَلَىَّ أَحِبُّهُ مِنْ قُلٍّ قَالَهُ خَيْرٌ حَمِيًّا وَهُوَ رَجُلٌ  
الْأَمِينُ ﴾

( سورة يوسف )

إن مادة الأمانة ثار متعددة مرة بالياء ، ومرة متعددة بـ « على » . وكل حرف من هذين الحرفين له حكمة ، فالمتكلم هو الله

إن الأمانة هي شيء يأمن فيه مؤمن على مؤمن ولا حاجة لصاحب الشيء المؤمن عليه إلا دمة المؤمن ، فإن كانت العلاقة بينها بحكومة بديعان وعقد ، أو شهود بهذه ليست أمانة ، إنما لأمانة هي ما يعطيها إنسان لآخر فيما بينها ، وبعد ذلك فالدائن بعد ذلك إما أن يُقرها وما لا يُقرها

وقلنا سابقا . إن على المؤمن الحق أن يحتاط للأمانة ، لأن هناك وقتا تنحصر فيه الأمانة ، وهناك وقت آخر يؤدي فيه الأمانة إن طلبها صاحبها

ومثال محمل الأمانة كأن يعرض عليك إنسان مبلغا من المال ، ويقول : « احفظ



هذا مبلغ أمانة عندك ، فتقول له : نعم سأفعل . وتأخذ المبلغ ، إن هذا النعم يسمى « التحميل » ، وعندما يأتي صاحب المال ليطلبه فهذا اسمه « الأداء » والكل يضمنون أنفسهم وقت التحميل ، وقد تكون النية هكذا بالفعل ، ولكن المؤمن الحق لا يأمن ظروف الأغير ، فمن المحتمل أنه عندما يأتي صاحب المال ليطلبه من المؤمن يجد المؤمن نفسه وقد اشغل بالأعيار ، فقد تكون ظروف الحياة قد داهمت مما دفعه ليتصرف في الأمانة أو أن تكون نفسه قد تحركت ، وقالت له . ومادا يحدث لو تصرف في الأمانة ؟ إن المؤمن الحق لا يضمن نفسه وقت الأداء ، وإنه ضمن نفسه وقت التحميل

إذن يجب أن نلاحظ في الأمانة ملحوظتين هما « الأداء » و « التحميل » . والذين يأخذون الأمانة ويبتهم أن يؤدوها ضمنوا أنفسهم وقت التحميل ، لكنهم لا يضمنون أنفسهم وقت الأداء لذلك فالمؤمن احتياط بقول نفسه . ولماذا أحرص نفسي لذلك ، فقد يأتي وقت الأداء فلا أستطيع رده لصاحبها .

لذلك يقول صاحب الأمانة أرجوك ابتعد عني فإني لست أهل هذه الأمانة

إنه نحات من وقت الأداء وذلك ما حدث في أمانة التكليف والاختيار والتي قال عنها الحق سبحانه

﴿ إِذْ عَرَّضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْتَمِلَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٧٦)

(سورة الأحزاب)

إن السماء والأرض والجبال طبلوا ألا يكون لهم اختيار وأن يظلوا مقهورين ، لأنهم لا يضمنون لحظة الأداء ، أما الإنسان فأنه ظلم جهول فقد قال « لا ، إني عاقل وسأرتب الأمور » والإنسان ظلم لنفسه ، وجهول لأنه لم يعرف ماذا يفعل وقت الأداء

لذلك يرى هنا لقول الحق : « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار » ونجد الأمانة متعددة بالياء ، فمعنى الياء - في اللغة - الإلصاق ، أي التصق القطار

بأمانته ، فأصبح هناك ارتباط وامتزج ، وإياك ساعة الأداء أن تفصل الأمانة عن القطار ، ساعة يقربك قطار الذهب بريقه معيك أن تلتصق الأمانة بالقطار ، وإياك أن يعربك القطار فتترك أمانتك لأبك إن نظرت إلى الضعاف دون أن تنظر إلى الأمانة فهذه هي الحبة .

أما استعمال « على » مع الأمانة ، « فـ » على « في » اللمعة تأتي للاستعلاء والتمسك ، أي اجعل الأمانة مستعلة على القطار ، وبذلك تصبح أمانتك فوق القطار ، ساعة تحذرك نفسك بأن تأخذ القطار لأنه يدير لك حركة حياتك ، ولأنه يخرجك إلى دنيا عربية مغربة فتذكر عر الأمانة ، وهذا وجد الفقهاء قد قالوا بقطع يد السارق في ربع دينار ، وجعلوا فيه قطع يد إنسان لم يسرق حسنة دينار وتساءل البعض قائلاً : يد بخمس مثيل عسجد ودبت مابها قطعت في ربع دينار فقال فقيه رداً على ذلك المعترض .

عر الأمانة أغلاها ، وأرخصها ظل الحياة ، فافهم حكمة الناري

إدب قول الحق سبحانه وتعالى « ومن أهل الكتاب من إن تأمعه بقنطار يؤذيه إليك » هذا القول جاء بالباء ليلصق الأمانة بالمؤمن عليه ، وجاء بالموثم عليه وهو القطار وهو أضخم شيء في عالم الموارب وكان من الذهب وهو أثمن المعادن وأغلاها ليؤكد على كل مؤمن أن يلصق الأمانة بما يؤتمن عليه ولا يعصل بينها أبداً لأنه لو فصل الأمانة عرُّه عن القطار ربح سولت له نفسه أن يأخذ القطار ويترك الأمانة .

وكذلك عندما تأتي الأمانة متعديه بعلى ، تكون الأمانة فوق الشيء المؤتمن عليه ، فالأمانة يجب أن تكون مستعلة على الشيء ، فهي علت قيمته ، ويقوى الحق من بعد ذلك « ومهم من إن تأمعه بدينار لا يؤذيه إلبث إلا ما دمت عليه قائم » أي أن تكون دائم السؤال عن دينارك الذي التمت عليه ذلك الإنسان ، وأن تلح في طلب دينارك .

ومن بعد ذلك يقول الحق « ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل » وقد قام بعض من بني إسرائيل على عهد رسول الله ، بخديعة الأميين من العرب المؤمنين



فأنكروا حقونهم . والمقصود بالأميين هنا المؤمنون الذين لم يكونوا من أهل الكتاب ،  
أو هم المسيحيون إلى الأم كما قال الحق .

﴿وَاللَّهُ تَجَرَّبَكُمْ مِنْ يُطُونَ أَهْنَكُمْ لَا تَعْبُونَ نَبِيَّكُمْ وَحَقَّ نَعْمُ تَسْمِعَ وَلَا تَصْنَعُ  
وَلَا تَقْدِرُ تَعْنَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾

(سورة التوبة)

أو أن يكون المقصود «الأميين» أهل مكة ، فقد كانوا يسموهم كذلك لأهم  
مسيحيون إلى أم القرى «مكة المكرمة»

من أين جاء أهل الكتاب في هذا الأسلوب المزجج في معاملة الناس ؟ ومن  
الذي وضع هذا السجع الذي يقصق بحدیة المؤمنین الأمیین ؟ وهل امصائل ومنزب  
الخلق تختلف في المعاملة من إسان إلى آخر ؟ وهل يقصق الخلق الفريم أن يأخذ  
إسان الأمانة وينكرها إذا كانت لرجل أمي ؟ ويرد الأمانة ويعترف بها إن كانت  
ليهودي ؟ هل يصح أن يفرض إسان مواله بالربا لغير اليهود ، ويفرض اليهود دون  
ربا ؟ إذن يكون هذه المعاملات محجمة ، هنا فضيلة ، وهناك لا فضيلة ، لا ، بل  
القصة يجب أن تكون مسوية ومكتملة في كل وقت وكل مكان ولكل إسان ،  
ولا ينبغي أن تتفرع

من أين إذن جاءوا هذا القول وهم أهل كتاب ؟ إن هذا ضد معج الكتاب الذي  
أمره الله عليهم بل هو من لتحريف والتحويل لقد جددوا أنفسهم وألصقوا بالتشريع  
ما ليس فيه ، فالكتاب السوي الذي نزل عليهم ليس به تصنيف البشر صنفين  
صنف هم أهل الكتاب وهم معاملة خاصة ، وصنف هم لأميون ولهم معاملة  
أخرى ، وكذا عليهم أن يتعموا من عدالة رسول الله صلى الله عليه وسلم في  
معاملتهم .

لقد أرح لهم رسول الله بالصبر المترب عليه من الله التاريخ الصادق والعدل ، في  
هذا القول الكريم الذي تناوله بالخطوط إنما سجل تاريخ انيهودية مع الإسلام .  
وهذا التاريخ لم يصدر فيه الله حكما واحدا يشتمهم جميع ، بل أنصف أصحاب  
الحق منهم ، وإن كانوا من دين اليهودية ، وبذلك استقر في أذهان انصفي منهم أن

الإسلام قد جاء بكل الحق ، ولو كان الإسلام قد أصدر حكماً واحداً ضد كل اليهود سواء من وقف منهم ضد دعوة رسول الله أو المتصف منهم الذي براوده فكرة الإيمان بالإسلام ، لو كان مثل ذلك الحكم العام الشامل قد صدر لقان المصنفون من اليهود نحن نفكر في أن نؤمن بالإسلام فكيف يهاجمنا الإسلام هذه المهاجمة ؟ لكن الإسلام جاء ليصف يعطى كل ذي حق حقه

وهؤلاء هم الذين يؤرجح الله لهم بالقول « من إن تأمنه بقسطار يؤده إليك » ، وتلك شهادة على صدق الذين من هؤلاء ، أما الذين طعت عليهم لماديه هؤلاء هم الذين جاء بهم لقول الحكيم « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ملامت عليه قائماً » ، وهذا هو التاريخ انصاف لمن طعت عليهم المادية فلا يرد الإنسان منهم ما عليه إلا بعد الملاحظة والمطابقة ، وهكذا يبلغنا القرآن لتدريج مصدق

والعلة في أن لدى يؤمن على قسطار يؤديه ، والذي يؤمن على دينار لا يؤديه هي علة واضحة فليؤمن على قسطار ويؤديه هو إنسان ملتزم أمام إله موصوف باسم الحق ، ولا يريد الله من عباده إلا أن يواجهوا حركة حياتهم بالحق .

وأكرر هامزة أخرى ، إن كلمة « الأمانة » ترد في القرآن الكريم مرة وهي متعددة بـ « على » ، ومرة أخرى وهي متعددة بالناء ، لأن الباء تأتي في اللفظ لإصاق شيء بشيء آخر ، فكأنك إذا أوثقت أيها المسلم فلان أن يلتصق بالأمانة حتى تؤديها ، وكذلك جاءت الأمانة متعددة بـ « على » ، أي أنك أيها المؤمن إذا أوثقت نفسك أن تستعمل على الشيء الذي أوثقت عليه ، فإذا ما أوثقت على مائة جنيه مثلاً فلا تنظر إلى ما يعود عليك من نفع إذا ما تصرف في هذا المبلغ ، بل يجب أن تستعمل على تلك المصلحة فربما أن نعيش نفسك أيها المؤمن بعائلة وعلمة الشيء الذي تحتلته من الأمانة ، بل قارن هذا الشيء بالأمانة فتجد أن كفة الأمانة هي الراجحة

والذين استباحوا خيانة الأمانة من أهل الكتاب ، إنما عصمت بصيرتهم عن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نال الشهرة بالأمانة سواء قبل الرسالة أو بعدها وعصمت أبصارهم ، إن الذين الحق لا يفرق في أداء الأمانة بين صنف من البشر ، وصنف آخر ، فالذين الحق يضم تشريعاً من إله خلق الجميع وهكذا نجد أن تشريعهم بالفرقة في أداء الأمانة هو تشريع من عند أنفسهم ، وليس من الرب المتولي شؤون خلقه جميعاً ، ويدحض الحق المصيبة التي حكموا بوساطتها أن يعاملوا الأميين

معامله تختص عن معاملتهم لأهل الكتاب ، فقال سبحانه : « ويهولون على الله الكذب وهم يعمون »

يعلمون ماذا ؟ يعلمون أن قولهم كذب ، فهم يعرفون الحكم الصحيح ويعرفون عنه ، وياليتهم قالوا : إن ذلك الحكم من عند أنفسهم ، لكنهم يسبون ذلك إلى تعاليم دينهم ، وتعاليم الدين - كما قلنا - مأخوذة من الله ، وهم بذلك وانعقاد بالله - يفترون على الله كذب بأنه خلق خلقاً ثم صنعهم صنفاً ، صنفاً تؤدى الأمانة له ، وصنفاً لا تؤدى الأمانة له ، وهكذا كذبوا على الله وعلموا أنهم كاذبون ، وهذا هو الافتراء . وهم أيضاً يعلمون العقوبة التى تلحق من يكذب على الله ورغم ذلك كذبوا .

قد حذف الحق في هذه الآية المعمول به فسم يفل : « يعمون كذا » ، الحق حين حذف « المقعول » فهو يريد أن يصمم الفهم ويريد أن يصمم الحركة ، إنه سبحانه يريد أن يلعب ما أن هؤلاء يعلمون أن قولهم هذا كذب ، ويعلمون عموماً ذلك الكذب . رسالة بأن قضية مقيمة ثم باتى بعدها كلمة « بل » فإنها تنقص القضية الى سقنتها ومعنى ذلك أنها تثبت صحتها . لقد قالوا .

« ليس علينا فى الأميين سبيل » وهذه قضية متبى به ليس : ، والحق يقول فى الآية التالية :

﴿ بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ

الْمُتَّقِينَ ﴾ (٧٦)

إن قول الحق فى بداية هذه الآية « بل » إما جاء لينقضى القضية السابقة التى ادعاه أهل الكتاب ، وكأن الحق يقول : اتق عليكم فى الأميين سبيل ، لأن المشرع هو الله ، ولناس بالنسبة به سبحانه سواء

وبعد ذلك باتى قول الحق بقضية عامة :

﴿ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ رَأَيْنَا فَإِنْ أَفْلَحَ بِحَبِّ الْخُمْرِ ﴾

( من آية ٧٦ سورة آل عمران )

ما اعهد هنا ؟ وأى عهد ؟

إنه تعهد الإيمان الذي ارتضيهه لأنفسنا أما بالله وساعة تؤمن بالله فمعنى  
إيمانك به هر حينة قبولك لكل حكم يصدر منه سبحانه ، وأن تلتزم بما يطلبه منك  
وإن لم تلتزم بما يطلبه منك كاد إيمانك بلا قيمة ، لأن دائمة الإيمان هو الالتزام  
ولذلك قلنا : إن الحق سبحانه وتعالى حينما يريد تشريع حكم من أمر به ينادى ولا  
يأبى الدين أمموا كتب عليكم كذا ، إن الحق سبحانه لا ينادى في لتكليف كل  
لباس ، إنما ينادى من أمر وكأنه سبحانه يقول : يا من أمر بـ ها ، اسمع مني  
الحكم الذي أريدك منك ، أن لا أطلب مني لم يؤمن بـ حكما ، إنما أطلب من  
أمن .

وهنا يقول الحق : « من أوفى بعهد واتقى فإن الله يحب المتقين » وقد يفهم  
العصر هذا القول بأن من أوفى بعهد الإيمان واتقى الله في أن يحمل كل حركاته  
مطابقة لـ « افعل ولا تفعل » فإن الله يحبه . هذا هو المعنى الذي قد يفهم بلوهنة  
الأولى ، لكن الله لم يقل ذلك ، إن « الحب » لا يرجع إلى الذات بل يرجع إلى  
العمل . لقد قال الحق : « فإن الله يحب المتقين » .

إن الإنسان قد يحظى ويقول : « لقد أحسن الله » وسأفعل من بعد ذلك ما يحلو  
في . ونحن نذكر صاحب هذا القول بأن الله يحب العمل الصالح الذي يؤديه العبد  
بنية خالصة لله وليس للذات أى قيمة ، لذلك قال : « من أوفى بعهد واتقى فإن الله  
يحب المتقين »

إن الذي أوفى بعهد واتقى سبحانه الله فيه التقوى ، وإياك أن تفهم أن الحب من  
الله لمعبد سيصبح حيا ذاتيا ، لكنه حب لوصف الوصف فيه ، فاحرص على أن يكون  
الوصف لك ذاتيا ، لتظل في محبوبة الله

ولذلك نقول : إن الحق سبحانه وتعالى أوضح لنا أن الذات تتنازل عن ذات ،  
والثواب عند الله مسألة من أصل واحد فالجس ليس له قيمة ، إنما القيمة  
للعمل الصالح .

وقد صرنا المثل قديما ، وقلنا . إن الحق سبحانه وتعالى حينما وعد نوحا عليه  
لسلام بأن يسقيه من انجرف هو وأهله ، ثم فوجئ نوح بأن الله من المخرفين ، قال  
سبحانه حكاية عما حدث :

﴿ قَدْ سَخَّرَ بَيْنِي وَبَيْنَ آبَائِي قَالَ لَا عِصْمَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ  
رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُخْرِفِينَ ﴾

( سورة هود )

ماذا فعل نوح عليه السلام ؟ لقد نادى ربه طالبا مجاء ابنه  
﴿ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴾  
( ١٥ )

( سورة هود )

ويعلمنا الله من خلال رده على نوح ، أن أهل الأنبياء ليسوا من جاءوا من  
نسلهم ، إنما أهل الأنبياء هم من جاءوا على منهمهم ، لذلك قال الحق نوح عن  
ابنه :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ﴾

( من الآية ٤٦ من سورة هود )

لمادا يكون ابن نوح ليس من أهل نوح ؟ ذلك لأن أهل النبوة هم الذين يتبعون  
منهج النبوة ، ولذلك لم يقل الحق لنوح عن ابنه : « إنه عامل غير صالح » بكن الحق  
سبحانه قال عن ابن نوح : « إنه عامل غير صالح » . لقد نسب الحق الأمر إلى  
العمل

إذن فالحكمة هي أن الله سبحانه وتعالى في أسلوبه الصراى يوضح لنا أن الله  
لا يحب شخصا لذاته ، إنما لعمله وصالحاته فلم يقل « من أوفى بعهده واتقى فإن  
الله يحبه » ، لأن « لهاء » هنا ترجع إلى الذاب ، إن في ذلك إيضا كمال البيان بأن  
الله يحب عمل العبد لا ذات العبد . فإن حرص العبد على محبوبة الله فذلك يتطلب  
من العبد أن يعمل متعبا منهج الله ، وبعد ذلك يقول الحق :

يَسْتُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ تُعْاقِبُهُمْ  
أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ  
اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُرَكِّبُهُمْ  
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

وساعة نسمع كلمة « شراء وبيع » فلا بد أن نتوقف عندها ، لنفهم معناها بدقة  
ويجوز في الربيع نرى المقايضات أو المبادلات في السوق لدى له مع مباشر ، كأن  
يبادل طرف طرفا آخر ، قمحا بقمح ، فهذه سلعة يتم مبادلها بسعة أخرى ،  
وعلى ذلك فليس هناك شارب وياتح ، لأن كلا من الطرفين قد اشترى وباع . وهنا  
سؤال : متى يصبح الأمر إذن شراء وبيعا ؟

إن الشراء والبيع يحدث عندما نستبدل درهما مباشرا برزق غير مباشر ، ومثال ذلك  
عندما يشتري الإنسان رغيف خبز بحصة قروش ، إن هذا هو الشراء والبيع ، لأن  
الحصة قروش هي رزق غير مباشر النعمية ، لأن القود لا تشبعك ولا يرويك من  
عطشك ولا تترك . والرغيف هو رزق مباشر النعمية لأنه يشبعك ويدفع عنك  
الجوع وعندما يحب الإنسان أن يشتري شيئا فإن الذي يدفعه في الشراء يسمى ثمن  
إذن فكيف يشتري الثمن ؟

إن الحق يوضح لنا أن الأثمان لا تكون مشتركة أبدا ، إنها مشتركة بها ، ولذلك  
تكون أول خيبة في صفقة لدى يشترون بعهد الله ثمنًا قليلًا ، أنهم اشتروا الثمن ،  
بين الثمن لا يشتري ، فالذي يشتري هو السعة . وبالنسبة للثمن الذي اشتروه ثمن  
له قيمة ، لكنه ثمن قليل ، ومن هنا جاء تحريم الربا لأن المرابي يعطي الشخص  
عائدا ، ويريد أن يسترده مائة وعشرة ، ويكون المرابي في هذه المسألة قد جعل القود  
سلعة ، وهكذا تكون الصفقة خائبة من بدايتها

إذن فأول خيبة في نفوس الناس الذين يستولون الهدى ويأخذون بدلا منه  
الصلالة ، إنهم يخاسرون .

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الصَّلَاةَ بِالْهَدَىٰ قَلِيلًا يَجْزِيهِمْ وَمَا كَانُوا مُتَعِدِينَ ﴾ (١٠٣)

(سورة البقرة)

والحق سبحانه يقول هنا : « إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا ، ويعرفون أن الله ، دائما مدحرج على المذنبين ، أى أنهم تركوا عهد الله والأيمان لم يخلصوا بها عن التصديق بالرسول ، وعلى بصيرته إذا جاءهم ، أنهم اشتروا ذلك ثمن من قليل ، كيف يحدث ذلك ؟ هذه المسألة واقعة حال ، وإن كان المراد عموم الموصوع لا خصوص النسب ، فلا يقول أحد : إن هذه الآية تترك الأمر للمعالي فلا شأن لها بها ، لا فكل من يشتري بآيات الله ثمنا قليلا نطبق عليه هذه الآية

ورافعة الخلف التي تربت فيها الآية هي أن جماعة في عهد حلب وجدعة دخلت على كعب بن الأشرف اليهودي يطلبون منه الميرة - أى الطعام والكسوة - فقال لهم هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله ؟ قالوا نعم ، فإن إيسى سمعنا أن أعطاكم وأن أنصركم ولكن الله حرمكم حبرا كثير رئيسا لولا ، لماذا حرما الله الخبير الكثير ؟ وجاءهم لإحسانه لقد أعلنهم الإيمان بمحمد فيها وحدوا أنفسهم في هذا الموقف ، قالوا لكعب بن الأشرف : دعنا فترة لانه وبما عشنا شبهة ، فلراجع فيها أنفسنا وعندما مرت الفترة ، فصلوا الطعام والكسوة على الإيمان ، وقالوا لكعب بن الأشرف : لقد فرأنا في كتابنا الموحدة لذبح خطا ، ومحمد ليس رسولا ، فأعطاهم كعب الموت والكسوة وهؤلاء هم الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا ، وهو الطعام والكسوة وكل من يشتري بآيات الله ثمنا قليلا ، فهو بطمس حكمها من أحكام الله من أجل أن ينطهر أدم الناس أنه معصى ، أو أنه مابى لروح الرمان ، أو يرى لأولياء الأمر فعلا من الأفعال لا يرضى عنه الله

إذن فالذى يفعل مثل ذلك إنما يشتري بآيات الله ثمنا قليلا ، وكل من يحمل آية من آيات الله حرمه للبيع من أجل أن يأخذ عنها ثمنا يحترق حلالا في هذا العصر ، إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا .

والمقصود هنا بعهد الله ، إما أن يكون عهد العطرة أو العهد لدى أحده الله على أهل الكتاب بأنهم إن أخرجوا بعنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا بد أن يعلنوا الإيمان به وهو العهد الذى جاء به القول الحق .

﴿ وَإِذَا أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْبَنِي إِسْرَءِيلَ أَنَّمَا أَنَا رَبُّكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِيدٍ رَسُولٌ

مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَنَنْصُرَنَّكُمْ لَئِنْ أَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي  
قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَإِنَّا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٨﴾

(سورة آل عمران)

إذن بعدما جاءت صفة تكذيبهم لما أعلنوه من إيمان سابق مقابل الميرة والكسوة  
فهم قد تركوا عهد الله وأخذوا النسيء انقلب من الميرة والكسوة ، وكان ذلك خيبة  
كبرى فهم قد اشتروا النسيء ، والنسيء مع ذلك قليل ، ولذلك يقول عنهم الحق :  
﴿ أَوَلَيْكَ لَا حَسَنَ لَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكْسِبُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْطُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْعِصْمَةِ  
وَلَا يُرْجَوْنَ ﴾ ﴿٨٨﴾

(سورة آل عمران)

وكلمة « أولئك » تدل على أن الصلة وهي « يشتركون بعهد الله وأيمانهم ثمت  
خليلاً » تلحق بهم كل من يتصف بهذه الصفات وتحمل له المصير نفسه هذه الآية  
وإن برلت في هؤلاء الأشخاص الذين جرب منهم خافعة شراء الطعام والكسوة مقابل  
النكوص عن الإيمان برسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنها تشمل كل منصف  
هذه الصمة وكل من كان على هذا النور في أي عصر ، وفي أي دين من الأديان ،  
ويصفهم الحق سبحانه به أولئك لا حلاق لهم »

وكلمة « خلاق » وكلمة « حلق » وكلمة « حليف » وكلمة « حلق » كلها تدور  
حول معنى يكاد يكون متقارباً ، فالخلق - نصم الخاء واللام - أن يوجد صفة في  
الإنسان نعلب عليه حتى نصير ملكة فيقال « فلان عنده خلق الصدق » أو  
« فلان خلقه الكرم » ومعناه . أن فلانا الأول صار الصدق عنده ملكة ولا يتعب  
نفسه في أن يكون صادقا بل صار الصدق أمراً طبعياً فيه ، وكذلك وصف فلان  
الثاني بالكرم أي أن الكرم صار ملكة وسجية عنده

وهذه الملكة في الأمور المعنوية تساوي الألية في الأمور الحسية ؛ لأننا نعرف أن كل  
فعل من الأعمال يحتاج إلى درجة ليكون الإنسان متممراً في أدائه ، وعلى سبيل المثال ،  
العامل الذي يسمح على آلة يحتاج إلى أن يتدرب على تحريك مكوك الخيط ، وأن  
يتعلم كيف يحرك المكوك بين حيزوط السبيح ؛ وبعد ذلك يختلف الخيطان معا لتمسك



بها حركة المكوك الثانية في ارتدادها ، وبذلك يتم السبح ، وحين يتدرب إنسان على هذا العمل فهو يحتاج إلى وقت طويل ، ليصل إلى كفاءة الحركة .

في بداية التدريب يكون الأمر صعبا ، ويستطيع انتساح بعد أن يتفهم التدريب أن يجلس أمام آلة السبح ويدها محرك المكوك بآلية . لقد صارت المسألة بالنسبة إلى السباح المتدرب آلية .

وسبق أن صرحت المثل بالإنسان الذي يتعلم قيادة السيارة ، فالمدرّب يعلمه كيف يدير المصّاح ، وكيف يستقر لتوجيه المحرك ، وكيف يفتح مكبح السيارة ، ثم كيف يحرك عصا التحكم في اندفاع السيارة ، وكيف يوازن بين الضغط على بدال الوقود والضغط على بدال التحكم العاقل ، وكيف يوازن بين سير السيارة بتوجيه السرعة بلمسات خفيفة لبدال المكبح .

وقد غلطى ، لإنسان في بداية التعلم ويرونيك ، ولكنه بعد تمام التدريب فإنه يحمل مآلية وبدون تفكير ، إنه عمل إلى لا يحتاج إلى تفكير ، وصرحت في السابق مثالا بالصبي الذي يتعلم حياكة الملابس ، إنه يأخذ وقتا يصنع الخيط في سبم الإبرة ، وتقع منه الأخطاء في قياس المسافات المختلفة بين العروق ، لكنه من بعد ذلك يتدرب على فعل هذه الأعمال التي كانت صعبة ، ويؤديها بآلية ، والعمل الآلي في الأمور المحسنة ، يقابل الملكة في الأمور المعسوبة ، فيقال : « إن الصديق عبد فلان ملكة » أي أنه إنسان لا يرفقه أن يكون صادقا .

وبحق أثناء تعليم أبائنا للسبح - مثلا - نقول لهم : « إن حكم الفاعل الرفع والمفعول به منصوب » وعدم ينطق الابن عبارة ما ، فإنه يحاول تطبيق القاعدة أثناء القراءة ، وقد يسأله ، أو يتلحج ، وعندما يتذكرها فإنه ينطق اكلمات بربحها المصوب الصحيح ، وبعد أن يتم التدريب على القاعدة ويقرأ الابن ، فإن أخطائه تتلاشى ، وبذلك يصير السبح ملكة عنده .

وكذلك الخلق ، إن الخلق صفة ترسخ في النفس ، فتصدر عنها الأفعال بيسر وسهولة ، فيقال : « الصديق له خلق » ، « الكرم له خلق » ، « الشجاعة له خلق » ، إنها الصفات التي ترسخ في النفس فتصدر عنها الأفعال في يسر وسهولة . ولخلق سبحانه بقول : « أولئك لا خلاق هم في الآخرة » وقد مر البعض حرمان أولئك من الخلق بأن هذا المصنف من الناس لا نصيب لهم من الخلق ، لأن الخلق

صفة راسخة في الإنسان ، والحق يحدد الزمن بأنه « في الآخرة » ، والآخرة هي الوقت الذي لا يمكن التدارك فيه ، فالآخرة هي يوم التقسيم الصحيح والنهائي

إن الإنسان قد لا يكون له نصيب السلوك القويم فيعدل سلوكه حتى يكتسب هذا السلوك القويم في الدنيا لكن الإنسان لا يستطيع في الآخرة أن يجد مجالا للاستدراك ، وهذه هي الخيبة القوية

فإنسان في الدنيا ، قد يقوم بعمل ما ولا يكون له نصيب من أجره أو قد لا يرى نحن اجراء والنصيب الذي يعطيه له الله ولكن الله يعوضه في الآخرة عن هذا العمل الذي لم يكن له نصيب منه في الدنيا أما من لا حلاق له في الآخرة فكيف يتم التعويض ؟ إن ذلك أمر مستحيل ؟

ويضيف الحق : « ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكهم وهم عذابليم ، وقد يقول قائل : ألم يقل القرآن الكريم في موقع آخر ، إن الله يقول للكافرين :

﴿ قَدْ أَحْسَبُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ ﴾ (١١٨)

(سورة النور)

فلماذا يقول الحق لهم مرة « احسبوا فيها ولا تكلمون » ، ومرة أخرى يقول الحق « لا يكلمهم الله » ؟ وجيب على مثل هذا القول : إن الحق لا يكلمهم كلاما ينفعهم ، أو أنه سبحانه يكلمهم بواسطة ملائكته ، ولكن كيف لا ينظر إليهم الله ؟

وساعة نجد أمرا بوحده في الناس وبه نظير مسبوب لله سبحانه وتعالى ويقول له سبحانه عن نفسه ، فلأبد أن نأخذ هذا الأمر في إطار . « ليس كمثله شيء » .

إننا في مجالنا البشري نقول : « فلان لا ينظر إلى فلان » أي أنه لا يوجه عيونه إليه ، ويعول حديثه عنه ، لكن لا يمكن قياس ذلك على الله ، لأن الله منزه عن التشبيه فهو لوضع البشري نجد إنسانا يجب صديقا له فقبل عليه بالوجه والنظر فيقال « فني هو قيد العين » أي أنه شاب عندما ننظر إليه العين قهر يقيد العين

فلا تلعب عنه إلى أي مكان آخر، هي هذا الشاب محاسن تجمع العين لا تلعب بعيداً عنه . وهكذا تأخذ إقبال العيون بالنظر عن المنظور أو على الرئي كسمة للاهتمام به ، وهذا صحيح في الوضع البشري

لكن إذا ما جاء ذلك بالنسبة لله ، هنا تأخذ المسألة في إطار « ليس كمثله شيء » . وهكذا نصهم عدم نظر الله إلى « الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً » بأن الله يهملهم ، ولا يهتم بهم « لا ينالهم الله برحمته » ، فالحق سبحانه منزه عن كل تشبيه ، وهكذا الأمر في عدم نظر الحق إليهم ، تأخذ الأمر أيضاً في إطار « ليس كمثله شيء » إن ولي الأمر من البشر عندما يرهق في عقاب أحد رعاياه ، لا ينظر إليه ويهمله ، فيما بالما بإهمال الحق سبحانه ويعلى ١٢ إنه إبعاد لهم عن رحمة الله ورضوانه .

ويصيف الحق سبحانه « ولا يذكهم ولهم عذاب أليم » والتركية تأتي بمعنى التطهير ، أو بمعنى الثناء أو الثناء والريادة فنقول : « فلان زكى فلان » أي أثنى عليه ويقال أيضاً . « فلان زكى فلان » أي صهره ، ومن هذا تكون « الركاة » التي هي تطهير وثاء .

وعندما يجترنا الحق سبحانه أنه لا يهتم ذلك الصنف من البشر ولا ينظر إليهم ولا يظهرهم من أوزارهم ، فهذا مقدمة لما أعده لهم بقوله . « ولهم عذاب أليم » .

وكان الحق سبحانه قد أورد هذا المصير بالنسبة لهذا الصنف من البشر حتى لا يقول أحدهم ليس مهماً أن الله أن يكلمني ولن ينظر إلي ، ولن يركبني ، ولكنه قد يدخني الجنة « لأن يدخل واحد من هذا الصنف من البشر الجنة بل له وأمثاله العذاب لأليم » . وحين يقال . « ولهم عذاب أليم » فلا بد أن تأخذ قوة الحدث فاعل الحدث .

وفي حياتنا العادية عندما يقال . « صفع الطفل فلاناً ارجل » نعلم بطبيعة الحال أن صفعة الطفل تختلف في قوتها عن صفعة الشاب ، وكذلك صفعة الشاب تختلف عن صفعة بطل في الملاكمة . إذن فالحدث يختلف باختلاف فاعله قوة وضعفه على المعمول به الذي هو مناصد الحدث ، فإذا كان فاعل العذاب هو الله فلا بد أن يكون عذاباً

البا ، ولا حدود لآله ، أبحنا الله وإياكم منه ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه

﴿ وَإِنْ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَهُمْ بِالْكِتَابِ  
لِيُتَحَسَّبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُمْ مِنَ الْكِتَابِ  
وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ  
وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبَرُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ٧٨

لمى أنهم يلون ألسنتهم بالكلام الصادر من الله ليحرفوه عن معانيه ، أو يلون ألسنتهم عندما يريدون التعبير عن المعاني وه الل ، هو القتل ، فحين عندما يقتل حيلا ، نحاول أن نعدل بين فرعين اثنين من الخيوط ، ثم نفتلهم معا لنصنع حيلا ، والهدف من الفتل هو أن نصنع قوة من شعيرات الخيوط ، فهذه اشعيرات لها قوة محدودة ، وعندما نفتل هذه الخيوط فلنا بريد من قوة الخيوط بجعلها معا

إذن فالقتل المراد به الوصول إلى قوة ، وهكذا يرى أنهم يلون ألسنتهم بكلام يدعون أنه من المسيح المزل من عند الله ، وهذا الكلام ليس من المسيح ولم يرل من عند الله إنهم يفعلون ذلك لتقوية مركزهم والسبق من مكانة لإسلام والنطق في الرسول كما قالوا من قبل : « راعنا » ، لذلك قال الحق غاف المؤمنين

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعَيْتُمْ وَفُوتُوا أَمْرًا وَلَا تَقُولُوا نَحْنُ عَدَابُ اللَّهِ ﴾ ١٠١

( سورة البقرة )

إن الحق يوضح لنا ألا يعطى لهم فرصة لتحريف كلام الله ، فهو سبحانه القائل

﴿ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَآتَمَمَّ غَيْرَ  
 مُسْمِعٍ وَرَاعِنَا لِبَآءٍ بَآئِسَتِهِمْ وَطَعَايَ الَّذِينَ وَلَّوْا أَنفُسَهُمْ فَالَوْ أَنَّهُمْ فَاذَعَمَّا وَآتَمَمَّ وَانْطَرْنَا  
 لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْرَبَ وَلَكِنْ لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (٦٦)

(سورة النساء)

لقد فصحهم - الحق سبحانه - لنا ، وهم يحرفون الكلام عن موضعه ، فقد قال  
 الحق هذا القول بمعنى أن الذي تسمعه لا يضرك لقد سجل الله عليهم أنهم قالوا سمعنا  
 وعصينا كما قلنا تنحريف الكلمة وقالوا : « اسمع خبر سمع » أي « لا سمعت أبد » ، ثم لما  
 كما أنشدوا من قبل قول الله :

﴿ وَقُولُوا حِطَّةٌ ﴾

( من الآية ١٦١ من سورة الاعراف )

وحرفوا هذا القول : « وقولوا حنطة » ، وهم قد فعلوا ذلك حتى نحب هذا  
 التحريف من الكتاب ، وما هو من الكتاب ، أي أنهم يقتلون بعضا من المعاني  
 المستطعة من الكلمات حتى يوهموا المؤمنين بأن هذه المعاني غير المرادة وغير الصحيحة  
 هي معان مرادة لله ، وصحيحة المعنى ، إنهم يدعون على النهج المنزل من السماء  
 ما ليس فيه ، ولذلك قال سبحانه : « لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب »  
 إنهم عندما يلرون ألسنتهم بالكتاب يحرفونه رعية في التيسير والتدليس عليكم لعطوا  
 أنه من الكتاب المنزل من عند الله عن رسولهم ، إنهم يوقعوا ذلك فحب لجار أن  
 يتوبوا ويرحموا إلى ربهم ويدعوا على ما فعلوا .

أما قولهم بعد ذلك : « هو من عند الله » فهو دليل على أنهم أحدثوا في الكتاب  
 شيئا وأصروا عليه فجاءوا بقولهم : ( هو من عند الله ) لينصوا عن أنفسهم شيئا أن  
 يدعى عليهم أنهم حرفوا الكتاب ، ولولم يكونوا قد حرفوا الكتاب أكانت تخاطر  
 بياهم ، هذه ؟ إن أمرهم جاء من باب ( يكاد المرئيب أن يقول خلوني ) إنهم بهذا  
 القول يجتالون على إخفاء أمر حدث معهم . إن الحق - سبحانه - يؤكد أن الخيانة  
 تلاحظهم فيقول : ( وما هو من عند الله ) ، فهذه الآية الكريمة تمصحهم وتكشف  
 تحريفهم لكتاب الله ، يقول سبحانه : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »

إهم يعرفون أن ما يقولونه هو الكذب ، والكذب كما عرفنا هو أن تكون نسبة الكلامية غير مطابقة للواقع ، فالنسب في الأحداث تأتي على ثلاث حالات : نسبة واقعة .

نسبة يفكر فيها وهي نسبة ذهنية  
نسبة يعطى بها

فعندما نعرف إنسانا اسمه محمد ، وهو يجتهد بالفعل فهذه نسبة واقعة  
وإذا خطر ببالك أن تخبر صديقا لك باجتهاد محمد فهذا الخطأ نسبة ذهنية .

ومسألة تنطق بهذا الخبر لصديق لك صارت النسبة كلامية . والصدق هو أن تكون النسبة الكلامية لها واقع متسق معها كأن يقول : « محمد مجتهد » ويكون هناك بالفعل من اسمه محمد وهو مجتهد بالفعل ، وهذا تكون أنت الماطق بخبر اجتهاد محمد إنسانا صادقا ، أما إن لم يكن هناك من اسمه محمد ومجتهد فالنسبة الكلامية لا تتفق مع النسبة الواقعية ، لذلك يصير الخبر كاذبا . والعلماء يهرقون بين الصدق والكذب بهذا المعيار فالصدق : هو مطابقة الكلام للواقع ، والكذب هو عدم مطابقة الكلام للواقع

وحاول بعض من الذين يحبون التشكيك أن يقيموا عند سورة المنافقين التي يقول فيها الحق

﴿ إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ

يَشْهَدُ إِنَّا الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝﴾

(سورة المنافقون)

لقد قال المنافقون : نشهد أنك لرسول الله ، وسيدا محمد صلى الله عليه وسلم هو رسول من عند الله بالفعل ، والحق سبحانه يقول : « والله يعلم أنك لرسوله » فهل علمهم كعلم الله ؟ لا ، لأن الله سبحانه قال : « والله يشهد إن المنافقين لكاذبون » ، فكيف يصفهم الحق بأنهم كاذبون مع أنهم شهدوا بما شهد هو به ؟

إن الحق لا يكذبهم في أن محمدا رسول الله فهذه قضية صادقة ، ولكنه سبحانه قد كذبهم في قضية قالوها وهي « شهد » ، لأن قولهم : « نشهد » تعني أن يوافق الكلام المنطوق ما يعتقدونه في قلوبهم ، وقولهم : « نشهد » هو قول لا يتفق مع ما في

قلوبهم ، ولذلك صدروا كذابين ، ففساد كل منهم لا يوافق ما في قلبه

إذن فقول الحق : « ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » ، أى بهم يقولون كلاما ليس له نسبة خارجية تطابقه ، وهم يعلمون أنه كذب ، حتى لا تقول : إنهم نطقوا بذلك غفلة ، لقد تعمدوا لكذب ، وهم يعرفون أنهم يقولون الكذب . ولقدقة تقتضي أن يجب أن يعرف بين صدق الخبر ، وصدق المحبر ، صدق الخبر هو أن يطابق الواقع لكن أحيانا يكون المحبر صادقا ، والخبر في ذاته كذب ، كأن يقول واحد : « إن فلانا يستذكر طول الليل » لأنه شاهد حجرة فلان مضاعة وأنه يمنع كتابا ، بينما يكون هذا الفلان عارفا في قراءة رواية ما ، إن المحبر صادق في هذه الحالة ، لكن الخبر كاذب .

ولكن في مجال الآية نحن نجد أنهم كاذبون عن عمد ، فاللسان هو وسيلة بيان ما في النفس .

إن الكلام ليس لفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا  
ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ  
وَالنَّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ  
اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ  
وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ ٧٦

وتحس بعرف أن الحق سبحانه وتعالى حين يرسل منهجه ، فهو يرسله في كتاب ، ويقضي ذلك أن يصطفى سبحانه أنسبنا للرسالة ، أى أن الرسول يجب أن يجهز ويطلقه على نفسه وبعبارة للناس ، الرسول مصطفى من الله ويختلف في مهمته عن

اسى ، فالى ايضا مصطلح ليطبق المنهج ، وهكذا حتى لا يسع التمس المنهج ككلام  
فقد ولكن يرويه تفسيرا ايضا ، إذن فالرسول واسطة تليقيه ونموذج سلوكى ، ولى  
ليس واسطة سلوكية ، بل هو نموذج سلوكى فقط .

إن الحق سبحانه وتعالى يرسل النبى ويرسل الرسول ، ولذلك تأتى الآية :  
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَتَتْهُ الْبُطُنُ رِجَالًا يَمْشُونَ  
فَبَسَّخَ اللَّهُ مَا فِي الشَّيْطَانِ ثُمَّ جَعَلَ اللَّهُ بَآيَاتِهِ وَآيَاتِهِ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥١ ﴾

(سورة صج)

هكذا يعرف أن الرسول والى كليهما مرسل من عبد الله ، الرسول مرسل للإغ  
والأسوة ، والى مرسل للأسوة فقط ، لأن هناك بعضا من الأمانة يكون المنهج  
موجودا ، ولكن حل النص عن المنهج هو المعتقد ، ومثال ذلك عصرا الحاصر .

إن المنهج موجود وكلما تعلم ما الحلال وما الحرام ، لكن حية هذا لزمان تأتى من  
ناحية عدم حل انفسا على المنهج ، لذلك فتحن نحتاج إلى أسوة سلوكية ، هكذا  
عرفنا الكتاب ، والسوة ، فما هو الحكم إذن ؟

لقد جاء الحق بكلمة . « الحكم » هنا ليدل على أنه ليس من الضروري أن توجد  
الحكمة الإيمانية فى الرسول أو النبى فقط ، بل قد تكون الحكمة من نصيب إنسان

من الرعية الإيمان ، وتكون القضية الإيمانية ناصحة فى ذهنه ، فيفوها لأن الحكمة  
تقتضى هذا . ألم يذكر الله لنا وصية لقمان لابه من المنهج  
الدينى ، وعلى ذلك من الممكن أن يأتى إنسان دون رسالة أو نبوة ، ولكن المنهج  
الإيمان ينقدح فى ذهنه ، فيعط به ويطبقه ، وهذا إيدان من الله على أن المنهج يمكن  
لأى عقل حزن يستعبده أن يقنع به ، فيعمل به ويبله

ولا بد لنا أن نؤكد أن من يبه الله الحكمة فى الدعوة بالمنهج الله وتطبيق هذا المنهج ،  
لن يضيف للمنهج شيئا ، ويحكم صدقه مع الله فهو لن يدعى أنه مبعوث من الله  
للناس ، إنه يكفى بالدعوة لله وبأن يكون أسوة حسنة



لكن لماذا جماعة هذه الآية ؟ لقد جاءت هذه الآية بعد جدال نصارى نجران مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة ، وأثناء الجدال نصبت إليهم جماعة من اليهود ، وسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم

بماذا تؤمن وتأمرون ؟ فأبى عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأوامر المنهج وبواحيه ، وأصول العبادة ، ولأن تلك الجماعة كانوا من أهل الكتاب ، بعضهم من نصارى نجران والبعض الآخر من يهود المدينة ، وكانوا يرفضون أوامر تعبدية ليست من عند الله ، ويريدون من الناس طاعة هذه الأوامر ، لذلك لم ينفطوا إلى الفارق بين منهج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأوامره ، وبين ما يرفضونه هم من أوامره ، فمحمّد صلى الله عليه وسلم يطلب من الناس عبادة الله عن صوره المنهج الذي أمره الله بحق سبحانه ، أما هم فيطلبون طاعة الناس في أوامره من بريهم

والطاعة - كما نعلم - هي لله وحده في أصول كل الأديان ، فإذا ما جاء إنسان بأسر ليس من الله ، وطلب من الناس أن يطيعوه فيه ، مهددًا أن ذلك الإنسان يطلب أن يعبدوا الناس - والعبادة لله - لأن طاعة البشر في غير أوامر الله هي شرك بالله وهذا تشابهت المواقف على هذا البعض من أهل الكتاب ، وطوا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يطلب منهم طاعتهم لأوامره هو ، كما كانوا يطلبون من الناس بعد تحريفهم للمصحح وقالوا - أتريد أن تعبدك وتحدثك إلها ؟

إنهم لم ينفطوا إلى الفارق بين الرسول الأمين على منهج الله ، وبين رؤسائهم الذين خالفوا الأحكام واستبدلوا غيرها ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يطلب منهم طاعته لداته هو ، ولكنه قد طلب منهم الطاعة للمصحح الذي جاء به رسولا وقلودا ، واستنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قالوه .

وأمر الله سبحانه قوله الحق

﴿ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنَّبُوءَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾

﴿ دُونِ اللَّهِ ﴾

لقد بلغت بهم العملة والشرك أنهم ظنوا أن الله لم يجتر رسولاً أميناً على المنهج ، وطبوا بالله من أسوء ، أو أنهم ظنوا أن الرسول سيحرف المنهج كما حرموه هم ، فتحوّلوا عن عبادة الله إلى عبادة من بعثه الله رسولا ، ولذلك جاء القول الفصل « ما كان لنشر أن يؤتبه الله الكتاب والحكم والسنن ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله » .

وقد ينصرف المعنى أيضاً إلى أن بعض صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يحلونه - صلى الله عليه وسلم - وكل مؤمن مطلوب منه أن يحل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يعظمه ، ومن شرط حب بعض الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا به . أسلم عليك كما يسلم بعض على بعض ، ألا نسجد لك ؟

إن الرسول من الله عليه وسلم م يطلب السجود له من أحد ، والحق سبحانه هو الذي كتب عباده المؤمنين بتكريم رسوله فقال

﴿ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضٌ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونِ مِنْكُمْ لَوْ ذَا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

(سورة النور)

إن المطلوب هو التعظيم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أن يعطى له أشياء لا تكون إلا لله . إن تعظيم المسلمين لرسول الله وتكريمهم له هو أن يجعل دعاءه مخفياً عن دعاء بعضنا بعض

والحق في هذه الآية التي نحن في مجال الخواصر عنها وحولها يقول : « ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون »

إن « يكن » هنا للاستدراك ، مثلاً قلنا من قبل « إن » بل « تنقص القصة التي قبلها وتثبت بعدها قضية مخالفة لها » إن الحق يستدرك هنا لفهم « ليس لأحد من البشر أن يقول « كونوا عباداً لي » بعد أن أعطانا الله الكتاب والحكم والسنن ، والقصة التي يتم الاستدراك من أجلها وإثباتها هي « كونوا ربانيين » وكلمته « رباني » ، وكلمة « رب » ، وكلمة « ربوب » ، وكلمة « ربان » ، وكل المادة المكونة من « الراء » و « الباء » تدل على التربية ، والولاية ، وتعهد المرين ، وتدور

حول هذا المعنى . ليس ربنا السعوية هو الذي يفقد السعوية ؟

وكلمة « الرب » توضع المتولى للتربية ، إذن فما معنى كلمة « ربى » ؟ إنك إذا أردت أن تنسب إلى « رب » تقول « ربى » وإذا أردنا ابالة في النسبة يصيفها ألقا وونا فنقول : « ربانى » ولذلك نجد في التعبيرات المعاصرة من يريدون أن يسسوا أمرا إلى العلم فيقولون : « علمانى » وفى ذلك مبالغة في النسبة إلى العلم . وافرق بين « علمى » و« علمانى » هو أن العلمانى يرجع نفسه إلى كل أمور غشى على العلم المادى ، ويجد أن فى « علمانى » ألقا وونا رائدين لتأكيد النسبة إلى العلم

وقد يقول قائل ولماذا يؤكد الانساب إلى الله بكلمة « ربان » ؟ ونقول : لأن الكلمة مأخوذة من كلمة رب ، وتؤدى إلى معان منها أن كل ما عنده من حصيلة البلاغ لابد أن يكون صادرا ومسبوبا إلى الرب ؛ لأنه لم يأت بشيء من عنده ، أى أنه يأخذ من الله ولا يأخذ من أحد آخر أبدا ؛ فهو ربانى الأخذ .

وتؤدى الكلمة إلى معنى آخر . إنه حين يقول ويتكلم فإنه يكون متصفا بحزن أثره رب يربى الناس ليلعبوا الغاية المقصودة منهم ، فهو عندما يقل ما عنده للناس يكون مربيا ، ويدبر الأمر لتصلاح والصلاح

يقول الحق - سبحانه - : « يا كتتم تعلمون الكتاب وما كتتم تدرسون » إن العلم هو تلقى النص المنهجى . والدراسة هى البحث الفكرى فى النص المنهجى

لذلك فحز فى الريف يقول : « مدرس لقمح » أى أبا مدرس القمح بآله حادة كالسرج حتى تنفصل حبوب القمح عن « الثبر » وتكون نتيجة الدراس هى استخلاص النافع . إذن فعليه فرق بين « تعلمون » أى تعلمون غيركم المنهج الصادر من الله وديك حاصص لتلقى النص ، وبين « ماكتتم تدرسون » أى تعلمون أفكاركم فى الفهم عن النص .

إن الفهم عن النص يحتاج إلى مدرسة ، ومعنى المدرسة هو أخذ وعطاء . ويقال : « دارسه » أى أن واحدا قد قام بشاغل التدريس مع آخر ، ويقال أيضا : « تدارسنا » أى أننى قلت ما عدنى وانت قد قلت ما عدك حتى يمكن أن يستخلص

وسنط الحكم الذي يوحد في النص  
وقد يأتي لنص محكما ، وقد يأتي النص محتملا لأكثر من معنى ،  
ومادمت قد عرفت ، فلانك تعرفت على النصوص المحكمه للمتنوع .  
ومادمت قد تدارست ، فلانك قد فهمت من النصوص المحتملة حين تدارستك  
لأهل الذكر حُسن استنبال المسح ولذلك يجب أن تكون ربانياً في الأمور معاً .  
وبعد ذلك يقول الحق سبحانه .

وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَسْجُدُوا لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ أَزْوَاجًا  
أَيُّكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨﴾

أى أنه ليس لبشر اتاه الله الكتاب والحكم والنيرة أن يأمر الناس باتخاذ الملائكة  
والنبيين أزواجا ، إن من احتضنه الله يعلم وكتاب وسوة لا يمكن أن يقول أعبدون ،  
أو اعبدوا الملائكة ، أو عبدوا الأنبياء  
فلماذا ؟ وبجيت الحق سبحانه . «أيامركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون»

وقوله الحق : « بعد إذ أنتم مسلمون » تدب على أن واقعة القصية وما معها كانت  
مع مسلمين كأنهم عديم جاءوا وأرادوا أن يعظموا رسول الله صلى الله عليه وسلم  
وقالوا : نحن نريد أن نعظيكم وصحا في التعظيم أكثر من أى كائن ويريد أن يسجد  
لك قَوْصَحُ المي صلى الله عليه وسلم لهم . أن السجود لا يكون إلا لله

إذن فالذين تكلموا مسلمون ، وكانوا يقصدون بذلك تعظيم الرسول صلى الله  
عليه وسلم ، ولو أن رسول الله وافقهم لكان معنى ذلك أنه يخرجهم عن الإسلام  
ولا يتصور أن يصدر هذا عن سيدنا وحبيبنا المصطفى صلى الله عليه وسلم أو عن غيره  
من الأنبياء عليهم السلام .

والحق سبحانه يقول :

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْبَنِيَيْنَ لَمَّا آتَيْنَاكُمْ  
مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ  
لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ  
وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا  
وَأَنَّا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾

هذه الآية نجعلنا نتعرف على أسباب بعث الحق لموكب الرسل ، ونعرب جميعا أن المنهج الأول قد أمره الله على آدم عليه السلام متضمنا كل ما يجعل الحياة تسير إلى انسجام ، وتلح آدم أولاده هذا المنهج كما علمهم أمور حياتهم ، تماما مثلما يعلم الأب أبناءه ما يخدم أمور حياتهم ، كما يفهم ، بإبلاغ الأبناء مطلوب الدين ، والأبناء يبدفون أفعالهم ، ويتواصل البلاغ من جيل إلى جيل كي يكتمل وصول المنهج للتربية ، ولكن مع توالي الزمن وتناحيه نجد أن بعضا من مطلوبات الدين يتم نسيانها

إن هذا دليل على أن الناس قد غفلت عن المنهج ، وهكذا نرى أن العملة من المنهج إنما تتم على مراحل ، فبعد بلاغ المنهج نجد إنسان يعمل عن جزئية على هذا المنهج ، وتنبيه نفسه وتنويعه عن تركه لتلك الحرية ، ويسمى صاحب هذا الموقف بصاحب النفس اللوامة ، به بعض السيرة لكن نفسه تعود إلى اليقظة لمهج الله ؛ لأنه يتمتع بوجود حلية المدعة الإيمانية فيه ، وهناك إنسان آخر يستمرىء المحالفة للمنهج وتلح عليه نفسه بالمخالفة ؛ إنه صاحب النفس الأمارة بالسوء ، وتترالى به دواعى رثكب السيئات ، ومثل هذا الإنسان يحتاج إلى غيره من خارج نفسه ليندفعه إلى الخير

ومدا يحدث للمجتمع إذا صار أمراده جميعا من أصحاب النفس الأمارة بالسوء ؟

إن معنى ذلك أن الفساد قد طم ، ولابد من عيء رسول ، لأن مراد الحق سبحانه هو هداية الناس ، فقد خلقنا سبحانه وله كل صفات الكمال ، ولم يصف خلقنا إليه شيئا . وهذا الحديث القديم الذى رواه أبو نضر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال :

« يا عبادى إنى حرمت عليكم على نفسى ، وجعته بينكم محرما فلا تظالموا ، يا عبادى ، كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوا بهدى الله ، يا عبادى ، كلكم جائع إلا من أطعمته ، فاستطعموا من أطعمكم ، يا عبادى ، كلكم عار ، إلا من كسوته ، فاستكسوا أكسكم ، يا عبادى ، إنكم تحطنون بالليل والنهار ، وأنا أحمى الدنوب جميعا ، فاستمروا أعفركم ، يا عبادى إنكم لن تطغوا فمروا فتصروا ، ومن تبلخوا نفسى فتصموا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى ، لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم ، قاموا فى صعيد واحد ، فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ، ما نقص ذلك مما عدى إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى ، إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، ثم أوفىكم بإياها ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يئوس إلا بنفسه » (١)

إن الله سبحانه وتعالى قد خلقنا وهو من الأول إلى الأبد ، فى تمام صفات الكمال ولم يصف له هذا الخلق شيئا ، فهو الغافل :

﴿ مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ ﴿٦٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ

الْعَلِيِّ ﴿٦٨﴾

( سورة الذاريات )

إذن فعندما يشرع لنا الحق أمراً فهو يشرعه لمصلحتنا ، إنه سبحانه يحب لصنعة أن تظهر بسعادة المنهج ، بذلك أنزل المنهج « بافعل ولا تفعل » وحين يقول المنهج « افعل ولا تفعل » فهو لا يريد أن يحدد حرية الحركة عن الخلق إلا بما يحميهم ، إنه يحدد حرية هنا ليحمي حرية هناك . فعندما حرم الله السرقة - على سبيل المثال - فالأمر شامل لكل البشر ، فلا يسرق أحد أحداً .

إن الحق سبحانه حين يحد ويحدد من السرقة ، كان في ذلك مع الملايين الأيدي أن تسرق من هذا الإنسان ، وفي هذا حماية لكل البشر من أن يسرق إنسان إنساناً آخر ، وفي ذلك كسب لكل إنسان ، ساعة تأخذ التشريع لا تأخذ على أنه مطلوب منك ، ولكن خذ على أنه مطلوب منك ومطلوب لك أيضاً .

ومثال آخر ، لقد حرم المنهج على العبد المؤمن أن يمد عينيه إلى محارم غيره ، ولم يكن هذا التحريم لعبد واحد ، إنما لكل إنسان مؤمن ، وبذلك لا تمتد أي عين إلى محرم هذا لعبد ، لقد جاء الأمر لك بغض البصر عن محارم غيرك وأنت واحد ، وكففتنا من أجلك ملايين الأبصار كيلا تمتد إلى محارمك .

إذن فكأن عبد مؤمن يكسب حياة مطمئنة من وجود التشريع ، وكل التشريعات إنما جاءت لمصالحنا جميعاً ، ولذلك كان الحق رحيماً بنا لأن ركب الرسل قد تواصل واستمر في الكون منذ آدم ، وإلى محمد حين الله عليه وسلم ، والمنهج الذي جاء به كل هؤلاء الرسل لا تناقض فيه أبداً ، لأن في هذا المنهج مصلحة للخلق ، لذلك فلا يمكن أن يكون موكب رسول قد أتى ، ليأقضى موكب رسول آخر .

لكن ما الذي يأتي بالتناقض بين الأدیان والمشرع واحد ؟ وكل الناس عيال له ؟

إننا نرى الرسل من التناقض ، وإن حاول البعض أن يصوروا الأمر كذلك فلنعلم أن أتباع الرسل هم الذين يريدون لأنفسهم سلطة زمنية يتحكمون بها في الدنيا ، فالدين كانت لهم سلطة زمنية في دين كاليهودية أو النصرانية فعلوا ذلك .

وعندما جاءت النصرانية على اليهودية قل أخبار اليهود : نحن لا نريد النصرانية لماذا ؟ لأن السلطة الرسمية كانت في أيديهم ، ولو أن هؤلاء لأخبار ظلوا باقون على

ما أنزل الله عليهم من مسح لقبثوا بأي رسول قدم شاكرين له مقدمه ومجيئه وقالوا له - ساعدنا على أن نعتق فهما مسح الله . . إذن فالخلاف لا يحدث إلا حين توجد أهواء لها سلطات زمنية . ومركب الرسائل من يوم أن خلق الله الإنسان هو منهج منسند لا متعاند

وحينما يأتي رسول ليجد أمما غير مؤمنين بالله فالمشكلة تكون سهلة ، لانه سيلفتهم إلى إله واحد ، وبالمنهج الذي يريد الله ، لكن المشكلة تكون كره مع الجماعة التي لها رسول وهم مسوبون إلى السماء ، فهذا ما جاء رسول من الله فهو يجرى وهؤلاء الأتباع قد أخذوا من ادعائهم بالانتساب لرسالة رسول سابق سلطة رمية كما حدث مع اليهود والنصارى ، فتعصبوا للدين الذي كانوا عليه متناسين أن كبارهم قد حرقوا المنهج لحساب السلطة الرمية

وقد استمر مركب الرسل إلى خلق ليحمي الله الخلق من سيادة الانحراف واصطفى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم لتحمل الأمانة فلما يأتي لها رسول بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن الله قد ضمن لقاء الخير في هذه الأمة ، فإذا رأيت أمما بالعوا في الإلحاد حتى أن هناك أمما رادهم الله في المدد حتى يحدث التوازن ؛ لأن الحق هو القاتل

﴿وَتَشْكُرُ مِنْكَ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْفِتْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُقْبِلُونَ﴾

(سورة آل عمران)

وفي موضع آخر من القرآن الكريم يقول الحق سبحانه -

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّكُمْ مِنْهُمْ أَنْتُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾

(سورة آل عمران)



إذن فإن امتنع الزارع النمسى في النفس اللوامة عند مرد من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فسوف يأتي أناس مسلمون يسهبونه إلى المهج ، والحق سبحانه وتعالى لا يحصم أساس من أن يخطئوا فهو القائل .

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ خَشِيرٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۚ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾

(سورة العصر)

إن الحق جاء بكلمة « وتواصوا » ، ولم يأت بكلمة « وصوا » وذلك لفهم أن التوصية أمر متبادل بين الجميع ، فساعة يوجد إنسان في لحظة ضعف أمام المنهج توجد لحظة قوة عند غيره فيوصيه .

وترد هذه المسألة أيضا إلى الموصى ، فقد تنق له لحظة ضعف أمام المنهج ، فيجد من يوصيه وهكذا نرى أنه لا يوجد أساس مخصوص ليوصوا ، وحرور مهمتهم تلقى لتوصية ، إنما الأمر متبادل بينهم ، وهذا هو التكافل الإيماني ، والإنسان قد يصعب في مسألة من المسائل فيأتي أح مؤمن يقول له . ابتعد عن هذا الضعف ، إن هذه المسألة تحدث بالتناوب لمقارعة لحظات الأخيار في النفس البشرية ، لأن لحظات الأخيار لا تجعل الإنسان يثبت على حال ، فإذا ما رأينا إنسان قد ضعف أمام التزام ما فقلبنا أن نتواصى بالحق ونتواصى بالصبر ، وأنت أيضا حين تضعف ستجد من أخوتك الإيمانية من يوصيك .

هذا هو الحال في أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، أما الأمم السابقة عليها فقد كانوا لا يبنهون من مكر فعلوه ، ولذلك كان لا بد أن تتدخل السماء وتأتي برسول جديد معه معجزة جديدة تلفت العقول لتتقرب إلى أن هناك أشياء تأتي بها المعجزة ، وهي خرق نهبوس الكون ، وفي ذلك لفت من الله للناس إلى مناطق القدرة

واحد الله الميثاق على الأنبياء بأن ينبغي كل من قومه هذا البلاغ ، انتظروا أن

ترسل إليكم لسياء رسلا ، وساعة يحىء الرسول المبلغ عن الله منهجه فكمبوا معه ، وأبذوه .

كان الرسل عليهم حبب السلام مأمورين أن يصعوا في المنهج . وصلبه أن السباء حينما تندخل رثاى برسول جديد فلايد أن ينهجه اقوامهم ، وألا يتعصوا ضد الرسول القادم ، بل يسلعون معه ويرحبون به ؛ لأن الرسول إنما يحىء ليماون الناس عن المنهج الصحيح ، لكن الاتباع الذين يعشقون السلطة الزمنية تعمدوا التحريف ، ومن أجل أن يحىء لحن حلقه من هذا المرض أنزل الميثاق الذى أحذه على السيب ، فعال .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ﴾

( من الآية ٨١ سورة آل عمران )

قد بقول قائل - إن هذا القول يصلح عندما يأتى رسول معاصر لرسول مثلما عاصر شعيب سيدنا موسى عليه السلام ، وكما عاصر لوط سيدنا إبراهيم عليه السلام ، ويقول : هذ بحدث - أبصا - وإن لم تتعاصر الرسل ، فالحق سبحانه قد أراد لكل رسول أن يعطى لقومه البلاغ الواضح ، وإن لم يتعاصر الرسولون فلايد أن يعطى لرسول ساعة صد التعصب ، فماداموا قد آمنوا بالرسول واتبعوه فعليهم حسن استقبال الرسول القادم من بعد رسولهم ، وكان على كل رسول أن يبلغ قومه كمبوا في انتظار أن تندخل السباء في أى وقت ، وهذا تندخل السباء في أى وقت من الأوقات ، وجاءت برسول مصدق لما معكم فإياكم أن تفقوا منه موقف المصاراة ، وإياكم أن تفقوا منه موقف العداوة ، بل عليكم أن « تنصروه » وهذا قول واضح وجلى ولا لبس فيه .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا آتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ ﴾

( من الآية ٨١ سورة آل عمران )

ويقول في شرح معنى : « رسول مصدق لما نكحتم » .

إن الدين بأقل مقاصها مضمّن عليها ؛ لأن المقائد واحدة ، والأخبار واحدة ، والنقص واحد ، لكن لدى يختلف هو الحكم التشرعي الذي قد ينسب زما ولا يناب زما آخر ، فإذا جاء الرسول بكتاب مضمّن لما معكم في الأمور الدائرة في منهج المقائد ، أو منهج الأخبار أو منهج العنصر فلا بد لكم أن تصدقوه

لكن اليهود لم يفعلوا ذلك ؛ لأن الرسول جاء ليعيد هداية الخمسة لى آمت  
بالرسل واللى تؤمن بالله ، وكان محمىء محمد صلى الله عليه وسلم بالمبع الواسع  
لعبده ولا حار الصحبة غير المحرة والقصص اللى تدعم المنهج كما جاء بالتشريع  
لمدسب وكان محمىء السى الخاتم بربرلا لم يستردوا السلطة الرمية ، فمهم من  
اصر عن اتباع رسولهم فقط وبالمبع الذى تم تحريفه ورفضوا اتباع الرسول الجديد ،  
ومهم جماعة أخرى آمت ، بالرسول صلى الله عليه وسلم ، وكانت هاك  
جماعة نالمة تؤمن برسول آخر ، والخبية نانى شيجة للتعصب ، ولذلك كانت دعوة  
الإسلام هى لتصفية العقائد ، ودعوة لكل متبع لآى رسالة سابقة أن يدرس  
ويافس ، هل الدين الخاتم قد جاء بما يختلف عن الأديان السابقة لى العقائد ؟ لو  
جاء مصدقاً لها ؟

لقد جاء الدين الخاتم مصدق لما سبفه في المعائد والأحبار والعصص وإن اختلف في التشريعات التي ناسب زمت ولا تناسب زمانا حر ، فكأن الحق سبحانه وتعالى أراد أن يعصم البشرية من العصية الهوجاء ، والعصية العبياء التي تنشأ من اتباع رسول لتقف صدا - انلا أمام رسول آخر ؛ فانه حين أرسل كل رسول قد أعطاه الأخار والحقائق وأنه سبحانه قد أخذ المشاي على كل سبي أرسله بأن يكون على استعداد هو والمؤمنون معه لتصدق كل رسول يأتي معاصرا ومصدقا لما معهم ، وأن يؤموا به ، وأن يبلغ كل رسول أمته بضرورة هذا الإيمان .

ماذا ؟ لأن الحق سبحانه وعالي يريد من اتركب الإيمان المتحمل في مواكب الرسل  
 ألا يكون بعضهم لبعض عدواً ، بل عليهم أن يواجهوا أعداء قسبة الدين كلها  
 فالدى يحمس الإلحاد متشبا في هذا العصر هو أن المسيحيين إلى الأديان السماوية  
 يفتلمون ، وربما كانت لعدواة بينهم وبين بعضهم أقوى من العدواة بينهم وبين

الملحدين والمنكرين لله ، وهذا الاختلاف يعطى المحال للملحدين فيقولون : لو كانت هذه الأديان حقا لاتفقوا وما احتملوا ، مما معنى أن يقول أتباع كل رسول: إنهم يتبعون رسولا قادما من السماء ؟

إن الملحدين يحنون من اختلاف أتباع الديانات السماوية فرصة ليدروا في الناس بذور الإلحاد ، ولا يجدون تكتلا ولا قوة إيمانية من يؤمن بالسماء أو بجميع السماء لكن الحق سبحانه يقول : « وإد أحد افة ميشاق السييس » وهذا يعنى أنه سبحانه قد أحد الميثاق على كل مبي ساعة أرسله أنه قد آتاه الكتاب والحكمة ، وأنه إذا جاءكم رسول مصلق لهذا الكتاب وتلك الحكمة فعليكم الإيمان به ، ولا يكفى إعلان الإيمان فقط ، بل لابد أن يكون السبي ومن معه في نصره الرسول الجديد يقول : ولو عمل أتباع كل مبي بهذا العهد والميثاق لما كان هؤلاء الملحدين حجة ويضيف سبحانه : « قال ، «أقرنم وأخذتم عن ذلك إصرى قائلوا أقرنا قال فاشهدوا» والإقرار صيد الأدلة كما يقولون ، والإصر هو العهد الشديد ، ولذلك يقال : « أصرة الموفة » أى الرابطة الشديدة المعقودة . وقال الموكب الإيمان للأنبياء موجبه إقرارهم لله تعالى « أقرنا » ، فقال الحق سبحانه : « فاشهدوا » . ولشهادة دائما تقتضى شاهدا ومشهودا عليه ومشهودا به

ومادام الحق سبحانه هو الذى يقول للسييس الذين أهدوا منه العهد والميثاق الحق : « فاشهدوا » ، إذن فهم في موقف الشاهد ، وما المشهود عليه ؟ وما المشهود به ؟ هل يشهدون على أنفسهم ؟

أو يشهد كل نبي على الأنبياء الآخرين ؟

أو يشهد أنه قد بلغ أمته هذا القرار الإلهي ؟

إن الرسول يشهد عن أمته ، وأن الأنبياء يشهد بعضهم لبعض

إذن قد يكون الشاهد نبيا ، والمشهود له نبي آخر ، والمشهود به أن يؤموا بالرسول القادم وينصروه

وقد يكون الشاهد النبي ، والمشهود عليه هي أمته بأنه قد سبقها ضرورة الإيمان بالرسول القادم بمنهج السماء ، لأن لأمته مدامت قد تمت برسول فعليهم مؤازرته هذا الرسول ، ومؤازرة من يأتي من بعده ، وذلك حتى لا يتبدد ركب الإيمان ومما نلاحظ الإلحاد :

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ غَالُوا ۖ ثُمَّ قَالَ لَتَشْهَدُوا ۖ وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

( من الآية ٨١ سورة آل عمران )

ولرثب الشهادات التي وردت في هذه الآية الكريمة : الأنبياء يشهد بعضهم على بعض ، أو الأنبياء يشهدون على أمهم ، ثم شهادة الله على الأنبياء

وما دام الأمر قد جاء بهذا التوثيق فعليه أن ينبه أنه إذا ما وجدنا ديت سابقا يتعصب أمام دين لاحق ، بعد أن يأتي هذا الدين بالمعجزة الدالة على صدق بلاغ ذلك الرسول عن الله فلتعلم أنهم جانوا هذه القضية . وسب ذلك إنما يرجع إلى أن الله يريد أن يحتفظ بالدعوة إلى الإيمان ، باستجاء تام ، فلا يتعصب رسول لنفسه ولا لقوميته ولا لبيته ، ولا يتعصب أهل رسول لملتهم أو نحلتهم ، لأنهم جميعا مبعوثون عن إله واحد لمهج واحد ، فيجب أن يظل المنهج موافق فلا يتعصب كل قوم لنبيهم أو دينهم ، وهذا ليكون موكب الرسالات موكبا متلاحما متساندا متعاصدا ، فلا حجة من بعد ذلك لبي ، ولا لتابع بي أن يصادم دعوة أي رسول يأتي ، مدام مصدقا لما بين يديه .

لقد أعلمت الحق أنه قد عرض شهادة الأنبياء على بعضهم ، وشهادة الأنبياء عن أمهم ، وشهادة الله سبحانه على الجميع ، وذلك أوثق العهود وأكملها . ولذلك فكل من استمع لهذا يجب أن ينصت أي رسول يأتي مصدقا لما معه ، وبذلك يرداد موكب الإيمان تازرا وتلاحما ، فلا يأتي مؤمن برسالة من السماء ليصادم مؤمنا آخر برسالة من السماء . ولندع المصاحمة لمن لا يؤمنون برسالة السماء ، وحين يتكاتف المؤمنون برسالة السماء يستطيعون الوقوف أمام هؤلاء الملاحمة ، وبعد هذا البيان الواضح يقول الحق :

## ﴿ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَاسِقُونَ ﴾

معنى «تولى» هو مفاص «أصل» و«أقبل» نعى أنه جاء بوجهه عليك .  
و«تولى» أعرض كما تقول نحن في تعبيراتنا الشائعة : «أعطين ظهري» . ومعنى هذا أنه م  
يأبى لى ، ولم يقل على . إذن المراد من أخذ العهد أن يقبل الدس على ذلك الدين ،  
فالذى يعرض ويعطى الإيمان الحديد ظهره يتوجه الله ويصفه بقوله « فمّن تولى  
بعد ذلك فأولئك هم العاسقون » بعد ماذا ؟ إنه التولى بعد أخذ العهد والميثاق على  
اليمين ، وشهادة الأمم بعضها على بعضها ، وشهادة الله على الجميع . إذن فلا عذر  
لأحد . فمّن أعطى ظهره لئسى الحديد ، فإد يكون وعيد الله له ؟

إن الحق يصفهم بقوله : « فأولئك هم العاسقون » أى أن الوحيد هو أن الله  
يحاسبه حساب النفسين ، والفسق - كما نعلم - هو الخروج من منهج الطاعة .  
والمعنى - كما نعرف - أخذت وصعها من المحسوسات لأن الأصل فى الوعي  
البشرى هو الشيء المحسوس أولاً ، ثم تأت المعنويات لتأخذ من الفاظ المحسوسات .  
والفسق فى أصل اللغة هو خروج الرطبة عن قشرتها ؛ فالبلع حين يوطب ، يكون  
حجم كل ثمرة قد تناقص عن قشرتها . وحين يساقص الحجم الطبيعى عن القشرة  
تصح القشرة فضفاضة عليه ، وتصح أى حركة عليه هى فرصة لامتلات الرطبة  
من قشرتها

ويقال : « نسقت الرطبة » أى خرجت عن قشرتها . وأخذ الدين هذا التعبير  
وجعله وصفاً لمن يخرج عن منهج الله ، فكان منهج الله يحيط بالإنسان فى كل  
تصرفاته ، فإذا ما خرج الإنسان عن منهج الله ، كان مثل الرطبة التى خرجت عن  
قشرتها

ونحن أمام فسق من نوع أكبر ، فهناك فسق صغير ، وهناك فسق كبير . وهن

سأل أياكم الفسق ها مجرد خروج عن منهج طاعة الرسول ؟ لكن هذا الخروج بوصف به كل عاصٍ ، أى أن صاحبه مؤمن بمنهج وصق جرئيا ، إننا نقول عن كل عاصٍ . « إنه فسق » أى أنه مؤمن بمنهج وخروج عن جزئية من هذا المنهج ، أما لفسق الذى يتحدث عنه الحق ها فهو فسق انفة ، لأنه فسق عن ركب الإيمان كله ، فإذا كان الله قد أخذ المهد ، وشهد الأنبياء على أمهم ، وشهدت الأمم بعضها عن بعض ، وشهد الله على الجميع ، أبعث ذلك نكون هناك فرصة لأن يتولى الإنسان ويعرض ؟

ثم لماذا يتولى ويعرض ؟ إنه يفعل ذلك لأنه يريد منهج غير هذا المنهج الذى أمره الله ، ولو كان قد اقتنع بمنهج الله لأقل على هذا المنهج ، أما الذى لم يقتنع فإنه يعرض عن المنهج ويطلب منهجا غيره هاى منهج تريد يا من لا ترضى هذه الشهادة ولا هذا التوثيق ؟ خصوصا وانت تعلم أنه لا يوجد منهج صحيح إلا هذا المنهج ، فليس هناك إله آخر يرسل مباحح أخرى

وهكذا نعرف أنه لا يأتى منهج غير منهج الله ، لا منهج من البشر لبعضهم بعضا ، ولنا أن نقول من يتبع منهجا غير منهج الله من الذى جعل إنسانا أولى بأن يتبعه إنسان ؟ إن التابع لابد أن يبحث عن يتبعه ، ولابد أن يكون الذى يتبعه أعز منه ، لكن أن يتبع إنسان إنسانا آخرى منهج من عبده ، فهذا لا يليق ، وهو فسق عن منهج الله ؛ لأن المساوى لا يتبع مساويا له أبدا ، ومن فصل الله سبحانه أنه جعل للمهج من عنده للناس جميعا حتى لا يسع إنسان إنسانا آخر . لماذا ؟ حتى لا يكون هوى إنسان مسيطرا على مقدرات إنسان آخر ، والحق سبحانه لا هوى به . إن كل إنسان يجب أن يكون هواء تابعا لله الذى خلق كل البشر

ومادام ليس هناك إله آخر في المنهج الذى يرتضيه الإنسان لنفسه ؟

إن المنهج الذى يرتضيه الإنسان لنفسه لو لم يتبع منهج الله هو منهج من وضع البشر ، والمنهج الذى يضعه البشر يتبع دائما من الهوى ، ومادامت الأهواء قد وجدت ، فكل مشرع من البشر له هوى ، وهذا يؤدى إلى لاد الكون قال تعالى .

﴿ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ لَلْآتِبَتُهُمْ

يَذْكُرُهُمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُنْزَوُونَ ﴿٧١﴾

(سورة الزمور)

فإذا كانوا لا يرتضون منهج الله ، فأى منق هم فيه ؟ إنه منق عظيم ، لأن الله قد أخذ عليهم العهد وعلى أسبائهم ووثق هذا العهد ، أمغر الله يثرون ؟ نعم ، إسمهم يثرون غير الله ومن هو ذلك العبر ؟ أهواله حر ؟ لا ، فليس مع الله إله آخر ، بل هم قد جعلوا الخلق مقابل الخالق ، ولذلك نقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَفَعَيِّرِينَ اللَّهَ يَبْعُوثَ لَهٗ ؕ أَمْ لَمْ مَن فِي  
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ  
يُرْجَعُونَ ﴾

إنهم ماداموا غير مؤمنين برسالة رسول الله صل الله عليه وسلم الذى أرسله الله نبيا ورسولا فإن ذلك يكشف رغبتهم فى أنهم يريدون مهجا غير منهج الله ، وليس أمامهم إذن إلا مهاج البشر الناعمة من لاهواء ، والذى تفقد حتما إلى الصلال ، إن الحق سبحانه وتعالى يريد الخلق أن يكونوا مطقيين مع أنفسهم ، إنه الحق سبحانه وتعالى قد أوضح لنا فى منهجه ، وقال لنا هذا المنهج أنتم مستحلفون فى الكون ، وأنتم أمما الخلق فى الأرض سادة هذا الكون ، سادة بخدمكم الكون كله ، وانظروا إلى أجناس الوجود تجلوها فى خدمتكم ، الحيوان أقل منكم بال فكر ، والسات أقل من الحيوان بالحس . والحياد أقل من لسات

إذن فأجناس الكون من حيوان ونبات وجماد ترصع لإرادتك أيها الإنسان ، قالبات يخدم الحيوان والحيوان يخدمك أيها الإنسان ، والحياد يخدم الجميع ، والعناصر التى تأخذها بحر ابشر من الجهاد يستفيد منها أيضا النبات والحيوان إذن بكل جس فى الوجود تراء بعبيت إنما يخدم الأحاس التى تعلموه .



الجهاد يخدم السات .

والجهاد والسات يخدمان الحيوان .

والجهاد والبهات والحيوان في خدمة لإنسان ، وأنت أيها الإنسان تخدم من ؟

كان من واجب عقلك عليك أيها الإنسان أن تفكر فيمن ترتبط به ارتباطاً مناسباً سيادتك على الأجناس الأخرى ، كان لابد أن تبحث عن أعطاك السيادة على الأجناس الأخرى

هل أنت أيها الإنسان قد سحرت هذه الأجناس بقدرتك وقوتك ؟

لا ، فليس ثملك قدرة ذاتية تتيح لك ذلك ؟ أما كان يجب عليك أن تفكر ما هي القوة التي سحرت لك ما لا تقدر عليه ، فخدمتك حين لا توجد لك قدرة ، وخدمتك وأنت نائم تعط في نوم عميق ؟ أما كان يجب أن تفكر هذا الصكر ؟ إنك أيها الإنسان يجب أن تكون منطقي مع نفسك ، وأن تبحث لك عن سيد يناسب سيادتك على غيرك . وانكون لا يوجد فيه سيد عليك ، لأن الكون محس ، فإن حادك من يحدك بأن غيا هو الإله يطلب أن تكون في خدمته فوجب أن تقول : « إن هذا كلام منطقي بالنسبة لوضعي في الكون » وبعد ذلك انظر إلى الكون ، فأنت في الكون لست وحدك بل هناك أجناس أخرى ، وكل جنس من الأجناس له قانونه وله مهمته ، للحيوان مهمة ، وللسات مهمة ، وللجهاد مهمة . فهل وجدت جسا من الأجناس تمرد على مهمته ؟ لا .

إن الحصان مثلا ، تستخدمه كمطية عليها وسادة من حرير وجلد وفيه حمام من فضة لتركبه ، وتخدم هذه المطية في يوم آخر تحمل سعاد الأرض من روث الحيوان وما تأت ، لقد أدت الخدمة لك راك ، وأدت الخدمة لك ناقلا ، وما تمردت عليك أبدا . كل الأجناس - إذن - تزود مهمتها كما ينبغي ، فاستقام الأمر فيها ، ومادام الأمر قد استقام فيها ، فبأي شيء استقام ؟ إن الله هو الذي خلقها لذلك ، قال له : « كن في خدمة الإنسان مؤمنا كان أو كافرا ، وفي هذا الأمر عداله الربوبيه ، فلا تتأخر أو تشد عن حركتها في خدمة الإنسان .

أراي أحذركم الشمس مرة قالت لم يعد الخلق يعجبوني ، ولن أشرق عليهم

وسأحتجب اليوم ١٩ أئرد الهواء وقال لا ، إن الخلق لم بعد نستحق نفس الهواء ،  
لذلك لن أمكهم من الانتماع بي .

أرايا المظر امتنع ؟ هل استتبت الإنسان أرضا صالحة للزراعة واستعصت عليه ؟  
لا . فكل شيء في الوجود يؤدي مهمته سحيرا وتذليلا

لذلك يقول الحق :

﴿ وَذَلَّلْنَاهَا لَكُمْ فَجَنَّاهَا رُكُوبًا وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٥٦﴾ وَلَمْ يَمَسَّ مِنْهَا شَيْعٌ وَمَشَارِبٌ  
أَنَّا نَبْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

(سورة يونس)

والحق سبحانه وتعالى يطلق بعضا من الحيوان فلا يذلل ، ولا يستأس ، وذلك  
حتى تعلم أيها الإنسان أنك لم تستأس الجمل بقدرتك فإن كانت لك قدرة مطلقة  
على الكون فاستأس بعض لعدوى هذا العالم أو استأس الأسد . وأنت أيها الإنسان  
ترى في هذا الكون بعضا من الحيوانات والمخوقات شاردة مثل الثعابين والحيوانات  
المتوحشة بغير استأس ليدلنا الحق على أن هذا الذي يخدمك لو لم يذلل الله لك لما  
استطعت أنت بقدرتك أن تدلله ، إنه تدليل وتسخير وحسوع هذه المخلوقات منحه  
الله تعالى لك أيها الإنسان تفضيلا منه . سبحانه . مع عجزك وضعفك

ولم نجد شيئا نافعاً قد عصى الإنسان في الكون ، لأن كل الخلق مسخر من الله  
لخدمة الإنسان كافرا كان أو مؤمنا ، وهذا هو عطاء الربوبية ، لأن عطاء الربوبية  
يشمل الخلق جميعا ، فخالق الأكرم هو رب الناس كنهم وينزل قريبتهم جميعا ،  
ولذلك نستجيب الأجاس من غير الإنسان للإنسان سواء أكان مؤمنا أم كافرا . فإن  
أحسن الكافر استخدام الأسباب فإن الأسباب تعطيه ولا تعطى المؤمن الذي  
لا يستخدم الأسباب ، أو لا يحسن استخدامها فهذا هو عطاء الربوبية ، والربوبية  
للجميع أما عطاء الألوهية فهو فعل ولا تفعل ، وهو عطاء للمؤمنين فقط

لإننا كانت هذه هي صورة الكون وهو يؤدي مهمته بلا شذوذ فيه ، ومسجهم في  
ذاته انسجاما عجيبا فلنا أن نأل : من أين جاء الخلل في الكون ؟ إن الخلل قد

جاء منك أيها الإنسان . وهذا بحر لا تجد فسادا في الكون إلا وللإنسان مدخل فيه ، أما مالا مدخل للإنسان فيه فلا فساد فيه أبدا .

أرايت أحدا قد اشتكى من أن الهواء قاصر ؟ لا .

لماذا ؟ لأن أحدا لا دخل له بمسألة الهواء هذه أبدا ، صحيح أننا نتدخل في الهواء بتسويته بالعلام وأفضلات ، وصحيح أيضا أن الحق يكرم الخلق باكتشافات قد تصلح من هذا الفساد إذن ، فحين يتدخل الإنسان فإن الشيء قد يفسد . لكن هل معنى ذلك ألا نتدخل ؟ هل نقف من الكون مكتوفي الأيدي ؟ لا ، بل يجب أن نتدخل في الكون ، ولكن بمنهج الله

إنك إن تدخلت في الكون بمنهج الله ، فكل شيء يسر كما سير الكون الذي لا مسج له إلا الخضوع والتسخير ، فكما أدت الشمس مهمتها والجماد مهمته ، والحيوان مهمته ، وأنت أيها الإنسان مطلوب منك أن تؤدي مهمتك ، وهي أن تطيع الله ، تلك الطاعة التي تلخص مطلوباتك في : « افعل كذا ولا تفعل كذا » فإن انتظمت مع المنهج به افعل ، ولا تفعل ، تكن قد نجمت مع الكون

إن الله سبحانه يزيل هذه القضية ويضعها باستمهام تنقطع وتنتظر له قلوب المؤمنين .

﴿ أَهْبِطْ دِينَ اللَّهِ يَبْقُوتَ وَكَهْرُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا

وَالَّذِينَ يُرْجُونَ ﴿٢٧﴾

(سورة آل عمران)

إن كل شيء في السماوات وفي الأرض قد أسلم لله طوعا أو كرها . وإذا ما تساءلنا ، وما معنى « طوعا » ؟ فالإجابة هي طاعة التسخير ، كما قالت السماوات والأرض في النص القرآني الحكيم :

﴿ ثُمَّ أَسْرَوْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ وَمَا دُخِّنُ قَالَتْ لَهَا وَالْأَرْضِ أَتَيْنَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا

## تَبَّتْ ظُلُمَاتُهُ ۖ ﴿١١﴾

(سورة بصلت)

فكل ما لا تكيف له حاء طائعا مسحورا ، وما معنى . «كرها» ؟ إن بعضا من العلماء قد قال . إن «طوعا» تشمل أجناس الملائكة ، والحياد ، والنبات ، والحيوان ، فكل منهم يؤدي مهمته بخضوع ولا يعترض أحد منهم ولا يملك أحدهم قدرة على العصيان ، وأم عن «كرها» فقد فهم بعض العلماء أنهم الناس الذين يخدمون الناس بالقوة كالعبيد مثلا ، ولهذا نقول : لا يصح ولا يتقبح أن يعطى خصوم الإسلام فرصة ليقرلوا إن الإسلام قد أكره أحدًا من البشر أن يخدم أحدًا كرها ، لأن الحق سبحانه قال .

﴿لَا إِكْرَهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ قَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٩﴾﴾

(سورة البقرة)

فيهدم الله لم يكره أحدًا على الإيمان به فكيف يكره إنسانا ليجدم إنسانا آخر ؟ وهذا فإنا يجب أن نفهم كرها على وضعها الحقيقي . والحق سبحانه أبلغنا أن هذا الكون كله مسحور له ، لأنه سبحانه هو الذي خلقه ولا إله غيره وهذه مسألة مسلم بها ، فالكون كله لله ، وهو المدرس والفاهر له ، قال الحق :

﴿مَا أَلْمَحَدَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا أَتَاهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَفَىٰ وَلَعَلَّا نَعْصِمُ عَنْ بَعْضٍ سَخَّرَ اللَّهُ عَمَّا يَعْمُونَ ﴿١٣٠﴾﴾

(سورة المؤمنون)

وما دام هو الواحد وهو الخالق فلن يتعبد أحد على مراده ، وكان يجب أن يفهم الإنسان مهمته على أنه هو الوحيد الذي خلقه الله ، لأن نقيه الأجناس لا اختيار له وهي غير مكلفة كما كلف الله للإنسان بـ «افعل» و «لا تفعل» إذن فالتكليف شرع

الاختيار ، فالمسبح يقول لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » لأن الذي وضعه يعلم أنه قد خلقتك صاحباً لأن تفعل ما يأمرك به ، وصاحباً لأن تفعل ما لا يأمرك به .

إن اليد - مثلاً - مخلوقة لتتحرك حسب إرادة صاحبها ، بدليل أن الإرادة إن شئت وانقطع الخيط الموصل للإرادة الأمرة إلى إخراجها الماعلة عندئذ يحاول الإنسان المصعب بذلك - والمعياذ بالله - أن يرفع يده فلا يستطيع ، فاليد مسخرة لإرادة الإنسان ، وإرادتك أيها الإنسان عندما تسير في صوة مسبح الله فإنت توحىها في صوة « فعل » و« لا تفعل » .

وعندما يقل لك مثلاً : « لا تضرب بها أحداً » بمعنى ذلك أن اليد صالحة لأن تضرب ، وعندما يقال لك : « خذ بيد العائز » فإنت قادر على أن تأخذ بيد العائز ، فأنت محبوق على هيئة الطوعية من جوارحك لإرادتك . وبأى المسبح ليعول لك : « بعدد الإرادة في كذا ولا تعدد الإرادة في كذا » .

إذن فالإنسان عندما ينسج المسبح فهو يتفق مع الأشياء المسخرة تمام الاتفاق ، ويؤدي كل شيء على غير أداء ، لكن متى يختلف الإنسان عن الأجسام مع لأجاس الأخرى في الكون ؟ إن الإنسان يختلف عن الأجسام عندما لا يطبق المسبح ، فيشذ عن الركب في الكون كله ، ولتقرأ قوله سبحانه وتعالى :

﴿ أَمْ تَرَى أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمٰوٰتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّجَرُ وَٱلْأَنْشٰصُ وَأَنْفُسُ ٱلْأَٔنَامِ  
وَالْجِبَالُ وَٱلْأَشْجَرُ وَٱلْأَنْدَادُ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلْأَنْسٰمِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ  
ٱللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّجْتَرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۝ۙ ﴾

(سورة النمل)

إنها الأجاس كلها ساجدة ، الشمس ساجدة ، القمر ساجد ، والنجوم ، والجبال ، كل هذه الجهادات ساجدة ، وكذلك الشجر والسات ساجدة لله ، والحيوان والدواب ساجدة لله ، وكثير من الناس مسجود ، لكن في مقابل هذا لكثير لساجد من البشر ، هناك كثير غير ساجد لذلك حق عليه العذاب ، ولو أنك الإنسان قد أحد

منهج الله فعده لصار كبقية الاحنام ، لكن الانسان اختلاف ، وقال : انا سوف  
أخذ اختيار تحمل الأمانة ، لأنى عالم وعامل ، كما جاء فى القول الحق .

﴿ إِذْ عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ  
مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٦٢)

( سورة الاحزاب )

فلو أخذ الانسان منهج الله فى « افعل ، ولا تفعل » ، لانسجم الانسان مع  
الوجود كله وحين ينسجم الانسان مع الوجود كله فلن تأتى منه مخالفة أبدا كما لا تأتى  
مخالفة فى الوجود من غير الانسان ، وعند ذلك يصبح الكون مثاليا فى الانسجام .  
ويحس نعرف أن الطموحات العنمية حين تعمل وتُشعل العقل فى أمر ما فإنها تريد  
الحير ، ولكنها تعلم شيئا ، ويقب عنها شيء آخر ، ولو أخذوا عن الله العليم بكل  
شيء لصارت انديا إلى انسجامها .

إن المحترمين الذين صمموا المحركات التى تتحرك بسائل البنزين قلوا بتسهيل  
الحركة على الإنسانية ، ولكن العادم والمحركات الناتجة من البنزين صممت صرورا  
بالكون ، ودليل ذلك أن العلماء الآن يبحثون عن أساليب لمقومة تلوث البيئة .  
وعندما كان الوقود هو الحطب لم يكن هناك تلوث لبيئة ، لماذا ؟ لأن كل عنصر كان  
يؤدى مهمته ، فجزءه من احراق الحطب كان يتحول إلى كربون ، وجزء آخر يتحول  
إلى غازات ، وتصرف كل الأشياء إلى مساراتها

إن هذا يدلنا على أن الانسان قد دخل إلى المخترعات المعاصرة بنصف علم . لقد  
قدّر الانسان أنه يريد تخفيف الحركة ، وبقل الاتقال ويختصر المسافات ، لكنه لم ينظر  
إلى البيئة وتلوثها ، فنشأ عادم يفسد البيئة ، لكن لو كان عبد الانسان القدرة الشاملة  
على العلم لكان ساعة اختراع هذه المحركات قد بحث عن وضع معادلة لتعدل من فساد  
العادم .

ولنظر إلى عظمة الحق ، إنه يترك للعقل البشرى أن يتقدم . ولكن العقل  
البشرى قاصر ونسئ من الأشياء ما ينتج عنه الضرر أخيرا . إن الذين اخترعوا

المليدات الحشرية كانوا يهسون أنهم قاموا بفتح جديد في الكون ، وتشاء إرادة الحق أن يقوم بتحريم هذه المليدات لقوم أنفسهم الذين احتزعوها ، لأنهم وجلوا منها لضرر ، لذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ مَلَّ نَسَبُكُمْ بِالْأَحْيَرِیْنَ عَمَلًا ۝ أَلَّذِیْنَ ضَلَّ سَبِيلُهُمْ فِي الْحَبْوَۃِ الدُّنْیَا وَهُمْ یَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ بِمَحَبُوبٍ مِّنَّا ۝ أَوَلَمْ نَكُفِّرُوا بِلَیْسٍ رَبِّیْمٍ وَلَیْقَیْهِمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ فَلَا یُعِیْرُهُمْ یَوْمَ الْقِیَٰمَةِ وَرَبُّ ۝﴾

( سورة النحل )

إليك إن أردت أن تكمل صحتك فبحث عن الخس في ضوء مهب الله ، والحق سبحانه يضرب لك المثل الواضح إنما يعرف أن عادم صناعنا صار كعادم المصانع واسيارات وغيرها ، لكن عادم خلق الله في الحيوان مانع ، فالإنسان يأخذ روث الحيوان ويصنع منه السجاد ليريد من حصوة الأرض ، والمعجب أن فضلات الحيوان التي تعطى حصوة بالأرض لا يجد فيها شيئا يفرز ، ولا يجد لها الرائحة التي توجد في فضلات الإنسان ، لماذا ؟

لأن الحيوان يأكل على قدر حاجته ، إن الحيوان قد يجد أوصافا كثيرة ، مثل الخشيش الجاف اليابس ، وأمامه الصع الأخضر ، فلا يأكل الصع الأخضر ويأكل الخشيش اليابس ، وإذا شع الحيوان امتنع عن الطعام ، ولذلك لا يخرج فضلات كريهة الرائحة ، لكن الإنسان يسرع ويلون ويأكل فوق طاقته ويبحث شهيته على الإطلاق والاعلام ، إن الحيوان لا احتيار له ، ومحكوم بالعريضة ويجد أمامه هذا الذي يؤكل وطك الذي لا يؤكل فيختار بعريته المناسب له ، وإذا امتلأت البطن لا يأكل ، لأنه محكوم بالعريضة والتسخير المطلق ، لكن الإنسان يجمع بالأحبار ، فأفسد عليه هذا الاحتيار وأبعده عن متع الله وجعله بما لديه من قدرة يتجاوز الاكتفاء بحدود الشبع .

وهكذا نرى بوضوح أن الكون كله أسلم لله صنوعا في المسخرات وإليك أن تفهم أن هناك إسلاما بالقهر والإكراه وبعض العلماء قد فاتهم ذلك ، وهم يعطون

لخصوم الإسلام حجة يقولون : « إن دينكم انتشر بإكراه السيف » ولذلك نقول لهم . لا ، إن أحدا لم يسلم كرها أبدا ، لأن السيف إنما رفع لثيء واحد هو حماية حرية الاختيار . إن السيف قد رُفِعَ ليمنع الإكراه ، وليمنع تسلط بعض الناس بقوتهم ليجبروا الناس على عقائدهم فقال لهم السيف . « هموا عند حدكم ، ودعوا الناس أحرارا في اختيهم ما يعتقدون » ، ودليل ذلك أن البلاد التي فتحتها الإسلام تجد فيها غير المسلمين ، ولو كان الأمر فتحا بالسيف لما وجدنا ديانات أخرى . غير الإسلام ، يجعلهم أيضا يتشددون بذلك ويزيدون « إنكم تفرصون حرية » .

ونقول لهم . أنتم تردون على أنفسكم ، نحن لم نعرض حرية على المؤمن ولكن الكافر تركته على كفره ، والحرية بدفعها للكافر أيداع عنه المؤمن لو أصاب البلاد مكروه .

إذن فكيف نفهم قوله الحق بأن هناك من أسلم كرها ؟

نحن نفهمها كالآتي . إن الإنسان هو الذي اسمت عنده مسائل ، وفيه أمور تدخل في عمله ومراداته ، وفيه أمور تحدث قهرا عنه ، وتحدث له بلا إرادة ولا اختيار ، فالإنسان يكون مختارا في الفعل الذي يقع منه ، أما الفعل الذي يقع عليه أو فيه فلا دخل له فيه بالاختيار ، إن أحدا منا لا يختار يوم ميلاده ، أو يوم وفاته أو يوم إصابته بالمرض ، والإنسان الذي يعرف ذلك ونقول للإنسان الذي لا يعرف أو يتجاهل ذلك . أما الإنسان دعك من الغباء ، إن هناك زوايا من حياتك أنت مجبر فيها على أن تكون مسلما لله كرها إنك تسلم لله دون إرادتك في كثير من الأمور التي تقع عليك ، ولا تستطيع لها دفعا ، فلماذا تلجأ في الإسلام عند زاوية الاختيار ؟

إن المسخرات كلها مسلمة لله ، والإنسان فيما يقع فيه أو عليه من أمور لا يستطيع دفعها . هو تسليم لله كرها من الإنسان ، وهكذا نرى أن قيادة التسخير فيها ليس لك دخل فيه أيها الإنسان هي مسلمة لله ، مثلك في ذلك مثل كل الكائنات ، أفلا يجب عليك أن تسلم بكل زوايا حياتك ؟ فلو كان هناك إنسان كافر بكل ما فيه من أبعاد فعل هذا الكافر ألا يسلم بأي شيء من جوارحه ، هل يستطيع أن يمنعها من أن تؤدي عملها ؟



وغير ما سيحدث له لابد أن يتوقف عن التنفس ؛ لأن التنفس يحدث رعباً عنه ،  
لا بد أن يوقف دقات قلبه ؛ لأنها تلقى رعباً عنه . وما دام هناك من يستمرى الكفر  
فليحاول أن يجعل كل ما فيه كامراً ، ولن يستطيع ؛ بل سيجد أنه يحب أموراً  
ولا تأن له ، ويكره أموراً وتنزل به ، ولن يفلت أحد من الإسلام لله ، لأن الله قد  
اختار لكل إنسان يوم الميلاء ويوم الموت ، واختار الله للإنسان أن تجري الأحداث  
فوقه ولا يستطيع دفعها ، ويصبح خاضعاً رغم أنه . لذلك قال الحق : « وله أسلم  
من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه يرجعون » .

إذن ولناخذ « طوعاً » لغير الإنسان ، وللمؤمن الذي بعد تعاليم المنهج ، ولناخذ  
« كرهاً » في المسائل التي لا دخل لاختيار الإنسان فيها وتقع عليه وهو يكرهها ،  
ولا يستطيع دفعها ، لأن الذي يجرها عليه هو الخالق الفعال لما يريد ، ومما كنت هناك  
رواية من حياتك أيها الإنسان أنت مكره فيها فلماذا تمردت في المسألة الاختيارية ؟

كان يجب أن يأخذ الكافر هذه النقطة ويقول للكفر : « لا » ، ويتجه إلى  
الإيمان ؛ لأن المؤمن يأخذ هذه النقطة ويقول : أنا أريد أن أنسجم مع الكون كله  
حقاً لا نظمي ملكة على ملكة ، ولا نظمي إرادة على إرادة أخرى ، وهذه رحمة من  
الله بالخلق

وحيث يسلم الإنسان منهجه لله فإنه ينفس ما يطلبه المنهج ولا يفعل ما يحرمه المنهج  
ومن يريد أن يقف في « امن » وه لا تفعل » ، نقول له : إذا فعلت ما الذي يستحيله الله  
منك ؟ وإذا لم تفعل ما الذي يضر الله منك ؟

لا شيء ، إن عليك أن تفكر جيداً فالأمر إما يرد أو يتمرد عليه إن كان للأمر فيه  
مصلحة ، وحيث إنه لا مصلحة للحق سبحانه وتعالى في مراداته من الخلق  
إلا إصلاح الخلق ذاته ، إذن منهج الحق هو مصلحة الإنسان ، وأول ما يهاب به  
من يقف في منهج الله أنه يصبح ضد نفسه ، ولا ينسجم مع الكون ، فإن كان هناك  
من يريد ألا يسلم ، فليجرب نفسه بالأا يسلم في المجهورات التي هو مظهر عليها ، وهذا  
أمر مستحيل .

ولنقرأ الموقف القرآني بدقة ، لنرى أنه الحق بعد القسم وبعد العهد وبعد الإشهاد

عليه ، قال لنا : « افعير دين الله يفتون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون » . إن من يعنى غير دين الله ليس منطقيا مع نفسه أو مع الكون ، لأن الكون كله لله بما فيه ومن فيه من السماوات والأرض ، وكذلك الإنسان الذى ارتضى منهج الله ، وأبصا أسلم الكافر لله فيما ليس له فيه اختيار .

« وأسلم » فى هذا السياق القرآن الكريم تعنى أنه خضع وسُخر ، وقهر من أن ينفذ ، ولكن الحق سبحانه أورد عن اسماء والأرض فقال : « قالتا أثينا طائعين » . إن المؤلف أن توضح السماء والأرض لأمر الله ، وعندما « قالتا أثينا طائعين » فقد كتبت السماء والأرض الإسلام لله ، قولى الله كل مرجع فالإنسان - مؤمن كان أو كافرا - سيجود إلى الله حتما .

وكلمة « يرجعون » التى تأتى فى تذييل الآية يمكننا أن نراها فى مواقع أخرى من القرآن مرة تارة مبنية للمفعول ومنطقها « يرجعون » بمعنى أنهم مقهورون على الرجوع إلى الله ، وسجدها فى مواقع أخرى فى القرآن كفعل مبنى للفاعل فننطقها « يرجعون » ، أى أنهم يريدون الإسراع فى العودة إلى الله ، وفى هذه الآية نفهم أن الذين يفتون غير دين الله لا يراعون أن يعودوا إلى الله لذلك يتم إرجاعهم بالقهر ، سبحانه وتعالى يقول

﴿ يَوْمَ يَدْعُوكَ إِلَىٰ تَارِجِهِمْ دَعَا ﴾

( سورة الطور )

ويقول الحق سبحانه من بعد ذلك :

﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرٰهِيْمَ وَإِسْمٰعِيْلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسٰى وَعِيسٰى وَالنَّبِيُّوْنَ

## مِنْ رَبِّهِمْ لَا تَفْرِقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾

عندما نظر إلى هذه الآية بخواطرها فإيا ما نجد أن الحق يبرح الرسول والمؤمنين به والمرسل إليهم في الإيمان به ، ويتحدث إلى الرسول والمؤمنين كوحدة إيمانية ، إن قول الحق : « قل » هو خطاب لمفرد هو النبي صلى الله عليه وسلم ، ولقول : « أما » تحليل على انسجام الرسول مع الأمة المؤمنة به ، فكان الأمة الإسلامية قد انصهرت في « قل » ، وكان الرسول موجود في « أما » ، وبذلك يتحقق الامتزاج والانسجام بين الرسول وبين المؤمنين به ، ويصير خطاب الحق إليهم هو خطاب لوحدة إيمانية واحدة لا انفصام فيها .

وقد جاء الحق بهذا الأسلوب ليوضح لنا أن الرسول لم يأت ليتعالى على أمته ، بل جاء ليحمل أمانة هذه الأمة ، ولذلك قلنا من قبل : إن للرسول صلى الله عليه وسلم إيمانين ، لقد آمن بالله ، وآمن للمؤمنين ، وهو صلى الله عليه وسلم سيستمع لنا ، لأنه قد أدى مؤدى مع أمته كلها ، لقد أتم اللامع وحضر للتكليف بما به مع أمته كلها ، ولذلك يقول الحق : « قل آمنا » ، كان القياس أن يقول « قل آمنت » ، أو أن يقول : « قولوا آمنا » . لكن الحق في قرآنه الكريم يضع كل كلمة في موضعها ، فتصبح الكلمة جاذبة لمعناها ، ويصح كل معنى عاشقا لكلمته ، وقد قال الحق هنا : « قل أما » ليتصح لنا أن محمد رسول الله ممتزج في أمته ، وأمة الإسلام في طوابعه لرسولها . والأمر يأتي لرسول الله من الحق سبحانه ، والتنفيذ لهذا الأمر يكون من الجميع ، وفي هذا إشعار للحصوم أن الرسول صلى الله عليه وسلم سيكون ذا عصية إيمانية قوية ، فلو قال : « قل آمنت » لكان معنى ذلك أن الرسول لن يملك إلا إيمانه فقط ، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم آمن به قومه ، وكثير غيرهم وجاء على يديه فتح مكة كما قل الحق .

﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿٨٥﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٨٦﴾ ﴾

وعندما نقرأ قوله الحق : « قل آت بالله وما أنزل علينا » فلما أن بلغت إلى أن  
العلماء هم وقفة في مسألة الإنزال ، فمرة يقول الحق

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَيَا أَلْأَخِرَةَ هُمْ يُوقِنُونَ ① ﴾

( سورة البقرة )

ومرة أخرى يقول الحق :

﴿ وَمَا تَوْفِيقُنَا عَنِتَّ أَلَكِتَابَ إِلَّا لِنُؤَيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ مَا يَفْقَهُونَ ② وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعِبَادٍ  
يُؤْمِنُونَ ③ ﴾

( سورة النحل )

وهكذا نجد أن « الإنزال » يأتي مرة متعدياً بـ « إلى » ، ويأتي مرة أخرى متعدياً  
بـ « على » وقال بعض من العلماء : إن الكلام حينها يكون موجهاً لرسول الله صلى  
الله عليه وسلم فالحق يقول : « أنزل عليك » ، وكأن هؤلاء العلماء - دون قصد  
منهم - يعصلون بين بلاغ الله للرسول عن البلاغ إلى أمة الرسول صلى الله عليه  
وسلم ، ولم يلتفتوا إلى أن الغاية من إنزال المصحح على الرسول هو هداية الأمة

وسنقول إن علينا ألا نأخذ الأمر بسطحية من أسلوب فظهر لنا ، ذلك أن هناك  
أسلوباً خفياً ، وهو أن « إلى » و « على » إنما تفيدان أن المنهج نزل للأمة والرسول صلى الله  
عليه وسلم ، فمرة بأن الحق بالنزول متعدياً بـ « إلى » والخطاب موجه لرسول صلى الله  
عليه وسلم كقوله الحق :

﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ بِمَا عَرَفُوا مِنْ ظُلْمٍ ④  
يَتْلُونَ رَبَّاءَ مَنَاقِبًا كَثِيبًا مَعَ الشَّاهِدِينَ ⑤ ﴾

( سورة المائدة )

ومرة يأتي الحق بالنزول متعدياً بـ « على » والخطاب موجه لرسول صلى الله عليه

وسلم كقوله الحق :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِلَّذِينَ آمَنُوا فِيهِ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (١٦)

(سورة النحل)

ومرة ثالثة باق الحق بالإنزال في حديث إلى المؤمنين :

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكَ فِي الْكِتَابِ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيَسْتَهْزِئُ بِهَا فَلَا تَفْعَدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذَا مِثَلْتُمْ ۖ إِنْ أَلَّهَ جَامِعُ التَّائِمِينَ وَأَنْكَرِييْنَ فِي حَتَمٍ جَمِيعٍ ﴾ (١٧)

(سورة النساء)

إله كتاب منزل من أسماء وملحوظ فيه العلو ، والعاية من الرسول هو مصلحة الأمة ، فالإتيان به ( على ) بفند العلو ، ومصلحة الأمة ، « والعلية » هنا لتزيد مقام المبعج بالنسبة للمؤمنين فهو قد نزل لمصلحتهم . إذن فالرسول يقتضى « علية » ، وهو من حيث العلو يأتي به « على » ، ومن حيث الغاية يأتي به « إلى » ، فهو مبعج نزل من الحق الأعلى ومرل إلى الرسول وهو الرسول ليلغنه إلى المؤمنين لمصلحتهم ولذلك قلنا : إننا إذ رأينا حكمها يقيد من حرية الفرد فلا يصح أن نهم أن الله قد قصد هذا الفرد ليقيد حريته ، إنما جاء مثل هذا القيد ليقيد الملايين من أجل حرية الفرد ، مثال ذلك ساعة يحرم المبعج لسرهه عن الإنسان ، فهو أمر لكل إنسان من الملايين وهو لمصلحة كل إنسان ، فالقرآن قد نزل لمصلحتك ، ومصلحة المؤمنين جميعا

وعندم مقرا قوله الحق : « قل آسا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وموسى ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ولليون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » . فهذا القول يوضح أن الرسول صلى

الله عليه وسلم إنما جاء بمنهج يصم صحيح العقائد والقصاص والأخبار ، وهو يوافق  
 ما جاء في موكب الرسل من يوم أن خلق الله الأرض وأرسل الرسل . وقد أخذ الله  
 لعهد عن الأمم والأنبياء من قبل ، بأنه إذا جاء رسول فصدق بما معهم  
 ليؤمن به ، وكذلك أخذ الله العهد على رسولنا صلى الله عليه وسلم بأن يؤمن  
 بالرسل السابقين ، فهو صلى الله عليه وسلم لم يأت يهدم أدينا ، ولكن ليكمل  
 أدينا ، وهكذا ترى النص القرآني الجليل :

﴿ يَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكَ دِينَكَ وَأَكْمَلْتُ وَلِيِّكَ فَنَفْسَنِي وَرَضِيتُ لَكَ الْإِسْلَامَ

دِينًا ﴾

( من الآية ٣ سورة المائدة )

كأن الأديان السابقة بكل ما جاء فيها من صحيح العقائد ، والقصاص ، والأخبار  
 موجودة في الإسلام ، وفوق كل ذلك جاء الإسلام مشرائع تناسب كل زمان  
 ومكان ، ولذلك قال لرسول صلى الله عليه وسلم في حديث شريف

« إنما مثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى سينا فأحسبه واحله وأكمله  
 إلا موضع لبنة فبجعل الناس يطعمون به ويقولون ما رأينا أحسن من هذا لولا  
 موضع هذه اللبنة فكنت أما اللبنة » (١)

إذن فتمام كل الأمر انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد أخذ الله  
 العهد عن غيره أن يصدقوه صدقا يحيى ، وهو صلى الله عليه وسلم آمن وصدق بين  
 سبق من الرسل ، ولن يحيى من بعده شيء يطلب من رسول الله ولا من أمته أن  
 يصدقوه ، وقال الحق تليلا لهذه الآية الكريمة « ونحن له مسلمون » .

أي أنه لا يوجد لأتباع أي رسول من الرسل السابقين ما يعطيهم سلطة رمية ،  
 بل المسألة كلها تبدأ من الله ، وتنتهي إلى الله ، وذلك هي القضية النهائية في موكب

الرسالات ومادام الإسلام هو ذلك الانقياد الذي يختاره الإنسان لنفسه ليكون مسجياً مع نفسه في لإسلام الله ، ويكون انسجام مع الكون الآخر وما يحتويه من حيوان ونبات وحملد وغيرها في أنه سلم حصوعاً لله ، وبذلك يصح انكون بما فيه الإنسان انؤمن المسلم لله كله مسجراً لله سبحانه وتعالى . ومادام الكون بالإنسان قد صار مسجراً لله فلا تصاد في حركة لتعاود حركة أخرى ؛ لأن الذي يهيمن هذه الحقيقة هو الذي وضع لكل إنسان في مجال حركته في الحياة قانوناً يعصمه من أن يصطدم بغيره ، وإذا كان الشر قد استطاعوا أن يضرعوا لأعضهم معايير تمنع التصدم في الحركة ، ذلك التصدم الذي يؤدي إلى كوارث ومصائب

مثال ذلك ، لننظر إلى لسكك الحديدية ، ألا يوجد موظف اسمه « المحوّل » ؟ ومعنى هذه الوظيفة هو أن القائم به يقوم بتحويل القاطرة القادمة من طريق معين إلى مسار محدد حتى لا تصدم قاطرة أخرى جاءت من الطريق نفسه . إن ذلك من فعل الإنسان فيما صنع من قطارات ومواصلات ، لقد صنع أيضاً وسائل تمنع تصادمها ، فما بالنا بالآخر - وله المثل الأعلى - وهو الذي خلق الإنسان ؟ إنه سبحانه قد وضع المنهج حتى لا تصطدم حركة في الوجود بحركة أخرى

ولننظر إلى الأشياء التي جاءت بفناء أو تسخير ، والأشياء التي دخلت في ظل الاختيار . أسمعا أن جملين سار في طريقين متعارضين واصطدم الجمل بجمل ؟ لم يحدث ذلك أبداً ، فالجمل يمدى يده وما يحمل من الحمل الآخر وما يحمله ، لكننا نسمع عن تصادم سيارة مع سيارة ، ذلك أن السيارة لا تسير بداتها بل تسير بقيادة إنسان مختار ، وهو الذي يصدم وهو الذي قد تأتى منه في غفلة الكوارث

إذن فتصادم حركة بحركة إنما ينشأ في الأمور الاختيارية ، أو عملة إنسان عن مهمته ، كعملة « المحوّل » من عمله في تنظيم مرور القطارات ، لكن تصادم حركة في الوجود بحركة أخرى في الوجود هو أمر مستحيل ، ولا يحدث أبداً ؛ لأن الأمر الذي مارا في يد المهيمن الأعلى ، مهيمن الأرض والسماء ، وهو الله الذي يسر الكون مسجياً ويعرفنا بصفاته فيقول : « الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم » ومعناه أن أنا لقائم بأسيادكم ومدير أمركم ولا أمام أو تأخذ منكم أو عملة أي هاموا أنتم فقد سحرت الوجود كله من أجلكم .

ومادام الأمر في الإسلام هكذا ، والوجود ينحجم مع نفسه ، فلماذا تشدد أنت أيها الإنسان عن الوجود ؟ ولماذا تشدد عن ملكات نفسك ؟

لماذا لا تكون منسجما مع الكون ؟ إنك إن اسحمت مع نفسك ومع الكون صرت الإنسان العبد

وفي عصرنا الحديث يرى ارتقاء العالم ماديا بصورة عالية ، بحيث يقع الحدث في أمريكا مثلا هراء عن شاشة التليفزيون فورا ، ويركب الإنسان مركبا صاروخيا إلى الفضاء ولكن هل استراح العالم ؟ لا ، لقد ازداد العالم عاء ، وكأنه يكبد ذهبه ويرهق العلماء في معاملهم لابتكار أشياء تعطى للعالم مزيدا من الفسق والاضطراب وتصادم وتعارض . وبذلك صار الكون لا يفرغ أبدا من حرب باردة أو ساخنة

كل ذلك إنما نشأ من إدارة أمور العالم بأهواء الشر ، فلسا حين مردودين إلى مسبح واحد يأمرنا فأنغر ، ويهانا فنتهى ، بل كل إنسان يتبع في عمله هراء ، لذلك نرى الفسق والاضطراب ، ويرى الصرخات تحلأ الدنيا من هوال ومصائب ، منها مثلا المحدرات وغيرها إن الذي يدمر المحدرات هو إنسان غير راضٍ عن واقع حياته ، فلا يريد مواجهة حياته ، إنما يحاول الهرب منها بالإدمان ، ويقول لكل هذا الإنسان ليس هذا حلا للمشكلة ، لأن الإنسان عديم ثأنيته مشكلة فهو يحتاج عقلا على عقله ليواجه هذه المشكلة ، وأنت بهذا الإدمان إنما تصيغ عقلك ، رغم أنك مطالب بأن تأن بعقل آخر بجانب عقلك لتحل مشكلتك ، فالهرب من المشكلة لا يحلها ، إنما الهروب عبء وقلة حيلة للمشكلة زادت تعقيدا ونقول للمجتمعات التي تشكو من مثل هذه ايلاي لو أخذتم شرائعكم من منيح الله لكان ذلك حماية لكم من مثل تلك الكوارث

وهكذا نرى أن كل الابتكارات تُوجه دائما إلى الشر أولا ، فإذا لم يوجد لها مبدآن شر فإننا نوجهها إلى الخير ، وبإلته غير خالص بوجه الله ، لا ، إنه خير مجمع ومنحرف عن الخير لأن الذي لا يملك هذا اللون من الاختراعات كالشعوب البامية والعالم الثالث قد جعله المخترعون بوساطة هذه الاكتشافات واختراعات مستعبدا ومقهورا لهم ، إنهم جعلوا تقدمهم استعبادا وإدلالا لغيرهم وإن نظاهاوا بغير ذلك .

لماذا يحدث كل ذلك ؟ لأننا لم نكون عظميين - كما يجب - مع أنفسنا ولا مع واقع



الأمور النهيصة التي نحن فيها بالطموحات العلمية التي لا حد لها لا يصح أن تسبب لنا كل هذا التعب ، بل كان المفروض بعد الوصول إلى تحقيق هذه الطموحات أن نستريح ، ولكن لم يحدث هذا ؟ لأن ربما نحن الشرير أهواننا ، والأهواء ليست هي اليد الأمينة ، إن اليد الأمينة هي شرع الله الذي لم يشرع إلا لمصلحة من خلق ، ومادام الإسلام يرسم طريق الأمان مع الخلق والنفس والكون الذي سبحانه ، بما فيه من الأحاسيس الأخرى ، إذن فالدين عبد الله هو الإسلام ، وهذه هي النتيجة الحتمية لذلك يقول الحق سبحانه : « ونحن له مسلمون » ويتبعها الحق سبحانه بقوله .

## ﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

إن العاية التي تسعد العالم كله هي دين الإسلام ، ومن يرد دينا غير ذلك على قلبه الله منه . فإن كان هناك من لا يعجبه تقبيل السماء ويقول مندهشا . إن في هذا التفنين قسوة ؛ إنك تقطع يد إنسان وشووه نرد على مثل هذا القائل : إن سيارة تصدم سارره تشوه عشرت من البشر داخل السيارات ، أو قطار يصاد بكثرة فيشوّه مناب من البشر

ومعنى عندما تبحث عن عدد الأيدي التي تم قطعها في تاريخ الإسلام كله ، فلن تجد لها إلا أقل كثيرا من عدد الشوهين بالحوادث ، ولما ادعاء بالمحافظة على حال الإنسان مسألة تثير السخرية ؛ لأن تقنين قطع يد السارق استقامت به الحياة ، بينما الحروب الناعمة عن الهوى شوهت وأمنت المئات والآلاف ، إن مثل هذا القول منسطة ، هل معنى تشريع العقوبة أن يحدث الذنب ؟ لا ، إن تشريع العقوبة بمعنى تحذير الإنسان من أن يرتكب الذنب .

وعندما نقول لإنسان : « إن قتلت هذا فسينولى ولى الأمر قتلك » ليس في ذلك

حفظ على حياته وحياة الآخرين ؟ وحيز يحافظ بتشريع على حياة فرد واحد فهو يحافظ في الوقت نفسه على حياة كل إنسان ، يقول الله تعالى :

﴿ وَنَكَّمْ فِي نَقَصِصِ حَيَوةٍ يَنْزِلِ الْأَنْجَبِ نَعْنَكُمُ نَقُونَ ﴾

( سورة البقرة )

وهكذا يصح هذا التقنين سلبا غاية السلامة ، إذن فعول الحق سبحانه . « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه » يدلنا على أن الذي يشرع تشريعا ينافي ما شرعه الله فكانه خطأ الله فيما شرع ، وكأنه قد قال الله : أنا أكثر حانا على الخلق منك أيها الإله ، لأنه قد فانتك هذه المسألة .

وفي هذا القول ففس عن شرع الله ، وعلى الإنسان أن يلتزم الأدب مع مخالفته . وليرد كل شيء إلى الله المولى ، وحيز نرد أيها الإنسان كل شيء إلى ربك فانت تستريح وتريح ، اللهم إلا أن يكون لك مصلحة في الانحراف فإن كان لك مصلحة في الانحراف فانت تريد غير ما أراد الله ، أما إذ أردت مصلحة الناس فقد شرع الحق ما فيه مصلحة كل الناس ، لذلك قال الحق : « ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين »

وقد يقول قائل في قوله تعالى : « من يقبل منه » إن هذه العبارة لا تكفي في منحي اطمئنانا إلى جزاء العمل الذي أتقرب به إلى الله فانه قد يقبل وقد لا يقبل فهو سبحانه - لا أحد يكرهه عن شيء ، ونقول له إنك ستأتي إلى ربك رصيت أو أيب لها حاجتك إلى هذا القول ؟ لو كنت تستطيع أن تعجز الله وتغوته فلا يقدر عليك الحق بك أن تقول ذلك ، ولكنك لا تستطيع ، فكيف عاقلا ولا تتمرد على أمر ربك ، ويقول الحق : « وهو في الآخرة من الخاسرين » . والخاسر : مأخوذة من « الخسر » ، و « الخسر » هو ذهاب رأس المال وصياحه ، والآخرة حياة ليس بعدها حياة ، ومن العباه أن يقول قائل : « سوف أتعذب قليلا ثم تنتهي المسألة » لا ، إن المسألة لا تنتهي ، لأن الآخرة حياة دائمة ولا حياة بعدها . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ  
وَشَهِدُوا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ  
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾

إنا نرى هنا الأسلوب الدبيع ، إن الحق سبحانه يدعوهم أن تصحب من قوم  
كفروا بعد الإيمان ، إهم لو لم يعضوا للإيمان من قبل لقسا . إهم لم يذوقوا حلاوة  
الإيمان ، لكن الذي أمر وداق حلاوة الإيمان كيف يقبل على نفسه أن يذهب إلى  
الكفر ؟ إنه التمرد المركب

وقد يتساءل إنسان قائلا . مادام الله لم يهديهم ، فما دسهم ؟ يقول له . يجب أن  
نتذكر ما نكرهه دائما ، لتصح العصية في الذهن لأنها قضية شائعة وخاصة عند  
غير المتعلمين ، الذين يقول الواحد منهم . إن الله لم يرد هدايتي ، فإذا أفعل أنا ؟ إن  
ذلك استدلال لتبرير الانحراف ومثل هذا القول لا يصدر إلا من المرف على  
نفسه ، ولا يأتي هذا القول أحد من طائع لله ، إن الذي يقول . « إن لمعصية إنما  
أرادها الله مني ، فما دني ؟ » يجب أن يعرف أن الطاعة من الله ، فإذا لم يقل . « إن  
الطاعة من الله فلماذا يثيبا عليها ؟ لماذا نعمل أيا العاصي عن ذكر ثوب الطاعة ،  
ونقف عند المعصية ونقول . « إن الله قد كتب على المعصية فلماذا يعذبني ؟ » كان  
يجب أن يقول أيضا : « مادام قد كتب على الطاعة فلماذا يعطيني عليها ثوابا ؟ » .

إنا نقول لمن يبرر نفسه الانحراف . إنك تريد أن تأخذ من الطاعة ثوابا ،  
وتريد أن تهرب من عقاب المعصية . وأنت تحتاج إلى أن تفهم الأمر على حقيقته ،  
لقد قلت من قبل إن « الهداية » تأتي بمعينين « هدى » أي دل عن الطريق لموصلة  
لنغاية المرجوة ولم يصنع شيئا أكثر من ذلك والمثل هو إشارات المرور البيضاء ، إن كل  
إشارة توصلح طريقا معينا وتهدى إليه ، وإشارة أخرى توصلح طريقا آخر وتهدى  
إليه . ولا يوجد أحد عند هذه الإشارة يأخذ بيد الإنسان ويقول له : أنا سأخذ بيدك  
وأصلح لك امرية عندما تقف منك ، أو أركب معك لأوصلك إلى عاتيك .

إن هذه الإشارة هي هداية فقط ، أي أنها دلالة على الطريق الموصلة إلى العاية  
المرجوة والله سبحانه وتعالى قد هدى الناس جميعا المؤمنين منهم والكافرين أيضا ، أي  
دفعهم سبحانه على الطريق الموصول للعاية . وانقسم الناس بعد ذلك إلى قسمين :  
قسم قيل هذا المنهج وارتنصاه وسار كما يريد الله ، وساعة أن روح هذا المؤمن إلى  
جنبات الله وأمر به ، فكان الحق يقول له : إنك مت بى وبمنهجى ، لذلك ستكون  
لك جائرة أخرى ، وهى أن أعينك وأحعب عليك لأمر ، وهذه هى الهداية الثانية  
التي يعطيها الله جائره لمن آمن به وارتنصى منهجه وتبعى « المعونة » ، إن الله يعطى  
عبده المؤمن حلاوة الطاعة ، ويجعله مقبلا عليها بشااط .

إذن فالهداية تكون مرة « دلالة » وتكون مرة ثانية « معرفة » انتهى أكرر هذا  
القول حتى يتضح الأمر فى أذهاننا جميعا ، ولندكره دائما ، ونقول من يعين  
الإنسان ؟ إن الذى يعينه هو من آمن به . أما من كفر بالله ، فلا يعينه الله

وسبق أن قلب مثلا - وعارلت أصبره - . إن إسما ما يسرى فى طريق سم التمس  
عليه الطريق الموصول للعاية كالمسافر إلى الإسكندرية مثلا ، وبعد ذلك وجد شرطيا  
واقفا فسأله : أين الطريق إلى الإسكندرية ؟

فيشير لشرطى إلى الطريق الموصول إلى الإسكندرية قائلا للسائل : هد هو  
الطريق الصحيح إلى الإسكندرية .

إن الشرطى هنا قد دل هذا الإنسان ، لكن عندما يقول السائل للشرطى .  
« الحمد لله أبى وجدتك هنا لأنك بشرت لى السبيل » فهذا القول يأسر قلب  
الشرطى ، فيريد من إرشاداته للسائل ويوضح له بالتفصيل الدقيق كيف يصل إلى  
الطريق ، ويسمه إلى أى عصفه قد تعرضه ، وإن زاد السائل فى شكره للشرطى ، فإن  
ذلك يأسر وجدان الشرطى أكثر ، ويتطوع ليركب مع السائل ليوصله إلى الطريق ،  
شارحا له ما يجب أن يتجنبه من عصبات ، وبذلك يكون الشرطى قد قدم كل المعونة  
للسائل شكره .

لكن لنفترض أن رجلا آخر سأل الشرطى عن الطريق ، فكذب الرجل  
الشرطى ، وفى مثل هذا الموقف يتجاهل الشرطى مثل هذا الرجل ، وقد صرحت

هذا مثل للتقريب لا للتنبيه إن الحق يدس أولاً بهدية الدلالة ، وقد هدى الله الدس جميعاً ، أى دهم عن المسح ، فمن ذهب إلى رحبه وأمس به ، أعطاه الله هداية ثانية ، وهى هداية المعونة ولنيسر .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا رَادَّهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ۖ ﴾ (١٧)

( سورة محمد )

إن الحق يعطيهم حلالة الهداية وهى التقوى ، كان الحق يقول للعبد المؤمن مادمت قد أقبلت على الإيمان قلت حلالة الإيمان ، أما الذى يكفر ، والذى يظلم نفسه بالشرك ، فالحق يمسح عنه هداية المعونة ، لأنه قد رأى هدية الدلالة ولم يؤمن بها . إذن فلا استعظام فى قوله تعالى : وكيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم « هو تساؤل يرد به الإنكار والاستبعاد لا عن الهداية الأولى وهى هداية الدلالة ، ولكنه عن هداية المعونة ، أى : كيف أعين من كفر به ؟

والمقصود بهذا القول هو بعض من أهل الكتاب الذين جاءهم نعت الرسول صلى الله عليه وسلم فى كتبهم حتى إن عبد الله بن سلام وهو منهم ، يقول : لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعروى لائى ، ومعرفتى لمحمد أشد ، ومصادق ذلك ما بقوه الحق سبحانه وتعالى .

﴿ الَّذِينَ تَتَّبَعَ الرَّسُولَ أَنِىَ أَنزَلْتُ إِلَيْكَ يُحَدِّثُونَ مَكْتُومًا عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ يُخْلِئُ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْفَاحِشَاتِ وَيَنْصَحُهُمْ إِذْ رَأَوْهُ وَآلَاغُلِيَتْ أَسْجَادُهُمْ فَفَازُوا عَلَيْهِمْ ۚ قَالُوا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَسَوَاءٌ أَمْرُهُمْ وَأَمْرُهُمْ ۚ فَاذْكُرُوا مَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ ۚ ﴾ (١٨)

( سورة الأعراف )

والتميز القرآن الدقيق لم يقل : يتحدثون وصحه مكتوما عندهم فى التوراة والإنجيل إنما يقول الحق .

﴿الَّذِي يَجُودُ مَكُونًا عِدْمًا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾

(من الآية ١٥٧ سورة الأعراف)

كأن الذي يقرأ التوراة والإنجيل يمكنه أن يرى صورة النبي عليه الصلاة والسلام من دقة الوصف ، لقد عرفه التوراة وعرفه الإنجيل معرفة مفصلة وشاملة ، مع نطق وعبارة يؤكد ذلك وهناك عرق بين أن « تعرف » وبين أن « تقول » ، فقد يعرف الإنسان ويكتف بما عرف ، ولكنهم عرفوا الرسول صلى الله عليه وسلم واعتبروا بذلك ، فقد كانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا ، قال الحق سبحانه

﴿وَنَجَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْهِمُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِمْ فَدَعَا اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

(سورة البقرة)

لقد أخذوا برسول الله صلى الله عليه وسلم قتل بحجة نصرته على الكافرين ، فقالوا : سيأتى من يتبعه ويقتلكم معه قتل عاد وإرم . فإذا فعلوا ؟ إن الحق يجب .

﴿فَلَا جُنَّةَ لَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِمْ فَدَعَا اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن هم آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم من قبل بحجته ، فلما جاء كفروا به انظر إلى العدالة من الحق سبحانه وتعالى ، حين يريد أن يدهم على موقف الصدق والحق والكرامة الإيمانية .

﴿فَمَنْ كَفَىٰ يَاسِينَ شَيْدَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِدُّهُمْ أَلَيْسَ﴾

(سورة الرعد)

إن الذين ضلوا عن الكتاب هم اليهود والنصارى ، هؤلاء يشهدون أن محمدا رسول الله ، وإن القرآن بعدائه يصف التوراة والإنجيل وهما الكتب التي بين أيديهم .

« كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق » لقد آمنوا به رسولا من معطوق كتبهم ، ثم أعلنوها حينئذ قالوا : « بآق سى نتيحه ويقتلكم معه قتل عاد وإرم »

إذا كانوا قد صنعوا ذلك ، فكيف يهديهم الله ؟ . نعم ليس لديهم الاستعداد لهدايه ، ولم يقبلوا على الله شيء من الحب ، لذلك فهو سبحانه لا يعينهم على اهدايه ولو أقبلوا على الله لأعانهم قال تعالى .

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا وَهُمْ هُدَىٰ وَأَنََّّهُمْ تَفَوَّنُهُمْ ﴾ (١٧)

(سورة محمد)

وهؤلاء لم يهتدوا ، فلذلك تركهم الله بدون هداية المعونة ، وهذا يوضح لنا معنى القول الحق .

﴿ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا مَسِيلَ لَهُ ﴾

(من الآية ٨٨ سورة الساء)

إن الدين لم يهتدوا بهداية الدلالة فلم يؤمنوا بصلهم الله أي يتركهم في غيهم وكفرهم ، أي أنه مادام هناك من لم يؤمن بالله فهل يحسك الله بيده ليهديه هداية المعونة ؟ لا ، لأنه إذ لم يؤمن بالأصل وهو هداية الدلالة ، فكيف يحسكه الله هداية المعونة ؟ ومادام لم يؤمن بالله أكان يصدق التيسيرات التي يحسها الله له ؟ لا . إنه لا يصدقها ، ويجب أن نعلم أن هداية الدلالة هداية عامة لكل مخاطب خطانا تكليفا ، وهو الإسناد على إطلاقه ، أما هداية المعونة فهي من أقبل مؤمنا بالله وكان الحق يقول له . « أنت آمت بدلائى هتد معونى » أو « آمت آمن لمعونى » أو « ستجد التيسير فى كل الأمور » ، أما الذى كفر فلا يهديه الله . .

إن الحق سبحانه لا يعزى الكافر ، لأن المعونة تقتضى ابتداء فعلا من المؤمن ، والكافر لم يفعل ما يمكن أن يقال به هذه المعونة ، فهو لم يؤمن ، لذلك يكون القول الفصل « والله لا يهدي القوم الكافرين » ويكون القول الحق « والله لا يهدي القوم الفاسقين » ويكون القول الحق « والله لا يهدي القوم الظالمين » . إن هؤلاء هم

الظالمون الذين ارتكبوا العظيم الاصيل وهو الشرك بالله كما قال الحق .

﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَنُ لِبَنِيهِ ۖ هُوَ عَظِيمٌ ۖ يَبْنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ عَظِيمٌ ۝١٧﴾

(سورة لقمان)

والحق عندما يركبهم فإنه يربدهم صلابا ، ويحتم على قلوبهم ، فلا يعرفون طريقا إلى الإيمان

﴿ كَيْفَ يَهْدِيَ اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُلَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۖ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٤٦﴾

(سورة آل عمران)

لقد حدهم الرسول بالآيات الدالة على صدق رسالته ، ولكنهم ظلموا أنفسهم اعظم الكبر العظيم ، وهو الشرك بالله ، ولكن هل هذه الآية قد نزلت في أهل الكتاب الذين كان عدوهم نعت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وإشارات وبيانات به ؟ أو نزلت من أجل شيء آخر هو أن أناسا آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم كفروا به ؟

إن انقول الحق يتناول المشركين ، وينطبق عليهم ، سواء أكانوا من أهل الكتاب الذين آمنوا بالرسول من قبل ولم يؤمنوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام ، أم من الذين آمنوا برسالة رسول الله ثم كفروا به ، كما حدث من بعضهم في عهد الرسول ، مثال ذلك طعنة بن أبيرق ، وابن الأسلمت والحارث بن سويد ، هؤلاء أعلنوا الإيمان واتجهوا إلى مكة ومكثوا فيها ، تاب منهم واحد وأخذ له أخوه صهانا عند رسول الله ، والباقيون لم يتوبوا

إن القول الحق يتناول الفتنين ، وينطبق عليهم جميعا قوله تعالى

﴿ كَيْفَ يَهْدِيَ اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُلَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ



الْبَيْتِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٨٦﴾

(سورة آل عمران)

ويفصل لنا الحق سبحانه جزاء هؤلاء بقوله الحكيم .

﴿ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ ۖهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ

وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾

واللعنة هي الطرد من الرحمة ، والله يعزم كل ملعون منهم ، وماداموا قد طُردوا من رحمة الله فالملائكة وهم المؤمنون بالله إيمان الشهد يرددون اللعنة ، والمؤمنون من خلق الله يرددون اللعنة ، وكذلك يلعنهم جميع الناس ، وكيف يلعنهم كل الناس سواء أكانوا مؤمنين أم كفارا ؟ كيف يلعنهم الكافرون ؟ إن الكافر عندما يرى إنسانا يرتكب معصية ما عدا بربه من نظره ومعتزله وإن لم يكن مؤمنا

وهب أن كافرا وجد إنسانا يخرج عن الصبح ويفعل معصية ويرتكب جرما ألا يلعن الكافر مثل ذلك الإنسان ؟ إنه يلعنه لأن الفطرة المركوزة التي طرأ الله الناس عليها ترفض ذلك ولا ترتصبه

وهكذا شاء الحق أن يجمعهم ككفار يتلاعنون فيما بينهم ، ويحد أن جميع الناس يلعنهم كذلك ، لأنهم قد خرجوا عن منهج الله بالكفر بعد الإيمان ، وجرحهم ذلك إلى اقتراف الأثام ، وهكذا تصح الملاعة من الجميع ، وهم مع ذلك خالدون في اللعنة قال تعالى

## ﴿ خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يَخْفَى عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾

ومعنى « لا يخفف عنهم العذاب » أى أن العذاب يظل دائما أبدا وقد يظن بعض الناس أن الكافر مادام سيدخل النار ويحترق سوف يسهى أمره. لا إنه يعمل نفسه ويدكر قصبة ، إنه يتناسى قول الحق .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصِيبُهُمْ نَارًا كَثِيرًا بَصِغَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْسِنِهِمْ جُلُودًا عَمَرًا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

( سورة النساء )

إسم سيدوقول العذاب بأمر من الحق دائم وأبدا ، وقد يقول بعضهم ، إن العلم قد توصل إلى أن الإنسان تقل حساسيته للألم الماتح من الصرب بالسوط بعد العشرين سوط الأولى ، وهو بذلك يسى أن العذاب في الآخرة على غلط آخر ، إن الله يحق للمعذب إحساسا حديدا ليظل مستشعرا دائم العذاب ، قال الحق « لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون » أى أن عذابهم مؤكد ولا يتركهم الحق ليسترجموا من عذابهم وبعد ذلك يقول تعالى .

## ﴿ لَا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾

واحق سبحانه وتعالى هو الخالق للخلق كلهم ، يجب أن يكرروا على ما يورد

وحب ، لأهم صفة الله فهو سبحانه وتعالى يحب اتوايين ويحب المتطهرين

وقد أمر عباده أن يتوبوا إليه توبة نصوحاً أي توبة صادقة حالصة لا رجع فيها  
هذه التوبة تنسم بالاقلاع عن الذنب والندم عن ما فات والعزم على عدم العودة  
لذنب مرة أخرى ورد اصطلم لأصحابها إن كانت هناك مظالم .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : إن الله ييسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار  
وييسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها<sup>(١)</sup> .

وهكذا أوجد الحق تشريع التوبة بهدف إصلاح الكون ، لأن الله لو لم  
يشرع التوبة لمن أفسد من عمل عن منهج الله ولومرة واحدة قد يصير في نظر  
نفسه ضائعاً فاسداً مرتكباً لكل الحماقات ، فكان الله بتشريع التوبة قد صمم  
لصاحب الإسراف على نفسه في توبه أن يعود إلى الله ، كما يرحم المجتمع من شرور  
إنسان فاسد ، إذن فتشريع التوبة إنما جاء لصالح الكون ، ولصالح الإنسان ليصم  
بمحبة الله ، لذلك يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ تَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨١)

(سورة آل عمران)

فبرعم كفرهم السابق إلا أن الله برحمته لا يذللهم في الوعيد ؛ إهم مطالون  
بالتوبة والإصلاح ، ومعنى كلمة «أصلح» أنه راد شيئاً صالحاً على صلاحه .  
والكون ليس فيه شيء فاسد اللهم إلا ما يشأ من فعل اختياري من الإنسان وعلى  
التائب أن يزيد من الصلاح في الكون ، وهكذا مضمّن الآية التائب إلى الشيء  
يفسده ، لأن من يريد أن يزيد الصالح صلاحاً ، لم يفسد الشيء الصالح .

وربما كان هؤلاء الدين أسرفوا على أنفسهم في لحظة من اللحظات غفلة وعيهم  
الإيماني ساعة يذكرون الذنب أو التجربة التي اقترفوها بالنسبة لدينهم ، يمارلون أن  
يجنّوا ويسارعوا في أمر صالح حتى يجبر الله كسر مصيبتهم السابقة بطاعتهم  
اللاحقة .

ولذلك نجد كثيرا من الناس الذين يتحمسون للإصلاح وللخير ، هم أناس قد تكون فيهم رغبة من روبا الإسراف على نفوسهم في شيء ، وبعد ذلك يتجهون لعمل الخير في مجالات كثيرة جدا ، كأن الله يقول لكل منهم : أنت احتلست من محارمي شيئا وأنا سأعذك إلى حلاتي ، إنه الحق يجعل من معصية الفرد السابقة سيئا دائما تلهب ضميره فينتج به الخير ، فيصدق على الفقراء ، وربما كان أهل الطاعة الرعية ليس في حياتهم مثل هذه السيئات .

ولكن الذين أسرفوا على أنفسهم هم الذين تلهبهم تلك السيئات ، فساعة يرى الواحد منكم إنسانا قد أسرف على نفسه فليدع الله له بالهداية ، واعلم تمام العلم أن الله سيُسخر منه ما يعمل به الخير ؛ لأن أحدا لم يسرق الكون من مخلقه أبدا . وهذا ينطبق على من قال عنهم الله . « إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا » ( وأصلحوا ) أي عملوا صلاحات كثيرة لأن حرارة إسرارهم على نفوسهم تلهب ظهورهم دائما ، فهم يريدون أن يصنعوا دائما أشياء لاحقة تستر أحرارهم السابقة وتذهبها .

وبعد ذلك يقول الحق .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا  
لَنْ نَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴾

هذه الآية تحدث عن أولئك الذين كفروا بعد إيمانهم ، وأزدادوا كفرا ، وهؤلاء لا تقبل توبتهم وهم الضالون ، وقد جاءت مقابلة للآية السابقة ، أناس تابوا وأناس لم يتوبوا . لكن كيف يزداد الكفر ؟ إنه قد كفر في دانه ، وبعد ذلك كان عاتقا لغيره عن أن يؤمن ، وهو لا يكتفى بخيسته ، بل يحاول أن يشتر خيسته على الآخرين ، وفي ذلك ازدياد في الكفر والعياء بالله ، وهذا القول قد نزل في بعض من اليهود الذين آمنوا بالبشارات التي تنبأت بمقدم عيسى عليه السلام ، فلما جاء عيسى كفروا به ، ولما جاء محمد ازدادوا كفرا .

لقد كفروا بعيسى أولا ، ثم اردادوا كفرا بمحمد وادعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وهؤلاء ليسوا من الدين تابوا . أو أنهم اعلوا التوبة باللسان ، ولم يتوبوا التوبة الصوح ، ( والراجع في توبته كالمستهرى ، بربه ، ) وقانا الله وإياكم هذا المقلب وبعد ذلك يقول الحق .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ ﴾  
 ﴿ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ ﴾

لقد كفروا ، ولم يقدر الله لهم أن يتوبوا ، قاتلوا على الكفر ، ويريد الله أن يعطيا حكما خاصا بعضهم في الدنيا ، وحكما خاصا بما يتنقوه من عذاب في الآخرة ، والحكم الخاص بعملهم في الدنيا سيء أن هم اختاروا ، والحكم الخاص بما يتنقوه في الآخرة من عقاب لأنه لا خيار لهم ، وهذا للعلماء وقته ، فهل مرء الأرض ذهبا أنهم أنفقوا في حياتهم ملء الأرض ذهبا ؟ نقول له : لا بفعلك هذا الإنفاق في أعمال الخير لأن أعمالك حابطة .

هب أن تاجر مات على الكفر وقد أنفق في الخير ملء الأرض ذهبا ، نقول له : هذا الإنفاق لا ينفع ، مع الخيانة العظمى وهي الكفر ، فإدام خير مؤمن بإله ، فهو قد أنفق هذا المال من أجل الناس ، وصار متعاقا على من لا يقدر على أن يجاريه بالخير في الآخرة ، لذلك فليس له عند الله شيء ، فالذى يعمل عملا ، عليه أن يطلب أجرا بمن عمل له ، فهو كان الله في بال ذلك الكافر ؟ لا ؛ لأنه مات على الكفر ، لذلك لو أنفق ملء الأرض ذهبا من يقبل منه . لقد صنع ذلك الخير وفي ماله الناس ، والناس يعطونه حقه من الشئ ، سواء كان معتزعا أو محسنا أو غير ذلك ، إنه ينال أجره من الإنسانية ، وينطبق عليه قول الرسول صلى الله عليه وسلم .

« وفعلت ليقال وقد قيل »<sup>(١)</sup>

( من حديث شريف )

كأن الله يقول له . لم أك في بالك فلماذا تطلب مني أجرا في الآخرة ، لم يكن في بالك أن الملك لي ، قال سبحانه

﴿ يَوْمَ هُمْ بَرْزُورٌ لَا يَمْنَعُ عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ امْتَلَكَ الْيَوْمَ إِلَهٌ إِلَّا تَوَحَّدَ الْقَهَّارُ ۝١٥﴾

( سورة غافر )

وبعض الناس يقول . كيف لا يسأل ثواب الآخرة من ملئوا الدنيا بالاكشافات والاشكارات وجمعوا بها آلام الإنسانية ؟ يقول لقد أعطتهم الإنسانية وعلمت ذكراهم ، وأقامت لهم التنايل والمؤلفات والأعياد والجوائز ، لقد عملوا للناس فأعطاهم الناس ، فلا يحسن في حقوقهم ، ذلك أهم لم يعملوا في بلهم الله ، وقد صبر الحق موقفهم التصوير الرائع فيقول جل شأنه :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَصْحَابُ كِسْرٍ يَفْقَهُ الْغُلْقَانُ مَاءٌ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ لَا يُبْجِدُهُ

شَيْءٌ وَوَجَدَ اللَّهُ عَصَاهُمْ مَوْجَةً حَابَةً وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝١٦﴾

( سورة النور )

إنه سراب ناتج عن تخيل الماء في الصحراء يتوهم السائر العطشان في الصحراء نتيجة انعكاسات الضوء ، فيظل السائر متجها إلى وهم ماء ، إنه يصنع الأمل لنفسه ، فإذا جاءه لم يجده شيئا ، ويغاضا بوجود الله ، فيهدم ويتنقى العذاب ، وكذلك لن يقبل منه ملء الأرض دها لو أنفق في أي حير في الذهب ، وبعد ذلك لن يقبل الله منه ملء الأرض دها لو اختفى به نفسه في الآخرة ، إن كان سيجد ملء الأرض ذهبيا ، وعن فرص أنه قد وجد ملء الأرض ذهبيا ، فهل يجد من يقبل ذلك منا ؟ لانه في الحقيقة لن يجد الذهب ، لانه في الآخرة لم يعد يملك شيئا : يقول الحق :

(١) رواه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه

﴿لَيْسَ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾

(سورة غافر)

ويقول سبحانه :

﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَا فُتِنُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ  
يَوْمَ الْقِسْمَةِ ۚ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا مَكُنْ يُكُونُوا بِحَسْبِئِهِ ۖ﴾

(سورة الزمر)

« أولئك هم حذاب أليم وما لهم من ناصرين » أي إن هؤلاء عذابا أليما ، لأن كل حدث من الأحداث إما يأخذ قوته من قوة فاعله ، فإذا كان الحدث التعذيب منسوباً إلى الله وله مطلق القوة والقدرة ، لذلك والعذاب لن يطلق . ولن يجد الظالم من يدركه هذا العذاب لأنه لن يجد ناصر له ، ولن يجد شامخاً فليس يأبى أحد ويقول إن فلاناً يتعذب فيها بنا ننصره ، لا يأتي أحد لينصره .

ويجد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَوْمَهُ عَلَيْهِ ۝﴾

وقد روي كل مادة الباء والراء المضعفة إلى معنى « السعة » ، « البر » أي الواسع والبر أي الأرض المتسعة ومقابلته « البحر » وإن كان قاتل . « إن البحر أوسع من البر » لأن حجم القارم ليس في حجم البحار والمحيطات التي تفصل بينها . « يقول لكل هذا القاتل » لا ، إن حركتك في البر - الأرض - موسعة ، وحركتك في البحر مضيقه ، لأنك لا تتحرك في البحر إلا على شكل حاص ، إما أن تتحرك بسفينته أو

حتى من لوح من الخشب ، أما حركتك في البر - الأرض - فأتيت تخفى لو تركت ،  
تذهب أو تحيى ، فمجالك في البر متسع عن مجالك في البحر .

والبرء هو التقوى ، والطاعة ، أو هو : الحنة ، وكلها معان ملتقية ، لأنها تؤدي  
إلى السعة ، فالطاعة تؤدي إلى اسعة ، وكذلك التقوى ، وكذلك الحنة ، كلها  
ملتقية ؛ لأن كلها سعة ، فاحدهم أخذ معنى الكلمة من مرحلتها الأولى أى بالسبب  
وهو الطاعة ، وبمعنى أحدها من المرحلة الأخيرة أى بالمسبب وهو الحنة ، وقد  
يسأل سائل ، لماذا أراد الله أن يحيى بتحديث عن الصفقة بعد الحديث عن تعذيب  
الكفار ؟ ويقول : إن الحق حين يتكلم ضمن بصية العذاب الأليم لأنه كفر ومات  
كافرا ، وماله من ماضيين فإن المقابل يأتي إلى لدهن ، وهو من آمن وعمل صالحا ،  
ومات على إيمانه ، فله عكس العذاب الأليم وهو العيم ، وسيجد من يأخذ بيده ،  
بينما الكافر لن يجد ماضيين له . إن المؤمن سيجد جزاء الله على الطاعة وهي البرء  
لأن البرء هو كل خير ، وإن جاء على طاعة فإنه ينصرف إلى آخره من الله وقفته هو  
الحنة

وهكذا يرى المقابل لمعنى الحق للكفار وهو معاملة الحق للمؤمنين ، لقد جاء هذا  
القول في القرآن وهو كلام الله المعجز ، وحين يخاطب سبحانه المكلمين بالمتبع فهو  
يخاطب بكلامه ملكات إنسانية حلها هو ، إذن فلا بد أن يعنى هذا الكلام كل  
الملكات المخلوقة لله ، فلو كان الخلق للملكات غير المتكلم لكان من الممكن ألا  
يسمى الكلام مع الملكات ، ولكن الكلام هنا لله الذي خلق ، لذلك لابد أن  
تسمي الملكات مع كلام الله .

وفي العصر الإنساني ملكات متعددة ، وهذه الملكات المتعددة متشابكة تشابكا  
دقيقا فتستطيع حين تخاطب ملكة سمعية أن تحرك موجيد وجدانيه ، فإن لم يكن  
لعالم بالملكات عليها لما أمكن أن يحيى المطلق موافقا لملكة سمعية ، وموافقا  
للكات وجدانية قد تتأق بها طبيعة تداعى المعاني .

والنداعى المعانى هو الخاصية الموجودة في الإنسان ، ومعنى « تداعى المعانى » أن  
للإنسان يستعمل معنى من المعانى فيشير ذلك المعنى إلى معان خفية يستدعيها لتخضر  
في الدهن ، فمثلا حين ترى إنسانا تعرفه . فإن نداعى المعانى يعطيك ترويحك معه



وتاريخه معك ، ويصور بحاضرك أيها عبور عن أهله وأصدقائه ، ومعارفه ، وبأى لك تدعى المعاني بالأحداث التى كانت بيث وبه أو شاهدتها أنت وهذا هو ما سميته «تدعى المعاني» أى أن المعنى يدعو المعنى

وحيث يتخاطب الله سبحانه وتعالى الإنسان ، فإنه يتخاطب كل ملكة فيه فى آن واحد ، حتى لا تأخذ ملكة عداءها ، دور ملكة أخرى لا يجد لها عداء إن كلام الله حله مستوفيا وكاميا لكل الملكات ، ومثال ذلك حينما أراد الحق سبحانه وتعالى أن يمنع المشركين من أن يطوفوا بالبيت ، وكان المشركون هل يحرم الله لطوافهم ، يطوفون بالبيت ، ويأتون من أماكن سحيمة بعيدة ليطوفوا فى موسم الحج ، وكانوا يأتون بأموالهم يسبقونها على أهل مكة ، ويشترى كل شيء يلزمهم بها ، فموسم الحج كان موسما اقتصاديا وحيث يريد الله أن يمنع المشركين من الحج فهو يتخاطب المسلمين المقيمين بمكة حتى يحولوا بين المشركين وبين الطواف ، وهو سبحانه قد علم - وهو العليم - بما خفى من ملكات ، يعلم سبحانه أن ملكة أخرى ستدخل فى هذا الوقت ، ويقول

﴿يَنْهَى الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَشِرْكُونَهُمْ فَلَاقُوا نَارًا كَبِيرًا فَتُحَرِّمُ نِعْمَتَهُمْ هَٰذَا

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

وهلما ينزل هذا الحكم فلا بد أن تتحرك ملكات فى النفس الإنسانية ، والحق قد علم ألا أن ملكة التفعية الاقتصادية عند أهل مكة ستتحرك عند سماع هذا الحكم ، بمعنى أن بعضا من المسلمين المقيمين بمكة وقت نزول هذا الحكم قد يقولون : « وإدا كنا نمنع المشركين الذين يعملون علينا بالأموال ليشترى بضائعنا وموسمهم الاقتصادى هو الذى يعملنا طيلة العام فهذا نصبح إدا ؟ » إن الله يعلم أنه عند نزول حكم بتحريم البيت عن المشركين أن يقرئوه فلا بد أن تتحرك فى النفس الإنسانية تلك الملكة التفعية ، فيقول - سبحانه - عقيب ذلك مباشرة

﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عِيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَكِيمٌ

(من الآية ٢٨ سورة التوبة)

الخوف من العيلة ، أى الخوف من الفقر ، وتلك هى عظمة الكلام الإلهى لأن

رَبَّهَا يَتَكَلَّمُ إِنَّ الْإِنْسَانَ حَيْبٌ يَتَكَلَّمُ قَدْ تَعَوَّثَهُ مَعَانٍ كَثِيرَةٌ ، وَبَعْدَ ذَلِكَ قَدْ تَحَدَّثَ فَضِيحةً وَيَلْبَلَةٌ وَثُورَةٌ بَيْنَ النَّاسِ ، لَكِنَّ الْحَقَّ الْأَعْلَى عِنْدَمَا يَقُولُ : « إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا » وَيَتَّبِعُ ذَلِكَ فَوْرًا بِقَوْلِهِ الْمُطْمَئِنِّ : « وَإِنْ خِفْتُمْ عَجَلَةً فَسَوْفَ بِغُنْيِكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ » وَقَدْ فَعَلَ وَجَبَى الْحَقَّ وَجَلَبَ إِلَى الْبَيْتِ الْحَرَامِ ثَمَرَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ، وَكَأَنَّهُ يَقُولُ لَنَا : لَا تَعْتَقِدُوا أَنَّ هَذِهِ الثَّمَرَاتُ قَادِمَةٌ عَنْ طَرِيقِ التَّطَوُّعِ وَلَكِنَّمَا رَزَقَ مِنْ لَدُنِّي ، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ الْحَقُّ

﴿ وَقَالُوا إِنَّمَا مِيعَادُ خُدَيْ مَعَكَ نَحْطَفُ مِنْ أَرْضِكَ أَوْ لَرْتُمْكُمْ مِنْهُ حَرًّا تَابًا يُخَيِّقُ

إِبْنَهُ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ وَرَزَقَ مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنْ كَثُرْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

(سورة الفصم)

أَيُّ أَنَّهُ لَيْسَتْ هُنَاكَ حُرِيَّةٌ لِأَحَدٍ أَنْ يَعْطَى أَهْلُ الْبَيْتِ الْحَرَامِ أَوْ لَا يَعْطَى ، إِنَّمَا جَائِيَةٌ ، لِهَاطَمَانَةِ الْمَلَكَةِ النَّصِيَّةِ فِي النَّفْسِ ، وَهُوَ مَسْبُوحَانِ يَعْطَى الْأَمَانُ الْاِقْتِصَادِي الَّذِي يَتَرْتَّبُ عَلَيْهِ قُورَمُ الْحَيَاةِ ، وَعِنْدَمَا نَحْنُ فِي الْمَنْظَرِ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ نَجِدُ أَنَّ هُنَاكَ آيَةٌ قَدْ تَصَدَّقَتْ وَآيَةٌ قَدْ تَنَاحَرَتْ ، وَآيَةٌ قَدْ تَأْتَى فِي الْوَسْطِ ، وَنَجِدُ أَنَّ الْآيَةَ الْوَسْطَى ، مَرْتَبَةٌ مَتَدَاعَى الْمَعَانِي بِالْآيَةِ الَّتِي قَبْلُهَا ، وَمَرْتَبَةٌ مَتَدَاعَى الْمَعَانِي بِالْآيَةِ الَّتِي بَعْدَهَا ، وَذَلِكَ لِقَرْنَوِي وَتَتَخَذِي كُلُّ مَلَكَاتِ الْإِنْسَانِ فَلَا يَأْتِي أَمْرٌ يُوْجِي بِأَنَّ هُنَاكَ مَا يَنْقُصُ الْمَسْأَلَةَ الْبَشَرِيَّةَ ، لَتَتَأَمَّلَ مَثَالًا لِلذَّكَاءِ وَهُوَ قَوْلُهُ الْحَقُّ :

﴿ وَيَقُولُونَ وَتَأْمُرُ بِمَنْ لَوْ لَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُكُمْ حَسْبُكُمْ يَصَلُّوْنَ بِئْسَ

الْمَصِيرُ ﴾

(من الآية ٨ سورة المجادلة)

إِنَّ الْمُشْرِكِينَ لَمْ يَقُولُوا لِأَحَدٍ « إِنَّمَا قَالُوا لِأَنْفُسِهِمْ » ، وَيَكْشِفُهُمُ الْحَقُّ مَسْبُوحَانِ الْعَلِيمِ فِي أَحْمَى حَبَائِبِهِمْ ، وَيُظْهِرُ مَا فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِكُلِّ خَفَايَا عِبَادِهِ وَالْكَاشِفُ لِكُلِّ الْمَلَكَاتِ الْاِنْتِمَاةِ فِي خَلْقِهِ . وَحِينَ يَقُولُ الْحَقُّ مَسْبُوحَانِ : « وَلَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ » . فَإِنَّ الْآيَةَ تَحْرِيطُ عَلَى الْإِنْمَانِ ، وَجَاءَتْ بَعْدَ آيَةِ تَقْيِيدِ أَنَّ هُنَاكَ إِنْمَانًا لَا يَقْبَلُهُ اللَّهُ فِي قَوْلِهِ مَسْبُوحَانِ :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَرَاءَ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلٌّ إِلَّا رِضٌ قَلْبٌ وَلَوْ أَقْبَدْتُمْ  
يَدَهُ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾ ١١

( سورة آل عمران )

إذن فهناك لون من النفقة يرفضه الله ، ولداعى المعلى في نفس الإنسانية قد يجعل الإنسان يسأل « ما هي إذن النفقة المقبولة ؟ » لذلك كان لابد وأن يأتي قوله تعالى : « لن تتألفوا البر حتى تنفقوا عما تحبون » فإذا كانت هناك نفقة مردودة فهناك أيضا نفقة مقبولة ، وهكذا نرى الآية التي تعرض على الإنفاق منسجمة مع ما قبلها .  
« لن تتألفوا البر حتى تنفقوا عما تحبون » ، قد يسأل سائل ، ولماذا لا يتألف الإنسان البر لا بعد أن ينفق عما يحب ؟ وله أن يعرف أن طبيعة النفس الإنسانية هي « الشح » ولهذا جاء في القرآن الكريم

﴿ قَاتِلُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَعْرِضُوا خَيْرًا لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ ١١

( سورة التباين )

وشح النفس يأتي لأن الإنسان لا يأس أبدا أن يأتيه العجز من بعد القدرة ، لذلك فإنه يحاول أن كان يملك شيئا أن يؤمن العجز المتوهم ، فيحافظ على ما عنده من حاجات ، ومن هنا جاءت الحيلة والملكه لم تنشأ هذه الأشياء من أول الخلق ، وإنما نشأت من يوم أن صاحقت الأمكة لمعطية دون الحاجات ، فحين تكون الأمكة المعطية تسع الحاجات فلا داعي لهذا العجز المتوهم .

لنعرض أن رجلا اشترى مملوكا من البرتقال ، ودخل منزله وعندما يحتاج ابن هذا الرجل لبرتقالة أو اثنتين فإنه يأخذ ما يريد ، لكن لو أحضر الرجل قليلا من البرتقال فإن زوج الرجل تكون حريصة على أن تقسم البرتقال بين الأولاد حتى لا يترك كل ابن على سجيته بما قد يحرم الآخرين .

وهكذا كان الأمر في بدء استخلاف الله للإنسان في الأرض ، فمن لواد الأرض

أحد ، ومن أراد أكل الثمر فهو كمانه ، وعندما هبت مُعطيات الحجات وذلك مصيق  
الأمكة المعطية بذاب في الطهور الرغبة في الملكية ، واعتبر الأنساء ، والحق سبحانه  
يلمتنا في هذه المسألة وكأنه يقول لنا . إن الففة لو نظرت إليها نظرة واقعية حقيفة  
لوجدت أنك أيها العبد مضارب لله في خبر الله . ومعنى « مضارب » أي أنك تعمل  
عند الله بالمقل الذي خلقه لك ، وتخطط به ، وتعمل عبد الله بالطاقة التي خلدها  
الله ، والمادة التي خلقها الله لك تنفعل معها بهذا لك أنت ؟

إن كل شيء لله ، وأنت مجرد مضارب لا تملك شيئا وصاغت مضارباً أيها العبد ،  
فأعط الله حقه ، وحس الله لا يأخذه هو ؛ فهو أسمى الأغنياء ، إن حس الله يأخذه أحوك  
خير القادر الذي لا يستطيع أن يتفاعل مع المادة ، ولا نظى أيها العبد أن الله حين  
طلب منك النفقة مما تحب أن - حل شئته - قد استكثر عليك ما طلب منك أن  
تنفقه ، إنه ساعة يأخذ منك لأهلك وأنت قادر ، إنما بطمئنتك أنك إن هجرت  
صياحك لك من القادرين ذلك هو الثامون في يد الله

إن الحق يريد أن يحبسنا في أن نفنق ، لكن الإنسان يحاول أن ينفق بما لا يجب ،  
فهذهى الإنسان الثوب الذي لم يمد صالحاً للاستعمال يعطيه لفقير ، أو يعطى الخداه  
المستهلك لواحد محتاج . لكن الله يأمرنا بأن نفنق بما تحب لذلك افضل صحابة  
رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما سمعوا هذا النص : « لن تدلوا البر حتى تنفقوا  
بما تحبون » ، هذا أبو طلحة حينما يسمعها يقول يا رسول الله ، إن أحب  
مالي إلى هو « بريحاء » فأنا أخرجه في سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم : اجعله في أقاربك ، فجعله في أقاربه ، وهذا زيد بن حارثة يسمع الآية  
الكريمة يتمتع بها كذلك ، وكان عنده فرس اسمه « سيل » وكان يحبه ، فيقول .  
يا رسول الله أنت تعلم حتى لفرسي ، وأنا أجعله في سبيل الله . فأخذه منه رسول  
الله صلى الله عليه وسلم ، وجاء بأسماء بن زيد وأركبه الفرس . قل زيد  
« فوجدت في نفسي « أي أنه حزن ، وقال زيد يا رسول الله لما أردت أن أجعل  
الفرس في سبيل الله وأنت تعطى الفرس لاسي ليركه . فقال رسول الله لزيد « أما إن  
الله قبله منك »

ويعد ذلك يتمتع سيدنا أبو ذر رضى الله عنه وكان عنده إبل ، والإبل لها فضل  
يلفح إبل الإبل ، وكان هذا العنص أحب مال أبي ذر إليه وجاء ضيف إلى أبي ذر ،

فقال له : إني مشغول ، فأخرج إلى إبل فاختر خيرها لنذبحه لضياقتك . فخرج الصيغ ، ثم عاد وفي يده ناقة مهزولة ، فلما رآها أبوذر قال : حشني ، قلت لك هات خير الإبل ، قال الصيغ : يا أباذر لقد رأيت خيرها محلا لك وقد رت يوم جدتكم إليه . فقال أبوذر : إن يوم حاجتي إليه ليوم أوضع في حفرك

إن لصحاب الجبل أباذر يعرف أن يوم أن يوضع في الحفرة هو اليوم الحليل الذي يستحق من المرء أن يستعد له .

وسيدنا ابن عمر كان عنده جارية جميلة من فارس ، وكان يحبها ، فلما سمع الآية ، قال : ليس عندي أحب إلي من هذه الجارية ، وأعتقها ، وكان من الممكن أن يتزوجها بعد أن أعتقها ، لكنه قال : لولا أن ذلك يقدح في عتقها لتزوجتها . وسيدنا أبوذر رضي الله عنه يعطيا في مسألة الإنفاق درسا من أروع الدروس المستوحاة للملكة النفسية ، فيقول : في المال شركاء ثلاثة . القدر لا يسأرك أن يذهب بخيره وشره من هبك أو موت . أي إن القدر لا يستأذن عبدا في أن يذهب بمال حيث يريد ، فتأتي أي مصيبة فتأخذ المال إلى هبك أو موت . هذا هو الشريك الأول في المال ، إنه القدر .

والشريك الثاني في المال يوصحه لنا أبوذر فيقول : إنه الوارث ، يتطرق إلى أن تصعب رأسك ، ثم يستاقها وأنت قد سلت بالموت كل ما تملك في الدنيا وأصبحت من غير أهلها . إن الوارث يقول لنفسه : فلاستمع بما تركت ، وهذا هو الشريك الثاني في المال .

ويوضح لنا أبوذر رضي الله عنه الشريك الثالث في المال فيقول : والثالث أنت ، فإن استطعت ألا تكون أهجر الثلاثة فلا تكن أعجزها . أي إياك أن يفلت على المال العذر أو الورث ، يسعى عليك أن تعلم بإنفاق المال في سبيل الله وإلا أخذه ملك بلقي الشركاء .

إذن لقد اتفعل صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالآية حينما سالت حتى عدا الخير المحبوب منهم إلى غيرهم ، وكان جزاء ذلك الجنة . لقد عرفوا قول الحق : « لن تملوا البر حتى تملقوا بما تحبون » أي الجنة المترتبة على الطاعة أو

الضوى ، أوسعمة البركة أوسعمة القوة ، وكلها معان ملتقية ، ولذلك يقول الله في الحديث القدسي :

« قد كان العباد يكافئون في الدنيا بطمروف وأنا اليوم أكافئ بالجنة » .

إن الحق سبحانه الذي يعطي البرئسا لتنفقة عما تحب يعلم هل أنفقت عما تحب معلا أو تبصمت الحبيث لتنفق منه ، فليكن أيها المؤمن أن تملح بصك في هذا الأمر ، لأن الذي يعطي البرئسا لتنفقة عما تحب يعلم خايا الصي ، لذلك يقول سبحانه : « وما تنفقوا من شيء فإن الله به حليم » .

وعلم الله شامل ، إنه يعلم ما في بينك ، وكيف أنفقت

ولقد بين الحق سبحانه الحققة للمروضة حق ولو كانت ملء الأرض دها ، ثم أوضح لك أن هناك نفقة مقبولة وجزاؤها الجنة ، ومثلت نرى التفاضل بين العفتين ولماذا جاء هذا الحديث ؟ لقد كذب بعض أهل الكتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في مستهل أمر الدعوة وكذبوا البشارة به ، وأنعت والشارة جاءا في التوراة والإنجيل ، وأنكروا الأوصاف التي ذكرت في كتبهم استياوية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولحدوا ومحو هذه الأوصاف من كتبهم . حدث ذلك مع أنهم قد نورطوا من قبل في إعلان لبشارة به « وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به » .

لقد أراد الله أن يفضحهم في التوراة التي يعتقدون أنها كتابهم وتفسحروا بعض أحكام الله ، وظنوا أن هذه التحريفات ستظل مستورة ، لذلك جاء لهم بأحداث ولم ينتبهوا إليها لتقوم الحجة على أنهم قاموا بتحريف التوراة مثلما قلنا من قبل عن الخيرية التي أوتيت فاحشة الرنا ، وأراد رؤساء اليهود أن يجمعوا العقوبة صتها ، لأن العقوبة الواردة في التوراة على جريمة الزنى هي الرجم وقال هؤلاء الرؤساء « يذهب إلى محمد ، لعل لديه حكما مخفا » قلنا فذهبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصح لهم أنه الرجم . فقالوا : لا ، إنك لم تصف في حكمك . فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم لهم أنه يرضى بحكم التوراة التي عندكم وجيء بالتوراة وأمرهم الرسول أن يقرأوا عليها جاموا إلى آية الرجم أرادوا أن يغللوها

فقال ابن سلام : إنهم يارسول الله قد وثوا وأعفلوا الآية .

وهكذا انتبه الجميع إلى أن رؤساء اليهود أرادوا أن يتخطوا حكماً لله موجوداً عندهم وأرادوا أن ينكروه ، كما فعلوا وأحدثوا في وصف النبي عليه الصلاة والسلام ومحو هذا الوصف ، ولم يتركوا له أثر ، لكن الله أنعم بهم بعض الأشياء لتكون بينة وآية على رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعندما أحل الرسول صلى الله عليه وسلم الإبل وألبانها ، قلوا : هذه محرمة من أيام إبراهيم ومن قبله من أيام نوح ، ولا يمكن أن نقل تحليلها ، فوضح النبي صلى الله عليه وسلم لهم أنها ليست محرمة ، الله أحلها .

وكان يجب أن يفهموا أن الإبل وألبانها حتى وإن كانت محرمة من قبل إلا أن رسولا قد جاء من عند الله بتشريع له أن ينسخ ما قبله مع أن الإبل وألبانها لم تكن محرمة ، لذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يحكم إلى التوراة وهذه هي المعظمة النورانية المحمدية ، فلا يمكن أن يقول صلى الله عليه وسلم : « نحكم إلى التوراة » إلا وهو واثق أن التوراة إنما تأتي بالحكم الذي يؤيد ما يقول ، مع أنه لا يقرأ ولا يكتب . ويحصر التوراة ، فيجدون الكلام مطابقاً لما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك قال الله .

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّنَبِيِّ إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ  
إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ ۚ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَنُؤُا  
بِالتَّوْرَةِ فَأَتَلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾

وحين يحرم نبي الله يعقوب - إسرائيل - طعاماً ما ، فهو حرام ، فقد يحرم على نفسه طعاماً كذا ، أو كوسيلة علاج أو زهانة ، لكن الله لم يحرم عليه شيئاً ، وما يحجبون به أيها اليهود إنما هو خصومية لبدا يعقوب ، كل الطعام كان حلالاً لنبي إسرائيل

إلا ما حرم إسرائيل على نفسه ، فلهذا تقولون . إن الإبل والبأنها كانت محرمة ؟  
لقد فعلوا ذلك لأنهم أرادوا أن يسروا على أنفسهم نفيسة لا يجوز أن يفصحوا  
بها ، وتلك هي النفيسة التي كشفها القرآن بالقول الكريم :

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَدُوا حَرَّمَ كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمَ عَلَيْهِمْ صُورَهُمْ إِلَّا  
مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُنَّ أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ بِمَقْتَدِرِ  
وَأَنَا لَصَادِقٌ ﴿١٦١﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

إذن فهناك أشياء قد حُرمت على اليهود لأنهم ظلموا ، وهذه الآية الكريمة هي التي  
أوضحت أن الحق قد حرم عليهم هذه الأصنام لظلمهم . ومعنى : « كل ذي ظفر »  
أي الغنم التي يكون أصابعها مدجة ومتصلة ، فليست الأصابع متصلة ، ويحدها  
في الإبل والعام والأوز ، والبط ، وهذه كلها تسمى ذوات الظفر . « لا ما حملت  
ظهورهما » يعني الشحم الذي على الظهر . أما « الحوايا » فهي الدعرون التي في  
الأمعاء العلوية « أو ما اختلط بعظم » أي الشحم الذي يختلط بالعظم إن التحريم  
هنا لم يكن لأن هذه الأشياء صارة ، ولكن التحريم إنما كان عقاباً لهم على ظلمهم  
لأنفسهم وبغيرهم على غيرهم .

وأتقون ذلك حتى لا يقون كل راغب في الانعلاص من حكم الله ما الصرر في تحريم  
الأمر الملائ ؟ إن محاولة البحث عن الضرر في حربه الله هي رغبة في الانعلاص عن  
حكم الله . فالتحريم قد يأتي أدبا وتاديبا ، ونحو عن المستوى البشري . والله المثل  
الأعلى - يمع الإنسان ما « المعروف » عن ابنه تاديبا ، أو يمع عنه الخلو ، لأن  
الابن خرج عن طاعة الله ، إذن كان التحريم جزاء لهم وعقاب قال تعالى :

﴿ فَيُظْلَمُونَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّت لَهُمْ وَبِصَدِّيقِهِمْ عَنِ مَوَدِّعِهِمْ اللَّهُ



كَثِيرًا ﴿٦٦﴾ وَأَحْنِمْ الرِّبَا وَقَدِّئْهُرَأَ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالِ الَّذِينَ بِالْبَيْتِ وَأَعْتَدْنَا  
لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٦٧﴾

(سورة النساء)

وذلك هو الجزاء الذي أراه الله عليهم

إن التشريع السامى حينما يأتي لظلم يبرح عن منهج الله فكأنه يقول به ما هو المقصد من حروجه عن منهج الله ؟ لماذا يظلم ؟ لماذا يأخذ الرما ؟ لماذا يصد عن سبيل الله ؟ لماذا يأكل أموال الناس بالباطل ؟ إن الظالم يفعل ذلك حتى يتمتع نفسه بشيء أكثر من حقه ، لذلك يأتي التشريع السامى لينقوت عليه حط المتعة ، وكان هذا الحظ من المتعة حقا وحلا له ، لكن التشريع يجرمه . ومثال ذلك القاتل يحرم من ميراث من يقتله ؟ لأن القاتل استعجل ما أخره الله ، وأراد أن يحصل لنفسه المتعة بالميراث ، فارتكب جريمة قتل ، لذلك يأتي التشريع ليحرمه من الميراث .

كان التشريع يقول له : « ما دامت نيتك هكذا فأنت محروم من ميراث ، والتشريع حين وضع ذلك إنما من كل مورث ، وإلا لكان كل مورث عرضة لصدي ورثته عليه بالقتل ليتقل إليهم ما يملك ، فقال : لا . نحرمة من الميراث وكذلك هذا نجد الظلم بأبواؤه المحتلقة ، الظلم بالكل الحق ، والصد عن سبيل الله ، وأخذ الرما ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وما دام اليهود قد أدخلوا على أنفسهم أشياء ليست لهم فالتشريع يسبب عنهم أشياء كانت حقا لهم .

وكان اليهود في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم يرغبون ألا يُشاع عنهم هذا الأمر فقالوا : إن هذا الطعام محرم على بني إسرائيل . وبعد ذلك وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن هذا اللون من الطعام حلال في التوراة ، فكشف رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الأمر الذي فضحهم .

ولمّا تحيى هذه الآية بعد قوله الحق في الآية السابقة : « لن تتلوا البر حتى تنتفخوا مما تحسون » ؟ ونحن نعرف أن آية « لن تتلوا البر » قد جاءت بعد آية توضح النعقة غير المقبولة من الله . ولندكر ما قلناه أولا ، عن تداعى المعاني في الملكات

الإنسانية . إن في العنصر الإنساني ملكة تستقبل ، فتتحرك ملكة أخرى ، وحين يقول الحق : كل الطعام كان حلالا لى إسرائيل ، فالذين يسمعون هذا سيفعلون انفعالات مختلفة ، فالشبعان من الناس لن يلتفت إلى هذه المسألة بانتباه بالغ ، ومن عنده بعض الطعام فإن نفسه قد تتحرك إلى ألوان أخرى من الطعام ، أما من ليس عنده طعام فليسوف يلتفت بانتباه شديد ليتعرف على احتلال من الطعام والحرام منه

إذن فقبل أن يأتي الله بالحكم الذى يحل ويحرم ، هذا الحكم الذى يثير عند الخاطئ شحن الافتقار وشحن ذكر الطعام الذى يسهل له ثعابه ، إن الحق قبل أن يحرك معدما على غير موجود معه ، فإنه يحرك معطبا على موجود معه ، لذلك قبل أن يأتي الحق سبحانه ويذكر الطعام ، وقبل أن يُقلب الأمر على نفسه الإنسانية التى لا تأخذ طعاما ، نجد الرسول قد نطق قلبها بما أنزله عليه الحق : لى نأثروا البرحق تنفقوا عما نحور ، عنداعى المعانى في العنصر الإنسانية يكون - سبحانه - قد حرك ملكة واجدة وملكة قبل أن يحرك ملكة معلنة وهكذا يكون التوازن الذى أراد الله في الكون المحلوق له

نه رب يحكم كونه ، فلا ينسى شيئا ويذكر شيئا . لا يضل ربي ولا يسي ، إن كل شيء في علمه كما قدره وهو الخلاق القدير العليم ، وهو لا يذكر بعضا من الخلق ، ويسى بعضا آخر ، فهو قد كتب المدم لحكمة ، وأعطى النعمة لحكمة

فقد جعل المقبر عمرة ، ولكنه لم يتركه ، وذلك حتى يرى كل إنسان أن القدرة على الكسب ليست إلا عرصا رائلا ، فمن الممكن أن يصبح القادر الآن عاجز بعد دقائق أو ساعات ، ومن الممكن أن يصبح القوي ضعيفا ، فإذا ما علم القوي أو القادر ذلك فإنه يتحرك إلى إعطاء الآخرين ، حتى يضمن لنفسه التأمن الإلهي لو صار ضعيفا ، فبهذه الأقوياء ، فمدم يأمر الله الأقوياء بأن يعطوا وينفقوا فإن عليهم أن يستجيروا ، لأن الراحه منهم لو صار ضعيفا فسوف يأخذ

إذن فنقول الحق سبحانه وتعالى . « لى نأثروا لرحق تنفقوا عما نحور » هذا القول قد حدم قضية سقننها ، وهى أنه لى يقل من أحدهم ملء الأرض ذهباً ولو افترض به ، مادام كافرا ، إنها نفقة مرفوعة لا اعتبار لها ، إنها هدر . ويأتى من بعد ذلك بتحديد النفقة التى ليست هدرا ، ثم يفصح البهرد بقضية توجد عندهم في الثروة

ولكنهم كذبوها ، وهي قضية تتعرض للطعام ، ومادامت القضية تتعرض للطعام  
فهناك الكثير من الملكات التي يمكن أن تتحرك ، فملكات الواجد حين تتحرك  
فحركاتها تكون بأسلوب غير الأسلوب الذي تتحرك به ملكات المعدم . فقبل أن  
تُحَرِّك وجدان المعدم إلى أنه معدم ، حتى لا يتفق ذلك بحسرة ، فإنه سبحانه يكون  
قد عمل وصيدا لهذا المعدم ، فيرق قلب الواجد أولا : « بن تالوا » حتى تتفقوا بما  
تحيون وما تتفقوا من شيء فإن الله به عليم ، وبعد ذلك يأتي قوله الحق سبحانه

﴿ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ

تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَاذْكُرُوا بِالتَّوْرَةِ فَاذْكُوهَا إِذْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣١﴾

( سورة آل عمران )

ومعنى كلمة « حل » هو « حلال » ، ويقابلها « حرام » وحل هي مصدر ،  
ومادامت مصدرا فلا نقول « هذان حلالان » بن نقول « هذان حل » ، ونقول :  
« هؤلاء حل » وإن شئت غافرا قوله تعالى .

﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَاصْنَعُوهُنَّ أَفَّهٗ أَغْلَمُ

بِمُؤْمِنِينَ مِّنْ عَيْتُسُوهُنَّ مَثُورَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَأَهُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ

وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ﴿١٣٢﴾

( من الآية ١٣١ سورة المنحة )

« لا هن » هذه لجماعة النساء ، والحل مفرد ، وعندنا يقول الحق سبحانه . « كل  
الطعام كان حلالا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه » فهذا يعنى أنه قد حرم  
بعضا من الطعام على نفسه فهو حرام في أن يأخذ أو يترك ، أو أنه قد حرمه على نفسه  
فوافق الله ، لأن الخافر حين ينتر شيئا لم يفرصه الله عليه فهو قد ألزم نفسه بالنتر  
أمام الله .

إن الزمن الذي حرم فيه إسرائيل على نفسه بعضا من الأطعمة هو « من قبل أن  
تنزل التوراة » أى أن هذا التحريم لم يحرمه الله ، ويأتى الأمر لرسوله  
الكريم أن يحاسب بني إسرائيل : « قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين » إنه  
قد كشف سترهم ، وعلموا أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أن البص الذي

يؤيد صدقه موحود في التوراة ، ولهذا لم يأت اليهود بالتوراة ، وذلك لعلمهم أن فيها نصا صريحا يصدق ما جاء به رسول الله ، ولا يحتمل اللجاجة ، أو المجادلة ، وما داموا لم يحصروا التوراة فهذا يعنى أنهم غير صادقين . ويقول الحق .

﴿ فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ١٤

إن في هذا القول التحذير الواضح ألا يخلق أحد على الله شيئا لم ينزل به رسول أو كتاب فمن يفتري الكذب على الله لا يظلم إلا نفسه . ويقول الحق بعد ذلك

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ١٥

يا امر الحق ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول : « قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا » .

ويعرف أن ملة إبراهيم هي التي صفت كل المؤمنين بالله المسلمين ، والدعوة إلى الإيمان بملة إبراهيم هي لإيضاح أن جوهر الإيمان لا يحتمل الخلاف ، فركب الإيمان والرسول والأنبياء هو ركب واحد ، وكلمة « اتبعوا » تعنى أن هناك مقدما كما أن هناك تابعا . ود الملة ، تشمل المعتقدات والتشريعات العامة ، كما أن الشريعة تشمل الأحكام ، والدين يكون لبيان العقائد .

وقد عرفنا من قبل أن كلمة « حنيفا » تعنى الذى يسير على حط مستقيم ، وشيع  
مهجا قويم ومستويا ، ونحن نسمى ملت « الحنيفية السمحاء » ومع ذلك فالحنف هو  
ميل فى الساقين ، اليمين مقوسة إلى اليمين ، واليسار مقوسة إلى اليسار ، فكيف إذن  
يقول عن الدين الحق اهادى لنهج الله وشريعته إنه حيف ؟

نقد قلنا . إن السماء لا تتدخل بإرسال الرسل إلا حين يعم الفساد ، ومادام  
الفساد قد عم فإن الذى يميل منحرفا عن المساد هو الذى اهتدى إلى الصراط  
المستقيم ، فالحنيف معناه مائل عن الفساد ، فالمائل عن المورح معتدل ، « قل صدق  
الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » .

« صدق الله » نعم ؛ لأن الصدق هو أن يطلق القول ما وقع فعلا ، وحين يتكلم  
الحق وهو العليم أولا فيما السى يحدث ؟ لابد أن يوافق الواقع ما يقوله سبحانه ونملى  
فليس من المعقول أن يتكلم الله كلاما باقى على لسان رسول ، أو على لسان أتباع  
الرسول ، وبعد ذلك يأن واقع الحياة فيقتض قول الحق ويحالفه ، إن الحق العليم  
أولا ينزل من الكلام ما هو فى صالح الدعوة إلى منهجه

إذن حين يطلق الله قضية من قضايا الإيمان فإنه - سبحانه - عليم أولا أنها سوف  
تحدث على وفق ما قال ، وإن كان الظرف الذى قيلت فيه لا يشجع على  
استيعاب وفهمها . إن المؤمنين كانوا فى أول الأمر مضطهدين ، ومرهقين وإن لم يكن  
لواحد منهم عشيرة تحميه فإنه يهاجر عن البلاد ، وإن لم يستطع الهجرة فإنه يعذب  
ويضطهد . فى هذه الفترة الشديدة القاسية وفى قمة اضطهاد المؤمنين ينزل القول  
الحق :

﴿ سَبِّحْهُمُ أَجْمَعٌ وَيُؤْتُونَ الدَّرَجَ ١٥ ﴾

سورة القمر

وعندما يسمع سيدنا عمر عليه رضوان الله هذا القول يتساءل : أى جمع هذا ؟  
إن الواقع لا يساعد على فهمهم جاءت بدر ، وهرم المؤمنون أجمع وولوا لدبر ،  
وهذا دليل على أن الله قد أطلق قضية وضمن أنها ستحدث كما قال وكما أخبر ، وهذا  
مطلق الصدق . إن الإنسان يمكنه أن يستبعد الصدق لو أن الذى قال غير الذى

خلق ، لكن الذي قال ذلك هو الذي خلق ويخلق ويعلم ، فمن أين يأتي التناقض ؟  
وهذا معنى القول الكريم :

﴿ اَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَحِّدُوْا بِهِ اَخْتَلَفَ كَثِيْرٌ ۝١٦٢٤﴾

( سورة الباء )

إنه قول حق جاء من عند العليم أزلا ، ومن العجيب أن أهل الكتاب من يهود  
ونصارى يتمسحون في سيدنا إبراهيم ، فقال بعضهم : إن إبراهيم عليه السلام كان  
يهوديا ، وبعضهم قال : إن إبراهيم كان نصرانيا . وكان يجب أن يفهموا أن اليهودية  
والنصرانية إنما جاءتا من بعد إبراهيم ، فكيف يكون يهوديا أو نصرانيا وهذه لمثل قد  
جاءت من بعده ؟ لذلك جاء القرآن الكريم قائلا :

﴿ يَتَّخِذُ الْكِتَابُ الرَّحْمٰنُونَ مِنْ اِبْرٰهِيْمَ وَمَا اتَّوَلٰى التَّوْرَةُ وَالْاِنْجِيْلُ اِلَّا مِنْ سُلٰلَةٍ ۝١٦٢٥﴾  
﴿ اَفَلَا تَعْقِلُوْنَ ۝١٦٢٦﴾

( سورة آل عمران )

وقد أوضح الحق بعد ذلك دين إبراهيم عليه السلام :

﴿ مَا كَانَ اِبْرٰهِيْمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ ۝١٦٢٧﴾

( سورة آل عمران )

فكيف يمكن أن يختلفوا عن إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا ؟ إنه كلام لا يصدر  
إلا عن قلة فطنة وغفلة بالغة . وعندما يقول الحق عن إبراهيم : « وما كان من  
المشركين » فهل أهل الكتاب مشركون ؟ نعم ؛ لأنهم حين يؤمنون بالسوة لغيره ،  
ويؤمنون بالسوة لغيره فهذا إشرارك بالله ، وأيضا كان العرب عبدة الأصنام  
يقولون : إنهم على ملة إبراهيم ، لأن شعائر الحج جاء بها إبراهيم عليه السلام ،  
ولهذا يتره الحق سبحانه سيدنا إبراهيم عن ذلك ، ويقول : « قل صدق الله فاتبعوا  
ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين » وذلك يدل على أن ملة إبراهيم وما جاء به

موافق لملة محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وإحائه لدعوة إبراهيم عليه السلام . ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا  
وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١٦)

لقد عرفنا من قبل كيف كان تداعى المعاني سببا في إرواء الحق لكل ملكات الإنسانية . وقبل هذه الآية التي نتحدث عن بناء البيت الحرام بكة المكرمة كان هناك حديث عن سيدنا إبراهيم عليه السلام حين قال الحق .

﴿ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا حَبِيبًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (١٥)

(سورة آل عمران)

وإبراهيم عليه السلام هو أول الأنبياء صلة بالبيت الحرام ، وكان دفع قواعد البيت الحرام على يده بعد أن طمر وسر بالطوفان في عهد نوح عليه السلام ، فحين يأتي الكلام في رسالة سيدنا إبراهيم عليه السلام فلا بد أن تأتي أكرر حادثة في تاريخ سيدنا إبراهيم ، وهي حادثة بناء البيت الحرام ، كما أن الحق سبحانه حينها تكلم عن الحاجة بين المسلمين وعلى رأسهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي يده القرآن ، وبين أهل الكتاب وفي أيديهم التوراة المحرفة والإنجيل المحرف أراد سبحانه أن يردنا إلى شيء واحد هو ملة إبراهيم الذي سبانا مسلمين . ومعنى ذلك أن الله يريد منا أن نسيطر قيم السب على حركة أهل الأرض ؛ لأن حركة أهل الأرض إن اتبعت الأهواء تصادمت الحركات ، ومادامت الحركات قد تصادمت فإن ما يتبعها هو ضياع مجهود الحركة الإنسانية ، ويصير هذا المجهود ميلا .

ولكن الإنسان الذي يحمل لقيم التي تتركز عقيدة في قلبه - بعد أن يبحثها بفكره - هذا الإنسان له قالب تتخذ به تشريعات الله ، ولولا وجود القالب هذا لما استطاع

الإنسان أن يطبق تشريعات الله ، ولما استطاع أن يؤدي هذه التشريعات ، ولما استطاع أن يطيع الله بجوارحه ، فالإنسان بغير قالب لا يستطيع أن يؤدي الحركة المطلوبة .

إذن فلا بد للقالب الإنساني - البدن - في التشريع من عملية أخرى وهي أن ينصب القالب ويكون له عمل حين يتوجه إلى بيت واحد لله ، وبذلك يصبح للقالب نصيب في العبادة أيضا .

ولهذا كان لابد أن يوجد للقالب - أيضا - مَنَجَّةٌ وهذا المنجَّة يحكم القالب نفسه ، فكان المؤمن المسلم محكوما قلبا وقالباً ، فحين يأتي للصلاة لتكون في حصة الله تتحرى أن يكون قابض متجها إلى المكان الذي أمرنا الله أن نتوجه إليه ، فإذا ؟

لأن الحق سبحانه وتعالى ساعة يعطى رحمته وبركته وتنزله وشرفاته يريد أن يكون الجسم في وضع مؤهل لاستقبال هذه التجليات ، ولذلك كان لابد أن يكون لله بيت يتجه إليه الجميع حتى يعطى للتدين وحدة ، فكما أعطى الحق لموكب الرسائل وحدة ، فإنه يعطى أيضا وحدة في القالب الإنساني والمنجَّة ، وكل مكان يعبد الله فيه بالنسبة للإسلام يُعتبر مسجدا ، وقد أمر الله الأمر على أمة سيدنا محمد ، فقال - صلى الله عليه وسلم - : « جعلت في الأرض مسجداً وظهورا »<sup>(١)</sup>

وكان لقاء الله وعبادته في لديانات السابقة يقتضي مكانا محمدا ، ولكن قد وسع رحمته على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

إن تراب الأرض طهور ، إنه عندما نفتقد الماء الطهور فإن التراب الذي قد يلبس للوهلة الطحينة أنه سبب في عدم النظافة قد جعله الله لنا طهورا

إن للإنسان يمكنه أن يتنعم ويتطهر بالتراب ، وكان الله قد أراد أن يكون لقاء كل فرد من أمة محمد به ميسرا تيسيرا كبيرا . وكل مكان نعبد فيه الله ويسجد فيه المسلم لله يصير مسجدا

(١) هذا جزء من حديث شريف أخرجه الإمام البخاري في صحيحه ، والإمام مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه ، والإمام أحمد في مسنده وغيرهم من أصحاب السنن .



لكن هناك فرق بين أى مكان يعبد الله فيه والمسجد ، فحين يرى العامل يعبد الله في المصنع والتلميذ يعبد الله في المعصل ، والفلاح يعبد الله ويؤدى المروض في الحقل ، ويمكن للسائر في الشارع أن يؤدى صلاته في أى مكان ، ون يزاول عمله بعد ذلك ، ولكن حين يحير الإنسان مكانا ليكون بيتا لله ، فمحظور أن يزاول فيه نشاطا آخر من نشاطات الحياة ، إنه مكان محيز .

إن العبادة كلها مقبولة ، ولكن هناك فرق بين مكان تعمل فيه ومكان تخصصه ليصير مسجدا . فالمسجد هو مكان لا يزاول فيه إلا لقاء الله ، ولذلك أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يستغنى هذا الخير في أى أمر يتعلق بدينانا ، وقد أوضح لنا - صلى الله عليه وسلم - أن الذى يعقد صفقة في لمسجد لن يبارك الله فيها ، والذى يشتد فيه شيئا ضالا له لن يجده . لقد دعا الرسول ألا يرد الله عليه صلاته

إن أمور الدين يكفيها أن تأخذ من الإنسان كل يوم ثلاثا وعشرين ساعة ، فليخصص الإنسان المؤمن ساعة لله وحده ، وليخلع كل أغراض الحياة الدنيا كما يخلع الحال على باب المسجد . فليس من حسن الأدب والديانة أن يشغل الإنسان بأى شيء غير لقاء الله في الرقة المخصص لبقاء الله ، ولئى المكان المخصص لهذا اللقاء .

فساعة تدخل المسجد يبقى أن تمنع نفسك من أن يتكلم معك أحد في مصون الكلام ولغوه ، وأن تنوى الاعتكاف لتستفيد من وجودك في المسجد . وساعة أن تخصص حورا ما ليكون مسجد ، فكيف يكون الاتجاه داخل المسجد ؟ أيترك الأمر لكل واحد أن يختار له متجها ؟

لا ، إن المؤمن ملتزم بالاتجاه إلى مكان واحد ، هذا المكان الواحد هو بيت الله باختيار الله يبيها المساجد الأخرى هي بيوت الله يختار خلق الله ، هيوت الله باختيار خلق الله متجهها جميعا هو بيت الله الحرام .

وحين تنظر هذه النظرة مستجد العالم متواجها ، لأن كل عابد سيكون اتجاهاه إلى بيت الله مع بقية العابدين لله ، فيصف المؤمنون كلهم حول بيت الله ، ويتواجهون ، إن وجوهنا كلها تقابل بعضها بعضا ، ولكن ما ضرورة الاتجاه للكعبة ؟ والحق سبحانه يقول :

﴿ وَفِي الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ سُبْحًا يَوْمَ تَوَفَّاكُمْ وَجْهَ اللَّهِ إِلَهُ اللَّهِ وَرِيسُ عَالَمٍ ﴾

(سورة التين)

فلو ، إن هذه الآية تؤيد ما نقوله ، فإمام الله المشرق والمغرب ، وهذا هو المعنى العام ، فالناس أول ما عرفوا الكون تعرفوا عن المشرق والمغرب ثم لشمال والجنوب أيضا ، وبعد أن توصل العلم إلى تحديد الجهات العرقية بسبب الجهات الأصلية الأربع المعروفة عرفوا « الشمال الشرقي » ، « الشمال الغربي » ، « الجنوب الشرقي » ، « الجنوب الغربي » ، إذن فكل الاتجاهات لله ، والاتجاه للكعبة يحقق هذا القول الكريم .

وعندما يتجه إنسان إلى الكعبة فقد يكون الشرق خلفه ، ويكون المغرب أمامه ، ويتجه إليها إنسان آخر إلى الكعبة ، فيقابل وجهه مع وجه المتجه للكعبة ، وثالث يتجه إلى الكعبة ، فيكون في زاوية أخرى بقطر إليها ، وهكذا يلتف البشر من الشرق والغرب والشمال والجنوب وكل الجهات العرقية حول الكعبة .

إذن فلنؤمن الحق « والله المشرق والمغرب » أي جميع الخلق متجه إلى الكعبة ، وبذلك لا تكون هناك جهة أولى بالله من جهة أخرى . ولأن لا أريد أن أدخل في متاعمة أن الكعبة مركز الأرض وأن الأرض خلقت منها ، لأن الشيء إذا كان مركزا لأي نقطة فيه تكون مركزا للجميع ، بذلك فلتترك مثل هذا الكلام ، لكن ألا يكفي أن يرجعها أن الله قد اختارها ؟ إن ذلك يكفي وزيادة ، وبذلك ينتهي الأمر ، إنها كذلك ؛ لأنها بيت الله باختيار الله ، وهذا يكفي

لقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأشياء التي تقف فيها المقول وليست من صلب العقائد أو الدين لا يصح أن تكون محل خلاف أو جدل . يقول سيدنا علي كرم الله وجهه عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : سأله رجل ، « أدلك أول بيت الله ؟ » فوضح رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبله بيوتا ، ولكن هو أول بيت أصبح للناس وهذا ليصلح أن الله قد جعل الكعبة هي أول بيت له يتعد فيه جنس البشر ، وذلك لقول الله تعالى : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين » ، ولكن إذا كانت هناك أحسن سابقة على الجنس البشري فمن المؤكد أنه كانت هناك بيوت لا يعرفها .

وما آدم في مطن العقل واحد ولكن عند الناس أرواح

ولذلك فوجود البيت الحرام كبيت الله لا يصطدم مع منطق الناس الذين لا يملكون إلا الثقافة الدينية الضحلة ، فساعة أن يسمع الواحد منهم ، أن هناك اكتشافا لحفريات من كذا مليون سنة فهو يتساءل قائلا : كيف وأدم لم يهر عليه ملايين السنين ؟ لنترض أن هناك خمسة أجيال لإبراهيم عليه السلام وثلاثة أجيال لنوح عليه السلام ، وأحد عشر جيلا لإبراهيم عليه السلام وثلاثين جيلا لمحمد عليه الصلاة والسلام ، وهكذا يكون الوجود البشري محددا بألاف السنوات لا ملايين

هذا الإنسان يقول : وهل قال لك أحد : إن آدم أول من قَمر الأرض ؟ إن الدين لم يقل ذلك ، لكن الدين قال : إن آدم هو أول هذا الجنس البشري ، ولكنه ليس أول من سكن الأرض ، لذلك لم يقتل العلماء . إن عمر هذه الأرض ملايين السنين ولنسمع جميعا قول الحق تبارك وتعالى :

﴿لَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئِسَ بِذَهَبِكُمْ وَبِأَن يَخْلُقَ حديد﴾ (١٥)

(سورة إبراهيم)

إذن فلا مجال لهذا البحث ، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام : « لا ، بل قبله بيوت » .

والحق سبحانه وتعالى يقول ما يوضح أن الجنس قد سكنوا الأرض قبلنا :

﴿وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّجُومِ﴾ (١٧)

(سورة الحجر)

ألم يقل الحق سبحانه إن الإنسان خليفة ، وردت عليه الملائكة :

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ

فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْسُ نَسِيعُ جَمَدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

تَعْلَمُونَ (٢٠)

(سورة البقرة)

إن الدين قالوا ذلك ليسوا من الشر ، إذن فكلام الله يؤكد أن الكعبة هي أول بيت وُضِع للناس ، أي لنجس البشري ، ولذلك فلا داعي أن نتكلم في الأشياء التي يقف فيها العقل حتى لا ندخل في متاهة . ولو كان الله قد أراد أن يعلمنا أن الكعبة هي أول بيت في الأرض لعل لنا : « إنه أول بيت وُضِع في الأرض » ، ولم يكن قد حدد الجنس الذي وُضِع البيت من أجله ، لكن الحق سبحانه قال : « إن أول بيت وُضِع للناس لندى نكه مباركا » ، ولذلك بين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن قبله بيوتا ، ولكنه أول بيت وُضِع للناس . إنه جواب يتسع لكن ما يأتي به العلم

وحين ننظر إلى القول الحق : « إن أول بيت وُضِع للناس للذي ببكة مباركا » مامعنى « أول » ؟ إنه الابتداء ، وهل كل ابتداء له انتهاء ؟ لا ، إن هناك أسورا لها أول ، وليس لها آخر ، ومثال ذلك العدد واحد ، وما بعد ليس له آخر ، فأحر ما بعد العدد واحد هو ما يمكن الإنسان أن يحسبه حجرا في تشظيرات التشظيوية ، ولكن ما بعد التشظيويون هناك أعداد أخرى ، وكان الإنسان قدما يقف عند الألف ، ثم يقول من المليون « ألف ألف » ، وكذلك الجنة لها أول وليس لها آخر .

إذن فأول بيت وُضِع الله للناس هو الكعبة . وعندما نرى كلمة « وُضِع » بعدها معللا ، ويري أنه قد وُضِع للناس . وما دام هذا البيت قد وُضِع للناس لذلك فمن القلزم حين نأخذ كلمة « ناس » أن يكون هناك « بيت » و « آدم » من الناس ، ووالد كل الناس ، وكان له بيت وُضِع له . ونحن نعلم أن البيت قد تم بناؤه قبل آدم فلما يقول : نعم ، لأن آدم من الناس ، والله يقول : « إن أول بيت وُضِع للناس » فهذا يحرم آدم من أن يكون له بيت عند الله ؟ إذن فليت موحود من قبل آدم وبعض الناس نظر أن إبراهيم عليه السلام هو الذي بنى البيت ، ولأصحاب هذا الطعن نقول : لنفهم القرآن معا ، إن مثل هذا القول يناقض القرآن ، لأن القرآن قد قال : « إن أول بيت وُضِع للناس » وذلك إيضاح أن إبراهيم كان من قبله أناس سامعون له ، فكيف لا يكون لناس من قبل إبراهيم بيت ؟ ولا يكون للناس من بعد إبراهيم بيت ؟

إن الذين كانوا يعيشون قبل محمد إبراهيم عليه السلام لهم الحقوق نفسها عند الله انتهى وضعها الله لمن بعد إبراهيم ، فلابد أن الله قد جعل بيتا لهم ، والناس القرآن

وإن أول بيت وضع للناس هو مؤكّد ذلك ، وما دام قد جاء الفعل تَبَيَّنًا للمفعول فواضعه غير الناس ، فـ ( وَضَعَ ) هو فعل مبني على ما لم يسم فاعله ، فمن الذي وضعه ؟ هل هم الملائكة ؟

قد يصح ذلك وهو أن يكون الملائكة قد تلقوا الأمر من الله بمزاولة هذا البناء ، ولكن الحق يقول عن هذا البيت إنه : « هدى للعالمين » وهذا يعني أن البيت هدى للملائكة ، لأنهم عالم بهذا يعني أن البيت قد وضعه الله من قبل ذلك ، إن أحد لا يقدر أن يحسن الكون على قدر العقل البشري ، إن على العقل البشري أن يكون في ركاب الكون ، وإياك أن تجعل الكون في ركاب عقلك . أما مسألة أن إبراهيم قد بنى الكعبة أولاً فهذا حتم فهم للنص القرآني القائل

﴿ وَإِذْ بَرَّحَ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَاسْمِعِيلُ رَبِّمَا تَقَبَّلَ مِنْكَ أَنْتَ السَّعِيدُ

الْقَلِيمُ ﴿٢٠٧﴾﴾

(سورة البقرة)

فما هو الرفع ؟ إنه إيجاد البعد الثالث وهو الارتفاع ، فالطول والعرض موجودان إذن فهذا دليل على وجود البيت قبل أن يقيم إبراهيم عليه السلام ارتفاع البيت وهكذا نستج أن الذي كان مطموسا هو القاعدة والارتفاع ، مع وجود الطول والعرض النديين يحددان المكان ، أما البناء فهو الذي يحدد « المكين » وعندما انهم البيت الحرام كان الناس يتجهون إلى المكان نفسه ونحن عندما نصلي في الدور الثالث في الحرم ، فإننا نتجه إلى الهواء الموجود من فوق الكعبة ، ولو جهرنا بمقائمتنا الأرض بالف متر ، وأردنا أن نصل فإننا سنتجه إلى حذر الكعبة ، وهكذا نعرف أن جو الكعبة كعبة

إذن فعلم إبراهيم عليه السلام كان في إيجاد المكين لا المكان ، ولنفراً بالفهم الإيماني ما حدث لإبراهيم عليه السلام . لقد أخذ إبراهيم هاجر وإبنا إسمائيل ، وخرج بهما ليضعهما في هذا المكان « وهاجر » تعرف أن مكونات الحياة هي المياه والهواء ولقوت ، وهذا المكان لا توجد به حتى المياه ، لذلك قال هاجر صائلة إبراهيم عليه السلام : كيف تركنا هنا ؟ هل أنزلنا هنا برأيك أم بتوجيه من الله ؟

نقال له إبراهيم عليه السلام : إنه توجيه من الله ، لذلك قالت : ولقد اطمأنت ، والله لا يضيع أبداً . لم تقلق هاجر لأن إبراهيم اتجه إلى ما أمره الله ، وهذا هو الإيمان في قمته ، ولو لم يكن الإيمان على هذه الدرجة الرفيعة فأى قلب لأم تترك أب العفل يذهب بعيداً عنها وتعيش مع ابنتها في هذا المكان الذي لا يوجد به طعام أو ماء ، فهي لا تؤمن بإبراهيم ، ولكنها تؤمن برب إبراهيم وعندما تقرأ القرآن الكريم تجد القول الحق على لسان إبراهيم :

﴿ رَبِّ إِنِّي نَسِيتُ مِنَ ذُرِّيَّتِي إِبرَاهِيمَ غَيْرَ ذِي رَرْجٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَهْلَهُ عُمَّةً مِنَّا نَكُوتُ إِلَيْهِمْ وَآرُقُفُهُمْ مِنَّا أَشْعَرُ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

(سورة إبراهيم)

هكذا نعرف أنه ساعه إسكان إبراهيم لذريته كان هناك بيت وأن هذا البيت محرم ، وعندما نقرأ عن رفع البيت الحرام نجد أن إبراهيم عليه السلام لم يرفع قواعد البيت بمفرده بل شاركه ابنه إسماعيل عليه السلام ،

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ ﴾

(سورة البقرة)

هكذا نعلم أن إسماعيل عليه السلام كان قد نضج بصورة تسمح له أن يساعد والده خليل الرحمن في إقامة قواعد البيت الحرام ، وهذا يدلنا على أن إسماعيل نشأ طعلا في هذا المكان عندما أسكنه والده إبراهيم عند البيت المحرم ، هكذا نتيقن أن البيت المحرم كان موجودا من قبل إبراهيم عليه السلام ، وعندما طبق النظر في معنى كلمة « بكّة » التي وردت في هذا القول الكريم : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة » ، فإننا نعرف أن هناك اسما لمكان البيت الحرام هو « بكّة » وهناك اسم آخر هو مكة ، وبعض العلماء يقول : إن « الميم » و« الباء » يتعاونان ، ونلاحظ ذلك

في الإنسان « الأحنف » أو المصاب بزكام ، إنه ينطق « الميم » كالباء « واهيم » وه الباء « حرفان قريبان في النطق ، والألفاظ منهما تأتي قريبة المعنى من بعضها .

ولنظر إلى اشتقاق « مكة » واشتقاق « بكة » . إننا نقرا « بك المكان » أي اردحم المكان ، وهكذا معروف من قوله الحق : « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا » أي أنه مكان الازدحام الذي يأتي إليه كل الناس وكل الطوود لترور بيت الله الحرام ، ولا أدل على ازدحام البيت الحرام من أن الرجال والنساء ينتلط بهمصهم ببعض ، والإنسان يطوف بالبيت الحرام ، ولا يدري أنه يسير وقد يلحس امرأة أثناء الطواف

وه « بكة » هي المكان الذي فيه الطواف والكعبة ، أي هي اسم مكان البيت الحرام ، وه « مكة » اسم البلد كلها الذي يوجد به البيت الحرام وه « مكة » مأخوذة من ماذا ؟ إن « مكة » مأخوذة من « مك الفصيل الضرع » أو « امتك الفصيل الضرع » ، أي امتص كل ما فيه من لبن ، والفصيل كما نعرف هو صغير الإبل أو صغير البقر . وما دام الفصيل قد امتص كل ما في الضرع من لبن بمعنى هذا أنه جائع ، ومكة كما نعرف ليس فيها مياه ، والناس يجهدون في أن تمتص المياه الفيلة عندما تجدها في مكة .

وفي كلمة « مباركا » نجد أنها مأخوذة من « الباء والراء والكاف » والمادة كلها تدور حول شيء اسمه الثبات ، فهل هو الثبات الجاهل ، أم الثبت المعطى الباسم الذي مهما أخذت منه فإنه ينمو أيضا ؟ إننا في حياتنا اليومية نقول : « إن هذا المال فيه بركة . مهما صرفت منه فإنه لا ينقص » ، أي أنه ثابت لا يصح ، ويعطى ولا يتفقد . وكلمة « بركة » في حياتنا تعني أنها تجمع الماء تأخذ منها مهما تأخذ يأتي إليها ماء آخر .

وكلمة « تبارك الله » تعني « ست الحق » ولم يرل ألا ولا يزال هو واحداً أحداً ، إنه الثبوت المطلق . وهكذا نجد أن الثبات يأتي في معنى البيت الحرام إن البيت الحرام ملوك أبدا « كيف » ؟ أكدت تصاعف فيه الحسنة ؟ وهل هناك بركة أحسن من هذه ؟ وهل هناك بركة أفضل من أنه بيت للحي إلى ثروات كل شيء ولا تنقطع ؟ فقديما كان الذهاب إلى البيت الحرام يأخذ معه حتى الكفر ، ويأخذ الإبرة والخيط ، والملح ، والآن فإن انزائر لبيت الله الحرام يذهب ليأتي بكهاليات

الحياة من هناك . ويقول سبحانه عن هذا البيت الحرام المبارك : إنه « هدى للعالمين » . ما هو الهدى ؟ قلنا : إن الهدى هو الدلالة الموصلة للعاية ، ومن يزور البيت الحرام يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، فهل اهتدى للحجة أم لا ؟ إنه رف بزيارة البيت الحرام الطريق إلى الجنة . وحيثا ننظر إلى هذه المسألة نجد أن احق سبحانه وتعالى عندما تكلم عن ابيت لم يتكلم إلا عن آية واحدة فيه هي مقام ابراهيم مع أن فيه آيات كثيرة

قال الحق :

﴿ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ ٩٧

إننا نجد أن صيغة الجمع موجودة في قوله الحق : « فيه آيات » و « بينات » وهي وصف الجمع وبعد ذلك قال الحق : « مقام إبراهيم » إنه سبحانه لم يذكر إلا مقام إبراهيم بعد الآيات ، والمقام آية واحدة ، وهذا يدل على أن مقام إبراهيم فيه الآيات ابيات ، ونحن نقرا « مقام إبراهيم » بفتح الميم الأول في كلمة « مقام » ولا ننطقه « مقام » بصم الميم الأولى لأن المقام بضم الميم تعني مكان إقامة إبراهيم أما مقام بفتح الميم فمكان اقبام ، لماذا كان قدام إبراهيم عليه السلام ؟

لقد كان إبراهيم يقوم ليرفع قواعد البيت الحرام ، وكان إبراهيم يقوم على « حجر » وعندما ننظر إلى مقام إبراهيم فإنك تجد فيه كل الآيات البيئات ، لأن الله طلب من إبراهيم عليه السلام أن يرفع قواعد البيت ، وكان يكفيه حين يرفع قواعد البيت أن يعطيه الارتفاع الذي يؤدبه طول يديه ، ولذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد أدى مطلوب الله - كما قلنا من قبل - لكن إبراهيم عليه السلام تعود مع



الله أن يؤدي كل تكليفات الله بعشق وحب وإكمال وإتمام ، فقال إبراهيم في نفسه : « ولماذا لا أرفع ابني أكثر مما تطول بداي ؟ » ولم تكن هناك في ذلك الزمان القديم فكرة « السقالات » ، ولم يكن مع إبراهيم عليه السلام إلا ابنه إسماعيل وأحضر إبراهيم عليه السلام حجرا ، ووقف عليه ، ليرفع القواعد قدر الحجر

إذن فإبراهيم خليل الرحمن أراد أن يتعد أمر الله بالرفع للقواعد لا بقدر الاستطاعة البدنية فقط ، ولكن بقدر الاحتيال على أن يرفع القواعد فوق ما يطلبه الله ، وهذا معنى قول الله عن إبراهيم عليه السلام :

﴿ وَإِذْ أَتَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَتٍ مُّبِينَةٍ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

أي أنه أدى مطلوب الله أداء كاملا ، ولا أدل على هذا الأداء الكامل من أنه أتى بحجر ليقف عليه ليريد من ارتفاع البيت قدر هذا الحجر . ونعرب أن الذي ساعده وشاركه في رفع القواعد هو ابنه إسماعيل . ومن أكرمه الله برؤية مقام إبراهيم يجد أن الحجر يسع وقوف إسماعيل واحد ، وهكذا نفهم أن إسماعيل كان يساعد ويتأوب والده الأحجار ، أما مكان الأقدام الموجودة في هذا الحجر ، فهذا يعني أن إبراهيم عندما كان يقف ويحمل حجرا من المفروض أن يحمله اثنان فإن هذا يتطلب ثبات القدمين في مكان آمن حتى لا يقع .

مهل ، ترى أن الله سبحانه وتعالى جعل قدرته ساعة رأى إبراهيم يحتال هذه الحيلة قال لخلقه سأضعك مؤية ذلك وجعل الحق القدمين تعوصلا في الحجر غوصا يسدما حتى لا تقعا والذي لا يتسع ذهنه إلى أن الله الآن لإبراهيم الحجر ، يقول له . يا إبراهيم قد احتال ، وخاف أن تزل قدمه ، فتنحت مكانا في الحجر على قدر قدمه حتى تثبت قدمه حين يحمل ويرفع الحجر ، وهذه آيات بينات . فخذ ما ينسج ذهنك وفهمك له ، إن الله أعان إبراهيم لأنه فكر أن يبني القواعد ويرفعها أكثر مما تطول يداه ، وقد مكّن الله له في ذلك وأعانه عليه ، ونحن نعلم أن الهداية تكون هداية الدلالة وهداية المعونة .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا زَادَهُمْ هُدًى وَكَفَّلَهُمْ قَوْلَهُمْ ﴾ (١٧)

(سورة محمد)

فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ، والآيات هي الأمور العجيبة ، وعندما تراها عليك لا تستطيع أن تذكرها ودخول البيت يعني الأمن للإنسان الذي يدخله ، ونحن نعلم أن البيت قد تم بناؤه في هذا المكان وهذا المكان مجتمع فيه القائل ، وبين بعض هذه المآثر ثمرات ودعاء وحروب ، لذلك بين الله الوصف الذي يفضله تحفن الدعاء ، ومن دخله كان آمناً ، لماذا ؟ لأنه بيت الرب ولا يصح أن يدخل واحد بيت الرب ويتعبد حتى ولو كان قد أحرم جرماً يوجب الله عليه الحد فيه ، ولذلك قال سيدنا عمر رضي الله عنه : لو ظهرت فيه بقاتل الخطأ لم أتعرض له

ولكن يُضَيِّقُ الخناق على المجرم حتى يخرج وهذا الأمن محمد بأي أمر اقترفه في دنياه ، أما من دخله كان آمناً يوم القيامة فاحكم فيه شيء آخر ، إنها درجة عالية من فضل الله ، والآيات البينات الواضحة في البيت الحرام يراها من رآه البيت الحرام ، ولحقق الله أمل كل رغب في زيارة البيت الحرام ، وأن يكرر الزيارة لمن ذهب وأراد أن يعود للزيارة مرة أخرى ، صلاة تدخل البيت الحرام فاستهنا تتجه إلى مكان في البيت والمقابل لك في الكرة الأرضية يتجه إلى المكان المقابل ، بل أن تصير الاتجاهات مشتملة على الكعبة كلها . ونحن عندما نكون في الكعبة فإننا نوجه وجوهنا إلى المي لآسأراها ، ونحن نوجه الوجوه إلى المي المقطوع بأنه بها ، والحطيم ، وهو القوس المي حول حجر إسماعيل ، هو من الكعبة أيضاً ، ولكن البعثة نصرت ، فجعله ليحدد مكان الكعبة ، فظل هكذا ، إذ عاب الإنسان من الكعبة ونحو إليها فإنه يكفي أن يتجه إلى جهتها

ولذلك بعد الصفوف في الصلاة حول الكعبة تتحد شكل الدائرة ، لأن الدين يصلون في داخل الحرم يشاهدونها ، أما الذين يصلون خارجها فيكنى أن يتجهوا إلى جهتها ولوطال الصف إلى ألف متر ، لذلك فالصف للمصلين خارج الحرم يكون معتدلاً ، أما في داخل الحرم فالصفوف تأخذ شكل الدائرة لأن أقصى بعد في الكعبة هو اثنا عشر متراً وربع المتر فبعد من الآيات العجيبة أنك إذا ما نظرت إلى الحجر لأبيد تمجد الناس تنهالت على تفصيله ، والحجر يمثل أقل أجسام الكون ، ونعلم

جميعا أن الإنسان مستحلف كسيد في الكون ، ومن بعد الحيوان أقل منه في العكر  
ومسحور ، ومن بعد الحيوان يكون جسس لنبات ، ومن بعد ذلك يأتي جسس الجهاد  
ومنه الحجر .

إننا نرى هذا الإنسان السيد في لكون لا يقبل الله منه السك الفبول الثام الحسن  
إلا إذا قبل الحجر ، أو حياه ، وهكذا يقبل الحق أعلى الأحاسيس إلى أدمائها ، والنس  
تردحم حول الحجر ، ومن لم يقبل الحجر بحس أنه افتقد شيئا كثيرا ، وهكذا ترى  
استطرافا وسلوكا من الخلق إلى باب الله ، فالإنسان للتكبر الذي يتوهم أنه سيد على  
غيره ، يأتي إليه أمر في السك بتغيير الحجر أو تحيته بالسلام ، وهذا الإنسان برغم أن الحق  
- سبحانه - يقبل منه أن يحس الحجر الأسود بالسلام ولم يفرص عليه أن يقبله ولكنه مع ذلك  
يحاول أن يقبل الحجر ، وهو أحد الأجاس ، لأن الله قد عطمه ، وهذا أول كسر لألف غرور  
الإنسان ، وحق لا يظن ظان أنها حجرية أو وثنية ، يأتي الأمر من الحق برجم حجر آخر .

إذن فالحجرية لا ملحظ لها هنا ، فحين نجد حجرا مقدس ، وحجرا آخر  
يرجم . نجد حجرا يقبله الإنسان ويعطمه وحجرا آخر يؤذيه ويحقره . وذلك يقبل  
عن وضوحنا لإرادة الأمر سبحانه وتعالى فقط ، فعندما يأمرنا بأن نعظم حجرا  
فالؤمن يؤذى حق التعظيم بالسمع والطاعة ، وعندما يأمرنا سبحانه برجم حجر  
آخر ، فالؤمن يرحم هذا الحجر بالسمع والطاعة لله أيضا ، والدأية الحجرية  
لا تدخل لها على الإطلاق . وبعض من أصحاب الظن السوء قالوا إن الإسلام قد  
استبقى بعض الوثنية .

ولمؤلاء نقول : ولماذا تذكرون تعظيم الحجر الأسود ، ولم تذكروا رجم إبليس وهو  
ثلاثة أحجار ؟ لقد عظم المؤمن المؤذى للسك حجر واحد ورحم ثلاثة أحجار ، إن  
المؤمن إنما بطيع أمر الله ، فليست للحجر أي دأية في التسك أو العبادة . لقد رحمتنا  
الحق من حصيص عبادة الأصنام التي هي عين الكفر ، لكنه قال لنا : « قبلوا الحجر  
الأسود » فقد قبلنا الحجر احتراما لأمر الأمر ، وذلك هو منتهى اليقين . لقد نفلنا  
الحق من مساو إلى مساو ، من عبادة الحجر إلى تعظيم ونقديس حجر مثله ، لكن  
الأصنام كانت منتهى الشرك ، ونقبل الحجر الأسود منتهى اليقين . أليست هذه  
أهات بينات ؟

والمزم الذي توجد في حضن الكعبة ، ليست آيات بيوت ؟ إن « هاجر » تترك الكعبة وتروح إلى « الصفا » وتصل إلى « المروة » بعد أن تضع « إسماعيل » بجانب الكعبة ، وتدور بحثا عن المياه . وسعت هاجر سعة أشواط لعلها ترى طيرا أو نجد إنسانا يعرف طريق المياه لأن ابنها يحتاج إلى الشرب ، ولما رأها وجدت على الصفا أو المروة مياها في أول سعيها . كانت تجد تصديقا لقولها لإبراهيم عندما جاء بها للإقامة في هذا المكان « إن الله لا يضيعنا » إنها صحت .

وكان الله يقول له ولكل إنسان . عليك بالسعي ، ولكن لن أعطيك من السعي ، إنما أعطيك الماء من تحت رجل إسماعيل . إذن فصدقت في قولها : لن يضيعنا الله ، لقد جعلها الحق سبحانه تسمى سبعة أشواط ، ولا يمكن لامرأة في مثل عمرها أن تقدر على أكثر من ذلك ، وهذا يعلمنا أن الإنسان عليه أن يياثر الأسباب ، ولكن القلب عليه أن يتعلق بمسبب الأسباب ، وهو الله سبحانه . وفي هذا ما يعدل سلوك الناس جميعا . ساعة يرى الإنسان أن البئر مكان قدم إسماعيل وعلى البعد تكون الصفا والمروة ، وتسمى بينهما ، وبعد ذلك نجد رمرم مكان حربة قدم إسماعيل ، أليس في هذا آيات بيوت مهدى الإنسان أن يياثر الأسباب ويأخذ بها ، ويتعلق القلب بمسبب الأسباب ؟

إن هذا يعطى المؤمن إيمانية التوكل ، وهي تختلف عن الكسل وهى بلادة التوكل ، فإيمانية التوكل هي أن الحوارح تعمل ، والقلوب تتوكل ، أما الكسل عن الأحذ بالأسباب مع الادعاء بالتوكل فهذه بلادة . ومثل هذا الكسل المتوكل عندما يأن الأكل أمامه يأكل بنهم وشهه ، ولو كان صادقا لترك اللقمة تقفز إلى فمه ، ولماذا يعضها إذن ؟ لماذا يختار التوكل والكسل ، وعدم العمل ، ثم يمد يده ليأكل ؟ إن هذه هي « صفات لتوكل » .

إننا نأخذ من سعي « هاجر » ونصبر الماء حربة ، هي الأخذ بأسباب الله ، وبعد ذلك فإننا نجد كل إنسان في البيت الحرام مشغولا بنفسه مع ربه ، ومن فرط انشغاله يكون غافلا عما يكون معه ، ولو كان أحب إنسان له فإنه لا يدرى به . وساعة تدخل وتظهر إلى الكعبة ينفض من عقلك كل فكر في أي شيء من الأشياء ، لا تذكر أولادك أو مالك ، لكنك بعد أن تفرغ من الناسك تعود للتفكير في أولادك وعملك ، وإلا لو ظل حبك وشوقك وتمنيتك ومواجبتك هذه البعثة لصاق المكان

بالناس جميعا . بعد ذلك يقول الحق سبحانه عن البيت الحرام : « ومن دخله كان آمنا » . وهنا يجب أن نفهم أن هناك farkا بين أن يكون « الخير » ماريخا للواقع ، وبين أن يكون « الخير » خيرا تكليفيا فلو كان « ومن دخله كان آمنا » تزييخا للواقع لثم نقض ذلك بأشياء كثيرة . فقد وجد فيه قوم ولم يأمنوا .

ونحن نعرف حادث الاعتداء الأخير الذي حاوله جهيمان منذ سنوات قال الناس : إن جهيمان عندما اعتدى على الناس ، لم يستطع صريح بيت الرحمن أن يكونوا آمين في البيت وتساءل بعضهم ، فكيف قال الحق : « ومن دخله كان آمنا » ؟ بل قال بعض أهل الانحراف : إذن مسألة دخول جهيمان إلى البيت الحرام لم تحمل « ومن دخله كان آمنا » ليست صادقة ! وهؤلاء يقول :

إن هناك farkا بين إخبار الحق بواقع قد حدث ، وبين إخبار بتكليف . إن الإخبار بالواقع كان معناه ألا يدخل أحد البيت الحرام ويبيحه أو يباحه أحد أبدا ، ولكن الإخبار بالتكليف معناه أن يحذر الله يحذر ويقصد به تكليف حلقه به ، والتكليف كما نعرف عرضة لأن يطاع ، وعرضة لأن يعصى ، فإذا قال الله سبحانه : « ومن دخله كان آمنا » فهذا معناه يأمن المؤمنون ، من دخل البيت الحرام فأمنوه . وبضرب المثل - وفيه المثل الأعلى - تقول أنت لولدك يا بني هذا بيت يفتح للضيوف من دخله يكرم . أمذا يدل على إنجاز الإكرام لكل من دخل هذا البيت وحصوله له بالفعل وأن هذا لا يتحلف أبدا أم أنك قلت الخير وتريد لولدك أن يتعهده ؟

إن هذا خبر يحمل أمر لأمك هو ضرورة إكرام من يدخل هذا البيت ، وتلك الوصية عرضة لتطاع وعرضه لأن تخالف ، لذلك فحين نفهم من قول الحق : « ومن دخله كان آمنا » على أساس أنها أمر تكليفى ، عرضة للطاعة ولتعصيان ، ومثال آخر عن ذلك هو قول الله تعالى .

﴿ الْحَبِيبَتُ الْيَتِيمَ وَالْحَبِيبَتُ الْيَتِيمَ وَالْعَلِيَّةُ الْعَلِيَّةُ وَالْعَلِيَّةُ الْعَلِيَّةُ

أُولَئِكَ يُبْرَأُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾

(سورة النور)

بعض الناس يقول . نجد واقع الحياة غير ذلك ، حيث نجد امرأة طيبة تقع في

عصمة رجل غير طيب وتزوجه ونجد رجلا طيبا يقع مع امرأة غير طيبة وتزوجه ، فكيف يقول الله ذلك ؟ ونحن نرد على أصحاب هذا القول : إن الله لم يفل تلك تأريحا للواقع . ولكنه أمر تكليفى . أتى افعلوا ذلك ، وحكمى وتكليفى أن يكون الطيبات للطيبين والطيبون يكومون للطيبات . فإذا امتثل الخلق أمر الحق فعليهم أن يفعلوا ذلك ، وإن لم يمتثل بعض الخلق لأمر الحق فإن الواقع ينهى بحدوث وجود طيبين لغير طيبات أو العكس

إذن نقول الحق : « ومن دخله كان آتيا » هو خبر يراد به أمر تكليفى ، فمن أراد أن يكون صادقا فيما كلفه الله به فليؤمن من دخل البيت الحرام وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَفِيهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ حِجُّ الْأَيْمَنِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾

(من الآية ٩٧ سورة آل عمران)

وحين نسمع « على » ، فافهم أن الفائدة تقع على ما دخلت عليه « اللام » ، والتبعة تقع على ما دخلت عليه « على » . فحين نقول : « لفلان على فلان كذا » فالنفعة بفلان الأول والتبعة على فلان الثانى . وحين يقول الحق سبحانه وتعالى : « والله على الناس حج البيت » فعل هذا بالنسبة هنا تكون لله ، والتبعة هنا تكون على الناس ، لكن لو نظرنا إلى سر العبارة لوجدنا أن الله لا يتنفع بشيء من تكليفه لك ، فالحج لله ، ولكنه يعود إليك ، فما لله عاد إليك ، وما عليك عاد لك .

وكل تكليف عليك فأنه لك ، فإليك أن تفهم من ذلك القول الكريم : « والله على الناس حج البيت » أن اللام الأولى للنسبة ، وإليك أن تفهم أن « على » هى للتبعة ، نعم إن الحج لله ، ولكن الفائدة لا تعود إلا عليك ، وهو تكليف عليك ، وفائدته تعود عليك ، فالحق سبحانه وتعالى منزّه عن أن يُعبد من حكم من أحكامه ، وهو سبحانه حين يرسل حكما تكليفيا فعلى العبد المؤمن أن يعرف أن فائدة الحكم عائنة عليه وعلى حياته ، والله يكون القصد والحج ، لا لشيء سواه .

ولماذا يقول الحق : إن على العبد المؤمن أن يحج البيت الحرام ؟ لأنه الخالق وهو

خبير وعليم بأن التكليف شاق على النفس ، ولكن عن المؤمن المكلف حين يجد تكليفا شاقا عليه أن ينظر إلى الفائدة العائدة من هذا الحكم ، فإن نظر إلى العائدة من الحكم وجد أنها تعود عليه ، ولذلك يسهل على العبد المأمن أمر الطاعة . والذي لا يقبل على الطاعة ويحمل الجراء عليها ويفضل عنه . تكون الطاعة شاقة عليه . والذي يقبل على المعصية ويحمل الجراء عندها تكون المعصية هينة عليه . ولكن الطائع لو استحضر خاية الطاعة لعلم أنها له لا عليه .

ولو أن العاصي استحضر لعذاب على المعصية لعلم أنها عليه لا له ، فالعاصي قد يحقق لنفسه شهوة ، لكنها شهوة عاجلة ، أمدا قصيرا ، ولو استحضر العاصي العقوبة على المعصية وقت عملها أقدم على معصيته أبدا . ولكن الذين يرتكبون المعصية ينظرون إلى الشهوة الطرئة ، ويحللون جزاء المعصية عنها ، ولو أنصموا أنفسهم ، لاستحضروا العقاب على المعصية في وقت الرغبة في ارتكابها . وحين يستحضر جزاء المعصية مع المعصية فإن شهوة المعصية تنتهي منهم ، وأضررب هذا المثل دائما عن أعنف غرائز الإنسان وهي غريزة الجنس .

هب أن هناك واحدا رأى فتاة جميلة ثم أراد أن يناها نقول لهذا المتشرد جنيا : استحضر العذاب على هذا العمل ، وإن أخذت هذه الفتاة فتعال لتربك بعبيث ما أعده الله لك حين تتمتع بهذه الفتاة بخارج عن شرع الله ، وأوقد له قريبا مسجورا وعميما ، وقُلْ له في مثل هذا ستدح بل وأشد منه إن قلت من افتاة .

أيقل هذا المتشرد على ارتكاب تلك المعصية ؟ لا ؛ شهوة المعصية تطبيع عندما يستحضر العذاب عليها . إن الحق سبحانه يقول . « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا » والسبيل هو الطريق الموصل للمغاية ، والطريق الموصل للمغاية عادة ما يكون مطروقا ، وعندما يتجه الإنسان لأداء مريضة الحج فهو طارق للطريق ، أي يسير عليه ، هكذا تعرف أن هناك ثلاثة أشياء :

طارق ، وهو من كتب الله عليه الحج وهو المكلف .

وسبيل مطروق .

وغاية ، وهي حج البيت .

ومادام الطارق سبلك طريقاً فلا بد أن يكون عنده قدرة على أن يسلك هذا الطريق فكيف تتكفى هذه القدرة ؟ إن أول شيء في القدرة هو الإرادة ، وثاني شيء في القدرة هو المصلحة التي يركبها ، وهكذا نتبين أساساً محتاج إلى زاد وراحلة لطارق الحج . والسبيل الذي يطرقة ، أيكون محمواً بالمخاطر ؟ لا ، بل يُفترض أن يكون السبيل آمناً . إذن فالاستطاعة تلزمها ثلاث حاجات . هي : الإرادة ، والراحلة ، وأمن الطريق . والزاد عادة يخص الإنسان نفسه ، ولكن ماذا يكون الحال إن كان الإنسان يعوز أسرة وصغاراً ؟

إذا كان الإنسان عن هذا الحال فمن الاستطاعة أن يكون قد ترك زاداً لمن يحولم إلى أن يعود . وعينياً أن ينته إلى أن الله قال في كل تكليف : « يأبى الذين آمنوا كتب عليكم » . ولكنه سبحانه جاء في فريضة الحج بالقول الواضح ، بأن الحج لله على الناس وليس لمن أسلموا فقط ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم قد دعا أهل الكتاب الذين كانوا يتمحكون في إبراهيم عليه السلام أن يحجوا البيت الحرام ، فامتنعوا عن الحج ، ولو كان الحج للمسلمين المؤمنين برسالة محمد صلى الله عليه وسلم لما عرّض رسول الله صلى الله عليه وسلم على اليهود والنصارى أن يحجوا ليكون ذلك جمعاً لهم على أن يتجه الخلق جميعاً إلى بيت الله ويعبدوا إلهاً واحداً هو رب هذا البيت ، ويكفهم امتنعوا عن الحج . ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم هم لم يحج بدون مرض حبس ، أو سلطان جائر ، أو فقر وعوز ، يقول في الحديث الشريف :

« من رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ، ( من ملك زاداً وراحلة تبغى إلى بيت الله ولم يحج فلا عليه أن يموت ) إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً ، وذلك أن الله تعالى يقول . « والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً » (١) .

ولذلك نجد التكليف بالحج قد اتبع مباشرة بقول الحق : « ومن كفر » فهل يقع من لا يحج بدون مانع قاهر في الكفر ؟ هنا يقف العلماء وفتنة العلماء يقولون : نعم إنه يدخل في الكفر ، لماذا ؟ لأن الكفر عند العلماء نوعان كفر بالله ، أو كفر بعمة

(١) رواه الرمضى ، والحديث وإن كان في إسناده ملال بن عبد الله مجهول إلا أنه ورد في طرق أخرى حسنة وكلها تدل على أن مناط الوحوب في توافر الإرادة والراحلة .



الله ، ومثال ذلك قوله - حل شأنه - .

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً بِأَنْبِيَآئِهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْجُوعِ وَانْقَرَضَ بِهَا كَأُولَٰئِكَ يَفْعَلُ اللَّهُ بِمَا يُشَاءُ ﴾

(سورة البقرة)

لو هو الكفر ، كان يمرت الإنسان يهوديا أو نصرانيا ، وهذا يقول ، انت ، لا تأخذ الحكم من زاوية وتترك الزاوية الأخرى . إن المسألة التكليفية يوضحها الحق بقوله : « والله على الناس حج البيت » . فهل تعارضون في هذا التكليف ؟ أو تؤمنون به ولكن لا تفعلونه ؟

إن القضية التكليفية الإيمانية هي « والله على الناس حج البيت » فهل أنت مؤمن بها أو لا ؟ مسعد الإجابة من كل المؤمنين بـ « نعم » . ولكن الموقف يختلف بين مؤمن إلى آخر ، فنحن نجد مؤمنا يحرص على أداء الحكم من الله ، وهو الطائع ، ويجد مؤمنا آخر قد لا يحرص على أداء الحكم فيصبح عاصيا .

ونجد في هذا الموقف أن الكفر نوحان ، هناك من يكفر بحكم الحج ، أي من كفر في الاعتقاد بأن الله على الناس حج البيت ، وهذا كافر حقا ، لكن هناك نوع آخر وهو الذي يرتكب معصية الكفران بالنعمة ، لأن الله أعطاه الاستطاعة من راد ، ومن راحلة ، ومن أمن طريق ، ومن قدرة على زاد يكفى من يعولهم إلى أن يعود ، وهذا كان يجب على مثل هذا الإنسان أن يسمى إلى الحج . لذلك قال بعض العارفين لو أن أحدكم أخير بأن له مبرانا بمكة للذهب إليه حبوا .

إذن فقوله تعالى : « والله على الناس حج البيت » هي قضية إيمانية ، فمن اعتقدها يبرا من الكفر ، ومن حالقها وأنكرها فهو في الكفر . ومن قام بالحج فهو طائع ، ومن لم يفعل وهو مؤمن بالحج فهو عاصي .

ولنتظر إلى دقة الأداء القرآني حين يقول الحق : ومن كفر فإن الله غني عن

العالمين . قد يقول قائل . ولماذا لم يقل الله : ومن كفر فإن الله غني عنه ؟ وقال : « فإن الله غني عن العالمين » ؟ ونقول : إن الله غني عن كل مخلوقاته ، وإياك أن تهتم أن الذي لم يكفر وآمن ، وأدى ما عليه من تكليف ، أنه عمل منعمة لله ، إن الله غني عن الذي أدى وعن الذي لم يؤد ، إياك أن تظن أن من أدى قد صنع لله معروفا ، أو قدم لله يدا ، « فإن الله غني عن العالمين » عمن لا يعمل ، وعمن يعمل . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِمَا بَيَّنَّتِ ٱللَّهُ  
وَأَلَّهٗ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴾ ١٨

وحيث نسمع « قل » فهي أمر من الله لرسوله كما قلنا من قبل ، إنك إذا كلمت إنسانا أن يقول جملة لم ترسله إليه فهي هذا الإنسان يأمر بالأمر « قل » أو يؤذي الجملة ؟ إنه يؤذي الجملة ، ومثال ذلك حين تقول لابلث مثلا : قل لحملك : إن أبي سيأتيك غدا ، فابلث يذهب إلى عمه قائلا : « أبي يأتيك غدا ،

وقد يقول قائل . ألم يكن يكفي أن يقول الله للرسول : « قل يا محمد » فيلما رسول الله يا أهل الكتاب لم تكفروا ؟ كان ذلك يكفي ، ولكن الرسول مبلغ الأمر نفسه من الله ، فكانه قال ما تلقاه من الله ، والذي تلقاه الرسول من الله هو « قل يا أهل الكتاب » وهذا يدل على أن الرسول يبلغ حرفيا ما سمعه عن الله . وهناك آيات كثيرة في القرآن تبدأ بقول الحق : « يا أهل الكتاب » ولا يأت فيها قول الحق : « قل » . وهناك آيات تأتي مسبقة بـ « قل » ، « ما الفرق بين الاثنين » ؟

نحن نجد أن الحق مرة يتلطف مع خلقه ، فيجعلهم أهلا لخطابه ، فيقول . « يا أهل الكتاب » إنه خطاب من الله لهم مباشرة . ومرة يقول لرسوله . قل لهم

يا محمد لأنهم لم يتساموا إلى مرتبة أن يخاطبوا من الله مباشرة : فلذا ما وجدنا خطابا من الحق للخلق ، مرة مسبوقا - « قل » ومرة لاحرى غير مسبوق فلتعلم أن الحق سبحانه حين يخاطب خلقه الدين خلقهم يتلطف معهم مرة ، ويمجملهم أهلا لأن يخاطبهم ، ومرة حين يمد منهم اللجاج فإنه يبلغ رسوله صل الله عليه وسلم : قل لهم

والمثال على ذلك .. والله المثل الأعلى - في حياتنا ، نجد لواحد ما يقول لمن بجانبه : قل لصاحب الصوت اعلى أن بصمت . إن هذا القائل قد تعالى عن أن يخاطب هذا الإنسان صاحب الصوت المرتفع فيطلب ممن يجلس بجانبه أن يأمر صاحب الصوت العالي بالسكوت . ونحن نحى الخطاب لأهل الكتاب فنحن نعرف أنهم اليهود أصحاب التوراة ، ولتنصاري أصحاب الإنجيل ، وهؤلاء هم من يقول عنهم الحق : « يا أهل الكتاب » .

ولم يقل أحد لما : « يا أهل القرآن » لماذا ؟ لأن الحق حين يقول لهم : « يا أهل الكتاب » فنحن نعرف أن الكتاب يُطلق على كل مكتوب ، وكفرهم يعارض ما علم الله أنه موجود في الكتاب الذي أنزل عليهم ؛ لأنه هو الذي أنزل الكتاب ، ويعلم أن ما في الكتاب يدعو إلى الإيمان ، ولا يدعو إلى الكفر . وما دام هو الحق الذي نزل الكتاب ، وهو الشاهد ، فيصبح من الحق من أهل الكتاب أن يوقعوا أنفسهم في مع الكفر ؛ لأنهم بذلك يكذبون على الله : والله - سبحانه - يسجل عليهم أنهم حالفوا ما هو مكتوب ومنزل عليهم في كتابهم ، إنهم - أهل الكتاب - إن استطاعوا نعمة أهل الأرض فس يستطيعوا ذلك بالنسبة لخالق الأرض والسماء .

ولحق حين يقول : « لم تكفرون بآيات الله » فهل نفهم من ذلك أن كفرهم بآيات الله هو سترهم آيات الله سترأ أوبيا أو أنهم آمنوا بها ، ثم كفروا بها ؟ لرى ماذا حدث منهم ، لقد كانت البشارات به صلى الله عليه وسلم مكتوبة في التوراة ، ومكتوبة في الإنجيل وهم قد آمنوا بها قبل أن يحىء سيدنا رسول الله ، فلما جاء رسول الله بالمعمل كفروا بها . وفي هذا جاء القول الحكيم :

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ

عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَبُوا كَفَرُوا بِهِمْ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾

(سورة البقرة)

لماذا كفروا به صلى الله عليه وسلم ؟ لأنه رشح عنهم السلطة الربية ، علم تعد لهم السلطة الرسمية التي كانوا يبيعون فيها اخوة ويبعون فيها رصوان الله ويعملون ما يحقق لهم مصالحهم دون النصات لأحكام الله . وسن أن قلب - إن قرئت قد امتنع عن قول - « لا إله إلا الله » وهذا الامتناع دليل على أنها فهمت المراد من « لا إله إلا الله » ، فلو كانت مجرد كلمة تقال لقالوها ، لكنهم عرّفوا ومهملوا أنه لا معبود ولا مطاع ولا مشرع ، ولا مكلف إلا الله

إن الحق يقول لأهل الكتاب :

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنَ آمَنَ تَبِغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ  
عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾

هـ أنكم خبتم في فوائتكم ، وحملتكم وذر صلالكم ، فلهذا تحملون وذر إصلالكم للناس ؟ . كان يكفي أن تحملوا وذر صلالكم أنتم ، لا أن تحملوا أيضا وذر إصلالكم للناس ؟

إن الحق - سبحانه - قال :

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ  
الْأَمَاءَ مَا يَزِدُّونَ ﴿٩٥﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إنه سبحانه قال ذلك مع أنه قد قال :

﴿ وَلَا تَرَدُّ وَاِرْدَةً وَزَّرَ أُخْرَى ﴾

( من الآية ١٨ سورة طاهر )

إن الذي لا يحمل وزرا مع ورره هو الضال الذي لم يُصِلْ غيره ، فهذا يتحمل إثمه فقط . أما الذي يحمل وزر نفسه ، وورره غيره فهو الضال المصل لغيره ، وهذا يسألهم الحق سبحانه وتعالى على لسان رسوله : « لم تصدون عن سبيل الله من آمن » .

كأنه يقول : «م ماذا تريدون من الدين الذي يربط العبد بربه ؟ إنكم لا تريدونه ديناً قيباً ، إنكم تريدونه ديناً معوجاً ، والمعوج عن الاستقامة إنما يكون معوجاً لغرض ؛ لأن المعوج يطيل المسافة . إن الذي يسير في طريق مستقيم ما الذي يدعوه إلى أن ينحرف عن الطريق المستقيم ليُطيل على نفسه السبيل ؟ . إن كان يريد الغاية مباشرة فإنه يفضل الطريق المستقيم أما الذي ينحرف عن الطريق المستقيم فهو لا يفي الغاية المنشودة ، بل يطيل على نفسه المسافة ، وقد لا يصل إلى الغاية

والحق يقول : « لم تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً » وساعة تسمع « عوجاً » فإننا قد نسمعها مرة « عوج » بفتح العين . ومرة نسمعها « عوج » بكسر العين حين نسمعها « عوج » بفتح العين ، فالعوج هو الشيء الذي له قيام ، كالحائط أو الرمح ، أما « العوج » بكسر العين فهو في المعاني والقيم ، لذلك يقول هم الحق عن انحرفهم في المعاني والقيم : « تبغونها عوجاً وأنتم شهداء » .

إن الحق يبلغهم : أنتم تبعون الدين عوجاً برغم أنكم شهداء على أن ما جاء به محمد صل الله عليه وسلم هو الحق ، إنه جاء مبلياً بالصدق ، وكنتم تبشرون برسالة محمد ، وكنتم تستفتحون على الذين أشركوا من أهل مكة وتقولون . سيأتى نبي ينصحه ثم تقتلكم معه قتل عاد وإرم . أنتم - يا أهل الكتاب - شهود عن صدق هذا الرسول .

لقد ارتكبوا سلسلة من المعاصي ؛ هم ضلوا وجهدوا أن يضلوا غيرهم . ويا ليت

ذلك يتم من جهل ، ولكنه أمر كان يتم بقصد وعن علم . وبلغت المسألة متهم مبلغ أنهم شهود على الحق . ويرغم ذلك أصرروا على الضلال والإضلال . ومعنى « الشهود » ، أنهم عزموا ما قالوا ورأوه رأى العين ، فالشهود هو رؤية لشيء تشهد به ، وليس شيئا سمعته ، لذلك يذكرهم الحق سبحانه بقوله : « وما الله بغافل عما تعملون » .

إن رسالة التي جاء بها محمد مبلغا واضحة ، وهذا مذكور في كتبكم السماوية . فما الذي يجعلكم - يا أهل الكتاب - لا تدترمون طريق الحق وأنتم شهود ؟ لابد أنكم قد مستكم شبهة إن الله يغفل عن ذلك ، فقال هم لا : « وما الله بغافل عما تعملون » .

وبعد ذلك يأتي قول الحق سبحانه :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فِرْقَانِ الدِّينِ  
أَوْتُوا الْكِتَابَ بِرُدِّكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفِّرِينَ ﴿١٠﴾

معنى ذلك أن الله تبارك وتعالى الفتن المزمعة إلى أن الذين يكفرون بآيات الله لن يهدوا بهم ما دعتهم أنتم - أيها المؤمنون - على الجادة ، وما دعتهم مستقيمين ، ولن يهدوا للكافرين آيات الله بال إلا أن يشككوا المؤمنين في دينهم ، وأن يبعروها عرجا ، وأن يكفروهم من بعد إسلامهم .

وهذه قصبة يجب أن ينتبه لها الدين أموا ، لأن الذين يبعثون الأمر عوجا قد ضلوا وأضلوا ، وهم يشهدون على هذا ، ويعلمون أن الله غير غافل عما يعملون ، فهذا يكون موقف الطائفة المؤمنة ؟ إن الحق سبحانه يوضحه بقوله : « يا أيها الذين آمنوا » .

إن أهل الكتاب يحاولون أن يصلوا المؤمنين عن سبيل الله ، وليس المقصود بالصد ، أن هناك من يمنع المؤمنين من الإيمان ، لا ، بل هي محاولة من أهل الكتاب لإقناع المؤمنين بالرجوع والارتداد من الإيمان الذي اعتنقوه ، فالمؤمنون هم الطائفة التي تلتزم بالتكليف من الله ، لذلك يحذرهم الحق سبحانه بقوله :

« إن تطيعوا فريق من الذين أوتوا الكتاب ، يردوكم بعد إيمانكم كافرين » الحق يحدد لنا من الذين أوتوا الكتاب ، وذلك تأريخ بقرينة وصدق ورسق وبدون تحامل . كان الحق سبحانه يلفتنا أن هناك فريقا من أهل الكتاب سيبكون الطريق السوي ، ويحيثون إلى المسلمين أرسالا وجماعات وأفرادا مع الإسلام ، فالحق لا يتكلم عن كل الذين أوتوا الكتاب . لذلك يقول الحق : « إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إن الحق يؤرخ وهو يحصى الحقيقة ، ويقول سبحانه بعد ذلك .

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ  
وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ  
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١١﴾

إله استعظام وتعجيب من أن يأتي الكفر مرة أخرى من المؤمنين وهم في نعيم المعرفة بالله ، فأيات الله تلى عليهم ، ورسول الله حق ومعهم وفيهم

ويقول الحق سبحانه للمؤمنين : « إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب » إن ذلك قصة : فقد كان اليهود في المدينة يملكون السلطة الاقتصادية ، لأنهم يجيدون التعامل في المال ، وكل من يريد مالا يذهب إليهم ليقترض منهم بالربا . وكان لليهود أيضا التفوق والتميز العلمي ، لأنهم يعمدون الكتاب ، بينما كان غالبية أهل مكة والمدينة من الأميين الذين لا يعرفون كتابا سواها . وكذلك كان هناك تميز آخر لليهود

هو خبرتهم بالحرب ، فهم قلاع وحصون . هكذا كان لليهود ثلاثة أسباب للتميز :

المال يحقق الزعامة الاقتصادية ، والمعلم . . بالكتب وهو تفوق علمي ، ثم خبرتهم بفتون الحرب ، وكانوا فوق ذلك يجادلون إيمان الخلاف بين الناس وتعميقه . مثل محاولتهم إثارة العداوات بين الأوس والخزرج . والمناصرة بذلك حتى تظل الحروب قائمة ، وبذلك يضمنون رواج تجارة الأسلحة التي يصنعونها ويمدون بها كل فريق من المتحاربين .

ولما جاء الاسلام وتحذ الرسول صلى الله عليه وسلم بين الأوس والخزرج وبذلك ضاع منهم التفوق الاقتصادي . وجاء الاسلام يدين وكتب مهيمن على الكتب ، فصاحت من اسهود انزلة العلمية وكذلك ضاعت من اليهود منزلة الحربية ، فقد رأوا قلة من المؤمنين هزموا الكفار وأنزلوا بهم هزيمة نكراء في بدر ، وهكذا ضاع كل سلطان لليهود في المدينة ، لذلك أرادوا أن يعيشوا الأمر إلى ما كان عليه قبل أن يبعث الإسلام ، فقالوا فلنرجع ونشعل ما بين الأوس والخزرج من عداوات وبهيجها ، وقال شخص اسمه « شأس بن قيس » وقد رأى نور الإيمان يعلو وجوه الأوس والخزرج ويضطلعهم الانسجام الإيمان . وتوجد بينهم المودة وابتسامات الصفاء ، هيج ذلك شأس بن قيس وقال . « والله لا بد أن نعيد ما جدعة ونرجعهم إلى ما كانوا عليه من اعتقاد وعداوات ، فلا استقرار لنا ، مداموا قد اجتمعوا » .

فأرسل فقي من اليهود وجلس بين الأوس والخزرج ، ثم تطرق الحديث منه إلى يوم يمسى يوم « بعث » ، وهو اسم يوم من أيام العرب قبل الإسلام ، وكان بين الأوس والخزرج ، وكان النصر فيه للأوس على الخزرج ، وجلس الفقي اليهودي يذكر ويأت بالشعر الذي قيل في هذا اليوم هيج حية الأوس والخزرج وحدث النزاع ، وحصل التماحر واستيفت التباغض ، وقالوا : « السلاح . . السلاح » وهكذا نجحت الكيفة ، ونش الخبر إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام صلى الله عليه وسلم ومعه صحابته ، حتى انتهوا إلى اجتماع الأوس والخزرج ، فوجدوا الحال عن أشد درجات الهياج ، نزاع ، وتباغض ، وسلاح محمول ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : أيذخوى الجاهنية وأنا بين أظهركم !



أى كان من الواجب أن تحجلوا من أنفسكم ، لأن رسول الله بيسكم ، وأصاف رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، وألف بين قلوبكم ، فهذا كانت مواقع كلمات الرسول في نفوس القوم ؟ لقد دفعتم كلماته صلى الله عليه وسلم إلى إلقاء السلاح ، وبكروا وعانقوا معصهم بعضا وانصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما كان يوم أقيح أولا وأحسن آخرها من ذلك اليوم .

وعندما نتأمل ما فعله هؤلاء القوم من اليهود لإشغال الفتنة بين الأوس والخزرج نجد أنهم قد أدركوا طبيعة النزاع القديم بين الأوس والخزرج فأرادوا أن يهيجوا تلك العداوات والأحقاد القديمة ، وكذلك نجد أن تهيج المشاعر بين الأوس والخزرج جعل للانفلات بلبا فكاد القتال يشتعل ، وعندما تكلم فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هدأت المواجهيد ، وألقوا السلاح ، وندموا على ما فعلوا .

وإذا أردنا أن نرى الأمر بعمق التصوريما حدث فإننا نجد أن إدراك العداوة بين الأوس والخزرج من اليهود هو الذى دفع اليهود لتحريك هذا الإدراك الخاطيء وإحياء الثارات القديمة ، ثم كان انفعال الأوس والخزرج بتلك الثارات القديمة قد فتح الباب لحمل السلاح للاحتتال .

وهكذا نجد أن الإدراك للشئ - ، يمر بثلاث مراتب : أولا : الإحساس بالشئ ، ثانيا : انفعال النفس له ، ثالثا : النزوع السلوكي ، وعندما تحدث الرسول صلى الله عليه وسلم ، أدرك الأوس والخزرج الأمر بطريقة عكسية فألقوا السلاح ، وهدأت مواجهيد البغضاء ، وتركوا الإدراكات الخاطئة

لقد ذكرهم النبي صلى الله عليه وسلم بثلاثة أشياء هي : « أبدهوى الجاهلية وأنا بين أظهركم وقد أكرمكم الله بالإسلام ومطع به عنكم أمر الجاهلية . وألف بين قلوبكم ، وقد استقبلوا ذلك بإلقاء السلاح أولا ، ثم اسكاه ثانيا ، وهو أمر حركته المواجهيد فيهم ثم تعانقوا أى صحبوا الإدراكات ثالثا ، وهكذا حدث النزوع بالعكس . ولما حدث ذلك أصاب اليهود الغيظ والحمية والنكد . وقال المؤرخ لهذه القصة : فما كان يوم في الإسلام أسوأ أولا وأحسن آخرأ إلا ذلك اليوم .

لقد بدأ اليوم بمبوس ، وانتهى بإشراق الطمأنينة ، وبعد ذلك وجدت الحقبة التي تكون المناعة في نفوس المؤمنين ، بعد أن قال الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك القول : « أيدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم بعد إذ أكرمكم الله بالإسلام ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم » .

لقد صار هذا القول الكريم مستحضرا عند كل فرع لشيطان ، أو كيد يدعو . لقد جعل الحق المناعة صيدا فعل الكيد ، وزرع الشيطان عند المؤمنين من الأوس والخزرج ، وهكذا نرى أن الله يسخر الكافر حتى في رغبة شأن الإيمان ، فلو لم يحدث هذه المسألة ويأتى الرسول صلى الله عليه وسلم بمنطقه المؤثر وهو بين القوم ليقول ذلك القول لما أصبح لدى المسلمين هذه المناعة من الارتفاع عن البغضاء فيما بينهم ، ولو كان أحد من أتباع الرسول قد قال مثل هذه الكلمة فقد كان من المحتمل أن يحدث هذا الأثر ، لكن عندما قالها الرسول صلى الله عليه وسلم فقد أرجدت المناعة لغيرها من الأحداث التي تأتي وقد لا يكون الرسول موجودا .

ولذلك فانت أيها المؤمن إن نظرت إلى الكافرين فإنك تجد عقولهم خائبة . لقد نشروا الإسلام - دون إرادتهم - بمواقفهم الحميدة ، فمثلا حين قالوا : سيأتى نبي نتبعه وتقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فما الذى حدث ؟

إن الأنصار ساعة أن سمعوا بالدين الجديد قال بعضهم لبعض : اسمعوا يا قوم ، إنه الدين الذى بشرتكم به يهود ، فقبل أن يسبقونا إليه هيا بنا نسبق نحن اليهود إليه .

لقد كان استملاء اليهود وتفاخرهم على الأوس والخزرج دافعا للأوس والخزرج على الدخول في الإسلام ، وهكذا يجعل الحق سبحانه وتعالى كفر الكافر مؤثرا في تثبيت إيمان المؤمن .

وحين يقول الحق سبحانه : « وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم » نفهم أنه استعظام وتعجب بآيات من الحق . ساعة تسمع : « كيف تكفرون » فذلك أمر عجيب ، لأنه من

المستبعد أن يكفر المؤمنون وكتاب الله يتلى عليهم ، ورسول الله فيهم

ونحيى من بعد ذلك الدعوة إلى الاعتصام بالله ، ومعنى الاعتصام : التمسك ، ولا يتأتى إلا في علو ، فيقول : « اعتصمت بحبل الإيمان ، لأن للإنسان ثقلا ذاتيا ، هذا لثقل الذنوب إن لم يرفعه سواء ، فإنه يقع بالإنسان . وهذا لا ينشأ إلا إذا كان الإنسان معلقا في الجو وممسك بحبل ولا يوجد من يدفعه إلى أسفل ، بل الإنسان ثقله الخاص يحط إلى الأرض فمن يعتصم بالله وممسك بحبل الإيمان فإنه يمنع نفسه من الهوى والسقوط

وهنا نشعر أن الاعتصام بالله هو أن نتبع ما قبل علينا من الآيات ، وما سنه لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . إذن فباب الاعتصام هو كتاب الله وسنة رسوله ، وكذلك كان وجود الرسول بين أظهرهم هو الأمر الضروري ، لأهم كاتوا منغمسين في حمة الجاهلية ، فلا بد أن توجد إشرافة الرسول بينهم حتى تضيء لهم ، فيروا أن الله قد أخرجهم من الظلمات إلى النور . ولم يقبض الحق رسوله إلا بعد أن أكمل لنا الدين ، وأنم علينا النعمة ورضى لنا الإسلام ديننا . قال الرسول صلى الله عليه وسلم : ( تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما كتاب الله وسنتي )<sup>(١)</sup> .

هكذا نرى أن وجود آيات الله ، وسنة رسول الله هي العاصم الذي يهدي إلى صراط مستقيم . والهدى كما نعرف هو ما يوصل إلى لغاية المرجوة ، فهب أن غايتك أن تذهب إلى مكان معين فالذى يوصلك إلى ذلك المكان هو هدى ، وكل ما يذل إنسانا على الوصول للغاية اسمه هدى . والحق سبحانه وتعالى خلق الخلق جميعا ، وجعل بعض الخلق مقهورا ، وبعض الخلق غيبرا .

والمقهور من خلق الله هو كافة المخلوقات في الكون ما عدا الإنسان . إلا في بعض أموره فإنه مقهور فيها أيضا ولذلك قلنا : إن كل ما عدا الإنسان من خلق الله يؤدي مهمته كما طُلبت منه ، فإما امتنعت الشمس أن تشرق على الناس يوما ، ولا امتنعت الريح أن تهب ، ولا امتنعت السماء عن أن تمطر ، ولم تقل الأرض للإنسان إنك

(١) رواه الحاكم في المستدرک عن ابن عمر .

نمضي الله فلا أنبت لك ، ولا جاء إنسان ليترك الدابة المسخرة فقالت : لا ، إنك حاصر ، ولذلك ساحرون فلا أمكنك من ركوب ظهري .

هكذا يرى أن كل شيء ماعدا الإنسان مسخر مقهور للغايات المرجوة منه ، وهو خدمة ذلك الإنسان . والإنسان وحده هو الذي له اختيار . . ولذلك يجب أن نتنبه دائما إلى أن الله قد جعل للمخلوق تسخييرا وتسييرا ، وجعل الإجماع في كل الأجسام ، ولكن الانقسام جاء عند الإنسان فقال الحق سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ  
وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ  
يُنِ اللَّهُ فَرَّ مِنَ مُعْذِرِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُفَعِّلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة الحج)

إن الحيوانات الساجدة المسخرة هي « الشمس والقمر والنجوم » ، والنبات الساجد المسخر هو « الشجر » ، وكذلك « الدواب » فهي ضمن الكائنات التي عليها حكم الحق بالإجماع ، بأنها كلها تسجد خاضعة مسخرة . أما الإنسان فقد قال الحق عنه : « وكثير من الناس ، وكثير حق عليه العذاب » .

إذن فالانقسام جاء عند من ؟ لقد جاء الانقسام عند الإنسان . لماذا ؟ لأن الله خلق الإنسان مختارا . ألم يكن من الممكن أن يخلق الله الإنسان مسخرا كبقية الكائنات ؟ اليس التسخير دليلا على قدرة المسخر ، وأن شيئا من خلقه لن يخرج من قدرته . هذا صحيح ، لكن الحق سبحانه كما أراد أن يثبت القدرة والقهر بالتسخير ، أراد أن يثبت المحبوبة بالاختيار . فمن كان مختارا أن يؤمن أو يعصى ، ثم اختار أن يؤمن ، فهذا الاختيار إنما يثبت به الإنسان بالمحبوبة لله .

هكذا صنف الله المخلوق بين قسم فهري يثبت القدرة ، وقسم استهوي يثبت المحبوبة ، ولهذا أراد الله للإنسان أن يكون مختارا أن يفعل أو لا يفعل . فلماذا - إذن - لا يعص الإنسان كل أفعاله وهي مسجعة مع الإيمان ؟ لأن للشهوة بريقا سطحيًا ، وهذا البريق لسطحي يجلب الإنسان كما يجذب النور الفراش

عندما يوقد الإنسان نارًا ما في الحلاء فصرورها يجذب القَراش ، ويحترق القَراش بنيران الضوء ، فقد جذب النور وأغراه ، ولكنه لم يعرف أن مصرعه في تلك النار . والحكمة العربية تقول : « رب نفس عشقت مصرعها » كذلك في الشهوات ، تترين الشهوة للإنسان ، فتجذبه إليها فيكون فيها مصرع الإنسان .

لكن ما الحماية للإنسان من ذلك ؟

إن الحماية هي في منح الله « افعل » . « لا تفعل » فمن يرد أن ينقل نفسه من كيد الشيطان وكيد النفس فعليه أن يخضع لمنهج الله في « افعل » و « لا تفعل » . وقد قلت قديمًا : إنه من الحق أن يصنع صانع صنعة ما ، ثم ينسى أن يضع لها قانون الصيانة . والإنسان في حدود صناعته لا يسى ذلك ، فما بالنا بالحق سبحانه بطلاقة قدرته ؟

إن الخالق سبحانه وتعالى قد صمم الإنسان ، ووضع الحق سبحانه وتعالى قانون صيانة صنعته في الإنسان فقال جل وعلا « افعل كذا ولا تفعل كذا » . فمن أراد أن يعتصم بالحبل المتين فلا يأكل له نرغ شيطان أو كيد عدو ولا هوى نفس . فليعتصم بمنهج الله ؛ لأن الله هو الذي خلقه وهو الذي وضع منهجه كقانون لصيانة صنعته ، وهو القانون للوجر في « افعل ولا تفعل » .

ويقول الحق : « ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم » وكلمة الاعتصام أروع ما تكون عندما يكون الإنسان في الهواء معلقًا في الفراغ ، وهو في أثناء وجوده في الفراغ فإن ثقله الدان هو الذي يوقعه ويسقطه ، لكن عندما يتمسك الإنسان بمنهج الله فإنه ينقل نفسه من السقوط والهوى ( بضم الهاء وكسر الواو ) ومهمة الشيطان أن يزين المعصية بالعريق ، فتندفع شهوات النفس هاتجة إلى المعصية ، ولذلك يأكل الشيطان يوم القيامة ويأخذ الحجة علينا . يقول الحق :

﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلَوْلَا

أَنسُكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكُمُومِ مِن قَبْلُ إِنَّ  
الظَّالِمِينَ هُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ ﴿٥٦﴾

(سورة إبراهيم)

والسلطان كما نعرف نوعان - النوع الأول هو أن يقهر الشيطان الإنسان .  
والشيطان لا قدرة له على ذلك - والنوع الثاني هو أن يفتح الشيطان الإنسان بأن  
يفعل ذلك الخطأ .

ما الفرق بين الإقناع والقهر في هذا المجال ؟

إن القهر هو أن يجبر الشيطان الإنسان على أن يفعل شيئاً لا يريد الإنسان . أما  
الإقناع فهو أن يزين الشيطان الأمر للإنسان فيفعله الإنسان بالاختيار ويعلن الشيطان  
يوم القيامة : لم يكن لي سلطان أقهرك به أيها الإنسان حتى تعصى الله ، لقد ريت  
لك المعصية أيها الإنسان فاستجيت لي .

إن الشيطان يوم القيامة يقول : « ما أنا بمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي » ما معنى  
« مُصْرِخِكُمْ » ؟ إنها مشتقة من « أصرخ » ، أى سمع صراخك فأعانتك وأنجذك ،  
فمُصْرِخٌ : مخبث ومنجذ ، والشيطان يعلن أنه لن يستطيع نجدة الإنسان ،  
ولا الإنسان يستطيع أن ينجد الشيطان .

إذن ، فقتل النفس البشرية هو ما يوقع الإنسان في الهاوية دون أن يلقيه أحد  
فيها ، ولا إنقاذ للإنسان من الهاوية إلا بالاعتصام بحبل الله . كأن متبع الله هو  
الحبل الممدود إلينا ، فمن يعتصم به ينجو من الهاوية .

وماذا نعتصم بحبل الله وهو القرآن المنزل من خلقتنا والمنة النبوية المطهرة ، وسبحانه  
يعلم كيف النفس لصاحبها - فلا بد أن يهدينا الله إلى الصراط المستقيم . وبعد ذلك  
يقول الحق سبحانه .

## ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٩١)

إن الله قد أعطى المؤمنين المناعة أولا بالألا يسمعون كلام أعداء الدين . وحين نسمع كلمة « اتقوا » لنفهم أن هناك أشياء نسب لك الصب والأذى ، فعليك أن تجعل بينك وبينها وقاية ، ولذلك قال الحق :

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٩٢)

( سورة آل عمران )

إنه الحق يطلب من الإنسان أن يجعل بينه وبين النار وقاية وحجابا يقيه منها . والحق سبحانه وتعالى حين يقول على سبيل المثال :

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَرِيعُ الْحَسَبِ﴾

( من الآية ٤ سورة المائدة )

أى اجعل بينك وبين الله حجابا يقيه من غضبه . وقد يقول قائل - كيف يكون ذلك وأنا كمؤمن أريد أن أعيش لى معية الله ؟

نقول : إنك تجعل الرقاية لنفسك من صفات جلال الله ، وأنت تستظل بصفات الجمال ، فالمؤمن الحق هو من يجعل لنفسه وقاية من صفات الجلال ، وهى القهر والجبروت وعصمها ، وكذلك النار إته من جنود صفات جلال الله . فحين يقول الحق : « اتقوا النار » أو « اتقوا الله » فالمعنى واحد . وعندما يسمع إنسان قول الحق سبحانه : « اتقوا الله حق تقاته » ماذا تعنى ( حق تقاته ) ؟ إن كلمة « حق » - كما نعرف - تعنى الشيء الثابت الذى لا يزول ولا يتزعزع ، أى لا ينتهى ولا يتذبذب ، هذا هو الحق .

إذن ما معنى التقي ؟ هو أن يكون إيمانك أيا المؤمن إيمانا راسحا لا يتأدرك ولا يتذبذب معه ، واتقوا الله حق تقاته هو اتباع منهجه ، فيطاع الله باتباع المنهج

لا يعصى ، ويُذكر فلا يسى ، ويُشكر ولا يُكفر . وطريق الطاعة يوجد في اتباع المنهج بـ « افعِل » و « لا تفعل » ويُذكر ولا يسى ، لأن العبد قد يطيع الله ، وينفد منهج الله ، ولكن النعم التي خلقها الله قد تشغل العبد عن الله ، والمنهج يدعوك أن تتذكر في كل نعمة من أنعم بها ، وإياك أن تنيك النعمة المنعم .

وشكر العبد الله ولا يكفر بالنعم التي وهبها له الله . وما حدث أيها العبد تستقبل كل نعمة وتردها إلى الله وتقول : « ما شاء الله ، لا قوة إلا بالله » ولا تكفر بالنعم كي أنك تؤدي حق النعمة ، وكل نعمة يؤدي العبد حقها تعني أنك نعمة شكر العبد ربه عليها ، ولم يكفر بها .

وقبل في معنى : « حق ثقائه » أي أنك لا تأخذ في الله لومة لائم ، أو أن تقول الحق ولو على نفسك . هذا ما يقال عنه « حق التقى » ، أي التقى الحق الذي يعتبر تقى بحق وصدق . وقال اعلما : إن هذه الآية عظمت نزلت وسميها الصحابة ، استطعم الصحابة نفوسهم أمام مطلوبها ، فقال بعضهم من يقدر على حق التقى ؟ وقال : إن الله أنزل بعد ذلك :

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾

( من الآية ١٦ سورة التوبة )

فهل معنى هذا أن الله كلف الناس أولا ما لا يستطيعون ، ثم قال من بعد ذلك : « فاتقوا الله ما استطعتم » ؟ لا ، إنه الحق سبحانه لا يكلف إلا بما في الوسع ، والناس قد نخطئ الفهم لقوله تعالى : « فاتقوا الله ما استطعتم » فيقول العبد : أنا غير مستطيع أن أقوم بذلك التكليف ، ويظن هذا العبد أن التكليف يسقط عنه لا ، إن هذا فهم خاطئ ؛ إن قوله الحق : « فاتقوا الله ما استطعتم » أي إنك تتقى الله بما كان في استطاعتك من الوسع ، فيما باستطاعتك أن تقوم به عليك أن تقوم به فلا يهرب أحد إلى المعنى المناقض ويقول : أنا غير مستطيع ؛ لأن الله يعلم حدود استطاعتك .

وساعة تكون غير مستطيع فهو - سبحانه - الذي يخفف . . إنك لا تخفف أنك على نفسك أيها العبد ، فالخالق الحق هو الذي يعلم إذا كان الأمر خارجا عن



استطاعتك أو لا ، وساعة يكون الأمر خارجاً عن استطاعتك فأنه هو الذى يخفف  
عك . ولذلك فعل الإنسان ألا يستحدم القول الحق :

﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾

( من الآية ٢٨٦ سورة البقرة )

ن غير موضعه ؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يقدر الوسع ، ثم يبنى التكليف على  
الوسع . بل عليك أن تفهم أيها الإنسان أن الله هو الذى خلق لنفس ، وهو الذى  
أنزل التكليف لوسع النفس ، ومادام الخالق للنفس هو الله فهو العليم بوسع النفس  
حيثما قرر هذا المذهب . إنه سبحانه الذى كلف ، وهو العليم بأن النفس قد وسعت ،  
ولذلك فهو لا يكلف نفساً إلا وسعها . فإن كان سبحانه قد كلف فأعلم أيها العبد  
أنه سبحانه قد كلف بما فى وسعك ، وعندما يحدث للإنسان ما يشق عليه أو يمنعه من  
أداء ما كلف به ثلماً فهو - سبحانه - يضع لنا التخفيف وينزل لنا الرخص . مثال  
ذلك : المريض أو الذى حل سحر ، له رخصة الإفطار فى رمضان ، والمسافر له أن  
يقصر الصلاة

إذن فأنه سبحانه هو الذى علم حدود وسع النفس التى خلصها ، ولذلك لا تقدر  
وسعك أولاً ثم تقدر لتكليف عليه ، ولكن قَدِّرْ التكليف أولاً ، وقُلْ : مادام  
الحق قد كلف فذلك فى الوسع . وفى تدليل الآية الكريمة بقوله : « ولا تموتن إلا  
وأنت مسلمون » نجد أنفسنا أمام معنى عن فعل وهو عدم الموت إلا والإنسان  
مسلم

كيف ذلك ؟ أيقول لك أحد : لا تمت ؟ إن ذلك الأمر ليس لك فيه اختيار ؛ لأنه  
أمر بآل عليك . فإذا قيل لك : لا تمت ، فإنت تنسحب ، لأن أحدا لا يملك  
ذلك ، ولكن إذا قيل لك : لا تمت إلا وأنت مسلم ، فأنت تفكر ، وتصل بالتصكير  
إلى أن العمل المنتهى منه : لا تمت ليس فى قدرة الإنسان ، ولكن الحد الذى يقع  
عليه الفعل وهو : إلا وأنت مسلم ، فى قدرة الإنسان ، لذلك تقول لنفسك : إن  
الموت بأن يتبرع منى ، ولكن كلمة : إلا وأنت مسلم ، فهى باستطاعتى ، لأن  
الإسلام يكون باختيارى . صحيح أنك لا تعرف متى يقع عليك الموت ؟ ولذلك  
للتحاط والاحتياط يكون بأن تظل مسلماً حتى يصادفك الموت فى أى لحظة وأنت  
مسلم .

هذا . فقول الله : « ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون » هو من عن الفعل الأول وهو ليس باختياراً والحال الذي لنا فيه اختيار هو « وأنتم مسلمون » فكيف يوفق بين الأمرين ؟ إن الموت لا اختيار لأحد فيه ، ولا يعلم أحد منا متى يقع عليه ، ولذلك نأثى إلى الأمر الذي لك فيه اختيار ، وهو أن نحرص عن أن نكون مسلمين ، ويظل كل منا متمسكاً بأهداب الإسلام ، فإن صادف الموت في أى لحظة يكون مسلماً وكان الحق سبحانه يقول : « تمسكوا بإسلامكم » لأنكم لا تدرون متى يقع عليكم الموت .

ولخفض الموت عن الإنسان ليس إسهاماً كما يظن البعض ، لا ؛ إنه منتهى البيان الواسع ؛ لأن إخماء الموت ، ومبعاده عن الإنسان ربما وحالاً ، وسناً ومبياً ، كل ذلك يوضح الموت أوضح بيان . لماذا ؟ لأن الله حين استأثر بعلم الموت فالإنسان ما يترقب الموت في أى لحظة وملام الإنسان مترقباً للموت في أى لحظة فهذا بيان واسع بل هو أوسع بيان . ويقول الحق بعد ذلك :

وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا  
وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ  
قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا  
حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ  
لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٢﴾

جاء هذا القول الكريم لينبه كل المؤمنين ، من خلال التنبه للأومن والخروج ، وكأنه يقول : « اعلّموا أن التفاخر قبل الإسلام كان لأشياء وبأشياء ليست من الإسلام

في شيء . لكن حين يحىء الإسلام فالتفاخر يكون بالإسلام وحده فإذا ما تناضى  
الإنسان بما قبل الإسلام بقوله : « ما كذا .. وما كذا » بها يأتي الرد : لا ، إن ذلك  
قبل الإسلام .

وقد حدث أن قال الأوس من بعد الإسلام : « منا خزيمه » فقال واحد من  
الخزرج : « منا أبو بن كعب وزيد بن ثابت » فقال واحد من الأوس : « منا حنظلة  
ابن الراهب وحنظلة هذا هو حسيل الملائكة » وخزيمة بن ثابت صحابي جليل جعل  
الرسول صلى الله عليه وسلم شهادته بشهادتين ، لأن خزيمة صاحب إيمان بورا .  
وبورانية ليقين هدته إلى الحكم الصواب ، فقد اشترى النبي صلى الله عليه وسلم  
فرسا من أعرابي ودفع ليحضر له الثمن ، ولكن الأعرابي أنكر البيع لأن بعض الناس زاده في ثمن  
الفرس دون علم أن لرسول قد اشتراه فلحق الأعرابي الرسول وقال له إن كنت مبتاعا هذا الفرس  
فابتعه رلا بعته .

فقال النبي لرجل « ألسنت قد ابتعت منك » فقال الرجل هات شاهدا يشهد بذلك . لقد  
اشترى الرجل فرسة أن النبي ابتاع منه دون وجود أحد في هذا الوقت ، وكان سيدنا خزيمة جالسا  
لحظة مطالبته للنبي شامدا فقال سيدنا خزيمة ما أشهد يا رسول الله أنك قد ابتعته .

ولأن الرجل كاذب ، قال لنفسه لعل خزيمة وأنا وأنا أبيع الفرس للنبي فسكت الرجل  
وانصرف ، وبعد أن انصرف الرجل نادى الرسول خزيمة وقال له : « يا خزيمة بم  
تشهد ولم تكن معنا ؟ » فقال : أنا أصدقك في خبر السماء ولا أصدقك بما تقول ؟  
أعلم أنك لا تقول إلا حقا قد آمنتك على أفضل من ذلك ، على ديننا . فعلم الرسول  
أن خزيمة نورانية التصديق وحسن الاستنباط ، فقال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم : « من شهد له خزيمة فحسبه »<sup>(١)</sup> .

فالامر الذي يحتاج شاهدين تكفي فيه شهادة خزيمة ، وبذلك أعطى الرسول صلى  
الله عليه وسلم الوصام لخزيمة وجعل شهادته شهادة رجيين ، وإن كيف جمع الله بين  
الأوس والخزرج في جمع القرآن ، قال زيد بن ثابت :

(١) رواه أبو داود عن طريق الزهري عن حماد بن خزيمة بن ثابت

فألمت على نفسى ألا أكتب أية إلا إذا وجدتها مكتوبة وشهد عليها اثنان ، إلا آخر التوبة فوجدتها مكتوبة ولم يشهد عليها إلا خزيمة ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم قد قال في خزيمة : « من شهد له خزيمة فضبه » ولك أن تعرف أن زيد بن ثابت من الخزرج وأن خزيمة من الأوس . لقد جمعها الله في جمع القرآن ، فتمنع الأوسى الخزرجى ، وذلك ليدلنا الحق سبحانه دلالة جديدة ، وهى أن التعاضد قبل الإسلام كان بخير الإسلام ، لكن ساعة يحىء الإسلام فلى واحد من أى جنس مادام قد أحس الإسلام ، فله أن يفخر به ، فإياك يا أوسى أن تقول : « منا خزيمة » ، فالخزرجى له الصحر بخزيمة أيضا ، وليس للخزرجى أن يقول : « منا زيد بن ثابت » ، فلأوسى أيضا أن يفخر به ، لأن كلاهما قد جمعه الله بالآخر في القرآن ، والإسلام ، وهكذا يكون الاحتصام بحبل الله

يقول الحق سبحانه وتعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم » إن الحرب طلت مستمرة بين الأوس والخزرج مائة وعشرين عاما مع أن أصل القيلتين واحد ، هما أحواض لاب وأم وعندما جاء الإسلام ألف الله بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته إخوانا

وهذا يدلنا على أن كل مرضة جارية من الخوارج لابد أن يكون وراءها هبة قلب وثورته وهياجه ، فإلى لا تصفع أحدا من فراغ ، ولكن الصمعة توجد في القسب أولا ، فألف بين قلوبكم ، إن الحق سبحانه يقول : « وكنتم على شفا حمرة من النار فأنقذكم منها » والشفا هى الخافة ومرة يقال : « شفا » ، ومرة يقال : « شفة » . فقد كانوا على حافة النار ، ومن كان على الحافة فهو يوشك أن يقع ، فكان الله يقول : لقد نذركم بالإسلام ، ولولا الإسلام لو كنتم في النار .

ويقول سبحانه : « كذلك بين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » وهكذا يرى نعمة الإسلام في الدنيا ، فقلوة الإيمان على إنقاذ الإنسان من النار لا تحتاج إلى انتظار بل يستطيع المؤمن أن يراها في الدنيا . ولقد كان العرب قبل الإسلام مؤرقين بالاختلافات ، وموزعين بالمصيبة ، وكل يوم في شقاق . ولما جاء الإسلام صاروا إخوانا ، وهذه نعمه عاجله في الدنيا ، والدنيا كما تعرف ليست دار جزاء ، فما بالك بما يكون في الآخرة وهى دار الجزاء والبقاء .

وقوله الحق . « لعلكم تهتدون » المقصود به أن تطلوا على هدايتكم . لقد خاطبهم الحق . « إذ كنتم أعداء فأثاب الله أولي قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » وساعة يطلب التشريع منك ما أنت عليه ، فاعلم أن التشريع يريد منك استدامته ، فعتما يقول الحق ( يا أيها الذين آمنوا ) أى مع الإيمان الذى محكم قبل كلامى ، جندوا إيماننا بعد كلامى ليسر لكم الإيمان دائما . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه .

وَلَنَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ  
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ  
الْمُقْبِلُونَ ﴿١٥﴾

وكلمة « أمة » تطلق مرة ، ويراد بها الجماعة التى تتسبب إلى جنس ، كلمة العرب ، أو أمة المرس ، أو أمة الروم ، ومرة تطلق كلمة « أمة » ويراد بها الملة أى الدين ، ومرة ثالثة تطلق كلمة « أمة » ويراد بها الفترة الزمنية كقول الحق .

﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِشَيْئِهِ فَارْسِلُونِ ﴾ ﴿١٦﴾

(سورة يوسف)

إن الرجل الذى مر له سيدنا يوسف الرؤيا تذكر سيدنا يوسف بعد أمة أى بعد فترة من الزمن ، ومرة تطلق كلمة « أمة » على الرجل اجماع لصعاب الخير .

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِنًا قَدْ حَبِطَ وَلَدُكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ ﴿١٧﴾

(سورة النحل)

لأن خصائص الخير ليس من الضرورى أن تجتمع فى واحد ، ولكنها قد تجتمع فى عدد من الأفراد فيكون هناك فلان المتميز بالصفة الطيبة ، وغيره مصنف بصفة أخرى طيبة ، وثالث فيه صفة طيبة ثالث ، ومن مجموع الأمة تظهر صورة الكمال ، لكن إبراهيم عليه السلام اجتمعت فيه كل خصائص الخير المكتمل .

وساعة إن تأتي لإسك ونقول له : لوكن منك شجاع فما معنى ذلك ؟ إن معناه ، أن يجرد الإنسان من نفسه ويخرج منها شخصا شجاعا ، وذلك بتدريتها وتعويدها على ذلك حتى يكون الإنسان شجاعا ، أو تقول لآخر : لوكن منك كريم ، أي أخرج من نفسك رجلا كريما .  
وقوله الحق سبحانه : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير »

هذا القول يعنى أن يكون منكم أمة المحافظون أمة تدعو إلى الخير ، ومعناه أيضا أن تكونوا جميعا أمة تدعو إلى الخير ، وبعض العلماء يرى أن هذا القول يعنى : أن تكون منكم جماعة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ولكن هناك فيها أهمق من هذا ، وهو أن هذه الآية تأمر بأن تكون كل جماعة المسلمين أمة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر ، أى أن هذه الآية تطالب كل أمة المسلمين بذلك ، فلا تختص جماعة منها فقط بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بل الواجب أن تكون أمة المسلمين كلها أمة بالمعروف ، وناهية عن المنكر ، فمن يعرف حكمها من الأحكام عليه أن يأمر به .

وهناك من العلماء من قال : إن الذى يأمر بالمنكر له حكم آخر أيضا وهو أن ينهى غيره عن المنكر ، أى أن الإنسان المأمور بمطالبة بأميرين الأول : ألا يصنع المنكر ، والثانى أن ينهى عن المنكر . ولذلك إن جاء نصيح من إنسان ينهاك عن المنكر ، وهو قد فعله ، فلا تقل له أصلح نفسك واتبع أنت ما تنصح به أولا ، لا تقل له ذلك حتى لا يقول لك ما قاله الشاعر :

خذ بعلمي ولا تتركنى إلى عملى

وبجس الشمار وخيل العود للنار

فكن الأجدر بمن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر أن يكون أول العاملين بقوله حتى لا يسئل فى رمة من قال الله فيهم .

﴿ يَأْتِيَا الَّذِينَ آمُرُوا بِتَقْوَى مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ ① كَبُرَ مَقَادِرَ اللَّهِ أَنْ

تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ② ﴿

إذن فقول الحق : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، وأمرهم بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستمعوا إلى قوله تعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ ۝ إِلَّا الْآفِينَ ۝ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۝ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾

(سورة العصر)

إن السورة الكريمة توضح العقيدة ومطلوبها وهو الإيمان والعمل الصالح وبعد ذلك قال الحق : « وتواصوا » ولم يقل « ووصوا » ما معنى « تواصوا » ؟ أى أن يعرف كل مؤمن أنه من الأخيار ، وكذلك أخوه المؤمن ، وقد يضعف أحدهما أمام معصية فيصعبها ، لكن الآخر غير ضعيف أمام تلك المعصية ، لذلك يكون هل غير الضعيف توصية الضعيف ، وعلى الضعيف أيضا ضرورة الانتباه حتى يتواصى مع غيره . فالإسلام لم يجعل جماعة يوصون غيرهم ، وجماعة أخرى تتلقى الوصاية ، بل كلنا موصى - بكسر الصاد - حينما نجد من يضعف أمام معصية ، وكلنا موصى - بفتح الصاد - حين يكون ضعيف أمام المعصية ، والتواصى يقتضى التعامل بين جانيين . . مرة تكون موصيا ، ومرة تكون موصى ، وكذلك التواصى بالصبر .

فساعة تحدث كارثة لواحد من المسلمين يأتى أخوه ليصبره ، وكذلك إن حدثت كارثة للأخ المسلم يصبره أخوه المسلم ، فعندما يحتاج مسلم في وقت ما إلى أن يُصبر ، يجد من إخوته من يصبره ، فالأمة كلها مطالبة : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » .

هكذا نفهم معنى قول الحق : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . والدعوة إلى الخير يفسرها الحق بأن يأمر الإنسان بالمعروف ، وأن ينهى عن المنكر .

ويقول الحق : « وأولئك هم المفلحون » أن كلمة « المفلحون » هي كلمة معناها دليلها ، والمفلح هو الذى أخذ الصمعة الرابعة والكلمة مأخوذة ، من فلح الأرض . فلذى يفلح لأرض ويحراثها ثم يزرعها يجد لشجرة نحيبه في النهاية ، وقد جاء الحق بالسؤال المعنوية من أمر محس . وبعد ذلك يريد الحق أن يعطينا شيئا آخر

يقول : إياك أن تظن أن المشقة التي تصيبك حين تفعل حيرا لا تعود عليك بالراحة ، أو أن القصد الذي تفعل به الخير لا يعود عليك بالكمال ، عمثلا الإنسان الذي قلع الأرض وأخرج « كيلة » من القمح وبذرهما فيها . هذا الإنسان قد تكون له زوجة حمقاء تقول له . إنا لا نملك إلا أربع « كيلات » من القمح فكيف تأخذ « كيلة » لترميها في الأرض ، إن هذه المرأة لا تعرف أن « الكيلة » التي أخذها الزوج هي التي ستأتي بعدد من الأرباب من القمح . فإياك أن تفهم أن الإسلام يأخذ منك شيئا إلا وهو يريد أن يعطيك أشياء .

إن الفلاح الذي يشقى بالحراثة والري ، وتراه وقد علا جبهته العرق وتراب الأرض وتموص أقدامه في الطين والحياه ، إنك تراه يوم الحصاد وهو فرح مسرور بهفته . أما غيره الذي لم يشق بالحراثة ولم تحمل جبهته حبات العرق ، فإياك أن تفهم هذا اليوم وهو حزين وتادم-فإياك أن تنظر إلى تكاليف الدين على أنها أمور تحرمك النفع ، إنما أمور ترتب لك النفع أي تكثر لك النفع . وإياك أن تظن أن حكمنا من أحكام الله قد جاء لمجرد على حريتك بل جاء ليمنع عنك اعتداء الآخرين

ولكن من قبل . إن الشرع حين كلف كل إنسان ألا يسرق مال أحد ، فهو تقييد من أجل حفظ أموال الملايين ، وهو أمر ضمنى لكل الناس ألا يسرقوا شيئا من هذا الإنسان ، وما نجد الأمان ينتشر بالإيمان بين الجميع .

ولو نظرت إلى ما منع الدين الناس أن يمارسوه معك لعرفت قيمة التكاليف الإيمانية . إن التكليف حين يأمر ألا يمد أحد يديه إلى محارم جاره ، هذا التكليف صادر للناس جميعا حتى يحمي الله لك محارمك من هيون الناس ، لقد قيد التكليف حرية الآخرين من أهلك وهم كثيرون ، وقيد حريتك من أجل الآخرين وأمن واحد . .

إذن فوجب أن نذكر أن كل تكليف يعطى صلاحا وفلاحا ، فالأرض تأخذ الحبة ، وتعطيك سبع سنبل في كل سنبله مائة حبة ، فلا تنظر إلى ما أخذك التكليف من حريتك ، لأنه أخذ لك من حريات الآخرين أيضا . ولا تقل . إن التكليف قد نقص حركتي لنفسي ، لأنه سيعطيك ثمرات أكثر مما أفقدك .



ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا  
جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٥﴾

وهذا القول الحكيم ينس عن اتباع الهوى الذى يزدى إلى الفرقة برحم وضوح  
آيات الحق سبحانه لهم ، لأن هؤلاء الذين يتبعون الهوى من بعد وضوح قضية الحق  
سيصلهم الله النار ، ولهم عظيم العذاب . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ  
أَسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا  
الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ١٦﴾

وهنا يجب أن نعلم أن الاسوداد والابيضاض هما من آثار اختلاف البيئات في  
الدنيا ، فالشخص الأسود يزيد الله في تكوينه عن الشخص الأبيض بما يناسب  
البيئة ، لأن المادة الملونة لبشرة في جسده موحودة بغوة ، لتعطيه اللون المناسب  
لمعيشة ظروف البيئة ، أما أبيض الشرة فلا يملك جسده القدر الكافي من المادة  
الملونة ، لأن بيئته لا تحتاج مثل هذه المادة الملونة

إذن فالسواد في الدنيا لصالح المسود ، أما في هذه الآية ، فهي تتحدث عما سوف  
يراه في الآخرة حيث يكون السواد والبيض مختلفين ، تماماً كما تتبدل الأرض غير

الأرض والسموات غير السموات ، وكذلك يتبدل أمر السواد والبياض ، انه لن يكون سواداً أو بياضاً من أجل البيئات . ولذلك مستعجب يوم القيامة ؛ لأنك قد ترى إنسان كانا أسود في الدنيا ، ونجده أبيض في الآخر ، ونجد إنساناً آخر كان لونه أبيض في الدنيا ثم صار أسود في الآخرة .

فلا يظن ظان أن الإنسان الأسود في الدنيا مكروه من الله ، لا ، إن الله يعطى كل واحد ما ياسبه ، بدليل أن الله قد أمدّه باللون الذي يقويه على البيئته التي يحيا فيها . وفي مجالس البشرى ، نحن نعطي الحصل لآى إنسان مسافر إلى مكان ما ، حتى نحمله من شر مرض في المكان الذي يذهب إليه ، كذلك خلق الله في الأرض عند أعصى سبحانه لكل إنسان في تكوينه المناعة التي تحمضه ؛ فانه لا يكره اسواد لأنه حمايه للإنسان من البيئته . وهذه المسألة ستتبدل يوم القيامة كما تبدل الأرض غير الأرض ، وتبيض الوجوه المؤمنة ، وتسود الوجوه الكافرة .

أو أن البياض والسواد كليهما ، أمر اعتبارى ، بدليل أنك ترى واحداً أبيض ولكن وجهه عليه صبرة ترهقه قفرة ، وترى واحداً آخر أسود اللون ، ولكن نور اليقين يملأ وجهه ، ويريق الصلاح يشع منه ، وأنت لا تقدر أن تمنع حينئذ من أن ندبهم لنظر إله ، ولذلك قال الحق :

﴿ وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ ﴿٦١﴾ إِنَّكَ رَبُّهَا نَاطِقَةٌ ﴿٦٢﴾ ﴾

( سورة الفهم )

أى أن ما في داخل النص إنما ينصح على قالب الإنسان ، وتظهره ملامحه ، فقد يكون الأسود مصححاً ابوجه بالبشر والإشرافى والتجلى بالمجادية الأسرة ، وقد يكون الإنسان أبيض ابوجه لكنه مظلم الروح

وهكذا نفهم أن اسوداد مشرة إنسان في الدنيا ، إنما هو لمساعدة الإنسان من التواءم مع البيئته ، ومثال ذلك سواد العين وبياضها ، هل يستطيع أحد أن يقول : إن بياض العين أحسن من سوادها ؟ أو العكس ؟ . لا ؛ لأن كل شىء معد لمهمته

ومثال آخر : عندما يأتى عامل لبناء ليشى عمود الحديد المستقيم ؛ ويلويه ، يهر

يقال . إن هذا الإنسان قد عوج الحديد ؟ لا ، إنه يريد أن يشكل حود الحديد ليكون صالحا لمهمة معينة . وكذلك الاسوداد أو الابيضاض في الدنيا ، إنما أراد الله ليتناسب مع ظروف الحياة في البيئة ، أما في الآخرة فالدين قد زالت ومنبت ، والأرض لن تكون هي الأرض والسماء لن تكون هي السماء ، فالحق يقول .

﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

(سورة إبراهيم)

فالؤمن حين يرى ما أعده الله له من النعيم المقيم يقابل عطاء الله باستشراق نفس وسرور وانسباط ، أما الذي يرى مقعده من النار فلا بد أن يكون مظلم الوجه وخالق سبحانه بوجه سؤالا هؤلاء . « أكفرتم بعد إيمانكم » أو كأن هذا أمر يفاجئ من كان يعرف هؤلاء الناس في الدنيا ؛ فقد رأوهم في الدنيا يرضون الوجوه ، ولكن يرونهم يوم القيامة وعلى وجوههم غبرة سوداء وترجعهم قفرة ، يقولون لهم . « أكفرتم بعد إيمانكم » ؟ . وكان ذلك هو سمة من يكفر بعد الإيمان . هذه هي سمتهم وعلامتهم في الآخرة أي ما الذي صيركم إلى هذا اللون ؟ إنه الكفر بعد الإيمان .

فمن هم الذين كفروا بعد الإيمان ؟

هذا يعني أن الإيمان قد سبق ثم طرأ على الإيمان كفر ، وماتوا على ذلك الكفر ، وهذا قول ينطبق على الذين ارتدوا عن الإسلام مثل ابن الأسلت وغيره ، وهؤلاء كفروا بعد الإيمان أو يكون « أكفرتم بعد إيمانكم » يجعلنا نقول . انبعدية هنا لا بد أن يكون لها قبيلة . ألم يأخذ الله على خلفه عهدا في عالم الدر حين استخرجهم من ظهر آدم ؟ وقال سبحانه .

﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾

(سورة الأعراف ١٧٢)

إنه إقرار إيمان موجود في عالم الدر ، فمن جاء في الواقع لينقش هذه المسألة فقد كفر بعد إيمان . أو أكفرتم بعد إيمانكم محمد ، بعد أن جاءتكم به البشارات التي

معرضوها ، وفراغوها في التوراة والإنجيل ، وقد تأكدتم أنه قديم لا محالة ، وأنه رسول هذه الأمة وخاتم الرسل ، وانطبق عليكم قول الحق :

﴿ قَلْبًا جَاءَهُمْ مَا هَرَفُوا كَفَرُوا بِهِمْ فَلَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (٨٩)

(من الآية ٨٩ سورة البقرة)

إذن فهذا القول ، إما أن يكون في المرتدين ، وإما أن يكون الكفر في واقع الدنيا بعد الإيمان في عالم الدر عندما أخذ الله العهد على الناس جميعا ، أو يكون الكفر بعد الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وقد جاءت به البشارة في التوراة والإنجيل ، أو يكون ذلك من أهل الأهواء الذين أحدثوا الدين وجعلوه شيئا ، كالفرق التي خرجت عن الإسلام ، وهي تدعى الانتساب إليه كالبهائية والقاديانية وغيرها . إن الآية تحمّل كل هذا ، وعندما نغس النظر إلى النص القرآني نجد أنه يستوعب كل هذه المعاني .

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه أورد فقط . « أكفرتم بعد إيمانكم فلدوخوا العذاب بما كنتم تكفرون » وهذا قول يخص بالكنار فقط بلدوخوا العذاب بسبب الكفر ، وذلك يعني أن المؤمن بإيمانه سيال ثواب عمله يقول تعالى .

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ

فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (١٧)

ولنلاحظ دائما أن الله حين يبين جزاء المؤمن هل إيمانه وطاعته سبحانه يقول مرة .

﴿ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(من الآية ٤٢ سورة الأعراف)

ومرة أخرى يقول .

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا بِٱللَّهِ وَآخِضُوا بِهٖ فَبَدَّلَ لَهُمْ رَحْمَتَهُ وَفَضَّلَ وَبَدَّلَ لَهُم  
إِسْمَهُ خَيْرًا مِّمَّا كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۖ ﴾ (١٧٤)

(سورة النور)

ما الفرق بين الاثنين ؟ إن الناس في العبادة صنفان : منهم من يعبد الله ويريد  
بحسب الخنة ، فيعطيه الله الجنة جراء لعبادته ولعمله الصالح . وآخر يعبد الله ؛ لأن  
الله يستحق العبادة ولا تمر الخنة على بآله ، وهذا ينال ذات الرحمة ، إنه ينال لقاء وجه  
الله .

وما الفرق بين الجنة والرحمة ؟ إن الجنة مخلوقة لله ، فهي باقية بإبقاء الله لها ،  
ولكن الرحمة باقية ببقاء الله ، وهذا ضياع كاف ، فمن يرى الله فيه حسن العبادة  
بذاته - سبحانه - يضعه الله في الرحمة .

وقلنا من قبل : إن هناك حنة من لجات اسمها « عليون » ليس فيها متعة من  
المتع التي سمعنا عنها في الجنة ، كلهم الطير وعبر ذلك ، وليس فيها إلا أن ترى  
الله ومدام العبد لا يأكل من جوع في الآخرة ، فما الأفضل له ، جنة المتع ، أو  
متعة رؤية وجه الله ؟

أنتمتع بالنعمة أم بالمنعم ؟ لا حدال أن التمتع برؤية المنعم أرقى وأسمى  
من لتمتع بالمتع الأخرى . والدقة الأدائية في القرآن توضح لنا أن الرحمة تكشف  
هؤلاء العباد الصالحين ، وتحيط بهم ، إنهم طرف للرحمة وداحلون فيها فلا تمسهم  
الرحمة فقط ، ولكن تحيط بهم ، وهم خالدون فيها ، ويؤكد هذا الحق بطريقة جديدة  
بقوله : « هم فيها خالدون » فكأن هناك رحمة يُدخل فيها العباد ، ثم يطعمها على أنها  
لا تنزع منا أبدا . فـ « فيها » الثانية للمخلود ، « وفي » الأولى للدخول في الرحمة .

ويعد ذلك يقرب الحق سبحانه .

## ﴿ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴾ (١٠٨)

إن آيات الله هي حجبته وبراهينه وجراءاته ، فمن اسود وجهه يوم القيامة نال العذاب ، ومن ابيض وجهه نال الرحمة وهو فيها محال . تلك آيات الله تتلوها عليك بالحق ، فما الذي يجعل إنسان لا يغير بالحق ؟ لابد أن هناك داعيا عند ذلك الإنسان ، فلأن الحق يتعبه ، فهو يغير بغير الحق . لكن هل هناك ما يتعب الخالق ؟ لا ؛ سبحانه وتعالى منزّه عن ذلك وعن كل نقص أو عيب إذن فلا بد ألا يقول إلا الحق ، فلا شيء خارج عن ملكه بعد ذلك . يقول سبحانه : « وما الله يريد ظلما للعالمين » . إنه سبحانه ينفي الظلم عن نفسه كما قال :

﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ قَعِيدٍ ﴾

( من الآية ٤٦ سورة فصلت )

والحق لا يريد الظلم على إطلاقه ، من نفسه ومنكم أنتم أيها العباد . وكيف يأتي الظلم ؟ إن مظاهر الظلم هي - كما نعرف - أن تأخذ إنسانا بغير جرم . . هذا ظلم ، أو أن تعاقب إنسانا فوق الجرم . . هذا ظلم . أو ألا تعطى إنسانا مستوى إحسانه . . هذا ظلم . وماذا يفعل من يقرم بالظلم ؟ إنه يريد أن يعود الأمر بالنفع له ، فإن كان يريد أخذ إنسان بغير جرم فهو يفعل ذلك ليروى حقدا وغلا في نفسه ، وقد يلفظ لإنسان جرما ، لأنه يرى أن هذا الإنسان قد يهدده في أي مصلحة من المصالح ، وهو يعلم انحرافه فيها ، فيعتفله مثلا ، أو يضعه في السجن حتى لا يفسده .

إذن لا يمكن أن يذهب إنسان عن الحق إلى الظلم إلا وهو يريد أن يحقق منفعة أو يدفع عن نفسه ضررا ، والله لن يحقق لذاته منفعة بظلم ، أو يدفع ضررا يقع من خلقه عنده ؛ إنه منزّه عن ذلك ؛ فهو القاهر فوق عباده . والحديث القدسي يقول : « يا عبادي إن حرمت الظلم على نفسي . وجعلت بينكم محرما فلا تظالموا » (١) .

والظالم من البشر جاهل . لماذا ؟ لأنه قَوِيّ القوى ظالمه ، ولم يضعفه ، فالظالم يظلم ليضعف المظلوم أمامه ، فنقول له . أنت غبي ، قليل الذكاء ، لأنك قوتك على نفسك وفعلت عكس ما تريد . ولنوضح ذلك - والله المثل الأعلى - نحن جميعا عيال الله ، سننتقل إلى دائرة حياتنا اليومية ونرى عيالتنا ، إن الواحد منا عندما يكون له أولاد ، وجاء ولد من الأولاد وظلم أحده فقلّب الوالد يكون مع المظلوم ، ويحارل الوالد أن يترضى ابنه المظلوم إذن فالولد الظالم ضار أخاه ضررا يناسب طفولته ، ولكنه أعطاه نفعاً يناسب قوة والده ، إنه يجهل حقيقة تقويته لأخيه .

ومادامنا جميعا عيال الله فيأدا يعمل الله حون يرى سبحانه واحدا من خلقه يظلم آخر من خلقه ؟ لا بد أن الحق يشمل المظلوم برعايته ، وهكذا يقوى الظالم المظلوم ، والظالم بذلك يعلم عن عياله ، فلو كان ذكيا ، لما ظلم ، ولضنّ على عدوه أن يظلمه ، وقال إنه لا يستأهل أن أظلمه ، لأنه عن طريق ظلمي له سيحطيه الله مكانة كبرى ، وهي أن يجعله في كنفه ورعايته مباشرة .

وقد نجد واحدا يظلم من أجل نفع عاجل ، وينسى هذا الإنسان أنه لن يشرّد أبدا من خلقه . ونقول لمثل هذا الإنسان : أنت لن تشرّد عن خلقك ، ولكنك شردت من المخلوق ودأبت نفسك ، وحاولت أن تحقق النفع العاجل لنفسك ، لكن الخالق قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم . وكان الحق سبحانه بطمئنتنا بأن ننام ملء جفوننا لأنه سبحانه لا تأخذه سنة ولا نوم .

وما الله يريد ظلما للعالمين ، لأن الظلم لا ينشأ إلا عن إرادة نفعية بغير حق ، أو إرادة الضرر بغير جرم ، والله غنى عن ذلك ، ولذلك نجد الحق يؤكد غناه عن الخلق وأنه مالك للكون كله فيقول .

وَلِلّٰهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ

تَرْجِعُ الْأُمُورُ ﴿١٧﴾

إنه مالك الملك ، كل شيء له وبه وملكه ، وإليه يرجع كل أمر . ونحن نعلم أن القرآن الكريم قد نزل من عند الله بقراءات متعددة وقد ورد وفي بعضها ( ترجع الأمور ) بفتح التاء بالبناء للفاعل ، وفي قراءة أخرى : « ترجع الأمور » بضم التاء بالبناء للمفعول ، وكذلك ( ترجعون ) تأتي أيضا بضم التاء وفتحها ، وكلها - كما قلنا - قراءات من عند الله .

وعندما يقول الحق : « وإليه ترجعون » بفتح التاء فمعنى ذلك أننا نعود إليه مختارين ، لأن المؤمن يحب ويرغب أن يصل إلى الآخرة ، لأن عمله طيب في الدنيا ، فكانه يجرى ويسرع إلى الآخرة ، ومرة يقول تعالى : « وإليه ترجعون » بضم التاء وهذا ينطبق على الكافر أو العاصي . إن كلا منها يحاول ألا يذهب إلى الآخرة ، لكن المسألة ليست بلوادة ، إنه مفهومة على العودة إلى الآخرة وبذلك نجد التعبير القرآني :

﴿ يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِهِمْ دَعَا ﴾

(سورة الطور)

هناك من يدفعهم إلى النار دمعاً . وفي حياتنا - وفي الخلل الأعلى - نجد الشرطي يمسك بالمجرم من ملابسه ويدفعه إلى السجن . ذلك هو الدع . وهكذا يكون قول الحق : « وإليه ترجعون » بضم التاء وفتح الحيم ، أي أنه مدفوع بقوة قاهرة إلى النهاية . أما المؤمن الواصل فهو يهول إلى آخرته مشتاقاً لرجعه رب

وعندما تقرأ « وإلى الله ترجع الأمور » قد يقول قائل : ومتى خرجت الأمور مني حتى ترجع إليه ؟ ونقول : حين خلق الله الدنيا ، خلقها بقهر تسخيرى لنفع الإنسان ، وجعل فيها أشياء بالأسباب ، فإن فعل الإنسان السبب فإنه يأخذ السبب - بفتح الباء - المشددة ، فالشمس تشرق علينا جميعاً ، والصوت والدفع والحوارة ، هي - بأمر الله - للمؤمن والكافر معاً ، ولم يصد الله لها أمر ، أن تختص المؤمن وحده بمزاياها ، والحوار لا يمر على المؤمن وحده ، إنما يمر على المؤمن والكافر ، وكذلك الماء ، والأرض يردها الكافر فيأخذ منها الثمار ، ويردها المؤمن كذلك

إذن ففي الكون أشياء تسخيرية ، وهي التي لا ندخل فيها طاقة الإنسان ، وهناك



أشياء سبية ، فإن فعلت السببات لك اسبب ، والله قد جعل الأسباب للمؤمن والكافر . وعندما يُملك الله بعض الخلق أسباب الخلق فهو لقيوم فوق الجميع ، لكن في الآخرة ، فلا أسباب ولا مسببات ، ولذلك يكون الأمر له وحده ، اقرأوا جيدا :

﴿ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴾

( من الآية ١٦ سورة عامر )

إن في الدنيا أناسا - بإرادة الله - تملك أسبابا ، وتملك حبيدا ، وتملك سلطانا ، لأن الدنيا هي دنيا الأسباب أما في الآخرة فلا مجال لذلك لقد بدأت الدنيا بأسمائها منه ، ورجعت منه إليه ، لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ومن يعتز بالسيبة نقول له كفى أسير السبية لو كنت تستطيع . ومن يعتز بالقوة لأنها - ظاهرا - سبب للحركة ، نقول له : احتفظ بقوتك إن كنت قادرا ومن يعتز بالملك نقول له : احتفظ بالملك لو كنت تستطيع ولا أحد بقدر على أن يحتفظ بأي شيء ، فكل شيء مرده إلى الله ، وإن كان في ظاهر الأمر أن بعض الأشياء لك الآن ، وفي الآخرة لله يكون كل أمر ، ويرجع إليه كل شيء ، لقد بدأت به ، ورجعت إليه ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْسُرُونَ  
بِالْمَعْرُوفِ وَنَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ  
بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ  
خَيْرًا لَهُمْ فَمِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ  
الْفَاسِقُونَ ﴾

وتؤمنون بالله . فإن تخلف عنصر من هذه العناصر ، انحلت عنكم الخيرية ،  
والخيرية لكم بأشياء هي : أمر بالمعروف ، نهي عن المنكر ، إيمان بالله

وساعة تسمع كلمة « معروف » و« منكر » فإنك تجد أن اللفظ موضوع في المعنى  
الصحيح ، « المعروف » هو ما يتعارف الناس عليه ويتعاضدون به ، ويسر كل  
إنسان أن يعرفه الآخرون عنه . و« المنكر » هو الذي يتكره الناس وتجنبون منه ،  
فمظاهر الخير يجب كل إنسان أن يعرفها الآخرون عنه ، ومظاهر الشر يتكره كل  
إنسان .

إن مظاهر الخير محبوبة ومحمودة حتى عند المصحف ، ومظاهر المنكر مذمومة  
ومكروهة حتى عند المصحف . فاللص نفسه عندما يوجد في مجلس لا يعرفه فيه  
أحد ، ويسمع أن فلاناً قد سرق فإنه يعلن استنكاره لصعل اللص ، إنه أمر منكرو ،  
حتى وإن كان هو يفعله . وهكذا تعرف أن « المعروف » و« المنكر » يعضمان لتقدير  
العصاة . والمطهرة السليمة تأني للأمور الخيرة ، وتجهلها متعارف عليها بين الناس ،  
وتنكر الفطرة السليمة الأمور المنكرة ، حتى ممن يعملها

ويورد الله مسألة الإيمان بالله من بعد الأمر بالمعروف والنهي المنكر ، لماذا ؟ لأنه  
من الجائز أن يوجد إنسان له صفات الأريحية والإنسانية ويأمر بالمعروف وينهى عن  
المنكر ، ويصنع الخير ، ويقدم الصدقات ، ويقوم بمؤسسات رعاية للمحتاجين  
والعاجزين سواء كانت صحية أو اقتصادية ، لكنه يعمل ذلك من زاوية نفسه  
الإنسانية ، لا من زاوية منهج الله ، فيكون كل ما فعله حايطاً ولا يعترف له بشيء  
لأنه لم يفعل ذلك في إطار الإيمان بالله ، ولذلك فلا تطن أن الذي يصنع الخير دون  
إيمان بالله له أجر عند الله ، قاله البخاري من كان على الإيمان به ، وأن يكون الله في  
بال العبد ساعه بصنع الخير . فمن صنع خير من أجل الشهامة والإنسانية والجاه  
والمركز والسمعة فإنه يال حرامه عن عمل له ، ومادام قد صنع ذلك من أجل أن  
يعال عنه ذلك فقد ديل ، وهو ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله .

« إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتى به فعرفه بعنه فعرها  
فقال ما عملت فيها ؟ قال . قاتلت طيك حتى استشهدت قال : كذبت ،

ولكنك قاتلت لأن يقال جرىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب . ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فأى به معرفته نعمه فعرفها فقال : ما عملت فيها قال : تعلمت العلم وعلمته وقرأت فيك القرآن ، قال : كذبت ولكنك تعلمت العلم لي قال : عالم ، وقرأت القرآن لي قال : قارىء فقد قيل ، ثم أمر به فسحب عن وجهه حتى أتى في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله فأى به معرفته نعمه فعرفها قال : ما عملت فيها ؟ قال : ما تركت في سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها . قال : كذبت ولكنك فعلت لي قال : هو جواد ، فقد قيل ، ثم أمر فسحب عن وجهه ثم أتى في النار<sup>(١)</sup>

إنه بالجراء عمله من قول الناس ، لكن الله يجازى في الآخرة من كان الله في ناله ساعة أو عمل . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا لِّمَنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

(سورة هجرت)

إن المزمع بعمل العمل الصالح ، ويعلم أنه يفعل ذلك لأنه من المسلمين ، إنه لا يفعل الخير ، لأنه شيعى ، أو وجودى ، أو إنسانى إلخ ، فمهما صنع إنسان من الخير ، وترك الاعتراف بالله فخيانة الكفر تفسد كل عمل . لأنه جمعد وانكر خالقه وكهر به ، والذي يعمل خيرا من أجل أحد فليقل من هذا الأحد جزاء هذا العمل .

وهما في هذه الآية ، أمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، وإيمان بالله . ولكن ما الذى يجعلهم لا يؤمنون بالله وإن عملوا معروفًا ؟ إنه حرصهم على الجاه الرائف ، فلما جاء الإسلام ، ظن أهل الجاه في الديانات الأخرى أن الإسلام سيسلبهم الجاه والسلطة والمكدة والمنافع التى كانوا يحصلون عليها ، وكان من حماقة بعضهم أن يهروا الجنة على الأرض ويخاموا على المركز والجاه والمنافع ، وكان ذلك من قلة لعظة ، فالحق يقول

﴿ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرٌ لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

(من الآية ١١٠ سورة آل عمران)

فلو آمنوا لظل لهم الجاه والسلطة في ضوء الإيمان بالله ، فلا تجارة بالدين ، وكانوا سيحصلون على أجرهم مرتين ، أجر في الدنيا ، وأجر في الآخرة ، أو أجر على إيمانهم ببيهم ، وأجر آخر لإيمانهم برسول الله ، ولكن هل معنى هذا القول أن أهل الكتاب لم يؤمنوا ؟ لا ، إن بعضهم قد آمن ، فالحق سبحانه وتعالى يؤرخ لهم تاريخاً حقيقياً فيقول سبحانه : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » وكان الفاسقون أن يأتي وصف بعضهم بالإيمان ، وأن يكون غيرهم من أساء ملتهم كافرين ، لأن الإيمان يقابله الكفر ، لكن الحق يحدد المعنى المناسب لفعلهم فيقول : « وأكثرهم الفاسقون »

إنه الحق سبحانه وتعالى الذي يتكلم فيورد كل كلمة بمنتهى الدقة ، فهناك فرق بين أن تكفر وليس عندك مقدمات الإيمان وأدلة ، وأن تكفر وأنت تعرف مقدمات الإيمان كقراءة التوراة والإنجيل .

لقد قرأ أهل الكتاب التوراة والإنجيل وراوا الآيات البينات وعرفوا البشارات ، لذلك فهم عندما كفروا برسول الله ، فسفوا أيضاً مع الكفر إن الذين كفروا برسول الله من أهل الكتاب هم فاسقون حتى في كفرهم ، لأن مقتضى معرفتهم للبشارات والآيات أن يعلنوا الإيمان برسالة رسول الله ، فالواحد منهم ليس كافر عادياً ، بل هو فاسق حتى في الكفر ؛ لأنه عرف الحق ، ثم حرج وفسق عنه .

ومادم الحق قد قال : « منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » إذن ماذا يفعل المؤمن منهم مع الفاسق ؟ سيرهم انفسهم وهم الأكثرية في اليهودية والنصرانية بالأقلية المؤمنة ليوقعوا بهم لأذى والضرر ، ويقول الحق سبحانه .

﴿ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا آذَىٰ » وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ

يُؤْلُوكُمُ الْآذِبَارُ ثُمَّ لَا يَنْصُرُونَ ﴿٣١﴾



لكن الحق سبحانه يطمش هذه الأقلية من أضرب الأثرية بهم ويقول « من يصروكم إلا أدى » أى يا أيها الأقلية التي أصت من أهل الكتاب - مثل عدا الله بر سلام الذى لسلّم وترك اليهودية - يياكم أن تظنوا أن الأثرية العاسقة قادرة عل إزال العداكم ، ولحق - سبحانه - يعلى أن محاولة الأثرية لإزال الضرر بالأقلية التي أصه مهم لن يتجاوز الأذى .

ما هو الضرر ؟ وما هو لأدى ؟

إن الأذى هو الحدث الذى يؤلم ساعة وقوعه ثم ينتهى ، أما الضرر فهو أذى يؤلم وقت وقوعه ، وتكون له آثار من بعد ذلك ، فعندما يصنع الإنسان إنسانا آخر صفة بسيطة فالصفة البسيطة تؤلم ، وألمها يذهب مباشرة ، لكن إن كانت الصفة قوية وتسبب فى كدمات ونورم فهذا هو الضرر - إذن فالأذى يؤلم ساعة بإشتر العمل فهد ، وقد يكون الأذى بالكلمة كالاستهراء ، فالعاسق قد يستهري - بالأذى آمن ، فينطق بكلمة الكفر أو الفخر ، هذه الكلمة ليس لها ضرر فى ذات المؤمن ولكنها تؤذى سمعه - إن الحق سبحانه يطمش المؤمنين عل أن أهل الكفر لن يصروا المؤمنين إلا أذى ، وهذا أقصى ما فى استطاعتهم ، وليس لهذا الأذى أثر

إذن فقول الحق - « من يصروكم إلا أدى » يعى أنهم لن يستطيعوا أن يبالوا منكم أبدا اللهم إلا الاستهراء أو العمز واللمز ، أو إشارة بحركة تؤدى شعور المؤمن ، أو تمط الكفر ، وتعظمه أو ينطق كلمة عهر أو فجر لا يوافق عليها أبدين ، هنا أقصى ما يستطيعه أهل الفسق ، وهم لا يملكون الضرر لأهل الإيمان . وبعد ذلك يرى أن واقع الأمر قد سار عل هذا السؤال مع الدعوة للمحمدية ومع وجود سيدنا رسول الله صل الله عليه وسلم . لقد أطلقها الله كلمة : « لن يصروكم إلا أدى » فصارت الكلمة قانونا . فقد وقعت الوقائع بين جد رسول الله وأهل الفس ، وثبت أن أهل الفسق لم يستطيعوا ضرر أهل الإيمان إلا أذى .

ولنظر إلى ما حدث لبني قينقاع ، ولما حدث لبني قريظة ، ولما حدث لبني النضير ، ولما حدث لليهود خيبر ، هل ضرروا المؤمنين إلا أذى ؟ لقد قالوا لرسول الله صل الله عليه وسلم : لا يخربك يا همد أنك لقيت قوما أحرارا لا علم لهم بالحرب فأنصرت عليهم ، فهذا أنت حاربتنا مستعرف من الرجال . وكان ذلك هو مجرد كلام باللسان .

إن التاريخ يحمل لنا ما حدث لهم جميعا ، لقد هزمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبعد هذا أرادوا أن يرتضوا عن الأذى إلى انصر الحقيقى فلم يمكنهم الله ؛ لأن الحق يقول : « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ، ثم لا ينصرون » ، فإن أراد أهل الفسق أن يَصْنَعُوا الأذى لمؤمنين بوقوعوا خبرا حقيقيا ، فإن الكافرين يولون الأدبار أمام المؤمنين ، فهزيمتهم أمر لا مناص منه . ونحن نعرف في اللغة أن هناك ما نسميه « الشرط » وما نسميه « الجواب » ، فـ « إن » حرف شرط تجزم فعل الشرط وجوابه فإن كان الفعل من الأفعال الخمسة فإننا نحذف النون . ولذلك نجد القول الحق . « وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار » .

إن « يقاتلوكم » فعل شرط محذوف منه النون . و « يولوكم الأدبار » أصلها يولونكم الأدبار . وهى جواب شرط حذف منه النون ، وعندما يأتي العطف بعد ذلك ، فهل يكون بالرفع أو بالجرم ؟ إن العادة أن يكون العطف بالجرم ! لكن الحق يعطف بالرفع فبأنى قوله : « ثم لا ينصرون » . إنها كسرة إعرابية تجعل الدهن العربى يلتصق إلى أن هناك أمرا جللا ، لأن المتكلم هو الله سبحانه . كيف جاءت « النون » ؟

هنا نقف وقفة فلتطرق الآية ككلام البشر : إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون . وهذا القول يكون تاريخيا لمحنة واحدة ، لكن ما الذى سوف يحدث من بعد ذلك ؟ ماذا يحدث عندما يقاتل المؤمنون أهل الكفر والعسق ؟ وتكون الإجابة هى : « ثم لا ينصرون » إن هذا القول الحكيم يحمل قضية بعيدة ص الشرط والجزاء ، إنها حكم من الله على أهل لعسق بأنهم لا ينصرون أبدا سواء أقاتلوا أم لم يقاتلوا إنها قضية ثابتة منفصلة ، وليست معطوفة على الشرط ، فمنة عدم النصر ، ليست القتال ، ولكنها الكفر .

وإذا دقت الفهم في العبارة حروفا - بعد أن دققنا فيها الفهم جلا - لوجدنا معنى جديدا ، فقد يظن إنسان أن القول كان يفترض أن يثنى على نحو معايير ، هو « يولوكم الأدبار فلا ينصرون » لأن الذى يأتى بعد الـ « فاء » يعطى أنهم لا ينتصرون عليكم في بداية عهدكم ، وهذا ما تفيدته الفاء لأنها للترتيب والتعقيب . لكن الحق أورد حرف « ثم » وهو عهد التراخي ، وهذا يعنى أنهم لا ينتصرون عليكم أبدا

المؤمنون حتى لو استمدوا بعد فترة لمعركة يَرُدُّونَ بها على توليهم الأديار . إنه حكم تأييدي ، لأن « ثم » تأتي لتحقيق مع التراخي ، والعاء تأتي للتعقيب المباشر بدون تراخ . ولذلك فعندما قرأ القرآن نجد وضع الفاء كالآتي :

﴿ ثُمَّ آمَنَّا وَفَأَقْبَرَهُمْ ﴾ (٦١)

(سورة ص)

لأن دخول القبر يكون بعد الموت مباشرة ، وبعدها يقول الحق .

﴿ ثُمَّ إِنَّا شَاءَ أَنْشُرَهُمْ ﴾ (٦٢)

(سورة ص)

إذا كان هناك تعقيب بعد مدة زمنية فالحق يأتي بـ « ثم » ، وإذا كان هناك تعقيب فوري بلا مدة يأتي الحق بـ « ف » . والتعقيب في الآية التي تناولها يأتي بعد « ثم » ، وكأن هذا حكم مستمر من الحق بأن أهل العسق لن ينتصروا على أهل الإيمان ، ولو بعد انتهاء المعركة القادمة الآن بينهم ، إنها هزيمة يحكم نهاى ، هذا هو القول المصلي « ثم لا يُنصرون » وهو أشد وقعا عما لو جاء « لا ينتصرون » لماذا ؟ لأن من الممكن ألا ينتصر أهل الكفر بذواتهم ، ولكن الإيضاح يؤكد أنهم - أهل الكفر - لا ينتصرون لا بذواتهم ، ولا يُنصرون بغيرهم أيضا

إن « ثم لا ينصرون » قضية دائمة فليست المسألة مقصورة على عهد رسول الله فقط ، ولكنها مستظل إلى أبد الأبدين .

ومن اسطحية في الفهم أن نقول : إن الآية كانت تتطلب أن يكون القول « ثم لا ينصرون » لأن الاعراب يقتضى ذلك . لكن المعنى اللائق بالكلم وهو الحق سبحانه وتعالى الذى يعطى الصان والاعطى لئلا الأمة المسلمة أمام خصومها لا بد أن يقول : « ثم لا ينصرون » وهى أكثر دقة حتى من « لا ينصرون » لأن « ينصرون » فيها تدخله الأسباب منهم ، أما « ثم لا ينصرون » فهى تعنى أن لا نصرهم أبداً ، حتى وإن تعصب لأهل العسق قوم غيرهم وحاولوا أن ينصروهم فلن يستطيعوا ذلك .

فإن رأيتم - أيها المسلمون - نصرا للكافرين عليكم منهم أو يتعصب قوم لهم

ما علمو أنكم دخلتم معهم على غير منج الله . وقد يأتي إنسان ويقول . كيف ينتصر علينا اليهود ونحن مسلمون ؟ ونقول : هل نحن نتع الآن مسيح وروح الإسلام ؟ وماذا عندنا من الإسلام ومن الإيمان ؟ هل نحسب نفسك على ربك أثناء هزيمتك ؟ وهل دخلت معركتك كمعركة إسلامية ؟

لا ، لقد انتبهنا إلى كل شيء إلا الإسلام . قدمنا الانتباه لعصبية وقومية وعرقية على لإيمان فكيف نطلب نصرا من الله ؟ لا يحق لنا أن نطلب نصرة الله إلا إذا دخلنا المعركة ونحن من جند الله . والحزبية تحدث عندما لا نكون جنوداً لله ، لأن الله صمم النصر والغلبة لجنوده فقال :

﴿ وَإِنْ حُتِدْنَا لَهُمُ الْغَلِيُونَ ﴾

( سورة العنكبوت )

إذا لم يغيب فتأكدوا أننا لسنا من جنود الله . . . ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثَقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبَغَضٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ يَتَّخِذُ اللَّهُ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾

ونحن نستخدم كلمة « ضرب » في القود ، عندما نقول . ضرب هذا الحبيب في مصر ، ومعنى ذلك أن الصانع يقوم بصنع قالب من مادة أكثر صلابة ، من المادة التي يصنع منها النقد ويرسم فيها الحفريات التي تبرز الكتابة والصورة على وجهي الجنيه ،



ثم يصب المدة في ذلك القالب ، وتخضع للقالب تبرز الكتابة والصورة ، ولا تتأخر  
المادة على القالب . كأن : ضرب ، معناها : ألزم ، بالناء للمجهول فيها ، وكان  
المادة المصنوعة تلزم قالب الذي تصب فيه ولا تتأخر عليه ولا يمكن أن تتشكل إلا  
به .

إذن فالضرب معناه الإلزام والقسر على الفعل . وعندما يقول الحق : « ضربت  
عليهم الدلة » أي لزمتهم الدلة لا يستطيعون الانفكاك عنها أبدا ، كما لا يستطيع  
المعدن المصروب نقلها أن ينفك عن القالب الذي صب عليه ، وكان الدلة قبة  
ضربت عليهم ، وقالب لهم ، ويقول الحق : « أينما نفقوا » تفيد أنهم أذلاء أينما  
وجدوا في أي مكان . ولكن هناك استثناء للدلت ، ما هو ؟

إذ يقول الحق : « إلا بحبل من الله وحبل من الناس » إنهم لا يعدون من الدلة في  
حالة وجود عهد من الله أو عهد من أناس أقرباء أن يقدموا لهم الحماية . فلما كانوا في  
عهد الله أولا وعهد رسوله ساعة دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة  
وأعطاهم العهد ، فكانوا آمين ، وبنا خانوا العهد ، ولم يؤفوا به ، ماذا حدث ؟  
ضرب عليهم الدلة مرة أخرى .

إذن لقد كانوا في عهد الله آمين لكنهم خانوا العهد ، وانقطع حبل الله عنهم ،  
بهيجوا الهبة التي عربتها ونزل بهم ما نزل ، وهو ما حدث لبني قينقاع ولبنى  
النضير وبني فريظة ويهود خيبر .

إذن فهم قبل ذلك كانوا في عهد مع الله وأنتم تعلمون أن رسول الله صلى  
الله عليه وسلم أول ما نزل المدينة هي المسجد وعقد العهد بين وبين اليهود وهاشوا في  
أطلسان إلى أن خانوا العهد ، فضربت عليهم الدلة وحُردوا من المدينة ، كما يقول  
الحق : « ضربت عليهم الدلة أينما نفقوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس »

لقد أخذوا العهد من الله من خلال من له اولاية على الناس ، فالرسول في عهده  
كان قائما على أمر المسلمين ، وكذلك يكون الأمر معهم في ظل القائمين على أمر  
الإسلام ، ويحدث هذا عندما تسير الأمور بمنهج الإسلام .

أما عن حبيل الناس هلكت لأهم لا يملكون أى عرة داتيه ، إهم داتيا فى دلة إلا أن يبتغوا العزة من جانب عهد وحبل من الله ، أو من جانب حماية من الناس . ونحن نراهم على هذا الحال فى حياتنا المعاصرة ، لا بد لهم من العيش فى كتب أحد ، لذلك فعندما حاربنا إسرائيل فى حرب أكتوبر ، انتصرنا عليهم إلى أن تسحلت أمريكا بتقنياتها العسكرية . فقال رئيس الدولة المصري : « لا تجلّدنى أن أحارب أمريكا »

إذن لو كانت الحرب بينا وبينهم فقط لانتهت قوتهم ، فهم بلا عرة ذاتية ، وتكون هم عرة لو كانوا فى جانب حبيل من الله ، أو حبيل من الناس . يقول الحق سبحانه عنهم من بعد ذلك : « وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة » ولما أن يلاحظ أن الدلة لها استثناء ، هم يألون العرة لو كانوا بجانب حبيل من الله أو حبيل من الناس ، أما المسكنة ، فلا استثناء فيها ، وقد قال الحق عنهم فى موضع آخر فى القرآن الكريم :

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾

( من الآية ٦١ سورة البقرة )

لأن المسكنة أمر داق فى النفس ، إهم مساكين بأمر من الله ، أما الدلة فقد بأتى لهم من ينصرهم ويقف بجانبهم ، فالدلة أمر من خارج ، أما المسكنة فهي فى ذاتهم ، وعندما تكون المسكنة ذاتية ، فلا إنقاذ لهم منها ، لأنه لا حل من الله بأنهم فينجيهم منها ، ولا حل من الناس ينصمهم من أثرتها . ويقول الحق : « وباءوا بغضب من الله » وهل رأى أحد منا غضبا أكبر من أن الحق قد قطعهم فى الأرض ؟ ولنقرأ قول الله :

﴿ وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ آمَمًا ﴾

( من الآية ١٦٨ سورة الأعراف )

المكان الوحيد الذى آواهم فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الجزيرة العربية فى يثرب ، واستقروا قليلا ، وصارت لهم سيادة علمية ، لأهم أهل كتاب ، وصارت لهم سيادة اقتصادية ، وكذلك سيادة حرية ، وهذا المكان الذى آواهم من الشتات فى الأرض هو المكان نفسه الذى عمردوا عليه . لقد كان السبب الذى من أجله قد جاءوا إلى يثرب هو ما كانوا يمدونه مكتوبيا صلهم فى التوراة ، وفى التوراة

جاء ما يفيد أن نبياً سيأتى فى هذا المكان ولا بد أن يتبعوه كالميثاق الذى قلنا عليه من قبل .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الْبَنِي إِسْرَءِيلَ نَمَاءً أَنبِئُكُمْ بِرَبِّكُمْ وَحِكْمَةً ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ ﴾

(سورة آل عمران)

وهذا الميثاق يقضى بأن يتولى الرسل بلاغ الأمم التى يُبعثوا إليها ، وأن يُبلغ أهل الإيمان القادمين من بعدهم بأن هناك رسولا قدما من عند الله بالمصحح الكامل . واليهود - لم يأتوا إلى يثرب إلا حل أمل أن يتلقفوا السبي المستظر ليؤمنوا به ، ومن بعد ذلك يكونون حرب على الكافرين بالله ، لكن ما الذى حدث ؟ إنه سبحانه يخبرنا بما حدث منهم فى قوله :

﴿ فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾

( من الآية ٨٩ سورة البقرة )

فإذا بعد أن بادوا بغضب من الله . وبعد أن خنم الله قلوبهم بالمسكة ؟ وما السبب ؟ تكون الإجابة من الحق سبحانه : « فلما بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق » لقد أرسل الله لهم آيات عجيبة ولكنهم كفروا بها ، تلك الآيات التى جاهدنا ذكر منها فى قوله الحق :

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَاتَّخَذْنَا قُلُوبَكُمْ كُفْرًا مِن مَّكِينٍ مَا رَرَقْتُمْ ﴾

( من الآية ٥٧ سورة البقرة )

كثير من الآيات أرسلها الحق لبنى إسرائيل ، منها ما جاء فى قوله الحق

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْتُكُمْ بِقُوَّةٍ وَادْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ولكنهم تركوا عن الإيمان وأمامهم ضرب موسى عليه السلام الحجر بالعصا  
فانفجرت منه عيون المياه ليشربوا .

﴿ وَإِذَا أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُسْنَا أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَ  
عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ ﴾

( من الآية ٦٠ سورة البقرة )

ويرسم ذلك فقد قاموا بقتل الأنبياء بغير حق . وادعوا الكذب على أنبيائهم  
وقتلوهم ، وفي شأنهم يقول الحق . « ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » كان اعصيان  
سبباً لأن تضرب عليهم الدلة ، وأن يومروا بغضب من الله ، وأن تضرب عليهم  
المسكنة ، وكل ذلك ناشئ من فعلهم . وهناك فرق بين أن يذاهم الله بفعل ، وبين  
أن يعاقبهم الله على فعل ، وحتى نفهم ذلك فلنقرأ قوله الحق .

﴿ فَيُظْلَمُ مَنْ أَلْزَمَ حَدْرًا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِيبٌ أُحِيطَ لَهُمْ وَصِيَّتُهُمْ مِنْ سَبِيلِ  
اللَّهِ كَثِيرًا ۝ ١١٧ ﴾

( سورة النساء )

لقد حرم الله عليهم الطيبات بظلم منهم لأنفسهم ، لأن معنى تحريم الطيبات أن  
الله حرمهم متعة في طيب ، وذلك لأنهم استحلوا متعة في غير طيب ، لأن مرادات  
الشارع تأتي على عكس مرادات الخارجين عن أمر الشارع وكما قلنا من قبل : إن  
الحق سبحانه وتعالى يؤرجح للحق وللواقع ولا يشلهم كلهم بحديث يجمعهم جميعاً ،  
مقد كان منهم أمانس تراودهم فكرة الإيمان بالرسول ، وفكرة الإيمان بالقرآن ، ومنهم  
من من فعلاً ؛ لذلك كان من عدل الله أن يفصل بين الذين همكروا في الإيمان  
واصرسوا على الكفر لذلك يقول سبحانه :

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً ۚ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَمَلَّوْنَ  
أَيَّاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ الْيَلِّ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝ ١١٢ ﴾

وهذا ما حدث بالفعل ، لكن أي آيات الله كانوا يتلون ؟ إنها الآيات المهمة ، آيات القرآن ولماذا يقول الحق : « وهم يسجدون » وهل هناك قراءة لقرآن ساعة السجود ؟ حتى يعرف تفسير ذلك لابد لك أن تعرف أن اليهود لا يصلون العتمة ، أي الصلاة في الليل ، وحتى يعطوهم الله السمة الإسلامية قال عنهم : « يسجدون » ويُخَرِّفُهُمْ بأنهم يقيمون صلاة العتمة ، - العشاء - وهي صلاة المسلمين ، وما داموا يصلون صلوات المسلمين ويسجدون ، إذن فهم مسلمون أو تبعهم من قوله : « وهم يسجدون » أن الصلاة عنوان الخضوع ، والسجود أقوى سمات الخضوع في الصلاة . وما داموا يصلون فلا بد أنهم يتلون آيات الله أمام الليل وهم يؤدون الصلاة بخشوع كامل . ونعرف أن من حسن العبادة في الإسلام ، ومن السر المعروفة قراءة القرآن ليلاً ، وصلاة التهجد ، وهذه في مدارج العملية الإيمانية التي يدخل بها الإنسان إلى مقام الإحسان .

و « آناه » جمع « إلى » مثلها مثل « أعماء » جمع « يبعي » . و « آناه » هي مجموع الأوقات في الليل ، ويست في « إلى » واحد . فهناك مؤمن يقرأ القرآن في وقت من الليل ، ومؤمن آخر يقرأ القرآن في وقت آخر ، وكان المؤمن يقطع الليل في قراءة القرآن ، والذي يدخل مع ربه في مقام الإحسان ، فهو لا يصل فقط صلاة العتمة وهي ستأخذ « إلى » واحداً ، أي وقتاً واحداً ، ولكنه حينما يصل في ناء الليل فذلك دليل على أنه يكرر الصلاة ، وراى من المحرص عليه ، وما دام قد راد عن المحرص ، فهو لا يكتفى بتلاوة القرآن لأنه يريد أن يدخل في مقام الإحسان ، أي أنه وجد ربه أهلاً لأن يصل له أكثر مما افترض عليه ، كأنه قد قال لنفسه : أنت كلمني بأرب بخمس صلوات لكلك يارب تستحق أكثر من ذلك . وكان هذا البعض من أهل الكتاب لم يكتفوا بإعلان الإيمان بالإسلام فقط ، ولكنهم دخلوا بقلوبهم ، فصلوا آناه الليل . وأحرى أن ينطبق عليهم قول الله تعالى :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۚ (٥٥) فِيهَا جَدِيدٌ مَّا ءَاتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا أَقْبَلُ  
ذَلِكَ تَحْسِينً ۚ ﴿٥٦﴾ ﴾

(سورة الذاريات)

ما معنى « تحسن » ؟ إنها وصف للإنسان الذي أس بره عند الله وأكثر مما افترض

نعبدنا الله بحمى صلوات يريدنا لنصل إلى عشرين مثلاً ، ونحن نعبدنا الله بصيام شهر في العام ومنا من يصوم في كل شهر عدداً من الأيام  
العام ومنا من يصوم في كل شهر عدداً من الأيام

وتعبدنا بالزكاة بالنصاب ، ومنا من يريد على النصاب ، وتعبدنا سبحانه بالحج مرة ، ومنا من يريد عدد مرات الحج . فحين يريد العدد أن يدخل في مقام الإحسان فبأنه هو أداء عبادات من جسد ما تعبد به ، فالصلاة لا يترجأ أو يقترح العبادة التي يعبدها الله ، ولكنه يزيد فيها احترامه الله . وهؤلاء الذين آمنوا بالله من أهل الكتاب ويتحدث عنهم القرآن ، لقد دخلوا بتقديهم في الإسلام فصلوا أبناء الليل ومرروا بقرآن ، ودخلوا مقام الإحسان ، وأرادوا أن يطبقوا القول الحق .

﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ (١٦)

( سورة النحل )

أي أنهم ماداموا قد صلوا في الليل ، وقليلاً ما هجموا فلا بد أنهم قد أدوا الصلاة في أناة كثيرة من الليل . ونحن حين ندخل في مقام الإحسان ونصلي في الليل ، ويكون بارزين إلى السماء فلا يفصلنا شيء عنها فننظر محدنجوما لامعة تحت السماء الدنيا ، وأهل السماء ينظرون للأرض فيحدثون مشاهيد من السجرات الثلاثة اللامعة في الأرض ، وسألون عنها فيقال لهم : إنها ثبوت التي يصل أهلها أناة الليل وهم يسعدون ، وكل بيت فيه هذا يصير كالسجرات لأهل السماء ويصير الحق في صفات هؤلاء . وبالأشجار هم يستمعرون ، وهل فرض الله على حنيفة بأن يصلوا أناة الليل فلا يهجمون إلا قليلاً من الليل ؟ لا ، ولكن من يريد أن يدخل في مقام الإحسان ، فهو يعمل ذلك . أما المسلم العادي فيكتم بصلاة العشاء ، وعندما يأتي الصبح فهو يزدى العزيمة لكن من يدخل في مقام الإحسان فقليلاً من الليل ما يهجم . وينطبق عليه القول الحق :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (١٧) ﴿ إِذْ يُدْعَوْنَ إِلَى مَاءٍ أَتَتْهُمْ بِهِمْ لَوْ لَمْ يَكُنُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُتَمِيزِينَ ﴾ (١٨) ﴿ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴾ (١٩) ﴿ وَإِلَّا لَأَفْتَرُفَهُمْ يَنْتَفِعِرُونَ ﴾ (٢٠) ﴿ وَإِنَّ مَوَافِقَهُمْ حَقٌّ لِلَّسَّائِلِ وَالْمَعْرُومِ ﴾ (٢١)

( سورة النحل )

وهذه دقة البيان المراد التي توصلح مقام الإحسان ، فيكون في ما لهم حق للسائل والمحروم ، وليس هناك قدر معلوم لليال الذي يخرج ، لأن المقام هنا مقام الإحسان الذي يعلو مقام الإيمان ، ومقام الإيمان - كما يعرف - قد جاء ذكره في قوله الحق .

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِحَقِّ مُّغْلُومٍ ۖ لَّا سَبِيلَ ۖ وَالْمَحْرُومِ ۖ وَالَّذِينَ يُصَلُّونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۖ ﴾

( سورة الماعز )

فالإنسان في مقام الإيمان قد يقيد الإحراج من ماله بحدود الزكاة أو موقها قليلا ، لكن في مقام الإحسان فلا حدود لما يخرج من المال ، ومكدا يعرف أن أهل الكتاب ليسوا سواء ؛ فمعهم من دخل الإسلام من باب الإحسان ، فقل فيهم الحق .  
« ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » ، وكأن الحق بهذا الاستثناء الواضح . يؤكد لنا أنت لا يصح أن نظن أن أهل الكتاب جميعهم هم الذين جاء فيهم قوله : « ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبياء بغير حق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » لا ، فأهل الكتاب ليسوا سواء ، ولذلك لا يكون حكم الله مسحبا عليهم جميع ، فمن أهل الكتاب جماعة قائمة بتلاوة القرآن آناء الليل وهم يسجدون ، لهم أمة قائمة ، وكلمة قائم ، هي ضد « قاعد » ، والقعود غير الجلوس ، فالجلوس يكون عن الاصططجاع يقال : كان مصططجا فجلس .

لكن عندما يقول : « كان قائما » فإسا يقول فقعد ، والقعود يكون بعد القيام . والقعود في الصلاة مريح ، أما القيام فهو غير مريح ، ونحن نعرف أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يقف في الصلاة حتى تورم قدماه ؛ لأن الثقل كله على لتقديم ، ولكن عندما بعد فحس تورع الثقل على جملة أعضاء الجسم . وعندما يصفهم الحق : « من أهل الكتاب أمة قائمة » فمعنى ذلك أنهم أخذوا أمانة أداء لقروض بكل إحلاص ، وكانوا يؤدّون الصلاة باسدامة وخشوع . ويستمر الحق في وصفهم في الآية التالية .

﴿ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ

## بِالْمَعْرُوفِ وَيَسْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾

وهم بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وبالأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، إنما يتصفون بالصفات التي أوردتها الله صفة لخير أمة أخرجت للناس وهي أمة محمد صلى الله عليه وسلم . لقد دخل هذا البعض من أهل الكتاب بقلوبهم - ومن أول الأمر - في مقام الإحسان ، وماداموا قد دخلوا في مقام الإحسان بهم بحق كانوا مستشعرين لظهور النبي الجديد . وبمجرد أن جاء النبي الجديد تلقفوا الحيط وتمسكوا برسائله ، وصاروا من خير أمة أخرجت للناس . ويكمل الحق سبحانه صفاتهم بقوله : « ويسارعون في الخيرات » وهذا كمثل قوله سبحانه وتعالى في حق المؤمنين :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَعَلَ عَرْشَهَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِعْدَتْ ﴾  
لِلْمُنْتَقِبِينَ ﴿١١٤﴾

(سورة آل عمران)

وحيث نعرف أن هناك فرقاً بين « السرعة » و « العجلة » و « السرعة » و « العجلة » و « السرعة » و « العجلة » يلتقيان في تقليل الزمن بالنسبة للحدث ، ومثال ذلك أن يقطع إنسان مسافة من مكان إلى مكان في زمن معين ، والذي يسرع في قطع المسافة هو الذي يسفرق من الزمن أقل وقت ممكن ولكن هناك اختلاف بين السرعة والعجلة ، وأول خلاص بينهما يتضح في المقابل ، فمقابل السرعة الإبطاء ، ويقال : فلان أسرع ، وفلان أبطأ . ومقابل العجلة هو « الأناة » فيقال : فلان تأني في اتخاذ قراره ، فأسرع ممدوحة ومقابلها وهو « الإبطاء » مذموم ، و « العجلة » مدمومة ، ومقابلها وهو « التأني » ممدوح ، لأن السرعة هي التقدم فيما ينبغي التقدم فيه ، والعجلة هي التقدم فيما لا ينبغي التقدم فيه ، ولذلك قيل في الأمثال : « في العجلة الندامة ، وفي التأني السلامة » وقال الحق :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

(من الآية ١٢٣ سورة آل عمران)



وهو سبحانه هنا يقول « ويسارعون في الخيرات » أى كلها لمحت لهم بارقة في الخير فهم يسرعون إليها ، أى أنهم يتقدمون فيها بنهني التقدم فيه ، إنهم يعلمون أن الإسراع إلى الخير حدث ، وكل حدث يقتضى حركة ، والحركة تقتضى متحركاً ، والمتحرك يقتضى حياة ، فما الذى يضمن للإنسان أن تظل له حياة ، لذلك يجب أن تسرع إلى الخيرات ، وسيدنا عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه وأرضاه كان يتنام القبلولة ، وكان حاضبه يمنح الناس من يقاط الخليفة ، فعما أس عمر بن عبدالعزيز وقال للحاجب .

أريد أن ادخل على أمير المؤمنين الساعة ، فمعه الحاجب قائلاً . إنها ساعة يستريح فيها وهو لا يستريح من الليل أو النهار إلا فيها ، فدعه يستريح وسمع سيدنا عمر بن عبدالعزيز الصبغة ، فسأل الحاجب . قال الحاجب : إنه ابنك ، ويريد أن يدخل عليك وأنا أطالبه ألا يدخل حتى تستريح قال عمر بن عبدالعزيز للحاجب . دعه يدخل . فلما دخل الأس على أبيه ، قال الابن : يا أبى بلعنى أنك ستخرج ضيعه كذا لتفعلها في سبيل الله . قال عمر بن عبدالعزيز : أفعل إن شاء الله . عدا بدمها . قال الابن متسائلاً هل يفيك الله إلى غد ؟ فقال عمر بن عبدالعزيز وهو يبكى : الحمد لله الذى جعل من أولادى من يعبى على الخير .

لقد أراد الابن من أبيه أن يسارع إلى الخير ، فبادمت هبة الخير قد هبت عليه من الإنسان أن يأخذ بها ، لأن الإنسان لا يدري أخبار الأحداث في نفسه ، لذلك فعليه أن يسارع إلى اقتصاص هبة الخير ، وما هو ذا ابن عمر بن عبدالعزيز يعين والده على الخير ، لكسب في زماننا قد نجد من الأبناء من يطلب الحنجر على أبيه إن فكر الأب في فعل الخير ، مما سبق قول الحق « ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين » .

وهنا يبرز سؤال هو : لأى عمل هم صاخون ؟

والإجابة تقتضى قليلاً من التأمل . نتقول في حياتنا : « إن فلاناً رجل صالح » ومقابلته « رجل طالح » والإنسان صالح للخلافة ، فقد جعل الله آدم وخرته حباء في الأرض ، والرجل الصالح يرى الشيء الصالح في ذاته فيترك هذا الشيء على ما هو عليه أو يزيده صلاحاً أما الرجل الطالح أو المفسد فهو يأتى إلى الشيء الصالح ففسده ، ولا يفعل صلاحاً .

إن الرجل - على سبيل المثال - قد يجد بشرا يأخذ منه الناس الماء ، فإن لم يكن من أهل المزم فإنه يتركه على حاله . وإن كان طالفا فقد يردم البئر بالتراب . أما إن كان الرجل من أهل الصلاح والمزم فهو يحاول أن يبدع في حيلة الناس التي تستقى من البئر ، فيعكر ليقي حزنا عاليا ويسحب الماء من البئر بآلة رافعة ، ويخرج من الخزان أنابيب ويمدها إلى البيوت ، فيأخذ الناس المياه وهم في المنازل ، إن هذا الرجل قد استخدم فكره في زيادة صلاح البئر

إذن فكلمة « رجل صالح » تعني أنه صالح لأن يكون خليفة في الأرض وصالح لاستثمار الأرض أي أن يجعلها عامرة ، فيترك الصالح في ذاته ، أو يزيد صلاحها ، ويحاول أن يصلح أي أمر غير صالح . إن الرجل الصالح عندما يعمل فهو يحاول أن يجعل عمله عن عتق عدم ، فلا يقدم على العمل الذي يعطى سطحية تفع ثم يكب الضرر من بعد ذلك .

ومثال ذلك حين أحرعوا الميذبات الحشرية ظنوا أنهم تغلبوا على الآفات في الزراعة ، لكنهم لم يعرفوا أنهم قد أصروا بالزراعة وبالبينة أكثر مما أفادوا ، لذلك حادوا يقولون : لا نستعملوا هذه الميذبات ، لأنها ذات أضرار جمة ؟ ولهذا لابد أن يكون كل عمل قائما على قواعد علمية سليمة ، ولنقرأ قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَقْعُ مَلَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنْ أَسْمَعُ وَالصَّهْرُ وَالْعَزَاجُ كُلُّ أُولَئِكَ كَانُوا مِنْكُمْ ﴾

نُفُورًا ﴿١٠﴾

(سورة الإسراء)

وقوله سبحانه

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٦﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾

وَهُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ بِحَسَنَاتِهِمْ ﴿١٧﴾

(سورة الكهف)

إذن فقد أكرم الله من آمن من أهل الكتاب فوصفهم بالحنيف الحقيقي ، فهم يتلون آيات الله أثناء الليل وهم يسجدون ، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويأمرون بالمعروف ويمنون عن المنكر ، ويسارعون في الخيرات ، ثم يحكم الحق عليهم حكما عاما بأنهم من الصالحين لعمارة الكون والخلافة في الأرض .

ومن بعد ذلك خصيه الحق

وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا ۖ وَاللَّهُ  
عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

إليه سبحانه يعطيهما الجزاء العادل ، وإن شيئا لا يضيع عنده وهو الحق ، فالحقير الذي يعملونه لئلا يُجحد هم أو يُستر عن الناس ، لأنه سبحانه عليم بالمتقين ، فمن الجائز أن يصح إنسان الأعمال ولا يراها أحد ، أما الحق فهو يرى كل عمل ، وهو الذي يملك حسن الجوار . وبعد ذلك يعود الحق لبيان حال الذين كفروا فيقول .

﴿۱۳۳﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا  
أَوْلَادُهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ  
فِيهَا خَالِدُونَ ﴿۱۳۴﴾

يظن الكافرون أن الأموال والأولاد قد تعين من الله ، إنهم لا يحسنون العدير ،  
فالأموال والأولاد هما من مظاهر العتته مصداقا لقوله تعالى :

﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (٢٨)

(مسيرة الأتفاق)

ومادامت الأموال والأولاد فئة فلا بد أن يفهم الأمر على حقيقته ، فالفتنة ليست  
مذمومة في ذاتها ، لأن معناها اختبار وامتحان ، وقد يمر الإنسان بالفتنة ، وينجح .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَرَبُّكُمُ الْحَقُّ فَإِذَا دُعِيَ النَّاسُ لَهَا فَعَادَوْا وَانْتَحَذُوا فَذَلِكَ نَجْوَ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ شَكِّهَا شَكَّيْتُمْ وَلَئِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا لَآتِيَكُمْ بِهِ نَبَأٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ ﴾

إن كل امرئ له يوم للقيامة شأن يليه من الآخرين ، والكافرون في الدنيا مشغولون بأموالهم وأولادهم وعندما تأمل قوله : « ليس الغنى عنهم » نجد أننا نقول : أغناهم عن كذا أى جعله فى استغناء نفس هو الغنى إذن ؟ الغنى هو من تكون له ذاتية غير محتاجة إلى غيره ، فإن كان جاعاً فهو لا يأكل من يد المير ، والى صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس الغنى عن كثرة المرض ، ولكن الغنى غنى النفس » (١)

(١) رواه أحمد في المسند، والبخاري، ومسلم، والترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة

ويقول الحق سبحانه عن هذا المعتبر بطلان والأولاد وهو كافر باقه . « وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » وهذا مصير يتيق من يقع في خديعة نفسه بالملك أو الأولاد . وكيف يكون الإنسان صاحباً للنار ؟ لنعرف أولاً معنى كلمة « صاحب » ، إن صاحب هو الملازم ؛ فنحن نقول : فلان صاحب فلان أي ملازمه ، يكن من أين تبدأ الصحبة ؟ إن الذي يبدأ الصحبة هو « فلان » الأول ، ثم فلان الثاني « الذي يقبل الصحبة أو يرضى بها » وهذا أمر قد نعرفه وقد لا نعرفه ، وعن الصحبة مع النار نرى أن الإنسان يلوم نفسه ويؤنبها على أنه اختار النار وصاحبها .

السنا نرى في الحياة إنساناً قد ارتكب دنيا وأصابه ضرر ، فيضرب نفسه ويقول . أنا الذي استعمل ما نزل بي واستحقته ، وكذلك الإنسان الكافر يجد نفسه يوم القيامة ، وهو يدخل النار ، ويقول لنفسه : أنا استحق ما فعلته بنفسي ، ونقول النار لحظتها رداً على سؤال الحق له :

﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِلْجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴾

(سورة ق)

ول الأخرة ترى أبعاص الإنسان الكافر وهي تيمض صاحبها ، فإذا كان للإنسان ولاية على أبعاضه في الدنيا ، وهي خاضعة لإرادته إلا أن هذه الأبعاض تأق يوم القيامة وصاحبها خاصص لإرادتها . إن الظلم يقول ليده في الدنيا ، « اصبري فلانا وشددى لصفتة » فلم تعصه يده في الدنيا ؛ لأن الله خلقها خاضعة لإرادته ، والظلم لنفسه بالكفر يأمر لسانه أن ينطق كلمة الكفر ، فلا يعصاه اللسان في الدنيا ، لماذا ؟ لأن أبعاضه خاضعة لإرادته في الحياة الدنيا ، لكن ذلك الكافر يأت يوم القيامة وتنزول عنه إرادته ، فتحرر أبعاضه ، ولا تكون مرغمة على أن تفعل الأفعال التي لا ترضيها ، وتتبرد الأبعاض على صاحبها ، وتشهد عليه . قد يقول قائل : ولكن الأبعاض هي التي تتعذب . نعم ، ولكنها تفعل العذاب تكفيراً عما فعلت .

إذن فالصحبة تبدأ من الأبعاض للنار « أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » فإن رأينا كفاراً يعملون خيراً في الدنيا فليحذر كل ما نفسه قاتلاً : إليك يا نفس أن

تجدهم بذلك الخير ماذا ؟ لأن الكافر يعيش كفر القمعة ، وكل عمل مع كفر القمعة هو عمل حائط عبدالله ، وإن كان غير حائط عند الناس وبعد ذلك يقول الحق عن هؤلاء الكافرين :

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ  
رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ طَلَعُوا أَنْفُسَهُمْ  
فَآهَلَكَهُمْ وَمَا تَحِلُّهُمْ إِلَّا اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ  
يَظْلِمُونَ ﴾ (١٧)

إن الحق يصف ما ينفقه هؤلاء الكافرون في أثناء الحياة الدنيا وهم بعيدون عن مسج الله إنه - سبحانه - يشبهه بريح فيها صر ، أي شدة ، قيادة ، البصاة والراء ، تدل على الشدة والضجة والصخب ، ومثال ذلك ما قاله الحق عن امرأة إبراهيم :

﴿ فَأَنْبَلَتْ أَمْرًا فِي سَرَّةٍ فَصَعَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴾ (١٨)

( سورة الذريات )

إنها أنت وجاءت بصحيح ، لأن عجز وعقيم ويستحيل عادة أن تلد ومثل قوله الحق .

﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأَهْلَكُوهَا رِيحٌ صَرْصَرٌ عَائِيَةٌ ﴾ (١٩)

( سورة الحاقة )

والريح الصرصر هي التي تحمل الصميع وما صوت مسموع .

رأولته الحق : « كمثل ريح فيها صر » أي أن الريح جعلت البرد شائعا وشليدا ، فالبرد قد يكون في مطلقه لا ريح فيها ، ويظل باقيا في مطلقته تلك ، وعندما تأتي

الرياح فلما ننقل هذا البرد من مكان إلى مكان آخر ، فتتسع دائرة الضرر به . ولماذا تفعل الرياح التي فيها شدة برد ؟ إنها تفعل الكوارث ، ويقول عنها الحق : « أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته » وساعة نسمع كلمة « حرث » فبص معرفة أنه لزروع ، وقد سماه الله حرثاً ، ليعرف الإنسان إنه إن لم يحرق فلن يجصد ، يقول الحق :

﴿ مَرَّةً بَرَّكُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿١٦﴾ أَأَنْتُمْ تَرْعَوْنَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿١٧﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَبًا فَهَلَكْتُمْ تَفْسِكُمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾

( سورة الواقعة )

كان الريح العارمة تفسد الحرث ، وهو العملية اللازمة للإنسان ، فالحرث إثارة للأرض ، أى جعل الأرض هشة لتنمو فيها الخذور لسهولة ، ويقوى على إحراقها ، وأحد الغذاء بها ، وهذه الخذور تستطيع - أيضاً - من حلال هشة الأرض المحروقة أن تأخذ الهواء اللام للآفات

إن الحق سبحانه يريد أن يهرب لنا مثل وهو عن جماعة غير مؤمنين أنفقوا أموالهم في الخير ، لكن ذلك لا ينفعهم ولا جدوى منه . مصداقاً لقوله تعالى : « كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » وهكذا يكون مصير الإيماني عن بية غير مؤمنة ، كهيفة الحرث الذي هت عليه ريح فيها صوت شديد مصحوب ببرد ، حال « صر » فيه الشدة والبرودة والعنف ، وحاتم الطائي كريم العرب يقول لعبدته :

أوقد ؛ فإن ليل ليل قر  
والريح يا غلام ري صر  
عل يرى نارك من عر  
إن جلبت صيما فانت حر

إن هذا الرجل الكريم يطلق سراح العبد إذا ما هدى صيماً إلى منزل حاتم الطائي . ( والليل القر ) هو الليل الشديد البرودة . و « الريح الصر » : هي

الريح الشديدة المصحوبة بالبرد . ونعرف في قرآننا أن الصفيح يرس على بعض المزروعات ، فيتلها . وبلاحظ هنا أن الحق سبحانه قد جاء بهذه الآية الكريمة بعد أن أوضح لنا في الآية السابقة عليها أن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم شيئا ومصيرهم النار ، وهو سبحانه يدفع أى شبهة تطرأ على السامع ، وهي أن هذه الأموال التى أنفقها الكافرون لعمل الخير ، لن تغنى عنهم شيئا فى الآخرة ! لأهم لا يملكونها . لماذا ؟

لأن لمن إنما يراود للثواب عليه ، والنية دائما هى التى لتحدد الهدف من كل حركة . فهل كان فى نية الكفار حين أسبقوا أموالهم فى الخير الذى يعلمه الناس كالمساعدات ، وتوزيع الكرب ، وإنشاء المستشفيات . هل كان فى مال هؤلاء الكفار رُبُّ هذه النعم . أو كانوا يعملونها طمعا فى جاه الدنيا ، وتقدير التاريخ وذكر الإنسانية ؟

لاشك أنهم كانوا يعملونها بلجاء . أو للتاريخ ، أو للإنسانية ، لأنهم لا يؤمنون بما وراء ذلك ، فهم لا يؤمنون بوجود إله ، ولا يؤمنون بوجود يوم آخر يحاسبون فيه على ما قدموا . وقلنا من قبل إن الذى يعمل عملا فيطلب آخره ممن عمل له ، وماداموا قد عملوا بلدنيا وذكرها ، وجاهاها ، والفخر فيها ، فقد أعطتهم الدنيا كل شيء .

الحق سبحانه وتعالى يضرب لنا مثلا ، وهو الذى يضرب الأمثال للناس لعلمهم يتذكرون . ومعنى المثل أن يأتى إلى أمر معصوى قد يعيب عن بعض العقول فهمه ، فيشخصه ويمثله بأمر حتى يعرفه الجميع ، ونحن نعرف أن المحسات هى أصل المعويات فى الفهم . ونعرف أن الطفل أول ما تتفتح إدراكاته يدرك الشيء المحس أولا ، ثم بعد ذلك يكوّن من المحسات المعقولات .

فانطلق - على سبيل المثال - يرى نارا فيمسكها فتحرقه ، فيتكون عند الطفل اقتناع بأن النار محرقة . ويشرب الطفل حسلا ، فيجده حلوا . فيتكون عنده اقتناع بأن الحسل حلو الطعم ، وبأكل الطفل شيئا مرا كالحنظل ، فتتكون عنده قصة معلومة وهى أن هذا الشيء مر الطعم ، فكل المعلومات التى يعرفها الإنسان بوسائل



## إدراكه المتعددة إنما تأتي من الأمور المحسة أولاً

والأمور المحسة - كما علمنا - وسائلها الحواس الخمس الظاهرة ، وهي : العين لترى ، والأذن لتسمع ، والأنف ليشم ، واللسان ليدوق ، والأنامل لتلمس ، وهكذا نعرف أن كل حاسة ظاهرة لها غاية في الإدراك . والإنسان يتصنع بحواس أخرى يدرك أعيانها ، ولكننا لا ندرك أجهرتها أو آلاتها .

مثال ذلك حاسة السمع وهي أن يعرف الإنسان هل الشيء الذي يراه قريب منه أو بعيد عنه ؟ وكذلك حاسة الثقل فيحمل الإنسان الشيء فيعرف مدى ثقله ، إنه يدرك ذلك الثقل بحاسة غير الحواس الخمس الظاهرة ، هذه الحاسة هي حاسة انقل يكتشف بها الإنسان أن شيئاً أثقل من شيء آخر ، ذلك أن العضلات التي تحمل الشيء تعرف قعر الجهد المبذول في الحمل . وهناك حاسة أخرى غير ظاهرة هي حاسة « التبيس » فيستك الإنسان القماش بأنمله ليعرف هل سمك هذا القماش أكبر من سمك قماش آخر ؟ ولمعرفة سمك الشيء لا بد أن يكون واقعاً بين لاسمين إذ ذك فهناك حواس كثيرة تربي المعاني عندنا ، فكل الإدراكات بنت الحس ، ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى

﴿ وَأَنَّهُ أَتَرَجَحُّكُمْ مِن يُّطُونَ أَمْهِيكُمْ لَا تَعْبُدُونَنِي وَأَحْصَىٰ لَكُمْ أَنَسْمَعَ وَالْأَبْصَارَ  
وَلَا أَفِيضُ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

(سورة النحل)

هذه هي الوسائل للإدراك ، وقد أورد سبحانه السمع والأبصار أولاً لأنها الوسيلتان الأساسيتان ، وأورد من بعد ذلك « الأفطة » وهي المختصة بالعلم والقليات وغيرها . فإذا أراد الله أن يضرب مثلاً في أمر معنوي قد تختلف فيه العقول فهو سبحانه يأتي بأمر حسي تنفق فيه الحواس . ونعلم أن في اللغة أمراً اسمه « التشبيه » ، فعندما يجهل إنسان شيئاً يفون لمعلمه . شبه لي الأمر الذي أحفظه بأمر أعرفه . والإنسان ما قد يسأل صاحبه : أنعرف فلان ؟ فيقول الصاحب : لا أعرفه ، فيقول الإنسان منا لصاحبه : إن فلانا الذي لا أعرفه يساوي فلانا في الطول ، ويساوي فلانا في اللون ، وهكذا يتقل الإنسان من أمر

لا يعرفه إلى أمر يعرفه . والحق سبحانه يضرب لنا المثل بالأمور الحسية ، لتعهم  
الأمور المعنوية ، والله يوضح لنا أن الذين كفروا ساعه تكون لهم آفة متعددة  
فملكائهم تصاب بالاضطراب يقول : « سبحانه » .

﴿ صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا بِهِ شُرَكَاءُ مُتَشَكِّكُونَ وَرَجُلًا سَلَبًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا  
الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(سورة التين)

إنه سبحانه يوضح لنا بالمثل الواضح مصير وحال رجل مملوك لعدد من الشركاء ،  
والشركاء الذين يملكون هذا العبد ليسوا متميزين ، بل بينهم بروج وشقاق ، وبطبيعة  
الحال لا بد أن يكون هذا العبد مرمقا ، وهكذا تكون قصة اشرك بالله ، إن العبد  
في مثل هذه الحالة يكون مُشْتَّتٌ ومورع النفس بين الذين يملكونه وهم متشاكسون ،  
ما قصة التوحيد فالخلق يشبهها بالقرب . « ورجلا سلبا لرجل »

وهكذا بنقلنا الحق سبحانه - رحمة بنا - من المعنى العقدي العالي إلى معنى محس من  
الجميع ، لتري أن الرجل المملوك لسيد واحد يتلقى أوامره من واحد فقط ، وكذلك  
يريد الله في هذه الآية أن يضرب مثلا لمن يصر شيئا على غير رية إرضاء الله في  
طاعته ، فمهما أعى هذا لإنسان فإن إغافه حابط . ونحن عندما نقرأ آيات القرآن  
الكريم علينا ألا نأخذ جرنية فقط ، لا ، لكن يجب أن نأخذ اجعله كلها لهم  
المثل كله كصوره مؤبقة مثلا ضرب الله لنا مثلا بالشركاء المتشاكسين الذين يملكون  
رجلا ، فعليا إذن ألا نأخذ المثل بحرفيته ، ولكن نأخذ الأمر بمجموع المثل . مثال  
آخر ، يقول الحق سبحانه .

﴿ وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَالْمَاءِ أَتْرَثُ مِنَ الْمَاءِ فَاصْتَلَ بِهِ بَيَّتُ الْأَرْضِ  
فَاصْبَحَ هَسِيبًا تَذْرُوهُ الرِّيْحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَدِّرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

(سورة الكهف)

فهو الحياة الدنيا كالماء لا ، ولكن قصة الحياة كلها ، تشبه القصة التي يصرها  
الحق كمثل ، الماء حين يزل يحلط بالأرض ، وبعد ذلك تنهز ، فتعطى سائر ،  
والسائر ينشع الزهر الخميل ، وبعد ذلك ينهي إلى هشيم ، هكذا هي الدنيا في

رحمتها ؛ فاندابة مرهرة ، فيها نصارة وخضرة وبهجة ، ونهاية مؤلة ومدمرة .

هذا فالحق سبحانه يثل لنا معنى الحياة الدنيا ومشيئها بالأرهار والمسات ونهايته أن يصبح هشيها تذروه لرياح ، وهو ما يقوله في موضع آخر من القرآن الكريم .

﴿ فَجَعَلْنَهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ ۚ كَذَلِكَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

( من الآية ٢٤ سورة يوسف )

وعندما نغص النظر في قوله الحق

﴿ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ

طَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلِكَتْهُ ۖ وَمَا ظَنُّهُمْ بِاللَّهِ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ ۚ ﴾ (١٧)

( سورة آل عمران )

نجد في هذه الآية « مشها » و « مشها به » ، المشبه هم القوم الذين ينفقون أموالهم بغير نية الله ، أي كافرين بالله ، والمشبه به هو لزرع الذي أصابته الريح وفيها الضر ، والنتيجة أنه لا جدوى هنا ، ولا هناك

وناذ نصيب لرياح حرت قوم ظلموا أنفسهم ، وهل لا نصيب لرياح حرت قوم لم يظلموا أنفسهم ؟

إن الذين ظلموا أنفسهم نزل بهم هذه الكارثة كعقوبة ، مثلهم في ذلك مثل أصحاب الجنة الذين يقول فيهم الحق سبحانه

﴿ إِنَّ نَئِوَنَهُمُ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْبَمُوا لِيَصْرِفُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۚ ﴾ (١٧)

وَلَا يَسْتَنْوُونَ ۚ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّنْ رَبِّكَ وَهُمْ سَائِمُونَ ۚ ﴾ (١٨)

فَأَنْصَبَتْ كَأَنَّهُمْ أَحْمَرٌ ۚ ﴾ (١٩)

( سورة النعم )

لقد جراحهم الله بظلمهم ، ولكن ألا نرى رجلا لم يظلم نفسه ونصيب رراعه كارثة ؟ إنا نرى ذلك في الحياة ، والرجل الذي لم يظلم نفسه ونصيب رراعه كارثة ، ويصبر على كارثته ، يأخذ الجراء والثواب من الله ، ولعل الله قد أهلك بها مالا كانت الحفنة قد أذخته لى ماله من طريق غير مشروع

هكذا تكون الكارثة مائسة للمؤمن ها ثواب وجراء ، أو تكون تطهيرا لليال . اما الذى يغنى هل غير نية الله وهو كافر ، فلا ثواب له .

ويديل الحق الآية بقوله « وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون » فهو سبحانه لم يظلم الكافرين حين جعل نفقتهم بدون جدوى ولا حيلة لما عنده ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم ، لأنهم أنفقوا النفقة عن غير هيئة القبول ، وهم الذين صنعوا ذلك عندما ظلموا أنفسهم بالكفر فحبطت أعمالهم ، وتلك هى عدالة الحق سبحانه ونعالى :

ويقول الحق من بعد ذلك

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْخِذُوا بِطَانَةٍ مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْمُرُكُمْ بِحَالٍا وَدُّوْا مَا عِنتُمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُمْ تُعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾

حين يحاطب الله المؤمنين ويأديهم بقوله . « يا أيها الذين آمنوا ، فلتعلم أن ما يحىء بعد ذلك هو تكليف من الحق سبحانه . فساهة يادى الحق المؤمنين به ، فإنه يادى ليكلف ، وهو سبحانه لا يكلف إلا من آمن به ، أما حين يدعو غير المؤمنين به إلى رحاب الإيمان ، فإنه يثير فيه القدرة على التفكير ، فيقول له :

فكّر في السماء ، فكّر في الأرض ، فكّر في مظاهر الكون ، حتى تؤمن أن للكون إله واحد . فإذا آمن الإنسان بالإله الواحد ، فإن الحق سبحانه وتعالى يقول له : مادمت قد آمنت بالإله الواحد ، فقلّ عن الإله الحكم

إل الحق حين يقول . « يا أيها الذين آمنوا » فهو سبحانه يحاطب بالتكليف المؤمنين به ، وهو لا يكلف به « افعل » و « لا تفعل » إلا من آمن ، أما من لم يؤمن بهديه الله ليندحل في حظيرة الإيمان « يا أيها الناس اعبدوا ربكم » فإذا ما دحل الإنسان في حظيرة الإيمان فالحق سبحانه وتعالى يكرم هذا المؤمن بالتكليف . « افعل » و « لا تفعل » ومادام العبد قد آمن بالإله القادر الحكيم الخالق ، الفيوم ، فليسمع من الإله ما يصلح حياته ويحيى . في بعض الأحيان ما ظهروا أن الله يادى مؤمنا به . ثم يأمره بالإيمان كقول الحق . « يا أيها الذين آمنوا آمنوا »

ويستدل الإنسان كيف يادى الله مؤمنا به ، ثم يأمره بالإيمان ؟ وما ترى أن المطلوب من كل مؤمن أن يؤدي أفعال الإيمان دائما ويصيف لها ليستمر ركب الإيمان قويا ، فالحق حين يطلب من المؤمن أمرا موجود فيه : فليعلم أن الله يريد من المؤمن الاستدانة على هذا اللون من السلوك الذى يحبه الله ، وكان الحق حين يقول . « يا أيها الذين آمنوا آمنوا » أى يحمل هذا القول الكريم أمرا بالاستدانة عن الإيمان ، لأن البشر من الأعيار ونحن نعرف أن الله أفسح بالاحتياط مجالا لثبوتهم آمنوا هارتدوا ، فليس لأمر مجرد إعلان للإيمان ثم ينتهى المسألة ، لا ، إن المطلوب هو استدانة الإيمان .

وحين نقرأ قول الحق . « يا أيها الذين آمنوا » فنعلم أن هناك تكليما جديدا ، ومادام في الأمر تكليف بعصر الاختيار موجود ، إذن فحيثية كل حكم تكليفى من الله له مقدمة هى : « يا أيها الذين آمنوا » ولا تبحث أيها المؤمن في عنة الحكم ،

وتسأل لماذا كنتى يارب بهذا الأمر ؟ عيسى من حقت أيها المؤمن أن تسأل  
 « لماذا » ما حدث قد آمنت ، فخلق سبحانه لم يكتب إلا من آمن به ، فإذا كنت - أيها  
 المؤمن - قد آمنت بأنه إله صادق قادر حكيم فأمن الله على نفسك ، ونعم مطلوب الله  
 « افعل » و « لا تفعل » سواء مهمت أسنة أم لم تفهسها . وسبق أن صرنا المثل  
 وماولنا نكره

إن المريض الذى يشكو من سوء المزاج بعد تناول الطعام يفكر أن جهازه  
 الهضمي مصطب بعله ، ويفكر في اختيار الطبيب المعالج ويحضر طبيباً متخصص في  
 الجهاز الهضمي ، ويذهب إلى هذا الطبيب . وهنا ينتهي عمل العمل بالنسبة  
 للمريض ؛ فقد اختار طبيب وقرر الذهاب إليه ، والطبيب يجري الفحص الدقيق .  
 ويطلب التحاليل اللازمة إن احتاج الأمر ، وشخص الدواء ، ثم يكتب الدواء ،  
 وحين يكتب الطبيب الدواء للمريض ، فإن المريض لا يصح أن يقول للطبيب لن  
 اخذ هذا الدواء إلا إذا أقضى بحكمته . بل عليه أن ينفذ كلام الطبيب ، وهكذا  
 يطيع المريض الطبيب ، وكلاهما مساوٍ للآخر في الشريعة ، فكيف يكون أدب  
 الإنسان مع خالقه ؟ إن كل عمل العقل عند المؤمن هو أن يؤمن بالله ، وبعد أن  
 آمنت - أيها المؤمن - بالله حكيماً ، فلتلق عن الله الحكم ؛ لأنه يأمرك على أن يوجهك  
 لأمرك أنت صحت

إن المؤمن يأمر المؤمن بالصلاة ، وعن المؤمن أن يؤذيها ، ولا يبحث عن علة للصلاة كأنها  
 رياضة مثلاً ، لا . إن الأمر صادر من الحق بالصلاة ، وحين تصل ، فإنك تلعب  
 إلى أن يملك قد أشرحت بالصلاة وشجرت بالراحة ، فنقول لنفسك ما أحلى  
 راحة الإيمان ، هذه هي علة الحكم الإيمان . إن علة الحكم الإيمان بعمرها المؤمن  
 بعد أن يتعلمه ، ولذا نجد الحق من عقل كرمه ، يقولنا له .

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ إِنَّهٗ يُكَلِّمُ مَن يَشَاءُ عَظِيمٌ ﴾

( من الآية ٢٨٢ سورة البقرة )

فأنت ساعده أن تتق الله في الحكم ، يعطيك العله ، ويعطيك راحة الإيمان ،  
 إنك أيها السد لا تسأل أولاً عن الاقتضاع بأعلة حتى تنعم بحكمي الله ، لأن الحق

مسخانه قد يؤجل بعض حيثيات الأحكام خلفه مودا طويلة ، ومثال ذلك أما ظننا لا يعرف علة حكم من الأحكام لما أرمعه عشر قرنا من الزمان مثل تحريم أكل لحم الخنزير ، فهل كان على العباد المؤمنين أن يؤجلوا أكل لحم الخنزير أربعة عشر قرنا إلى أن يتمكنوا معاصر للتحليل حتى يعرف المصار التي فيه ؟ تلك المصار التي ثبتت معمليا . . لا .

إن العباد المؤمنين لم يؤجلوا تنفيذ الحكم ، ولكنهم مقدروه ، واكتشف أحقاد الأحماد أن به ضررا ، وهذا يدفعنا إلى تنفيذ كل حكم لا يعرف به علة ، إن عدا الحكم له حكمة عند الله قد لا يستطيع عقل الإنسان أن يفهمها ، ولكن سنأى أشياء نوضح بعض الأحكام فيها لم يكن يعرفه الإنسان ، وتعطيا تلك الإيضاحات المتفة في كل حكم لا تعرف له علة ، وتصبح علة كل حكم هي : « يا أيها الذين آمنوا » .

إن الحق هذا القول ينادى كل عبد من عباده : يا من آمنت بـ إلها خذ مني هذا التكليف ومثال ذلك - والله المثل الأعلى - عندما يقول الطبيب : يا من صدقت أنى طبيب لموصك خذ هذا الدواء وستشفى بإذن الله .

وعندها يرور الإنسان مريضا رساله : لماذا تأخذ هذا الدواء ؟ فالمريض يجيب : لقد كتب الطبيب لى هذا الدواء ، فما بالنا تنفد أحكام الله ؟ إنه يجب أن نفدها لأن الله قاله ، ولذلك فالعالمون بعمق وحدية بخلقهم عن مدعى العقل بسطحية ، هؤلاء العاقلون الخدود يقولون : إن هذا العقل عطية بوصلك إلى باب السططان ولكن لا يدخل معك عنيه . فكان العقل بوصلك إلى أن تؤمن بالله ، ولكنه لا يحشر نفسه فيها ليس له قدره عليه

إن الحق سبحانه فى هذا التكليف القادم « يا أيها الذين آمنوا لا تتحدوا بظانة من دوابكم » أى ، بكم مدمتم قد آمنت ، فعليكم الحماظ على هذا الإيمان بأن تبعدوا عنه برع الشيطان وكيد الأعداء إن نزع الشيطان وكيد الأعداء إنما يأتي من البطانة التي تتداخل مع الإنسان

ولفهم كلمة « بظانة » جيدا ، إن بظانة الرجل هم خاصته ، أى أساس الدين

يصاحبهم ويجلسون معه ويعرفون أسراره ، وكلمة « بطانة » مأخوذة أيضا من بطانة الثوب ؛ فمنع عندما غسك أي قطعة من ثياب نرى أن الثوب حشن ، ولذلك فالصانع يضع للثوب الخشن بطانة ناعمة ويختارها كذلك ؛ لأنها متصلة بالجسم ، والبطانة من الأصدقاء تدخل على الناس بالنعمه وتقبلهم وتستعدهم ، ولذلك نجد النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « الأنصار شعار ، والناس دثار »<sup>(١)</sup>

« والشعار » هو الثوب الذي يلامس شعر الجسد ، والنبي صلى الله عليه وسلم يعمل من قيمة الذين استقبلوا الدعوة الإسلامية بمودة وحب . وهكذا نعرف أن كلمة « بطانة » مأخوذة كما قلنا - من بطانة الثوب ، لأنها التي تلتصق بالجسم حتى تحميه ؛ فمن مرتدي الصوف يغطونها بالدقة ، ونصنع به وبين الجسم بطانة لبعد عن الجسم حشوه الصوف ، ويسمون البطانة بالوليجة ، أي التي تدخل في حياة الناس ، وكل شر في الوجود من هذه البطانة

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معصوم وموثق إليه وله من الصحابة ما يطمح أي عبد مؤمن أن يتبعه . مدرة له ، هذا الرسول الكريم نجد بعضا من وصفه في حوار بين سيدنا الحسين وصوان الله عليه وآله سيدنا علي كرم الله وجهه قال الحسين :

يا أي فل لي عن عيسى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
قال علي كرم الله وجهه

كان رسول الله لا يجلس ولا يقوم إلا على ذكر . وفي الحديث : « كان رسول الله يكثر الذكر »<sup>(٢)</sup> .

لماذا ؟ لأن الجلوس والقيام هو إبطال حركة بحركة ، فمن كان قائما فمعه فقد أدى حركة هي القعود ، ومن كان حالسا فقام ، فقد أدى حركة هي القيام . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يذكر الله في كل حركة ، شاكرا نعمة الخلق عروجل ، والإنسان منا يستطيع أن يسأل نفسه كم عصلة يحركها الإنسان حتى يقعد أو يقوم ؟

(١) روى البخاري في المعاري ، ورواه مسلم في الركعة ، ورواه ابن ماجه في المقدمة ، ورواه أحمد في مسنده

(٢) روى النسائي في الجسد



إنها أعداد كبيرة من العضلات تتحرك بتوازن ارتفاع الجسم أو جلوسه ، وهي أعداد لا يعرفها الإنسان . مما الذي جعل هذه الأجهزة الصماء تفهم مراد الإنسان ، ويجرد أن يحول الإنسان القيام ، فإنه يقوم ، ويجرد أن يحول الإنسان القعود ، فإنه يقعد ؟ إنك إذا رفعت يدك لا تعرف ما هي العضلات التي تتحرك لترفع اليد ، وتلك إدارة عالية يقول عنها الشاعر :

«ويك انطوى العالم الأكبر»

كان العالم الكبير قد انطوى وصار في داخلك أنت . إنك إن أردت أن تنام فإنك تسم ، وتحب أن تفرح فتقوم . وبين لك الحق أن أوامرك لعضلاتك وتحكمك في مملكة جسديك ، هي من تسخير الله ؛ تدرك ذلك حين تنظر حولك فتجد أنه سبحانه قد سبب أحدا غيرك القدرة على رفع الدراع . وإياك أن تظن أن الحركة قد وتنت لمجرد أن لك يد ، لا ، إن غيرك قد تكون له يد ، ولكنه لا يستطيع أن يأمره فتتحرك . وهكذا نعرف أن كل الإرادات في النسي إنما تتحرك بتسخير الحق لها لخدمة الإنسان

قال صلى الله عليه وسلم : « إذا استيقظ أحدكم فليقل : الحمد لله الذي رد علي روحي وعافاني في جسدي وأذن لي بذكره »<sup>(١)</sup> .

انه يُوجه الإنسان إلى ذكر خالقه عند كل قيام أو قعود ، ورسولنا صلى الله عليه وسلم يعلم أنه عند كل افعال بكل حركة من حركات علينا أن نذكر الذي خلقنا وخلق فينا القدرة على الحركة .

وليسأل كل منا نفسه : كم حركة يتعلمها أمر من الإنسان بأن يحك ظهره مثلا ؟ إنه عند غير معروف من الحركات . وهكذا علينا أن نحسن الأدب مع الله بأن نذكره في كل حركة مهي الذي خلق كل إنسان منا صاحبا لكل هذه القدرات

ويعود إلى وصف على كرم الله وجهه مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم : كان لا يجلس ولا يقوم إلا من ذكر

ولتنبه إلى دقة الرسول في التعامل مع البطانة من البشر ، فهاهو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يوطئ الأماكن ونحو عن إبطائها ووطئ المكان ، أي أن يخصص مكانا لفلان ليجلس فيه ، لقد كان الرسول يجلس حيث انتهى به المجلس ، وكذلك كان صحابته ، فلا أحد يجلس دائما بجانبه حتى لا يأخذ أحد من مكانته عند الرسول فرصة يتخيل معها الآخر أن صاحب حظوة ؛ فكلهم سواسية ونحن نرى في عصرنا أن هناك من يتخذ لنفسه مكانا في المسجد ، وهذا منهي عنه فمن ابن عمرو رضي الله عنهما قال : ( نبي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بقرة الغراب والقراب السبع وأن يوطئ الرجل المكان في المسجد كي يوطئ البعير )<sup>(١)</sup>

ويضيف على كرم الله وجهه في وصف مجلس رسول الله : وكان إذا ذهب إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، وكان يجلس على الأرض ويأكل على الأرض ، يعتقل الشاة ويجيب دعوة المملوك<sup>(٢)</sup> .

أهناك أدب أكثر من هذا ؟ إنه الرسول الكريم ، يجلس حيث ينتهي به المجلس ، لقد أراد أن يضرب لنا مثل حتى تسرع اللقاءات ؛ فاليوم قد يجلس مؤمن بجانب مؤمن من مكان بعيد ، وعدا يجلس كلاهما بجانب نبي جاء كل منهما من مكان آخر ، وهكذا تتحقق اندماجية الإيمان بسورة اللقاءات .

ويقول على كرم الله وجهه : وكان رسول الله يعطي كل جلسائه نصيبهم من مجلسه حتى لا يحسب جلسيه أن أحدا أكرم عليه منه .

إن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما يعطي نظرة لواحد ، فهو ينظر كذلك لكل

( ١ ) رواه أحمد وأبو داود والبيهقي في الصلاة والنس في بقرة الغراب أي تحفوف المسجود بغير رضيع الغراب صخرة ،

والقراب السبع هو وسط الدراعين في المسجود وعدم رفعها ، وأن يوطئ المكان أي يلزمه فلا يصل إلى غيره

( ٢ ) رواه الطبراني

واحد في مجلسه ، وإن تكلم كلمة إلى ناحية فهو يعطى كلمة أخرى إلى الناحية المقابلة ، وذلك حتى يعرف كل جنس للرسول أن المؤمنين مواسية ، وأنه صلى الله عليه وسلم رسول إلى الناس كافة ؛ وليس رسولا إلى قوم بينهم ، وحتى يعرف كل واحد من جلسائه أنه يجلس إلى رسوله الذي بعثه الله إليه .

هكذا كان سلوك الرسول صلى الله عليه وسلم حتى يعطى القدرة للناس ، وحتى يعرف كل إنسان أن لنعلم الناس بعضهم ببعض ؛ قد يسبب لواحد استفحال الالتحام في غير صالح الإيمان .

لذلك يقول الحق سبحانه . يا أيها المؤمنون تنبهوا إلى أنكم في معسكر من غير المؤمنين يقاتلكم ويماند إيمانكم ، وهؤلاء لا يمكن أن يتركوكم على إيمانكم ، بل لابد أن يكيلوا لكم ، وهذا الكيد يتجلى في أنهم يدسون لكم أشياء ، ويفذون إليكم

ويعرف جميع أن الإسلام عندما جاء كان كثير ممن آمن له ارتباطات بمن لم يسلم ؛ فهناك القرابة ، والصداقة ، والإلف القديم والحوار ، والأخوة من الرصاعة ، لذلك يحذر الحق من هذه المسائل ، فلا يقولن مؤمن بهذا قريبى ، أو هذا صديقى ، أو هذا حليقى ، أو هذا أحمى من الرصاعة ، فالإسلام يحقق لكم أخوة إيمانية تفوق كل ذلك ، ولهذا فإياكم أن تتعلموا أنكم تدخلون معكم بالود ؛ لأن الشر يأتى من هذا المجال ، وإياكم أن تعتقدوا أن فجوة الإيمان والكفر بينكم ستهب أو نصيب ؛ لأن الكفار لن يتورعوا أن يدخلوا عليكم من باب الكيد لكم ولديكم بكل لون من الألوان ، وهم - الكفر - لا يقصرون في هذا أبدا ، لذلك يأمر الأمر من الحق :

يا أيها الذين آمنوا ، احصوا هذا الإيمان، فلا تتداخلوا مع صير المؤمنين تداخلا يفسد عليكم أمور دينكم ؛ لأنهم لن يهدأوا ، لماذا ؟ لأن حال هذه البهانة معكم سيكون كما بل : لا بالوئكم شيئا ، أى لا يقصرون أبدا في الكيد لكم ، والفساد هو الفساد للهمة المدبرة لتجسم وهو الحق ، ونحن نسمى احتلال العقل « شيلا » .

إن الحق يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخْلُقُوا بَغَاةً مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْتِيَنَّكُمْ شَيْئًا وَذُودًا مَّعَهُمْ

قَدْ بَدَتْ لَـلْبَحْصَاءِ مِنْ أَمْوَرِهِمْ رِمَآئِحُ صَدُورِهِمْ أَكْبَرُ قَدْ يَتَنَا لَكُرُّ الْآيَاتِ  
إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٧١﴾

(سورة الزمر)

فالله عنده ليس أن تتخذ بطانة من المؤمنين ، ولكن المنهى عنه هو أن تتخذ بطانة من غير المؤمنين ؛ لأن المؤمن له إيمان يحرسه ، أما الكافر فليس له ما يحرسه ، والبطانة من غير المؤمنين لا يقصر في لحظة واحدة في أنها تريد للمؤمنين الخيال والفساد ، ولا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل إنهم يحبون العيب والمشقة للمؤمنين ودوا ما عنتهم ، والحق سبحانه وتعالى لا يريد لما العنت ، وفي هذا يقول سبحانه

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَكَزُ إِنْ أَلَّهَ عَرِيْرٌ حَكِيمٌ ﴾

(من الآية ٢٢١ سورة البقرة)

أي أنه سبحانه لو أراد ، لكلمكم بأمر كثيرة تحمل المشقة ، لكن الحق سبحانه يسر لكم أيها المؤمنون ، لكن أهل الكفر لا يوتون إلا بآللال للمؤمنين ، ويحسون المشقة لهم .

ومن أين تنشأ المشقة ؟ إنك حين تكون مؤمناً فأنت تقوم بما فرضه عليك الدين ، وهم يحاولون أن ينفخو في المؤن بغير ما يقتضيه هذا الدين ، فتتزعج نفس المؤمن ، وبهذا النفخ تنقسم ملكات المؤمن عن نفسها ، وعندما تنقسم الملكات على نفسها فإن لقلق والاضطراب يسيطران على الإنسان ، فالقلق والاضطراب ينشأ عندما لا تعيش الملكات النفسية في سلام واستجمام

ونحن نرى ذلك في المجتمعات التي وصلت إلى أرقى حياة اقتصادية وأمورهم المادية ميسرة كلها ، فالشيخوخة مؤمنة ، وكذلك التأميمات الصحية والاجتماعية ، ودخس الإنسان مرتفع ، لكنهم مع ذلك يعيشون في تعب ، وترقع بينهم نسبة الانتحار ، وينتشر بينهم الشللود ، والسب وراء كل ذلك هو أن ملكاتهم انفسية غير منسجمة ، وسلام الملكات النفسية لا يتحقق إلا عندما يزمن الإنسان ، ويعطى

تعاليم ما يؤمن به . فالرحل - على سبيل المثال - حين ينظر إلى حلاله ، أي زوجته ، ينظر إليها براحة ويشعر بالطمأنينة لأن ملكاته النفسية مسجومة ، أما عندما تتجه عنه إلى امرأة ليست زوجته ، فإنه يراقب كل من حوله حتى يعرف هل هناك من يراه أو لا ؟ وهل ضبطه أحد أو لا ؟ وعندما يضبطه أحد فهو يصرخ وتتحط ملكاته

لذلك يحذر الحق سبحانه المؤمنين إياكم من الطغاة من غير المؤمنين ، لأنهم لا يقصرون أبدا ولا يتركون جهدا من لجهود إلا وهم يحاولون فيه أن يذخروكم في مشقة . والمثقة إنما نشأ من أن الكافر يحاول أن يجذب المؤمن إلى الانحراف والاضطراب النفسي وتشتت الملكات مستعلا القرية والصدقة ، مطالباً أن يرصه المؤمن بما يحلف الدين ، ولا يستطيع المؤمن التوقيع بين ما يظنه الدين وما يظنه الكافر ؛ لذلك تنقسم ملكات المؤمن وبحس بالمشقة . والكافرون لا يركبون أي رصه تأق بالفساد للمؤمنين إلا استهروها واعتصموها . يا أيها الذين آمنوا لا يحذروا طغاة من دريكم لا يألونكم حملا ودوا ، عتق قد بدت العصاة من أفواههم .

ومادامت العصاة قد بدت من أفواههم فكيف يتحدهم بطه ؟ إنك حين تصعب لنفسك جماعة من غير المؤمنين ، فإنها تضم بعضها من المدافعين غير المسحجين مع أنفسهم والمدافعين له لسان يظهر بخلاف ما يظن . وعندما ينحجب المدافع إلى غير المؤمنين فإن لسان المدافع ينقل بالسحرية كلام المؤمن

هكذا تظهر العصاة من أفواه المدافعين المبتدئين بين ذلك . لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، إنهم لا يتمون إلى الإيمان ولا يتمون إلى الكفر ، والذى يصل المؤمنين من بعض هؤلاء قليل ، لأن ما تحمي صدورهم أكبر . حين تدر العصابة من أفواههم ، فلما أن يقولوها أمام مدافعين ، ولما أن يقولوها بعضهم لبعض ، هتيدوا الاستهزاء والسحرية بالمؤمن ، والله أعلم بمن قيل فيه هذا الكلام ، ولذلك فعندما يتحدث الكافرون بكلام فيهم والله يكشفهم ويعصمهم لنا نحن المؤمنين .

إن الله تعالى يكشف بطلانه عنده كل الخبايا ، وكان على الكافرين والمدافعين أن يعلموا أن هناك إلهاً يرب عنده الإيمان في المؤمن حتى يسفه إلى أدنى الأشياء ، لكنهم كاهن كهر وبعان في غباء ، لقد كان مجرد نزول قول الحق قد بدت العصاة من

أفواجهم وما يحصى صدورهم أكبر ، كان ذلك عرصة أمامهم ليدعوا عن أنفسهم لو كانت صدورهم حالية من لحقد . لكنهم عرفوا أن الله قد علم ما في صدورهم إن اغبط الذي في قلوب هؤلاء الجاحدين الجاهدين قد نصح على ألسنتهم ، ولكن من الذي نقل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ما في صدور الكافرين بما هو أكثر من ذلك ؟

إنه الله - جلب قدرته - قد فصيحهم بما أنزل من قوله تعالى : وما تحصى صدورهم أكبر ، إذن لم يعد لمن آمن بالله حجة ، لأن الله أعطاه المصاعف القوية لصيانة ذلك الإيمان ، وأوضح الحق للمؤمنين أن أعداءهم لن يذبحوا وسعد أبدا في إفساد انبيائهم لهذا الدين ، فيجب أن يشبه المؤمنون .

وإذا ما دقنا التأمل في تدليل الآية نجد أن الحق قال : قد يب لكم الآيات إن كنتم تعقلون ، إذن ، فالآيات المروثة من الله تعالى توصلح ذلك ، وقد قلنا من قبل إن لآيات ، إما أن تكون آيات مربية ، وإما أن تكون آيات كويبة ، فالقرآن له آيات ، والكون به آيات . ولسمع قول الحق بالسة لقرآن

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّصْحَفًا رَأَوْا رَأْفَةَ أُنْزِلَ بِمَا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ  
لَّ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْتَمِدُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

( سورة النمل )

وفي مجال الكون يقوى الحق سبحانه

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ  
وَتَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾

( سورة فصلت )

وهكذا نعلم أن الآية هي اشيء العجيب اللامت الذي يجب أن نتقنه إليه لنأخذ منه دستوراً لحياتنا . وعلى ذلك ، فالآيات القرآنية تعطى المنهج ، والآيات الكويبة

تؤكد صدق الآيات المبهجة . ويجب أن تتعظوا أيها المؤمنون إلى هذه الآيات .  
والذي يدل على أن المؤمنين قد عقلوا وتعظوا ، أن الآية الأولى ليست أنهم قد شبهوا عن  
أن يتحدوا بطانة من دونهم - أي من غير المؤمنين - وها هي الآية الثالثة تقول

هَآأَنَـتُمْ أَولَآءِ نَحْبُوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ  
بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا  
عَصَبُوا عَلَيْكُمْ أَلَا نَأْمِلُ مِنَ الْغَيْظِ قُلُوبَ مَوْتُوا يَعِـيْطُكُمْ  
إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٧١﴾

ومارال الحديث والكلام عن البطانة ، وهو يدل على أن الطانة لم تستطع أن تلوي  
المؤمنين عن الإيمان ، بل إن المؤمنين الذين دائروا حلالة الإيمان حاولوا أن يعيروا من  
الكافرين . ولم يعلج الكافرون أن يغيروا من المؤمنين ، وكذلك لم يعلج الكافرون  
أيضا أن يسيطروا على أنفسهم ، ولم يكن أمام هؤلاء الكافرين إلا العناق ، بذلك  
قالوا : « أما » إن الآية تدلنا على أن المؤمنين قد عقلوا آيات الحق ولماذا - إذا -  
جاء الحق بقوله : « نحبونهم ولا يحبونكم » ؟

لقد أحب المؤمنون لكافرين حين شرحوا لهم قصة الحق في متبع الإسلام ،  
وأراد المؤمنون أن يحبوا الكافرين متاعب الكفر في الدنيا والآخرة ، وهذا هو الحب  
الحقيقي ، فهل يبادلهم الكافرون الحب ؟ لا ؛ لأن هؤلاء الكافرين أرادوا أحد  
المؤمنين إلى الكفر ، وهذا دليل عدم ائوفا . وم يستطع الكافرون تحقيق هذا  
المآرب ، ولذلك قالوا : « أما » بمعنى هوهم : « أما » يدلنا على أن موقف المسلمين  
كان موقفا ضلعا قويا ؛ لذلك لم يجد الكافرون بدا من متابهم « وإذا لقوكم قالو  
أما » قالوا ذلك على الرغم من ظهور العضاء في أفواههم ، ولم يكن سلوكهم  
مطابق لما يقولون . وها بدأ المسلمون في تحميم وتقليل مودتهم للكافرين ؛ ولذلك

قال أهل الكفر لو استمر الأمر هكذا فسوف يتركنا هؤلاء المسلمون . وحق سبحانه هذا الموقف ادعوا الإيمان في لظاهر ، ونقلب موقفهم إذا خلوا لأنفسهم ، ويصور الحق هذا الموقف في قوله : « وإذا حلوا عضوا عليكم الأمان من لعيط ، فما هو العيص ؟ »

إن لعيط لغوي ، هو القضاء العكس على شيء ليفضاه . وما الأمان ؟ إنه أطراف الأصابع ، والأمان فيها شيء من الدهن ، وشيء من حبه . حركة المأخوذ من حلبة النمل ، ويسمون الأمان أيضا النمل ، وعملية عض الأمان عندما يرمي بجدها عليه انفعاليه سرية أي أن الفكر لا يربها ؛ فليس هناك من يرعى أن يظل مرتكبا لعملية عض أصابعه ، فعوض الأصبع يسبب الألم ، لكن لامتلاء بالعيط يدفع الإنسان إلى عض الأصابع كمسألة فسيية نتيجة اضطراب وحلل في الانفعال . ومن أين يجيء العيص ؟

لقد جاء العيص إلى الكافرين لأنهم لم يستطيعوا أن يخرجوا المؤمنين قيد شعرة عن مهبج الله ، بل حدث ما هو العكس ، لقد حلول المؤمن أن يجذبوا الكافرين إلى نور الإيمان ، وكان الكافرون يريدون أن يصنعوا من أنفسهم بطانة يدخلون بها إلى المؤمنين يشرروا مفاسدهم ، وتذبح رقعو في العيص عندما لم يحكمهم المؤمنون من شيء من مرادهم .

إن الإنسان يقع أحيانا فريسة لللفيط حين لا يتمكن من إعلان عصبه على خصمه ، ولهذا إذا أراد إنسان من أهل الإيمان أن يواجه حسد واحد من خصومه فعليه أن يريد في فضله على هذا الإنسان ، وهنا يردد هذا الخصم غيظ ومرارا ، أيضا بعد أن من تعاليم الإسلام أن الإنسان المؤمن لا يعايل السيئة التي يصنعها فيه آخر بسيئة ، وذلك حتى لا يرتكب الذنب نفسه ، ولكن ينزع القول المأثور

« إننا لا نكافئ من عصى الله فيما نأكل من أن نطيع الله فيه »<sup>(١)</sup>

(١) هذا القول مستند إلى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عندما جاءه رجل فقال له : يا أبا جابر يؤمى ويشتقى ويضيق من فقال : أحب أن هو عصى الله فترك ما منع الله فيه ، من كتاب : إنباء علوم الدين ، للإمام عزال . فصل حقوق الخوارج



هم بإحسان لمسلمين إليهم يردون حصوة ، وعيظا وحفدا عن الإسلام وكان  
المسلمون الأرائل يتصرعون بدلت الأسلوب لقد كانوا حبالا بمحية واسعة

فحصوم الإسلام يعصون الله بسوء معاملتهم للمسلمين ، لكن المسلمون يردون  
على سوء المعاملة بجسر العمامة ، وساعة يرى حصوم الإسلام أن كيدهم لا يحقق  
هدفه فإنهم يقعون في بئر وحمة العيظ . وعندما يخلو الكافرون لأنفسهم فأول أعماهم  
هو عص الأصابع من العيظ ، وهو كما أوضحت نبيحه الانفعال العسري التنازع  
للعصب ولعجز عن تحصى الذنوب ، ذلك أن كل نافر إدراك في النفس الشرية إنما  
يظفر بحالا وجدانيا فيها

والمحال انوحداي لاند أن يعبر عن نفسه بحسبة بروحية تظهر بالحركة ، فالإنسان  
عندما يسبب لو احد يعرفه لونا من العصب فهو يفعل بسرعة وبشور بالكلمات ، هذا  
دليل على طيبة الإنسان العصب . أما الذي لا يظهر انفعاله فيحب الحذر منه ، لأنه  
مخرب انفعالاته ، وسيطر عليها ، فلا تعرف متى تظهر ولا على أية صورة تدو ،  
وبذلك يقول الأثر « اتقوا عيظ الخليم » فممن تتجمع انفعالات جديدة فوق  
انفعالات قديمة متراكمة في قلب الخليم فلا احد يعرف متى يفيض به الكيل

إذن فالإدراك يشأ عنه وجدان ، فيفعل الإنسان بظنروع الحركي واستشريع  
الإسلامي لا يريد من الإنسان أن يكون حجرا أصم لا يفعل ، لكنه يطلب من  
المسلم أن يفعل انفعالا مهاديا ، ولذلك يصع الحق للمؤمن مهاديا ، فيقول  
سبحانه .

﴿ وَلَكِنِّي لَأَكْظِمُ الْعَيْظَ وَالْعَانِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُتَحَسِّينَ ﴾

( من الآية ٢٣٤ سورة آل عمران )

إن القرآن يعترف بأن هناك من الأحداث ما يسدعي عيظ الإنسان ، والذي  
لا يعصب على الإحلاق إنما يسلك طريقا لا يتوافق مع طبيعة البشر السوية ، والله  
يريد من الإنسان أن يكون إنسانا ، له عواطفه وشعوره وانفعالاته ، ولكن الله المربي  
الحق يهذب انفعالات هذا الإنسان ، ولما في السبب صلى الله عليه وسلم القدوة

خسته ، فحين مات ولده إبراهيم<sup>١</sup>

قال عنه صلى الله عليه وسلم : « إن من دمه وقلب حزن ولا يقوى إلا ما برضى  
رساء ، وبيا يرافك يا إبراهيم للحروب<sup>٢</sup> »

إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج به عاصفة وإلغاب ، فلعن ندمع ، والقلب  
حزن ، والأساس لا يكون مصمم أمام لأحداث ، يكفى على الإنسان أن يكون مصعلا  
بعمالا مهدد

وعندما يمر نمران عن الإنسان السوي فهو لا يصح المؤمن في قالب حادى  
بحث لا يستطيع أن يتعمق يقوى مصممه

﴿ أَدْلَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ آيَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

( من الآية ٥٤ سورة المائدة )

إن قلب المؤمن مصروع على الله ، ولا يتسوعا على العرة ، لكنه يتسعل  
بمواقف المحسنة ، فهذا موقف يتطلب منه وبوصف بمؤمنين فيكون المؤمن ديبلا ،  
وهناك موقف آخر يتطلب منه على الكافرين فيكون المؤمن عزيزا ، والحق  
سيخبره يقول عن المؤمن

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَرِ رَحْمَاءٌ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا  
مُحَمَّدًا يَبْغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾

( من الآية من سورة النجم )

إن الرحمة ليست حلف ثابت ، ولا الشدة حلف ثابت ولكن المؤمنين يفعلون  
للأحداث ، فحين يكون المؤمن مع المؤمنين فهو رحيم ، وحين يكون في مواضعه  
الكفار فهو هوى وشديد والله سبحانه لا يريد مؤمن على قالب واحد محمد ،

( ١ ) رواه البخارى في الجهاد ومسلم في الفضائل ، ( ٢ ) رواه ابن ماجه في الجهاد ورواه أحمد في المسند

لذلك يقول الحق .

﴿ وَالْكَافِرِينَ الْغِيَظُ رَأَىٰ عَيْنِي أَلَسَ اللَّهُ بِخَبِيرٍ ﴾

( من الآية ١٣٤ سورة النمل )

وهو سبحانه القائل :

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ﴾

( من الآية ١٢٦ سورة النمل )

إذن فالحق لم يمنح المؤمن من أن يعاقب أحدا على خطأ ، وذلك لأنه خلق الخلق وعليم بهم ، ولا يمكن أن يصادم طبيعتهم ، وذلك حتى لا يتهدد المؤمن في إيمانه مما بعد ، فالتؤمن لو ترك حقوقه فإن الكفار سيصولون ويحولون في حقوق المسلمين ؛ ولهذا فالمؤمن يتلذذ على توقيع العقاب حتى على المؤمن المخطئ ، وذلك ليعرف المؤمن كيف يعاقب أى مجترى على حق من حقوق الله ، والمؤمن أيضا مطالب بأن يرتقى بعباده ، فهو إما أن يعاقب بمثل ما عوقب به ، وإما أن يرضى أكثر ، ويستمتع بقول الحق

﴿ وَلَيْسَ صَبْرُكُمْ هُوَ الَّذِي تَتَصَوَّرُونَ ﴾

( من الآية ١٢٦ سورة النمل )

لقد وضع الحق منهج الارتقاء بعد أن أعطى المؤمن الحق في توقيع العقاب قصاصا ، وهكذا لم يفسر الله طبع الإنسان ولو أراد سبحانه ذلك لما خلق هذا الطبع إنه سبحانه يوضح لنا أن هناك انفعالا بالغيظ ، وأن المؤمن عليه أن يحاول كظم الغيظ أى لا يعبر عن الغيظ بروع ، فإن أخرج المؤمن هذا الأمر من قلبه فمعناه أنه قد برىء وشيئ منه وارتقى .

إذن فكظم الغيظ هو ألا يعبر المؤمن عن الغيظ نزوعيا ، فإن سبك أحد فانت لا تسبه ، وهذا الكظم يعنى كتمان الأفعال في القلب ، فإذا ارتقى المؤمن أكثر ونجاهل حتى الانفعال بذلك ، فإنه يخرج الغيظ من قلبه ، وهو بذلك يرتقى ارتقاء

أعني ، ويصفه الحق بأنه دحول ، أي مرتبه لإحسان ، فهو القائل : والله يحب  
المحسين ، وهكذا يحس المؤمن إلى المسبب للغبط بكلمة طيبة

فإذا يكون موقف الذي نسب إلى عيظك أيها المؤمن وأنت قد قطعت الغيظ في  
مرحلة الأولى وعفوت في المرحلة الثانية وإن أخرجت الانفعال من قلبك ، وصلت  
إلى المرحلة الثالثة وهي التي تمثل قمة الإيمان إياها الإحسان . . والله يحب  
المحسين ، لا بد أن يرجع الحب للعبط نفسه ويذم على ما فعل

إن الإسلام لم يتجاهل المشاعر الإنسانية عندما طالب المؤمنين أن يحسوا لمن أساء  
إلهم ، والذي يعم النظر ويدقق انهم يعرف أن الإسلام قد عطى المؤمن الحق في  
الطبع البشري حين قال : « وإن عافيتهم فعاقبو بمنثل ما عوقبتم به » ولكنه ارتضى  
بالمؤمن . وعندما سطر في هذا الأمر كقضية اقتصادية ونحسها به منه ، وه له ،  
فسيجد أن المؤمن قد كسب . ومثل ذلك - والله المثل الأعلى - ساعة يجهد الأب ابنه  
من أسائه قام بطعم أخ له فإن قلب الأب يكون مع المظلوم فهو أن يسبب أساء  
لعبد من عباد الله فإن الله كثرت مرات يعار له ونعم نعرف أن واحدا قال لعارف  
بالله

أنحس لمن أساء إليك ؟ فقال العارف بالله : أولا أحسن لمن جعل الله في جانبي ؟

ولعد الآن إن عيط الكافرين من المؤمنين ، إن عيط الكافر ناتج من أن حصمه  
المؤمن يحب له الإيمان وليس في قلبه صغية يبغى الكافر يعمل من الحق ، وبسبب هذا  
الأمر يكاد يفقد صوابه ؛ لذلك يقول الحق : « وإذا جنوا عصوا عليكم الأنام من  
الغيظ » .

وه حلوا ، المقصود بها ، أن الكافرين إذا ما أصبحوا في مجتمع كبرى وليس معهم  
مسلم أعينوا العبط من المؤمنين ، وقد فعلوا هذا الأمر - عصى الأنام من العبط - في  
غية الإيمان والمؤمنين بالله ، لو كان عند هؤلاء الكافرين ذرة من تعقل لفكروا كيف  
مضحهم القرآن ، وهم الذين ارتكبوا هذا الفعل بعيدا عن المؤمنين ؟

ألم يكن لتذكيرهم أن يصل إلى أن هناك رباً للمؤمنين بقول الخلق من الأمور  
لرسوله ، ويلمح الرسول للمؤمنين

لكنهم مع ذلك لم يفهموا هذا المصيح لهم « وإذا حلوا عضوا عليكم الأنامل من  
الغيط » وهنا ينبغي أن نهم أن هناك أمراً قد يعيط ، ولكن الإنسان قد يجب أن  
يبحث غبطه ، فإذا غاظك أحد فقد يذهب إليه ويفعل عليه ، أو قد سبب عن  
نفسك وذلك هو ما يسمى بـ « تحويل الروح » . فالغاصب يحل بطاقة عضوية ،  
ومن يخضب عليه قد يكون قويا وصاحب نفوذ ، فيحاف أن يفعل عليه ، فيعثر  
المغاصب طاقة عضه على نفسه بأن بعض عن أنامله ، ومادامت المسألة هكذا ، فقد  
قال الحق .

﴿ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

( من الآية ١١٩ سورة آل عمران )

ومعنى ذلك أن إغاطة المؤمنين لكم أيها الكافرون مستمر إلى أن تموتوا من  
الغيط ، لذلك فلا طائن من محاولتكم جذب المؤمنين إلى لكم « قل موتوا  
بغيطكم » .

ونحن قد عرفنا أنه ساعة يؤمر الإنسان شيء ليس في اختياره - لأن الموت ليس في  
اختيارهم - وأن يختار بينه وبين شيء في اختياره كالغيط ، بمعنى ذلك أن الأمر قد  
صدر إليه ليظل أسير الأمر الذي يقدر عليه وهو الغيط حتى يدركه الموت

وعندما يقول الحق : « موتوا بغيطكم » فهذا يعنى أن الكافرين لن يستطيعوا  
الموت ، ولكن سيظلون في حالة الغيط إلى أن يموتوا ، لأنهم لا يعرفون متى يموتون ،  
وهكذا يظنون عن حالهم من الغيط من المؤمنين ، ومادام الكافرون في حالة غيط من  
المؤمنين فهذا دليل على أن المؤمنين يطبقون منهجهم بأسلوب صحيح

وفي هذه الآية بشاره طيه للمؤمنين وبذارة مؤلة للكافرين « قل موتوا بغيطكم إن  
الله عليم بذات الصدور » إن الحق يعلم ما به عليم بذات الصدور ، أى بالأمور التي

نظراً عن الفكر ، ولم تخرج بعد إلى مجال القول ، وهو سبحانه القائل .

﴿ وَمَا نَحْنُ بِصَادِرٍ مِنْهُمْ أَكْبَرُ ﴾

( من الآية ١٦٨ سورة آل عمران )

ومدام هو الحق المليم بما تحصى الصدور فهو قادر ليس بقط على الخراء بما يعملونه من عمل نزوى ولكنه قادر على أن يجزيهم أيضاً بأن يعصم الأعمال غير اسروعية الكسوة في صدورهم ، وبعد ذلك يقول سبحانه :

﴿ إِن تَسْتَسْكِمُ حَسَنَةً تَسْوُهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ  
سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَتَّقُوا  
لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ  
مُحِيطٌ ﴾

والقرآن كلام الله وله - سبحانه - الطلاقة التامة والعنى الكامل ، والعبارات في لمعى الواحد قد تختلف لأن كل مقام له قوله ، وسبحانه يحدد بدقه متناهيه للفظ المناسب . . إنه هو سبحانه الذى قال

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَوًّا ۝١٩ إِذَا مَنَّ الشَّرُّوْعَا ۝٢٠ وَإِذَا مَنَّ أَنْفَرُ مَوْعَا ۝٢١  
لَا الْمَصْنَعِينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣ ﴾

( سورة الطرح )

وهو سبحانه الذى قال :

﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ  
بِلِسَانٍ رَسُولًا وَكُنِيَ بِإِلَهِ شَهِيدًا ﴾ ﴿١٧٢﴾

(سورة الغاشية)

به جل وعلا يتكلم عن المس في الشر والخير ، ومرة يتكلم عما يحدث للإنسان  
كإصابة في الخير أو في الشر ، وفي الآية التي نحن بصدد الخواطر عنها نجد خلافا في  
الأسلوب فسيبغانه يقول : « إن تمسككم حسنة تؤهم وإن تصكم سيئة يفرحوا  
بها » إنه لم يورد الأمر كنه مضافا ، ولم يورده كله ، « حسنة » ، « سيئة » ، إنه كلام رب حكيم وعسما  
تمس في المعنى فإن الواحد منا يقول : « هذا كلام لا يقوله إلا رب حكيم »

ويستعرف الآن على « أس » و « الإصابة » بعض العناء قال : إن المس والإصابة  
يعني واحد ، بدليل قوله الحق :

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَ خَلُوءٌ ﴿١﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ  
مَنُوعٌ ﴿٣﴾ ﴾

(سورة المعارج)

ولكما نقول إن المس هو إيجاد حسنة بين الناس والمسوس ، فإذا مس الرجل  
أمراته ، فمن أمره بالوصوء فقط ، لأنه مجرد التقاء الناس بالمسوس ، والأمر ليس  
أكثر من التقاء لا تحدث به الحماية فلا حاجة للعسل ، أما الإصابة فهي التقاء  
وريادة ، فالذي يصرب واحدا صدعه دونه قد يؤرم صدعه ، فالكف يلتقي بالحد ،  
ويصيب الصدع ، وهكذا يعرف أن هناك فرق بين المس والإصابة ، وحين يقول  
الحق : « إن تمسككم حسنة تؤهم »

فمعنى ذلك أن الحسنة الواقعة سيطرة ، وليست كبيرة إنها مجرد غيبة أو قبل من  
الخير .. وفي حياتنا اليومية نجد من يمتلئ عيظا لأن خصمه قد كسب عشرة  
قروش ، وقد يجد من يقول له : لماذا لا تدحر غيظك إلى أن يكسب مائة حبه مثلاً ؟  
ومثل هذا العيظ من الحسنة الصغيرة هو دليل على أن أي حير يأتي للمؤمنين إنما يسبب

التعب والكثير للكافرين . فمجرد من الخير للمؤمنين يتعب الكافرين فهذا عن امر  
لج ؟

إن حق يقول : « وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » إن الكافرين يفرحون لأي سوء  
يصيب المؤمنين مع أنه كان مقتضى الإنسانية أن ينقلب الحاسد راحا .

وحديث من حادث سامري  
بى حاسديه له راحيا

يعنى حسك من حادث ومصيبة تقع على إنسان أن الذى كان يحسده ينقلب راحا  
به ويقول : والله أما حرب من أجبه

إذن فلما شئت إصابة المؤمنين أكنت نعيم من موقف الكافرين ؟ . لا ، كان أهل  
الكفر يفرحون في أهل الإيمان ، وإذا جاء غير أى خير للمؤمنين يمزنون فالحق  
يقول : « أن تحسبكم حنة تؤهم » والحنة هى أى غير يسهم ما حيا ،  
« وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها » وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ، « فأت  
مها كادوا لك فلن بصيرك بأدى

إن المطلوب منك أن تصبر عن عداوتهم ، وتصبر على شرهم ، وتصبر على  
فرحهم في المصائب ، وتصبر على حزنهم من الحمة تصيبك أو تحسك ، أصبر فيكون  
عسك مساعه ، وكيدهم لن يبال منك . صبر واتق الله . لتضمن أن يكون الله في  
جانك ، « وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا » .

وما الكيد ؟ الكيد هو أن نيت ونحس على إيقاع الضرر بالغير بحيث يسو أنه كيد  
من غيرك ، أى تدبر لغيرك لتضره . وأصل الكيد مأخوذ من الكيد والكد ، وهما  
معنى واحد ، فم يصيب الكيد يؤلم ، لأن الكد هو الصع لقوى في الإنسان ، إذا  
أصابه شيء أعنى الإنسان وأعجزه ، ويقولون : فلان أصاب كد الحظيفة أى  
توصل إلى نقطة القوة في الموضع الذى يحكى عنه .

وما معنى يبتزون ؟ قالوا : إن التبتيت ليس دليل الشجاعة ، وساعة ترى واحداً



بيوت ويمكر فاعرف أنه جبان ؛ لأن الشجاع لا يكيد ولا يكر ، إنما يكر ويكيد الضعيف الذي لا يندبر على المواجهة ، فإن نصبروا على مقتضيات عداواتهم وتنقوا الله لا يضركم كيدهم شيئاً ؛ لأن الله يكون معكم .

ويبين الحق الآية بالقول الكريم : « إن الله بما يعملون محيط » . وساعة ترى كلمة « محيط » فهذا يدل على أنه عالم بكل شيء . والإحاطة - بمعنى ألا تشرد حاجة منه - وما هي دى تجربة واقعية في تاريخ الإسلام ؛ يقول الحق فيها مؤكداً : « ون نصبروا وتنقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله بما يعملون محيط » وعلى كل منا أن يذكر صدق هذه القضية

## وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾

إنه في هذه المرة - في غزوة أحد - جاء الكفار بثلاثة آلاف وكان المسلمون فله ، سبعائة مقاتل فقط ، وحتى يبين الحق صدق قضاياه في قوله : « وإن نصبروا وتنقوا لا يضركم كيدهم شيئاً » وليس المقصود هنا الكيد التتبعي بل عملهم العنسي ، أي وادكر صدق هذه القضية .

« وإذ غدت من أهلك » ، والغدوة هي : ود النهار ، والروح : آخر النهار ، والأهل : نطلق ويراد بها الزوجة ، والمقصود هنا حجرة عائشة ؛ لأن الرسول كان فيها في هذا الوقت الذي أراد فيه كمار فريش أن يثاروا لأنفسهم من قتي بدر وأسراهم ، لقد جمعوا حشودهم ، فكل منور من معركة بدر كان به فرسان وله رجال ، حتى أنهم بعد معركة بدر قال رعيمهم أبو سفيان لأصحابه : قن للنساء لا تبكين قتلاكم فإن الكداء يذهب الحزن ، فالدموع يسمونها عسل الحزن ، أو ثوب المواجهيد ، ساعة ينكى إنسان حزين يقول من حوله : دعوه يرتاح .

فلو حزنن النساء ويكنن على قتل بدر لهبطت جدوة الانتقام ؛ لذلك قال  
أبوسفيان : قل لمن لا ييكنن . إنه يريد أن يظل العبط في مسألة بدر موجوداً إلى أن  
يأخذوا الثأر . وفعلاً اجتمع معسكر الكفر في ثلاثة آلاف مقاتل ضد أحد ، وبعد  
ذلك استشار النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المسألة أصحابه وأرسل إلى واحد من  
أكبر المناهقين هو عبدالله بن أبي بن سلول ، وما استدعاه إلا في هذه المعركة ، فقال  
عبدالله بن أبي بن سلول وأكثر الانصار .

يا رسول الله نحن لم نخرج إلى عدو خارج المدينة إلا نال من ، ولم يدخل علينا  
عدو إلا بنا منه ، فإما يرى ألا نخرج إليهم فإن أقاموا أقاموا بشر محبس ، وإن  
دخلوه قاتلهم الرجال في وجوههم ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ،  
وإن جمعوا جمعوا حائبين وأشد آخرون من الصحابة بالخروج إليهم ، وقالوا

« يا رسول الله اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أننا نحننا عنهم وصفتنا ، ولم يترك  
أصحاب هذا الرأي رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى وقعهم على ما أرادوا ،

فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بينه فلس درعه وأخذ سلاحه ، وطم  
الدين ألحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخروج أنهم قد استكروه على  
ما لا يريد فندموا على ما كان منهم ، ولما خرج عليهم قالوا استكركم يا رسول  
الله ولم يكن لك ذلك ، فإن شئت فاقعد ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

« ما ينبغي لنبي ليس لأمة أن يصعها حتى يقاتل »<sup>(١)</sup>.

وخرجوا إلى الحرب ، وهذا هو الذي يُذكر به القرآن صدقاً للفضية التي جاءت في  
الآية السابقة . « وإن نصروا وتنفوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله يـ عملون  
عبط »

(١) رواه ابن إسحاق والإمام أحمد بإسناد الطبراني بحسنه ، والإمام ترمذى في الدرر

اذكر يا محمد :

﴿ وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ ﴾

( الآية ١٢١ سورة آل عمران )

و« تبوئ » المؤمنين مقاعد للقتال ، أى توطن المؤمنين فى أماكن للقتال ، ويؤاتى دلائنا بعض : وطنته فى مكان يؤى إليه أى يرجع ، واسمه وطن ، لأن الوطن يرجع إليه الإنسان .

انظر إلى البقرة الأدائية لقول الحق : « وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ » أى تجمع لهم ميادة ووطنا وكلمة « مقاعد » أى أماكن للثبات ، والحرب كثر وتر وقيام ، والذي يحارب بشته الله فى المعركة ، فكانه مُوطَّن فى الميدان ، فكان أمر الرسول إلى المقاتلين يتضمن ألا يلتفت أى منهم إلى موطن آخر غير موطنه الذى بُنيت ويؤاتى فيه أى إن هذا هو وطنك الآن ؛ لأن مصيرك الإيماني سيكون رهناً به .

إذن فقوله : « وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ » أى توطن « المؤمنين » ونقول لهم : إن وطنكم هو مقاعدكم التى ثبتكم بها . ورسول الله صلى الله عليه وسلم جاء بالرماء ؛ وأمر عديهم « عدا الله من جبير » وهم يومئذ حسون رجلا وقال رسول الله لهم

« قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا فإن رأيتمونا قد افتصرنا فلا تتركوا » وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا »<sup>(١)</sup>

لكنهم لم يقدروا على هذه لأن نفوسهم مالت إلى العتمة ؛ وشاء الله أن يجعل التجربة فى محضر من رسوله صلى الله عليه وسلم ، حتى يبين للمؤمنين فى كل المعارك التى تلى ذلك أن اتباع أمر القائد يجب أن يكون هو الأساس فى عملية الجندية وإنكم إن خالفتم الرسول فلا بد أن تنهزموا

(١) رواه ابن سعد وابن هشام والبخارى وغيرهم .

وقد يقول قائل . الإسلام اهرم في أحد ويقول لا ، إن الإسلام انتصر ، ولو أن المسلمين انتصروا في أحد ، مع عدالة الرماة لأمر النبي صلى الله عليه وسلم ، أن يستقيم لرسول الله أمر<sup>٩</sup>

إذن فقد اهرم المسلمون الذين لم يقدروا الأمر ، وكان لابد أن يعيشوا الهجرة وهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فحيثما هبت ريح النصر على المؤمنين في أول المعركة ، ابتدأ المقاتلون في الأشغال بالأسلاب والعتائم ، فقال الرماة ، سيأخذ الأسلاب عيرنا ويتركوا ويرتلوا ليأخذوا العتائم ، فاستهز حالد بن الوليد وكان على دين قومه اهرم الفرصة وطوقهم وحدث ما حدث وأدبهم وفضا في أساس حبر قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فانكهاروا وانهمروا فحصل رسول الله يدعو ويقول : إلى عباد الله ، حتى انحارت إليه طائفة من أصحابه فلامهم على هربهم فقالوا يا رسول الله هديناك بابائنا وأمهاتنا ، أتانا حبر فتدث هربعت فديوب فولينا مدبرين

إن التحقيق التاريخي لمعركة أحد قد أكد أن المسألة لا تعتبر هزيمة ولا انتصاراً ، لأن المعركة كانت لأمال مائعة وبعدها دعا الرسول من كان معه في عروة أحد إلى الخروج في طلب العدو ، وأدركوهم في حمراء الأسد وفر الكافرون . إن الله أراد أن يعطي المؤمنين درساً في لزوم أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقال الحق : وإذ عدوت من أهلث نبوي المؤمنين مقاعد للقتال .

إن الحق يذكر بمسئوليات القائد ، الذي يورع المهام ، فهذا جناح أيمن وذلك جناح أيسر ، وهذا مقدمة وهذا مؤخره . ويديل الحق هذا بقوله . والله سميع عليم ، حتى يعرف المؤمنون أنه سبحانه قد شهد أن رسوله قد بوأ المؤمنين مقاعد القتال . وسبحانه وعليم ، ما يكون في النيات ، لأن أسئلة في الحرب تدع عن الإيمان ويست انقياد قوالب ، ولكنها انقياد قلوب قبل انقياد القوالب ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿إِذْ هَمَّتْ طَّائِفَتٌ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلُوا وَاللَّهُ

## وَلِيَهُمْ وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُكَ فَالْيُسْرَىٰ

والمثل هو الخيل ، والطائفتان هما «سوحارثة» من الأوس ، و«سوسعة» من الخزرج ، ومؤلاء كانوا الحناح اليمن والحناح اليسار . فجاءوا إلى الطريق إلى المعركة ، وسمعوا كلام ابن مسعود ، إذ قال لهم : لن يحدث قتال ، لأنه بمجرد أن يراهم مقاتلو قريش سيهربون .

وقد ابن مسعود الموافق للرسول لو يعلم فتلاً لاتصعابكم . إلا أن عبد الله ابن حارثة قال : أشدكم الله وأشدكم رسول الله وأشدكم دينكم فساروا إلى القتال وثنوا بعد أن هموا في التراجع .

وما معنى «أهم» هنا ؟ إن أهم هو تحول الخطر نحو عملية ما . وهذا الخطر يصير في مرحلة ثانية قصداً وعزماً ، إذن فإحدى حدث مهم هو مجرد أهم بخاطر الاستحباب ، لكنهم ثنوا .

وبهذا ذلك ؟ لقد أورد الله بهذا أن يُثبت أن الإسلام مظهر من مظهره إلى الإنسان ، فالإنسان تأتبه خواطر كثيرة . بذلك يورد الحق هذه أسئلة يعطىها العلاج فقال : «إذ علمت طائفتان منكم أن تمثلا ،

وإذا قال واحد من الطائفتين والله ما يسرى أي لم أهم - أي لقد اضرح قلبي لأى مهمت - لأن صنعت أي من الدين قال الله فيهم : والله وبهيات ، وحسبي ولاية الله . لقد فرح لأنه أحد الوسام ، وهو ولاية الله .

وهكذا يلتقط العبر الموحية من الآيات الكريمة حول عروة أحد ، ونحن نعلم أن هذه العروة كانت العروة التالية لعروة بدر الكبرى وعروة بدر الكبرى انتهت بصر المسلمين وهم قلة في العدد والعدة ، فهي بدر لم يذهب المسلمون إلى

المعركة ليشهدوا حرباً ، وإنما ليصادروا أموال قريش في العير تعويضاً لأموالهم التي تركوها في مكة . ومع ذلك شاء الله ألا يواجهوا العير المحملة ، ولكن ليواجهوا الغنم ذات الشوك ، وجه النصر هم

ويكن هذا النصر ، وإن يكن قد ربي المهابة للمسلمين في قلوب خصومهم ، فإنه قد جمع همهم أعداء الإسلام ليتجمعوا لتسديد صربة يردون بها عيار الكفر ، ولذلك راب رؤوس قريش وقد سمعت سماعها أن سيكون على قتلهم ، لأن الكباء يربح ليس المتعة ، وهم يريدون أن يظل الحزن مكتوباً ليصنع مراحميد حفدية تحرك ليس الشربة للأحد ثار هؤلاء ، هذا من ناحية العاطفة التي يحسون أن تظل مؤحجة ، ومن ناحية المال فإنهم احتفظوا بماله العير الذي سجا يكون وسيلة لتدبير معركة يردون فيها اعتبارهم

وقد حاولوا قبل أخذ أن يفعلوا شيئاً ، ولكنهم كانوا يرقون على أعقابهم . فمثلاً قاد أبو سفيان حملة مكونة من مائة ، وأراد أن يهاجم بها المدينة فيما نعى حبرها إلى سيد رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحة إليهم ، فبلغ أبو سفيان خروج رسول الله ، ففر هارباً وألقى ما عنده من مائة في الطريق ليحفظ لحمل على الدواب لتسرع في الحركة ، ولذلك يسمونها « عروة اسوي » لأنهم تركوا طعامهم من السوق كي يحوز بعض الكفار أن يعبروا على المدينة بعد ذلك أكثر من مرة ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يذهب إليهم على رأس مقاتلين ، فمره عندهم مائة ومرة مائة وخمسون ومرة مائتان ، وفعلاً شنت الرسول صلى الله عليه وسلم شملهم وكان من حطته من الله عليه وسلم حين يذهب إن قوم كان ينفعهم أنهم يريدون أن يتأمروا لمرور المدينة أن يظل في بينهم وفي معسكرهم وقد ليس بالعين

كل ذلك سبق عروة أخذ وبعد ذلك تجمعوا يهبطوا لغزوة أخذ ، وكان ما كان ، والآيات التي تعالج هذه العروة فيها نجاءات لما جاء في المعركة ، فالرسول صلى الله عليه وسلم هو المقاتلين معاهد للقتال ، وأمرهم بالثبات في تلك المواقع لكن بعضاً من المقاتلين ترك مكانه ، والبعض الآخر هم بالانسحاب ، لكنه ثبت أخيراً ، وفر كهار عريش وقد نجت في هذه المعركة آيات الله لكثرة

فحين نصر الله سبحانه وتعالى المسلمين « بدر » وهم قلة ، لم يخرجوا المعركة وإنما خرجوا لمصادره غير . وربما طرأ أناس أنهم بمجرد نسبتهم إلى الله وإلى الإسلام سينصرون على هذه النمرة ، ويتركون الأسباب فأراد الله أن يعلمهم أنه لا بد من استنفاد الأسباب ، إعداداً لعدة واعد ، وطاعة لتوجيه قائد .

فما خالفوا كان ولا بد أن يكون ما كان . والمخالفة لم تشأ إلا بعد استهلال النصر ، ولذلك سيجيء فيما بعد ستون آية حول هذه الغزوة ؛ تبين لنا ماطر العبرة في كل أطوارها لنستخرج منها لمظة والدرس . ونعلم أن المتصيرين عادة يكون الجو معهم رخاء . وبكى الكلام هنا عن هزيمة من لا يأخذون بأسباب الله ، وهذا أمر يحتاج إلى رقعة . فجاء القرآن منا ليقتض عينا طرق من العبرة لنستخرج منها العبرة والمظة ، العبرة الأولى

أنهم حين خرجوا ، خلف المنافقون بقيادة ابن أبي ، إذن فالمعركة إنما جاءت لتمحيص المؤمنين . والتمحيص يأتي في الشيء الواحد ، أما التمييز في شيتين : هذا مؤمن ، وهذا كافر ، إنما التمهيص يأتي للمؤمن ويحركه عركا ، ويبين منه مقدار ما هو عليه من النيات ومن اليقين ، والحق إنما يمهص الفئة المؤمنة لأنها ستكون مأمومة في النارج كله إلى أن تقوم الساعة عن حماية هذه العقيدة ، فلا يمكن أن يتولى هذا الأمر إلا أناس لهم طلوب ثابتة ، وحاش قوي عند الشدائد ، وممة توبها زحارف الدنيا كلها

وبعد ذلك يعالج النفس الشرية في أوضاعها البشرية ، فمعتقد الإيمان لا تنصب في قلوب المسلمين بمجرد إعلان الإيمان ، ولكن كل مناسبة تعطي دفعة من العقيدة يكون بعد ذلك الأمر انعكاسي كنه . ولذلك بين لنا الحق أن طائفتين من المؤمنين قد همت بالتراجع ، فهم نفوس بشرية ، ولكن أنقذت الطائفتان ذلك لهم أم رجعت وفتت إلى أمر الله ؟ لقد رجعت الطائفتان . وهكذا رأينا بين الذين أعلنوا إيمانهم فئة نكصت من أول الأمر ، وفئة خرجت ثم عادت .

لقد تحدثت انقبوس ولكن أفراد تلك الفئة لم يقفوا عند حديث النفس بل ثبتوا إلى نهاية الأمر ، ومنهم من ثبت إلى الغاية السطحية من الأمر كالرماة الذين رأوا النصر أولا ، وهؤلاء من الدين ثبتوا ، ما فرأوا أولا مع ابن أبي . وما كانوا من الطائفة التي

همت ، ولكمهم كانوا من الدين ستوا . لكمهم عند مريق النصر لأول اشتاموا  
للعنائم ، وحالفوا أمر الرسول ، ولنقرأ قوله تعالى

﴿ وَلَقَدْ سَدَقَ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَتِنَهُمُ وتَسَرَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ  
وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِهِمَا أُرْسِلْتُمْ فَاخِجُونَ بِنُحُوسِكُمْ مِّنْ يُرِيدُ اللَّهُ شَيْئًا وَمِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ  
ثُمَّ صَرَّفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْلِغَكُمْ وَلَقَدْ عَمَّا عَلَيْكُمْ وَأَفْهَ ذُو نَفْسٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾

( سورة آل عمران )

وبعد ذلك تأتي لفظة أخرى وهي ألا نفنن في أحد من البشر ، فخالده بن  
الوليد بطل معسكر الكفر في أحد ، وهو الذي استغل فرصة نزول الرماة عن  
أماكنهم ، وبعد ذلك طوف جيش المؤمنين ، وكان ما كان ، من حاله قبل أن يسلم ،  
ألم يكن في غروة الخندق ؟ لقد كان في غروة الخندق . وكان في غروات كثيرة غيرها  
مع جند الشرك ، فأيمن كانت عقوبته في هذه الغروات ؟

إن عقوبة البشر تصارع مع عقوبة البشر ، ولكن لا توجد عقوبة بشرية  
تستطيع أن تصادر ترتيباً ربانياً ، ولذلك لم يظهر دور خالد في معركة الخندق ، لقد  
ظهر دوره في معركة أحد ، لأن المقابلين لخالد حالفوا أمر اقياده فبقيت عقوبة بشر  
لعقوبة بشر ، ولكمهم لو ظلوا في حصن المنح الإلهي في الوجهه لما استطاعت  
عقوبة خالد أن تطعو عن تدبيرات ربه أبداً .

والتحقيق التاريخي لكل العسكريين الذين درسوا معركة أحد قالوا . لا هزيمة  
للمسلمين ولا انتصار للكفار ، لأن النصر يقتضي أن يجلي مريق قريباً عن أرض  
المعركة ، ويظل المريق الغالب في أرض المعركة . فهل قريش ظلت في أرض المعركة  
أو فرّت ؟ لقد فرّت قريش .

ويُصر انصر أيضاً بأن يؤسر عدد من الطائفة المقاتلة ، فهل أسرت قريش واحداً  
من المسلمين ؟ لا . ولقد علموا أن المدينة خالية من المؤمنين جميعاً وليس فيها إلا من  
تخلف من المنافين والصعاف من النساء والأطفال ، ولم يؤهلهم موزهم السطحي لأن



يدخلوا المدينة

إذن فلا أسروا ، ولا أخذوا عبيدة ، ولا دخلوا المدينة ، ولا طلوا في أرض  
المعركة ، فكيف تسمى هذا نصراً ؟ فلنقل: إن المعركة ماعث . وظل المسلمون في  
أرض المعركة

وهنا نتجس البطولة الخفة : لأننا كما قلنا في حالة انصر يكون الأمر رجاء ، حتى  
من لم يُل في المعركة بلاء حساً ينتهر فرصة النصر ويصول ويجول ، ولكن المهزومين  
والذين أصيب قتلهم صلى الله عليه وسلم ، وضعف أن يصعد الجبل ، حتى أن  
طلحة بن عبيد الله بطأطيء ظهره لرسول الله ليمتطيه فيصعد على الصخرة . ورسول  
الله يسيل منه الدم بعد أن كسرت رياعيته وثأى حقتان من خلق المعفر في رحته ،  
بعد هذا ماذا يكون الأمر ؟ حتى لقد أرجف المرحقون وقالوا : إن رسول الله قد  
قُتل

وكل هذا هو من التحيص ، فمن ثبت مع هذا ، فهو الذي يؤمن أن يحمل  
السلح لنصرة كلمة الله إلى أن تقوم الساعة . ويتفقد رسول الله صلى الله عليه وسلم  
بطلاً من أبطال المسلمين كان حوله فلا يجده ، إنه سعد بن الربيع ،

يقول عليه الصلاة والسلام : من رجل ينظر في ما فعل سعد بن الربيع ؟ أتى  
الأنبياء هو أم في الأموات ؟ فقال رجل من الأنصار هو أبي بن كعب . فذهب  
لأنحسه ، فرأيت أنه وقد طعن سبعين طعنة ما بين صرة سيف وطعنة رمح ورمية  
قوس . فلما رآه قال له رسول الله بقرئك السلام ، ويقول أنت كيف نحمدك . أي  
كيف حالك ؟

قال سعد بن الربيع قل لرسول الله صلى الله عليه وسلم جزاك الله عنا خير  
ما جزى نبيا عن أمته ، وقل للأنصار ليس لكم عند الله عُذر إن غلبوا إن رسول  
الله وفيكم عيون تطرف . ثم فاضت روحه .

انظروا آخر ما كان منه ، حين أُنخن في المعركة فلم يقو على أن يجارب

بصالحه ( ) ، انتهر بنية الحياة ليحارب بمقاله ، ولتصير كلماته دويًا في آذان المسلمين وليعلم أن هؤلاء الذين أشخروا جراحاً ما صنعوا فيه إلا أن قلوبهم إلى لقاء ربه ، وأنه داهب إلى الجنة وتلك هي النجاة التي يرجوها كل مؤمن .

ونجد أيضاً أن الذين يجدرهم القرآن أن يشهدوا معارك الحرب ، يتطوعون للمعركة أمثالاً عمرو بن الجموح ، فكان أعرج . والمرح عذر أقامه الله مع المرحس والعمر ، لأنه سبحانه هو المقاتل .

﴿ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ ﴾

( من الآية ٦١ سورة النور )

وكان لعمرو بن الجموح يوم أربعة مثل الأسد قد دعو إلى المعركة ، ومع ذلك يطلب من رسول الله أن يذهب إلى المعركة ويقول له : يا رسول الله إن نبي يريدون أن يحسبوني عن هذا الرجاء والخروج معك فيه ، هو الله إن لأرحم أن أطأ بمرحتي هذه في الحجة .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أما أنت فقد عذر الله فلا جهاد عليك . وقال لسيده : ما عليكم إلا أنتموه ، لعن الله أن يبرقه الشهادة ، لمرح معه فقتل .

وهذا مؤمن آخر يقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله إن ابني الذي استشهد بدمه ربه في لرويا يقول لي « يا أبا أتل عليا » فأرجو أن تأذن لي بالقتال في « أحد » فإذن له فقاتل فقتل قصار شهيد .

وتجلى الروعة الإيمانية والسبب الإسلامي في حادثة بن النيران ، لقد كان أبوه شيخاً كبيراً ملياً فأخذ سيده ولحق برسول الله صلى الله عليه وسلم لعن الله يبرقه الشهادة في سبيل الله ، فدخل في المعركة ولا يعلم به أحد فقتله المسلمون

ولا يعرفونه ، فقال انه حديده بي والله فقالوا والله ما عرفناه ، وصدقوا ، قال حديده يعرف الله لكم وهو ارحم الراحمين . وراد رسول الله صلى الله عليه وسلم ان يؤدي دينه ، فقال له حديده بن النبهان : وان تصدقت بها على المسلمين

هذه الاحداث التي دارت في المعركة تدل على ان عروة اخذ كد لانه ان تكون هكذا ، لتحصن المؤمنين تحجيصاً يؤمنهم لان يحملوا كلمة الله ويعملوها في الارض . ويعمل الحق سبحانه ويعلى

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ سَدَرُوا فِيكُمْ أَوْدَةً فَأَتَقُوا اللَّهَ  
لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٧٣﴾

لقد نقلهم من معركة فيها شبه هزيمة أو عدم انتصار إلى نصر ، فكأنه يريد ان يقول ان الامر بالنسبة لكم امر إلهكم الذي يرمكم ويعينكم ويمدكم ويرعاكم . وإياكم ان تعتمدوا على العند والعدة ولكن اعتمدوا على الحق سبحانه وعلى رعي ما يريد الحق توجيهها لكم ، لان مدد الله ياتي لتفصل لمدد الله ، ولا ياتي المدد لغير مستقل لمدد الله

ونعرف ان فيه فرقاً بين الفاعل وبين الفاعل ، فالفاعل شيء ، والفاعل للانعزال بالفعل شيء آخر وصيرت لذلك مثلاً . بان المفاعل قد يكون واحد ، ولكن الاعمال يختلف ، وحتى نفهم المسألة نقول . كوب الشاي ثلثي لتشرب منه فتجد ، ساحتاً تنفع فيه ليرد ، وفي الشاء تصنع لتجد يدك بمرارة تمنع فيها تنديفاً ، إنك تنصح مرة لتبرد كوب الشاي ، ومرة تنصح لتدفئ يدك ، إند فالباعل واحد وهو النافع ، ولكن القابل للانعزال شيء آخر ، ففيه فاعل وفيه قابل ، ومثال آخر ان القرآن كلام الله ولو أنه نزل على الجبال لخرت خاشعة ، ومع ذلك يسمعه أناس .

لا يستر الله عليهم بل يكشفهم لنا ويوضحهم بعظمه كونه

﴿ وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ لِآيَاتِ حَقِّ إِدْ خَرَجُوا مِنْ عِدِكَ غَالِبِينَ فُتُوا أَلَعَلَّ مَاذَا  
قَالَ ءَايَةً أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَتَّخِذُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾

(سورة محمد)

إنهم لم يصنعوا بالقرآن ، وقولهم : « ماذا قال نفا » معناه : استهتار بما قيل . ويوجد  
الحق يرد على ذلك بقوله تعالى

﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَعَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَأَتَّخِذُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾

(سورة محمد)

إن العاقل واحد والقدير علف . ويصاح الحق بلاغه الحكيم في قوله

﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَتَقْوُونَ أَنْ يَنْصُرَ اللَّهُ عِبَادَهُ هَؤُلَاءِ يَنْصُرُ اللَّهُ عِبَادَهُ تَسْكُرُونَ ﴾

)

إذن فعدد الله لكم إيماناً بتأييد مستقبل . إيماناً ، فإن لم يوجد المستقبل - بكسر الهمزة -  
فلا يوجد العدد . هذا كنت لا تستطيع أن تستقبل ما ترميه السماء من عدد بقول  
لك : أصبح جهار استغاثت ، لأن جهار الاستقبال كانه باع العاصد ، إن الإرسال  
من الإداعات مستمر ، لكن للدياع العاصد هو الذي لا يستقبل . إذن فإن كنت تريد  
أن تستقبل عن الله فلا بد أن يكون جهاز استقبالك سليماً . ويوضح الحق ذلك  
بقوله جن جلاله

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِمُؤْمِنِينَ أَلَيْسَ يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمَدَّكُمْ

رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُدَرِّينَ ﴿١٢﴾

ويبين سبحانه وتعالى كيفية إصلاح جهاز الاستقبال للقي مدد الله فيقول

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آَلَفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٥﴾

إن الحق سبحانه وتعالى ضرب المثل بالصبر والتقوى في بدر مع الملة مكان النصر ، وهنا في أحد لم يصبروا ، فسدعة أن رأيت العائم سأل لعائكم فلم تصبروا عنها ، ولم تتقوا أمر الله لمبلغ على لسان رسوله في التزم أمانكم فكيف تكونون أملاً لتمدد ؟

إذن من الذي يمدد المدد ؟ إن الله هو الذي يعطي المدد ، ولكن من الذي يستقبل المدد ليصبح به ؟ إنه المقادر على الصبر والتقوى

إذن فالصبر والتقوى هما المدة في الحرب لا تقل عدداً ولا عدة ولذلك قال ربنا : واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ولم يمل أعدوا لهم ما نطون أنه يعلمهم ، لا أنتم تعدون ما في استطاعتكم ، وساعة تعدون ما في استطاعتكم وأصيبكم قد انتهت .. فالله هو الذي يكملكم بالصبر

وايشر في دوتهم يصعدون هذا ، فمثلاً - والله المثل الأعلى من قبل ومن بعد -

لنصر من أنت باخر كبر وتأييد العربات الصنعة محمله بالصانع ، حساديق  
وطرود كسرة ، وأنت جالس يسار يفرغ العمال الصانع ، وحاء عامل لبر الطرد  
فعله الطرد على عافيته ، وتجد نفسك بلا شعور منك ساعة تجده سميع تهب وتقوم  
لنصرتة ومعاونته ، لقد استمدد هذا العامل أسنانه ولم يهتر ، والذى بعينه الأمر بعد  
يده إليه ، فما بالنا بالحق سبحانه ونعالى . كأنه يقول بذل وقدم أسبابك ، فإذا  
ما رأيت أسبابك تنهت والوقوف أكثر منك ، فاعلم أنه أكثر منك أنت ولكنه ليس  
أكبر من ربك إنه سبحانه يقول

﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ ۚ  
وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ۝١٦٧﴾

فإياك أن تظن أن المدد بالثلاثة آلاف أو الخمسة آلاف ، الدين أنزلهم الله وأمدكم  
مهم أو بالثلاثة المديين على القتال إياكم أن تظن أن هذا المدد ، هو شرط في  
نصر الله لك بداتك أو بالثلاثة ، إنه قادر على أن يصورك بذور ملائكة ، ولكنها  
بشرى لتؤنس المادة البشرية ، ساعة يرى المؤمنون أعداداً كبيرة من المدد ، والكفار  
كانوا متفوقين عليهم في العدد ، فإن أسباب المؤمنين تطمش وتتق بالنصر إذن  
فالملائكة مجرد بشرى ، ولكن النصر من عند الله العزيز الذي لا يعيب وكن الأمور  
تسير بحكمته لئلا تملوه حكمة أبداً ، يقول الحق من بعد ذلك .

﴿ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتَسِبُ  
خَافِينَ ۝١٦٨﴾

وقطع الطرف بتحدد بمعرفه ما هو طرف لماذا ؟ فإن كان الطرف هو العدد الكثير  
فقط الطرف أن يقتل بعضه وإن كان الطرف هو أرضا واسعة فقطع الطرف أن  
ياخذ من أرضهم . ولذلك يقول الحق سبحانه

﴿ وَلَمْ يَرَوْا أَنَّ لِلْأَرْضِ لَافِقًا مِّنْ أَطْرَافِهَا وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ لَّعِيفٌ ۝١٧٣٧  
لَقَدْ جَاءَهُمْ هُدًى مِّنْ رَبِّهِمْ وَالْحَقِّ لَهُمْ لَافِقًا مِّنْ أَطْرَافِهَا ۝١٧٣٨﴾

( سورة الرعد )

لقد كانت الأرض الكُفْرِيَّة تحسّر كل يوم حرّةً من لبسهم هذا الحرّة إلى الأرض  
الإيمانية ، هذا بالنسبة لسعة الأرض ، واعرض أن الطرف هو المال ، فقطع الطرف  
ها يكون بأن يأخذ بعض المال كمائهم ، ثم هناك المنزلة التي كانت تهب الجزيرة  
كلها ، كل الجزيرة تهب قريشاً ، ومواقعها التجارية للشمال والجنوب لا تستطيع قبيلة  
أن تعرض لها ، لأن كل القبائل تعرف أب ستذهب إلى البيت في موسم الحج ،  
فلا توجد قبيلة تعرض لها لأنها عداء ستذهب إلى قريش ، إذن فالسيادة والعظمة  
كانت لقريش ، وساعة تعلم القبائل أن رجال قريش قد كسروا وانهرموا ، وأن  
رحلتهم إلى الشام أصبحت مهددة ، فأنهم يبحثون عن مريق آخر يذهبون إليه

إن قطع لطف كان على أشكال متعددة ، فإن كان طرف عدد فيقتل بعضهم ،  
وإن كان طرف أرض فيعصها يؤخذ وتذهب إلى أرض إيمانية ، وإن كانت عظمة  
وقهرا تأتهم الهزيمة ، وإن كان يعوداً في الجزيرة فهو يتركها ليقطع طرفاً من الدين  
كفروا .

ولنلاحظ أن الحق قد قال : « ليقطع طرفاً » - لم يقل ليأخذ - لأن الله سبحانه  
وتعالى أنقى على بعض الكفار لأن له في الإيمان دوراً ، وكان رسول الله صلى الله عليه  
وسلم ممثلاً بالمعطف والرحمة والحنان على أمته ، وكان يحسن الظن بالله أن يهديهم ،  
ولذلك تعددت آيات القرآن التي تتحدث في هذا الأمر . ها هو ذا الحق يقول .

﴿ فَلَمَّكَتْ رَحِمَتُكَ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ وَأَن لَّيُؤْمِرُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَتَمًا ۝١٧٣٩﴾

( سورة الكهف )

ون موقع آخر بالقرآن الكريم يقول الحق

﴿ لَعَلَّكَ بِبَيْعِ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ۝ إِنَّا نُنَزِّلُ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْيُنُهُمْ لَهَا حَاضِرِينَ ۝ ﴾

(سورة الشعراء)

والله يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : « قَاتِلْنَا عَيْتَكَ الْبِلَاحَ » والرسول يحب أن يبتدى إلى الإيمان كل مرد في أمته ، فقال الحق :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۚ فَالَّذِينَ ظَلَمُوا فَلْيَرْجِعُوا إِلَىٰ رُبِّهِمْ وَلْيَتُوبُوا ۚ إِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ۝ ١٢٨ ﴾

أي ليس لك يا محمد من الأمر شيء إلا أن يتوب الله عليهم فتمرح بتوبتهم ، أو يعذبهم ، فلا يجزئك ذلك لأهم ظالمون أي ، عليك يا محمد إلا لبلاغ فقط أما هم فقد ظلموا أنفسهم بالكفر واطلموا كما يعرف هو أحد الحق من ذي الحق وإعطاه لغيره وقمة الظلم هو إصغاء صفة الألوهية عن عر الله ، وهو الشرك ، ولذلك يقول الحق :

﴿ إِنْ أَشْرَكَ يُنَبِّئُكَ لَتَكُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝ ١٢٩ ﴾

(من الآية ١٢٩ سورة البقرة)

إن الحق يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ۚ فَالَّذِينَ ظَلَمُوا فَلْيَرْجِعُوا إِلَىٰ رُبِّهِمْ وَلْيَتُوبُوا ۚ إِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ۝ ١٢٨ ﴾

(سورة آل عمران)



وعده ملكة لم تخرج عن ملك الله ، لماذا ؟ لأن السماوات والأرض وما فيهن ملك لله . قيل أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم . بعد أن خضب الشركون وجهه بالدم وهو يدعوهم إلى ربهم . أراد عليه الصلاة والسلام أن يدعوهم فيها الله لعلمه . سبحانه . أن فيهم من يؤمن وأنزل قوله تعالى .

وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٣٩﴾

وبما أنه نتحدث عن ملامح في غروة أحد أريد أن أقول . « جبل أحد رضى الله عنه » ، لأن سمعت بعض ابحارفين بالله حين تذكر كلمة « أحد » قال أحد رضى الله عنه . فتعجب القوم لقول الشيخ عبد الله الزيدان السبي قال ذلك ، فلما رأى عجبهم قال لهم . ألم يخاطبه رسول الله بقوله : « أثبت أحد فأثابا عليك نبى وصديق وشهيدان » (١) ، ألم يقل فيه رسول الله - « أحد جبل يحبنا ونحبه » (٢) أتريدون أحسن من ذلك في الصحبة ! قل أحد رضى الله عنه

وقلت سابقاً . إنك إذا وقع عقلك في حاجة فلا تأخذها بمقاييسك أنت ، بل خذها بمقاييس الأعلى . ونحن نقول هذا الكلام لأن العلم الآن يجرى ويسعى سعياً حثيثاً مسرعاً حول استخراج بعض أسرار الله في الكون ، فمن لنا أن الحيوانات لها لغات تتفاهم بها ، ويحسون الآن أن يصنعوا قاموساً للغة الأسماك . والحق سبحانه وتعالى ذكر لنا حكاية السمكة مع سليمان - عليه السلام - فقال

( ١ ) رواه البخارى في فضائل الصحابة ، وأبو داود في التبت ورواه أحمد بن محمد

( ٢ ) رواه البخارى عن سهل بن سعد ، والترمذى ، والطبرانى عن أنس وأحمد والطبرانى والبيهقى عن سويد بن غفلة

﴿ يَكَايِبُ النَّمْلِ أَنْظَلُوا مَكِيدَكُمْ لَا يَخْطُمُكُمْ سَيْحُنُ وَحُودُهُمْ وَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

( من الآية ١٨ سورة النمل )

هذا القول يدل على أن غلة خرجت وقامت بعمل ( وردية ) كي تحافظ على من معها ثم عادت لتكلم مع أبناء فصلتها ، وسمعتها سيدنا سليمان ، فتبسم من قولها إذ أن العنم يتابعن ويحد ويشارع الآن ليثبت أن لكل حس في الوجود لمة يتعاهم بها ، وكل حس في لوجود له افعال ، وكل جنس في الوجود له تكاثر ، ولذلك قال الحق لنا على سنان سيدنا سليمان -

﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ عِلْيَا حَتَّى أَطِيرَ وَأُورِثَنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَخَوَالِدُ الْمُضِلِّ الْعَمِينَ ﴾

( من الآية ١٦ سورة النمل )

وكانت هذه نخصرمنية لسيدنا سليمان عليه السلام ، إذن فللطير سطق وعندما تنامي ونذهب إلى الجهاد نسمع قول الحق سبحانه في آل فرعون وعدم بكاء الجهاد عليهم :

﴿ كَمْ تَرَكُوا مِنْ خَلْقٍ وَعَجُوزٍ ۚ (٢٥) وَرُدُّوا وَمَقَابِرَ الْكَافِرِينَ (٢٦) وَنَعْمَةً كَانُوا فِيهَا فَكَيْدِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمَ الْعَادِثِينَ (٢٨) تَابَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ (٢٩) ﴾

( سورة النمل )

هل تكن السماء والأرض ؟ إنه أمر عجيب ؛ فالجهاد من سماء وأرض لا تتعاهم فقط ولكن لما مواطن أيضاً ، لأن الكاء إنما يشأ عن افعال عاطفي وجداني .

وهذا يعني أن اجسادات لا تتكلم فقط ، ولكنها تحس أيضاً ، فالأرض تخرج أبقالها ،  
وتحدث أخبارها ، كيف ؟

﴿ يَا أَيُّهَا رَبُّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۖ ﴾

( سورة الزلزله )

والسماء والأرض أتيا إلى الله في منتهى الطاعة والخشوع :

﴿ ثُمَّ أَسْرَوْنَ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ مُّطَّالٌ فَلَهَا وَلِالأَرْضِ اثْنَيْ عَشَرَ نَاحِيَةً  
قَالَتَا آمَنَّا بِمَا بَيَّنَّنَا ۚ ﴾

( سورة صافات )

إذن فهناك ما هو أكثر من النعمان ، إن لنا عواطف مثلك تماماً ، وكما نجزئك  
حاجته فالأرض أيضاً تبكي ، ومادامت تبكي إذن قلبها مقابل بأن تفرح ، ويقول الله  
تعالى عن أرض فرعون : « فلما بكى عليهم السماء والأرض ، قلن إنما لم نك مع بعض  
الناس » لما كان هذا الكلام مبررة

لذلك قال الإمام علي - كرم الله وجهه - : إذا مات المؤمن بكى عليه موضعان  
موضع مصلاه ؛ لأنه سيحرم من نعمة الإيمان ، وموضع عمله ، موضع في الأرض  
وموضع في السماء . إذن فلا بد أن يفهم أن لكل شيء شعوراً . وقال صلى الله عليه  
وسلم : « إذا مات المؤمن استبشرت له بغاة الأرض فليس من يقعه إلا وهي تنمى  
أن يدمى فيها »<sup>(١)</sup>

لماذا نقول هذا الكلام الآن ؟ نقول ذلك حتى إذا تبين بالعلم أن لكل شيء لغة ،  
ولكل شيء في أجناس الكون تفاهة ، يقال إن فيه تأساً حيث عليهم نسيات الإيمان  
فأدركوها وأحسوها من القرآن ، فلا يهين أحد أنه انتكر من ذات نفسه لأنها في  
القرآن وإن كما لا نعرف كيف تأتي

( ١ ) رواه الديلمس عن ابن جرير عن أبيه ، وتكملة الحديث : « إذا مات الكافر أظلمت الأرض فليس

من يقعه إلا وهي تدمى » والله أن يدمى فيها »

وهذه المعركة - معركة أحد - التي أخذت سبع آية ، نجد أن الحق تكلم عنها هنا  
فكان « وإذ غدوت من أهلك » وإذ صبت طبعتان ، وقوله - « ولقد نصركم الله  
بندر وأتم أدلة » ، وبعد ذلك نرى العروة في حرارتها وبأسها بأشياء يضعها هنا ، ثم  
يأتي ليكمل العروة - لو أن هذه نقطة من العروة ونسهي ثم يأتي موضوع آخر ، لما  
شغل أنفسنا ، إنما العروة سألنا فيها سؤالا ، فكيف يسى الكلام في العروة  
ولا يعطينا إلا استهلال العروة ، وبعد ذلك ينصب القرآن على معاني بعيدة عن  
العروة ؟ فما الذي يجمعه - سبحانه - بترك أمر العروة ليقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ مَصَافَةً وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ١٣٠

وَأَنْتُمْ أَسْدَأُ لِقَىٰ أُعْذِرَ لِلْكَافِرِينَ ١٣١ ﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ

تَرْحَمُونَ ١٣٢ ﴾ وَمِنْ حَزَنٍ إِيَّاكَ مَقِيمَةٌ مِنْ رَبِّكَ وَحْيٌ مِّنْ رَبِّكَ أَسْمَوَاتُ

وَالْأَرْضُ أُعْذِرَ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾ الَّذِينَ يُعْطُونَ فِي أَسْرَىٰ وَالْأَسْرَىٰ

وَالْكَافِرِينَ أَنْعَمَ وَأَتَعَمِينَ عَنِ النَّاسِ وَأَفْهَمَ أَتَعَمِينَ ١٣٤ ﴾

وَالَّذِينَ إِذَا هُمْ فِي حِصْنٍ أَوْ عَصِيدٍ أَمْسَكَ دَعْوَاهُمْ فَاسْتَعْوَاهُ يُؤْوِيهِمْ

وَمَنْ يَغْمِرُ الثُّبُوتَ إِلَّا اللَّهُ وَلَهُ يُجْرُوا عَلَىٰ مَعْنَاهُ وَهُمْ يَعْبُونَ ١٣٥ ﴾ أُولَٰئِكَ

حَرَّاقُهُمْ مَّقِيمَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَحَشَتْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا

وَيَوْمَ أُبْرِئُ الْمُعَمِّينَ ١٣٦ ﴾ قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلِكَ سُنَنٌ يَمُرُّ فِي الْأَرْضِ

فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ١٣٧ ﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى

وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ١٣٨ ﴾

(سورة ل عمران)

لماذا لم يعطينا الحق إلا استهلال العروة وبعد ذلك انصب على قصايا أولها قصبة  
الربا ، ما للعلاقة بين هذه القصايا وثلاث العروة ؟ وأقول - رحم الله صاحب

الطلال الواردة الشيخ سيد قطب فقد استطاع أن يستخلص من هذه القصة مبادئ إيمانية عقديّة لو أن المسلمين في جميع بقاع الأرض جعلوها نصب أعينهم لما كان لأى دولة من دول الكفر علب عليا .

ونريد أن نفهم هذه اللقطات ، ولذا ، استهلت بمسألة الربا ؟ لأنّ لدى كل مبدئ في الهرجة أو عدم الصر في معركة أخذ أهم طمعوا في العينة ، والغيمة مال رائد ، والربا فيه طمع في مال زائد

والقرآن حين يعالج هـ قصة حدثية ، والأحداث أعمار تمر وتنتهي ، فهو سبحانه يريد أن يستبقى عطاء الحدث ليشيع في غير زمان الحدث ، ولا فحدث قد يمر بعطائه وعمره وينتهي ولا تكون له فائدة . والنفس حين تمر بالأحداث تكون مكتبة متفحفة ، لأن الحدث - كما قال العمور له الشيخ سيد قطب - يكون ساحبا ، فحين يستعمل القرآن الحدث قبل أن يرد فإن القضية التي نعرض لها الموعظة تسكن من النفس البشرية . وهو سبحانه لم يرد أن تمر أحداث أخذنا فيها من العبر والعظات إلا ويستغلها القرآن الكريم لينبب بها قضايا إيمانية تشيع في غير أرملة الحدث من الحروب وغيرها ليستظم أيضا وقت السلام فأية الرب هذا كأننا سقطت وسط المصرى اتق نتعرض لغزوة أحد .

والسطحيون قد يقولون ما الذى حمل لقرآن يتنقل من الكلام عن أحد إلى أن يتكلم في الربا مرة ثانية بعد أن تكلم عنه أولاً ؟

ونقول : إن القرآن لا يؤرخ الأحداث ، وإنه يريد أن يستن أحداثا ليسط ويوضح ما فيها من المعاني التي تجعل الحدث له عرض وله طول وله عمق ؛ لأد كل حدث في الكون يأخذ من الزمن قدر الحدث ، والحدث له طول هو قدر من لزمن ، يكون ساعة أو ساعتين أو ليلة مثلا ، هذا هو طول الحدث

والأحداث التي يجريها الله لها طول بمجده عمر الحدث الزمنى ، ولها عرض يعطيها الاتساع ، فبعد أن كانت حط مستقيماً صارت مساحه ، ويجعلها الحق شاملة لأشياء كثيرة ، فهو لا يريد للحدث أن يسير كخط مستقيم ، بل يريد طريقا واسعا له

مساحة وله عرض . هذا العرض يعطيه رقعة مساحية تأخذ كثير من الأشياء ، وهذا أيضاً قد ينتهي مع الحدث ، ولذلك يريد الله أن يعطى للحدث بعداً ثالثاً وهو الممق في التاريخ فيعطى عطاءه ، كما نستفيد نحن الآن من عطاء حدث هو عزوة أحد .

إذن فالحدث له حجم أيضاً ، وهذا ما يجعل الناس تقف لتقول : إن صلة الرحم تطيل العمر ، والعمر له حد رمى عند وهو الخط المستقيم له ، وهناك واحد يزيد من عرض عمره ، فبدلاً من أن يقع الناس في مجال صغير فهو يعمل ويتسع في مجال أوسع ، إذن فهو يعطى لعمره مساحة

وهناك إنسان آخر يريد أن يكون أقوى في العمر ، فهذا يعمل ؟ إنه يعطى لعمره عمقاً ، فبدلاً من أن يعمل لمجرد حياته وينتهي عمره معها كانت رقعته واسعة ، فهو يزيد من عمله الصالح ويترك أثراً من علم أو خير يستمر من بعد حياته كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له »<sup>(١)</sup>

ولذلك يقول الحق .

﴿ أَمْ تَرَ كَيْفَ صَرَّبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كُنْجَرَةً طَيِّبَةً أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۚ نُزِّلَ أَكْثَرُهَا كُلِّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝ ﴾

( سورة إبراهيم )

هي كلمة طيبة قيلت ، لكنها مثل الشجرة الطيبة ، لأنها ترسخ في أذن من يسمعها فتصير حركة خاضعة للكلمة ، وكلما فعل السامع هذه الكلمة عدلاً نالها من تأثير هذه الكلمة فإن بعض الثواب يعود إلى من قال هذه الكلمة حتى ولو كان قد مات .

(١) رواه أبو داود والنسائي وابن ماجه في الأدب المفرد

فكان قاتل هذه الكلمة ملزماً يعيش ، وكان عمره قد طال بكلمته الطيبة . إذن فاعمال الخير التي تحدث من الإنسان ليس معناها أب تعطيل العمر ؛ لأن العمر محدود بلجل ، ولكن هناك إنسان يعطي عمره عرصاً ، وآخر يعطيه عمقاً ويظل إعطاء منه مرصوفاً إلى أن تقوم الساعة ، فكانه أعطى لنفسه عمراً خالداً . ويقولون : والذكر للإنسان عمر ثان .

والحق سبحانه وتعالى يوضح الدروس المستفادة من غزوة أحد ، إن أول مخالفة كانت سبباً لبس في الهزيمة ، ولكن دعنا نقل : « في عدم إتمام النصر » ، لأنهم بدأوا متصرين ، ولم يتم النصر لأنه قد حدثت مخالفة ، ودوام هذه المخالفة أنهم ساعة رأوا الثنائيم ، اندفعوا إليها ، إذن مدافعهم هي طلب المال من غير وجه مشروع ؛ لأن النبي قال لم : ( انضحوا عما الخيل ولا تؤتوا من قتلكم ، الزموا أماكنكم إن كانت الذوبة لنا أو علينا . وإن رأيتموها تحفظوا الطير فلا تبرحوا مكانكم ) وهذا صارت مبارحة المكان أمراً غير مشروع ، فتطلع النفس إلى شيء في غير ما أمر به رسول الله يعتبر أمراً غير مشروع والتطلع هنا كان للمال ، وهكذا الربا .

وأراد الحق أن تكون سخونة الحدث ، والاثار الذي نشأ من الحدث في أن المسلمين لم يتم نصرهم ، ونصبوا ، وكان مصدر التعب أن قليلاً منهم أحبوا المال الزائد من غير وجه المشروع . فأراد - سبحانه - أن يكون ذلك مدخلاً لبيان الاثر السيئ للتعاض بالربا .

إذن لهذه مناسبة في أننا نجد آية الربا هنا وهي توضح لآثار السيئة للطمع في المال الزائد عن طريق غير مشروع ، والقرآن فيه لكثير من المواقف التي توضح آثاراً تبدو في ظاهرها غير مترتبة ، ولكن النظرة العميقة تؤكد الترابط .

وقدنا من قبل في قوله الله تعالى .

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ۖ فَإِنْ حَضَرَ قَرْبًا لَا أَوْفَاقًا فَلَا تُسَمُّ فَلَا تُكْرُوا اللَّهَ ۚ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ۗ ﴾

( سورة البقرة )

قد يقول أحد السطحيين : إن الحق سبحانه وتعالى كان يتكلم عن الطلاق قبل هاتين الآيتين فقال سبحانه :

﴿ وَإِنْ حَلَلْتُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَحْشُرُوا رِقَابَكُمْ فَرَضْتُمْ عَلَيْكُمْ قَرِيبَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَنْ يُغْفَرَ لَكُمْ أَوْ يُغْفَرَ إِلَيْكُمْ بِهَدْيٍ عَصَا الْكَافِرِ وَأَنْ تَحْشُرُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَحْشُرُوا الْمُضِلَّ بِكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة البقرة)

ويترك الحق الحديث عن الطلاق ويأمر بالحفاظ على الصلاة بقوله الحكيم :  
«حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين»

وبعد ذلك يعود الحق لاستكمال حديث الطلاق والفراق بالموت

﴿ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِثْقَاقَ رَيْبِهِمْ أَرْوَجًا وَأَسْبَغَ الْأَرْوَجِمْ مَتْنًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ  
إِشْرَاحٍ فَمَنْ تَرَجَّعَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ فِي مَا مَسَّ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَعْرُوفٍ  
وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

(سورة البقرة)

إنه يتكلم عن الطلاق ، والوفاء ، ثم ينزل بينهما آية الصلاة ، لماذا ؟ ليتصح لنا أن المنهج الإسلامي منيع متكامل إنك أن تقول إن الطلاق غير الصلاة ، غير الوفاء ، أبداً ، إنه منيع متكامل ولأنه - سبحانه وتعالى - يريد أن يسبها إلى أن لطلاق عملية ثأن والنفس فيها غضب ، وثأني والزواج والزوجة وأهل الزوج وأهل لزوجة في كدر ، فيقول لهم المنهج : لو كنتم تحسنون المهمل لفرعتم إلى الصلاة حين واجهكم هذه الأمور التي فيها كدر

وساعة تكون في كدر قم وتوضأ وحمل ، لأن السلي علمنا أنه إذ حزنه أمر قام



إلى الصلاة ، فباعه محمد أخو المشجور بالنور بين الروح والروح وأهلها قبل هم  
المسألة هبازت أكبر من حينه ، فهذا يصل لساعدا لله على حل هذه المسائل  
الصعبة ، وأما المحمدى ألا يوجد الله حلاً لمشكله لحاً فيها المسلم إلى الصلاة فيها .

وهكذا نفهم أن الحق قال : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » لأن  
حافظتكم عليها هي التي منتهى كل الخلاقات ؛ لأن الله لا يكون في بالكتم ساعة  
صيفكم وفي ساعة شدتكم فتسلمون للضيء والشدّة وتسون الصلاة ، في الوقت  
الذي يكون فيه الإنسان أجوح ما يكون إلى الصلاة . إنك في وقت الضيق والشدّة  
عليك أن تذهب إلى ربك ، وأقول هذا المثل - ربه المل الأعلى - إن لوند الذي  
يضره أصحابه يذهب إلى أبيه ، كذلك روحك إذا أعصتها تذهب إلى أهلها ،  
فكيف لا تذهب إلى ربك وقت شدتك وكرتك ؟

وهكذا نجد أن قوله الحق : « حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى » جاء في  
الكتاب الصحيح ، وهكذا آية الرما ، جاءت في مكانها هذا وحصرها أنه تكتم من  
الرب أولاً ، فتأتي الحادثة وسحوة الحدث وينزل هذا القول الكريم كمن يعرف كل  
من يريد مالاً رائداً على غير ما شرع الله أنه سيأتي منه البلاء على نفسه وعلى غيره ،  
فالبلاء أن أخذ شمل الجميع : الرماة وغير الرماة أيضاً .

إذن فكل الدنيا تعب عندما تخالف مذهب الله ، والمال الرائد من غير ما شرع الله  
إن لم يترك فقد ادن الله من يأكله بحرب من الله ومن رسول الله

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ  
بِغَيْرِ حَقٍّ وَلَا تُبْذَرُوا بِغَيْرِ حَقٍّ  
وَأَقْرَبُ مَا تَكُونُونَ لِلَّهِ

والربا زيادة في المال ، فهل يؤكل ؟ نعم ، لأن كل المسائل المالية من أجل النعمة

التي تأكلها ، هذا هو لأصل . والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : « من أصبح منكم مما في سريره معالي في حسنه عمده فوت يومه فكأنما حيرت له الدنيا »<sup>(١)</sup>

ونعرف أنه عندما يكون الواحد ما في منظمه ليس فيها رخيص خبز ، فلن نفعه ملكية جبل من الذهب « لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة » وقوله سبحانه « أضعافاً » و « مضاعفة » هو كلام اقتصادي على أحدث نظام ، فالأضعاف هي . الشيء الرائد بحيث إذا قارنته بالأصل صدر الأصل ضعيفاً ، فعندما يكون أصل المال مائة - على سبيل المثال - وسيوخذ عليها عشرون بالمائة كفايلة فيصبح المجموع مائة وعشرين . إذن المائة والعشرون تجعل المائة ضعيفة ، هذا هو معنى أضعاف

فإذا عن معنى « مضاعفة » ؟ إنا مسجد أن المائة وعشرين ستصبح رأس مال جديداً ، وعندما تمر سنة ستأخذ فائدة على المائة وعلى العشرين أيضاً ، إذن فالأضعاف ضوعت أيضاً ، وهذا ما يسمى بالربح المركب ، وهل معنى هذا أنا تأكله بعير أضعاف مضاعفة ؟ لا ، لأن الواقع في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هكذا

وقد يقول لك واحد أنا أهم القرآن وأن النبي هو الأضعاف المضاعفة ، فوالم تكن أضعافاً مضاعفة فهو يصح أن تأخذ ربحاً بسيطاً يتمثل في نسبة فائدة على أصل المال فقط ؟ ولكن مثل هذا المائل مرده إلى قول الله :

﴿ وَإِنْ تَتِمَّ فَلسَكُم دُؤُوسٌ أَمْوَالُكُمْ لَا تَغْلِبُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾

( من الآية ٢٧٩ سورة البقرة )

إن هذا القول الحكيم يوضح أن التوبة تفتحي أن يعود الإنسان إلى حدود رأس ماله ولا يشوب ذلك ربح بسيط أو مركب . وعندما نجد كلمة « أضعافاً مضاعفة » فهي قد قدمت فقط لبيان الواقع الذي كان سائداً في أيامها .

وبعد ذلك يقول الحق تديلاً للآية « وانتو الله لعلكم تملحون » ويقول دائماً

(١) رواه البخاري في الأدب ، والترمذي وابن ماجه عن عبدالله بن عمر

ساعة ترى كلمة « اتقوا » يعنى احفظوا بيسكم وبين الله رقابة ، وهل تكون الوقاية بيسكم وبين الله بكل صفات بحاله وجلاله ؟ لا ، فالوقاية تكون بما يحب وما يؤم ويؤدى ، إذن فاتقوا الله يعنى احفظوا بيسكم وبين صفات جلاله من حروب وفهر واستقام وقاية ، وعندما يقول الحق : « واتقوا النار » فهي مثل قوله « واتقوا الله » ، لأن النار جسد من مجود صفات الجلال .

وعندما يقول الحق : « بيسكم تعلمون » يعرف أن كلمة « الفلاح » هذه تأتي لترعيب المؤمن في منحج الله ، وقد جاء الحق بها من الشيء المحسن الذي يراه في كل وقت ، ويره لأنه متعلق بقاء حياته ، وهو الررع والمعالجة ، أنت تحرث وتسد وتروى ، وبعد ذلك تحصد .

إذن فهو يريد أن يوضح لك أن المتاعب التي في الحرث ، والمتاعب التي في الدر ، والمتاعب التي في السقى كلها متى ترى نتيجةها ؟ أنت ترى النتيجة ساعة الحصد . فالعلاج بأحد ( كيتين ) من القمح من مخزونه كى يروع ربع فدان ، ولا يقول له أنت أنقصت المحزون ، لأنه أنقص المحزون لزيادة ، ولذلك فالدنى لم ينقص من مخزونه ولم يروع ، يأق يوم الحصاد يصح بده على خده نادماً ولا ينزع الندم حينئذ !

إن الحق يريد أن يقول لنا : إن المنهج وإن أبعك ، وإن أحد من حركاتك شيئاً كثيراً إلا أنه سيعود عليك بالخير حسب بينك وإثباتك على العمل ، ولهذا صرت لنا الله المثل في قوته

﴿ كُنْزٌ حَبٍّ أَنْبَتَ سَبْعَ سَنَائِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

( الآية ٢٦ سورة العنبر )

هذا أمر واضح ، حبة واحدة منك فتنقص ما عندك ، لكنها تعطيك سبعائة ، إذن فساعة تزخذ منك الحبة لا تقل : إنيك نقصت ، إنما قدراً أنت ستريد قدر كذا . ويعطينا الله ذلك المثل في خلق من خلقه وهو الأرض ،

الأرض نصيباً . سب يعطيك حبة فتعطيك سبعة . فإذا كان خلق من حق الله  
وهر الأرض يعطيك أضعاف أضعاف ما أعطيت . أملاً يعطيك ربك هذه الأرض  
أضعافاً مضاعفة ٩ إنه قادر على إحراق بطناء . هذا هو الملاح على حقيقته ، وبعد  
ذلك فإنه ساعة يتكلم عن الملاح يقول لك : إنك لن تأخذ علاج فقط وبكك  
تنهى اسار أيضاً

فيقول الحزن سبحانه

﴿ وَأَنْتُمْ السَّارُّونَ الَّتِي أُعِدَّتْ بِكُمْ كَهْرِبَ ١٧ ﴾

إذن فيه مسألتك . سلب مصرّة ، وإيجاب معمه ، إنه يرحب بك بمنعه الملاح  
ويسلم منك مصرّة النار . وبذلك يقول تعالى :

﴿ نَمْرُ زُحْرَجَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ قَارَ ﴾

( من الآية ١٨٥ سورة النجم )

لأنه إذا زُحْرَجَ عن النار ولم يعد في نار ولا في جنه فهذا حسن ، وفي ذلك إذا  
زُحْرَجَ عن اسار ودخل الجنة ؟ إن هذا هو الملاح الكبير ، وهذا السب في أن رب  
سبحانه وتعالى ساعة السير عن لصراط سيرها النار ويخرج عليها ، لماذا ؟ كي تعرف  
كيف نجتنا الإيمان من هذه ، وما الوسيلة كي نخلص وتنهي النار ؟ إن الوسيلة هي  
اتباع منهج الله الذي جاء به على سائر رسله .

﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ١٢٢ ﴾

وه الرحمة ، تتحلّى في الا يوقعت في المتعة ، أما الشفاء فهو ان تنفع في المتعة ثم  
تقول عنك ، لذلك فمن إذا ما أخذنا المصح من البدء مساحد الرحمة

﴿ وَسِرُّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾

( من الآية ٨٢ سورة الإسراء )

ن الشفاء هو دالة للدين الذي نورطما فيه ويكون العرب علاجاً ، والرحمة تحس  
إذا ما أخذنا المصح في الدنية فلا تأتي له أية متاعب ويقول الحق من بعد ذلك

﴿ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ

أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾

والسرعة - كما عرفنا - مقابلها العجلة ، إن السرعة هي : التقدم فيما ينبغي ،  
ومعنى ان تقدم فيما ينبغي أنك تجعل الحدث يأخذ زمن أقل ، والمثال على ذلك  
عندما يسرع الإنسان سيارته من القاهرة إلى الإسكندرية فهو يحاول ان يقطع المائتين  
والعشرة كيلومترات في زمن أقل ، فبدلاً من أن تأخذ منه ثلاث ساعات في السيارة  
فهو يسرع كي تأخذ منه ساعتين إذن فالسرعة هي : التقدم فيما ينبغي ، وهي  
عمودة ، وضدها ، الإبطاء فالسرعة محمودة ، والإبطاء مذموم .

لكن « العجلة » تقدم فيما لا ينبغي ، وهي مذمومة ، مقابلها « التأني » ، والثاني  
ممدوح ، إذن فالسرعة محمودة ، ومقابلها الإبطاء مذموم ، والعجلة مذمومة ،  
ومقابلها التأني ممدوح ، والمثل الشعبي يقول في التأني سلامة وفي العجلة  
الدأمة

إن الحق يقول : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » أى : حذروا المغفرة وحذروا الجنة  
سرعة ، لأنك لا تعرف كم سيقى فى الدنيا ، إياك أن تؤجل عملاً من أعمال الدين  
وعملاً من أعمال الخير ، لأنك لا تعرف أنتى به أم لا . فانتهاز فرصة حياتك وحذ  
لمغفرة وحذ ابهة ، هذا هو المعنى الذى يأتى فيه الأثر الشائع : « اعمل لدينك كأنك  
تعيش أبداً واعمل لأخرك كأنك تموت غداً »

المن نعلمها فهما يؤدي مطلوباتهم النفسية بمعنى : اعمل لدينك كأنك تعيش  
أبداً يعنى اجمع الكثير من لذي كى يكفيك حتى يوم القيمة ، وليس هذا فهما  
صحيحاً لكن الصحيح هو أن ما فلتك من أمر الدنيا اليوم فاعتبر أنك ستعيش طويلاً  
وتأخذه غداً ، أما أمر الآخرة فعليك أن تعجل به

« وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وحده عرصها السموات والأرض » ونحن نعرف أن  
المساحات لها طول وعرض ، لأن الذى طوله كعرصه يكون مربعاً ، إنما الذى عرصه  
أقل من طوله فحرف يسمى « مستطيلاً » ، ونحن يقول الحق : « عرصها السموات  
والأرض » نعرف أن العرض هو أقل العديين ، أى أنها أوسع مما نراه ، فكأنه شبه  
البعد الأقل فى الحبة بأوسع البعد ، وهو السموات والأرض ملتصقة مع بعضها  
بعضاً فاعتد أوسع مما نراه . فإذا كان عرصها أوسع مما نعرف فما طولها ؟ أنه حد لا نعرفه  
بعض

قد يقول قائل لماذا بين عرضها فقال : « عرصها السموات والأرض » فإين طولها إذن ؟  
ونقول . وهل السموات والأرض هى الكون فقط ؟ إنه سبحانه يقول :

﴿ وَصَحَّ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

( من الآية ٢٥٥ سورة البقرة )

ويقول صلى الله عليه وسلم . ( ما السموات والأرض وما بينهما إلا كخدمة ألقاهما  
ملك فى قلاة ) أليست هذه من ملك الله ؟

وهكذا يرى أن هذه الحبة قد أعدت لمتقين ، ومعنى « أعدب » أى هيئت  
وصُغت ونهت المسألة ! يؤكد ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول

( عرضت عن الجنة ولم شئت أن أتيتكم بقطاف منها لمعلت )<sup>(١)</sup>

لماذا ؟ لأن الإخبار بالحدث قد يعني أن الحدث غير موجود وسيوجد من بعد ذلك ، ولكن الوجود بالحدث يعني أن لا يوجد ، لأن وجوده صدر واقعاً ، فعندما يقول « أعدت » فمعناها أمر قد انتهى الخبز من إعدادة ، ولكن يأخذ من خباضات الدنيا ويستظر إلى أن ترتقي الدنيا عندكم وتأخذ وسائل ومواد من ارتقيهم ليعد بها الجنة ، لا .

لقد أحمر سحابه عنها فقال : « فيها ما لا عين رأت ولا أدب سمعت ولا خطر على قلب بشر » ، وأعد سبحانه الجنة كلها . « كن » ، فعندما يقول « أعدت » تكون مسانة مفروغاً منها . ومما قامت عائلة مفروغاً منها إذن فالصير إليها أو إلى مقادير مفروغ منه ، والجنة أعدت للمتقين ، فمن هم المتقون ؟

الَّذِينَ يُفِقُّونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ  
وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ  
النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٧٦﴾

هذه بعض من صفات المتقين « والكاذمين الغيظ » لأن المعركة - معركة أحد - منعطينا هذه الصورة أيضاً . فحجرة وهو سيد الشهداء وهم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يُقتل . ولبيه يُقتل فقط ولكنه مثل به ، وأخذ يضع منه وهو الكند فلاكته « هدا » ، وهذا أمر أكثر من القتل وهذه معناها ضعن دمه .

وحينما جاء لرسول الله صلى الله عليه وسلم خبر مقتل حزة رقالو له إن « هدا »

أخذت كبده ومضغتها ثم لمطتها ، إذ جعلها الله عصبية عذيبها ، قال : « ما كان الله ليعذب بعضاً من حمرة في النار » كأنها ستذهب إلى النار ، ولو أكلتها لتمثلت في جسمها خلأيا ، وعندما تدخل النار فكان بعضاً من حمرة دخل النار ، فلا بد أن ربه يجعل نفسها تجبر وتنتهي للقي ، وتنعط تلك البصعة التي لاكتها من كبد سيد الشهداء .

وقد شبه النبي صلى الله عليه وسلم هذه الحادثة بأنها أقطع ما لقي إليها مقتل حمرة فقال : ( نرى أظفروا الله على قريش في موطن من المواضع لأمثلين بثلاثين رجلاً صوم )

وهنا جاء كظم العيظ ليأخذ ذروه الحدث وقمته عند رسول الله في واحد من أحب البشر إليه وفي أكثر حادث أغضبه ، ورسول قول الحق .

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۖ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوْ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ۝۱۷ ﴾  
( سورة النمل )

كي تعرف أن ربا - جل جلاله - لا يفعل لأحد : لأن الانفعال من الأفعال ، وهذا رسول الله - سبحانه - عليه : « وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به » وياق هنا الأمر بكظم العيظ ، وهو سبحانه يأتي بهذا الأمر في مسألة تخص لرسول وفي حدث ( أحد ) وبعد ذلك يُشيعها فصيحة عامة لتكون في السلم كما كانت في الحرب وتكون مع الناس دون رسول الله ؛ لأنها كانت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .

« والكافلين العيظ » ونعرف أن كل الأمور المعسوة مأخوذة من احسنيات . وأصل الكظم أن تملأ الفُرْة ، والقَرْب - كما نعرف - كان يحملها « السقا » في الماضي ، وكانت وعاء تملأ الماء عند العرب ، وهي من جند مدبوخ ، فإذا ملئت القرية بالماء سُدَّ على رأسها أي رُبط رأسها ربطاً محكمًا بحيث لا يخرج شيء مما فيها ، ويقال عن هذا الفعل : « كظم القرية » أي ملأها وربطها ، والقرية لينة وعندما توضع على ظهر واحد أو على ظهر الدابة فهي ليونتها تخرج الماء فتكظم وتربط بإحكام كي لا يخرج منها شيء .



كذلك العيظ يفعل في النفس البشرية ، إنه يهيئها ، والله لا يمنع الهياج في النفس لأنه تفعل طبيعي ، ولافعالات طبيعية لو لم يردها الله لمنع أساسها في التكوين الإنساني إنما هو يريد لها لأشياء مثلاً : العريضة الحسية ، هو يريد لها لنعاء النوع ، ويصنع من التشريع ما يهدى بها فقط ، وكذلك افعال العيظ ، إن الإسلام لا يريد من المؤمن أن يُصَبَّ في قالب من حديد لا عواطف له . لا ، هو سبحانه يريد للمؤمن أن يفعل للأحداث أيضاً ، لكن الافعال المناسب للحدث ، الافعال السامي الافعال المنعم ، ولا يأتي بالافعال المنعم .

لذلك يقول الحق

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَرِ رَحِمَةٌ لِّبِهِمْ مِنْهُمْ رُفَّةٌ  
مُبْدِيَةٌ يَتَّبِعُونَ مَقْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ﴾

( من الآية ٢٩ سورة البقرة )

المؤمن ليس مطبوعاً على أشده ، ولا على الرحمة ، ولكن الموقف هو الذي يصنع عواطف الإنسان ، فالخلق سبحانه يقول

﴿ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

( من الآية ٤٤ سورة البقرة )

وهن هالك من هو دليل عريز معاً ؟ يقول اسهج لإياني يجعل المؤمن هكذا ، دله عن أحبه المؤمن وعوه على الكافر إذن الإسلام لا يصب المؤمنين في قالب كي لا يفعلوا في الأحداث

ومثال آخر : ثم يفعل لرسول صلى الله عليه وسلم حين مات ابنه إبراهيم ؟ لقد اصنع وبكى وحرى . إن الله لا يريد المؤمن من حجر بل هو يريد المؤمن أن يفعل للأحداث ولكن يجعل الافعال على قدر الحدث ، ولذلك قال سيدنا رسول الله عند هراق : ( يا العير تدمع وإن قلب يحرق ولا يقوى إلا ما يرضى ربنا وما يراقبك

بإبراهيم لمعرون (١)

ولا نقول لحظة الانفعال ما يسخط الرب . بل انفعال موجه ، والمعيط يحتاج إليه المؤمن حينما يهيج دفاعاً عن مسجده ، ولكن على المؤمن ان يكظمه أى لا يحمل الانفعال غالباً على حس السلوك والتدبير والكظم - كما قلنا - مأخوذ من أمر بحس مثال ذلك : نحن نعرف أن الإبل أو العجوهات التي لها معدتان ، واحدة يجزّل فيها الطعام ، وأخرى يتعدى منها مباشرة كالخمس مثلاً ، إنه يجتر

ومعنى : يجتر الحمل أى يسرجع الطعام من المعدة الإضافية ويمضغه ، هذا هو الاجترار فإذا امتنع الحمل عن الاجترار يقال إن الحمل قد كظم . وأحق سبحانه يقول : «ولكأظمن الغيظ والعافين عن الناس» .

وقلنا : إن هناك فرقاً بين الانفعال في ذاته ، فقد يبقى في النفس وتكظمه ، ومعنى كظم الانفعال : أن الإنسان يستطيع أن يخرج به إلى حيز الروح الانفعالي ، ولكنه يكبح جماح هذا الانفعال أما العفو فهو أن تخرج الغيظ من قلبك ، وكان الأمر لم يحدث ، وهذه هي مرتبة ثانية أما المرتبة الثالثة فهي أن تتفعل انفعالاً مقابل ، أى أنك لا تقف عند هذا الحد فحسب ، بل إنك تسدّل بالإساءة الإحسان إلى من أساء إليك إذن فهناك ثلاث مراحل . الأولى : كظم الغيظ . والثانية : العفو والثالثة : أن يتجاوز الإنسان الكظم والعفو بأن يحس إلى أسى إياه

وهذا هو الارتقاء في مراتب البقي ، لأنك إن لم تكظم غيظك وتنفعل ، فاقابل لك أيضاً ثم يستطيع أن يصبط انفعاله بحيث يساوى انفعالك ، ويحتل لكهاك بلحدة والغضب ، وقد يظل الغيظ ناعياً وربما ورث أجيالاً من أبناء واحده . لكن إذا ما كظمت الغيظ ، فقد يخجل الذي أمامك من نفسه وينتهي المسألة .

«والعافين عن الناس» مأخوذة من «عفى على الأثر» والأثر ما يتركه سير الناس

(١) رواه البخاري في الخائز ، ومسلم في العتات ، وابن ماجه في الخائز ورواه أحمد في المسند

في الصحراء مثلاً ، ثم تأتي الريح لتسحق هذا الأثر ويقول الحق في تدبيل الآية « والله يحب المحسنين » .

وقلنا في مسفة ذلك : إننا جميعاً صسعة الله ، والحق كلهم عيال الله . وما دما كدنا عيال الله فعمدنا يسىء واحد لآخر فالله يقف في صف الذي أسىء إليه ، ويعطيه من رحمته ومن عموه ومن حياته أشياء كثيرة . وهكذا يكون المساء إليه قد كسب ليس من واجب المساء إليه أن يحمين للمسىء ؟

لكن العقل البشرى يفقد ذكائه في مواقف الغضب : فالذى يسىء إلى إنسان محبه عدواً . لكن على الواحد منا أن يفهم أن الذى يسىء إليك إنما يجعل الله في جانبك : فالذى مالك من يديته هو أكثر مما سلك هذا الإيذاء . هذا يجب أن يكون حسن الإيمان وتعطى المسىء إليك حسنة .

ويضيف الحق من بعد ذلك في صفات أهل الجنة .

وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا  
أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا الذُّنُوبَ بِهِمْ وَمَنْ  
يَعْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا  
فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٥﴾

والعاششة هي : الدب لعطيع . فهل معنى ذلك أن الرماه في غزوه حد حين يركوا مواقعهم ، قد حرحوا من الإيمان ؟ لا ، إنما رنة فقط ، لكننا اعتبرت كبره من الكيائير لمن أشار على المزمين أن يبرلو ، واعتبرت صعبيرة لمن خُوص - باليهاء للمفعول - على أن يبرل من موقعه

إذن فهو قول مناسب : « والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله »  
وعاء الحق هنا : « ذكروا الله » كتنبيه لنا إلى أن من يفعل الفاحشة أو يظلم نفسه هو  
من سي لله ، فلحظة فعل الفاحشة أو ظلم النفس لا يكون الله على بال الإنسان  
الفاعل للفاحشة أو على بال من ظلم نفسه ، والذي يُجرى الإنسان على المعصية  
ليحقق لنفسه شهوة ، أنه لم ير الله ولم ير جرائه وعقابه في الأجرة ماثلاً أمامه ، وبو  
بصور هذا لا تمتنع عن الفاحشة .

وكذلك الذي يحمل في الطاعة أيضاً ، لم يذكر الله وعطاءه للمتقين . ولو ذكر الله  
وعطاءه للمتقين لما تكامل عن طاعة الله . ولذلك يقول الحق : « ذكروا الله  
فاستمعروا لدينهم » فمن يستمع لدينه فقد ذكر الله

وموقف العلماء من الفاحشة فيه اختلاف . بعض العلماء قال : إنها الكبيرة من  
الكبائر ، وظلم النفس صغيرة من الصغائر . وقال بعض آخر من العلماء : إن  
الفاحشة هي الزنا ؛ لأن القرآن نص عليها ، وما دون ذلك هو الصغيرة

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ( لا كبيرة مع الاستعمار  
ولا صغيرة مع الإصرار )<sup>(١)</sup>

فلا يجوز للإنسان أن يتجاوز عن أخطائه ويقول : هذه صغيرة وتلك صغيرة لأن  
الصغيرة مع الصغيرة تصبح كبيرة . ونحن نطو إلى قول الله تعالى : « والذين إذا فعلوا  
فاحشة أو ظلموا أنفسهم » نجد أن الذي فعل الفاحشة ظالم لنفسه أيضاً لأنه حقق  
لنفسه شهوة عارضة ، وأبقى على نفسه عذاباً حالداً .

ولماذا لم يقل الحق إذن : والذين ظلموا أنفسهم فقط ؟ أي يكون المتظلم  
د (الزوا) لا د (أر) ؛ لأن الحق يريد أن يوضح لنا الاختلاف بين فعل الفاحشة  
وظلم النفس

لأن الذي يفعل الفاحشة إنما يحقق لنفسه شهوة أو متعة ولو عاجية ، لكن الذي

(١) رواه أبو الشيخ والديلمي عن ابن عباس رضى الله عنهما ، ورواه البيهقي - عن ابن عباس - موطأ - وله شاهد عند

المعمر ، ومن جهة الديلمي عن ابن مرقوع ، وأخرجه الطبراني عن أبي هريرة - ورواه في سننه - فطوري لم يرد في

كتابه مستخدماً كثيراً ، لكن في إسناده بشر من محمد المارسي مرسل

يظلم نفسه بذهب الدب ولا يعود عليه شيء من النفع ؛ فالذي يشهد الزور - على  
سبيل المثال - إنه لا يحقق لنفسه النفع ، ولكن النفع يعود للمشهود له زوراً . إن  
شاهد الزور يظلم نفسه لأنه لم يلب حاجة عاجلة لغيره ، ولم ينقذ نفسه من عذاب  
الأخرة . أما الإنسان الذي يرتكب المعاشة فهو قد أخذ متعة في الدنيا ، وبعد ذلك  
يمال العقاب في الأخرة .

لكن الظالم لنفسه لا يعيد نفسه ، بل يصبر نفسه ؛ فالذي هو شر أن يبيع دينك  
بذيلك ؛ إنك في هذه الحالة قد تأخذ متعة من الدنيا وأمد الدنيا قليل والحق لم يمه  
عن متاع الدنيا ، ولكنه قال عنه : « كل متاع لدي قليل » وهناك من يبيع دينه  
بدين غيره ، وهو لا يأخذ شيء ويظلم نفسه .

ويقول الحق : « فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله » . ومعنى « دس »  
هو عذابه لتوجيه منهج فقد جاء أمر من اسبح ولم ينعذ الأمر وحده من المنهج  
فلم يلتزم به . ولا يسمى ذمناً إلا حين يعرف الله الذنوب ، ذلك هو تقبيل  
السوء وفي مجال التقبيل الشرى يقول : لا نحرهم إلا بنص ولا عقوبة إلا  
بتجريم

وهذا يعني ضرورة إضاح ما يعتبر جريمة ؛ حتى يمكن أن يحدث لعقاب عليها ،  
ولا يكون هناك جريمة إلا بنص عليها . أي أنه يتم النص على الجريمة قبل أن ينص  
على العقوبة ، فماذا معج الله ؟ إنه يعرف الذنوب أولاً ، وبعد ذلك يحدد  
العقوبات التي يستحقها مرتكب السب

ونشبه إلى قول الحق : « ولم يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون » إذن فالاستغفار  
ليس أن تذهب الذنوب بقولك : أستغفر الله لا . إن عن الإنسان أن يردف الذنوب  
بقوله : أستغفر الله وأن يصبر عن ألا يفعل الذنوب أبداً

وليس معنى هذا ألا يقع الذنوب منك مرة أخرى ؛ إن الذنوب قد يقع منك ،  
ولكن ساعه أن تستعمر نصر على عدم العودة ، إن الذنوب قد يقع ، ولكن بشرط ألا

يكون بنية مُسبقة ، وتقول لنفسك : سأرتكب الذنب ، واستعفر لنفسي بعد ذلك  
إليك بهذا تكون كالمستهزئ بربك ، فضلا عن أنك قد تصعب الذنب ولا يهلك الله  
لستعفر . وقوله الحق : « ولم يصرخوا عن ما فعلوا وهم يعلمون » يوضح لنا أنه  
لا عفو إلا بتجريم ولا تجريم إلا بعص

إك الحق يعلمنا ويعرفنا أولاً ما هو الذنب ؟ وما هو العقاب ؟ وكيفية الاستععار ؟  
ويقول الحق بعد ذلك

﴿ أُولَٰئِكَ حَرَّأَوْهُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَحَبَّتُمْ  
تَجْرِي مِّن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ  
أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ (١٧٦)

« أولئك » إشارة إلى ما تقدم في قوله سبحانه :

﴿ وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَحِجَّةَ عَرْضِهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ  
لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٧٧)

( سورة آل عمران )

مع بيان أوصاف المتقين في قوله .

﴿ الَّذِينَ يُعْقُونَ فِي السَّاءِ وَالْفَرَّاءِ وَالْكَفَّيْنَ الْغَيْظِ وَأَنْعَامِينَ حَيَّ النَّاسِ  
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

( الآية ١٣٤ سورة آل عمران )

« هم يعقون في السراء نفقة الشكر . وينفقون في الضر » نفقة الذكر والتضرع ،

لأن النعمة حين توحد برءاء محتاح إلى شكر هذه النعمة ، والمنة حين تنفق في الصراء تقتضى صراحة إلى الله ليخرج عن المتفق آثار النعمة والضراء . إذن فهم يتفقون سواء أكانوا في عسر ، أم كانوا في بر .

إن كثيراً من الناس يسيهم اليسر أن الله أنعم عليهم ويظنون أن النعمة قد جاءت عن علم منهم . وبعض الناس تلهيهم النعمة عن أن يحسرو بالأم الغير ويشغلوا بالأم أنهم لكن المؤمنين لا يسرون رهم أبداً وأمره بالإشفاق في العسر واليسر ولذلك قالوا : فلا لا يقض يله في يوم العرس ولا في يوم الحس .

وتتابع أوصاف المتقين :

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١٣٥)

( سورة آل عمران )

وفي ذلك بون من تطمين المؤمن على أخبار نفسه ، وعلى أنه عندما يستحيب مرة لرغبات الشيطان ، هذه لا تخرجه من حظيرة التقوى ، لأن الله جعل ذلك من أوصاف المتقين . والفاحشة التي تكون من نزع الشيطان وذكر العباد لله بعدلها ، واستغفارهم مع الإصرار على عدم العودة ، لا تخرجهم أبداً عن وصفهم بأنهم متقون . لأن الحق هو الحمر : « ومن يغفر الذنوب إلا الله »

إنهم قد أحبروا بذلك ، فلم يحرم الحق أحداً إلا نفس ، ولم يعاقب إلا بجرمة وقول الحق سبحانه : « أولئك جزاؤهم معفرة من ربهم » هو إشارة لكل ما سبق . ونلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى جعل للعاملين بهذا العمل من التقوى قوسين : القوس الأول الذي ابتداء به هو قوله الحق : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم ووجه عرصها السموات والأرض أعدت للمتقين »

والقوس الثاني هو الذي أنهى الأمر . « أولئك جزاؤهم معفرة من ربهم وجنات تجري من تحتها الأنهار »

فالجنة الأولى التي ذكرها الله إلهاباً للمواظف العبي لتقبل على ما يؤدي هذه الجنة ، وبعد ذلك ذكر الأوصاف والأصاف وجعل الجنة أحرأ . ووعدهم أجر العاملين ،

والأجر عادة هو ما يأخذه العامل نتيجة العمل . والأجر حين يأخذه العامل نتيجة لعمل يتوقف على تقييم العمل عند صاحب العمل نفسه . فزيادة الأجر وتنقصه تقدير من صاحب العمل ، وأيضاً تقدير للمعامل . فإن طيب أصحاب عمل متعددون عاملاً محددأ فله أن يطلب زيادة ، وإن لم يطيبه أحد فهو يقبل أول عرض من الأجر نظير أداء العمل .

إذن فالمسألة مسألة حاجة من صاحب عمل ، أو حاجة من عامل ، وحين ننظر إلى الصفة في الآخرة نجد أنها بين إله لا يحتاج إلى عملك ومع أنه لا يحتاج إلى عملك جعل لعملك أجراً

ما هذه المسألة ؟ هو ليس محتاحاً إلى عملك ، ويعطيك أحرأ على عملك ويقول لك . إن هذا الأجر هو الخلد الأبدي ، لكنني أما أن أصاعف هذا الأجر ، وفي أن أتفضل عليك بما فوق الأجر . فكم مرحلة إذن ؟ إنها ثلاث مراحل ، مع أنه سبحانه لا يستفيد من هذا العمل إلا أنه وضع ثلاث مراتب للأجر .

إذن فالمحاجة من جهة واحدة هي جهته أنت أيها العبد ، أنت تحتاج إلى خالقك وهو لا يحتاج إليك ، ومع ذلك يعطيك الإله الحق الأجر لا على قدر العمل فقط ، ولكن فوق ذلك بكثير . إن الذي تعمل له يوماً من العباد قد يعطيك - على سبيل المثال - م يكملك قوت يوم ، أو قوت يوم ونصف يوم . ولكنك حين تأخذ الأجر من يد الله فإنه يعطيك أجراً لا تنتهي مدة إنفاقه ، فهو الغائل : « ووعدهم أجر العاملين »

هذا هو الأجر الذي يقال فيه : نعم هذا الأجر ؛ لأنه أجر لا يتناسب مع مجهودي ، بل يفوق كل ما بذلت من جهد وقادم من جهة لا تحتاج إلى هذا المجهود .



به سبحانه يعصّل عن أولاً ومنعّض عن أخيراً ، ليدل الحق سبحانه وتعالى على  
أبث - أيها العبد - حين تعمل الطاعة يعود أثر الطاعة على نفسك ومع ذلك فهو يعطيك  
أجرأ عن ما فعلت

وأوضحنا أن هذه الآيات جاءت بين آيات معركة أحد إرشاداً واستمارة للأحداث  
التي وقعت في أحد ، حتى إذا عاش الإنسان في تصور الأحداث والأحداث تكون  
ساحنة ، ويكون النقاط العبرة منها قريباً إلى النفس ، لأن لها واقعاً يمتدّها ويؤكدّها .  
والحق سبحانه وتعالى يقول من بعد ذلك .

﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ  
فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ﴾

أي أنتم لستم بدعاً في هذه المسألة - وحطب - تعني - مضت - ، أي حصلت  
واقعا في أزمان سبقت هذا الكلام - وعادة فالأخبار التي يتكلم بها الإنسان مرة تكون  
حبراً يمتلئ الصدق والكذب ، لكن هذه المسألة لا تحتاج إلى صدق أو كذب ، لأن  
الواقع ليس أمراً مستقبلاً ، ولكنه أمر قد سبق ، بمجرد أن يبيح الكلام لا تنتظر  
واقعاً يؤكد صدق الكلام ، لأن الواقع قد حدث من قبل ، فيقول سبحانه : « قد  
حدث من قبلكم سنن »

والسنن هي الطرق التي يصرف الله بها كونه بما يحقق مصلحة ذلك الكون ؛  
ليضمن للإنسان - السيد في هذا الكون - ما يحقق مصلحته ، ومصلحة الإنسان تتمثل  
في أن يسود الحق في حياة الإنسان المحترق كما صاد الحق في لكون المستر قبل الإنسان .

وقد قلنا إن في هذا الكون تسفيراً : أي لا إرادة له ، لا إرادة لتجاه ولا للبات .

ولا للحيوان في أن تفعل الخير لك أو لا تفعل . فم يحدث أن جاء إنسان لأرضه صالحه للزراعة ، ووضع فيها بدورا ، فلم تست الأرض وقالت له : لن أعطيك ، ولم تقل الأرض يوما عن إنسان إنه كافر فلن أعطى له الرزق .

إن الأرض مسخرة لخدمة الإنسان مادام يأخذ بأسائها ، فهي تؤدي له . والحيوانات أيضا مسخرة لخدمتك لا باختيارك ، ولا بقسوة تسعيرك لها ، ولكن تسخير الله لها أن تفعل .

وقلنا إن الإنسان قد تكون عنده مطية ، مثل بعض الفلاحين ، فمرة يجعلها صاحبها تحمل أكرام السباح من روث الحيوان وفصلاته ، وبعد ذلك يلوح له أن يخرجها من عنده هذا ويجعلها ركوبة له ، ويدللها بالأشياء التي تعرفونها من لحم جميل وسرح أجمل ، ويرفها في حياتها ويظفها .

هل في الحالة الأولى امتنعت المطية عن حمل السباح أو امتنعت في الحالة الثانية عن حمل الإنسان ؟ لا ، أنت تسيرها مثلما تريد أنت ، فليس لها اختيار . ولا النبات له اختيار ، ولا الجراد له اختيار ، ولا الحيوان أبصاً ، إنما الاختيار للإنسان .

وقد حكم الله اختيار الإنسان بمقادير يكون الإنسان مسخراً فيها حتى لا يظن أنه استقر بالسيادة فأصبحت له قدرة ذاتية . والحق يحكم الإنسان بأشياء يجعلها قهرية على الإنسان كي يظل في إطار التسخير . ويترك الحق للإنسان أشياء ليبقى له فيها الاختيار . فإذا ما نظرت إلى الكون وحدنا أن ما لا اختيار فيه شيء يسير على أحدث نظام ولا تصادم فيه ، والسبب فيه اختيار الإنسان هو الذي يحتل ، لهذا .

لأن الإنسان قد يختار على غير منهج الذي خلق وهو الله - سبحانه وتعالى - وإذا أردت أن يستقيم لك الأمر أيها المختار فاجعل اختيارك في إطار منهج الله . وحين نجعل الاختيار في إطار منهج الله تكون قد أصبحت سوية كبقية الأجسام وتسير الأمور معك بانتظام .

وعندما نقارن بين شيء للإنسان فيه اختيار وعمل ، وشيء لا اختيار للإنسان فيه

ولا عمل ، فانت تجد أن الشيء الذي لا اختيار للإنسان فيه مستقيم الأمر ،  
ولا خلاف فيه أبداً ، أما الشيء الذي فيه اختيار للإنسان ، فانت تجد فيه الخلاف .

مثال ذلك : لو نظرت إلى وسيلة مواصلات من الحيوانات كالجمال أو الخيل أو  
الحمير ، فإنك بعدها تسير في طريق واحد ، وتتقابل حيثة وذهاباً فلا يحدث تصادم  
بين حمار وحمار ، ولا قتل لراكب أحد الحمارين .

إن الحيوانات يتفادى ويتحاشى بعضها بعضاً حتى لو كان الراكب نائماً ومعهما كد  
الطريق مزدحماً فالحيوانات لا تتصادم ، لأن ذلك من نطاق تسخير الحق للحيوان

ولسفر إلى الإنسان حين تدخل يصنع وسيلة مواصلات ، صنع الإنسان ألوان  
السيارات ، يقودها الإنسان ، ومع أن الإنسان هو الذي يهود السيارات ، ورغم  
ذلك بدأت نأت المحللات والمصادمات والحوادث ؛ لأن للإنسان يدأ في ذلك .

والحق سبحانه وتعالى يريد أن يدللك على أن ما خلق مسجراً بأمر الله وتوجيهه  
لا يتألم منه فساد أبداً ، إنما يتألم الفساد مما لك فيه اختيار . فحاول أن تختار في إطار  
صريح الله . فعندما يقول الحق لك : « افعل كذا ولا تفعل كذا » فعليك أن تصدق  
وتطيع ؛ لأن الحق سبحانه عندما سخر الأشياء للإنسان سارته بانتظام رقيق ، وأنت  
أيتها العبد عندما تطيع الله فإن الأمور في حياتك تمشي بيسر

ولذلك قلنا . إن الناس لم تشتك قط أزمة شمس ، ولم يشتكوا أزمة هوء ، لكن  
لماذا اشتكوا أزمة طعام ؟ إن الإنسان له دخل في إنتاج الطعام فما للإنسان فيه دخل  
يجب أن يحكمه قانون التكليف من الله « افعل كذا ولا تفعل كذا »

الكون مخلوق بحق ، ومعنى أنه مخلوق بحق أن كل شيء في الوجود يؤدي مهمته  
كما أرادها الله ، ركباً مسجراً من أجله . وإذا ما قام الإنسان بتنفيذ التكليف فكل شيء  
يسير بحق . وإن ترك الإنسان التكليف وأخذ باختياره فإنه يصير إلى باطل ونج  
ما هو باطل ، والكون هبتي عن الحق

﴿ مَا خَلَقْنَاهُمْ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦١)

(سورة النحل)

إن الحق جعل للكون قضايا ثابتة ، فلا شيء يعتدى على شيء آخر أبداً واحتبار الإنسان هو الذي يأتى بمقابل الحق وهو الباطل ، ولذلك يصون الله الكون بأن يبين أن الحق يصطدم بالباطل ، والباطل يصطدم بالحق لكن الحق محيى ويبقى ، والباطل يزهق ويذول ، ويظهر الله لنا ذلك أمام أعيننا يقول تعالى :

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَّقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ رَهُوقًا ﴾

(سورة الإسراء)

إذن فقولهُ سبحانه . « قد خلت من قبلكم سنن » يعنى : اعتبروا بما سبقكم وانظروا إلى اصطدام الباطل بالحق ، أدام وبقي اصطدام الباطل بالحق ؟ لا ، لأن الباطل كان رهوقاً . ولذلك نحن نرى أمثلة عملية لذلك لا أقول فى مواكب السماء بعضهم مع بعض ، ولكن فى مواكب الباطل مع حق السماء . وحق السماء مثله الرسل والمهاجى اتى جاءت من عند الله وكل حق جاء من السماء وحاء من مهاجى الله قبله قوم مطعون .

لماذا ؟ لأن السماء دائماً لا تتدخل إلا حين يشيع الفساد ، ومادام الفساد يشيع فإن هناك طائفة مستعدة بالفساد ، وهذه الطائفة المنحرفة بالفساد والباطل تدافع عنه وبعد ذلك يأتى مواكب السماء ليصدم هذا الباطل والفئة المنحرفة للباطل ، فتشأ معركة ، فقال الحق حينئذ . « قد خلت من قبلكم سنن » فإها الحق لعرف أن الباطل رهوق ، وأن كل معارك أهل الأرض مع مهبج السماء قد انتصر فيها الحق . وبذلك باتى سورة العنكبوت لتبين لنا ذلك ، بداية من قوله سبحانه

﴿ وَإِنْ مَدَّيْنِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَنْقُرِمُ عَبْدُوا اللَّهَ وَأَرْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا

تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْمَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ

جاثمين ﴿٦٢﴾

(سورة العنكبوت)

هذه هي الصورة الأولى ، وتأتي الصورة الثانية :

﴿ وَعَادًا وَنَحْوَهَا وَقَدْ جَاءَكُمْ مِنْ مَّسْكِنِهِمْ \* وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَغْنَاهُمْ  
فَصَلَّاهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُصْتَفِرِينَ ﴿٢٨﴾ ﴾

( سورة النمل )

إذن فانظروا إلى مساكنهم الباقية لتدلكم على ما حدث لهم ، والصورة الثالثة

﴿ وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ \* وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا فَأَتَكَبَّرُوا فِي الْأَرْضِ  
وَمَا كَانُوا مُسْتَقِيمِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾

( سورة النمل )

وساعة تسمع ، وما كانوا سابقين ، أي كان هناك حاجة لتلاصقهم ، والذي  
يلاحقه شيء فإنه يحاول أن يسبقه ، لكنهم لا يستطيعون ، وتأتي السورة واحدة بعد  
ذلك :

﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ \* فَنُفِثَهُمْ مِنْ أَرْضِنَا عَلَيْهِ حَالِصًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ  
وَمِنْهُمْ مَنْ نَحْنُ نَحْشَرُهُ فِي الْأَرْضِ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّهُمْ وَلَكِنْ  
كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

( سورة النمل )

إذن فصراع الحق والباطل قد تقدم ووقع في أمم قد سبقكم وبقيت لها مساكن ،  
فمن شاء أن يذهب إليها ليتأكد فليذهب ، ولا تزال مدائن صالح ، ولا تزال هناك  
آثار عاد ، وكل مكان فيه أثر من الآثار ، ولذلك يوضح الحق : فإن كنتم تريدون  
التأكد من ذلك فإنا قد أخبرنا ، ومن آمن به فليصدق بحبري ، ولغير المؤمن ولن  
يريد الحتميات فله يقول سبحانه

## ﴿ فَمِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾

( الآية ٣٦ سورة النحل )

إن الحق سبحانه وتعالى يمثل صراع الحق - وهو الشيء الثابت - مع الباطل ، وهذه القضية موجودة حتى فيما لا اختيار له . ويصعبها الحق فيهم ، صراها بين حق وباطل فيما لا اختيار له لمصلحة الإنسان أيضاً . وقد جعل سبحانه الصراع بين الحق والباطل في أشياء ليس من الإنسان ولكنها تختم الإنسان ، وهذه أراها في الأمور المادية . أما في النعم بالحق يقول :

﴿ نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُ بَرْدٍ كَذَلِكَ يُضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا الْمَتَاعُ النَّارُ فَتُهْمِكُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ١٧ ﴾

( سورة الرعد )

إنه سبحانه أنزل من السماء ماء فسال في الأودية ، والأودية كما نعرفها هي المكان المنحصر بين جبلين ، فهذا نزول الأمطار على الأعالي فإنها تنحدر إلى الأسفل وتسيل في الأودية . والوديان هي محل الخصب ، لأن الغرين والطمي الذي ينزل من الجبال مع مياه المطر ويترسب ويصير تراباً خصباً يخرج منه الزرع وكل وادٍ من الوديان يأخذ على قدر سعته ، وما تبقى المياه ييبس ثم عن مسلك آخر ، ولو إلى باطن الأرض ، وذلك كان مظهراً مألوفاً في الجزيرة العربية ، فعندما يأتي السيل من الأودية قتل ماءً ، كل وادٍ يأخذ على قدر سعته . « فاحتمل السيل زبداً رابياً ، ونحن نراه في الحقول ونسميه « الريم » الذي يطفو على سطح الماء ، ما الذي يحدث لهذا ريم ؟ إنه يتجمع ويظهر ثم يركن ويمين جانبا . ألم نر القدر بها لحم نمرور ؟ إننا نجد الريم قد طفا على السطح . وهذا الريم فيه أشياء خارجة عن عنصر الشيء الموجود في القدر ، فإذا ما جاءت حرارة النار أخرجه على السطح ، فإذا ان يخرج الإنسان خارج القدر ، وإذا لم يتركه فيتجمد على الجوانب ويموت .

ومن أين جاء هذا الزبد ؟ إنه يأتي من الأرض ، والأرض فيها أشياء كثيرة ، كجذور النبات وبقايا ما حملته الهواء وتتخلل هذه الأشياء مسام الأرض ، هذه الأشياء عندما توجد في السام ، وتأتي الجذور الصغيرة لتنمو فتعوقها عن أخذ غذائها ، لذلك فعندما ينزل الحق الماء من السماء فإن الماء يجعل هذه الأشياء تنظف على السطح ، ليحفظ هناك منعداً للجذور الصغيرة

ويؤمل الله المطر ليحفظ التربة كلها ، ويجعل هذه الأشياء تنظف ، لأنها غشاء ، ويظف الغشاء وساعة أن يظف الغشاء فإنك أن تفهم أن ذلك علو ، إنه علو ، إلى انتهاء ، كذلك فورة الباطل

إياك أن تظن أن الزبد له فائدة ، أو أن ارتفاع الريم كان علواً على ما في القدر ، لا ، إنه تطهير لما في القدر أو الإناء ، ولهذا قال الحق : « فاحمل السبل ريداً رابياً »

وإن لم تذهب آثار الريم بحركة الماء التوجيهية فإنها ستذهب بطريقة أو بأخرى . ولننظر إلى الأشياء القدر التي تلقى في البحر نجد أنها بعد مدة قد خرجت إلى الشاطئ .

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

( من الآية ٢٦ سورة النور )

إنها تخرج على الشاطئ ، ويجمعها المكثفون بشطيف الشاطئ ، ولا كيف تتم صياحه الماء ؟ إنه سبحانه يجعل الماء ينظف نفسه بحركته الذاتية ، إذن فإثناء عندها يرون سيلاً ، فإنه يبقى لترمه من العوائق التي تعوق غذاء الجذيرات الصغيرة ، وقد لا يكفى بعضنا هذا المثل ، فيصرب لنا الله مثلاً آخر :

﴿ وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ أُشْجَاءَ حَبَّةٍ وَزَمْزَمَةٍ مُّشْطَرَةٍ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالنَّاطِلَ وَمَا أَرَبَدُ قَبْدَهُ جَمَاءً وَمَا يَمِيعُ النَّاسُ قَبْمَكْتُ فِي الْأَرْضِ ﴾

( من الآية ١٧ سورة الزهد )

و نحن نرى هذه الحكاية عندما يضعون أى معدن فى النار ، فإن المعدن يتصهر ويصير كالعجينة وتخرج منه فصايق ونحن نسميها خبث المعدن ، وعندما نخرج الخبث من المعدن فإنه يصير قوياً ، إذن فالنار قد صهرت المعدن ، وأخرجت منه الخبث العصار فيه ، أو الذى يجعله لا يؤدى مهمته بكفاءة عالية ، فأما قد أصنع من الحديد درعاً قوية أو لريد أن أستخرج منه الصلب ، وهذه العمليات مصفاها أننا نضهر الحديد بالنار ليريل حيث ليزداد قوة . وكذلك الذهب والفضة ساعة يريد أن نحصلها من هذه الآثار فإننا نصهرهم لنخرج منها الأشياء الخارجة عنها أى التى تختلط بها ونشويها وهى ليست منها .

لماذا إذن ياربى هذا التمثيل الحسى فى المياه ؟ والحللية التى لا تؤدى ضرورة ، والمتاع وهو الذى يؤدى ضرورة ؟ إنه سبحانه يقول . « كذلك يضرب الله الحق والباطل »

إن الحق كالماء ، والحق كالنار ، والماء يحمل الريد الرابى بعيداً عن مسم الأرض ، والنار تخرج الريد والخبث من المعادن ، وتعمل المعادن حالمة للمهمة المطلوبة لنا ، كذلك يضرب الله الحق والباطل « فأما الريد فيذهب جفاء »

وجفاء أى مطروحاً مرمياً ، « وأما ما يرفع الس فيمكنك فى الأرض » ذلك هو صراع الحق والباطل فى المبادئ والقيم ويصوره الله فى الأمور المادية رمن العجيب أنه يصوره بمناقضين ولكنها متناقضان يؤديان مهمة واحدة ، منه وذر ، فأياك حين ترى شيئاً يتناقض شيئاً أن تقول هذا يناقض ذلك ، لأن هذا الشيء مطلوب لمهمة ، وذاك الشيء مطلوب لمهمة أخرى .

إذن نقول الحق سبحانه : « قد خلقت من قللكم سنن » هو نعمت لنا إلى صراع الحق مع الباطل ، وأن الإنسان قد يرى الباطل مرة وله طوره وعلو ، ونقول : هذا إلى جفاء . وهذه سنة من سنن الحياة وإن أردتم أن تتأكدوا منها ، فالتفتوا إلى دقة قول الحق تعالى .

« فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين »



وهنا ملحظ عام ، وملحظ خاص ، الملحظ العام : أنا نعلم أن المقصود بذلك السبر على الأرض ، وبذلك هي حدود رؤيتنا ، لكن حين يتكلم الله برؤية الله أشمل فهو الخالق هذا الكون ، ونحن مازلنا نجهل جريبات في هذا الكون ، ولم نعرف بعضها إلا أخيراً ، وخالق الكون هو الذي يعلم كل الخبايا .

نحن نقول : إننا نسير على الأرض : لأننا كنا نعلم أن هذه الأرض ليس عليها إلا نحن فقط ، ثم تبين لنا - بعد أن أخذ العلم حظه - أنه لولا وجود امرء في الأرض لما صبحت للحياة . ولذلك فعندما تدور الأرض فالهواء الذي حولها يدور معها ويسمونه الغلاف الجوي إذن فالغلاف الجوي جزء من الأرض وله امتداد كبير ، فالإنسان عندما يسير فإنه يسير في الأرض ، أما الذي يسير على الأرض فهو الذي يسير فوق الغلاف الجوي ، أما التأثير على اليابسة ، ولغلاف جوي مارال موقه فهو يسير في الأرض لا على الأرض

ومادامت المسألة هي من تقديمت ، ويريد الله ما أن يحتر بالنسب المتقدمة ، لذلك يقول لنا : «سيروا في الأرض» سير مجازاً ؟ إنما نسير بالانتقال ، أو سير بالأفكار ، لأن الإنسان قد لا يملك القدرة على السير ويترك هذه المهمة للرحالة ، والرحالة - مثلاً - هم الذين ذهبوا إلى جنوب الجزيرة ، ورأوا وادي الأحقاف ووجدوا أن عاصفه رمل واحدة تطمر قافلة بينهم

إذن ففيه عواصف وارت الكثير من الأشياء ، فعاصفة واحدة تطمر قافلة فكيف من العواصف قد هبت على مر هذه القرون ؟ والحق سبحانه يحبرنا بأرم ذات العهد فيقول

﴿الرَّكَيفَ فَعَلَّ رَبُّكَ بِعَادٍ ۚ لَدِمَ ذَاتَ الْعِمَادِ ۚ الَّتِي لَا تَخْلُقُ مِثْلَهَا فِي الْبَلَدِ ۚ وَنَمُودَ الَّذِينَ جَاءُوا الصَّخِرَ بِالْوَادِ ۚ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۚ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبَلَدِ ۚ فَانْكَرُوا فِيهَا الْعَسَادَ ۚ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سُرُطَ عَذَابٍ ۚ﴾ (سورة النمل)

إله سبحانه بحبرنا أن إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد أي متفوقة عن حصارة مصر القديمة وهي عجيبة وفيها أكثر من عجيبة فإين هي الآن ؟

ومدامت الرمال بعاصفة واحدة - كما قلنا - تطمر قافلة ، فكيف عاصفة مرت على هذه البلاد ؟ ولذلك نجد أنها لا تزال جميعاً إلى الآن حين نريد أن ننقب عن الآثار فلا يد أن نحفر تحت الأرض - لماذا هذا الحفر وقد كانت هذه الآثار فوق الأرض ؟ لقد غطتها العواصف الرملية .

والمثال على ذلك . أنك تعب عن بيتك شهراً واحداً وتعود تتجدد من التراب الناعم ما يغطي أرض البيت من الرغم من إعلال النوافذ - لماذا تجد من حجم التراب لو غيب عن بيتك عاماً ، أو عامين ، أو ثلاثة أعوام ، رغم إحكام وإغلاق النوافذ والفتحات بالمطاط وخلافه ؟ ولكن التراب الناعم يتسرب ويعطى الأثاث والأرض - وإذا كانت هذه الأمور تحدث في منازلنا فما بالك بالمطمة التي فيها أعاصير وعواصف رملية ؟ هل تطمر المدن لو لا ؟

إن المدن والحصارات تطمر تحت الرمال ؛ لذلك فعندما ننقب عن الآثار فسنجد نحفر في الأرض ، وهذا لون من السير في الأرض للرؤية والعظة - وحين يقول الحق : « فاعظوا كيف كان عاقبة المكذبين » فهذا يعني عاقبة المكذبين ؟ حين تكون أمة قد تحضرت حصارة كبيرة يقرب عنها الحق

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۚ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۖ الَّتِي لَا يَخْلُقُ مِثْلَهَا فِي

الْبَلَدِ ۚ وَتَمُودَ الَّذِي جَاءَ بِالشَّعْرِيَّانَوَادِ ۚ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ۚ

الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبَلَدِ ۚ فَاصْكُرُوا فِيهَا الْقَسَادَ ۚ ﴾

( سورة العنكبوت )

إن الذي أهم هذه الحصارات ألا يستطيع أن يجعل لهذه الحصارة ما يصومها ؟ كيف يسم القصص على هذه الحصارات الواسعة واندثارها ودهابها ؟

لا بد أن ذلك يتم بقرة أعى منها ، فهذه الخضرات رعم تقدمها الرهيب لم تستطع أن تحمط نفسها من العناء . إنها القوة الأعلى منها ، وهكذا نصلى قوله الحق : « فاعطوا كيف كان عقابه المكذبين » . إنه انقيوم الذى يرى كل الخلق ، فمن يطفى ويمسك فليبق النهاية نفسها . إدى هموله سبحانه يحمل كل انصدق :

« قد حلت من قبلكم من فسروا فى لأرض فاعطوا كيف كان عقابه المكذبين »

وبعد ذلك يقول الحق :

### هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٧٨﴾

انظر إلى الكلمة « هذا بيان للناس » إن البيانات عندما تتأق تأخذ قوتها ويطورها وعظمتها من قوة من أصدر البيان ، أنت ساعة نجد ثورة فى مجتمع ما فإب سمع كلمة « بيان رقم واحد » تتهزبه الدنيا وهو بيان قادم من بشرها نالها بالبيان القادم من الله ؟

إنه إيضاح من الله - أنا لن أخدكم على عرة « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » و « هدى » : كما يعرف هو الطريق الموصل للعليه المرجوة . و « الموعظة » معناها : جعل النفس ترعياً وتزهياً ، لعمل الخير بالبرعيب ، والبعد عن الشر بالترهيب ، تلك هى الموعظة

وكل هذه الأشياء عندما جاءت فى ثاب آيات أخذ بعد أن أخذ منها العبرة والحديث مارال ساحاً . ولذلك فقبل أن يكمل لنا قصة أخذ استشار النفوس بهذه المسألة ، ووضح لنا الأشياء المادية والقيمية ، لتأخذ بها فى حياتنا ، وحتى لا تسهى قصة أخذ ويصرف الناس عن المعطيات التى كانت فيها .

وبادعت المسألة هكذا ، وكان المعانلون في سبيل الله هم جنود الحق ، وعرفوا ذلك بتأييد الله هم ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بينهم وهو حامس المعجزة الدالة على صدقه ؛ لذلك هالتي حدث في معركة أحد لا يصح أن يضعفكم ؛ لأنكم تعرفون كيف يستند الله الحق ويقويه ، وتعرفون حمى الله على الباطل ، وقد أوصحنا لكم السن والبيان ، ولذلك يقول الحق سبحانه بعد ذلك

وَلَا تَهَيَّأُوا وَلَا تَحْرَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾

والمقصود بقوله « ولا تهوا » أى لا تصغفوا ، وهى أمر خاص بملأة البينة ؛ لأن المراحات أنهكت الكثيرين في موقعة أحد لدرجة أن بعضهم أقعد ، ولدرجة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقدر أن يصعد الجبل ، وحمله طلحة بن عبيد الله عن ظهره بيقوم ، لذلك قال الحق « ولا تهوا » ، لأنك عندما تسبحصر أنك مؤمن وأن الله لن يحل بينك وبين حودنا طلي لأنت نصير بلحق ، والحق من لله وهو الحق لا يسلم نبيه وقومه لأعدائهم ، فيوم تأت لك هذه المعاني إياك أن تصعب والصعب هو نقصان قوة البدن

« ولا تحرنوا » والحرن مواحيد قلبيه ، وهم قد حاربوا فقد مات منهم كثير مات منهم خمسة وصغفون شهيداً ، خمسة من المهاجرين ، وسعوت من الأنصار ، وهذه عمية صعبة وشاقة ، وقد حارب رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشهداء ، وعصب لمقتل حمزة - رضى الله عنه - وقال : « لن أصاب بمثلك أبداً » وما وقعت مواضع عيط إن من هذا ؛ ثم قال : « لنش أطهروا الله على قرينش في موطن من المواطن لأمتش بثلاثين رجلاً منهم مكانك » .

فقال الحق « ولا تحرنوا » ؛ لماذا ؟ لأنك يجب أن تقارب الحدث بالعباية من

الحدث

صحيح أن نقتل صعب وإرهاق للنفس ، ولكن انظر إلى أين ذهب وانظر ماذا  
 حلف من بعده . ما هو فقد ذهب إلى حياة عند ربه وهي ليست كالحياة عندكم  
 إن الحياة عندما لها مقاييس ، والحياة عند ربنا لها مقاييس ، فهل مقاييسنا أعلى من  
 مقاييسه ؟ لا ، حاشا لله

إذن قد انظرت إليه هو فاعلم أنه ذهب خيراً مما ترك ، فلا تحزن عليه بل تفرح  
 به ، لأنه ما دامت العناية تستصل إلى هذه المسألة إذن فقد قصر به مسافة الحياة ،  
 وما دامت العناية أن يصل إلى رحمة الله وإلى حياة عند الله تكافؤ معديها ، فهو سعيد  
 بجوار ربه ، ونحن في الغيات الدنيوية عندما نريد أن نذهب إلى مكان نسرّ عن  
 يمحس لنا الرمس لنصل إلى هذا المكان .

هكذا من أن أذهب إلى الإسكندرية مشياً أذهب راكباً حصاناً أو أذهب راكباً  
 سيارة ، والمترفة يذهب راكباً طائرة ، فإذا كانت العناية مرجوة ومحسنة إلى النفس ،  
 وبعد ذلك يحس لك حذب يقرب لك المسافة من العناية ، فلهذا تحزن إذن ؟ لقد  
 استشهد إياك أن تقول إن الله حرمي قوته في مصرة الحق ، لا هو أعطى قوة  
 أخرى لكثير من خلقه نصر بهم الحق ، إنك عندما تعرف أن إنساناً باع نفسه لله ،  
 لابد أن تعرف أن الغاية عظيمة ؛ ولذلك كان الرسول صلى الله عليه وسلم في معركة  
 بدر ، يقدم أهله ؛ لأنه يعرف أنه إن قُتل وحده منهم إلى أين سيذهب ، إذن فهو  
 يحب أهله ، لكنه يحبهم بحب الكبير ، والبأس تحب أهلها ف أيضاً لكن الحب  
 الديوي .

« ولا تحرموا » عن ما فاتكم من الضائم أولاً تحرموا عن ما فاتكم من النصر لماذا ؟  
 وثائق الإحابة ، « وأنتم الأعلون » ولذلك جاء مصداق ذلك حينما نادى  
 أبو سفيان فقال : « اعل هيل ، أي أن إلههم صار عالياً ، فقال الرسول لأصحابه .  
 ألا تردون عليهم ؟ » قالوا : ماذا نرد قال : قولوا لهم : الله أعلى وأجل فقال  
 أبو سفيان : « لنا العزى ولا عرى لكم » فقال النبي صلى الله عليه وسلم .  
 « أجيؤ » قالوا : ما نقول ؟ قال : « قولوا الله مولانا ولا مولى لكم » ثم قال  
 أبو سفيان : « إن موعدهم » بدر » العام المقبل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

لرجل من أصحابه (فل نعم هو يسا ويصك موعده) (١)

« وأنتم لأعلنون إن كنتم مؤمنين » فما دمتهم على الإيمان فأنتم الأعلون ، وإذا أردتم أن تعرفوا معنى « الأعلون » حقاً ، ففارقوا معركة « أخذ » بمعركة « بدر » ، هم قتلوا منكم في أخذ ، وأنتم قتلتم منهم في بدر ، ولكمكم أسرتم منهم في بدر ، ولم يأمروا منكم أحداً في « أخذ » ، وأنتم عمستم في بدر ، ولم يعتموا شيئاً في أخذ

وأنتم الأعلون لأن الله حمى مدينتكم مع أبيه لأحاميته فيها من يكون فيه معنى الحندية كل ذلك وأنتم الأعلون ، هذا إذا نظرنا إلى معركة بمعركة . وإن نظرنا إلى المعركة نفسها « أخذ » وبدع بدرأ وحده ، في ظل قوله تعالى : « وأنتم لأعلنون إن كنتم مؤمنين » فقد ثبتت تلك القضية لأنكم حبي كنتم مؤمنين - ومن شرط الإيمان اتباع أمر الذي لا يطق عن أهوى - انتصروكم وانتصروكم انتصاراً رائعاً ، لأنكم قتلتم في أول جولة للحرب بضعا وعشرين من صناديدهم وفيهم صاحب الراية ، ولكمكم حينها حالتم أمر ابنه صلى الله عليه وسلم ، فتلحج للإيمان في قلوبكم .

إذن فالمسألة التي حدثت تؤكد صديق « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » ، فأنتم عدوتهم في أول الأمر ، وعندما خالفتهم الأمر صار لكم ما صار : فقد صدقت القضية في قول الله : « وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » .

وأيضا فإنكم لو نظرتهم إلى المعركة نفسها لوجدتم أن عدوكم لم يبق في أرض المعركة ، بل أنتم الذين بقيتم في موضع المعركة . وأين ذهب هو ؟ ذهب إلى موقع آخر يقال فيه غلبة وبصر ؟ لم يكن هناك إلا المدينة ، والمدينة ليس فيها أحد ، ولم يذهب عدوكم إلى هناك ، وإنما ذهب ناحية مكة ، إذن فهو الذي هرب

وبعد ذلك ماذا حدث ؟ ألم يؤذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس ويطلب العدو مرهبا له ليظفوا به القوة ، وإن لدى أصحابهم لم يوجههم عن عدوهم ؟

ولقد خرج رسول الله ﷺ مع من ؟ أحد ، يجاهيه لم تشهد المعركة ؟ لا بل قال عليه الصلاة والسلام صدقوا المسلمين . « إلى عباد الله » ، قالدين شهدوا المعركة سبعة ، جرح منهم الكثير وقتل منهم خمسة وسبعون ، فيهم حمزة ، ومصعب بن عمير ، وعبدالله بن جحش ، وثيابة بن عثمان ، وسعد بن أبي وقاص ، هؤلاء خمسة من المهاجرين ، والباقي من الأنصار ، هؤلاء مطروحو من المعركة الذي شاهد أول الموقعة ، حتى أن رسول الله ﷺ لم يأخذ بدلاً منهم من المدينة من القوم الذين عرصوا أنفسهم بكونوا مع الجيش الذي يطرد قريشاً ، بل ثور الرسول أن يذهب من ذهب معه إلى المعركة أنفهم ، ولم يكن منهم بطبيعة الحال شهداء أو الجرحى

لم يقبل الرسول صلى الله عليه وسلم من لم يشهد المعركة إلا واحداً وهو سينا جابر بن عبدالله الذي لم يخرج في معركة أحد واعتذر إلى رسول الله ﷺ بأن أباه عبدالله بن عمرو بن حرام قد حلف على بنات له سبع وقال له :

يا بني إنه لا يسعني لي ولا لك أن نترك هؤلاء السوة لا رجل فيهن ولست بالذي أوثرك بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي فتخلف على أحوالك فتخلف عليهن فقب رسول الله عذرهم وأذن له فخرج معه وطاردهم رسول الله ﷺ ومن معه إلى حمراء الأسد ، أما والده عبدالله بن عمرو فقد استشهد في أحد ومع ذلك فقد طلب من رسول الله ﷺ على الرغم من استشهاده أبيه أن يخرج إلى حمراء الأسد ، وذلك لنعلم أن الله يقول :

﴿ وَمَا يَكْمُرُ جُنُودُ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾

(من الآية ٣١ سورة الفاتحة)

هذا وإن واحداً من المشركين الذين كانوا موضع سر رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن حذائه وهو معبد الخراساني ، مر على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحد وقال له : يا محمد أما والله لقد عر علنا ما أصابك ، ثم نص أبا سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء<sup>(١)</sup> وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الروحاء موضع بين الحريين على ثلاثين أو أربعين ميلاً من المدينة - القاموس المحيط

وسلم وأصحابه فقال له أيوسفيان: ما وراءك يا معبد ؟ قال : محمد قد حرق في أصحابه بعلبيكم في جمع لم أر مثله ، ولم ير لهم حتى نفى أبا سفيان ومن معه فويلوا وجوههم إلى مكة خائفين مسرعين ، وقد ذهب رسول الله إلى حمراء الأسد فلم يجد أحداً بمعسكر رسول الله ثلاثة أيام هناك ، ومعنى ذلك أنهم هم الذين فروا من المعركة . إذن فأنتم الأعلون ، ولكن لا تحفلوا الشرط ، إن كنتم مؤمنين ، ثم بعد ذلك يسأل الله المؤمنين فيقول

﴿ إِن يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ  
مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ تُدَاوِلُهُا بَيْنَ النَّاسِ  
وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ  
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾

وإذا تكلمنا - من قبل - عن « المس » وهو : إصابة بدون حس . . أي من بكك لا تحس بحرارة أو برودة مثلاً ، إنما « اللمس » هو أن تحس في الشيء حرارة أو برودة ويحتاج إلى الالتصاق المؤقت ، إنما « المس » هو ما لا تكاد تدرك به شيئاً ، و « الفرح » هو : الجراح ، وفي لغة أخرى تقول « الفرح » - بضم القاف - وأقول « الفرح » وهو الألم للشيء من الجراح ، كي يكون لكل لفظ معنى .

وانت قد ترى بعض الألفاظ فتظن أن معانيها واحد في الجملة ، إلا أن لكل معنى منها ملحظاً ، أنت تسمع مثلاً : رأى ، ونظر ، ولمح ، ورمى ، وربما كل هذه تدل على المصر . لكن كل لفظ له معنى .

رمى: رأى مؤخراً عيبه ، ولمح: رأى شاهد من بعد ، وربما: نظر بإطالة ، وهكذا



ويقال أيضاً جلس ، وقعد ، فبلغني العام يكاد يكون واحداً ، لكن المعنى الدقيق يوضح أن الخلووس يكون عن اصطجاع والقعود عن قيام ، كان قائم بقعد ، والاثنان يتهيان إلى وضع واحد ، فكذلك « قرح » و « قرح » كل لفظ له معنى دقيق

ويقولون - مثلاً - إن للأسد أسماء كثيرة ، فيقال « الأسد » و « الحصفير » و « الرئبال » و « الوزد » و « القشورة » صحيح هذه أسماء للأسد ، ولكن لكل اسم معنى محدد ، و « الأسد » هو اللفظ العام والعلم على هذا الحيوان ، و « الحصفير » هو الأسد عندما يفش إبعته ، و « الوزد » هو حالة للأسد عندما يكون قد بط صله ، فكل موقف للأسد له معنى خاص به

وقوله الحق : « إن يحسبكم قرح فقد من القرم قرح مثله » لاحظ أن المتكلم هو الله فافطن جيداً إلى مرادات كلامه ونعرف أنه في الشرط والجواب ، أن الشرط يأتي أولاً ثم يأتي الجواب من بعد ذلك مترتباً عليه ونتيجة له ، كتبنا « إن تذاكر تصحح » إن السجاح هو جواب لشرط وهو الاستدكار

وقوله الحق : « إن يحسبكم قرح فقد من القوم قرح مثله » فهل المعنى المراد من هذه الجملة الشرطية أن من القرح للكافرين الذي حدث في بدر كان كجواب من القرح للمؤمنين في أحد ؟ لا ، إنه لا يكون أندأ جواباً لشرط ؛ لأنه لو كان جواب شرط لقال الحق : « إن يحسبكم قرح فسيمن القوم قرح مثله » وبكده لم يقل ذلك لأن القرح الذي أصاب المشركين في بدر كان أسبق من القرح الذي أصاب المؤمنين في أحد .

وكان الحق يقول : « إن يحسبكم قرح فلا تتشسوا » فقد من القوم قرح مثله ، وليس ذلك جواب الشرط ، ولكنه جاء ليستدل به على جواب الشرط ، أي أنه تحليل لجواب الشرط ، أقول ذلك حتى لا يتدخل دعوى من الأدعياء ويتهم القرآن - والمياد بالله - بما ليس به - إنه - سبحانه - يثبت المؤمنين و يسليهم - ومثل ذلك ما قوله نحن لواحد إذا أصابته كارثة :

إن كان قد حدث لك كذا ، فقد حدث خصمك مثله . إن فصح سلمه  
والمقصود هنا أن الحق يسل المؤمنين . إن بمسكم قرح فلا تبشوا ، فليكن عدكم  
سوء ولتجتازوا هذا الأمر ولترخص به هووسكم ، لأن تقوم قد مسهم قرح مثله

والأسوة والتسمية ، هل تأتي بما وقع بالفعل أم بما يقع ؟ إنها تأتي بما وقع  
بالفعل ، إن في فعل تعليلًا صحيحًا . « إن بمسكم قرح فقد مس القوم قرح  
مثله »

وأطلق الحق سبحانه من بعد ذلك قضية عامة « وتلك الأيام نداولها بين  
الناس » ما معنى المداولة ؟ . داول أى نمل الشيء من واحد لآخر . ونحن هه أمام  
موقعتين ، غزوة بدر وغزوة أحد . وكان انصر للمسلمين في غزوة بدر بالإجماع ،  
أما غزوة أحد فلم يكن فيها هزيمة بالإجماع ولم يكن فيها نصر

إذن فقوله الحق « وتلك الأيام نداولها بين الناس » أى مع التسليم حدلاً بأن  
الكفار قد انتصروا - رغم أن هذا لم يحدث - فإنا نقلنا النصر منكم أيها المؤمنون  
إليهم

وليك أن تهرتك هذه الملاحظة ، بأن النصر لم ينتقل إليهم إلا بمخالفة منكم أيها  
المؤمنون ومعنى مخالفة منكم ، أى أنكم طرحت المنهج ومعنى أنكم طرحت  
المنهج ، أى أنكم أصبحتم مجرد « ناس » مثلهم

ومادمت قد صرتم مجرد ناس بدون منهج مثلهم ومتسلون معهم ، فإن النصر  
لكم يوم ، وهم يوم . ونلاحظ أن الحق لم يقل : إن المداولة بين الناس هي مداولة  
بين مؤمنين وكافرين .

فإن هللتم مؤمنين فلا يمكن أن ينتقل النصر إلى الكفار ، إنما النصر يكون لكم .  
انظر ماذا قال « وتلك الأيام نداولها بين الناس » ولم يصر بين المؤمنين والكافرين ،  
أى بيسكم وبين قريش

وليس المقصود بالأيام ما هو معروف لدى الناس من أوقات نسم الليل والنهار ، ولكن المقصود بالأيام : ما هو أوقات البصر أو أوقات العلة . ويقال أيضاً : يوم فلان على فلان ، إذن : تلك الأيام مداوها بين الناس ، لم تنصم المدولة بين المؤمنين والكافرين ، ولكنها مداولة بين أيدينا مالت أنصارهم إلى المائتة فتحلحل إيمانهم ، ففارت قريش طاهرياً . فلو طعنتم على إيمانكم لما حدث ذلك أداً لكم نحيتم عن منج ربكم ، وبذلك استوتبت وتساوتت مع غير المؤمنين ، وبذلك تكون الأيام لتلك مرة وهذا مرة أخرى ، إنها مطلق عدالة

عليها أن تذكر الشرط السابق ، لا لعدم الحرية بل للمعلو والبصر

« وأسم الاعلون إن كسم مؤمنين » .

إن الحق سبحانه في مسألة مداولة الأيام بيه المؤمنين الذين تحلل إيمانهم : مادمتهم اشركتم معهم في كونكم مجرد « أناس » فيصبح البصر يوماً لهم ويوماً لكم ، والدكي المعقري الغطر الذي يحسن التصرف هو من يغلب : لأن المعركة ما تنور بين قوة شر مقابل قوة شر . وما دام المسلمون قد فخذوا عن منج الله فقد صاروا مجرد بشر في مواجهة بشر . ولذلك قلنا : إن عدم تحل الرماة عن إبعاد أمر القائد لأعلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ظهرت عقوبة خالد بن الوليد على عبقرية المقاتلين المسلمين

ويجب أن نلاحظ في قوله الحق : « وتلك الأيام مداوها بين الناس » أننا لا يمكن أن نقول : إن مداولة الأيام تكون بين المؤمنين والكافرين ، إنما هي بين الناس : لأن الناس هم مجموعة الإنسان ، فإن تخرجوا عن منج السيد فهم موائمة ، وصاحب الحيلة يغلب ، أو صاحب القوة يغلب ، أو صاحب العدد أو العدة يغلب .

ولكن ما الذي يعرض كل تلك الإمكانيات ويحقق النصر ؟ إنك إن تأخذ الله في جانبك فس يجرؤ مخلوق أن يكون في مواجهة الحق في معركة . لقد قلنا قديماً وعليها أن نعيها جيداً . إن الولد الصغير حينما يضطهده رملآزه فيلجأ إلى جحص أبيه ، عدلذ ينصرف كل منهم إلى حاله ، لكن أقرانه يستطيعون أن يرموه عندما يتعد

عن أبيه مما نالنا ونحن عيال الله ؟ وكللك شأن الكفار مع المؤمنين

إن لكفار قادرون على الانعزاد بأنؤمنين جنبها يشقى المؤمنون عن منهج الله ؛ لأن الله لم ينصر أناساً ليسوا على منهجه ، فهو نصر الله أناساً على غير منهجه فإن ذلك يبطل قضية الإيمان . وعندما ستقرأ القرآن الكريم ؛ نجد أن كل خبر عن الإنسان وهو معزول عن المنهج الإلهي هو خبر كنه شر .

مبحانه يقول :

﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَشِيرٌ ۝٢ ﴾

( سورة العصر )

إن الإنسان عن اطلاقه لمن حصر ، ولكن من الذي يتجو من الخسران ؟  
وتأتى الإجابة من الحق فيقول

﴿ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَّوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَّوْا بِالصَّبْرِ ۝٣ ﴾

( سورة العصر )

وتؤكد القضية في موصع آخر من القرآن الكريم فيقول - سبحانه -

﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوةً ۝١٩ إِذْ مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْغَمُّ حَزُوعًا ۝٢١ لَئِنْ لَمْ يَدْعُوا إِلَىٰ مَنَاسِكِنَا ۝٢٢ لَا تَصْلَيْنَا ۝٢٣ ﴾

( سورة المعارج )

إذن كل كلام - في القرآن - عن الإنسان على إطلاعه بأن من ناحية الشر وما الذي ينجمه من ذلك ؟ إنه المنهج الإلهي .

إذن يقول الحق : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » تحمل ثأنيًا وللدعة حصية لمن أعلنوا الإيمان ولكنهم تحصوا عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم في أحد .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه : « وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين »

ففي وقت النصر نحدد حتى الذي لم يشترك في المعركة يريد أن يدخل نفسه ضمن المتصيرين لكن وقت الهزيمة فالحق يظهر ، والذي يظل في جاب الطرمة معترفا بأنه شارك في بروطها بالمستعين وان لم يكن شارك فقد عذر أو لام من كان سببا فيها ، وهو مع ذلك يسهم في حمل أوزارها وأثقالها الصارة ، ويتحمل ويشترك في المسؤولية ، إنه بذلك يكون صادقا

وقد يقول قائل : هل الله لا يعلم الذين آمنوا ؟ لا ، إنه سبحانه وتعالى يعلم الذين آمنوا سواء حدثت معركة أو لم تحدث لكن علم الله الأرقى العيني لا يرى نحن به الحجة ، ولذلك لا يكون الحجة ظاهرة بيننا ، ولكن حين يبرز علم الله إلى الوجود أمامنا فربه علم نقوم به الحجة واضحة على من آمن ، ومن لم يحسن الإيمان ، وذلك حتى لا يدعى أحد لنفسه أنه كان سيفعل ، لكن الفرصة لم تواته

وهكذا تأتي المواقف الاختبارية والامتحانات ليعلم كل منا نفسه وتبرز الحجة علينا جميعا ، إذن ، فهناك فرق بين علم الله الأرقى للأشياء كما سوف تحدث ، ولكن لا تقوم به الحجة علينا فقد يدعى البعض أنه لو قامت معركة شديدة فلأنهم سوف يصمدون ، ولكن عندما تقوم المعركة بالفعل فنحن نرى من الصامد ومن هو غير ذلك من المتحاذلين القارين ؟ وبضرب لذلك مثلا وفي المثل الأعلى : نحن في حياتنا المادية نجد أن عميد إحدى الكليات يأتي إلى المدرس ويقول له : نحن نريد أن نعقد امتحانا نتعرف على المتفوقين من الطلاب ، ونمنح كلاً منهم جائزة .

فيرد المدرس : ولماذا الامتحان ؟ إنني أستطيع أن أقول لك : من هم المتفوقون ، وأن أرتبهم لك من الأول ومن الثاني وهكذا

لكن عميد الكلية يصبر على أن يعقد امتحانا حتى لا يكون لأحد حجة ، ويختار العميد مدرسا آخر ليصح هذا الامتحان وتظهر النتيجة ويكون توقع المدرس الأول

هو الصائب ، وهكذا يكون تفوق هؤلاء الصلاب تفوقاً بحجة . وإذا كان ذلك محدث في المستوى البشرى فما بالتأ بعلم الله الأزل المطلق ؟

إن الحق بعلمه الأزل يعلم كل شيء ويحيط بكل شيء ، وهو سبحانه لا يقول لنا : أنا كنت أصمم أنكم لردخلتم معركة ستعملون كذا وكذا .

وكان يمكن أن يجتلبوا ويدعوا لأهملهم أشياء ليست فيهم ، لكن الحق يضع المعركة وتكون النتيجة مطابقة لما يعلمه الله ألا إذن التغيير هنا لا يكون في علم الله ، لكن التغيير يكون في المعلوم لله ، ليس في العلم بل في المعلوم بحيث نراه شجاعة عليها

ويقول الحق : « ويتخذ منكم شهداء » وساعة تسمع كلمة « يتخذ » هذه ؛ اعرف أنها اصطفاء واختيار . وسبحانه يقول .

﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾

( من الآية ١٢٥ سورة النساء )

أي أنه جل وعلا قد أقر إبراهيم واصطفاه ، إحد فالانحياز دائماً هو أن يأخذ به جانبه لمزية له ورفعة لمكانته .

وحين يقول الحق « ويتخذ منكم شهداء » فمن نعرف أن « شهداء » هي جمع شهيد ، وكلمة شهيد لها معاني متعددة ، فالشهيد في القتال هو الذي يقتل في المعركة ، وهذا سيكون حياً ويرزق عند ربه . وإياك أن تقول : إنما عندما نضع قبر الشهيد سجده عظماً وتراباً وهذا يعني أنه سلب الحياة لا ، إن الله وضع أن الشهيد حيٌ عنده ، وليس حياً عند البشر . وإذا فتح أحد من الناس القبر على الشهيد فسيراه عظماً وتراباً ؛ فقد جعل الله سبحانه للشهيد حياة عنده لا عندنا .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلَىٰ أَمْواتًا حَتَّىٰ تَرْوَاهُم يَرْزُقُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

( سورة آل عمران )

إذن هل الشهداء عند ربهم حياة لا تعرف كتبها ، ويوم يفتح عليهم قبورهم تصير أمرا محسسا ، ولكن الله نبها أن لشهداء أحياء عند ربهم . وعدنا بتأمل كلمة « شهداء » نجد أنها تعنى أيضا الشهادة على الحق الذى قامت من أجله الحركة ، وكل إنسان يحب الخير لنفسه ، فلو لم يعلم هؤلاء أن إقدامهم على ما يؤدى إلى قتلهم خير لهم من بقائهم على حياتهم لما فعلوا .

وبذلك يكون الواحد منهم شاهدا للدعوة وشهيدا عليها . وقد يصرف المعنى في « شهداء » إلى أنهم يُلْعَو الدعوة حتى انتهت دماؤهم . ويدل الحق الآية بقوله « والله لا يحب الظالمين » .

ومعنى هذا الدليل أن الحركة يجب أن تدور في إطار الحق ، ومثلما قلنا . مادام الناس مختلفين عن المنهج فإن الله لا يظلمهم بل ستندرج الحركة صراع شر لشر ، والقادر من الطرفين هو الذى يعلب . فالحق سبحانه بالرغم من كراهيته للكفر إلا أنه لا يحبى المسم الذى لا يتمسك بمطرب الإيمان ؛ لذلك قد يعلب الكافر المسلم الذى لا يتمسك بمطلوب الإيمان ، ولكن إن تمسك المؤمن بمطلوب الإيمان فالصبر مصموم لهم يأمر الله . وبعد ذلك يقول الحق

﴿ وَلِيَمِجَحِصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمَحَقَ الْكُفْرَ ﴾

والتمحيص يختلف عن المحق ، لأن التمحيص هو تطهير الأشياء وتحليصها من العناصر الضارة ، أما المحق فهو الدخا بها كلها . ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ

الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الْقَادِرِينَ ﴾

إن الإيمان ليس مجرد كلمة تقال هكذا ، بل لابد من تجربة تثبت أنكم قد كنتم  
ونجحتم في العفة ، والعفة هي الامتحان . إذن فلا تحسبوا أن المسألة سوف تمر  
سهولة ويكتفى منكم أن تقولوا نحن نحمل دعوة الحق ، لا إذا كنتم صادقين في  
قولكم بلوكمكم أن تكونوا أسوة حين يكون الحق صميماً ؛ فالحق حين يكون قوياً فهو  
لا يحتاج إلى أسوة . بل قصية الإيمان الحق تحتاج إلى الأسوة وقت الصعاب . ودور  
الجنة له اختبار يجب أن يجتازه المؤمن

والحق يقول : « ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين » وعندما  
نسمع ذلك فعلياً أن نعرف أن الله يعلم عليها أزلنا من المجاهد ومن الصابر ، ولكنه  
علم لا تقوم به الحجة على الغير ، وإذا حدث له واقع صار حجة على الغير وبعد  
ذلك يقول الحق -

﴿ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمُوتُونَ الْمَوْتِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ  
فَقَدْ رَأَيْتُمْوَهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴾ ١٤٢

وكان القوم الذين قاتلهم شرف الاشتراك في بدر قد أرادوا أن يذهبوا مع الرسول  
للمشاركة في غزوة أحد ، ويوضح لهم الحق : أنكم نظرون أن غنى المعارك وحده  
يحقق النصر ، وهل كنتم نظرون أن كل معركة يدخلها المؤمنون لابد أن تكون  
منتصرة ؟ وإن كنتم تظنون أن المسألة هي نصر لمجرد التمسك ، فمعنى ذلك أنكم  
دخلتم إلى معسكر الإيمان من أجل المال واليمن والنصر ، ونحن نريد أن نعرف من  
الذي يدخل معسكر الإيمان وهو بائع روحه وهو محتسب حياته في سبيل الله

فتو أن الأمر يمر رجاء ، لدن كل واحد إلى معسكر الإيمان ، لذلك يقول  
الحق : « أم حسبكم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم  
الصابرين » فهل ظنتم أنكم تدخلون الجنة بدون أن يخرج الحق على الملأ ما عساه



فيا ، وترجمه الأحداث التي يُجرىها سبحانه فيصير واقعا وحجة عليكم ، ويرز الله سبحانه من الدين جاهدوا ؛ أي دحوا في زُمرة الحق ، والذين صبروا على الأذى في الحق

ويقول سبحانه : « ولقد كنتم قومون لموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون » أي إن ما كنتم تمنونه قديما صار أمامكم ، فلو أن التمني كان صحيحا لايتلم على الموت كما تفلون على الحياة . ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ  
أَفَايُنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَلْقَلْبُكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ  
يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي  
اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ١٧٤

ونحن نعرف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه الاول هو محمد ، وله اسم ثانٍ عرفناه من القرآن وجاء في الإنجيل هو « أحمد » :

﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا  
بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَبَشِيرًا بِرَسُولٍ بَأْنِي مِنْ تَحْتَىٰ أَسْمَىٰ أَحَدٌ قَبْلَ  
جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ ١٧٤

(سورة الصف)

وقد ورد اسمه صلى الله عليه وسلم « أحمد » في القرآن أربع مرات ، و« أحمد » وردت مرة واحدة

والآية التي نحن بصدددها ، وهي آية ذكر فيها اسم محمد : « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل » ولنقرأ قول الحق :

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَئِن رَّسُولَ اللَّهِ وَحَاظَمَ الْأَيْبُشَنُّ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝١٩ ﴾

(سورة الاحزاب)

وقوله تعالى

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢٠ ﴾

(سورة محمد)

وما هو ذا القول الكريم

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ زُرَّاءُ مِمَّن دُونِهِمْ رُحَمَاءُ يُؤْتُونَ مَصْرَافًا مِّنْ أَثَرِ اللَّهِ وَإِذْ يَخْرُجُونَ ۝٢١﴾

(من الآية ٢٩ سورة الفتح)

والاسم هو ما وضع علماً على المسمى ؛ بحيث إذا ذكر الاسم جاء إلى الدهن المسمى ، فإذا اشترك الثمان في بيئة واحدة في اسم ؛ فلا بد من التمييز بينهما بوصف . فإذا كان في أسرة واحدة ولدان اسم كل واحد منهما محمد ، فلا بد أن يميز بين الاثنين بصفة ، ولي ارباب محمد من يسمى « محمدًا الكبير » و« محمدًا الصغير » .

وكلمة « محمد » وكلمة « أحمد » مشتركتان في أصل المادة ؛ لأنها من « الحاء والميم والدال » فالمادة هي الحمد ، إلا أن التوجيه الاشتقاقى في محمد غير اتوجيه الاشتقاقى في أحمد ، لأن الاسم قبل أن يكون علماً إذا خرجت به عن معناه الأصيل ، يحل عن معناه الأصيل ، وصار علماً على الشخص .

ولذلك قد نجد رجلاً له جاربه سوداء فيسميها « همر » وقد يكون للرجل عبد شقى يسميه : « سعيداً » . فإذا صار الاسم علماً على شيء فإنه يستقل من معناه الأصل وبصير علماً على المسمى ، لكن اسم حين نسمي أئدها تلمح التناؤل في أن يصير المعنى الأصل واقعاً

والندبة التي يسميها صاحبها « همر » اقتضت جمال المسمى ، ولذلك فهو يريد لها أن يأخذ جمال الاسم . وكلمة « محمد » حين ينظر إليها في لاشتقاق نجد أنها ذات وقع عليها الحمد من غيرها ، مثلاً نقول فلان مكرم أي وقع التكريم من الغير عليه

وكلمة « أحمد » بعدها ذاتا وقع عليها الحمد لغيرها وعلمت بقول « مكرم - بصم الميم وفتح الكاف مع تشديد الراء مكسورة - أي وقع التكريم منه لميمه . ونحن عندنا اسمان لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، في القرآن وكلاهما من مادة الحمد « هـ » محمد ، ملحوظ فيه أن الحمد وقع عليه كثيراً من غيره لكن لو كان المراد أن الحمد وقع عليه دون الكثرة فيه لكان اسم « محمود » هو الذي يطلق عليه فقط

أما « أحمد » فقد قلنا إنه ملحوظ فيها أن الحمد وقع منه لغيره و « أحمد » تتطابق مع فعل التفضيل فنحن نقول « فلان كريم وفلان أكرم من فلان » إذن فـ « أحمد » أي وقع منه الحمد لغيره كثيراً ، ولو كان الحمد قد وقع منه بقدر محدود لقلنا « حمداً » . إذن هـ « أحمد » مبالغة في « حامداً » وقع منه الحمد لغيره كثيراً فصار أحمد . و « محمد » مبالغة في « محمود » ، وقع عليه الحمد من غيره كثيراً فصار محمداً

إذن فرسول الله صلى الله عليه وسلم جمع له الله بين الأمرين ؛ فهو محمد من الله وحامد لله ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع الله له بين مقامين . مقام الاصطفاء ومقام المجاهدة ، بالاصطفاء كان « محمداً » و « محموداً » ، وبالمجاهدة كان « حامداً » و « أحمداً » . إذن نحن هنا أمام مقامين اثنين لرسول الله صلى الله عليه

ومسلم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأبا محمد وأحمد والمعمى والحاشر  
ونبي التوبة ونبي الرحمة<sup>(١)</sup> .

وسيكون لذلك كلام ونحن تناول هنا بالخواطر معركة أحد ، بعد أن جعل  
القوم من الرماة عن أمره ، وحدثت الكرة عليهم من المشركين لقرشيين ، بعد ذلك  
ينجيه الصحابة ها وهناك ليقرؤا ، ويتكفل المشركون على رسول الله لدرجة أن  
ابن قميئة يمسك حجرا ويضرب به حضرة نبي عليه الصلاة والسلام فيكسر  
رِجْلَيْهِ . وتخزفي وجنتي الرسول حلقنا المغفر ، ويسيل منه الدم ، ويحاول الرسول  
صلى الله عليه وسلم أن يصعد على صخرة من أجل ليعلموها فلم يستطع فجلس تحته  
طلحة بن عبيد الله فبهض به حتى استوى عليها وكلها محامدات مشربة

أما كان الله يقادر أن يُجيب رسوله كل ذلك ؟ إنه سبحانه قادر . ولكن كل ذلك  
كان تكرهما من الله ، ولم يرد سبحانه أن يحرم رسوله من لذة المحاهدة ، وحتى يعرف  
الله المؤمنين بمحمد تقول - إن الله لم يأت بمحمد يدلله على حلقه ، ولكن ليبدل كل  
مؤمن على أن رسول الله حيا حدث له ، حدث قد دافق المجاهدة ، فقد فر بعض  
المقاتلين من المعركة في أحد ، وكادت ريح الهزيمة تهب على معسكر الإيمان ، هاهود  
سيدنا أبو عبيدة رضي الله عنه يذهب إلى رسول الله فيجد حنقي المغفر في وجنتيه  
صلى الله عليه وسلم ، يحاول سيدنا أبو بكر أن يملع حلقه المغفر ، فبتألم الرسول  
صلى الله عليه وسلم ، فيقول سيدنا أبو عبيدة :  
- إليك يا أبا بكر بالله دعني .

وعسى أبو عبيدة بإحدى الخنقير ويرعها من وجه رسول الله صلى الله عليه  
ومسلم فسقطت ثيابه ، ثم نزع الحلقة الأخرى فسقطت ثيابه الأخرى فكان أبو عبيدة  
- رضي الله عنه - ساقط الثنتين ، وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم . « لكل  
أمة أمين ، وأمر هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » . ويرف دمه صلى الله عليه  
ومسلم ، وسينثنا فاطمة بينهما الله أن تأتي بقطعة من حصير وتحرفها ، وتأخذ

التراب الباقي من الخريق وتضمده به الجرح إن الله لم يشأ أن يحرم رسوله لئلا  
المجاهدة

ويأتى أنس بن التضر ويحمد الصحابة وفيهم عمر بن الخطاب وطلحة بن عبد الله  
وقد ألقوا ما بأيديهم ، فيسألهم أنس ما يجلسكم ؟ فيقولون : قُتل رسول الله صلى  
الله عليه وسلم ، فيقول : فإذا تصنعون بالحياة بعده ؟ قوموا فموتوا على ما مات  
عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثم استقبل القوم من أشركين فقاتل حتى  
قتل .

هذه كلها مواقف لم تكن تأق وتظهر ، لا بهذه الحركة : وما محمد إلا رسول « أى  
استمعوا هذا محمد وهذه منزلته ، هو رسول من الله جاء بعد عيسى بن مريم ،  
وكان من الواجب أن نعلم أن لرسول صلى الله عليه وسلم مؤكدة عن بشرته  
« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على  
أعقابكم »

وهل انقلب أتباع لرسول السابقين على أعقابهم حينما ماتت رسالتهم ؟ فكيف  
تكونون أقل شأنا من هذه الأمم ؟ هبوا أن ذلك قد حدث ، فليأت لا يبقى الخبر  
الذى يبلغه فيكم رسول الله إلى يوم القيامة ؟ الرجل الذى يكون قد صبح خيرا يموت  
بموته ، أيكون قد صبح شيئا ؟ لا : فالذى يريد أن يصبح خيرا فعليه أن يصبح خيرا  
بخلقه .

لذلك فالزعامات العاشلة هي التي يكون التمرد فيها رعييا ، ثم يموت ويبحث عن  
زعيم بعده فلا يجد ونسائل : ماذا حتى الزعيم أصحابه وزملاءه ؟ أكان خائفا  
منهم ؟ ونظرا بمعنى أن يكون قد ربي الزعيم أناسا ، فإذا ما ذهب نجد من يخلقه ،  
فلا يوجد إنسان يضمن حياته ؟ لذلك يقول الحق : « وما محمد إلا رسول قد خلت  
من قبله الرسل » .

وساعة تسمع انقول الكريم : « وما محمد إلا رسول » بهذا أسلوب اسمه أسلوب

لنصر . إنه سبحانه وتعالى يقصر محمداً على الرسالة . فإذا قصر محمد صلى الله عليه وسلم على الرسالة فهذا يعنى أن بعض المعاصرين له كانوا يعتقدون أن محمداً أكبر من رسول ولا يموت . فأوضح الله سبحانه أن محمداً رسول ، وقد حلت من قبله الرسل ، ولن ينجده الله أحداً .

وهل عاب ذلك من الدهر ؟ نعم كان ذلك بغيب عن الدهن بسبيل أنه حتى بعد أن نزلت هذه الآية وصارت قرآناً يُتلى ، نجد أن سيدنا عمر رضي الله عنه وكانت له فطرة صافية توافق وحى الله ، إنه يحدث ملهم .

ها هو ذا عمر بن الخطاب حينما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقل إلى رحاب الله يقول : والله ما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يموت حتى يقطع أيلى الناس من المنافقين كثير وأرجلهم . قال عمر بن الخطاب ذلك من هول العاجمة ومعنى الآية هناك سيدنا أبو بكر فيقول : من كان بعد الله فإن الله حتى لم يموت ، ومن كان بعد محمداً فإن محمداً قد مات ، ونلا قوله تعالى : وما محمد إلا رسول قد حلت من قبله الرسل فإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين . فقال عمر بن الخطاب : هل كان لم أقرأها إلا يومئذ .

ثم إن عمر بعد أن بايع المسلمون أبا بكر بالخلافة قال : أما بعد فإن قلت لكم أمس مفالة ، وإياها لم تكن كما قلت ، وإنى والله ما وجدت المقالة التي قلت لكم في كتاب أنزله الله ، ولا في عهد عهده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكني كنت أرجو أن يمرش رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يذُبراً<sup>(١)</sup> باختار الله عز وجل لرسوله الذي عنده على الذي عندكم ، وهذا الكتاب الذي هدى الله به رسوله فحفظوا به تهتدوا كما هُتِىَ له رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه تعطينا أمرين اثنين :

الامر الأول - هر يمشق الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) يذُبراً . يكون آخرنا مرناً

والأمر الثاني : هو حاجة إيمان ، فابعدش لا يستقيم ولا يصح أن يخرجنا عن طور التصور للإيمان ؛ فصرح بن الخطاب قال : عندما سمعت أنا بكر يتلو هذه الآية عرفت حتى ما تغلني رجلاي ، وحتى هويت على الأرض

إذن فقول سبحانه : «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» يعنى لا ترتفعوا به أنتم أيها المؤمنون برسائله فوق ما رفته أن .

ومعنى «يقب على عقيه» أى يرجع . فهل هذا الرجوع رجوع عن المعركة ؟ أو رجوع عن أصل التشريع وأصل الديانة وأصل الرسالة التى جاء بها محمد ؟ إن هذا يصح ، وذلك يصح . وقوله الحق . «أفإن مات أو قتل» فون واضح ، وسن أن تعرضنا إلى الموت وإلى القتل ، وقتلنا . إن الموت والقتل مؤداهما واحد ، وهو الذهاب بالحياة ، إلا أن الذهاب بالحياة مرة يكون نقص للبية التى لا تسكن الروح فيها إلا بمواصفاتها ، فإذا نقصت البنية ولم تجد الروح المسكن الملائم لما تتركه ، لكن الموت على إطلاقه هو أن نذهب الحياة بدون نقص البنية ، فالإنسان يذهب حتى أفقه ، أى نعدمه قد مات وحده .

إذن فنقص البنية يؤدي إلى ذهاب الحياة بالقتل ؛ لأن الروح لا تسكن في مادة إلا بمواصفات خاصة ، فإذا انتهت هذه المواصفات ذهبت الروح . لكن عندما تذهب الروح بمفردها بدون نقص للبية فهذا هو الموت لا القتل .

واذا سبحان يقول «أفإن مات أو قتل» ذلك أهم أشاعوا أن السبي قد قتل . وكيف يجوز ذلك عن الصحابة والله قد قال .

﴿وَأَنَّهُ يَفْعَلُكَ مِنَ السَّائِرِ﴾

(من الآية ٦٧ سورة مائدة)

وهنا نقول . هل أنت عذمت أن هذه الآية قد برب قل أئحد أو بعدها ؟ وهل أنت حسن الظن بأن كل صحابي يكون مستحضرا لكل آيات القرآن في بؤرة

شعوره ؟ ألا ترى أنهم عندما سمعوا بخبر قتله هربوا ، وإذا كان سيدنا عمر قد نسي هذه الآية : « أفان مات أو قتل ، كما أنه يحتمل أن يكون المراد من عصمة الله رسوله من الناس أنه - سبحانه - يحفظه من فتنة الناس وإذلالهم

وهكذا أراد الله أن تمثل لنا معركة أحد كل الطوائف والأصناف التي تُب إلى الإيمان تمثيلاً يتصح في موقف ابن أبي حنيفة حيث اضطل وأقطع عن رسول الله بثلاث القوم ، ومرحلة أقل منها ، تتمثل في صائمتين هُتتا ، ثم شاء الله أن يربط على قلوبهما فيظلا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولما نشبت المعركة كان للرملة موبق في المعركة الأخيرة .

فحين رأوا النصر أولاً ورأوا الغنائم سال لعاب بعضهم على العنائم ، فحصل اشتقاق منهم ، فعند الله بن جبير وهو رئيس الرملة ومعه من معه من القلة بصر على تمهيد أمر رسول الله فيقاتل حتى استشهد ، واستشهدوا وهؤلاء هم الذين أرادوا الآخرة . بينما كان هناك قوم آخرون أرادوا العنائم ، وحينما أشيع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قُتل قوت البقية الباقية من الرملة وغيرهم من المعركة ، ورسول الله يتنادى القوم : « إلى عباد الله إلى عباد الله » (١) .

كل هذه مصاف إيمانية تمثل لنا كيف يُصفي الله مواقف التسويين إليه وتظهر وتوضح موقف كل واحد ، وأنه مضبوط إيماني إن وقف موقفاً يخالف منهج الله كان رسول الله صلى الله عليه وسلم - في هذا الوقت - في موقف الإغلاء لقوته الشريعة للفرجة أننا قلنا إنه أراد أن يصعد فلم تقو مادته البشرية ، فطالما صلحة ظهره ليصعد السى عليه ، وهو في هذه المرحلة من الإنهاك المادي البشري يريد الحق سبحانه وتعالى أن يعطيه من القوة في هذا الضعف وفي هذا الإنهاك ما يقف به أمام جبار من جنابة قريش . كان هذا الجبار يتهدده .

ولو أن الموقف كان مرقف قوة لرسول الله أكان من المفعول أن يتصدر رسول الله جل جبار قريش ؟



ولكن الله يريد أن يُرينا تأييد الله لرسوله ، في موقف إهائه وكيف يقف من جبار قريش هذا الموقف ، هذا الجبار هو « بن بن حنف الحنفي » وكانت عنده رُمكة<sup>(١)</sup> فيقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : هذه رُمكة أن أعلفها كل يوم قرقاً<sup>(٢)</sup> من ذرة لأقتلك عليها فيقول له رسول الله قولة الزائق من أن ربه لن يخذله . بل أما أقتلك إن شاء الله .

لم يلتق هذا الرجل مع رسول الله وهو في قوته ، ولكنه جاء لرسول الله وهو في هذا الموقف الذي أتخنته فيه الخرج وكسرت ربايعته ودخلت حيلتنا المعفر في وجسته وسال دمه وبعد ذلك يأتي إليه هذا الرجل - أبي بن حنف الحنفي - وهو يقول أين محمد ؟ لاسحوت إن نجا ، فقال القوم : يا رسول الله أيعطى عليه رجل ما ؟

فيشير إليهم رسول الله أن اسكتوا إنه - رسول الله - لا يريد قوة لقوة ، ولكنه علم أن أتياً قد عرف أن رسول الله مهك وجاء في هذا الوقت ، فأخذ رسول الله الحربة ، وضرب أبي بن خلف بها فثالت منه ، سقط من على عرسه بخور كما بخور النور ، فقال له أصحابه : لا بأس عليك يا أبي ، ما أجركك إنما هو حدش<sup>(٣)</sup> .

وهذا الذي قتله رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذي أشد عليه غضب الله تعالى لما رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال : « اشتد غضب الله على من قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم سده في سبيل الله واشتد غضب الله على قوم ذموا وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم »<sup>(٤)</sup>

وسطر كيف أن الدين عندوا رسول الله صلى الله عليه وسلم استكداراً وعداء ، ولم

(١) الرُمكة : أنتى البردون وطلال على خير العرب من الحيل ، عظيم - ثلاثة غليظ للأعضاء موى الأرجل عظيم الخواصر

(٢) القرق : مكبال يسع منه عشر رطل - ٨٧ ج شربا

(٣) ابن كثير في التفسير

(٤) رواه البخاري

يعادوه عقيدة قلبية ، إمام يعتقدون صدقه ، ويعتقدون حسن بلاعه من الله ،  
ويتحقق ذلك من قوله سبحانه وتعالى :

﴿ وَيَحْذَرُهَا وَأَتَّبَعَهَا أَنفُسُهُمْ ظَلَبُوا وَعَلَوْا فَأَنصَرُّكُمْ كَيْفَ كَانَ عَنَابُ  
الْمُفْسِدِينَ ﴿١٦﴾ ﴾

( سورة المل )

فما هو الاستيقان هاهنا ؟ لقد قال أصحاب أبي له : ما أجزعك إنما هو خدش  
فقال أبو له : والذي نفسي بيده لو كان الذي بي بأهل الحجاز أدتوا جميع لكن  
أصحاب أبي قالوا له مرة أخرى : لا يأمن عليك يا أبي إنه خدش بسيط لكن  
أبي يقول

- لا والله لقد علمت أنه يقتلني ؛ لأنه قل لي بمكة ( أنا قاتلك إن شاء الله ) هو الله  
لو بصرني عن لفتني . مات بهم قتلون به إلى مكة

هذا يحدث من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في موقف الضعف والإهناك ،  
ويشبه له الله أن يقتل جبورا من جبابرة قريش وهو في هذه الحالة . إن كل ذلك لأدلة  
تثبت لهم أن البشرية المادية لا علاقة لها مطلقا بمدة النصر من الله ؛ فإله محمد رسوله  
حتى في وقت الضعف ومدة سبحانه برسوله وقت ضعف الرسول هو إله علام  
مقبوميته سبحانه عن جنوده ، لأهم لو ظلوا أقوياء لقبل في عرف الشر أقوياء  
وغلبوا

لكن هاهنا الرسول يصيب الجبار من قريش في مقتل والرسول ضعيف ، وبعد  
ذلك يعطى الحق سبحانه برسول الله أشياء إيمانية تزيد ثقته بأنه هو رسول الله ،  
وتزيد المؤمنين ثقة بأنه رسول الله . لقد حرج إلى المعركة وهو يعلم بما سيكون فيها ؛  
لأنه قال : ( إني قد رأيت والله حيرا رأيت قهرا أن أصبح ورايت في ذهاب سبي ثلثا ،  
ورأيت أن أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة ) (١) .

وقال صلى الله عليه وسلم . ( لقد رأيته يوم أحد وما في الأرض قريب مخلوق غير جبريل عن يميني وطهحة عن يساري )<sup>(١)</sup> .

إذن فالمعركة بكل أحوالها عُرِصَتْ عليه ، ومع ذلك أقبل رسول الله على المعركة ليستدل من ذلك على أن الله أعطاه المناعة قبل أن يحوصر المعركة . هذا ما يتعلق به صلى الله عليه وسلم . لقد رأى ما وراء ما يرى ، وأما الذي يتعلق بالناس ، فبأن رلى واحد من قتل المعركة - وقتل المعركة ، لا يُحْسِنُونَ ، لأن الذي يقتل هو من يموت في غير معركة - يأتي الرسول إلى واحد من هؤلاء الشهداء فيقول :

« إن صاحبكم لتغله الملائكة » - يعني حنظلة - المؤمنون يرون أنه صلى الله عليه وسلم قد خرج عن القاعدة في الشهداء . كيف ؟ . لقد أحبر الرسول صلى الله عليه وسلم بالخبر بعد ذلك . ولا يُخرج حنظلة عن قانون الشهداء أنه يُحْسَل . ولكن الذي يفسده هم الملائكة . إن الملائكة تغفل حنظله .

وبعد أن رجع رسول الله إلى المدينة يسأل أهله ما شأنه . . فيعلم أن حنظلة قد دخل بعروسه . ثم يودى بالمعركة . . فأعجله بداء المعركة . فذهب إلى المعركة جاساً . فذلك عُشَل الملائكة ل . لقد تأكد الخبر من روعة حنظلة . . إذن فهذه شهادة أخرى أن الله سُبحانه وتعالى لم يتدخل عنهم في أوقات الصعف ، وأن تلك العمية كانت عليه معصودة .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطي الرسول صلى الله عليه وسلم أشياء لتؤكد لنفسه أنه رسول الله . ألم يقل سابقاً . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء له صحابته فقالوا يا رسول الله . إن جابر بن عبد الله عليه دين ليهودي وأجل الدين إلى جَعَز الشعر وقَرُهُ خَس هذا نعم أي قصد من آفة مثلاً فحب يا رسول الله أن تطلب من اليهودي أن يُطَر جابر - أي ينتظر عليه ويؤخره إلى وقت آخر - فذهب رسول الله إلى اليهودي وطلب منه أن يُطَر جابراً ، فلم يرض اليهودي وقال : لا يا أبا الماسم

فأعاد عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال اليهودي : لا يا أبا القاسم  
فأعاد عليه ارسول مرة ثالثة فقال اليهودي . لا يا أبا القاسم . فقال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم بثقة الإيمان بالله ما معناه : يا جابر اذهب إلى بيتائك

وذهب رسول الله فجالس خلال السجل ، ثم ذهب إلى عريش جابر الذي يجلس  
فيه ، واضطجع وقال يا جابر جبر والقصر قال جابر : فذهبت فجززت ، فإذا  
بجزرته يؤدى ما على لليهودى ويقضى لى ما لم يسق لى وأنا غير مدين . فلما بلغ ذلك  
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال .

« أشهد أن رسول الله . » إن الحق سبحانه يعطى رسوله بيئات توصلح أنه رسول  
الله ، فالله يؤدى لم يرهن شعاعة النبي ، فيعطى الله رسوله ما يؤكد أنه رسول الله .  
وهكذا نرى أن الله يعطى رسوله في وقت انضمت الأدلة التي تؤكد له أنه رسول  
الله . والذي يدل على ذلك هؤلاء الذين أحبوا أن يؤدوه في اسمه . إن اسمه محمد  
كما يعرف ، وه محمد . أي المملوح من الكل ، وبكثرة ، فيأتى حصومه ويريدون أن  
يهجوه وأن يلعنوه ، فيصرفهم الله سبحانه وتعالى حتى عن شتم الاسم لا التسمي  
نصل .

إن الله أراد أن يصعد العصمة ، وأراد - سبحانه - ألا يتأثر بالسباب من اسم  
رسول الله ، فألهم الله حصوم رسول الله أن يسموا المشتوم عندهم « مدما » بدلا من  
« محمد » . وعندما يريدون اللعن ، فهم لا يلعنون الاسم محمداً ولكنهم يسمون  
الاسم الذي أحادوه وهو « مدمم » ، فيصيح رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
عندما سمع ما قالته أم جميل امرأة أبي لهب .

« مدمي عصيبا . وأمره آيبا . » وفيه قليا ،<sup>(١)</sup> . وهي تقصد رسول الله صلى  
الله عليه وسلم فقد حدث أن حمالة الحطب أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو  
جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق وفي يدها حجر فلما وقعت عليها  
أحد الله يصورها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا ترى إلا أبا بكر فقالت :

يا أبا بكر أين صاحبك ؟ فقد يلغى أنه يهوى والله لو وجدته لضربت هذا الحجر  
فله أما والله إن لشاعرة وقالت ما قالت .

ويقول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - . « ألا تعجبون لما يصرف الله عني من أنى  
قرئش يشتمون مُذْمَأً ويلعنون مُذْمَأً وأنا محمد »<sup>(١)</sup>

هكذا نرى من أمواه الخائفين على رسول الله أنه معصوم بإرادة الله ، حتى الاسم  
أبعده الله عن اللعن ، أما المسمى فلم يلعن ولن يشتم .

إن ما حدث في غروة أحد كان هو التربية الأولى لصحابة رسول الله ، والتأكيد  
على صدق بلاغه عن الله . إن هذه المعركة قد صورت ذلك وجسده ، ولذلك حين  
نلاحظ للمعارك التي جاءت بعد هذه المعركة فإننا لا نجد للمؤمنين هزيمة أبدا ، لأنهم صُفِّوا  
انتصفيه ورَبُّوا التربية التي جعلت كل واحد منهم عارفاً أن الله يعلم ما يحق به وإن لم  
يخس البلاء والجهاد سيقتضيه الله ما في نفسه ، وسيعلن الله عنه ، لذلك دخل كل  
مؤمن منهم المعارك وهو مقل على الجهاد ، وكل المعارك بعد أخذ جاءت نصرا  
وجاءت سلاما

وهنا يعلمت الحق أن ابقاء على مسج رسول الله صلى الله عليه وسلم هو النجاة  
وهو النصر ، ونحذرتنا سبحانه ألا ينقلب المؤمن على عقبيه ، قال لنا : « أفمن مدت أو  
قتل نقلابكم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله  
الشاكرين » .

« ومن ينقلب على عقبيه » هي صورة حركية مادية مرئية . وقد حدث ذلك من بعض  
الصحابة في معركة أحد ، لقد در البصر وانقلب بعضهم إلى المدينة ، ومعنى  
« انقلب » أى أعصى ظهره للمعركة بعد أن كان مواجهها لعدوه ، وهى مثل قوله :  
« ولَوْ أَدْبَارُ » .

(١) رواه البخاري في المصابيح ، والنسائي في الطلاق بدوله أحد في التلخيص

ولكن في قوله : « انقلبتم على أعقابكم » فيه انقلاب حسي أيضا ، وفيه كذلك انقلاب نفسي ، وهو الانصراف عن أصل الدين ، ولدلت سيرة الحق أن المنافقين بعد حدوث تلك الواقعة وبعد ما فت وداع في الناس قتل الرسول كان لهم كلام ، وضعاف الإيمان كان لهم كلام آخر ، فالمنافقون الذين هم أكثر شرا من الكفار قالوا لو كان بيئنا قتل ، ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم .

أما الذين آمنوا إيمانا ضعيفا فقالوا . سذهب إلى بين أيها لنأخذ لنا أمانا من أي سفريان . فيقف أنس بن الضمر قائلا اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء - أي المنافقون - وأعتذر إليك مما يقول هؤلاء - أي ضعاف الإيمان -

لقد وزعها بلحق ، فهو يبرأ إلى الله من قول المنافقين الذين قالوا . إنهم سيهودون إلى دينهم القديم ، ويعتذرو ويستعفرون عن ضعف الإيمان . ويقول سبحانه : « ومن يقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا » لماذا ؟ لأن الله أولاً وقبل أن يخلق شيئا من خلقه له كل صفات الكمال ، إذ في صفته من صفات الكمال لم تطرأ عليه - سبحانه - من خلقه ، إنه - سبحانه - أوجد الكون بما فيه الخلق لأنه قادر ، وأوجده لأنه حكيم ، وأوجده لأنه عالم ، إذن فخلق الخلق لم يزد الله صفة من صفاته ، فحين خلقكم وصنعكم أعطى لكم المنهج لتكسبوا خلقا سويا . إذن فالمصلحة تعود علينا نحن الخلق ، فكان يجب أن ننظر إلى المنهج الذي أتى من الله على أنه لا نفع فيها لله ، ولكن النفع فيها عائد عليكم . ولذلك فمن يلحظ هذه ، فهو يعرف أن ربنا يستحق الشكر على أنه كلفنا بالمنهج . ولذلك جاءت الآية من بعد ذلك لتقول : « وسبحرى الله الشاكرين » لأن الشكر إنما يؤديه العبد على نعمه ، نعمة منحهم وتعليم وبيان مكانة الرسول صلى الله عليه وسلم من ربه . لقد تعلم المؤمنون أن الله يستحق منهم الشكر على هذه النعم .

وبعد ذلك ينتقل بنا لخلق إلى قضية عامة ، القضية العامة للناس جميعا هي :

﴿ وَمَا كَانُوا لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾

## كِتَابًا مُّوَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ جَزَى الشَّاكِرِينَ ﴿١٦٥﴾

وساعة تسمع «ما كان» أي «ما ينبغي» فمن لحياتنا يقول ما كان لك أن تصرف زيدا ، وتقصده أنه ما ينبغي أن تصرف زيدا . فقوله : وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله ، هذا القول قد يدفع إلى التساؤل : وهل الموت أمر اختياري ؟ لا ، ولكن تعبير الحق سبحانه له إحاء ، لأنك عندما تقول ما كان لعلان أن يفعل كذا ، فهذا معناه أن لعلان أن يختار أن يفعل ذلك أو لا يفعله ، وفي قدرة فلان أن يفعل لو لا يفعل . أما عن قدرة الله فلا يمكن أن يقول أحد ذلك

إننا نفهمه على فرض أن النفس تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، مما لها أن تموت إلا أن يأذن الله . فإذا كانت النفس هي التي تدفع نفسها إلى موارد التهلكة ، ومع ذلك لا تمهلك أن تموت ، فكيف إذا لم تدفع نفسها إلى موارد التهلكة . إذن فالموت إن أراحته لنفس فلان يلى إلا أن يكون الله قد أذن بذلك . وإننا نجد في واقع الحياة صوراً شتى من هذه الصور

نجد من يضيق ذرعا بهذه الحياة ؛ لأن حاققه الإيمانية لا تسمح للبلاء والكدر في الدنيا فيستحرم ، إنه يريد أن يفر عما لا يقدر على دفع أسبابه . أما الذي يملك لطاقة الإيمانية الرحمة فأى شقاء أو بلاء يقابله يقول : إن في ربا ، وما أجرا على ربي فهو المربي الحكيم الذي يعرف مصلحتي أكثر مما أعلم ، ويعمل هذا البلاء كفارة لي عن ذنبي .

وهذا عكس من يفر عما لا يقدر على دفع أسبابه ، فيحاول أن يقتل نفسه . وكل منا قد رأى أو سمع من بعض الذين يريدون ذلك لكن يتم إنقاذهم ويبركهم من ينفذ

مشيئة الله في إنقاذهم ، كعسيل المعدة لمن ابتلع اقراصا سامة ، أو إطفاء حريق من أشعل في بيته النار . فالمتحر يريد لنفسه الموت ولكن الله إذا لم يذد ، فلا يلعبه الله هذا ، فقد نجد مُتَحَرِّرا يريد أن يطوى على نفسه رصاصة من مسدس فلا تنطلق الرصاصة ، أو نجد متحررا آخر يريد أن يشق نفسه بحبل معلق في السقف فيقطع الحبل ، لماذا ؟ لأنه لا يقبض الحيلة إلا من وهب الحيلة

قد يقول قائل . ولكن هناك لقول الذي يقتله إنسان حر وهما يرد المثل لشعبي : لو صبر لقاتل على القبول مات بمجرده . إن اللحظة التي تفارق الروح مادة لحسد موقوتة بأجل محدود ، فمرة تأتي للحظة بدون مس ، ويموت الإنسان حنق بغيه ، ويقول أصدقائه : لقد كان محاسنا قليل . هم يسون أنه مات لأنه يموت بكتاب مؤجل .

وبذلك نجد إنسانا يسعى إلى عافية الحياة ، يذهب إلى إجراء حراحة ما ، وأثناء إجراء الجراحة يموت . ورحم الله أمير الشعراء أحمد شوقي حين يقول في ذلك في الموت ما أعيا وفي أسبابه كل امرئ، رهن بطي كتابه  
أسد لعمرك من يموت بظفره  
عسد اللقاء كمن يموت بشبهه  
إن نام حيك تكل طب يافع  
أو لم ينم فالطب من أدنايه

إن الكاتب إذا انطوى فقد انتهى الأمر ، حتى عندما يلتقي الإنسان بالسد ، فيستوى الموت بالنف ، كالموت بظفر الأسد . فإن نام لموت عن الإنسان فقد يشفيه من أمراضه قرص دواء و جرعة ماء . أما إن استبغظ الموت فالطب والعلاج قد يكون ذنبا أو أداة للموت ، والقاتل كل ما فعله أنه نفص بنية القتل ، وهذا هو ما يعاقب عليه .

إدب فنون الحق : « وما كان لعن أن ثوب إلا يادى الله كتابا مؤجلا ، يطلق قصبة



عامة . والكتاب المزجل يطلق مرة عن زمن العمر كله ، ومرة يطلق على النهاية النهائية منه ، والنهاية النهائية هي الموت الحقيقي . فانتقل حين ينقص بنية القتل إما يوافق الأجل المكتوب الذي أرادته الله . لكن لماذا تعاقب القاتل إذ ذاك ؟ نحن نعاقبه لأنه نقص بنية إنسان آخر .

والحق يقول : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » . ونلاحظ قوله : « بإذن الله » فهي تدلنا على أن الله هو الذي يطلق الإذن والإذن يكون للملائكة ليقوموا بهذه المسألة . ولذلك نجد القرآن الكريم حين يتعرض لهذه المسألة يسد مرة هذه العملية فيقول سبحانه .

﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

(سورة الزمر)

ومرة أخرى يسد القرآن هذه العملية بالملك واحد :

﴿ قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي نُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٠﴾ ﴾

(سورة الحج)

ومرة يسد الحق سبحانه إلى رس من المعاونين للملك الموت .

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عَصِيَّتِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿١٦﴾ ﴾

(سورة الأنعام)

والحق سبحانه وتعالى صادق في كل بلاغ عنه ؛ لأن كل أمر يصعد الأجل ليس يراد أبوك بل يراد الأجل ، إنما هو يبدن من الله تعالى الذي يحدد ذلك . وما دام كل أمر قد صدر منه فهو سبحانه الذي يتوفى لأنفس ، وبعد ذلك فالملك الذي يتوفى

الأنفس - عزرائيل - له أعوان ؛ فهو عندما يتلقى الأمر من الله فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليأمر كل واحد مهمته . إذن فضرورة الأمر بالموت نهائيا إلى الله .

وصيرورة الأمر بالموت إلى الملائكة بإلاغ من الله ، هذا هو الإذن ، والإذن يقتضي مادوما ، والمأدبون هم ملائكة الموت الذين أذن لهم ملك الموت بذلك ، وملك الموت تلقى الإذن من الله سبحانه وتعالى

ويقول الحق من بعد ذلك : « ومن يرد ثواب الدنيا مؤثمة بها » عاقل يريد حراء الدنيا وهو الذي يطلب جزاء حركته فيها ، يأخذها ، ولو كان كافرا :

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ غَتَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ١٨ ﴾

( سورة الإسراء )

ويقول سبحانه وتعالى في موضع آخر من القرآن الكريم -

﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمِمَّا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ صَئِبٍ ١٩ ﴾

( سورة الشورى )

وهذا ينهى عملية أن تقول إن الكفار حالتهم أفضل من حالتنا ، الكفار متقدمون ، ونحن متخلفون . وهل لم تأت فترة كان فيها المؤمنون متقدمين جدا ؟ لقد جاءت فترة تقدم فيها المؤمنون ، وكانوا متقدمين لألف سنة ، وهم الدولة الأولى في العالم . وكان الكفار يسمون رماهم ودولهم بأعيا تحيا في عصور الظلم لمذا أنكروا هذه ٩١ لأن التاريخ جاء بنا من ناحية هؤلاء وقد شوهدوا ، ولذلك نقول هم : نحن كما متقدمين وأنتم والتاريخ يشهد بذلك .

ولذلك قلنا : يجب على المؤمن بالله أن يكون عيورا على أسباب الله . فلا يدع

أسباب الله للكافر بالله ، أي أحد الكافر بأسباب الله وأنت يا مؤمن بالله تترك الأسباب بإحداها هو ؟ لا ، لأن من يعبد الله أولى برء في الوجود ، فكربا نتركهم بأحدا من الأمور العلمية ولا نذفسهم في هذا المجال هذا تفصيل ما .

« ومن يرد ثواب الدنيا فؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة فؤته منها وسجى الشاكرين » ونلاحظ أن الحق قد جاء بلفظ « الشاكرين » مرتين ، والقرآن يؤكد هذا المعنى . إنه سبحانه أعطاكم أميدا فإن كانت الأسباب قد جاءت لكم بمائل الدنيا فهي مستحق الشكر ، وإن كانت مستعطيكم تكليفا مع الأسباب فهذا التكليف سيعطيك حير الآخرة ، وهو أمر يستحق الشكر أيضا

وبعد هذا الكلام النظري « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » . يقول ما يؤكد وجوده في موكب الإيمان الذي سبقكم ؛ لأن فيه برقا بين الكلام وبين أن يقع مدلول الكلام ، فواقع الكلام سبقكم فيقول .

وَكَايْنٍ مِّن نَّسِي قَتَلَ مَعَهُ رِيقِيَّوَن كَثِيرٌ فَمَا  
وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا  
أَسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٧﴾

« وكاين » هذه يقولون . إنها للتكثير ، مثل « كم » ، فعندما يقول لك إنسان مثلا : لماذا تمأني ؟ فتقول له : كم زر ؟ إن قولك : « كم زرتك ؟ » في ظاهرها أنها استمها ، وأنت لا تريد أن تقول له مستمها كم مرة زرتك فيها ، بل تقول له : أنت الذي عليك أن تقول - لأنك بقولك ستعترف أن زرتك كثيرا ، فيكون الجواب مواظبا فعلت - وأنت لا تقول « كم زرتك » إلا وأنت واثق أنه إذا أراد أن يجيب فيقول : « زرتي كثيرا » ولو كنت لا تثق أنه سيقول : زرتي كثيرا ، لما قلتها ،

عندما تقول : كم زرتك ، كم تعصمت عليك ، كم واسيتك ، كم أكرمك ؟  
فإن : كم ، تأن للتكثير ، وتأن مثلها « كأي » إنها للتكثير أيها ، عندما تقول مثلا :  
« ياما حصل كذا » و « ياما » هذه معناها « كأي »

وقد يسألك صديق كيف حدثت هذه الحكاية ؟ فتقول له : كأي رجل يفعل  
كذا ويحصل له كذا ، أي أن المسألة ليست عربية ، إن قوتك كأي رجل معناها أنها  
شاعت كثيرا ، وعندما تقول : كم مرة زرتك ، وكم من مرة زرتك فهذان  
الاستعمالان صحيحان والمعنى كثير من مبي قاتل معه مؤمنون برسالة كما حدث  
وحصل مع رسول الله . وقوله الحق « ربيون » أي غلب قهلاء قهمون سبل الحرب ،  
و « ربيون » أيضا تعني . أتباعا يقتلون ، و « ربيون » يمكن أن ينصرف معناها إلى أن  
مبهجهم إلى مثل « الرباني » .

وقول الحق : « ما وهوا » أي ما ضعفوا ، إذن فهو يريد أن يأت بالأسوة ، وكأنه  
سبحانه يقول . أنتم لماذا ضعفتم في موقفكم في غزوة أحد وأنتم تقاتلون مع رسول  
الله . لقد كان الأولى بكم أن يكون حماسكم في القتل معه أشد من حماس أي أتباع  
نبي مع بيهم ؛ لأنه النبي الخاتم الذي سيضع المبدأ الذي منظم عليه الساعة ، ولن  
يأتي أحد بعده ، فكل يجب أن تتحمسوا ، فأنتم خير أمة أخرجت للناس ، وأنا  
أدخركم لذلك .

إن الحق يعطيهم المثل وفيه تعرضهم بهم وعتاب لهم ، وفي هذا لقول بعلم  
أيضا ، فيقول « وكأي من مبي » أي وكثير من الأسياء « قاتل معه ربيون كثير فما  
وهو لما أصابهم » ونستوحى من كلمة « وهوا » أي ما ضعفوا . فكأنه قد حدث في  
القتال ما يضعف ، « ما وهوا لما أصابهم » أي ما حدثت لهم نكسة مثلما حدثت لكم .

« وما ضعفوا وما استكانوا » وكل من « وهوا » و « ضعفوا » و « استكانوا » هذه  
جاءت في موقعها الصحيح ، لأن « الوهن » بداية الضعف ، و « الوهن » محله القلب  
وهو يوضح على الخروج ضعفا . و « استكانوا » ماذا تعني ؟ إنها من « سكن » .  
والسكون نقابله الحركة .

والحرب تحتاج إلى حركة ، والذي يأن للحرب فهو محتاج إلى كثر وفر أما الذي لا يتحرك فهذا معناه أنه ليس لديه قدرة على أن يتحرك ، وساعة تسمع - الألف والسين والتاء - وتأتي بعدها كلمة ، نعلم أن ( الألف والسين والتاء ) للطلب ، « استفتحهم » أي طلب أن يفهم ، وهي تأتي لطلب المادة التي بعدها كأن يقول : « استعلم » أي طلب أن يعلم ، أو تقول « استعبر » أي طلب الخبر ، و« استكان » يعني طلب له كوثاً أي وجوهاً ، فكأنهم بلغوا من الوهن ومن الضعف مبلغاً يطلبون فيه أن يكون لهم مجرد وجود ، لأن الوجود مظهره الحركة ، والحركة انتهت ، هذا هو معنى « استكانوا »

ومادامت من الكون يكون وزنها - مثلاً يقول الصرغيون - « استعمل » يعني طلب الكون ، وطلب الوجود ، وقد يكون وزنها ليس كذلك ؛ إذا كانت من سكن . وهي بهذا الاعتبار لا يكون فيها طلب ؛ لأن السين ستكون أصلية ، فورها ليس « استعمل » بل هو « افتعل » « استكانوا » هل تعني أنهم طلبوا السكون ؟ لا ؛ لأنهم كانوا ساكنين ، إذن فالأولى أن يكون معناه أنهم طلبوا مجرد الوجود ، هذا ما أميل إليه وأرجحه ، وفيل في معناه - فما حضعوها وما دلوا من الاستكانة - وهي الذلة والخضوع .

« في وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما صنعوا وما استكانوا والله يحب الصابرين » بما يصيب الصبر أساء من الله ، وفي الحديث : « إذا أحب الله فوما ابتلاههم »<sup>(١)</sup> وكل ذلك الوهن والضعف ، لا يشعلهم عن المعركة ، لأنهم يوصرون عن التحمل لأمدهم الله بمدد من حده ، لأنه حين تفرغ أسباب الخلق وتنتهي يأتي إمداد الخالق .

ويلاحظ الحق سبحانه وتعالى تنذيل الآية « والله يحب الصابرين » أي وكفى جزاء عن الصبر أن تكون محبوا لله ، لأنها قلنا سابقاً قد نحب الله لبعمه التي أنعمها علينا ، ولكن المسألة ليست في أن نحب الله أنت ، وإنما في أن نصبر بتطبيق

( ١ ) رواه الطبراني في الأوسط والكبير ، والبيهقي في شعب الإيمان ، والبيهقي في أسن ، ومصححه

عبيد عبيد الله . وقد أثر عن بعضهم قوله :

والألم نر كثيراً أحب ولم يُحب ١١٩

أنت أحببت للنعم ، ولكنك تريد أن تكون عبيداً من الله ، لأن حبك للنعم لا يكفي ، فمثل هذه النعم أدخلها الكافر أيضاً ، إذن فهناك حاجة أخرى هناك مقدم وهناك مؤخر ، فالمقدم هو نعم الحياة وكل البشر شركاء فيها مؤمنهم وكافرهم ، ولكن المؤخر هو جِراء الله في الآخرة وهو الأص

إذن ، فلو أن السفسفوا إلى قول الله . ( والله يحب الصابرين ، لعابوا : كفى بالجزء عن الصبر أن تكون عبيدين لله ، حين أصابهم ما أصابهم صحيح أن الإصابة لم تصع فيهم رهاً أو ضحماً أو أسكانة ، وهذا معناه أن فيهم مسكة ليعين بالله ومسكة اليقين بالله تجعلهم أهلاً لإمداد الله . فليس لك إلا أن تصبر على ما أنت فيه لتعرف مدد الله لك . ومدد الله لك لا يتجلى بحق إلا وقت الضعف ، لأنك وقت قوتك قد تعمل مثل الذين قيل عنهم .

﴿ فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْتَهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ مِمَّا عَلَّمْتُ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ١١٩ ﴾

( سورة الرمر )

لكن المؤمنين حين أصابهم ما أصابهم ، فما وهوا ، لأنهم كانوا متيقظين إلى قضية إيمانية : إن الله لا يسلمك نفسك إلا حين تغيب عنه ، فظابوا . ولماذا حدث لنا هذا ؟ لم يقولوا . ربما انصرفن كي سخر من الضعف ، لا . بل فكروا في الأسبب التي أدت بهم إلى هذا :

﴿ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا  
ذُنُوبَنَا وَإِنْرَافِقَانَا فِي أَمْرِنَا وَنُفِيتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا

## عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾

فكان ما حدث نتيجة لدنّب تقدم معطوا إلى السبب ، كان المعروف أهم في معركة ، وهذه المعركة أجهدتم وأنهكتهم ، صحيح أهم لم يضعفوا ، وكان المعروف أن يقولوا: يارب انصرنا أولا ، لا بل قالوا لا بد أن نعرف السبب في النكسة الأولى ، السبب في هذه النكسة أن الله لم يسلمني إلى نفسي إلا لأنّي نسيت .

وما كان قوهم إلا أن قالوا ربنا ، ، وربنا ، ، وانظر لكلمة البدء في «ربنا» ، كان يمكن أن يقولوا : يا الله إنما جاءوا بكلمة «ربنا» لماذا ؟ لأن علاقة العبد بالربوبية هي قبل علاقته بالالوهية ، فالالوهية مكلفة ، فمعنى «إله» أي ، مسود ، وما دام معبودا فيه تكليف يطاع فيه ، وهذا التكليف يأتي بعد ذلك ، هو سبحانه له ربوبية في الخلق قبل أن يكلّمهم ، وما دام الرب هو الذي يتولى التربية ، فالأولى أن يقولوا يارب ، إذن قولهم : «ربنا» يعني أنت متولى أمورنا ، أنت الذي تربيانا .

«ربنا اغفر لنا ذنوبنا» فكأنه لا شيء يصيب إلا يذهب من الغفلة ارتكباها . ويعرف من كلمة «ذنّب» أن الذي يقضى إلى معاصها لا يفعلها أبدا ، لأن كلمة «ذنّب» مأخوذة من مادة «الذنب» والذنب سيأتي بعده عقوبة . فالله يوحى بأن شيئا سيأتي ، وعندما تتذكر عقاب الذنب فانت لا تفعله .

«اعمر لك ديوينا واسرافنا في أمربا» لأن كل معصية تكون تجاوزا عما أحله الله لك ، وريادة عبر مشروعه وإن كانت من نوع ما أحله الله ، ولكنها ريادة عن مقومات حياتك ؛ فالله شرع لنا الرواج لناق بالأولاد ، وعندما يأخذ أكثر من هذا من غير رواج يكون قد أسرفنا ، والله أعطانا مالا بقدر حركتنا ، فإن طمعنا في مال غيرنا فقد أسرفنا «وأسرمت» يعني أن تأخذ حاجة ليست ضرورية لقوام حياتك . ولذلك فالخلق سبحانه وتعالى يقول :

﴿ قُلْ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيَّ أَنفُسِي ۖ لَا تَقْلُبُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّا اللَّهُ يَغْفِرُ  
الذُّنُوبَ بِمَهْمَا ءَامَرَهُوَ الْعَمَرُ الرَّحِيمُ ﴿١٠﴾ ﴾

( سورة الزمر )

إله سبحانه يوضح : أنا خلقت لك كذا من النعمه فما الذي جعل عيبك نزوع  
وتجمل إلى غير ما أحله الله لك ؟ أما أحللت لك كسب يدك وإن كنت فقيراً فتأخذ  
صدقة ، لماذا أسرمت ؟ إذن فكل أمر زائد على الحد المطلوب لبقاء الحياة اسمه  
« إسراف » « وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا » لقد بدأوا يدخلون في الحق ، لكنهم  
في البداية رأوا الباطل ، والباطل هو من أسباب تحل الحق عن بصرنا أولاً ، لكن  
حينما يتغير سبحانه الذنب ويغفر الإسراف في الأمر تكون أملاً للمحدد وأحلاً لتثبيت  
الله .

« وثبت أقدامنا » كيف يقول الحق ذلك والمفهوم في المعركة أن الأقدام لا تثبت ؟  
المعركة تتطلب من المقاتل أن يكون صواباً جوالاً متحركاً ، إذن فما معنى « وثبت  
أقدامنا » ؟ إن قول الحق : « وثبت أقدامنا » يعني لا تجعلنا نمر من أرض المعركة ،  
ولا نترك أرض المعركة أبداً . ولذلك قلنا : إن الكفار عندما حدث منهم ما حدث لم  
يظفروا في أرض المعركة ، بل تركوا أرض المعركة وانصرفوا ، وهؤلاء المؤمنون ولو أنهم  
انهزموا إلا أنهم مكثوا في أرض المعركة مدة ، وكروا وراء أهدائهم وطاردهم . وقد  
اعتلى البشر أخيراً إلى هذا الحضي ، حتى فرس فيشان يسمونه « فيشان الذبابة » لماذا  
الذبابة ؟ لأن الذبابة إن طردت عن مكان لا بد أن تعود إليه ، فكذلك انصرفوا على  
القاتل - مادم اسحب من منطقة - أن يوطن نفسه على العودة إليها ، فيعطوه فيشان  
الذبابة .

فقوله : « وثبت أقدامنا » في أي منطقة ؟ وفي أي معركة ؟ علينا ألا نبرح أماكنا ،  
لأنا مائة أن نبرحها فهذه أول المعركة ، وهذا أمر يجزئ العدو علينا .

« وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » كلمة « وانصرنا على القوم  
الكافرين » هي حثية ، فها هموا قد قالوا : « وانصرنا على القوم الكافرين » فهم إذن



مؤمنون ، ومؤمنون بحق ؛ ولذلك فإن سيدنا عمر من الخطباء رضى الله عنه يقول قوله المشهورة : إنكم تتصرون على عدوكم بطاعة الله ، فإن استويتم أنتم وهم في المعصية خلبوكم بعدتهم وعددهم

ولذلك فالإيمان يتطلب أن تنتهزوا إن موطن الضعف فيكم أولا ، والذي استوحب أن يصيبكم ما أصابكم ، حقا إنكم لم تصنفوا ، ولم تستكبروا وأصابكم من المعركة شيء من التعب والألم وكان الحق يوضح لنا أنهم قد تبهوا فأحسنوا البحث في نفوسهم أولا ، لقد تكلموا عن الذنوب وطلبوا المعفرة وتكلموا عن الإسراف على النفس ، وبعد ذلك تكلموا عن المعركة . هذا كان العطاء من الله ؟

ويأتينا الجواب في قوله الحق

﴿ فَآتَيْنَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابَ الْآخِرَةِ ﴾

وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٨﴾

أى أن الذى يريد الدنيا فانه يعطيه من الدنيا غنائم وأشياء ، ولنا أن نلاحظ أن الحق عندما يتكلم هنا عن الدنيا فهو لم يصعبها بخسن أو بشيء ، فقط قال : « ثواب الدنيا » ، لكن عندما تكلم عن الآخرة فهو يقول : « وحسن ثواب الآخرة » وهذا هو الحال الذى يجب أن يُعشق ؛ لأن الدنيا مهما طالبت فهي متاع وعبور ورحل وراجل ، ومهما كنت معها فيها فأنت تنتظر حاجة من اثنين . إما أن تزول عنك النعمة ، وإما أن تزول أنت عن النعمة

ونختم الحق الآية بقوله : « والله يحب المحسنين » وقد أحسوا حين نجوا ربهم بعدما أصابهم إلهم سألوا المعفرة ، وسألوا أن يفرحهم إصرامهم في أمرهم ، وأن ينسب أقدامهم وأن يصبرهم على القوم الكافرين ؛ لأنهم رأوا أن قوعهم البشرية حين

يتحل عنهم مدد الله تصح هاء لا وزن لها

« فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين » ومثلها قلنا في الصبر « والله يحب الصابرين » كفى بالخراء عن الصبر أن تكون محبوا لله ، كذلك كفى بالخراء على لإحسان أن تكون محبوا لله . وبعد ذلك يقول الحق .

﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴾

ومادعتم مومنين وهم كفار فكيف يتأى منكم أن تطيعوا الكافرين ؟ إنكم وهم من أول مرحلة محتلمون ، أنتم مؤمنون وهم كفار ، والكافر والمنفق يستغل فرصة الضعف في النفس الإيمانية المسلمة ، ويحاول أن يتسلل إليها ، مثلما قلنا - إن جماعة من المنافقين قالوا - قتل محمد ، ولم يعد في رسول فليجأ إلى دين آبائنا والمؤمنون الذين أصابتهم لحظة ضعف قالوا - نذهب إلى ابن أبي - المنافق الأول في المدينة - ونطلب منه أن يتوسط لنا عند أبي سفيان ليأخذ لنا الأمان

ولذلك يقول الحق « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ » ، فإن كان الموقف يحتاج إلى ناصر فلا يطلبوا الصبر من الكافرين ، ولكن اطلبوه ممن آمنتم به ، ويرى القول الحق

﴿ بَلِ اللَّهُ مَوْلَانَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴾

الم يقل أبو سفيان : « لنا العُرى ، ولا عُرى لكم » ، فقال لهم النبي قولوا لهم  
الله مولانا ولا مولى لكم ، وعندما قال : يوم يوم ، أى يوم أحد يوم بدر ، الحرب  
سجال هرد عليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقال لا سواء ، أى نحن لسنا  
مثلكم ، قتلنا في الجنة ، وقتلاكم في النار ، فكيف تكون سراء وكيف تكون  
سجالاً ؟!

« بل الله مولاكم وهو خير الناصرين » وبمعهم قول الحق : « خير الناصرين » أى  
يجوز أن يوجد الله بشر كافرين أو غير كافرين وينصركم نصراً سطحياً ، لا يقول إن  
هذا نصر إنما النصر الحقيقي هو النصر الذى يأى من الله ، لماذا ؟ لأن النصر أول  
ما تأتى من ناحيه الله فاطمش عن أنك حائض ومخلص لله وإلا ما جاءك نصره ،  
ساعة يأتيك نصر الله فاطمش عن نفسك الإيمانية ، وأنت مع الله

وقول الحق : « خير الناصرين » دليل على أنه من المحكم أن يكون هناك ناصر في  
عرف البشر . وقد قال المؤمنون : يلزم نحن ضعاف الآن وإن لم ندعك لأحد  
ليحمينا ماذا نصنع ؟ فيوضح لهم الحق : كثبوا معسكرا إيماناً أمام معسكر الكفر ،  
ولياكم أن تلجأوا إلى الكافرين بربكم ، لأنهم غير مأموين عليكم وإن كنتم  
تريدون أن تعرفوا ماذا سأفعل « سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب » فإذا  
ألقي الرعب في قلوب الكافرين فإذا بقيهم من غديهم وغديهم !؟ عددهم  
وأموالهم تصير ملكاً لكم وتكون في انسب والضيعة

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ  
يَحْمِلُوا أَوْيَاءَهُمُ إِلَىٰ أَيْدِيهِمْ يَشْهَدُونَ أَلَا هِيَ  
مَأْوَاهُمْ السَّكَرُوتُ يُشَارِعُونَ فِي الْغَنَائِمِ﴾

والذي الحق في قلوبهم الرعب بالفعل . فساعة قالوا لأبي سفيان : إن محمدًا قادم إليك بجيش كثيف من المدينة ، وانضم له مقاتلون لم يجاربوا من قبل ، وقادم إليكم في جمراء الأسد . ماذا صنع أبو سفيان وقومه ؟ ألقي الله الرعب في قلوبهم وفروا .

وكلمة « سألني » مأخوذة من « الإلقاء » وهو لا يكون إلا لمجة وعين . وبين لنا القرآن هذا الأمر حين يقول : « فأنصت الألواح » ، هذه حاجة مادية قال تعالى

﴿وَأَتَى الْأَنْوَاحَ وَاحِدَ رَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ ۚ فَلَمَّ أَبَاهُ فَأَمَّا إِبْنُ الْقَوْمِ اسْتَصْعَمُونِي﴾

(من الآية ١٥ سورة الأنعام)

إليه أمر مادي .. ونحن نقول : ألفي الحجر . وألحق سبحانه يقول :

﴿ فَادْعُوا جِبَعَهُمْ وَعَهْدِهِمْ وَقَالُوا بِرَّةِ فرعونَ إِنَّا لَتَعْنُ الْعُقُولُ ﴾ ٥٥ ﴿

(سورۃ الشعراء)

إنها حياء ، أي أمر مادي . وسبحانه وتعالى يقول عن الوحي : **لَمْ يَأْتِ**

﴿وَلَوْ جِئْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْسَلْنَا قَهْرًا نَحْنُ عَلَيْهِ فَذَاقَتْ عَلَيْهِ فَالِقَهُ فِي الْيَمِّ وَلَا يُخَافُ

وَلَا تَخْرُجْ إِنَّا نَادُوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ ﴿٧﴾

( سورة القصص )

فالإبقاء أمر مادي ، كأن الله يريد أن يجعل المعنى وهو الرعب شائما ، فقال : أما  
ساجع الرعب وأضعه في القلب ، ويكون عمله ماديا ، فإذا ما استقر الرعب في  
القلب جاء الخور ، وإد سكن الخور القلب نضج على جميع الجوارح تحذلا ،  
يقول : « سنقى في قلوب الدين كهموا الرعب » فكأنه مثل لك الرعب ، والرعب  
أمر معسوى وهو التخوف من كل شيء ، فأوضح بأنه سيأتيهم بالرعب وينفيه في  
القلب ، يبقى به ليضم الخور والخذلان .

« سئل في قلوب الذين كفروا الرعب » انظروا إلى التعابير الصادرة عن الله  
إله هنا يأتي بـ « من العظمة » ، « سئل » ويلاحظ أن الحق سبحانه وتعالى ساعة

يشك من أمر يحتاج إلى قبل فهو سبحانه باق - « بون العظمة » كقوله

﴿ إِنَّا نَحْنُ الرَّحْمَنُ الذِّكْرُ وَإِنَّ لَهُ لَمِصْرًا ۖ ﴾

( سورة الحجر )

ولأن إيراد الذكر عملية عظيمة ، فأتى بـ « بون لعظمة » . لأننا سنزله بقدرة  
وسنزله بحكمة ، ونزله يعلم ونزله نسمع ، ونزله ببصر ، ونزله بقيومية ، ونزله  
يقبض ، ونزله ببسط ، فقوله : « إنا نحن » فكان ترن العظمة تأتي هنا ، لكن  
ساعة يشك من سبحانه عن الذات العلية فهو يقول : « إني أنا الله » لم يقل إنا ،  
ولكن في الإنزال يقول

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا فِي نِبْتَةِ الْقَدْرِ ۖ ﴾

( سورة القدر )

لأن هذه عملية عظيمة جليلة ، « بون العظمة » تأتي فيها يكون من شأنه حدث  
يفعل ، وهذا الحدث الذي يفعل يحتاج لصفات كثيرة ، ولذلك قلنا ساعة تبتدىء  
أنى عمل تقول : « بسم الله الرحمن الرحيم » لماذا ؟ لأن العمل الذي ستعمله يحتاج  
إلى قدرة عليه ، ويحتاج إلى علم قبل أن تعمله ، ويحتاج إلى حكمة ، أى أنه يحتاج  
إلى صفات كثيرة ، فأنت تدخل على العمل باسم القادر الذى يُقْدِرُكَ ، وباسم  
العليم الذى يعلمك ، وباسم الحكيم الذى يحكمك . وكل هذه الصفات مستكاثفة  
في إبراز العمل كى يرحمك حتى في الاستعانة ، فلا يقول لك : هات الصفات كلها  
التي يحتاج إليها فعلك ؛ لأن هناك صفات أنت لا تعرفها ، فيقول لك : هات  
الاسم الجامع لكل صفات الكمال . قل : « باسم الله » ، وهي تضم كل صفات  
الكمال .

إذا فأنت تلاحظ أنك إذا رأيت « بون لعظمة » التي سميتها « بون الجمع » بعد  
أننا نقول : « نحن » بالجماعة . أو للمتكلم الواحد حين يعظم نفسه ، ولذلك  
نلاحظها حتى في قانون البشر ، ألم يقولوا في الملكية : « نحن الملك » ، وهذه الون  
بالسبة لله ليس بون الجماعة . إنما هي « بون العظمة » . العظمة الجامعة لكل  
صفات الكمال التي يتطلبها أى فعل من الأفعال ؛ لذلك قال سبحانه : « سنلقى في

قلوب الذين كفروا الرعب « فكل قلب به كبر يحتاج إلى إلقاء الرعب فيه إذن فتأتى  
يوم العظمة لتتوعد كل هذه القلوب الكافرة

وهو سبحانه لا يتجنى عليهم بإلقاء الرعب ، ولكن هم الذين استحقوا أن يلقى  
في قلوبهم الرعب ، لماذا ؟ « بما أشركوا » إن الإشراف بالله هو الذى جاء لهم  
بالرعب ؛ لأن الله يفعل ، والشركاء لا يفعلون . ولو أن شركاءهم حق لما تخلو  
عنهم . فلماذا لم يأتوا بشركائهم لينصروهم ؟ لقد جاءهم الرعب لأنهم ليس لهم  
مولى ، ولو كان لهم آلهة قادرة - كما يدعون - لقالو لتلك الآلهة : رب محمد يعمل  
منا هكذا فلماذا لا تقومون له يا أربابا ؟ لكنهم أشركوا بالله ما لا ينصر ولا يصع ، بل  
ضربه أقرب من نعمه

« بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا ، والسلطان هو القوة والحجة والبرهان  
مأخوذة من عادة « السيف واللام والطاء » ويقول : فلان تسلط على فلان ، أى أرغمه  
بقدرته عليه . ويقولون : فلان سيط اللان ، أى قادر أن يب ، إذن فالسلطة  
هى : القهر ، والقوة التى ترغم عن المعنى ، وفى المعنويات هى الحجة والبرهان  
والمؤمنون دائما دواء سلطان من الله ، لأنهم إن انتصروا ماديا فذلك سلطان القهر ،  
وإن انهزموا ماديا فعندهم سلطان الحق والدليل ؛ وبذلك قلب سابقا : إن إبليس يأتى  
يوم القيامة ويقول :

﴿ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي  
وَلَوْ مَوَّاتُكُمْ ﴾

( من الآية ٢٢ سورة إبراهيم )

وقل إن السلطان برهان إما قوة تقهرنا عن أن نفعل المعصية ، وإما برهان  
ودليل يجعلنا نفعل المعصية .

والفرق بين القوة القاهرة وبين سلطان الدليل هو أن القوة القاهرة تجعلك تفعل  
وأنت مرغم غير راض عن الفعل أما سلطان الدليل فيجعلك بأن تفعل ، فتكون  
قد فعلت برضائك ، فمرة يأتى السلطان بمعنى : قوة تقهرك عن أن تفعل المعنى وأنت

مرعم . إذ قوة الدليل تفعلك أن تفعل ، فيأمر الشيطان بغير علمه في الآخرة  
ويقول : « وما كان لي عليكم من سلطان » أي ليس معي قوة تقهركم على المعصية ،  
وليس معي دليل يقنعكم حتى تعملوا المعصية ، لا هـد ولا دأك ، هي الحكاية إذن ؟  
قال : « وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي » أي إنكم  
أطعتموني واستجبتم لدعوتي بلا سلطان قوة أقهركم به عن شيء ، ولا سلطان دليل  
أقنعكم به .

ويذيل الحق الآية بقوله : « وما أوهام النار وبئس مثنوى الظالمين » أي أن المرجع  
الذي يأوون إليه هو النار ، والمأوى ، هو الموضع الذي ترجع أسد إليه . وكان في  
هذا المرجع داتية من الكافر تلقيه على أسار فهو - أي للكافر - مأواه وحنوا الذي يرجع  
إليه . ولذلك يجب أن نعطف إلى قوله الحق في بعض الأساليب : « وإليه ترجعون »  
وقوله « وإليه ترجعون » . « وبئس مثنوى الظالمين » أي مثنوى لا ممر بعده  
أبداً ، فكل مثنوى من الحائر أننا نرحل عنه ، لكن المثنوى الذي سيقى حلوه  
للظالمين هو النار وهو بئس المثنوى . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذَا  
تَحْسَنُوا بِأَذْنَابِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا فُشِلْتُمْ  
وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأُمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا  
أَرَّانَكُمْ أَن تُحِبُّوا مِنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ  
الَّذِيكُم مِّنْكُمْ مَّنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ  
صَرَفَكُم عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا

## عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٨٥﴾

ونعرف أن في « صدقكم الله وعده » مفعولون ، الأول هو ضمير المخاطبين في قوله : « صدقكم » ، والثاني هو قوله « وَعَدَ » المضاف إلى الضمير العائد على لفظ الخلافة « الله » فهو - سبحانه - قد أحدث وعداً ، والواقع جاء على وفق ما وعد . لقد قال الحق .

﴿ إِنْ تَصَرُّوْا لِلَّهِ بِصُرُكُمۡ رُبِمَتۡ أَقْدَامُكُمْ ﴾

(سورة محمد)

وقال سبحانه .

﴿ وَإِنْ جُحِدَتْ لَهُمُ الْغَنِيُّونَ ﴾ ﴿١٨٦﴾

(سورة الصافات)

ولأيتان يؤكدان قضية وعديّة ، بعد ذلك جاء التطبيق العملي . . فهل وقع الوعد أو لم يقع ؟ لقد وقع ، ومتى ؟ فهل يشير الحق في هذه الآية إلى موقعة بدر ؟

« إِذْ تَحْسَبُوهُمْ بِيَدِنَا » . و« تحسبونهم » أي تذهبون الحس منهم ، والحس : هو لحواس الخمس ، ومعنى أذهبت حسه يعني أفقدته تلك الحواس . « إِذْ تَحْسَبُوهُمْ » وقد حدث ، وتمكنتم منهم ، تقتلونهم وتأسرونهم ، أو الحس . هو الصوت الذي يخرج من الإنسان ، ومادام فقد الحس يعني انتهى ، « إِذْ تَحْسَبُوهُمْ بِأَيْدِيهِمْ » فحيثما صدقتم لقاءكم لعينكم على منهج الله صدق الله وعده ، هذا في بدر .

أما هنا في أخذ فقد جاء فيكم قوله « حَتَّىٰ إِذَا فَتِنْتُم » أي جيتم « وتنازعتم في الأمر وعصيتم » أمر الرسول « من بعدنا أراكم ما نخبون » وهي العنائم ، « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » . كانه سبحانه يعطينا العبرة من معركتين . معركة فيها صدق وعد الله ، وفعلنا انتصرتهم ، وأيضا صدق وعد الله حيثما تخليتكم



عن امر الرسول فحدث لكم ما حدث . إذن المسألة مبسطة أمامكم بالشعرية الواقعية ، ليس بالكلام الطري وليس بالآيات فقط ، بل بالواقع

أو ان الأمر كله دائر في أحد ، يقول فرصا هو يدور في أحد ودع يدرا هذه ، حيث حدثتم أيها المسموعون أول الأمر انتصرتكم أم م تنصروا ؟ لقد انصرتكم ، وطلحة بن أبي طلحة الذي كان يحمل الرية للكفر قتل هو وبصعة وعشرون ، الرية الكافرة قد سقطت في أول المعركة ، وحمل الرية بقتل وهذا ما وصحه قوله تعالى . « ولقد صدقكم الله وعده إذا تحسبهم بآية حتى إذا هلكتم ونذرناكم في الأمر » جماعة تقول سبق في أرض المعركة ، وجماعه تقول . سحب . ورأيتم الغنم فحدث منكم كذا وكذا . فتأتى الكسبة ، ولو لم يحدث ما حدث لكان من حقكم أن تشككوا في هذا الدين ، إذن هنا حدث دليل على صدق هذا الدين ، وأنكم إن تخليتكم عن مذهب من مذهب الله فلا بد أن يكون مآلكم العشل والخينة والهرجة .

« حتى إذا هلكتم وتنازعتم في الأمر » . جماعة قالوا نزل كما أسرى لرسول ، وجماعة قالوا يذهب إلى الغنائم « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » . ومما تم قد تسرعتم وقال جماعة لسمعت بمواقف ، وقالت جماعة أخرى . لذهب إلى الغنائم ، إذن والذي أراد مواصلة القتال إنما يريد الآخرة وم تله الغنائم ، والقسم الذي أراد الدنيا قال . لذهب إلى الغنائم وفي هذه المسألة قال بن مسعود رضي الله عنه والله ما كنت أعلم أن أحد من صحبة رسول الله يريد الدنيا حتى نزل فينا ما نزل يوم أحد

أي أنه لم يكن يتصور أن من بين الصحابة من يريد الدنيا ، بل كان يظن أنهم جميعا يريدون الآخرة ، فلما نزل قول الله . « منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة » عرف ابن مسعود أن من الصحابة من تنقلب به الأغيار . وذلك لا يفدح فيهم ، لأنهم رأوا النصر ، فظنوا أن المسألة انتهت ، لقد سقطت راية الكفر ، وقتل المؤمنون عدد من عبيد فريش . ولقد عفا الله عن المؤمنين وعمر لهم ما بدر منهم من مخالفة لأمر رسوله . صل الله عليه وسلم .

« ثم صرفكم عنهم بيناليكم ، نعم لأنكم كنتم مشغولين بقتالهم قبل أن تنظروا إلى الغنائم ، فلما نظرتُم إلى الغنائم انجَهِ بطركم إلى مطلوب دنياكم ، فانصرفتم عنهم ، ولم تمهروا عليهم ولم تتم لكم هزيمتهم وفهرهم ، ثم صرفكم عنهم ليعتديكم واستلاؤكم في هذه الغزوة إنما هو رياضة وتدريب على المسح ، كأنها غزوة مقصودة للاستلاء ، فترون منها كل ما حدث . وبعد ذلك نجحت التجربة ، وبعد هذه المعركة لم ينهرم المسلمون في معركة قط .

ولذلك يقولون : الدرس الذي بعدم النصر في الكثير لا يعتد به في القليل والمثل حل ذلك : لنفرض أن ولداً من الأولاد رسب مرة ، ثم حل دلة الرسوب ، نحده بنال بسبب ذلك مرتبة متخيرة بعد ذلك بين عشرة الأوائل ، إذن فالرسوب الأول له كان خيراً .

« ولقد عفا عنكم ، لأنه كان لكم وجهة نظر أيضاً عندما تصورتم أن المعركة انتهت بسقوط راية الكفر ومقتل طلحة بن أبي طلحة ومقتل بعض من اصحابه في معسكر الكفر ، فظنتم أن المآلة انتهت ، لكن كان يجب أن تذكروا أن الرسول قال لكم : اتبنوا في مراكزكم وأماكنكم حتى لو رأيتموها تنزع القوم إلى مكة ، ولو رأيتموها يدخلون المدينة

أبو جند تحذير أكثر من ذلك ؟! « والله ذو فضل على المؤمنين » وسبحانه حل وعلا لم يخرجهم من الخطيرة الإيمانية بهذا القول الحكيم ويقول الحق من بعد ذلك

﴿ إِذْ نَصَبُوا نُصُبًا وَلَا تَكُونُوا عَلَى  
أَعْقَابِ الرُّسُلِ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَىٰكُمْ  
فَأَتْبَعَكُمْ غَمًّا بِمِثْلِ لَيْكِلًا تَحْزَنُوا  
عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ

## خَيْرٌ يَحْتَغَمَلُونَ ﴿١٨٣﴾

« إِنْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلُورُونَ عَلَى أَحَدٍ » هَذَا جَاءَ لِمَنْ يَلْقُظُ مِنَ الْمَرْكَةِ ، حَتَّى إِذَا سَمِعَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ هَذَا الْكَلَامَ يَسْتَحْضِرُ الصُّورَةَ الْمَحْرُومَةَ الَّتِي مَا كَانَ يَصْغَحُ أَنْ يُحْدِثَ ، « إِنْ تَصْعَدُونَ » ، فِيهِ « تَصْعَدُ » ، وَفِيهِ « تُصْعِدُ » وَهِيَ « تُصْعِدُونَ » مِنْ « أَصْعَدَ » ، وَ« أَصْعَدَ » يَصْعَدُ فِي الصَّعِيدِ ، وَاصْصَعِدِ الْأَرْضَ الْمُسْتَوِيَّةَ حَتَّى تَعْبَهُ عَلَى سَرْعَةِ الْفَرَسِ ، إِنَّمَا « صَعِدَ » نَحْتَاجُ إِلَى أَنْ يَكُونَ هَاكَ مَكَانٌ عَالٍ يَصْعَدُونَ إِلَيْهِ . وَهُمْ سَاعَةً يُرَادُوا أَنْ يَمُرُّوا جُرُوفًا إِلَى الْأَرْضِ السَّهْلَةِ وَمَشُوا ، فَكُلُّ مَنْهُمْ لَا يَرِيدُ أَنْ يَتَعَثَّرَ هَا أَوْ هَاكَ ، إِذِنْ فَا الْمُنَاسِبُ هَا « إِنْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلُورُونَ عَلَى أَحَدٍ » وَنَظَرُ لَا يَنْظُرُ هَا أَوْ هَاكَ ؛ لَيْسَ أَمَامَهُ إِلَّا الْأَرْضُ السَّهْلَةُ

« وَلَا يَلُورُونَ عَلَى أَحَدٍ » أَيُّ لَا تَعْرِجُونَ عَلَى شَيْءٍ ، وَالْأَهَمُّ مِنْ ذَلِكَ أَنْ هَاكَ نَسِيهَا مِنَ الْقَدِيدِ الْأَعْظَمِ وَهُوَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي يَدْعُوكُمْ « وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أَحْوَاكُم » أَيُّ يَدْعِيكُمْ مِنْ مَوْحِرَتِكُمْ طَالِبًا مِنْكُمْ الْعَوْدَةَ إِلَى مِيزَانِ الْعَمَلِ « فَاتَّانِكُمْ غِيَا بَعْمَ » أَنْتُمْ غَمَمْتُمْ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْتُمْ جَانَعْتُمْ أَوَامِرَهُ ، هَوَقَمْتُمْ اللَّهَ هَذَا الْمَوْقِفَ .

كَاسَةً « فَاتَّانِكُمْ غِيَا بَعْمَ » كَأَنَّهُ يَقُولُ ، عَاقِبَتُكُمْ ، وَلَكِنَّهُ سَبَّحَاتُهُ يَأْتِي بِهَا مَعْنَى بِحَسَابِ الْإِلَهِيَّةِ « فَاتَّانِكُمْ » ، إِذِنْ هِيَ ثَوَابٌ . أَيُّ أَنْ الْخَلْقَ سَبَّحَاتُهُ وَبَعَالِي بَرِيئَتِهِ وَبِالْوَهِيَّةِ ، يَعْلَمُ أَنَّ هَؤُلَاءِ مُؤْمِنُونَ عَمِمْ يَنْشُرُ عَلَيْهِمْ ، قَالَ : « فَاتَّانِكُمْ غِيَا بَعْمَ » فَكَانَ مَا حَدَّثَ لَكُمْ تَحْلِيصًا حَقًّا

« لَكَيْلًا تَحْرَبُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ » وَلَوْ لَمْ تَحْدِثْ مَسْأَلَةَ الْحَرَنِ وَالْحَرَى وَاللَّيْلَةَ لَشَعَلَتْكُمْ مَسْأَلَةُ أَنْتُمْ فَاتَكُمْ لَعَنَاتُكُمْ وَالنَّصْرَ ، وَلَقَدْ لَظَلَّ بِالْكَفِّ فِي لَعَنَاتِهِمْ ، لِأَنَّهَا هِيَ السَّبَبُ فِي هَذَا كَانَ الْعَمَلُ الَّذِي حَدَّثَ إِنَّمَا جَاءَ لِيُجَرِّحَ مِنْ قُلُوبِكُمْ لَفْظَةَ سَبَلِ الْعَمَلِ عَلَى الْعَمِيَّةِ ، وَمَا أَصَابَكُمْ مِنَ الْعَمَلِ وَالْهَرَمَةِ ، « فَاتَّانِكُمْ غِيَا بَعْمَ » لَكَيْلًا تَحْرَبُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ « أَيُّ أَنَّهُ سَبَّحَاتُهُ يَقْدِرُ مَا الَّذِي اسْتَوْلَى

عليكم ، لأن من الخائر « والرسول يدعوكم في أخراكم » أهم لم يسمعوا النداء من  
هول المعركة ، « والله خير بما تعملون » وهو سبحانه خير بكل فعل وإحساس  
ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً مَّا سَاءَ لَعُنُوا  
طَائِفَةٌ مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ  
يَظُنُّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ  
هَلْ لَّنَا مِן الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنْ أَلَامَرَ كُلُّهُ لِلّهِ  
يُخَفُّونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ  
لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ  
لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ  
اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ  
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾

وكلمة « أنزل » تدل على أن هذا عطاء علوي ليس له شأن بالأسباب المادية  
ولا بالقوانين البشرية ؛ لأن اليوم عرص من الأعراض التي تطرأ على الأحياء ، هذا  
العرص تستوحه عمليات كيميائية في نفسك ، وهذه العمليات الكيميائية حتى الآن  
لا يعرفون ما هي ، وأقصى ما فهم منه أنه ردع ذات لحسم الإنسان . فكان الجهار  
للتحرك المكون من مخ يعمل ، وغير ترى ، وأذن تسمع ، وحواس وحركة هذا الجهاز له  
طاقة ، ساعة تنتهي منه الطاقة ، لا يعود لك أنت الذي تترك العمل ، لا ، بل

يقول لك : أنا لم أعد صالحاً للعمل إنه ردع داني ، مثلاً يريدون أن يصعدوا إليه الآن في مجال الآلات بمجرد فصل تيار الكهرباء آلياً عن تلك الآلات فهي تتوقف .

والردع الداني هو في النوم وبأنتك النعاس . وتبين بالبحث انعلمى أن هناك أشياء في الجسم لا تخرج كمصلات بل تحتاج إلى التعادل والنور الكيمياء وسحر نعلم أن هناك بقايا كنتيجة للحركة ، وهناك احتراق للطاقة ، وكل حركة فيها احتراق ، وبقياً هذا الاحتراق تخرج مرة عن هيئة بول ، ومرة يخرج عاتقاً ومرة يخرج مخاطاً ، وهكذا ، إذن كثير من هذه المصلات هي نتيجة عمليات الاحتراق ، لكن هناك أشياء لا يريد لها أن تخرج ولكن يريد لها أن تتعدل ، فعندما تنام لا يوجد لك حركة وتبتدىء الكيمياء داخل الجسم في التعادل ، وهذا هو ما يعمل لك النوم الذي مستوحىه أساليبك المادية

وصاحب الهم والغم لا ينام أبداً ، فهو يسهر عن نفسه ويهتق جسمه أكثر وتكون لهضية كبيرة عليه ، وهنا ينزل الحق فيصله عليكم باليوم لأن أسبابكم لا تساعد أيا منكم على أن ينام .

وانتم تذكرون قدي أنا قلنا : إن الإمام علياً كرم الله وجهه لما اشتهر بالعتيا ، وكلما سأله عن أمر أفتى فيه ، فقالوا : نأى له بمألة معقدة ونرى كيف يأن بالعتيا ، وكأنهم نسوا أنه يفتى لأنه تربي في حصن النبوة ، فقد جاءت النبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيدنا علي مزاراً صعباً ، أما أصحابه الآخرون فقد جاءت النبوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم كبار في السن ، فهناك معلومات دخلت عندهم من أيام الجاهلية ، ولكن سيدنا علياً كرم الله وجهه لم تدخل عليه معلومة من معلومات الجاهلية . كل المعلومات التي عنده يورثه ، فكل هذا التفاعل ينشأ عنه فتياً ، لذلك كان سريعاً في الإفتاء .

على سبيل المثال ، نأى له امرأة فتقول : يا ابن أبي طالب كيف يعطوني ديناراً من سنيانة ؟ مورثي حلف سنيانة ديناراً فأعطوني ديناراً واحداً . فقال لها : لعله مات من روجة ، وعن بتين ، وعن أم ، الروجة تأخذ الشمس ( الخمسة وسبعين ديناراً )

والبستان تأخذان الثلاثين (أربعمئة دينار) وللأم السملح وهو مائة دينار، ولعل له اثني عشر أخا وأختا واحدة، أشقاء أو لأب، عوانت هذه الأخت وقد بقي من التركة خمسة وعشرون ديناراً توزع على الاثني عشر أخا والأخت، فيكون نصيبك ديناراً. كيف عرفت ذلك؟ إنها دقة الحساب عند من تعلم في بيت النبوة.

والآية التي نحن بصدد حوطلها عنها نجد أن الحق قد أنزل عليهم تعالفاً ليؤمنهم فلم ينشأ اليوم هنا من حركة الاختيار، ولكن الله أنزله، ومعنى «أنزله» أنه بعث رحمة جديده من السماء ليخرج القوم الذين أصابهم الغم على ما فعلوا مما هم فيه. وبذلك قال أبو طلحة: غشينا العباس ونحن في مصافنا يوم أحد فكان السب يسقط من أحداً فياخذ ثم يسقط عيناخذ.

إذن فهي عملية قسرية واسعاس حينما يزل من الحق سبحانه وتعالى يكون عملية إنقاذ من حركة غائت فرصتها على النعم الشريفة فعوضها الله، ولكن القوم الذين ناقشوا ماذا كان حالهم؟ لاشك أن الذين جاءوا نفاقاً لم يصحبهم غم على ما حدث بل بالعكس، لا بد أن يكون قد أصابهم مرح أو اطمئنان على ما حدث، وهؤلاء لا يكونون أملاً لأن ينزل الله عليهم أمانة العباس بل يتركهم الله لذواتهم، لأنهم لم يكونوا في حصص الله باتباع مذهب الإسلام أو بالاخلاص - على الأقل - لفكرة الإسلام، هؤلاء يسلمهم الله لذواتهم.

إذن قلن ينزل عليهم أمانة العباس وما دام لن ينزل عليهم أمانة العباس، فقد أصبحوا في قلق، لماذا؟ لأن نصوصهم قد أهتت والإيمان حين يؤمن ويتقل الإسلام من ربه يكون قد باع نفسه لربه، وما دام قد باع نفسه لربه فالصعقة الإيمانية لا بد أن تستمر وإذا استبطل المسلم مرة نفسه نقول له: لقد رجعت في عقد الصفة وما كنت قد رجعت في عقد الصفة فالحق الذي كان قد اشترك بتركك لنفسك، فتوله: «أصعبهم أنفسهم» أي خرجوا عن صفة الإيمان، لأن الذي يعقد صفة بالإيمان مع ربه، هو من قال الله فيه

﴿لَنْ يَشْتَرِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ هُمْ بِالْحَقِّ يَقْنِطُونَ﴾

فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَاتِلُوا وَيُقَاتِلُوا وَعَدَا عَلَيْهِ حَقَّ الْآثُورَةِ وَالْإِنْجِيلِ  
وَالْفُرَّةِ إِنْ وَمَنْ أَقْبَلَ بِعَهْدِهِ مِنْ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ  
وَذَلِكَ هُوَ الْفَرَرُ الْعَظِيمُ ﴿٩﴾

(سورة التوبة)

ومدام الله قد اشترى من المؤمن نفسه فوجب على المؤمن ألا يهتم نفسه ، فيدخل  
المعركة بالصعقة الإيمانية ، فإذا أحمته نفسه يبدأ للقلق ، والصلطة ، والاضطراب ،  
وتوهم الأشياء ، والشئ الواحد يومه على ألف لون ، إذن نفسه تكون غير  
مطمئنة ، ومادام الإنسان قد شغفه عم نفسه حتى لو كان النعاس استجابة لأمر  
طبيعي من ذات النفس فلا يأن النعاس أبدا .

ولذلك يجد أن الإمام عليا - رضوان الله عنه وكرم الله وجهه - حينما سئل عن  
أشد جنود الله؟ ببط يديه وقال : أشد جنود الله عشرة - الجبال الراسي ، والحديد  
يقطع الجبال ، إذن والحديد أشد من الجبال ، والار تذيب الحديد ، والماء يطفىء  
النار ، والسحاب السخريين اسماء ولأرض يحمل الماء ، والريح يقطع السحاب ،  
وابن آدم يغلب الريح يستتر بالثوب أو الشئ ويحفي حاجته ، والسكر يغلب ابن  
آدم ، والنوم يغلب السكر ، والهم يغلب النوم ، فأشد جنود الله «الهم» .

فساعة يدخل أهم على النفس البشرية ، هذا أشد جنود الله ؛ لأن أهم يدخل  
على النفس البشرية بالوان متعددة للحطب الواحد ، فيتصور أموراً معقده في أمر  
واحد ، وواقعة على لون واحد ، ولكن الهم يحول به في كل لون ، بهولاء قد أهمتهم  
أنفسهم وماداموا قد أهمتهم أنفسهم فقد حرحوا عن صمقة الإيمان . وماداموا قد  
حرحوا عن صمقة الإيمان الذي بوساطته اشترى الله من المؤمنين أنفسهم ، فالة  
يتحلى عنهم . ومدام الله قد تحلى عنهم فعليهم مواجعة المصير

إن القلق والاضطراب يستندون بهم ويصابون بالفرع من كل شئ . لكن حال  
الصف الأول والطائفة الأولى يختلف ؛ فالله سبحانه وتعالى يعاملهم معاملة من بقي

في الصفة الإيمانية وإن كانت نفوسهم اشربة قد فسرت الأحداث تفسيراً خاطئاً ،  
فطروا أن المسألة في المعركة انتهت ، فذهبوا لأخذ الغنيمة ، إن هؤلاء قد أحترم الله  
بقائهم على الإخلاص للإسلام ، وأدبهم على تفسيرهم للأحداث تفسيراً غير حق ،  
فثابهم عما لما حالوا فيه ، وأمرل عليهم أمه لإخلاصهم في قضية الإسلام .

« وطائفة قد آمنهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية » وإذا  
سمعت كلمة « طائفة » فاعلم أنها جمعة ، لكن هذه الجماعة لها مواصفات خاصة  
هي التي تجمعها عن فكرة واحدة كأنهم يطرحون حولها ، إنها ليست مطلق جماعة  
لكلها جمعة تدور حول فكرة واحدة ، وبأن القول الحكيم هنا ليس لك ما قالوه في  
نفوسهم ، وماذا صروا قد قالوا في نفوسهم ، أسمعهم أحد ؟ لا ، ولكن الله أنخبر به ،  
وأخبرنا في نفوسهم حينما يقول واحد ، عما يملك على أنهم يطردون حول فكرة  
واحدة ، فالصح الوحيد يجعلهم يقولون جملة واحدة هي « هل لك من الأمر من  
شيء » وملاحوا سيقولون في نفوسهم فمن الذي سمعهم وهم جماعة ؟ إنه الله  
- سبحانه - « والله عليم بذات الصدور » .

رأيت إذا قلت « طائفة » تجد أنها في عرف اللفظ « مفرد » ، وعندما تجمعها  
تقول « طوائف » ، لكن هي لفظ مفرد يدل على جمع ، فمرة يلحظ المفرد ، ومرة  
يلحظ ما يؤديه المفرد من الجمع . وهذه لا يتب إليها إلا البليغ ، فيفرق بينها كلفظ  
مفرد وبين ما تدل عليه كجمع ، ولذلك تجد هذا في إعجاز القرآن ، فالحق يقول :

﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بِهِمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا  
عَلَى الْأُخْرَىٰ فَفَعِلُوا الْاُنْيَٰى حَتَّىٰ تَبَيَّنَ مِنَ اللَّهِ أَمْرُهُ ۖ فَاِذْ فَاَتَتْ قُلُوبُهُمَا  
بَيْنَهُمَا وَبَآءُتِلَ وَأَقْسَطُوا ۖ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ٥١ ﴾

( سورة الممتحن )

وحينما يقول « وإن طائفتان من المؤمنين » فهو هنا يأتي بالجر ، القتلان أو  
اقتلوا ؟ إنه سبحانه يقول « واقتلوا » ، اللفظة طائفتان لكن الدقة الملاحية  
لاحظت أن كل طائفة مكونة من جماعة . « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا » فهذا



نفعل ؟ « فأصلحوا بينها » . فمرة رجع للجماعة ومرة رجع للائتين ، فهي ساعة الاقتال لا تقف الطائفة بسيف واحد وتصرب صريرة واحدة ، لا ، فهي ساعة القتال كل فرد من الطائفة له عمل ، بدن الفردية المكونة للطائفة متعددة

يكن عندما نُصلح هل نأق بكل فرد من هذه الطائفة ويكون فرد من الطائفة الأخرى أو نأخذ هذه الطائفة ممثلة في رؤوسها والطائفة الأخرى ممثلة في رؤوسها وبعد الصلح بين الطائفتين ؟ غداة القرآن تقول : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما » وبعد ذلك يعود الحق للشيء يقول : « وإن بغت إحدىهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفر إلى أمر الله فإن جاءت فأصلحوا بينهما » والصلح يكون بين جماعة ممثلة في قيادة وجماعة أخرى ممثلة في قيادة .

وقوله الحق : « وطائفة قد أعتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية يقولون هل بنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ماقتنا ها هنا » هذا القول يدل على أنها طائفة تدور حول حركة واحدة ، ويدل على أن اتفاق اتفاق متفق عليه ، وليس كل واحد منهم يوافق في نفسه ، لا ، إنها طائفة المتأففين ، وقد كُونُوا جماعة ، وهم سياسة مخصوصة ، وهم كلام مخصوص وهم وحدة فكر ، ولهم وحدة قول ، تعرفهم من قول الحق : « وطائفة قد أعتهم أنفسهم يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية »

ونعرف أن الحق هو الشيء الثابت ، وما دام ثابتاً فهو لا يتغير ، وقضية الحق هي تكون مطردة ، قاله حق ، خلق السبوات والأرض ، وكل الكون بالحق ، أمر كتابه بالحق ، كنه حق ، فهم يظنون بالله غير الحق مع أنه حق ، وشأ لكون منه يقاتلون حق ، ومنعرت من الله في الكون بالحق ، وهو دائماً ينصر الحق ، وهم يظنون بالله غير الحق ، يقولون ربما لم ينصرونا على الرغم من أن وعدنا بالنصر ، ونأسوا العناصر التي جعلها الله أسباباً للنصر ، إنها سنة الله وسنة الله تتحقق ولو على أحبائه ، فقد خالفوا أمر الرسول ، فلا بد أن ينهروا ، فلا بمجاملة لأحد ، فالذي يخالف لا بد أن يأخذ جراحه ؛ لأن هذا هو الحق .

كان يجب أن يقولوا إن الحق واضح لدرجة أن أحبائه ومعهم رسوله جميعاً خالفوا

عن أمر الله الذي قاله الرسول صلى الله عليه وسلم طبق الله عليهم سُنَّة ، إذن فهم سنة بالحق ، لكنهم طموا بالله طم احمالية ، والمقصود به إما طم أهل الجاهلية ، وإما أن تكون احمالية علماً على السُنة كله ، وهذا اطم له يصح سلوكي .

« يقولون هل لنا من الأمر من شيء » أي هل انتصرنا أو ظفروا أو غلبت أو أخذنا غنائم ؟ أو يكون هوهم « هل لنا من الأمر من شيء » مقصودا به أننا خرجنا إلى المعركة بدون رأيا ، فقد كان من رأينا ألا نخرج وأن نطل في الهدية وعندما يدعوننا علينا نحاربهم . « يقولون هل لنا من الأمر من شيء قل إن الأمر كله لله » هم لم يمتلكوا نصيرة الإيمان ولم يعرفوا لماذا لم ينتصرهم الله ، هم يهملون أنهم لم ينتصروا ، لكن في عرف الحق أنه انتصر ، لماذا ؟ لأن المعركة انتهت أن لمبدأ إن خولف فلا نصر ، إذن فالإسلام قد انتصر ، ولكن الذي انهم هم المتجادلون عن منهج الإسلام ، وهذا نصر للإسلام في ذاته ، ولذلك يجب أن نعرف دائما بين المبدأ الإسلامي والمسويين للمبدأ .

يبك أن تأخذ الحكم على المبدأ من المسويين للمبدأ ، فلا يكون المسويين للمبدأ حجة على الحكم في ذاته إلا إذا كانوا ملتزمين به ؛ لأن الله حبيها شرع دينا سنها الإسلام ليحكم حركة الحياة في الناس فهو قد قر وحرّم فيه أفعالا ، ومادام قد قر وحرّم فيه أفعالا فعليه أن المؤمنين المسلمين الذين انتسوا له من الممكن أن يفعلوا بأفعالهم تلك الأحكام ، فعندما يقرر الإسلام جلد أو رجم الرائي والرائية ، وحيثما يشرع الإسلام قطع يد السارق أو السارقة ، وحين يشرع الإسلام نكح المحرمات للحرائم ، بمعنى ذلك أنه من الجائز أن تحدث تلك الحرائم ، فإذا ما حدثت فالت لا بأحد من واقع مجرم لتحكم به عن الإسلام ، لا تقل إن للإسلام إباح الرقة بل قل سرق مسلم ووضع للإسلام عقوبة صارمة عليه وهي قطع يده .

« يجهمون في أنفسهم ما لا يدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا » وهذه هي الفصيحة لهم ، فإذا كانوا يريدون أن يكون لهم ؟ كانوا يريدون ألا يخرجوا للمعركة فقالوا لو كان لنا من الأمر شيء واتبعنا مطلقا ، لما حشنا الموقعة ما حصل لنا ما حصل ، هذه واحدة ، أو لو كان لنا شيء من الطم الذي وعد الله به محمد وأصحابه ما قتلنا هاهنا ، فعل الرأي يصح المعنى ، فكأنهم أرادوا أن

يعلموا القتل أو الموت بأسباب ، ومن الذي قال إن القتل أو الموت يتعلق بأسباب ؟  
إن الموت قضية نظراً لإعدام الحياة ، وهي مجهولة السبب ومجهولة الزمان ومجهولة  
المكان ومجهولة العمر

إذن فبإدانت المسألة مجهولة فلماذا ربطتم بين القتل والموقعة ؟ وهل لم تروا إنساناً  
مات وليس في موقعة ؟ ألم تروا إنساناً قد قُتل وليس في موقعة ؟ لو أَد القتل لا يشأ  
إلا في مواقع قتال وحرب لكان لكم أن تقولوا هذا ، وإنما القتل والموت قضية عامة  
ها واقع في حياتكم هذا الواقع لم يرتبط بأرض ، ولم يرتبط بزمان ، ولم يرتبط  
بسن ، ولم يرتبط بسبب ، وإنما الموت يأتي لأنتك تموت ، انتهت المسألة .

إذن فهم عندما ربطوا القتل والموت بالموقعة مهم قد خرجوا عن القضية الإيمانية .  
ولذلك يأتي الرد من الحق بأمر واضح للرسول صلى الله عليه وسلم : « قل لو كنتم  
في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » . فكانت أيها الميت قد  
تكون أخرص على لقاء الموت من جرّص لموت عليك . بدليل أننا قلنا : إن الإنسان  
يكون منضماً ، ويلجح عن أن تُجرى له عملية جراحية فيحتلر الطبيب قائلاً : عندي عدد  
كبير من الجراحات فانتظر شهراً ، فبأنى له المريض بوساطة لكي يقبل الطبيب لإجراء  
العملية الجراحية ويصح عليه . ويعلل أجر الطبيب وقد يموت المريض . إذن فهو يلجح  
على الموت أو لا ؟ إنه يلجح عن الموت .

يقول الحق . « قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى  
مضاجعهم » وكلمة « برز » تدل على اندفاع حركي ، فمعنى : برز من الصف يعني  
أن الصف له التمام واقفي ، والذي يبرز إنما يقوم بحركة مخالفة للصف ، هذه  
حركة .

« قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم » ولينبأ الله  
ما في صدوركم وليمتحن ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور ، والذي يبرز إلى  
المصبح هو من يخرج من مكان الاستغوار ، وإلا فكيف يكون الابتلاء لمن يقدر الله  
سبحانه أن يحملوا معركة لإسلام إلى أن تقوم الساعة إذا لم تكن هذه المسائل ؟ لا بد  
أن يكونوا قوماً قد عركتهم التحربة ، مُحصين بالأحداث حتى لا يكون مأموماً على

## حل السلاج في الإسلام إلا هؤلاء الصغرة المختارة

فأما يقول الرسول صلى الله عليه وسلم بالخروج ، وتظهر بل أن يخرج إلى أحد ، نجد جماعة يتخاذلون بوساطة ابن أبي ، هذه أول تصفية ، وبعد ذلك ينقسم الرماة ، وهذه تصفية أخرى ، فريق بطل وفريق يزل للفتنة ، وبعد ذلك يشاع أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد قتل ، هذه تصفية ثالثة

« وليتل الله ما في صدوركم ويكشف ما في قلوبكم والله عليم بذات الصدور » وكلمة « ذات الصدور » معناه صاحبة الصدور وفي الصدر يحرم الإنسان على إخفاء الأمر الذي يجب أن يحتفظ به لنفسه بحرص كحرص صاحب على صاحبه ، كأن الصدر يحرم على ألا يسلم ما فيه ، ولكن الله سبحانه وتعالى يفضحهم أمام الناس ، ويصحبهم أمام نفوسهم ، فقد يجوز أن يكونوا معشوشين في نفوسهم

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ (١٥٥)

وعندما نقرأ كلمة « اسْتَزَلَّهُمْ » نعرف أن ( الهمة والسن والثاء ) للطلب ، تطلب ما بعدها ، مثل استفهم أي طلب الفهم ، استعلم يعني طلب العلم ، استقوى يعني طلب القوة ، « اسْتَزَلَّ » يعني طلب الزلل ، ومعنى « الزلل » هو الهزيمة والهزيمة ، أي أن الإنسان يقع في الخلط ، إذن فاشيطان طلب أن يزلوا ، « بعض ما كسبوا » ، كأن الشيطان لا يجترئ على أن يستزل أحد عن آمن إلا إذا صادف فيه

تحملاً في نسيه ، لكن الذي ليس عنده تحمل لا يقوى عليه الشيطان ، ساعة يأتي الإنسان ويعطى لضعفه شهوة من الشهوات فالشيطان يرقمه ويضع عليه علامة ويقول هذا ضعيف ، هذا نقدر أن نسرله لكن الذي يراه لا يطاوع نفسه في شيء من التحلل لا يقترب ناحيته أبداً

ولذلك فالنفس هي مطية الشيطان إلى الدنوب ، وفي الحديث الشريف « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم »<sup>(١)</sup> وعندما يرى الشيطان واحداً تملبه نفسه في حاجة فالشيطان يقول هذا فيه أمل ! وهو الذي يجري منه مجرى الدم كما سبق في الحديث ، أما الملتزم الذي ساعة تحلته نفسه بشيء ويأبى فالشيطان يحاف منه ، إذن فالشيطان لا يستل إلا لضعيف ، ولذلك فالذي يكون ربه على ذكره دائماً لا يجترأ عليه الشيطان أبداً

إن الله - سبحانه - قد سمى الشيطان « الوسوس الخاس » ، إنه يوسوس للناس ، لكنه خائف فإذا ذكر الله يجلس ، أي يتأخر ويخضض ولكنه يمرد بك حين يراك متبعلاً عن ربك ، لكن حين تكون مع ربك فهو لا يقدر عليك بل يتوارى ويكسح عن الوسوسة إذا استعدت عليه بالله

إذن فقله : « إنما استزلهم الشيطان » يعني طلب منهم أن يزلوا نتيجة لأنه عرف أنهم فعلوا أشياء أبتدؤوا وأظهروا فيها ضعفهم ، « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا » وكلمة « بعض ما كسبوا » . كأن قول الله « ولقد عفا الله عنهم »<sup>(٢)</sup> أنه لم يأخذهم بكل ما كسبوا ، لأن ربنا يعضو عن كثير « إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفا الله عنهم إن الله غفور حلِيم »

« عفا الله عنهم » لماذا؟ عفا عنهم تكرماً لحبذاً الإسلام الذي دخلوا فيه بإخلاص ، ولكن نفوسهم ضعفت في شيء ، فمظتهم عفوية في هذه ولكنه يعفو عنهم فهذا هو حق للإسلام ، « إن الله غفور حلِيم » .

يعرف الحق بعد ذلك .

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا  
وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا  
غُزًى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ  
ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُخَيِّمُ وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا  
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

والضرب في الأرض هو لسمي واستبطن فصل الله في الأرض وفي سبيله لإعلاء  
كلمته ، فالذين كفروا يرتكبون الموت والقتل والعمليات التي يمارق الإنسان فيها الحياة  
على ماذا ؟ على أنه ضرب في الأرض أو حرق ليقاقل في سبيل الله ، وقالوا لو لم  
يخرجوا ما حصل لهم هذا ! سرور عليهم ، ويقول لهم كأنكم لم تروا أبداً مهتاً في  
مراشه كأنكم لم تروا مقنولاً يسقط عليه حدار ، أو يصول عليه حمل ، أو تصيبه  
طلقة طائشة ، هل كل من يموت أو يقتل يكون صارماً في الأرض لشيء أو خارجي  
للسجود في سبيل الله ؟

إذن فهذا نحن في استغراء لواقع ، وجاء الحق بذلك ليعطيها صورة من حكمهم على  
الأشياء ، إنه حكم عربي على قواعد استغرافية حقيقية ، ولذا عرفنا أنهم كفروا يقول . هذه  
طبيعتهم ، لأننا نجد أن حكمهم ليس صحيحاً في الأشياء الواضحة ، ومادام حكمهم ليس  
صحيحاً أو حقيقياً في الجزئيات التي تحدث - فإذا عرفتم أنهم كفروا بهذا كلام مصطفى بالنسبة  
لهم - شأنهم أنهم لا يشبهون في أحكامهم ملاعب - إدد - أن كانوا كافرين

أو كانوا غزى ، ، وغزى جمع غار ، مثل صوم وقوم ، يعني جمع . صائم

وقائم . لو كانوا عندما ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم »  
إذن فالله سبحانه وتعالى يصور لهم ما يقولونه ليعذبهم به ، كيف ؟ لأنهم عندما  
يقولون : لو كانوا عندما لكنا معهم أن يخرجوا أو يقتلوا ، إذن نحن الس .

وهكذا نجد أنهم كلما ذكروا قتلوا قتلهم أو موتاهم يعرفون أنهم أخطأوا ، وهذه  
حسرة في قلوبهم ، ولو أنهم رتبوها إلى طغي الأعلى لكأن في ذلك راحة لهم ولذا كانوا  
قد أدخلوا أنفسهم في متاعه ، وعففت منهم هذا حتى تعرف غمائمهم أيضاً ، بهم  
أغياهم في كل حركاتهم وفي استقرار الأحداث الحزينة ، وأغياهم في استخراج القصيدة  
للإيمان الكلية ، أعجبهم في أنهم حبسوا أنفسهم وأدخلوها في مسألة ليست من  
شأنهم ، فإراد ربنا سبحانه وتعالى أن يجعل ذلك حسرة عليهم

« لو كانوا عندما ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم » إن القصيدة  
الإيمانية هي « والله يحيى ويميت » أي هو الذي يهب الحياة وهو الذي يهب الموت ،  
فلا الضرب في الأرض ولا الخروج في سبيل الله هو السبب في الموت ، ولذلك يقول  
خالد بن الوليد - رضي الله عنه - ' لقد شهدت مائة زحف لوزهاءها وما في جسدي  
موضع شر إلا وفيه صرقة سيف أو طعنة رمح ، وهأنذا أمرت على فراشي كي يموت  
الغير - أي حلف أنفه - فلا بلغت أعين الحباء

والشاعر يقول :

الأيها الزاجري أحضر الوعى

وأن أشهد الذات هل أنت تتخلى؟

أي يا من تسعى أن أحضر الحرب هل تنصير لي الخلود ودوام البقاء إذا أحجمت  
عن القتال . ويكمل الشاعر قوله .

فإن كنت لا تستطيع دفع ميني

فدعني أبادرها بما ملكك يدي

ويختم الحق الآية بقوله . « والله بما تعملون بصير » فكأنهم قد بلغوا من اليأس أنهم

لم يستروا حتى في المعصية ، ولكنهم جعلوها حركة تُرى ، وهذا القول هنا أقوى من « عليهم » ، لأن « عليهم » تؤدي إلى أن نفهم أنهم بذلكون معضاً من حياء ويسترون الأشياء ، ولكن علم الله هو الذي يفضحهم لا ، هي صارت حركة واضحة بحيث تُعَصَّر . فجاء قوله : « والله بي تعملون بصير » . ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَعَفْوٌ مِنْ  
اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ ١٥٧

والذي يحرص على ألا يحرص المعركة بخالة أن يُقتل ، في الذي يرجع عنه هذا العمل ؟ إنه يتغنى الخبر بالحياة ، وما دام يتمنى الخير بالحياة ، إذن فحركته في الحياة في وهمه متأن بهير ، فهو يخشى أن يموت ويترك ذلك الخير ، إنه لم يملك بصيرة إيجابية ، ونقول له . الخير في حياتك على قدر حركتك قوة وعلماً وحكمة ، أما تفتك حين تلتقي بالله شهيداً جعل قدر ما عند الله من فضل ورحمة وهي عطاءات بلا حدود ، إذن فأنت صيغت على نفسك العرق بين قدرتك وحكمتك ورجعتك وحركتك في اكتسب وبين ما يُسبب إلى الله في كل ذلك ، ولذلك يقول الحق

« وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَعَفْوٌ مِنْ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ »

وبعد ذلك يقول الحق

﴿ وَلَئِنْ مِتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَا إِلَى اللَّهِ تَخْشَرُونَ ﴾ ١٥٨



ولما أن نلاحظ أن قول الحق في الآية الأولى جاء بتقديم القتل على الموت قال تعالى : « ولئن قتلتم في سبيل الله أو متم » و جاء في هذه الآية بتقديم الموت على القتل قال - جل شأنه - : « ولئن متم أو قتلتم » فقدم لقتل على الموت في الآية الأولى لأنها جاءت في المقاتلين ، ولعالب في شأنهم أن من يلقى الله منهم ويفضى إلى ربه يكون سبب القتل أكثر مما يكون سبب الموت حتى أنه ، أما هذه الآية فقد جاءت ليبين أن مصير جميع العباد و مرجعهم يوم القيامة يكون إلى الله - تعالى - وأن أكثرهم تزهد بعسره وتخرج روحه من بدنه بسبب الموت ، فلذا قدم الموت هنا على القتل إذن فكل كلمة وجملة جاءت مناسبة لموقعها - به قول الحكيم الخبير وبعد ذلك بقول الحق سبحانه وتعالى -

﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَيْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَطًا غَلِيظًا  
الْقَلْبِ لَا يَهْمُؤُا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ  
وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ  
يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾

إن الآية كما نرى تبدأ بكلام إنصاري هو « في رحمة من الله لست هم » . فكأنه - سبحانه - يريد أن يقول إن طيعتك يا محمد طيبة تناسب لما يطلب منك في هذه المسألة ، هم خالعوك وهم لم يستجيبوا لك حينما قلت : إلى عبد الله ، إلى عبد الله إلى رسول الله ، وهذا شيء يُحفظ ويُعصب ، وبك لا يُحفظ طيعتك ولا يُعصب سببتك لأنك مفطور مع أمك على الرحمة . فكأنه يريد أن يحس رسول الله على أمته التي أصابته بالضم ، فقال له إياك أن تجارها على هذا ، لأن طيعتك أنك رحيم ، وطيعتك أنك لست فطاً ، طيعتك أنك لس غليظ قلب ، فلا نخرج عن طيعتك في هذه المسألة ، مثلما تأتي لوحد مثلاً وتقول له أنت طيبة أخلاقك حسنة ، يعني اجعلها حسنة في هذه

« فيها رحمة من الله لنت لهم » أى بأى رحمة أودعت فيك ساعة تموت : بأى رحمة قانت تبهم الأمر ، وهذا تبهم الشيء فكأنه شيء عظيم ، لأن الشيء يُبهم إما لأنه صغير جدا ، وإما لأنه كبير جدا ، فالشيء إذا كان كبيرا يكون فوق مستوى الإدراك ، وإذا كان صغيرا جدا يكون دون مستوى الإدراك . ولذلك فالأشياء الضخمة جدا يرى منها جانبا ولا ترى الجانب الآخر ، والشيء البديق جدا لا يراه ، ولذلك يقولون . هذا الشيء بكرة ، وذلك يدل مرة على التعتيم ويدل مرة على التحقير ، ومرة يدل على التكثير ، ومرة يدل على التقليل . فإن نظرت إلى أن الإدراك لا يستوعبه لصغارته إذن فهو كثير ، وإن رأيت أن الإدراك لا يستوعبه لثقله وديمته ، وأنه ليس في متناول النظر يكون قليلا أو دقيقا .

إذن فنقول الحق « فيها رحمة » أصلها هو رحمة من الله طُبعت عليها لنت لهم ، وهما « لماذا جاءت هنا ؟ » إنك إما أن تأخذها إسماعية . يعنى بأى رحمة فوق مستوى الإدراك ، رحمة عظيمة . أو تقول « فيها رحمة » أى أن « ما » تكون اسمها موصولا وكان الحق يقول له « بالرحمة المؤدعة من خالقك هيك والتي تناسب مهمتك في الأمة لنت لهم » ومادامت تلك طبيعتك قلرُ هم في هذا الأمر واعف عنهم واستمع لهم

وهذه الآية جاءت عقب أحداث حدثت في أحد الحوادث الأول أنه صلى الله عليه وسلم رأى ألا يخرج إلى قتال قريش خارج المدينة من يطل في المدينة ، فأشار عليه المحبون للشهادة والمحبون للقتال والمحبون للتعويض عما فاتهم من شرف القتال في بدر ، أن يخرج إليهم ، فزل رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رأيهم ، وليس لأمة ، فلما أحسروا أنهم أشاروا على رسول الله بما يخالف ما كان قد بدر منه ، تراجعوا وقالوا : يا رسول الله إن رأيت ألا تخرج ، فقال « ما يسعى لى إذا لمس لأمة أن يصعبها حتى يقتل » فإدام قد استعد للحرب انتهى الأمر ، هذه أول مسألة وهي مسألة المشورة .

وبعد ذلك تخلف ابن أبي بثلث الجيش وهذه مسألة ثانية ، أما المسألة الثالثة فهي مخالفة الرامة أمره صلى الله عليه وسلم وبركهم مواقعهم على الرغم من أنه صلى الله

عليه وسلم قد حذرهم من ذلك وقال لعبد الله بن حدير الذي أمره على الرماة :  
« أنصح مما الخيل بالنبل ، لا يأنونا من خلعا ، إن كانت لنا أو علينا فأنيت مكانك  
لا تؤذين من قبلك »<sup>(١)</sup> ، ولكم حالوا عن أمر رسول الله - والمساءلة الراحة هي  
برارهم حينما قيل . قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمساءلة الخامسة : أنه  
حين كان يدعوهم ، فروا لا يلوون عن شيء .

كل تلك أحداث كانت تنزك في نفسه صلى الله عليه وسلم آثاراً ، فكان الله  
سبحانه وتعالى يقول : أنا طبعتك على رحمة تسع لكل هذه المعصيات ، ولرحمة منى ،  
وملاحت الرحمة موهوبة منى فلان أن جعلت فيك طاقة تتحمل كل مخالفة من أمرك  
ومن أتبعك . ولا ترضى أنك قد أرسلت إلى ملائكة ، إنما أرسلت إلى بشر ، والبشر  
حطاعون ، البشر من الأعيار ، فلهذا اجعل المسألة درساً ، وأما عطرنتك على الرحمة ،  
وأنت بذاتك طابت منى كثيراً من الخير لأمتك ، ومن رحمة أن جبريل نادى رسول الله صلى  
الله عليه وسلم<sup>(٢)</sup> فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله  
إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم ، قال : فتاداني ملك الجبال مسلم على ثم قال :  
يا محمد إن الله قد بعث إليك ولنا ملك الجبال لتأمرن بأمرك ، فما شئت ؟ إن شئت أن  
أطبق عليهم الأحشيين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بل أرحمهم أن يخرج الله من  
أصلاهم من بعد الله وحده ولا يشرك به شيئاً »<sup>(٣)</sup>

فأما طلب من الرحمة التي أودعها في قلبك فاستعملتها في كل مجال ، وهذه  
الرحمة لت لهم ، وهذه الرحمة اتقوا حولك ، اتقوا حولك لأدبك اللحم ،  
وتواضعك الوافر ، الجبال خلقت ، ليسمتك الحامية ، لنظرتك المواسية ، لتقديرك  
لطرف كل واحد حتى إنك إذا وضع أي واحد منهم يده في يديك لم تسحب يدك أنت  
حتى يسحبها هو ، خلقت عالٍ ، كل ذلك أما أجعله حيثة لتتبارك عن كل تلك  
اهمات وتيسرها خلقت وتيسرها حلما ، لأنك في دور التربية والتأديب والتربية  
والتأديب لا تقتضي أن تغضب لأي بادر . قلدر مهم ، وإلا ما كنت مربياً ولا مؤدباً .

(١) التور المشهور للسيوطي ج ٢ ص ٦٨ (٢) عند حديثه من الطائفة وقد آذاه أهلها

(٣) رواه البخاري في ج ٤ المجلد ١ ، ورواه مسلم في الجهاد ، في الأحشيين [ جلال في مكة ، أبو عيسى والذي يناديه  
ويسمى قبيصة أو هو أصل الآخر الذي يشرف عليه ويسمى الجبال بالأنبياء لصلواتها وعظمت حجاتها

« ولو كنت مطا عليظ القلب لأمصروا من حولك ، لماذا ؟ لأنك تُخرجهم عما أمروا من أمور الخاهلية . والذي يخرج واحد عما ألب لا يصح أن يُخضع عليه إخراجهم عما أصاب بالأمسلوب الخشن اعط : لأنه في حاجة إلى التردد وإلى الرحمة ، لا تجمع عليه بين أمرين تفصح فعله ، وإسراجه عما ألب واعتاد ، ولذلك يقولون للذي ينصح إنسانا ، النصح ثقيل : لأن النصح معناه تجريم الفعل في المصوح ، فعندما تقول لوحد - لا تفعل هذا ، ما معناها ؟ معناه أن هذا الفعل سيء ، فهدمت الحُجُوم فعله فلا تجمع عليه أمرين - إنك قبحت فعله وأخرجته عما ألب ، وبعد ذلك تنصحه بما يكره - لا ، إنه في حاجة إلى ملاطفة وملاينة تستل منه الحصول الفصح ، نحن سنعامل ذلك في دوات أنفسنا حين نجد مرضا يحتاج إلى علاج مر ، فنعط العلاج المر في علاج من السكر بحيث يمر من منطقة الدوق بلا ألم أو بعض ، حتى يزل في المنطقة لنقى لا نحصر بهذه المראה : لأن الإحساس كله في الفم

إذا كنتم تفعلون ذلك في الأمور المادية ، فلماذا إذن أن تطو ذلك أيضا في الأمور المعنوية ، ولأن النصح نعيم فلا تجعله جديلا ولا ترسله جبلا ، وخفة لبيان تؤدي عنك بدون إثارة أو استشارة ، ويلطف بعمل على التفعل

هذا فصل إلى ما تريد ، ومثال ذلك حكاية الملك الذي رأى في منامه أن أسنانه كلها وقعت ، فحاض للمعبر ليحبر ، فقال له - أهلك جميعا يموتون ، اتعبر لم يُسر منه الملك ، فذهب لواحد آخر فقال له . ستكون أطول أهل بيت عمرا ، إنه التعبير بهمه ، فإدام أطول أهل بيته عمرا ، إذن سيموتون قبله ، هي هي ، ولذلك قالوا - احققوا مرة فاستمعوا لها حقة البيان

« ولو كنت مطا غليظ لقلب لأمصروا من حولك » إذن فالرحمة إست لهم ويلين القول بحوك وأهوك وأهوك « العط » هو ماء الكرش ، والإبل عندما تجد ماء فهي تشرب ما يكفيها مدة طويلة ، ثم بعد ذلك عندما لا تجد ماء فهي تتجر من الماء المحروون في كرشها وتشرب منه ، في حوفاة من المواقع لم يجدها ماء فذهبوا الإبل وأخذوا الماء من كرشها ، الماء من كرش الإبل يكون غير مستساغ الطعم ، هذا معنى « العط » ، ونظرا لأن هذا يورث عصابة فسموا « خشونة القول » فظافة ، والعاط في القلب هو ما ينشأ عنه الخشونة في الألفاظ

«وبوركنت فلقا غليظ القلب لا عصروا من حولك» إياها رحمة طُبعت عليها  
بارسول الله من الحق الذي أرسلك وبالرحمة إنت فهم وظهر أثر ذلك في إقبالهم  
عليك وحُبهم لك ؛ لأنك لو كنت على يقين ذلك لما وجدت أحداً حولك . إذن  
عالمواق تثبت أن هذه هي طباعتك ، وحلقك ، هو الرحمة واللين .

وبعد ذلك اصف عنهم ، وقلنا إن «العمو» هو . نحو الدب عوا نفاً وهو يختلف  
عن كظم العبط ؛ لأن كظم العبط يعنى أن تكون المسألة موجودة في نفسك أيضاً  
إلا أنك لا تعاقب عليها ؛ لأنت كضمت حوارحك وصيت لسانك ، أما المسألة  
فهي زالت في نفسك ، لكن العمو هو أن تحو المسألة كلها نهائياً ، وتأكيدها لذلك العمو  
فأنت قد تقول . أنا من ناحيتي عصوب لا . المسألة لا تتعلق بك وحدك ، لأنك  
رسول من الله ، أنت ورايك إله يعار عليك ، فلا يكفي أن تعصو عنهم . بل لابد أن  
تستعمر الله لهم أيضاً ، فمن الممكن أن يعفو صاحب الدب ، ولكن رب ورب صاحب  
الدب لا يعفو ، فيوضح الحق أنت عصوت فهذا من عندك ؛ لكنه يطلب منك أن  
تستعمر لأجلهم . كي لا يخذلهم الله عما يدر منهم نحوك .

«قاعف عنهم» هذه حاسة بالرسول صلى الله عليه وسلم . «واستعفرهم»  
بسبب ما فعلوه ، وترتب عليه ما ترتب من هزيمتكم في «أحد» ، وشجت  
وجرحك ، ولا تقل . استشرتكم وطوختهم في المشورة ، وبعد ذلك حدث  
ما حدث ، فتكره أن تشاورهم ، لا تقل هذا الباب برعم ما حدث نتيجة تلك  
المشورة وأنها لم تكن في صالح المعركة ، فالعبرة في هذه المشقة هي أن تكون «أحد»  
معركة انتادي ، ومعركة التهليل ، ومعركة التمهيع ، إذن فلا ترتب عليها أن  
تكره المشورة ، من عليك أن تشاورهم دائماً ، مما دام العفو قد رحبت به نفسك ،  
ومادمت تستعفر لهم ربك ، واستعفارك ربك قد تستعفره بعيداً عنهم ، وعندما  
تشاورهم في أي أمر من بعد ذلت فكان المسألة الأولى انتهت ، ومادامت المسألة  
الأولى قد انتهت ، بعد استأمتنا صحة جديده ، ولحدود الدرس والعظة التي  
ستمنعنا في أشياء كثيرة بعد ذلك .

ولذلك نجد بعد هذه المعركة أن الأمور سارت سيرها المختصر دائماً ؛ لأن التجربة

والتعليم والتفريب قد أثر وأثمر ، لدرجة أن سيدنا أبا بكر - رضي الله عنه - عندما جاءت حروب الردة ، ماذا صنع ؟ شاور أصحابه ، فقال له بعضهم : لا تفعل . فهل سمع مشورتهم ؟ لا لم يسمع مشورتهم ، إنما شاورهم . فلإنقاذ المشورة حُكم ، ولرد المشورة حُكم ، المهم أن تحدث المشورة ، ونعمل بأفضل الآراء فالمشورة : تلفح الرأي بآراء متعقدة ، ولذلك يقول الشاعر .

شاور صواك إذا نابتك مائة  
بوما وإن كنت من أهل المشورات

لقد امتدى الشاعر إلى كيفية تفريب المعنى لنا ، فعلى الرغم من أن الإنسان قد يكون من أهل المشورة والناس تأخذ برأيه ، فعليه أن يسأل الناس الرأي والمشورة ، لماذا ؟ هههه. الشاعر يكمل النصيحة :

فالعين تنظر منها مادنا ونأى  
ولا ترى نفسها إلا بمرآة

إذ العين ترى الشيء القريب والشيء البعيد ، لكن هذه العين نفسها تعجز عن رؤية نفسها إلا بمرآة ، وكذلك شأن المسألة الخاصة بفيرك والتي تعرض عليك ، إن عقلك ينظر فيها باستواء ودون انفعال ، لأنه لا هو ي لث ، والحق هو الذي يجذبك لكن مسائلك الخاصة قد يدخل فيها هواك ويغلبها لك ويحسبها .

إذن فالمشورة في أحد كانت نتيجة كما علمتم ، وكان الله يقول لرسوله : إياك أن تأخذ من سابقة المشورة أن المشورة لا تنفع ، فتقاطعهم ولا تشاورهم ؛ لأنك لن تظل حيا فيهم ، وسيأتي وقت يحكمهم بشر مثلهم ، ومادام يحكمهم بشر مثلهم فلا تجرمه أن يأخذ آراء غيره ، وعندما يأخذ الآراء وتكون أمامه آراء متعددة فهو يستطيع أن يتوصل إلى الحكم الصحيح بحكم الولاية وبحكم أن الإمام ، ويستطيع أن يفاضل ويقول : هذه كذا وهذه كذا ، إلا أن يفوض غيره .

« وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » وقد حرم رسول الله أيضاً على

الحرب ولبس لامته ، أكان يلبس اللأمة - وهي عُدّه الحرب - وبعد ذلك يقولون له : لا تخرج فبدعها ؟ لا ؛ فالمسألة لا تحتفل بالردد . « فإذا حرمت فتوكل على الله » وهذه قائمة الإيمان ، وفائدة الإيمان : أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، معادلة جميلة ! الجوارح تقول : نروع ، نحزن ، نأثّر بالبشر الجيد ، نروى ، نضع سملًا ونعترض أن الصنيع قد يأتى ويحشى عن البات منه فأتى بقش وسحوة ونعطيه ، كل هذه عمس الجوارح . وبعد ذلك القلوب تتوكل

فإياك أن تقول المحصول آت آت لأننى أحسست أسبابي ، لا . لأن فوق الأسباب مسببها . فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، هذه فائدة الإيمان لأننى مؤمن بإله له طلاقة القدرة ، يخلق أسباب ويخلق غير أسباب . الأسباب لك يا بشر ، أما الذى فوق الأسباب فهو الله ، فأنت حين تعمل أخذت بالأسباب ، وحين تتوكل ضمنت المسبب وهو الله - سبحانه - .

إذاً فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل . إياك أن تطن أن التوكل يعنى أن تترك الجوارح بلا عمل ، لا ، فهذا هو التراكل أو الكل ، إنه التراكل الكاذب ، والدليل على كذب من يقول ذلك أنه يجب أن يتوكل فيها فيه مشقة ، والسهل لا يتوكل فيه ، ونقول للرجل الذى يدعى أنه يتوكل ولا يعمل : أنت لست متوكلاً ، ولو كنت صادقاً فى التوكل إياك أن تمد يدك إلى لقمة وتضعها فى فمك . كن متوكلاً كما تدعى ، ودع التوكل يضع لك اللقمة فى فمك واترك التوكل ليمضغها لك !

وطبعاً لن يفعل ذلك ، ولهذا نقول له أيضاً : إن ادعاءك التوكل هو بلاء حس إيمان وليس توكلاً .

إن الحق سبحانه وتعالى يقول : « ولستم غر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله » و« حرمت » تقتضى عزيمة ، والتراكل يقتضى إظهار عجز ، فمعنى أنى أتوكل على الله أننى استنفدت أسبابي ، ولذلك أرجع إلى من عنده قدرة وليس عنده عجز ، وهذا هو التراكل المطلق .

وفي حياتنا اليومية نسمع من يقول : أنا وكلت فلانا ، أى ألقى لا أقدر على هذا الأمر فركلت فلانا . ومعنى توكيله لفلان أنه قد أظهر حجزه عن هذا الأمر ولهذا ذهب إلى غير عاجز . كذلك التوكل لإيمان ، فالتوكل معناه : تسليمك زمام أمورك إلى الحق ثقة بحسن تدبيره ، ومن تدبيره أن أعطاك الأسباب فلا ترد يد الله المحدودة بالأسباب ثم تقول له : عمل لى يارب ، لانا فلانا سورة العاتكة إن الإنسان يدعرك قائلا

﴿إِنَّا لَنَعِدُّكَ نَسْعِيں ۝﴾

( سورة العاتكة )

ومعنى « نستعين » أى نطلب منك المعونة التى نقى بها العمل وبعد ذلك يقول الحق :

﴿إِن يَنْصُرْكُمُ اللّٰهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡ وَإِن يَخَذُلْكُمۡ  
فَمَن ذَا الَّذِى يَنْصُرْكُمۡ مِّنۢ بَعْدِهِۦ وَعَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ  
الْمُؤْمِنُونَ ۝﴾

الحق يقول هنا : « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ، المؤمنون بحسب الله وما داموا مؤمنين به فمن إيمانهم به أنه إله قادر حكيم عالم بالمصلحة ، ولا يوجد أحسن من أنك توكله .

وعندما نقرأ « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فقد نال - وما هر لمقابل المقابل هو « وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده » إذن فانت دخلت بالأسباب التى قالها الحق سبحانه وتعالى مؤتمرا بأمر القيادة السماوية التى مثلت فى الرسول المبلغ عن الله ، وقد أحدث عذتك على قدر استطاعتك ، إياك أن تغار



عَدَدِكَ بِعَدَدِ خَصْمِكَ أَوْ تَقَارُونَ عُدَّتَكَ بِعُدَّةِ خَصْمِكَ ، فَاللهُ لَا يَكْثُفُكَ أَنْ تَقَابِلَ الْعَدَدَ بِالْعَدَدِ وَلَا الْعُدَّةَ بِالْعُدَّةِ ، وَإِنَّمَا قَالَ : أَنْتَ تُعَدُّ مَا اسْتَطَعْتَ ، لَمَّا دَا ؟ لِأَنَّ اللَّهَ يَرِيدُ أَنْ يَصْحَبَ رُكْبَ الْإِيمَانِ مَعُونَةَ الْمُؤْمِنِ بِهِ ، لِأَنَّهُ لَوْ كَانَتْ الْمَسَائِلُ قَدْرَ بَعْضِهَا ، لَكَانَتْ قُوَّةُ لِقْوَةِ لَكِنَّ اللَّهَ يَرِيدُ أَنْ يَكُونَ الْعَدَدُ قَلِيلًا وَتَكُونَ الْعُدَّةُ أَكْثَرًا وَأَنْ نَعْتَرِفَ وَنَقُولَ : هَذَا مَا قَدَرْنَا عَلَيْهِ يَا رَبِّ وَمَلَدَامَ هُوَ الَّذِي قَدَرْنَا عَلَيْهِ ، فَتَكُونَ هَذِهِ هِيَ الْأَسْبَابُ الَّتِي مَكَّنَّا مِنْهَا ، وَنَتَقَنَّ بِأَنْتَ يَا رَبِّ مُتَصَمِّعٌ مَعَ الْعَدَدِ الْقَلِيلِ مَدَدًا مِنْ عِنْدِكَ ، فَأَنْتَ لِلْمَعِينِ الْأَعْلَى ، فَسَبِّحْكَ الْفَائِلُ :

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴾ (١١)

(سورة محمد)

والحق هنا يقول : « إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا عَاقِبَ لَكُمْ » فَأَنْتَ تَضْمِنُ نَصْرَ اللَّهِ لَكَ إِنْ كُنْتَ قَدْ دَخَلْتَ حُلًى أَنْ تَنْصُرَهُ

كيف نعرف أننا ننصر الله ؟ نعرف ذلك عندما تأتى النتيجة بنصرنا ، لأنه سبحانه لا يعصى قضية في الكون وبعد ذلك تأتى بالواقع ليكذبها ، وإلا فالمسلمون يكونون قد سعدوا - معاذ الله - لأنه لو جاء الدين بفضية ثم تأتى الواقع ليكذبها ، فلا بد أن يقولوا : « إِنْ الْوَاقِعُ كَذَّبَ ذَلِكَ الْقِصَّةَ لَكِنَّ الْحَقَّ قَالَ : « إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ » وَبِجَهِّ الْوَاقِعِ مُؤَكَّدًا هَذِهِ الْقِصَّةَ ، عِنْدَئِذٍ نَحْنُ لَا نَصْدُقُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ فَقَطْ ، بَلْ نَصْدُقُ كُلَّ مَا غَابَ عَنَّا ، فَعِنْدَمَا تَظْهَرُ حَزْنِيَّةٌ مَادِيَّةٌ وَاقِعَةٌ مَحْسُوسَةٌ لَتُنْبِتَ لِي صَدَقَ الْقُرْآنُ فِي قِصَّةٍ : فَأَنَا لَا أَكْتَفِي بِهِذِهِ الْقِصَّةِ ، بَلْ أَقُولُ : كُلُّ مَا لَا أَعْلَمُهُ دَاخِلٌ فِي إِطَارِ هَذِهِ الْقِصَّةِ

ولذلك قلنا : إِنْ الْحَقُّ سَبَّحَانَهُ وَبَعَالَى تَرَكَّ بَعْضُ أَسْرَارِهِ فِي كَوْنِهِ ، وَهَذِهِ الْأَسْرَارُ الَّتِي تَرَكَّهَا فِي كَوْنِهِ هِيَ أَسْرَارُ لَا تُؤَدِّي ضَرُورَاتُ : إِنْ عَرَفْنَاهَا فَحَسْبُ سَمْعِهَا قَلِيلًا فِي الْكَمَالِيَّاتِ ، وَيَتَرَكَّ الْحَقُّ بَعْضَ الْأَسْرَارِ فِي الْكَوْنِ إِلَى الْعَقُولِ لَتَسْتَبْطِهَا ، فَالْشَيْءُ الَّذِي كَانَ الْعَقْلُ يَقِفُ بِهِ قَدِيمًا يَصْبِيحُ بِاكتشاف أسرار الله مقبولا ومعمولا ، كَانَ الشَّيْءُ الَّذِي وَفَّقَ فِيهِ لِعَقْلِ سَابِقٍ أَثْبَتَ الْأَيَّامَ أَنَّهُ حَقٌّ ، إِذْ ذَا لَا يَعْرِفُ مِنَ الْأَشْيَاءِ يُؤَخَّرُ بِهِذِهِ الْقِصَّةِ أَوْ عَمَّا أُتِيَ مِنَ الْخَيْرِ .

يقولون - مثلاً - اكتشف الميكروب على يد « باستير » ، لكن ألم يكن الميكروب موجودا قبل « باستير » ؟ كان الميكروب موجودا ، ولم يكن أحد يراه ؛ لأن الشيء إذا دق ولطف لا تقدر أن تدركه ؛ فليس عند الآلة التي تدركه ، ولم تكن قد احترضا المجهر الذي يكثر الأشياء الدقيقة آلاف المرات . وكذلك احترع الناس التلسكوب ، فبعد أن كان الشيء لا يرى لبعده ، أصبح يرى بواسطة التلسكوب ، وإن كان الشيء صغيلا جدا ولا نراه . فقد استطعنا أن نراه بواسطة المجهر المسمى « الميكروسكوب » .

وهو التلسكوب ، يقرب البعيد وهو الميكروسكوب ، يكبر الصغير فتري له حركة وحياة ، وبعد له مجالاً يسبح فيه ، وهذا جعلني إذا حدثني القرآن أن الله خلقا عاب عن الحس لا يدرك من جن وملائكة ، فلا أكذب ذلك ، لأن هناك أشياء كانت موجودة ولم تدخل تحت حسي ولا إدراكي مع أنها من مادي ، فهذا كانت الأشياء الأخرى من مادة أخرى مثل الملائكة من نور ، أو الحس من النار ، ويقول لي سبحانه إسم مخلوقون وموجودون فلما لا أكذب ما جاء من الحق ؛ لأن هناك أشياء من جسي كانت موجودة ولم استطع أن أراها

إذن فهذه قربت لي مسألة ، فعندما يقول الحق . « إن ينصركم الله فلا غالب لكم » فنحن نعرف أن نصر الله مترتب على أن ندخل المعركة وأنت تريد أن تنصر الله ، وتنصره بماذا ؟ بأنك تحقق كلمته وتعملها هي العليا . وليس هذا فقط هو المطلوب ، بل لتجعل - أيضا - كلمة الدين كمرورا السفلى

« وإن يخذلكم فخذكم من بعده » إنه في ظاهر الأمر يكون معاً ، لكننا نشعر أنه يخفى عنا ، لماذا ؟ لأننا ترك بعض من تعاليم الله ، إذن فهو المطهر العام معكم كمسلمين ، ومن صيرته لكم أن يؤدبكم على المحافظة فخذلكم عندما تخلفون عن أمره .

ونعظم الحق سبحانه الآية بقوله - « وعلى الله فليتوكل المؤمنون » وفي الآية السابقة قال سبحانه : « إن الله يحب المتوكلين » ، والذي لا يتوكل على الله عليه أن يرجع إيمانه .

وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّ وَمَنْ يَكُلَّ يَأْتِ بِمَا غَلَّ  
يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تَوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ  
لَا يُظْلَمُونَ ﴾ ١٦ ﴿

ما معنى « يَكُلَّ » ؟ أولا ، « العلول » هو لاخذ في الخفاء . وهو مأخوذ من « أعل الخازر » - أى الخزر - أى عندما يسلم الخلد يأخذ بعض اللحم مع الخلد ، ثم يطوى الخلد خفيا ما أخذه من اللحم ، هذا هو الأصل ، وأطلق شرعا على الخيانة في لعائن ، ففى هول المعارك قد يجد المقاتل شيئا ثميا فيأخذ هذا الشيء خفية ، وهذا اسمه « العلول » ، وأيضا كلمة « العل في الصلور » أى إخفاء الكراهية ، وكل المادة إخفاء .

والحق يقول : « وما كان لنبي أن يكُلَّ » لماذا ؟ لأن من اجتاز أن الرماة - فى غزوة أحد - ساعة رأوا الغنائم أقبلوا عليها ؛ لأن غنائم بدر لم تكن قد قسمت بين كل من اشتركوا فى القتال ، فالحدى كان يعثر على غنيمة كان يأخذها ، وكانت بدر أول معركة ، وكان الهدف من ذلك تشجيع المقاتلين . وكان الرسول صلى الله عليه وسلم : قد قال « من قتل قتيلًا فله سبه » .

وطى المقاتلون فى أحد أن المسألة ستكون مثل بدر ، وطى البعض أن الرسول لن يعطيهم غنائم . فبوضوح الحق سبحانه وتعالى بأن هذه مسألة وتلك مسألة أخرى ، فمن يعمل مثل هذا يكون قد عل . وساعة تسمع : « وما كان لنبي أن يكُلَّ » أى أن من طبعه صلى الله عليه وسلم ومن فطرته وسجيته ألا يتأق ذلك منه أبدا ، لكن من الجائز أن يحدث مثل ذلك من واحد من أمته ، إذن هناك فرق بين امتناع

المؤمن أن يكون غالياً ، أى يأخذ لنفسه شيئاً من العبيدة ، وامتناع الرسول أن يكون غالياً ، لأن طبعه وسجيته لا تستقيم مع هذه ، لكن الأمر يختلف مع المقاتلين ؛ فمن الممكن أن يكون أحدهم كذلك ، فبينما عمر في معركة الفرس ، حينها جاء جماعة تاج كسرى ، والتاج فيه كل النفائس وتلك سمة عظيمة الملوك ، فقال العاروق عمر . إن قوماً أقروا إلى أميرهم هذا لأسماء . فقد كان من الممكن أنهم يحضرونه

« وما كان لى أن يفل ، وساعة نسمع ، وما كان ، أى : وما ينبغي ولا يصح أن يكون ذلك الأمر ، وبعد ذلك يأتي بالحكم العام فيمكن أن يحدث خلل من أحد ويقول . « ومن يخلل يأت بما قل يوم القيامة » فالذى قل في حجة وتجان فيها يأتي بها يوم القيامة كما صورها الرسول صلى الله عليه وسلم :

« والله لا يأخذ أحد مكم شيئاً بغير حله إلا لقي الله بحمله يوم القيامة ، فلا أعرفن أحدًا منكم لقي الله يحمل بعيراً له رغاء أو بقرة لها خوار ، أو شاة تيعر ، ثم رفع يديه حتى رئى بهماض إبطنه يقول : اللهم قد بلغت »<sup>(١)</sup>

إن من يأخذ حراماً في خفية يأت يوم القيامة وهو يحمل البعير أو البقرة أو الشاة مثلاً . وآه لو كان ما أخذ حراماً فله سبق !!

لهذا كان سيأت بما قل يوم القيامة . فالذى أحده سيهضمه . ولذلك تسمى « الفاضحة » ، « العظيمة » . إذن فمن الممكن في الدنيا أن يأخذها خفية ويعمل . لكنه سيأت في يوم القيامة وهو يحمل ما أحده على ظهره ، ثم يقول منادياً رسول الله يا محمد يا محمد ، لأن كل مسلم قد علم وأطمأن إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رءوف ورحيم وأنه لن يرضى بهذه الحكاية ، لكن رسول الله أبلغ من عقاب من يفعل ذلك في حياته ، وعلى كل المؤمنين به ألا يفكروا في الغلول وأخذ المنفعة خفية .

ولماذا تكون الغنيمة في الحرب شراً ؟ لأن المقاتل يمشي أثناء القتال في مهمة أن

(١) « رواه البخاري ومسلم . ( في رُغاء ) يغم الرءاء صوت البعير . ( في خوار ) يغم الخلاء صوت البقرة ، ( لا كثير )

يصيح والبهار : صوت الغنم

تكون كلمة الله هي العليا فكيف يرضى لنفسه هذه المهانة وهي إخماء النعمة ؟ إنه يجازب من أجل أن تكون كلمة الله هي العليا ، ويجب أن يكون في مستوى ذلك .

وبعد ذلك يأتي الحق بالفضية العامة : « ثم نزل كل نفس ما كسبت » ، وهي تشمل القلوب في العزيمة والعلو في غير العزيمة ، ولنتصور هذه بالنسبة لكل من يكون أمانة أو ثمن عليها ، وأنه سيأتي يوم القيامة يحمل عبارة - مثلاً - لأنه بهاها بغير أمانة أو يحمل أمانة من سمك لأنه سرقها ، أو يحمل أمانة من الحبس المأسد التي استوردها . فكل من سرق شيئاً سيأتي يوم القيامة وهو بحمله ، وإذا كنا نشهد أن الناس لا تطيق أن تفضح بين الخلق ، والخلق يحسدون لأنهم الماصرون ، بما بالك بالفضيحة التي ستكون لعموم الخلق من أول آدم إلى أن تقوم الساعة إذن عمل كل إنسان أن يحرس نفسه لأن المسألة ستفضح .

« ومن يغفل يأتي في غل يوم القيامة ثم نزل كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون » ، وما دام سبحانه سيق كل نفس ما كسبت فكل سيأخذ قدر ما فعل ، فلا ظلم ، فلو ترك الأمر بلا حساب لكان هذا هو لظلم وحاشا لله أن يظلم أحداً . وبعد تلك التهيئة والإيضاح يقول سبحانه :

﴿ أَفَمَنْ أَتَّبَعَ رِضْوَانُ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَيَتَّبِعَ الْمُضِلُّ ﴾

والحق سبحانه وتعالى حين يطرح بعض القضايا طرح الاستفهام ، فهو يطرحها لا ليعلم هو فهو عالم ، ولكن ليستتقن السمع ، ونطق السامع حجة فوق حجة المخبر ، فلو قال : إن الذي يتبع رضوان الله لا يسأري من ذهب إلى سخط الله لكان ذلك إخباراً به وهو صادق فيها يقين ، لكنه سبحانه يريد أن يستتقن عباده بالفضية ، « أفمن اتبع رضوان الله كمن باء » ، « باء » أي : رجع « بسخط من الله »

لا شك أن كل من يسمع عن الفارق بين اتباع الرضوان ، أو الرجوع بالسخط يقول : إن اتباع الرضوان يرفع درجة الإنسان ، والذي يهوى بالسخط يهبط إلى درك الخسران ، فالقضية قاطبة السامع . . فكأن الحق يستطفا بالقضية لتكون حجة علينا ، والذي يتبع رضوان الله بالطاعة ، أمساويه من يرجع إلى سخط الله بالعصية ١٤

أفمن يتبع رضوان الله فلا يفل في الغيبة ولا يختار في الأمانة كمن غل في الغيبة وخاب في الأمانة ؟

أفمن اتبع رضوان الله بأن استمع لأوامر الله حين استغفره لجهاد العدو ، كمن لم يذهب لنداء الله ليكون في جند الله مقاتلا لعدو الله ، لا ؛ فقللى لا يستجيب لنداء الله هو من يهوى بسخط الله .

« السخط » هو : إظهار التفتيح ، لكن إظهار التفتيح قد لا يؤثر في أناس غليظي الإحساس ، لا تنفع فيهم اللعنة أو الشتائم ؛ لذلك جاء سبحانه بالحكم : « وملوء جهنم ويش المصير » و « ملوء » أي المكان الذي يارى ويرجع إليه هو جهنم ويش المصير . وبعد ذلك يقول الحق

﴿ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِعِيرٍمًا

يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

« هم درجات » أي يملون في الآخرة منازل على قدر أعمالهم ، فكما ترى الدرجات موصلة إلى المراتب العالية كذلك في الآخرة كل إنسان محاسب بعمله ، ويأخذ عليه درجة ، ولنا أن نلاحظ أن الحق يستخدم كلمة « درجات » بالنسبة لنسبة ، لأن فيها منزل ورتب ، أما لما يتعلق بالنار ، فيأتى لفظ « دركات » ،

فالدركة تنزل ، والدرجة ترفع

« هم درجات عند الله » فالحق هو لعادل الذي ينظر لحلقه جميعا عن أنهم حلقه ، فلا يفاضل أحدا ، إنه يحكم القضية في هذه المسألة سواء أكانت هم أم كانت عليهم ، وبعد ذلك يرد لها - سبحانه بقوله « والله بصير بما يعملون » ليظهر هؤلاء على أن الله بصير بما يعملون من يضيغ عنده عمل حسن ، ولن يهمل عنه سيئة بلرب منهم « والله بصير بما يعملون » . ونحن نسمع كلمة « يعمل » وكلمة « يعمل » وكلمة « يقول » ، والعمل أهم الأحداث ، لأن العمل هو تعلق الجارحة بما يبط به ، فالقلب جارحة عملها الية ، واللسان جارحة عملها القول ، والأذن جارحة عملها الاستماع ، والعين جارحة وعملها أن تنظر . إذن فكل جارحة من الجوارح لها حدث تنبئ به لتؤدي مهمتها في الكائن الإنساني ، إذن فكل أداء مهمة من جارحة يقال له « عمل » .

لكن « الفعل » هو تعلق كل جارحة غير اللسان بالحدث ، أما تعلق اللسان فيكون قولاً ومقابله فعل ، إذن فيه قول وفيه فعل وكلاهما « عمل » إذن فالعمل يشمل ويضم القول والعمل معا ، لأن العمل هو شغل الجارحة بالحدث المطلوب منها ، لكن العمل هو شغل جارحة غير اللسان بالعمل المطلوب منها ، وشغل اللسان بمهمته يسمى . قولاً ولا يسمى فعلاً ، لماذا ؟ لأن الإنسان يتكلم كثيراً ، لكن أن يعمل نفسه على أن يعمل ما يتكلم به هذه عملية أخرى ، ولذلك يقول الحق :

﴿ يَتَأَيُّبُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا لَا تَفْعَلُونَ ۖ كَثِيرٌ مَقْصِي عَنِ اللَّهِ ۖ

أَلَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۖ ۝﴾

(سورة الصف)

إذن فالقول مقابله لفعل ، ولكن عمل « والله بصير بما يعملون » قولاً أو فعلاً وبعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ  
رُسُلًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَزَكَّيَهُمْ  
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا  
مِنْ قَبْلُ لَعِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾

والذي يمن على الآخر هو الذي يعطيه عطية يحتاج إليها هذا الأحد ، فكان الحق  
يقول : وهل أنا في حاجة إلى إيمانكم ؟ في حاجة إلى إسلامكم ؟ أصعب من صفات  
معطاة حتى تأتوا أنتم لتكملوها ؟ لا ، إني حين أبعث لكم رسولا رحيا بكم ،  
فإنه تكون لي وحدي

«لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ،

أكان يبعث ملكا ؟ لا . بل بعثه من البشرية ، كي تكون الأسوة فيه معقولة  
فعندما يقول لكل مسلم اعمل مثل ، فالمسلم عليه أن يطبق ما يأمر به الرسول ،  
لكن لو كان ملكا أكانت تنفع فيه الأسوة ؟ لا ، فقد يقول لك : اعمل مثل ، فتقول  
له . لا أقدر لأنك ملك ، ومن يدعي الأهمية لرسول ، فهو ينفي عنه الأسوة ، لأنه  
عندما يقول . كن مثل ، يمكنك أن تقول : وهل تقدر ؟ أنت طبيعتك مختلفة ، فهي  
نصل لذلك ؟ لا تقدر ، ولذلك فالذين يقولون بالوهية رسول ، إنما يفقدون الأسوة  
فيه ، والمفهوم في لرسول أن يكون أسوة سلوكية ، وأن يكون مبعثا عن الله منهجه ،  
وأن يعمل بشريته ويقول : أن شر وأستطيع أن أمثل وأطبق المنهج . إذن فهو أسوة  
سلوكية تطبيقية

والرسول مبعوث للكل ، فلماذا كانت المنة على من آمن فقط ؟ لأنه هو الذي  
انتفع بهذه الحكاية ، لكن لباقي أهله وحققهم في الأسوة ولذلك تكون المنة على من  
آمن .



« لقد من الله على المؤمنين » وما هي المنّة ؟ المن . الأصل فيه أنه القطع ، لكن حين نسميها بجدتها تستعمل في أشياء متقابلة ، فمثلا . المن هو العطاء بلا مقابل ، والمن هو : تكدير النعمة بالسحدث بها ، مثل قوله تعالى .

﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَمْ يُؤْخَرْ لَهُمْ مِنْ ثَمَرِهِمْ شَيْئًا وَلَا يُؤْخَذُ بِهِمْ لِيُثَبِّتَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قُلُوبَهُمْ وَلَهُمْ جَزَاءٌ كَثِيرٌ وَلَهُمْ فِي اللَّهِ مَقَرٌ لَا يَبْغُونَ عَنْهُ ﴾ (سورة البقرة)

إذن قلنا الذي نحن بصدده هو العطاء بلا مقابل ، ولكن المن قد استعمل في تكدير النعمة بكثرة الكلام فيها ، فقد يقول الإنسان لمن يمن عليه : لا أريد النعمة التي تتكلم عنها دائما ، إذن قلنا استعمل في النعمة وفي تكدير النعمة ، تقول : من على فلان إذا ألقني من صبيك كنت فيه ، ويقال : فلان ليس فيه منة ، أي ليس فيه قوة ، وكلها تدور في معنى القطع ، وإذا استعمل في النعمة والعطاء يقول : نعم فيها قطع ، لأن النعمة جاءت لتقطع الحاجة ، ففيه حاجة ثم جاء عطاء ، والعطاء قطع الحاجة فاستعملت في معناها .

وإذا جاءت نعمة بعد حاجة والحاجة انقطعت بالنعمة فلا بد أن تأتي ضمن بعدها وهو أن تشكر من أكرم عليك ، وخصوصا أنه الله ، فالممن يقطع الشكر لأنك إن مننت بالنعمة وأظهرت تفصلك بها حل من أسديتها إليه فقد تسببت في أن الأخذ لا يشكرك بل إنه ينصاف من نعمتك وقد يردّها عليك . فإذن : هنا قطع للشكر ، وإن قطعت حاجة محتاج فهذا يسمى « نعمة » وإن بخرت بشيئك عليه حتى كثر بها فقد قطعت وسعت شكره لك ، وهذا يسمى « منة » أي أذى لأنه يؤذي مشاعر وإحساس الأخذ . وإن قطعت مطلقا احتضت باسم « المنّة » ، يقولون : فلان لا منة فيه أي لا قوة عليه تقطع في الأمور ، وهذا يقول : « لقد من الله على المؤمنين » و« من » هنا بمعنى أعطى نعمة ، والنعمة في الدنيا تعطيك على قدر ذنبك ، و« منة » الله برسوله صلى الله عليه وسلم تعطي عطاء على قدر الدنيا وعلى امتداد الآخرة ، فتكون هذه منة كبيرة .

« لقد من الله على المؤمنين » ، و« منة » بمعنى ساعة أي حين بعث فيهم رسولا

مهم فقد عمل عليهم مئة وقدم لهم ومنحهم جيلا كبير وأنعم عليهم نعمة ، « إذ بعث فيهم رسولا » . فإذا كان مطلق بعث رسول كى يهتدى الناس إلى منهج الله يكون نعمة فهذا إذا كان الرسول من أنفسهم ؟ إن هذه تكون نعمة أخرى لأنه مادام من أنفسهم ومن رعايتهم ومن جاعتهم ، هو معروف نسباً وحسباً ومعروف أمانة ، فلا يخون ، ومعروف صديقاً فلا يكذب ، كل هذه « مئة » ولم يتعب أحداً في أن يبحث وراءه - أكذب قبل ذلك حتى نعتبر ذلك كذب ؟. أمان قبل ذلك حتى نعتبر ذلك خيانة ؟ لا ، هل هو من الناس المدعى الذين يريدون أن يقيموا صرخاء من حولهم ؟ لا بل هو في الحسب والنسب معروف ، جده عبدالمطلب سيد البطحاء ولا يوجد واحد من أهله نافها

وعرف الجميع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمانة منذ صغره ، إذن فالمقدمات تجعل الناس لا يجهد نصها في أن تتحرى عنه أصادق هو أم غير صادق ؟ إذن فهو مئة ، ولذلك حين بعث الله سيد الخلق إلى الخلق ، كان هناك أناس بمجرد أن قال هم : إن رسول الله ، أموا به ، لم يقدم معجزة ولم يقولوا له : ماذا تقول أو ماذا تعمل ؟ بل بمجرد أن قال : إنه رسول الله صدقوه ، فعل أى حيلة استدلوا في التصديق ؟ لقد استدلوا على الماضي .

لقبتموه أمين القوم في صغر

ومب الأمين على قول بئتهم  
ما هو ذا سيدنا أبو بكر رضى الله عنه بقول . إن كان قد قال فقد صدق - إذن فالمقدمات التى يعرفونها عنه كانت هى الحجة في تصديق الرسول ، وحديجة - رضى الله عنها - عندما آمنت به ، أنال لها المعجزات والقرآن ؟ لا . بل بمجرد أن قال لها أنا رسول الله قالت له : صدقت فلا بد أن تكون رسولا ، هو نفسه كان يشكك وهى مؤمنة به ، هو نفسه يتساءل : لعل ذلك يكون كذا ، وذهبت به حديجة - رضى الله عنها - إلى ورقة بن نوفل لتطمئنه عن الرغم من أنها كانت قد توصلت إلى الحكم في القصة التى سألت عنها ورقة بن نوفل وأوضحت لرسول الله أن ما تقوله لا يمكن أن يوقعك في بلية أو خزي أو بلة ، لأن صفاتك جاءت كمتقدمات لهذه النتيجة ، وهى أنك رسول كريم « إئت لتحمل الكل وتكسب المعدوم وتعين على نوائب

الدهر ، والله لا يخزيك الله أبداً<sup>(١)</sup> ، إنسان بهذه الصفات لا يمكن أن يأتيه شيطان ، ونعل نذهب معاً لأهل الكتاب الذين لهم عدم هذه المسألة . كأنها آمنت برسالة رسول الله قبل أن يقول لها ورقة بن نوفل شيئاً .

إذن فقله : « من أنفسهم » أي معروف لهم ، قسم يأت لهم بواحد فقط عليهم من السماء ، وقال : هذا رسول ، لا إنه رسول « من أنفسهم » ، وهذه أول بينة ، « لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم » ، هذا إذ أُنذرت المحيط القريب أنه من الرهط ومن القبيلة ومعروف لهم ، « من أنفسهم » أو من جس وسوخ العرب ، وهذه أيضاً بينة ، فساعة أن يتكلم سيفهمونه ولا يحتاجون إلى وساطة أو ترجمة ، والرسول عندما يأتي ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، يريد أن يأت تفهم عنه ، فادّضح لهم لم أكلهمكم لتقولوا ماذا يريد ، لا ، هو من أنفسكم ، وهو إنسان له مواصفاتكم ، ولكنكم لهرط عنادهم لم يؤمنوا مصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ وَمِمَّنْ أَلْسَنَ أَنْ يُؤْمِرَ إِذْ جَاءَهُمْ أَهْلَتِي إِلَّا أَنْ قَالُوا أَيْتَ اللَّهُ بِشَرٍّ ﴾

رَسُولاً ﴿٥٦﴾

(سورة الإسراء)

إنهم يستكفرون كيف يبعث الله بشراً ويجعله رسولاً ، وهذا عبء في الاهتراء ، وبقا الرد الحميم من الله .

﴿ قُلْ تَرَكَا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنرْتَنَّا بِهِمْ مِّنْ أَلْسِنَةٍ مَّكَا ﴾

رَسُولاً ﴿٥٧﴾

(سورة الإسراء)

أنتم من البشر ، فلا بد أن تأتيكم برسول من جسكم ، حتى إذا قال لكم : افعلوا كذا تقولون نعم ؟ لأنه بشر ويعمل ونحن بشر نستطيع أن نعمل مثله . . لكنه لو كان ملكاً لقال الواحد منكم . وهل أنا أقدر أن أكون كذلك ؟ إذن فلا تنفع

هذه الحكاية ، وهكذا من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا ، « من أنفسهم » ، إن أحدثها على أساس أنها قبيلة محدودة ومعرفة فهي مئة ، وإن أحدثها على أنه من جنس عربي فيكون اللسان واحداً فهي مئة ، وإن أحدثها من الجنس العام وهو الإنسان فهي مئة أيضاً .

وهل اعتبار معنى واحد من المعاني يقتضى المعاني الأخرى أو ثلث كلها في سلك واحد ؟ إنها معاني ثلث كلها في سلك واحد ، لأن المتكلم هو الله ، وما دام المتكلم هو الله فيكون عطاه اللفظ أكثر من عطاه ألفاظ الخلق ، ولقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم ، وهذا قراءة . وإن كانت قراءة شاذة . تقول : « من أنفسهم » ( يمنع الفاء ) أى من أشرفهم لأنه من بنى هاشم وهم أفضل عرب ، وقريش أفضل العرب

ومادا يعمل لرسول ؟ يفهم من قوله . « رسولا » أنه لا يأتي بشيء من عنده ، بل هو - مع هذه المرة الحسنة يحلف الجميل وماصيه الناصح - هو مع هذا رسول وليس له في الأمر شيء ، إذن فمرسله حرمه ، فلا تنسب إلى هذا الرجل العظيم فحسب بل يجب عليك أن تسأل . من أين جاء ؟ لا بد أن تلتفت إلى أن الذي بعثه أعظم منه .

« رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته » ، وكلمة « يتلو » يعنى يقرأ لأن الكلمة تتلو الكلمة ، فالذى يقرأ أى ينطق كلمة بعد كلمة ، كلمة تالية بعد أخرى « يتلو عليهم آياته » وكلمة « الآيات » - كما تعرف - تستعمل للأمور العجيبة ، اللاتية للنظر ، تقول مثلا : فلان آية في الحس . أى حسنة لاحت للنظر . وتقول : فلان آية في الذكاء ، صحيح أن هناك أذكاء كثيرين ، لكنه آية في الذكاء . . أى أن هذا الإنسان أمره عجيب في الذكاء ، إذن فكلمة « آية » معناها : الأمر العجيب ، وهو الذى يقف الإنسان عنده وقفة طويلة ليتأمل في عجائه .

والآيات نوعان : آيات منظورة في الكون مثل قول الحق :

﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَلَيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ

رَأَيْبُدُوا لِلَّهِ الَّذِي حَقَّقَهُ إِنْ كُنتُمْ إِلَيْهِ تُعْذِرُونَ ﴿٢٧﴾

(سورة فصلت)

وكل ظوهر الكون تعتبر أشياء عجيبة . والنوع الثاني . هو آيات القرآن مثل قوله الحق :

﴿ وَإِذَا هَدَيْنَا آيَةً مُصَحَّحًا آيَةً رَأَوْهُ أَصْحَابُ يَمَّا يُزِيلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ  
بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

(سورة النحل)

إذن فالآيات هي الأمور العجيبة وهي فسيان : منظور ومقروء ، المنظور : كل الكون ، والمقروء : هو القرآن ، فالقرآن يفسر آيات الكون ، وآيات الكون تفسر آيات القرآن ، والرسول جاء يتلو آيات القرآن ، وكانت عجيبة عليهم ، لكن الآيات الأخرى التي في الكون بشاهدونها ويرونها ، لقد جاء الرسول بآيات مقروءة لينتبه الناس إلى الآيات المنظورة ، وبذلك الآيات المنظورة يكون العجب من دقة خلق الكون ، فيستهي الإنسان إلى الإيمان عن خلق هذا الكون

إن الحق يقول عن الرسول : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم » والمساءلة ليست أنه يتلو الآيات ليعجبوا منها فحسب ، لا . فالرسول له مهمة إيمانية تلفت كل سامع للقرآن إلى من خلق ذلك الكون الحاصل البديع الذي فيه الآيات للعجيبة . ثم يعطى الرسول من بعد ذلك المنهج الذي ياسب جمال الكون ، إذن فالرسول ينقل المؤمنين إلى المنهج الذي يركى الإنسان ، وأنت إذا سمعت كلمة « يزكيهم » فأنت تعرف أنها من الركعة . والركعة أول معانيها : التطهير ، والتنقية ، والنها . والآيات التي جاء بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما جاءت لتزكيهم .

وهذا التطهير لمصلحة المظهر أو المظهر ، إنه لمصلحة المظهر . التنقية والنها لمصحتكم أنتم وهذا لا يشكك في التكليف ، لأن التكليف لم يأت للمكلف ، إنما جاء للمكلف ، وأصرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - فالرجل يكون مهوور الخلال وعنده مال وعنده عقارات وأطباء ، وبعد ذلك يجب لأولاده أن يجمعوا في المدارس

فيشرحهم قائلا لكل منهم . إن نجحت فسأفعل لك كذا . هو لا يريد منهم شيئا  
لنفسه ، فعنده النعمة الكافية ، هو يريد - فقط - مصلحتهم هم .

إذن فالمكلف لم يستفيع سكره أبدا ، فالنعمة لصالحنا واستظهر لصالحنا والثناء  
لصالحنا - ولتركية هي . تطهير وتنقية وثناء - ولتنظر إلى الخلال التي كانت جاهلية  
عليها . هل كانت طاهرة ؟ هل كانت نقية ؟ هل كانت بامية ؟ لم يكن بها وصف من  
تلك الأوصاف ، لأنها جاهلية ، فكلهم محكومون بالهوى والخرور والسلطان  
والفهر ، ونعرف أن أول ما يهتم به الإنسان هو أن يسبق حياته وبعد ذلك يستفي  
نوعه ، وبعد ذلك يستديم ما حوله ، والتركية شملت كل أمر من هذه الأمور ،  
تركية في الإنسان نفسه ، في ذاته ، بدلا من أن يكذب لسانه طهره عن الكذب ،  
بدل أن تمتدح به إلى محرم غيره طهر عينه من النظر للمحرمات ، وبدلا من أن تمتد  
بده حمية وتسرق فهو لا يفعل ذلك

والسرفه - كما تعلم حتى عند من يسرق - بقبصة ، بدليل أن اللص يتراوى  
ويحاول أن يسترها وألا يراه أحد ، لأنها رهيلة ونقبصة ويأتى المنهج فيقول له :  
لا يسرق ، ويظهر المنهج حركة حوارح الإنسان في الأرض ، ويظهر قلبه من الخقد  
كما يعيش مباحا ، ونفى هونه مصورة للعمل الخاد المنمر ، فلم يبدد قوته ، ولم يبدد  
نظراته ، ولم يبدد علاقته بالناس ؟

إذن ما المنهج يسمى الإنسان ، إنه تطهير وتنقية وثناء له ، وبعد ذلك عندما يصيب  
الإنسان بالعجز وعدم القدرة ، فلم يستبدل العجز لكي يعطيه لقمه . لقد ركاه المنهج  
من هذه وقاء من الدنة وحمل له في مال الصدر حقا ، والمقادير هو الذي يبحث عن  
الضعيف ليعطيه حقه ، لأن العاجز عندما يرى كل المؤمنين حوله قادرين يبحثون عنه  
ليعطوه حقه وليس مجرد صدقة يتصدقون بها عليه حينئذ يقول . أنا لست وحدي في  
الكون أنا في الكون إعلان وإعلان ، فتكون تسمية له ، مادام الكل يعطيه

لما عن بقاء النوع ماذا يعني ؟ إن الحق يريد طهارة الإنسان والدرية التي تأتي وأن  
يجعل لها وعلة شريفا عذيفا ، وإطارا لا تشوبه شائبة فجاء المنهج بيزكيكم في كل

شيء ، يركب حركات جوارحككم فلا تنجبه الحركة إلا لتحقيق المطلوب منها عند من حدقها ، فالخالق قد أوضح . يا عين حدودك كذا ، يا سنان حدودك كذا ، يا يد حدودك كذا ، يا رجل حدودك كذا ، يا قلب حدودك كذا ، فالذي خلق كل جارية هو الذي أعطى لكل منها حدودها فلا تتجاوز ولا تهون ولا إفراط ولا تفريط . فإن حرجت عن غير ما وضع لها في مهبج الله فقد خالفت . وهكذا نرى أن المنهج قد جاء يزكيكم أي يطهركم ويصفيكم ويمسككم في كل مجال من مجالات الحياة .

« ويعلمهم الكتاب والحكمة » وساعة يقول الحق : « الكتاب » فهو يقصد الكتاب المنزل إنه القرآن ، والحكمة هي السنة . والحق يقول :

﴿ رَأَدُّكُمْ مَّا يَتَّبِعُ فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ ءَايَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا

نَجِيرًا ۝ ﴿

( سورة الأحزاب )

وآيات الله معروفة وهي آيات القرآن ، والحكمة هي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهو يقول الحق : « يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب » ، إذن فالكتاب هو القرآن ، سيتلو عليهم آيات القرآن وبعد ذلك يعلمهم ما جاء في هذا الكتاب . بعض المفسرين قال : لا بد أن يحمل « الكتاب » هنا على معنى آخر غير القرآن ، فقالوا - الكتاب بمعنى الكتاب ، وأول حمل راولوه في الكتابة كتابة المصحف . إذن عالتقى المعنيان ، ولذلك في عروة « بدر » كان يتم فداء الأسرى إما بالنال وإما أن كل أسير يجيد القراءة والكتابة إذا أراد أن يفتدى نفسه فعليه أن يقوم بتعليم عشرة من المسلمين القراءة والكتابة فقد كانت الأمة أمية يقول سبحانه وتعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ

الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ۚ ﴿

( من الآية ٢ سورة الجمعة )

لذلك نجد أن تفسير الكتاب بالكتابة هو المناسب للأمية ، أوحده هذه المعطى على أساس أن هناك فرقا بين التلاوة والتعليم ، التلاوة يتلو عليهم ، أى أن الرسول هو الذى يتلو ، والتعليم يكون بأن يتلوا هم القرآن . « ويعلمهم الكتاب والحكمة » « وعلم » أى نقل العلم من مُعلم إلى مُعلم

ويختص الحق هذه الآية بالقول الكريم « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » وهناك أساليب تأتي في القرآن فيها « إن » ونجد كل « إن » في موضع ها معنى يختلف عن الآخر ، فعلا تأتي « إن » شرطية ، يعنى يأتى بعدها فعل شرط وجواب شرط مثل قوله الحق

﴿ إِنْ يَسْكُرْ قَرَحَ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴾

( من الآية ١٤٠ سورة آل عمران )

أى إن يمسكم قرح فلا تيأسوا ولا مبتهسوا . فقد مس لقوم قرح مثله ، وقوله الحق .

﴿ إِنْ تَبَدُّوا أَنَصَدَقْتِ فَعِمَّ هِيَ ﴾

( من الآية ٢٧٦ سورة البقرة )

إنا هنا نجد أن « إن » شرطية ، فعليه شرط وجواب شرط ومرة يأتى « إن » ، وبعدها « إلا » ،

﴿ إِنْ أَمَّهُتَهُمْ إِلَّا النَّفْسُ وَلَدَهُمْ ﴾

( من الآية ٢ سورة المجادلة )

وهو سبحانه يتكلم هنا عن الذين يظهرون من مسألتهم ، أى يقول الرجل لامرأته - أنت عني كظهر أمي ، إن أمك هي التي ولدتك وامرأتك لم يلدك ، ولو كانت أمك لكات محرمة عيب . « إن أمهاتهم إلا اللاتي » ، فعندى هنا « إن » وبعدها « إلا » وما دام جاءت « إلا » فالذى بعدها يكون مشتا ، والذى قبلها يكون متصفا ، مثل قولنا « ما قام القوم إلا زيدا » إن زيد ، يختلف عنهم . « إن أمهاتهم إلا اللاتي ولدتهم » أى ما أمهاتهم إلا اللاتي ولدتهم ، إذن « إن » هنا ليست



شرطية لكنها هنا « إن » الدالة وتعرفها بوجود « إلا »

ومرة ثالثة ثان « إن » لا هي شرطية ، ولا هي نافية مثل أيها هنا « وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين » ونقول : هذه « إن » التي هي تعريف « إن » أي « إن » هنا مخففة من التثنية ويكون المعنى وإن لحال والشأن والقصة والواقع أنهم كانوا في ضلال مبين . ويقول النحاة : اسمها صمير الشأن - أي الحال والقصة - وهو محذوف .

وما هو الضلال ؟ يقولون . حل فلان الطريق أي شئ في مكان لا يوصله للغاية ، أو يوصل إلى صد العاية ؛ لأن الضلال في الدنيا والأمور المادية قد لا يوصل إلى مايقى المرجوة ، وقد لا يوصل إلى الشر منها أو لمقابلها ، لكن في الأمر القيمي ماذا يفعل ؟ إنه لا يوصلك إلى العاية المرجوة وهي الجنة فحسب ولكنه يوصل للمقابل وهو النار ، هذا هو الضلال المبين ، إنه ضلال واضح ؛ بدليل أن النفاذ التي جاء الإسلام ليظهر الإنسان منها ، بحت مرتكبها ألا تعلم عنه وسط الناس ، فالسارق يسرق لكن لا يجب أن يعرف الناس أنه لص ، والكاذب يكذب لكن لا يجب أن يعرف الناس أنه كذاب ، بدليل أنك عندما تقول له : يا كذاب تكون له صاعقة . إذن حاليقة تفعل وصاحبها لا يريد أن يراها أحد لو يعرف بها

« وإن كسوا من قبل لفي ضلال مبين » أي ضلال ظاهر وهو ضلال يعرفه صاحبه بدليل أننا قلنا في قصة سيد يوسف ؛ حيث نجد في القصة اثنين من انفتيان قد دخلوا السجن . وماذا حدث هما ؟

وَدَخَلَ مَعَهُ آيِسَجَرٌ مِّنْ بَنِي إِدْنَ أَرْنَى أَخَصْرُ حَرّاً وَقَالَ  
الْآخَرُ إِنِّي أَرْنَى أَهْلَ قَرْفٍ رَّأَى خَبْرَ تَسْكُلُ الطَّيْرِ بِتَشَا وَشَلْرِ بِه  
إِنَّا مَرَنَكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾

( سورة يوسف )

لقد راوا في يوسف عليه السلام كان عنده ميراث الإحسان فهو يعرف الحسن والقيبح ، ولأنها يعرفون ميراث الإحسان فلا بد أن تكون المسائل بالنسبة لها واضحة . ولماذا لم يقف واحد منها من قبل ؟

لقد شهدا هذه الشهادة لسيدنا يوسف لأنها يطلبان الآن مشورته في تأويل الرؤى . كان يوسف عليه السلام مسحون ، ولم ينظر إليه أحد إلا كمسجون . ومن سلوكه معهم في السجن عرفا أنه طيب وعسى . ولذلك التفتا إليه ورأيا فيه أنه قادر على تأويل رؤيا كل منهما . مثلما قلنا . إن المنحرف عنه يعرف قيمة العصيلة . وهكذا نجد أن القصيدة مسألة ذاتية وليست نسبية ، أي أنه حتى المنحرف عن العصيلة يرى العصيلة عسيلة

وبعد ذلك يعود الحق إلى قضية عحية ، فإذا كان الله سبحانه قد من عن المؤمنين بالرسول ، ومن أنفسهم ، وجاء يتلو عليهم آيات الله ، وجاء يركبهم طهارة وتقاء وغناء ، وجاء ليعلمهم الكتاب والحكمة وهي وضع الشيء في موضعه . أو البحث عن أسرار الأشياء كان يجب عليكم - إذن - أنه إذا قال قولة لا تحالوا بها أبدا ، وعندما يجري على يديه أمر فهو لا يحتاج إلى مناقشة ، إذن فما حكايتهكم ؟

بقول الحق :

﴿ أَوَلَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مَثَلِيهَا  
قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ  
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (١٦٥)

لماذا تقولون كيف يهزمتا الكفار ؟ لقد حدث لكم ذلك لأنكم حالفتهم الرسول الذي من ربكم به عليكم ، وأتاكم ، وزكاكم ، ويعلمكم الكتاب والحكمة ، كان

مقتضى ذلك أن كل ما يقوله الرسول الذي هو بهذه المواصفات أن تطيعوه ، ولا تقولن أحدكم : لماذا تحدث هذه الهزيمة ؟ ولا تقولن أحد لماذا حكاية أحد وكيف يهزمنا الكفار ؟ إن هذا لا ينسجم مع ما قيل من أن الله من عليكم ويعدّ فيكم رسولا ، ثم إن أخذنا ليست مصيبة بادرة ، بل مصيبة جاءت بعدما أصبتم من أعدائكم مصيبة ، ونلتهم منهم ضعف ما نالوا منكم

فأنتم بدأنتم بيدروا أعطاكم الله الخبر . أنتم قتلتم سبعين وأسرتهم سبعين ، وهم قتلوا سبعين وم يأسروا أحدا في «أحد» ، أنتم أخذتم عنائكم في بدر ، وهم لم يأخذوا أى غيمة في أحد ، ما المعجبة في هذه !! كان يجب أن نبحثوا في دوائكم وفي نفوسكم ، هل كنتم منطقيين مع إيمانكم ومع قيادة الرسول لكم ؟! أياكون منكم ذلك السؤال وهو «أى هذا» ، لأن «أى» معناه استنكار أن هذا يحدث أى من أهل أصابنا هذا لانهرام والقتل وبس نقاتل في سبيل الله وفيما التى والروحى وهم مشركون ونقول لكم : وهل كنتم على مستوى الإيمان المطلوب ؟ إن مستوى الإيمان المطلوب يقتضى منكم أن تنفذوا ما قاله الرسول ، وأنتم لم تكونوا على هذا المستوى ، الذى كنتم عليه في بدر

وساعة تسمع «أول» فهناك همزة الاستعظام ثم «وار عطف» ، «أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها فكنتم فى هذا» ، «ولما» هنا هي الحبيبة ، ماذا يكون المعنى ، لقد أمتتم بالله إياها وأمتتم بارسول ميلها ، أحيى تصيبكم مصيبة قد أصبتم مثليها تقولون أن هذا ؟

كان المنطق ألا تسألوا هذا أسوأ أبدا لأنكم أمتتم بإله عادل له سر لا تبدل ولا تتحول . أكان يترك السن من أجلكم ؟!

﴿سُورَةُ التَّوْبَةِ مِمَّا قَبْلِ وَلَمْ يَجِدْ لِسَةِ اللَّهِ مَكِيدًا﴾

(سورة الأحزاب)

وفي موقع آخر من القرآن يقول سبحانه -

﴿ وَلَا يَحِثُّ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَقْلِهِمْ نَهَلْ يَسْهُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَحْدُ  
لُسُنَّتِ اللَّهُ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَحْدِلْ سُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴾

( من الآية ٣ سورة فاطر )

فلو أنكم استحصرتهم بالإيمان بالإله الذي أطلق السنن في الكون ليسوسن به أمر ملكه بما يحقق أمر المصلحة لما قلتم هذا وما دعتم قد آتتم بأن الإله هو الذي صنع تلك السنن فكان الواجب عليكم أن تعلموا أن الإله من يملككم بإبطال منه من أجل أنكم سبتم إليه لولا بأنكم مسلمون ، فإنكم إن خالفتم حسن الله واقعة ، وكان يجب أن تفهموا هذا الأمر ، وكان يجب ألا تسألوا هذا السؤال ، وقد آتتم بالله إلهاله سنن ، وآتتم بالرسول الملحق عن الله . أحيى نصيبكم مصيبة مع هذا الإيمان قد أصبتم مثلها ، تقولون . أن هذا ؟ أنتم حدثتكم أنكم أصبتم خصوصكم ، وبإيتكم أصبتموهم بمثل ما أصابوكم به بل أنتم أصبتم مثلها ، كان يجب أن تفارنوا لماذا أصبتم مثلها من قبل ، ولماذا أصبتم الآن ؟ كان يجب أن تعرضوا حكمكم على الموارين الإيمانية ، فإن عرضتموه على الموارين الإيمانية لما سألتكم هذا السؤال . « لى هذا » ..

وساعة تسمع « أن هذا » عليها معيان : إما أنها تأتي بمعنى ( كيف يحدث هذا ) ؟ وإما بمعنى ( من أين يحدث هذا ) ؟ فإن كانت لأحيان ونحب أن تعرف ، مثلها أحب سيدنا زكريا أن يعرف . من أين يأتي الرزق لسيدتنا مريم وهى في المحراب .

﴿ كَلَّمَاهُ فَطَهَّرَ زَكِيًّا الْبَحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَ رِزْقٍ قَالَ يَنْحَرِّمُ أَنْ لَكَ هَذَا  
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

( من الآية ٣٧ سورة آل عمران )

أى من أين ؟ وتأت مرة أخرى بمعنى « كيف » .

﴿ أَوْ كَأَنَّكَ لَمِنَ الْغَابِطِينَ ﴾ وَهِيَ خَلْقٌ عَلَى عُرُوشِهِمْ قَالَ أَيْنَ نَحْنُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يُدْعُونَ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ يُخَذِّلُ اللَّهُ لَهُمُ الْقَوْلَ وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ ﴿٢٥٩﴾

( من الآية ٢٥٩ سورة البقرة )

أى كيف يحبى ؟ إذن فمرة تكون بمعنى « من أين » ، ومرة تكون بمعنى « كيف » ، والذين دخلوا معركة أحد كانوا ينكرون ويستعجبون لعدم انتصارهم . فاصح لهم الحق . لو كنتم مستحضرين قصة الإيمان بالله عدل وضع في كونه لنا وهو لن يغير منه ولن يحوّلها من أجلكم أنتم ، إن عليكم أن تعرفوا أن الله لا يتعب من أجل أحد ، ولكن يجب أن تتفبروا أنتم من أجل الله .

« أَوْ لَمْ أَصِيبْكُمْ بِمُصِيبَةٍ قَدْ أَصَابَكُمْ مِثْلُهَا » و « لَمْ » بمعنى « حين » ، واسمها : « لما الحنية » و « لَمْ » تكون أَيْضاً من أدوات وهوامل الحرم مثل « لَمْ » تسمى ، و « لَمْ » أيضاً تسمى مثل قوله الحق .

﴿ وَتَدْخُلُ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ﴾

( من الآية ١٧ سورة الحجرات )

أى أن الإيمان لم يدخل قلوبكم بعد ، إنما من الحائز أنه قد يدخل بعد ذلك ، هذه اسمها « لَمْ » الجازمة وهناك « لَمْ » الشرطية مثل قولنا ، لَمْ يقوم زيد يحدث كذا ، وهذه فيها شرط ، وفيها الرمن . أى حين يقوم يحدث كذا ، مثل قوله الحق .

﴿ قُلْ أَتَسْمَعُونَ مَاذَا يَنطَلِقُ الْإِنسَانُ ۚ إِنَّ يَسْمَعُونَ كَلِمَاتٍ يُؤْذِنُهُ أَتَىٰ بِطَابَاطِثٍ ۚ لَّهُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ يَوْمَ يُنْفَخُ الْأَشْجَارُ إِلَّا الْأَشْجَارَ الَّتِي لَا يَمَسُّهَا الْإِنسَانُ وَلَا الْإِنْسَانُ وَلَا الْأَنْعَامُ ۚ أَلَمْ يَجْعَلْ لِّلْإِنسَانِ سَمْعًا ۚ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُ عَن شَيْءٍ لَّقَدْ صَدَقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّ الْإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَاجٍ ۚ ﴾ ( سورة الصافات )

أى حين أسمع وتله للجين وبأدبنا أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا أى بديننا ، والواو هنا مفتحة مثلها في قوله تعالى : « حتى إذا جاءهم » وفتحت أبوابها وقال لهم حزننها ، أى قال لهم ومعنى مفتحة : جىء بها للتوكيد والتفوية . أو جاءت الراو ها لتفيد أن نداء الله لسيفنا إبراهيم جاء مصاحباً لإنفاء ابنه إسماعيل على وجهه ليذبحه

فـ « لَهَا » هذه وفي الآية التي نحن بصددناها هي « لما الخبئية » ، أي حين تصيبكم  
 أي أوقت تصيبكم مصيبة قد أصبتم مثلها « قلتم أن هذا » كان يجب أن تقاربوا  
 لماذا أصبتم في بدر من عسوكم ضعف ما أصابكم ، ولماذا أصاب عدوكم مكم  
 يوم أحد هذا ؟ كان يجب أن تسألوا أنفسكم هذا السؤال ، لأن الميراث مصوب  
 وموضوع ، وماذا منم تعاملتم عن هذا مسياق لكم الرد قل يا محمد لهم رداً عن  
 هذا . « هو من عند أنفسكم » . لقد حالتم عن أمر الرسول ، وماذا منم حالتم عن  
 أمر الرسول فلا بد أن يحدث هذا بمقتضى إيمانكم بإله له منى لا تتحول ولا تتبدل .  
 « أو لما أصابكم مصيبة قد أصبتم مثلها قلتم أن هذا قل هو من عند أنفسكم »

وبعد ذلك تذيل الآية بقوله سبحانه . « إن الله على كل شيء قدير » .  
 فيما موضعها هنا ؟ موضعها أنه ما دامت لله منى ، ومن الله لا تتبدل ، والله  
 موصوف بالقدرة العريضة له على يأتي إله آخر ويقول . نضل هذه السن . وماذا  
 لا يوجد إله آخر يقول ذلك فهو سبحانه قدير على كل شيء ، وهو قدير على أن تظل  
 سنته دائمة ، ولا توجد قوة تزحزح هذه القضية ، لأن السن وصفها الله . فمن  
 الذي يغيرها ؟ إنها لن تتغير إلا بقوة أعلى ومعاذ الله أن تكون هناك قوة أعلى من قوة  
 الله ؛ لذلك يوضح سبحانه . أنا قدير على كل شيء ، وقدير على أن أصون سننى في  
 الكون ، فلا تتحلف ولا توجد قوة أخرى تحول هذه السن أو تبدلها .

ولا تظنوا أن ما أصابكم جاء فقط لأن السن لا تتغير ، لا . بهذا قد حدث بإذن  
 من الله ، فالله أوضح للكون . من يخالف أمرى أفعل فيه كذا . إذن ما يكون لم  
 يحدث . فيه شيء . دور علم الله وإدبه .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّتَىٰ أَجْمَعِينَ فَيَا ذِي الْقُرْبَىٰ  
 وَلْيَعْلَمْ الْمُؤْمِنِينَ ﴾

أى أنه سبحانه قد جمع المؤمنين وجمع الكافرين في أحد يأذن منه ويعلمه والنتيجة معروفة عنده ، وأن سيحدث معكم كلها وكذا ، إذن فهذا أمر معلوم ، أو « يأذن الله » أى فى انفس الناس لا تتخلف ، فالمسألة لم تأت بغير علم الله ، لا ، لقد جاءت يأذن الله ولا تتخلف - تطبيقاً - عن أحب من خلقه أبداً منها كانت مرلته .

« وما أصابكم يوم التقى الجمعان فيأذن الله وليعلم المؤمنين » ساعه ترى أمر أجراء الله ليعلم الدين ناهقوا ، وليعلم المؤمنين ، يعرف أن الله عالم بهم قبل أن تقع الأحداث ، ولكن علمه لا يكون حجة على الغير إلا إن حدثت به بالفعل ، لحوار أن يقول : يا رب أنت حاصبتنى بعصمت أن هذه سيحدث ، لكن ما كنت لأفعله . فيوضح الحق . لا . أنت قد عصمته لأنك فعلته وصار واقعاً منته وتقرم به الحجة عليك .

وأمر به المثل - والله المثل الأعز - أنت كمعلم تقول لوحد من الطلبة : أنت راس ، يقول لك : لا ، لا بد أن تحتصى . تقول له : أما أصرف أنك راسب . فيقول لك : أنا لا آخذ بعلمك بل لا بد أن تحتصى . تقول له : نعال أمتحك ، ونعطيه بعض الأسئلة فبرسب . وهنا يصير علمه برسوبه أمر واقعاً ، وهو كان يعلمه سبق علم ، لكنه الآن لا يقدر أن يحادل لأن صار واقعاً محسوساً

ويقول الحق : « وليعلم المؤمنين » ومنهم الثابت الإيمان الذى لا يتزعزع ويعصم أنه إذا أصابه مصيبة بما قدم لنفسه ، هذه المصيبة ترده إلى الله . ويقول الحق من بعد ذلك .

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ نَعَالُوا أَفْتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ أَدْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعَصَمُ مَا لَا آتِئَانَكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ

## بِأَقْوَاهُمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٧٧﴾

وقوله : « وليعلم الذين نافقوا » أى يجعلهم يظهرون ويكتفون أمام الناس ، ولا لو لم تحدث هذه الأحداث فكيف كنت تعرف المنافق ؟ سيستر نفسه لا بد إذن أن تأتي أحداث لتظهره وبصحة ، فامسحوا براؤغ ، لذلك يأتيه آخر بأحداث ليظهر على حقيقته ، وقد كان

« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا » وكانت المدينة مهاجمة ، وإذا انتصر الكفار فسيدخلون ويشنون ويأخذون المسلمين أسرى ويعملون كل منكر !! فقال عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري لسائقين : « اخرجوا وقاتلوا معنا ، وإن لم تخرجوا لتقاتلوا معنا . اخرجوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن أموالكم وعن سائكم » لأنهم إذا انتصروا على المسلمين فسيدخلون ويقعون كذا وكذا ، إنه دعاهم إلى القتال على طريق إثارة الحمية والألفة فيهم وذلك بعد أن ينس من أنهم لم يقاتلوا في سبيل الله ، ولما رأى صرارهم عن عدم الخروج قال لهم عبدالله : « ذهبوا أعداء الله فسيغنى الله رسوله عنكم »

إذن ففيه فرق بين القتال في سبيل الله وبين الدفاع عن النفس فقال : « قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا » . أو ادفعوا عنا ولو بتكثير سوادنا وإظهار أكثرنا حتى يظن المشركون أن معنا أناسا كثيرين « قالوا لو يعلم قتالاً لا تبعناكم » وعندما نتابع هذا المنطق في القصة في ذاتها نجد أن « ابن أبي » كان من رآه أن يظل رسول الله في المدينة لماذا ؟ لأنه قد نلت بالتجربة أنه إذا جاء قوم ليخربوا على المدينة ودخلوها فاهل المدينة ينتصرون عليهم ، وإذا خرج لهم أهل المدينة فهم يهزمون .

إذن فالفضية واضحة في ذهن ابن أبي ، فهو يرض أن يخرج لأن التجارب أثبتت له أنهم إذا خرجوا من المدينة ليحاربوا العدو فعدوهم ينتصر عليهم ، وإذا ظلوا انتصروا ، إذن فهو واثق من نتيجة الخروج ، ولكن مادامت المسألة قد صدرت من رأس الاتفاق عبدالله بن أبي فأت لا نستطيع أن نحكمم بين الحق ، فمن الجائز أن آثار



يوم هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة هذه الأثار كانت باقية في نفس « ابن أبي » ففى ذلك اليوم الذى جاء فيه الرسول إلى المدينة كان هو ليوم الذى كان سيتزوج فيه المنافق « ابن أبي » ليكون ملكاً على المدينة ، فلما جاء الرسول هذا الحدث الكبير تغير الوضع وصار الناح من غير رأس تلبسه ، فهذه قد حمى في نفسه

« قلوا لو تعلم قتالاً لا تبعناكم » لقد ادعى ابن أبي أن الخروج من المدينة هو كإلقائه إلى التهلكة وليس قتالاً ، لأن القتال تدخله وعدك مظنة أن تنتصر ، إنما هذا إلقاء إلى تهلكة وليس قتالاً ، لكن أقا : « لو تعلم قتالاً لا تبعناكم » وهو صادق ؟

إن الحق بمصحبهم - « هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان » ، فقبل ذلك كانوا في مقام مستور ، ومادام النفاق مسوراً فاللسان يقول والقلب ينكر ويجهل ، هم مدبسون بين ذلك ؛ لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء ، هذه المأكة جعلته قريباً من الكفر الظاهر .

« يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » . إذن فالقلب عمله النية الإيمانية ، واللسان قد يقول ولا يفعل ما يقول ، ولذلك فلهذا : إن المنافق موزع النفس ، موزع الملكات ، يقول بلسانه كلاماً وقلبه فيه إنكار ، ولذلك سيكون في الدرك الأسفل من النار ؛ لأنهم عشاؤون ، ونفوسهم موزعة .

« يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » ، والمول ضرورى بالقلم ؛ لأن القول يطلق ويراد به البيان عما في النفس ، فتوصيح الإنسان لما في نفسه كتابة ، يعتبر قولاً - لغة - ولذلك فالذي يستحي من واحد أن يقول له كلاماً فهو يكتبه له في ورقة ، ساعة يكتب يكون قد نال ، وهؤلاء المنافقون يقولون كلامهم لا بواسطة كتاب بل بواسطة أفواههم . وهذا تبجح في النفاق ، فنوكنوا يستحون لهمسوا به . « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » إذن فاللسان لم يمتق مع القلب فالقلب معقد ومصر على الكفر - والعباد بالله - واللسان يتبجح ويعلى الإيمان .

ومعرف أن « الصلح » هو أن يوافق القول الواقع ، والواقع في القضية الإيمانية بية في القلب وحركة تثبت الإيمان ، أما المنافقون فليس لهم لا يوافق قلبهم ، فلما كان ما في القلب مستورا ثم ظهر إلى الجوارح انكشروا . وهذا هو السبب في أنهم كانوا أقرب إلى الكفر ، « يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم » وهذا كون من نقص التصور الإيماني في القلب ، كأنهم يعاملون الله كما يعاملون البشر مثلهم . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿ الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُوا مَا قُتِلُوا قُلْ قَادَرَهُ وَأَعَنَ أَنْفُسَكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٩٦٨

فعندما أراد ابن أبي أن يمدد الجيش ، وافقه بعض المنافقين ولم يوافقوا البعض هؤلاء الذين خرجوا للقتال والجهاد ولم يوافقوهم ثم قتلوا فرحوا بهم ، وقالوا ، لو كانوا أطاعوا ومكنوا في المدينة لم يخرجوا لما انهزموا ولما قتلوا ، وكان الحق يوضح لما أسلموهم ، لذلك سألهم من مطعهم . هم قعدوا وقالوا عن إخوانهم الذين قُتلوا في المعركة والذين هم من جماعتهم « لو أطاعوا ، كان قولا صدر منهم » أن اقعدوا ، ولكن القوم الآخرين الذين هم أقل نفاقا . لم يطاعوهم وخرجوا ، فحدث لهم ما حدث

فكيف يرد الله على هذه ؟ انظروا إلى الرد الجميل . أنتم تقولون : « لو أطاعونا ، فكان طاعتكم كانت وسيلة لسلامتهم من القتل . إذن فأنتم تعرفون طريق السلامة من القتل » والذي يعرف طريق السلامة من القتل هل يعرف طريق السلامة من الموت ؟ وبذلك يقول الحق سخرية بهم . « قادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » وفي ذلك رد عليهم من كلامهم « لو أطاعونا ما قتلنا »

وما دعتم تعرفون وسيلة للسلامة من القتل فاستعملوا هذه الوسيلة في أن تدفعوا عن أنفسكم الموت وأنتم مع المتقدمين منكم واحاصرين غنونا ولا تستطعمون رد الموت عنكم ، إحد فأنتم لا تعرفون طريق السلامة من الموت ، فكم من محارب عاد من الحرب سليما ، وكم من محارب من القتال قد مات وانتهى ، وهب أن بعضا من المؤمنين المقاتلين قد قتل ، إن الذي قتل في المعركة ليس أهوا على الله من سلم من المعركة ، هؤلاء أحب إلى الله وقد عجل الله لقاءهم وأترهم المنزل المقرب منه .

ونعرف أن الحدث إنما يُحمد ويُذم بالنسبة للغاية منه ، فكل حدث يُقربك من الغاية يكون محمودا ، وكل حدث يُبعدك عن الغاية يكون غير محمود ، فإذا كانت العناية أن تذهب إلى الإسكندرية مثلا ، فقد تذهب إليها ماشيا فتحتاج إلى عدة أيام ، وقد تذهب إليها راكبا دابة فتحتاج إلى زمن أقل ، أو تذهب إليها راكبا عربة فيقل الزمن لساعات ، أو تذهب إليها راكبا طائرة فتصلها في نصف الساعة ، فكيف كانت الوسيلة قوية كان الزمن قليلا ، لأننا نعلم أن القوة الفاعلة في النقلة تتناسب مع الزمن تناسباً عكسياً وكلما زادت القوة قل الزمن ، وما دامت غاييتك أن أذهب إلى الإسكندرية فالدس يجعل في الزمن ويقلله لأذهب إليها أفضل أم لا ؟ إنها الوسيلة الأفضل .

فما دامت «العناية» أن تذهب إلى لقاء الله وأن تعيش في جواره ومعينه ، فحين يجعل الله بعضنا فيأخذهم من أقصر طريق فهذا أفضل بالنسبة لهم أم لا ؟ هذا أفضل ، وهكذا نرى أن الناس تنظر للموت نظرة حقاء ، إن موت المؤمن الحق الصادق الإيمان إنما يقربه إلى العناية ، فما الذي يُحزنني !

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْهِيَ آمَاتًا بَلْ

أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

أنتم تخافون الموت ، ولكن هؤلاء الذين قتلوا في سبيل الله ليسوا بموتين ، لأن حياتهم حياة موصولة ؛

إن هناك فارقا كبيرا بين الموت والشهادة ، فالذى يقتل شهيد تكون حياته موصولة ، ولن يمر بفترة موتنا نحن ، ولنفهم أنهم أحياء عند ربهم ، أي بقاؤهم سبحانه ، فلا تحكم قانونك أنت ، فانت - كما قلت - لو فتحت القبر ستجد هؤلاء القلى مجرد أشلاء هم عندك أشلاء وأموات في قانونك أنت لكنهم أحياء عند ربهم يُرزقون

فالحياة تختلف عن الموت في ماذا؟ إن الإنسان إذا زهقت روحه وفارقت جسده انقطعت حياته ، في ظاهر الأمر انتهى ولم يعد ينتفع ببرق ولا بأكل ، لأن لوزق يُعمل لاستبقاء الحياة ، ومادام الرزق قد صُنِعَ لاستبقاء الحياة ولُبِسَ فيه حياة إذن فلا روق ، لكن الله سبحانه يريد أن يعطين مواهباً تؤكد أن الشهيد حي ومن ضروريات الحياة أنه يُرزق أي يتصح باستبقاء الحياة ، وعليها أن نفهم أن العندية عندنا غير العندية عند الله . فالشهيد حي عند ربه ويُرزق عند ربه وفقاً بما سب الحياة التي أرادها له ربه . ونعلم أن الرزق هو الخاصية التي توجد للأحياء . وعندما نقرأ قول الله - « أحياء عند ربهم يرزقون » قد يفوق قائل : من الخائز أنك تأخذ إنساناً وتُبقّيه حياً وتعطيه طعاماً وشراباً لكن أهو مرح بموقعه ؟ لا . لذلك يجب أن ندرك ونعرف أن حياة الشهيد ليست في قبره ولكنها عند ربه وهو فرح بموقعه لذلك يقول الحق :

﴿ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ  
بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا  
هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (١٧٠)

والعدل يتحقق بين الشر بأن كلا منهم يموت . ولكن الفضل أن يعجز الله انقضاء الحياة في الدنيا لمن يحبهم بالاستشهاد وينفهم إلى رسواته وبعيداً « فرحين بما آتاهم الله من

فصله ، وليس هذا فقط ، بل إننا نجد الأحوة الإيمانية قد بقيت فيهم ولبت كخاصية الأحياء بل أبقي وأبقى من خاصية الأحياء ، فالخاصية الإيمانية تقتضي أن نُحب المؤمن لأخيه ما نُحب نفسه ، والشهداء في حياتهم عبد ربهم كذلك ، مما يدل على أن الحياة التي يحياها الشهداء هي حياة نامية فيها رزق ومواجيد وفرح ، وكل شهيد يعتبر أن هذا فضل من الله قد فصله به . ولذلك فالشهيد يستشر بالذي لم يأت من بعده من إخوانه المؤمنين ويقول يا ليتهم يأتون ليروا ما نراه .

« ويستشرون بالدين لم يملحوا بهم » . « ويستشرون » من البشرى ، والبشرى هي الخير السار « ويستشرون بالدين لم يملحوا بهم » ويلحوا أي يأتوا بعلمهم ، فالشهداء يقولون إنهم سيأتون لنا ومداموا سيأتون لك فمن نُحب أن يكونوا معنا في العيم والخير الذي نحيا فيه . وكل منهم بشر بالمحبة لأخيه ، لأنه يعلم قول الرسول صلى الله عليه وسلم « لا يكمل إيمان أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يُحب لنفسه » . وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم . « لما أصيب بخوانكم يوم أحد جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمرها ، وتأوي إلى قناديل من ذهب في ظل العرش ، فلم يجدوا طيب ما كنهم وعشربهم وحسن فضلهم قالوا . ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله بنا لنلا يرهقوا في الجهاد ولا ياكلوا من الحرب . فقال الله - عز وجل - : أنا أبغضهم عنكم ، فأمر الله هذه الآيات » ولا تحسبن الدين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون » وما بعدها<sup>(١)</sup>

وسوف أن « البشر » عادة هو المرجه ، وهي تبدو عن بشرة الإنسان ، فعادة يكون الإنسان فرحاً ، فالمرجة تظهر وتشرق في وجهه ولذلك نسميها « ابتسامة » ، لأنها تصع في وجه البشر شيئاً من المرح مما يعطيه بريقاً ولحناً وجاذبية .

« ويستشرون بالدين لم يملحوا بهم من حلهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون » أي أن الدين حلهم عن الشهادة لا خوف عليهم ، فهؤلاء الدين لم يستشهدوا بعد قد يخوضون معركة ما ، فيقول الحق على لسان الشهداء لكل منهم . لا تخف لأنك ستلعب لخير في الحياة « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون »

ويعد ذلك يقول الحق

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٧١)

إن الحق سبحانه لا يضيع أجر هؤلاء الذين قاتلوا في سبيل الله ، وها هو ذا سبحانه وتعالى يقول

﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا  
أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ  
عَظِيمٌ﴾ (١٧٢)

انظر إلى المنزلة العالية التي تعلم أن الهزاة التي حدثت في أحد أعادتنا ترقب الفرائد الإيمانية في نفوس المؤمنين ولذلك أراد الله ألا يطول أمد النعم على من قدموا بسبب ما وقع منهم ، وألا يطول أمد لكفار الذين فرحوا بما ألحق بالمؤمنين من الضرر في المعركة الأخيرة ، هؤلاء لمشركون فرحون ، وهؤلاء المسلمون في حزن ، لأننا قلنا : ملأوا مسلمين ومؤمنين فلهم حق ، وإن قصرُوا فعليهم عقوبة ، وسبحانه قد أنزل بهم العقوبة نكس بغى لإسلامهم حق على الله ؛ لأنه أجرى تلك الأقدار ليُهذب ويحصن ويؤمن ، فلا يطول أمد النعم على المؤمنين ولا يمد الفرحة للكافرين ، فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم والحالة كما تعلمون هكذا ، ويزداد مؤمنه صلى الله عليه وسلم في الناس بطلب قریش فائلا « لا يخرج مني إلا من حصر معنا القتال »

ويخرج الرسول صلى الله عليه وسلم إليهم بعدد لا يريد على عدد المقاتلين الذين كانوا يواجهونهم حتى لا يقال إنهم جاءوا بملجء صاقي ، بل بالعكس ، فالذين خرجوا لمعاردة الكفار هم الذين بقوا مع الرسول في أحد ، ونقص منهم من قُتل ونقص منهم أيضا كل من أثقله جرحه . لقد كانوا أقل من كانوا في المعركة ، وكان الله يريد أن يبين لنا أن التسخير قد أدى مطلوبه

هم في هذه الحانة استجابوا للرسول ، كان المسألة جاءت رد اعتبار لمن شهدوا المعركة ، حتى لا يضعفوا أمام نفوسهم ، وحتى لا يجعلوها رثة تطردهم وتلاحقهم في تاريخهم الطويل ، بل يعلمون أن معركة أحد قد انتهت وعرفوا أثرها .

ويجوز أن أدن مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم بالنداء السابق استجابوا جميعا ، ولم يُسمع إلا الجاهل بن عبد الله أن يكون إضافة لهم ، لأنه أبدى العنصرية أنه لم يكن مع القوم ، لأن له أخوات سبعا من البنات وأمره أبوه أن يكثر مع أخواته لرعايتهن ، فسمح له رسول الله

« وكما قلنا - فإن الله أراد بكل أحداث أحد أن يُعيد ترتيب الدراب الإيمانية ، ومبادئ الدرات الإيمانية قد انتظمت فقد تم إصلاح جهاز الاستقبال عن الله ، وفي لحظة واحدة يستجيبون لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أنهم يلاحقون الكفار ، وذهبوا إلى حراء الأسد وكان ما كان . وبعد ذلك أرسل الله لهم من جسده من يتحدّل هؤلاء القوم الكافرين ، ويقول لهم إن محمدا قد خرج إليكم بجيش كبير

ونلاحظ أن الحق سبحانه يحسن هنا بقوله « الذين استجابوا » وهي تقابل « من خالفوا » أمر رسول الله وهم امرأة ، « الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح » .

لقد استجابوا وهم مُرهقون ومُتألمون ومُضخنون بالجراح ، فكل واحد منهم قد ناله

نصيب من إرهاب القتال ، ومع ذلك استجابوا لله والرسول ، وكان منهم أصابع  
القرح أو لقرح . يعنى لأم ، والجرح ، « من بعد ما أصابهم القرع للذين أحسوا  
منهم واتقوا أجر عظيم » وهم قد أحسنوا في الاستجابة ، لذلك فلهم لأجر  
العظيم ، « أجر عظيم » لأن ما حدث منهم من أمر المجاعة قد أخذوا عليه  
العقوبة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا  
لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ  
وَيَعْمَلُ الْوَكَيلُ ﴾

المسألة ليست ذلك فقط ، المسألة أن المنافقين راحوا يروجون إشاعات كاذبة بأن  
المشركين قد استضعفوا عند حديد من كهار مكة وذلك ليخيفوا المؤمنين ، فلم يخف  
مؤمن واحد ، الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، وساعة ترى  
كلمة « الناس » فأعرف أن الإيمان بعيد عنها ، وعاداموا « أناسا » فهم يقاسون أناسا  
آخرين ، ومن يعلم فهو يعلم بجهده وخطارته وحسن نصرته ، لكن المؤمن يقابل  
الكافر ، والمؤمن يتلقى المدد من ربه .

قيل إن الشيطان قد يتمثل على هيئة حشد من الناس ليرهب المؤمنين ،  
ولشيطان من عالم الجن ، وعالم الجن يراكم هو وقيمه من حيث لا تدركهم ، وقد  
أعطاه الله القدرة على أن يتشكل بما يحب . فله أن يتشكل في إنسان ، في حيوان ، أو  
كما يريد ، ولكن إذا تشكل بالصورة تحكمه لأنه ارتضى أن يخرج عن واقعه ليتشكل  
بهية أخرى ، فإذا ما تشكل على هيئة إنسان ، فليكون الإنسان يسرى عليه ، بحيث



إن كان معك مسدس أو سيف أو خنجر وثمنت منه وطعته بموت . وهذا هو ما رحنا من تخويفهم لنا .

ولذلك تجد أن الشيطان يظهر لحمة خاطئة ثم يختفي ، لأنه يخاف أن يكون الإنسان الذي أمامه واعياً بأن الصورة تحكمه ، فعندما يتمثل لك بأى شكل تحقه فُتحق ، لذلك يخاف من الإنسان ، فلا يظهر إلا في لحظات خاطئة

ويمكن أن نفهم أيضاً قول الحق : « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم » أن هناك بعضاً من الكفار أشاعوا أن أباسميين وصحبته قد حشدوا حشودهم ، فكلمة « جمعوا » تعطي بجاء يأهم جاءوا بمقاتلين آخرين ، أو أن قلوبهم قد جمعت ، وسواء هذا أو ذاك فهم صلحا فروا فروا قلوباً ، لأن القوم المهزومين لا يسيرون سبراً متعلها بجمعهم ، بل يسير كل واحد منهم حسب سرعته ، ويصح أن يتجمعوا ثانية ، أو جاءوا بناس آخرين ، ولذا أن نلاحظ أن الأسلوب يشمل كل ذلك

« الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاحشواهم » ومثل هذا القول قد يفت في عهد المؤمنين ، لكن التمتع بالآيات قد حصل معسكر الإيمان فلم يهتموا بهذا الكلام ، وهكذا أثمر الدرس الأول ، لقد تعلموا أن المخالفة عن أمر الله المثل في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم مجرد المخالفة تجعل الضعف يسرى في النفس ، لكن الثبوت والتمسك بأوامر رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود الإحساس بالقوة ، لذلك لم يابها لهذا التهديد بل قالوا : « إن العدد هذا ليس في بال ، لاسما نعتمد على الله وحسن الإيمان ، إنهم قالوا : « حسينا الله ونعم الوكيل ، فلم يهتموا بالعدد وعهدهم أن الإيمان يفتحي أن يعاتلوا الكافرين حتى يعلمهم الله بأيديهم ، ول هذا درس لكل محارب ، فعندما تحارب ، فأنت إما أن تكون منصوراً بإيمانك بالله وإما أن تكون عكس ذلك .

﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾

( من الآية ١٧ سورة الأنفال )

لقد فطنوا إلى أنفسهم ، وتغير الترتيب الإيمان في أحيانهم ، ونمى ذلك في أن بعضا من الناس جاءوا يصدونهم ويخذلونهم ، فلم يستطيعوا بل رادهم هذا لقول إيماناً وقالوا حسب الله ونعم الوكيل ، ، لقد فطنوا إلى أن قوة الله هي التي تنصرهم والله حسبهم وكافيهم عن أي عدد من الأعداد وهو نعم الوكيل ، ومعنى « الوكيل » أنني عندما أعيّز عن أمر أو كُفِّل أحدا فهو وكيل عني ، وعندما نوكل الله عينا فنجعلنا عنه فهو نعم الوكيل ، لماذا ؟ وتأكيذا الإجابة : « فابقضوا سعة من الله » ، ولقد نصرروا بالرحم الذي أنزله الله في قلوب أعدائهم ولم يشكروا مع الكفار ، فصلى قول الله :

﴿ مَا نَبِيٍّ فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرُءَيْتَ ﴾

(من الآية ١٢ سورة الاحزاب)

ويأتى الحق من بعد ذلك بما يصدق القضية

﴿ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ  
سُوءٌ وَأَتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ  
عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾

وهذه القضية يجب أن يمشعرها كل مؤمن يتعرض لتمحيص الحق له ، وعلى كل مسلم أن يتذكر تلك تجربة ، تجربة أحد ، فليلة واحدة كانت هي الفارق بين يوم معركة أحد ويوم الخروج لملاحقة الكفار في حمراء الأسد ، ليلة واحدة كانت في حصانة الله وفي ذكر لتجربة التمحيص التي مر بها المؤمنون إنها قد فعلت لعجب ، لأنهم حينما طردوا الكفار ، لم يأتوا لمحاولات الحرب النفسية التي شها عليهم الأعداء ، بل رادهم ذلك إيماناً وقالوا : « حسنا الله ونعم الوكيل »

إذن فقد تجردوا من نفوسهم ومن جواهرهم ومن قلوبهم ومن عذوبتهم ومن أي شيء إلا أن يقولوا الله كافي وهو نعم الوكيل لمن عجز عن إدراك بعينه . لقد عرفوا الأمر انهم ، وهو أن يكون كل منهم دالماً في حصنة ربه ، وقد أخذ صحابة رسول الله وآل بيت رسول الله هذه الخرجة الإيمانية واستنطوا بها الكثير في حل قضاياهم .

وقول الله سبحانه : « حسبا لله ونعم الوكيل » يذكرونا بالإمام جعفر الصادق ابن سيدي محمد الماقر بن سيدي علي زين العابدين وكان من أهله الناس بالقرآن ، وكان من أعلمهم في سسائط أسرار الله في القرآن ، إنه كان يجرد في قول الحق « حسبا لله ونعم الوكيل » استنباطاً رائعاً ، فهو يتعجب لأي إنسان أدركه الخوف من أي شيء يخف ، والإنسان لا يخاف إلا امرأ يطمع عليه رزاقه راحته . ويقولون ويهدده في سلامه وأمنه وأطمئنته ، ويكون هذا الخوف مصدر معلوم ، فلا ماترصن لمؤمن مثل هذا الخوف فعليه أن يتذكر قول الحق « حسبا لله ونعم الوكيل » لأه قصبة نفعت الجيش كله في معركته مع الكفار ، حين يأخذ الفرد هذه الخرجة نهر يستعيد رباطة الجأش واشتداد القلب فلا يفر عند نهرع

وبها سيدنا جعفر الصادق إلى هذه لفظة لفرع إليها عند كل ما تخف فيقول عجت لمن خاف ولم يفرع إلى قول الله « حسبا لله ونعم الوكيل » به بنظرته الإيمانية يتعجب لإنسان أدركه الخوف ثم لا يفرع إلى هذا لقول الكريم « حسبا لله ونعم الوكيل » ، ثم يستنبط بإشراقته سر هذا القول . لأن سمعت الله يعقبه يقول : « فاقبلوا نعمة من الله وفصل لم يحسنهم سوء » وانظروا إلى قول سيدنا جعفر الصادق « فإن سمعت الله بعفها » هو قرأ بنفسية المؤمن الصادق ، فالمؤمن حين يقرأ كلام الله إنه يستحضر أنه يسمع الله يتكلم إنه يقول « فإن سمعت الله بعفها يقول : « فاقبلوا نعمة من الله وفصل لم يحسنهم سوء » ولذلك فالحق يقول .

﴿ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١)

( سورة الاعراف )

فأنت حين تستمع إلى القرآن فافقه هو الذي يتكلم ، ومن العيب أن يتكلم بك

في أدبك ثم تشغل عنه وهو ربك ، إذن فعلاج الخوف هو أن تقول من قلبك : حسب الله ونعم الوكيل ، وأما تفريطها بحقه ، فإن قلتها بحقها كعادك الله شر ذلك الخوف ، لأن الله يقول بعد « وقالوا حسبا الله ونعم الوكيل » : « فاقبلوا نعمه من الله ومغض لم يغضبهم سوء » انظر إلى النعمة والمغض ، إيهما من الله وقد نصيبك النعمة والمغض ولكن تقدر ذلك في آخريات الأمور ، فأوضح الله أن اسعنة رادت في أنها عنيفة باردة ، ولم يحدث فيها أن مسنا سوء ، بل ذلك هر قمة العطاء ورأسه وسنامه ، فإذا قدرته في آخريات الأمور فقد أخطأت التقدير « فاقبلوا » بعمه من الله ومغض لم يغضبهم سوء ، ونتيجة لتلك التجربة السافعة هي أن « اتبعوا رضوان الله » ، وقد نجحت التجربة مع المؤمنين .

ويقول الإمام جعفر الصادق ليكمل العلاج لحوانب النفس البشرية ، ويصف الدواء فالنفس البشرية يفرعها ويقلقها ويجهلها مصطربة أن تخاف شراً يقع عليها ، وعلاج هذا « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ويضيف : وعجبت لمن اغتم ولم يفرع إلى قول الحق سبحانه .

﴿ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

( من الآية ٨٧ سورة الأنبياء )

وه الغم « قلق في النفس ، ولكلك لا تدرك أسبابه ، فأسبابه معقدة ، صدر يضيق ، ولذلك تقول أنا صدري ضيق ، أنا متعب ولا أدرى لماذا ؟ أي لم يحركك الآن أشياء تستوجب هذا ، بل قد تكون حصىلة تعادلات لأحداث وأمور أنت لا تتذكرها الآن ، هذا اسمه « غم » ، فإذا ما فرغ العبد إلى قول الحق سبحانه . « لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين » قال العبد يفرّ بذبه ويقول . هذا الغم لم يأتي إلا لأنني خرجت عن المنهج ، وبذكرنا سيدنا جعفر الصادق بأنه سمع بعدها قول الله

﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَجِئْتُهُ مِنَ الْقَوْمِ الْمُسْلِمِينَ ﴾

( سورة الأنبياء )

والذي قال ذلك هو سيدنا يوسف « فاستجبا له وبجيباه من الغم » .

وهذه الاستجابة من الله ليست خاصة كانت ليوس عليه السلام ، لأنه سبحانه قال : « وكذلك ننجي المؤمنين » أى أنه باب واسع أدخل الله فيه كل المؤمنين ، ويضيف سيدنا جعفر الصادق : وعجبت لمن مكر به ولم يفرع إلى قول الله :

﴿ وَأَقْرَضُ أَمرِي إِلَى اللَّهِ إِنْ اللَّهُ بِصِيرٍ وَالْعَبَادِ ﴾

( من الآية ٤٤ من سورة غافر )

فإن سمعت الله بعقبها يقول : « فرفاه الله سيئات ما مكروا » .

ومكر به معناها يبت له اشر بحيث يحمى ، لأن المكرو هو : نبيى من خصصك لشر يصيبك ، بينما أنت تقف بحاجب الحق ، فيكون هذا المكرو شرأ يبيى لخبر وحى ، وهذا هو المكرو السيىء ، ويقابله مكر حسن ، ولذلك يقول الحسن .

﴿ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَعْلَاهِ ﴾

( من الآية ٤٣ سورة غافر )

إذن فهناك مكر ليس بسيىء ، كان يبيى صاحب الحق لصاحبه لشر . تبيى بمعنى عليه ، هذا اسمه مكر خير ، لأنه عبارة لشر ، ولذلك يوضح لنا الله هذا الأمر . اعطوا إلى هذه ، فإن كانوا يذكرون ويبيئون ، فهم إن يبيئوا على الحق جميعاً لا يبيئون على الله لأنه سبحانه العليم ، الخائق ، المرئى ، وإن يبيى الله فهم فلن يستطيعوا كشف هذا التبيى ، إذن فالله خير الماكرين ، لأن تبييتهم مكشوف أمام الخائق ، لذلك فهو مكر صعب ، أما المكرو الخفيى فهو الذى لا توجد وسيلة تعرفه بها .

ونواصل مع سيدنا جعفر الصادق قوله فى علاج النفس البشرية فيقول : وعجبت لمن طلب الدنيا وزينتها كيف لا يفرع إلى قول الله

﴿ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾

( من الآية ٣٩ سورة الكهف )

فإن سمعت الله يعقبها بقوله :

﴿إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلَٰمَكَ مَالًا وَوَلَدًا ۖ مَعَىٰ رَبِّي أَن يُزَيِّرَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾

(من الآية ٣٩ وجزء من الآية ٤٠ سورة الكهف)

واستبسط سيدنا جعفر الصادق ذلك من حكاية صاحب الحنة .

﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُنْتُ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِنْ تَرَىٰ أَنَا أَقْلَٰمَكَ مَالًا وَوَلَدًا ۖ مَعَىٰ رَبِّي أَن يُزَيِّرَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ﴾

(سورة الكهف)

إنك حين تفرد « ما شاء الله لا قوة إلا بالله » فإن الدنيا تأتيك مهروقة ، لأنك جردت نفسك من حولك ، ومن قوة حيلتك وأسبابك ، وتركت الأمر لله سبحانه وتعالى القادر على كل عطاء

إذن فالخواب الشرعي في النص . هي خوف له علاج ووضعه ، وهم له علاج ووصفه ، ومكر يك له علاج ووصفه ، وطلب دينا وسعاده لها علاج ووصفه ، والوصفة التي نحن بصلدها هـ . « والوا حسنا لله ونعم الوكيل فاعلموا بنعمة من الله ومصل لم يحسبهم سوء » .

والنعمة أن يعطيك الله على قدر عملك ، وأفضل من الله هو أن يريدك عطاء ، ولم يحسب المسوء أحداً من المؤمنين الذين طاردهوا المعتاتين من قريش ، وكان من نتيجة ذلك أنهم جمعوا بين كل ما وهبه الله لهم ؛ من نعمة ومفضل مع اتناعهم برضوان الله ؛ فقد صارت أسألة بالسبب لهم لغيره محبة ومهربة « واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم » .

لقد حاول المنافقون أن يشيطوا المؤمنين عن لقاء كفار قريش ، فيريد الحق أن يكشفهم ، ويظهر الدافع إلى مثل ذلك الموقف من المنافقين ؛ لذلك قالوا للمؤمنين : « إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم »

ويظهر الله للمؤمنين حقيقة موقف المنافقين .

## ﴿ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ ۚ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَحَافُوا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (١٧٥)

إنها صرخة الشيطان لدى يخوف أوليائه ، ويصيح أن يصرخ الشيطان صرخته وهو يتمش في صورة شر ، ويصيح أن يصرخ الشيطان بصرخته لواحد من البشر يصرخ هذا الإنسان سرغ الشيطان له ، إنما ذككم الشيطان يخوف أوليائه .

وعندما نقرأ القرآن بدقة صفات إيمانية ملائكة أن نفهم عن القرآن عمق ، فمن هم أولياء الشيطان ؟ أولياء الشيطان في هذا الموقف ، إما كهار قريش ، وإما المنافقون أو هما معا . وه أوليائه ، هم أصحاب الذين يصرخون فكرته

كان الحق سبحانه وتعالى يريد أن يُبَلِّغنا : إنما ذككم الشيطان الذي قال إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، هذا الشيطان إنما يخوف أوليائه

وللهمة الأولى نجد أن الشيطان مُقترص فيه أن يخوف أعداءه ونحن هنا أمام شيطان ينزع بعبارة التخويف ، فمن الذي يخاف ونحن بخاف ؟

المفروض أن يخيف الشيطان أعداءه ، هذا هو المنطق .

فنحن في حياتنا العادية نقول : خُوفت فلاناً من فلان ، أو خُوفت فلاناً فلاناً  
إذن فالشيطان يحاول هنا أن يسيطر على المؤمنين ويخوفهم من أوليائه الكفار والمنافقين ، ونعرف في اللغة أن هناك في بعض المواقف يمكننا أن نحدث حرف جبر ونصل الحصة ، وسببه « معمولاً منه » . مثال ذلك قول الحق -

﴿ وَاسْتَأْذِنُوا مَوْسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا ﴾

( من الآية ١٥٥ سورة الأعراف )

فسمى عليه السلام اختار من قومه سبعين رجلاً

وعلى ذلك نقرأ قول الحق : « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه » وفهم منها : أن ذلكم الشيطان يخوفكم أنتم من أوليائه ، لأن حرف الحرفي الآية الكريمة محدوف ، وبماضد هذا ويفويه قراءة ابن عباس وابن مسعود - يخوفكم أولياءه ، ويتنه الحق المؤمنين ألا يخافوا من أولياء الشيطان فيقول « فلا تخافوهم »

وهذا يوضح لنا أن للشيطان إثم أراد أن يخوف المؤمنين من أوليائه وهم المنافقون والكافرون . وبعض المفسرين قال : « يخوف أولياءه » المقصود بهم أن الشيطان يخوف أولياءه حتى يجهلوا من القتال ، فسرع ففهم أنهم إن خرجوا للقتال فقد يموتون ولكن إن جاز ذلك القول على السابقين الذين لم يخرجوا مع الرسول لملاقاة المشركين فكيف يجوز ذلك على الصنف الثاني من أوليائه وهم الكفار ؟ إن الكفار قد خرجوا فعلا لقتال المؤمنين وفهم من قول الحق : « فلا تخافوهم وخافون » أن أولياء الشيطان ليسوا هم الخائفين ولكنهم هم المحذرون . « إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » .

فلحق سبحانه يطلب من المؤمنين أن يصنعوا معادلة ومقارنة ، أن يخافون أولياء الشيطان ، أم يخافون الله ؟ ولابد أن يصلوا إلى الخوف من الله القادر على دحر أولياء الشيطان .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه .

﴿ وَلَا يَخْزِيكَ الَّذِينَ يَسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنَبَصَرُوا أَنَّهُ شَيْئًا بَرِيدٌ ۖ اللَّهُ لَا يَجْعَلْ لَهُمْ حَقًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ (١٧٦)



لقد كان المنافقون في أول المعركة مخفيين ومستورين ، ثم ظهرت منهم بادرة الإحذال في أحد فكانوا أقرب إلى الكفر منهم إلى الإيمان ، ولكنهم من بعد ذلك سارعوا إلى الكفر ، كان هناك من يلاحقهم بسوط ليتسابقوا إلى الكفر .

وها هو ذا الحق سبحانه قد حدد عناصر المعركة ، أو قوى المعركة ، أو ميدان المعركة أو جود المعركة ، فبِهِ رسول : « ولا يجرئك الدين يسارعون في الكفر » ولم يقل : « لن يصروكم شيئاً » لأن الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته المؤمنين ليسوا طرفاً في المسألة ، فعداء الدين يسارعون في الكفر هو عداء الله ، لذلك يقول الحق : « إنهم لن يضروا الله شيئاً » كأن المعركة ليست مع المؤمنين . ولكنها معركة الكافرين مع الله ، وما دامت المعركة مع الله فالمؤمنون جند الله : وهم الصورة التي أرادها الله لهزيمة الكافرين .

قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِيهِمْ وَيُنْصِرْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ وَيَسِفُ صُدُورُ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾

(سورة التوبة)

فلو كانت معركة الكفر مع المؤمنين بالله فقط لقال الله : ولا يجرئت الدين يسارعون في الكفر إنهم لن يصروكم شيئاً ، لكن المسألة ليست هكذا ، لقد أراد معسكر الكفر والنفاق أن يدخل معركة مع الله ، ولا توجد قوة قادرة على ذلك ، ولهذا يطمش الله المؤمنين أكثر ، ليزدادوا ثباتاً على الإيمان ، لأن الكل من البشر مؤمنين وكافرين أغيار ، وقد يتحول بعض من البشر المؤمنين الأعيار عن المسج قليلاً ، فعندما تكون المعركة بين شر وبشر فقد يغلب أحد الطرفين بقوته

ومن أجل المرید من الاطمئنان الكامل بقل الله المعركة مع الكفر إلى مسألة أخرى ، إنه بجلاله وكماله وجبروته هو الذي يقف ضد معسكر الكفار ، وإنهم فقط أن يظل المؤمنون في حضرة الله . والرسول كان يحزه أن يسارع البعض إلى الكفر . فهل رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعلم أنه إنما جاء مُبْدِعاً فقط ؟ . إنه يعلم ولكنه كان يحرم - صلى الله عليه وسلم - على أن يؤمن الناس جميعاً ببدوهم وحلاوة ما جاء به ، هذا الحرص هو الذي يدفع الحزن إلى قلب الرسول ، وعندما يرى

واحداً لا يتلوق حلالة المنهج . فالرسول يأمل أن يدوق الناس كلهم حلالة الإيمان ، لأنه صلى الله عليه وسلم رموف رحيم بالمؤمنين ، بل وبالناس جميعاً . وما أومسكك إلا رقة للعالمين ، ودليل ذلك أن جاءه التحير .

فقد ندى جبريل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : « إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم . قال : فنادى ملك الجبال وسلم على ثم قال : يا محمد ، إن الله قد بعثني إليك وأنا ملك الجبال لتأمرني بأمرك فما شئت ؟ إن شئت أطبق عليهم الأخشيش ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً » (١)

فالرسول صلى الله عليه وسلم لا يقى حل هؤلاء فقط ولكنه يحرص أيضاً على الأجيال القادمة . وقد كان . وخرج من أولاد كفار قريش صنديد وأبطال وجنود دعوة وشهداء . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم - كما أخبر الله في آيات القرآن - يحزن عندما لا يلوق أحد حلالة الإيمان ، يقول الحق :

﴿ فَلَمَّا كَبِهَ نَفْسَكَ وَلَمْ تُزَكَّهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ۝ ﴾  
(سورة الكهف)

ولي موقع آخر يقول الحق :

﴿ يٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَغْوُواْ فِكْرَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَا يَبْغُواْ سُلْطٰٓةً عَلَى السَّالِمِينَ ۚ لَا يَنفَعُ الْإِيمٰٓنَ لِقٰٓءِ رَبِّكَ إِذَا كُنْتَ مِنَ الظَّٰلِمِينَ ۚ ۝﴾  
(سورة الشعراء)

والحق سبحانه وتعالى لا يريد اعتناقاً ، لكنه يريد قلوباً تأن له بحامل الاختيار والمحبة ، فباستطاعته وهو الخالق الأكرم أن يخلق البشر على هيئة غير قابلة للمعصية ، كما خلق الملائكة ، إن كل الأجناس تسبح بحمده ، إذن فالقرآن يبين حرصه صلى الله عليه وسلم بأن يؤمن الناس جميعاً وأن يلوقوا حلالة اللقاء برؤسهم ،

وَاتَّبَاعِ مَنِجِ اللَّهِ ، وَحَلَاوَةِ الشَّرِيعِ الَّذِي يُسَعِّدُهُمْ وَيُسَعِّدُ كُلَّ مُلْكَاثِهِمْ فَإِنَّ  
مَا جَاءَتْهُمُ الْمَسْأَلُ عَنْ غَيْرِ مَا يُحِبُّ رَسُولُ اللَّهِ ، فَهَا هُوَ قَوْلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ :  
« وَلَا يَجْرُثُ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ » .

وهذا دليل على أن الله يريد أن يُبَلِّغَ النُّشْرَ . أيها الناس إن من قُرْطِ حُثِّ الرُّسُولِ  
لكم أنه يُجْرَثُ من أَجْلِ جُصِيَّاتِكُمْ وَأَنْ أَلَدَى أَقُولُ لَهُ لَا عَرَى . وَالرُّسُولُ صَلَّى اللَّهُ  
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحِيمٌ بِالْأُمَّةِ كُلِّهَا ، كَمَا يَقُولُ الْقُرْآنُ

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾

(سورة الأنبياء)

ويكفيه موقفه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة ، حين تذهب كل أمة إلى رسولها  
شِرْقًا ، فتأتي الأسم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فُؤَكْرَمَهُ اللَّهُ بِقَبُولِ شِجَاعَتِهِ  
حَتَّى يُعَجِّلَ اللَّهُ بِالْمُفَصِّلِ وَالْحِسَابِ ، وهذه رحمة للعالمين ، لأنهم من هول الموقف  
يَتَمَتَّعُونَ الْإِنْصِرَافَ وَلَوْ إِلَى النَّارِ

ونحن قلنا سابقا : إن الحق سبحانه وتعالى علم اشغال سيدنا رسول الله صلى  
الله عليه وسلم بأمرته وبرحمته بهم ، فقال له الله - ليرجع عواظهم ومواحيهم - ما ورد هنا  
في الحديث الشريف

عن عبد الله ابن عمر بن العاص رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم تلا  
قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ : « رَأَى إِسْمَ أَصْلَانِ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ طَمَسَ تَبَعِي قِيَمَتَهُ  
عَنِ » .

وقول عيسى - عليه السلام - « إِنْ تَعَسَّبَ فَرِيْقُهُمْ فَرِيْقُهُمْ عَادَكَ وَإِنْ تَعَفَّرَ عَنْكَ فَرِيْقُهُمْ أَنْتَ  
الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

فرفع يديه وقال : اللهم آمين آمين ربكمي ، فقال الله عز وجل : يا جبريل اذهب  
إلى محمد وربيك أعلم غسلة ما يبيك ؟ فإنه جبريل عليه الصلاة والسلام فسأله ،  
فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال وهو أعلم ، فقال الله : يا جبريل ،

ذهب إلى محمد فقل : ( إنا منزهيك في أمك ولا نسوؤك ) (١)

ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - له موقف آخر يدل على كمال رحمته بأمته ، فقد أنزل الله فيما أنزل من القرآن الكريم - بعد نثره الروح - قوله تعالى : ( ولست يعطيك ربك فترضى ) .

انظروا إلى ما ورد عن سيدنا علي في هذه الآية، فقد روي أنه - رضي الله عنه - قال لأهل العراق : إنكم تقولون : إنا أرجى أمة في كتاب الله تعالى ( قل يا عبادي الذين أسرفوا عن أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ) قالوا : إنا نقول ذلك ، قال : ولكننا - أهل البيت - نقول : إنا أرجى أمة في كتاب الله هو الله تعالى ( ولست يعطيك ربك فترضى ) وفي الحديث لما نزلت هذه الآية قال النبي - صلى الله عليه وسلم - ( إنا لا أرضى بواحد من أمي في النار ) (٢) .

كما روي أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال ( لكل نبي دعوة مستجابة فتعجل كل نبي دعوته وإن أحسن دعوى ضعفتي لأمي يوم القيامة ) (٣)

وهكذا نرى شغل رسول الله بأمته كأمر واضح موجود في بؤرة شعوره

إذن فنقول الله : « ولا يحزنك الدين يسارعون في الكفر » هو توصيح من الله لرسوله بأنهم لم يسارعوا في الكفر تقصيراً منك ، فأنت قد أدت واجبك ، وبضيق سبحانه : « إهم لن يصروا الله شيئاً » وم يقل سبحانه : إهم لن يضروك ، أولئك يصروا المؤمنين ، لا بل لقد جعل سبحانه وبغى انعركة معه وهو أقوى ذو الجبروت إنه هـا يطعن المؤمنين .

ويريد الله ألا يجعن للدين يسارعون إلى الكفر خطأ في الآخرة فيقول : « يريد الله

١ روي الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان .

(٢) من تفسير الإمام القرطبي

(٣) أخرجه البخاري

ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة ولهم عذاب عظيم ، وما دامت هذه إرادات الله في ألا يجعل لهم حصاً في الآخرة ، أليكون لهم عمل يصادم مرادات ربهم ؟ لا

إنه سبحانه يريد بما شرع من منفع أن نأثمهم سُنته ، والله يمتد من يخالف سُنته التي شرعها . لأنه جلت قدرته يطلب من المكلفين أن يطبقوا سنته التي شرعها لهم .

ومرو بين وجود « لام العاقبة » التي يأتي عبر يكون في مُراد لعبد شيء . ولكن القدرة الأهل تريد شيئاً آخر ، وهي تختص عن « لام الإرادة » والتعليل « لام الإرادة والتعليل » تنضح في قولنا : فذكر التلميذ ليتضح ، لأن حلة المذاكرة هي لرغبة في النجاح ، أما « لام العاقبة » ، فتضح عندما يقول الأب لابته : أنا ذلك لك لترسب آخر العام

أدليل لأب ابنه حتى يرسب ؟ لا ، ولكن الأب يأتي ها - « لام العاقبة » أي كان للأب مراد ، ولكن قدرة أعلى جاءت على خلاف المراد .

ونوضح المسألة أكثر ، فالحق يقول في قصة سيدنا موسى :

﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَلَمَّا خَصَّتْ عَلَيْهِ مَاتْنِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَحْزَن ۚ وَلَا تَحْزَن ۚ إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ ﴾

(سورة القصص)

ونحن لا بد أن نشبه إلى قول الحق « فألقيه في اليم » ولإنسان لعادي لو قال لامرأة تحمل وصيها : إن حفت عن ابك فألقيه في البحر . هذه المرأة لن تصدق هذا القائل ، لكن أم موسى تلقت هذا الوحي من الله ، والتلقت من الله لا يُصلده فكر شيطان ولا فكر بشر . فالإلهام من الله يتحلّى في قوله « وأوحينا إلى أم موسى » .

وما دام الله هو الذي ألهمها ، فإن حاطر الشيطان لا يجي . ولذلك قامت أم موسى بتفديد أمر الله وطمئنتها الله فقال لها : « ولا تحزني ولا تحزني إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ

وجاعلوه من المرسلين .

ويُسَبِّحُ مَبِيعَاتِهِ أَمْ مُوسَى أَنَّهُ لَنْ يَرُدَّهُ إِلَيْهَا لِمَجْرَدِ أَمْرِ قُرَّةِ عَيْنٍ ، وَلَكِنْ لِأَنَّ مُوسَى أَبْصَرَ مُهِمَّةَ مَعَ اللَّهِ . وَفِي لَفْظَةٍ أُخْرَى يَقُولُ الْحَقُّ عَنْ مَسْأَلَةِ الْوَحْيِ لِأَمِّ مُوسَى

﴿ إِذَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مَا يَرْحَقْ ۚ ﴾ ١٨٨ أَوْ أَقْدِفِيهِ فِي أَثَابَتٍ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ  
فَتَبْنِيهِ الْيَمُّ بِالسَّحْلِ يَأْخُذُهُ عُدُوِّي وَعَدُوُّهُ ۚ وَانْقَسَمَتْ عَلَيْكَ حَبَابَةُ مَنِّي  
وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ۚ ﴿ ١٨٩ ﴾

(سورة طه)

والحق هنا في هذه اللفظة يصف وقت تنفيذ العملية التي أوحى بها ، فعليه فرق بين التسبب للعملية قبل أن تقع كما حدث في اللفظة السابقة حيث قال لها الحق . « إذا حُفَّتْ عَلَيْهِ فَالْقِيَةِ فِي الْيَمِّ » . كَانَ ذَلِكَ هُوَ الْإِعْدَادُ ، ثُمَّ جَاءَ وَقْتُ التَّنْفِذِ ، فَذَلِكَ الْحَقُّ لِمُوسَى : « إِذَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مَا يَرْحَقْ » . إِنَّمَا سُلْسَلَةٌ مِنَ الْأُمُورِ الْمَتَلَحِّقَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الْعَمَلِيَّةَ كَانَتْ فِي وَقْتِ أَخْذِ جُنُودِ فِرْعَوْنَ لِأَطْفَالِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لِيَقْتُلُوهُمْ ، إِنَّهُ سَبَّحَانَهُ يَبِينُ لَنَا أَنَّ جُنُودَ اللَّهِ مِنَ الْجَمَادَاتِ الَّتِي لَا تَحْيَى تَلْقَتْ الْأَمْرَ الْإِلَهِيَّ بِأَنَّ تَصَوُّرَ مُوسَى ، فَكَلِمَةُ « أَقْدِفِيهِ » تَدُلُّ عَلَى السَّرْعَةِ ، وَتَلْقَى « الْيَمِّ » الْأَمْرَ مِنْ اللَّهِ بِأَنَّ مُوسَى عِنْدَمَا يَلْقَى فِي الْبَحْرِ ، فَلَا يَدَّ أَنْ يَلْقَاهُ إِلَى السَّاحِلِ . « إِذَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مَا يَرْحَقْ » أَنَّ أَقْدِفِيهِ فِي لَتَابَتٍ فَأَقْدِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيَلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ، بِهَا أَوْامِرُ لِمُسْخَرٍ مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ الَّتِي لَا تَعْمَى .

لَكِنْ كَيْفَ تَكُونُ أَوْامِرُ الْحَقِّ لِعَدُوِّهِ ؟ إِنَّ اللَّهَ يَدْحَسُهَا كَخَاطِرِ مُلْحٍ فِي رَأْسِ فِرْعَوْنَ لِيُقْعِدَ مُرَادَ اللَّهِ . إِنَّ أَمْرَهُ فِرْعَوْنَ يَقُولُ بِهِ مَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى :

﴿ وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي وَلَئِنْ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَى أَنْ يَصْعَدَ أَوْ يَخْلُقَ ۚ  
وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۚ ﴾ ١٨٩

(سورة القصص)

نَقَدْ دَخَلَ أَمْرَ اللَّهِ كَخَاطِرٍ ، وَاتَّعَمَلَهُ أَنَّ فِرْعَوْنَ لَا لِيَكُونَ قُرَّةَ عَيْنٍ لِامْرَأَةِ فِرْعَوْنَ ، وَلَكِنْ لِأَمْرِ مَحَلِّ ارْتَادِهِ اللَّهِ . فَهَلْ سَاعَةُ الْإِلْطَافِ كُنْ فِي بَالِهِمْ أَنْ يَكُونَ مُوسَى عَدُوًّا

أو قوة عين ؟ إنما « لام العاقبة » التي تنضح في قوله . « ليكون لهم عدواً وحزماً » .  
فالإنسان يكون في مُرادته شيء ، ولكن القدرة الأعلى من الإنسان - وهو الله - تريد شيئاً آخر

الإنسان في تخطيطه أن يقوم بالعملية لكدا ، ولكن القوة الأعلى من الإنسان تريد العملية هدفٍ آخر ، وهي التي أوحى للإنسان أن يقوم بهذه العملية . وينجلى ذلك بوضوح في العلة لالتقاط آل فرعون لموسى . كان فرعون يريد قوة عين له ، ولكن الله أراد أن يكون عدواً لفرعون . وفي هذا المثال توضيح شامل للفرق بين « لام العاقبة » و « لام الإرادة » والتعجيل . وعندى ترى أحداثاً مثل هذه الأحداث فلا تقول : « هذا مراد الله » ، ولكن مثل ( العاقبة فيما فعلوا وأحدثوا خلاف ما خططوا )

وبعد ذلك يقول الحق .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنَبْصُرُوهُمُ  
اللَّهُ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

إنهم لن يضرروا الرسول وصحابته لأنهم في محبة الله ، وهم لن يضرروا الله ، وفي ذلك طمأنينة للمؤمنين ، كأن الحق سبحانه وتعالى يقول : أيها المؤمنون بي المصدقون بمحمد إن المعركة مع الكفر ليست معركة المؤمنين مع الكافرين ، ولكنها معركة ربكم مع هؤلاء الكافرين . وفي هذا اطمئنان كبير

« إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان » ، و « الاشتراء » صفقة ، والصفقة تنقضى « ثمت » و « ثمتاً » و « الثمن » هنا هو الإيمان ، لأن الباء تدخل على استروك ، و « الثمن » هو الكفر لأنه هو المحو . فهل أخذوا الكفر ودفعوا الإيمان ثمتاً له ؟

وهل معنى ذلك أن الإيمان كان موجوداً لديهم ؟

نعم كان عندهم الإيمان ؛ لأن الإيمان القديم هو إيمان الفطرة وإيمان العهد القديم الذي أخذته الله على النذر قبل أن توجد في النذر الأعيار والأهواء :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾

(سورة الأعراف)

أو على الأقل كان الإيمان والكفر في متناولهم ؛ بانضباط قانون الاحتيار في النفس البشرية ، لكيهم أخذوا الكفر بذلك الإيمان ، والبذلة وصحة ، فقد استبدلوا الكفر بالإيمان ، فلباء - كما قلت - دخلت على المترك . لقد تركوا الإيمان القديم وهو إيمان النذر ، أو تركوا إيمان الفطرة فالحديث الشريف يقول  
« كل مولود يولد على الفطرة فابواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » (١) .

لقد اسلوا من الإيمان ، ودغموه ثبت للكفر ، فعندما يأخذ واحد الكفر ، فهو قد أخذ الكفر بدلاً من الإيمان . وهم « لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب اليم » لماذا ؟ لأننا إن افترضنا أن الدنيا كلها قد آمنت فهذا لن يفيد الله في شيء . والحديث القدسي يقول :

قال الله تعالى : ( يا عبادي إن حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا ، يا عبادي كلكم صواب إلا من هديته فاستهدوا أهديكم ، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعته فاستطعموني أطعمكم ، يا عبادي كلكم عارٍ إلا من كسوته فاستكسبوني اكسبكم ، يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً ، فاستمعوني أعف لكم ، يا عبادي إنكم لن تبصروا ضروتي ولن تبصروا نفسي فتتبعوني ، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنفسكم وجنكم كانوا عن



أنفى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً ، يا عبادى لى أن أولكم وأخركم وإنسكم وحكم كانوا على أمجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً ، يا عبادى لو أن أولكم وأخركم وإنسكم وحكم قاموا فى صعيد واحد فسألون فأعطيت كل إنسان مسأله ما نقص ذلك مما عندى إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر ، يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفىكم بهاها ، ومن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه (١) .

إذن ، فلا الإيمان من البشر يريد الله شيئاً ، ولا الكفر ينقص من الله شيئاً ، لأن الإنسان قد طرأ على ملك الله . ولم يأت الإنسان فى ملك الله شيئاً رائد ، فالإنسان صنعه الله وخلقه من عناصر ملكه - جلّت قدرته - مستمر الحديث فى توصيح أن الحق سبحانه لا يمالج شيئاً يبدله بما أحد منه زماناً . لا ، إنه سبحانه جلّت مشيخته يقول للشيء : كن ، فيكون .

وكلمة « كن » نفسها هى أنصر أمر . إن أمره العطف وانق من أن يدركه حل حقيقة مخلوق . لكن الحق يأتى لنا بالصورة الخفيفة الى لجعل بشرتنا تفهم الأمر . فالذين اشتروا الكفر بالإيمان لى يضرّوا الله شيئاً وهم عذاب اليم . فهم لى يعيشوا يتنجّون ويُعد من العذاب ، بل سيكون هم العذاب الأليم

وبعض نجد أن الحق يقول مرة فى وصف مشرى لكافرين إنه عذاب اليم ، ومرة أخرى لهم عذاب عظيم ومرة عذاب مهين ، نادا ؟

لأن العذاب به جهات متعددة ، فقد يوجد عذاب مؤلم ، ولكن المُعَذَّب يتجلد أمام من يُعَذِّبهُ ويُظهر أنه مازال يملك بقية من جلد ، إنه يتألم لكنه يستكبر على الألم ، ولذلك قال الشاعر :

وَجَبَلْدَى لَشَامَتَيْنِ أُرِيحُ  
أَنِ لَرَبِّ السَّعْرِ لَا انْقِصَاعُ

فالتجند هو نوع من الكرياء على الواقع . ولذلك يأتي من بعد ذلك قوله الحق إن  
لأمثال هؤلاء عذاباً مهيباً ، أي إنهم سيذوقون لذل والالم ، ولا أحد منهم يستطيع  
التجند . وهذا النوع من العذاب لا يقف فقط عند حدود الألم العادي ، ولكنه  
عذاب عظيم في كميته وقدره ، وأليم في وقعه . ومهين في إدلال وذلك النفس البشرية  
وعزورها . لذلك فعدمت نجد أن العذاب الذي أعده الله للكافرين موصوف بأنه  
« عذاب أليم » و « مرة » عذب عظيم « و مرة » عذاب مهين « هنعرف أن لكل واحدة  
معنى ، فليست المسألة عبارات يقال هكذا بلون معنى مقصود

وأريد أن أقف هنا في هذا الحديث عند « لأم العاقبة » لأن البعض يحاول أن يخلق  
مهما إشكالات إن هؤلاء المترصين لكلام الله يحاولون النيل منه ، وهم لا يبحثون إلا  
فيما يتوهمون - جهلاً - أنه نقاط ضعف ، وهو سبحانه وتعالى يقول عن الكفار والعباد  
ناله وهم في النار .

﴿ رَبِّسَاءُ أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ (١٦) ﴿ قُلْ أَنْعَمُوا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُوا ﴾ (١٧)  
إِنَّهُ كَانَ قَرِيضًا مِّنْ عِبَادِي يُقِرُّونَ رَبِّسَاءُ أَمَّا فَخَافُوا وَآرَحَمَا وَأَنَّ خَيْرَ الرَّحِمِ  
﴿ فَأَخَذْتُمُوهُمْ بِحُرِّ الْحَقِّ أَنْوَكْرُ ذِكْرِي وَكُنتُمْ مِنْهُمْ فَصَحَّحُونَ ﴾ (١٨)

( سورة العنكبوت )

لقد اشعل الكفار بالسحرة من أهل الإيمان بإشارات أو لم وعبر أو اتهام  
بالرجعية أو اندروشه أو مثل ذلك من ألون السحرة ، لدرجة أنهم نسوا مسألة  
الإيمان ، مما انلى أسنهم ذكر الله ؟ لقد أساهم ذكر الله أشعاهم بالسحرة من  
أهل الإيمان

لقد قصى الكفار وقهم كله للسحرة من أهل الإيمان حق نسوا ولم يتذكروا أن  
هناك حالفا للكون وهذا ما يسمى « غية العقالة » ولست عايه وعدة للإرادة ،  
لأنهم لم يريدوا سيان ذكر الله ولكن أمرهم انتهى إلى ذلك .

وسيمتدب الله الكافرين عذاباً ألياً وعظيماً ومُهيباً ، ولكل وصف مراده في النص



حتى يسوع كل حالات الإهانة من إبلام ، والذي لا يألم بشيء صغير ولا يتحمل الألم لقوى مسجد الألم الكبير ، وكذلك لدى يتجلد عن الألم العظيم ، سيحد الألم  
أهين .

ثم بقول الحق سبحانه

وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا أُمِّلِيَ لَهُمْ حَبِيرٌ  
وَلَا يَفْقَهُوا أَنَّمَا أُمِّلِيَ لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ  
مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾

وعنده سماع قول الله « ولا يحسب » فهو يهين ، وقد هيى الله الكافرين عن  
ماد ، إن الكافر عندما يجد نفسه قد أُمِّلَ في المعركة من سب المؤمنين وإن عمره  
قد هلل في الكفر ، فهو يظن أن حق سبحانه وتعالى بركة له ، لأنه يعلم أن عمره  
هو أتم شيء عنده ، فإدام قد حوفظ له على عمره فهو الخير يقول ينزل هذا  
الكافر ، إن لعمر رمن ، والرمن وعد الأعداء ، إذن فالرمن لذاته لا يتجدد إلا  
بالحدث الذي يقع فيه ، فإن كان الحدث الذي يقع في الرمن حيراً ، فالرمن حير .  
وإن كان الحدث الذي يقع في الرمن شراً ، فالرمن شر ، ومادام هؤلاء كافرين ،  
فلا بد أن كل حركاتهم في الوجود والأحداث التي يقومون بها هي من جسم الشر  
لا من جسم خير ، لأنهم يسبسون على غير منهج الله ، وربما كانوا على منهج المضادة  
ولمصرة منهج الله

وذلك هو الشر ، إذن فأنه لا يمل هم بقصد الخير ، إنما يمل الله لهم لأنهم مدامو  
على الكفر فهم يشغنون أوقات أعمالهم بأحداث شريرة تحالف منهج الله . وكل  
حدث شرير له عذابه وجراؤه . إذن ، فإطالة العمر لهم شر

والحق سبحانه يقول : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّئُهُمْ حَبْرَ لَا أَنْفُسَهُمْ »  
 و« يحسبن » هي فعل مضارع ، والماضى بالنسبة له هو « حسب » - بكسر السين -  
 ولذلك قال الحق سبحانه في موقع آخر من القرآن الكريم .

﴿ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ ۖ ﴾ (١)

(سورة المائدة)

إن الماضى هو « حسب » - بكسر السين - والمضارع « يحسب » - بفتح السين -  
 أما حُسِبَ « يحسب » - بكسر السين - في المضارع وفتحها في الماضى فهي من الحساب  
 والعدد ، وهو عدد رقم مضبوط .

أمر « حسب » و« يحسب » فتأتى بمعنى الحصى ، والطن كما يعرف امرؤهمى . والحق سبحانه  
 يذكرهم أن طوبى لهم بأن نقاء دينهم هو حبر لهم لست حقاً بل هي حصى وتحمير لا يرفى  
 إلى البقيع .

صحيح أن العمر محسوب بالسنوات ؛ لأن لعمر طرف للأحداث ، والعمر بذاته  
 - مجرداً عن الأحداث - لا يقال إن إصااته حبر أو شر ، وإنما يقال إن العمر خير أو  
 شر بالأحداث التى وقعت فيه ، والأحداث التى تقع من الكافر تقع على غير مخرج  
 إيمان فلا بد أن تكون شراً ، حتى ولو فعل ما ظاهره أنه خير فإنه بفعله مضارة لتبجح  
 الله . فلو كانت المسألة بالعمية الرقمية ، بقسامة حسب « و« يحسب » - بفتح السين  
 فى الماضى وكسر السين فى المضارع - لكن هى مسألة وهمية ظنية ؛ لذلك نقول  
 « حسب » - بفتح السين فى المضارع - أى يظن . وهو سبحانه يقول : « إِنَّمَا نَحْمِلُ  
 هُمْ » ما الإملاء ، الإملاء هو تحديد الوقت وإطالته . ولذلك نجد فى القرآن .

﴿ قَدْ أَرَأَيْتَ إِنْ عَسَىٰ يَنْزِلُ رَبِّهِمْ فِي سَنَةٍ تُرِيدُ لَا يُرْسِلُكَ وَأَخْفَىٰ مِنْكَ ﴾ (٢)

(سورة مريم)

إنه يأمر سيدنا إبراهيم أن يحجره مدة طويلة . هذا هو معنى « وأخفى منى »

والمقصود هنا أن إطالة أعمارهم بعد أن أعلنوا من سيوف المؤمنين ليست حيراً  
 لهم ولا يصح أن يظنوا أنها خير لهم ، لأن الله إنما يملهم ؛ « ليزدادوا إثماً ولهم

عذاب مهين « وهنا نجد « لام العقاب »

ولذلك أن تقول أنها المؤمن إن الله قد فعل ذلك ليعاقبهم . لا ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد وضع سنته في الكون ويطبقها على من يخرج عن منهجه ، فمن يصنع إثماً يعاقبه الله عليه ؛ إنما غي هم يزدادوا إثماً فكل طرف من الرمس يرعاهم يصنعون فيه أعمالاً آتمة على غير المنهج

« ولهم عذاب مهين » وثاني كلمة « مهين » وصفاً للعذاب مناسبة تماماً ؛ لأن الكافر قد يخرج من المعركة وقد غلبته الزهو والمعجب بأن أحداً لم يستطع أن يقطع رقبته بالسيف ، وينته بالعرى الآتمة ، لذلك فالإيلاام هنا لا يكفي ، لأنه قد يكتم الأم وينجلد عليه ، ولكن العذاب عندما يكون مهيناً فهو لعقاب المناسب لكل هذا الموقف . والمتكلم هنا هو الله ، وسبحانه العليم بالمناسب لكل حال

ومن بعد ذلك يقول الحق .

﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ  
حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى  
الْمِيبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِيٰ مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَتَابُوا  
وَاللَّهُ وَرُسُلِهِم وَإِن تَوَلَّوْا فَسَاءَ لَكُمُ الْبَرْ  
عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

وساعة سمع « ما كان » فاعرف أن ما « جعوداً » أي أن هناك من يجحد لقضية . ويسمونها « لام الجعود » . فقس حادثة أحد ، كان المذنبون متداخلين مع

المؤمنين أن كان الله يترك الأمر محتفظاً هكذا ، ولا يظهر المنافقين بأحداث تبين موقفهم الحق من الإيمان ؟ لا ، إنه سبحانه وتعالى لا يقل ذلك ؛ حتى لا يظن المنافقون دسيسة في صفوف المؤمنين . وكان لابد أن تأتي الأحداث لتكشفهم . وجاءت أحداث أخذ لتنهج الصف المسبوب إلى الإيمان ، وتفرزه لتمييز الخبيث من الطيب ، مصداقاً لقوله الحق :

﴿وَمَا أَرْيَدُ فَيَذْهَبُ حُجَّةً ۖ وَأَمَّا مَسْعُوكُ النَّاسِ فَيَمُوتُ فِي الْأَرْضِ﴾

( من الآية ١٧ سورة النحل )

إذن كانت أحداث أخذ ضرورية .

وقوله الحق : « ما كان الله ليلد المؤمنين » مقصود بها أن الله لم يكن ليدع المؤمنين ويتركهم عرضة لاحتلاله المناهض بهم بلون أن يتميز المنافقون بشيء من الأشياء . حتى لا تظل المسألة مقصورة على ما يُعلمه الله لرسوله من أمر المنافقين . فلو أعلم الله رسوله فقط بأمر المنافقين ، ولو أعلن الرسول ذلك للمؤمنين دون اختصار واقعي للمنافقين لكان ذلك مجرد تشخيص نظري للمناق بأن من جهة واحدة . وأراد الله أن تأتي حادثة واضحة وتجربة عملية واقعها تبرز وتظهر الواقع ، حتى يكشف المنافقون ، وحتى لا يعترض أحد منهم عندما يوصف بأنه منافق ، وحتى لا يكون هذا الوصف مجرد كلام من الخصم ، بل بفعل ارتكبه هم عملياً ، وبذلك تكون الحجة قوية للعامة .

لقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى في الصلاة ، لأن كل منافق منهم أراد أن يجلب مسألة منافقه ، ويؤاخره ، فيحرص على ما يدفعه المؤمنون إليه ، والمنافق كان يعرف أن المؤمنين يتسارعون إلى الصلاة ، فهو يسارع ليكون في الصف الأول من الصلاة . ويخبر الله سبحانه وتعالى رسوله :

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعْرِفْتَهُمْ سِجْنُهُمْ وَلَتَعْرِفَهُمْ فِي حَقِّ الْقَوْلِ ۖ وَآلَهُ يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ﴾

( سورة محمد )

أى لو لاحظت كلامهم عرفتهم ، مشبههم مثل كل المنافق فى الدنيا ، تلاحظ فى كلامهم لفظة من يعاقب ، فالمؤمن حين يجلس مع جماعة من المنافق ويأتى وقت صلاة الظهر ويدعو الأذن إلى الصلاة ، تجدد المؤمن يقول فلنقم إلى الصلاة ، وهه يسحر المنافق ويقول للمؤمن لأحدث على حنايت لنجدة يوم لعيامة ومثل هذه الكلمة يكون « لحس العون » أو عندما يدس مؤمن على جماعة من الناس فيهم ماعن ، فيستفسر المنافق المؤمن بنهضة من السحرية فى النجدة ، « كيف حالك أيا الشيخ (فلان) ؟ » ومعنى ذلك أنه غير منزعج لوجود المؤمن فيسحر منه

وذلك من « لحس لقول » الذى يظهر به المنافق

ومثل هذه العمليات عندما يواحيها المؤمن لواعى البشير الذى يتحق الله عليه بالإشرافات التورية ، مثل هذه العمليات تكون عقوداً للمؤمن وتريد من إيمانه ، لأن المؤمن عن مبعج الحق ، وفادر على نفسه ، هذا ما يعيط اساق كثير ، فاساق يسأل به وبين نفسه لماذا بقدر المؤمن عن نفسه ؟ والمنافق لا يقدر على نفسه ، لذلك يريد أن يسحب المؤمن من عهديته ليكون معه على اساق والعباد بالله وعن المؤمن أن يوطن نفسه على أنه سيوجه منافقين يريدون أن يردوه عن الإيمان ، وسيجحد أناس يسحرون منه ويتعامرون عليه ، مصداق لقوله الحق

﴿ إِنَّا لَنَرِيكَ أَتْرَمًا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَاسَرُوا يَصْحَكُونَ ﴾ ٢١ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ

يَتَعَامَرُونَ ٢٢ وَإِذَا أَنْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ أَنْقَلَبُوا فَكِهِينَ ٢٣ وَإِذَا

رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَأَسَاوُونَ ٢٤ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَمِيمًا ٢٥

(سورة التوبة)

والمنافق أو الكافر قد يقول لأهله لقد رأيت اليوم شيخاً أو رجل دين ومتدب فسخرت منه وأهنته ويسخر المنافق بئس هذا العون فى بيته الفاسدة ، ويكشعها الحق له بقوله الكريم ليطمئن المؤمنين ، ويعرض كل مؤمن عما بصيبه من أهل المعاق وانفساء

﴿ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَصْحَكُونَ ﴿٦٢﴾ عَلَى الْآرَائِكِ يَسْطُرُونَ ﴿٦٣﴾ هَلْ نُؤْتِى الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ ﴿٦٤﴾

(سورة النجم)

والحق سبحانه يسأل المؤمنين يوم القيامة هل قدروا أن تجارى الكفار والمنافقين الذين سحرورا منكم ؟ فيقولون : نعم يارب العالمين قد جوروا وأثيوا على فعلهم أوفى الجزاء وأتمه وأكمله .

إن سحرية المنافقين والكافرين من المؤمنين لها أمد ديبوى يقضى ، ولكن السحرية في الأسماء لا تنقضى أبداً . وعندما يقيسها نحن المؤمنين ، نجد أننا الفائزون الرباحون إن شاء الله . فهو ترك أى سائق لتداخل في أحضان المؤمنين ، ولا يظهر ذلك للمؤمنين لكاث المسألة صعبة العلاج ، ولهذا يقول الحق للمرسول صلى الله عليه وسلم :

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَفْرَقَنَّهُمْ فَتَمَيِّزُهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَآلَهُ يَعْلَمُ أَعْمَلُهُ ﴾ ﴿٦٥﴾

(سورة محمد)

والحق لا يكتفى بذلك ، لكنه يكشف لنا واقع المنافقين متحارب معمله حتى لا يقول واحد منهم . لست مسافراً . عندما يظهر الله المنافق ويكشفه بحادثة مدويه فعلية ، ومخجلة بين أنه سائق ، فيكون قد وصم بالنفاق ، لأن كثيراً من أساس الذين يظنون طوال عمرهم ينافقون اعتياداً على أنهم مسلمون في الظاهر لا يتركهم الله ، بل لابد أن يأمر الله لهم بحاطر من الخواطر ويقموا في حج اكتشاف المؤمنين هم حتى يعرفهم المؤمنون ويقيمهم على حقيقتهم ، فسبحانه وتعالى القائل

وما كان الله ليدر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب .

وكلمة « يدرك » تعنى « يترك » أو « يدع » . والدارسون للسحر يعرفون أن هناك فعلين هما « يدرك » و « يدع » ، أهملت العرب العمل الماضى لها ، فهذان الفعلان



ليس هما فعل ماضٍ . ونستعملهما في صيغة المضارع

واحق سبحانه لم يكن ليدع المؤمنين على ما هم عليه من الاحتلاط واندساس المنافقين بهم وعدم معرفة المؤمنين للمنافقين ؛ لذلك يميز ويظهر الخبيث من الطيب . فلا يكتفى باختيار النبي بأمر الخبيث فقط ، ولكنه يكشف الخبيث بفعل وقعي ، فيقول . « وما كان الله ليطلعكم عن الغيب » ؛ لأن الله لو أطلعكم على الغيب لتعرفوا المنافقين لأنكروا أنفسهم مكتم وسروها عنكم ، ولذلك يجري سبحانه الوقائع لتكشف الخبيث من الطيب ، وبعد ذلك يوصم المنافق بالفاق بإقرار نفسه وإقرار الله

« وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء » إنه حل وصلاً يختار من رسله من يشاء ليطلعهم على بعض الغيب حتى يزدادوا ثقة في أن الله لا يتخلف عنهم ، أي يعطى الرسول دلالات على امتيقين ، حتى يرداد الرسول ثقة في أن الله لا يتخلف عنه .

والله يرحمته لا يكشف الغيب لكل المؤمنين ، فلو أطلع المؤمن عن الغيب لفسلت أمور كثيرة في لكون . وَهَبْ أَنْ اللهُ أَطْلَعَ الْإِنْسَانَ عَلَى غَيْبِ حَيَاتِهِ ، فعرف الإنسان ألف حادثة سارة ثم حادثة واحدة مكسرة ، فإن كدر الإنسان بالحادثة الواحدة المكسرة التي تقع بعد عشرين عاماً يفسد على الإنسان تنعمه بالأحداث السارة

وإن كان الإنسان يريد أن يطلع على غيب الناس فهل يقبل أن يطلع عن غيبه أحد ؟ فهاذا تريد أيها الإنسان أن تعرف غيب غيرك ؟ أيرضى أي واحد منا أن يعرف الناس غيبه ؟ لا إذن فستر المعلومات عن الناس وجعلها غيباً هي نعمة كبرى .

ومع ذلك فلكس نلح أن تعرف الغيب . ويري من يجري على لدجالين والعرايين ومن يدعون كدراً أنهم أولياء الله ، وكل ذلك من أجل أن يعرف الواحد بعضاً من الغيب . وهذا يقول ليست مهارة العارف في أن يقول لك ماذا سيحدث لك في المستقبل ، لكنه في أن يقول واحد من هؤلاء المدّعين لمعرفة الغيب : إن حادثة مكروهة سيقع لك ، وسأمنعه أو أدفعه بعيداً عنك لا أحد يستطيع دفع قدر الله ،

ولذلك فسرك المتعل إلى أن يقع ماد ، حتى لا يحيا الواحد منا في انهم والآخر  
قبل أن يقع إذن فقول الحق ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، هو سنة من الله  
لأن نظام الميث يتعلم بها ويحتاج إليها

فكل إنسان له هرات مع نفسه ، وقد نأق له فزه يصعب فيها في شيء من  
الأشياء ، فإذا ما عرف الغير حقيقة الصعاب في إنسان ما ، وعرف هذا الإنسان  
منظمة الصعاب في أحبه ، فسوف يبدو كل الناس في نظر بعضهم بعضاً صعباً  
ومن فصل الله أن أحسن عيب الناس عن الناس وجعل الله إنساناً ما قوياً هي  
لا تعلم ، وذلك قوياً فيما لا تعلم ، وبذلك تسير حركة الحياة بنظامها الذي أراه  
الله

وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجيب من رسله من يشاء ، ولحق  
يحتس من الرسل ، أي بعضاً من الرسل - لا كل الرسل - ليطلعهم على الغيب حتى  
يعطي لهم الأمان بأنهم موصوفون بم رسلكم ، فهو سبحانه م يرسلهم لينحل  
عهم ، لا ، إهم موصوفون به ولذلك يطلعهم على الغيب ، وقد إن الغيب  
أنواع فمطلق الغيب هو ما غاب عنك وعن غيرك ولكن هناك غائباً عنك  
وهو معلوم لغيرك ، وهذا ليس عيباً

مثال ذلك إن صاعته من أحدكم حافظه بقوده ، وسارقها عيب ، ومكسب عيب  
عن صاحبها ، لكن اندي سرقها عارف بمكسبها ، إذن فهذا عيب على المسروق ،  
ولكنه ليس عيباً على السارق إنه ليس عيباً مطلقاً ، وهذا ما يضحك به الدجالون  
على السدح من الناس ، فبعض من الدجالين والمشعوذين قد يتصلون بالشيطان أو  
الحس ، ويقولون للمسروق حكاية ما عن الشيء الذي سرق منه وهؤلاء المشعوذون  
لا يعرفون الغيب ، لأن الغيب المطلق هو الذي لا يعلمه أحد ، فقد استأثر به الله  
نفسه

ومثال آخر لأشياء الانتكارية التي يكتشفها الشر في الكون ، وكانت سرراً  
ولكن الله كشف لهم تلك الأشياء ، وقد يتم اكتشافها على يد كمار أيضاً فهو قان

أحد: بهم عرفوا عيًّا ؟ لا ، لأن مثل هذا الغيب مقدمات ، وهم يحشوا في أسرار الله ، ووقعهم سبحانه أن يأخذوا بأسبابه ما داموا قد بذلوا جهداً ، والله يعطي الناس - مؤمنهم وكافرهم - أسانه . وما داموا يأخذون بها فهو يعطيهم المكافأة على ذلك . والله المثل الأعلى ، وسبحانه منزه عن كل تشبيه ، أقول لكم هذا المثل لتقريب .

المدرس الذي يعطي تمرين هندسة للتلميذ ليقرر بحله ، فهل معنى الحل غيب ؟ لا ، لأن لتلميذ يعرف كيف يحل التمرين الهندسي ، لأن فيه المعطيات التي يتدرج فيها بأسلوب معين فعطى النتيجة . وما دام للتلميذ يخرج نتيجة لتمرين ما بعد معطيات أخذها ، فهذا ليس عيًّا

ولذلك فعلياً أن تعطى إلى أن الغيب هو ما غاب عن الكل ، وهذا ما استأثر الله بعلمه وهو الغيب المطلق ، وهو سبحانه وتعالى يطلع عليه بعضاً من خلقه من الرسل ، وهو سبحانه القائل

﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ۝ إِلَّا مَن رَّزَقْنَاهُ مِن رَّسُولِنَا ﴾

(سورة النحل)

وأم الأمر المحصى في الكون ، وكان عيًّا على بعض من المخلوق ثم يصبح مشهداً لخلق حزين فلا يقال إنه غيب ، وعرف ذلك أثناء تناولنا بالخواصر الآية الكرسي

﴿ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ سَبِيحَ أَيْدِيهِمْ وَمَا جَنَّهُمْ وَلَا يَحِطُونَ شَيْءٌ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ۝ ﴾

(سورة البقرة)

إن الحق سبحانه قد سبب لنا الإحاطة للنشر ، ولكن بادئ منه ، فهو يادن للسر أن يولد ، تماماً كما يوجد للإنسان ميلادات وها أوقات معلومة لميلادها ، كذلك أسرار الكون لها ميلاد . وكل سر في الكون له ميلاد ، هذا الميلاد ساعة تأتي مياعده فإنه يظهر ، ويحيط به لشر . فإن كان لعاد قد بحثوا عن السر وهم في طريق المقدمات ليصلوا إليه ووافى وصولهم ميعاد ميلاده ؛ يكونوا هم المتكشفين له . وإن لم يجد ميعاد ميلاد هذا السر هل يتم اكتشافه . وإذا كان ميلاد السر ولم يوجد عالم محمل يأخذ بالأسباب والمقدمات فإنه يخرج هذا السر كمصادفة لوحيد من البشر . وحيتئذ يقال . إن هذا السر قد ولد مصادفة من غير موعد ولا توقع .

وأسرار الله التي جاءت على أساسها الاكتشافات المعاصرة ، كثير منها جاء مصادفة . فالعلماء يكونون يصعد شيء ، ويعطيهم الله ميلاد سر آخر . إذن ليس كل اكتشاف ابن لبث العلماء في مقدمات ما ، ولكن العلماء يشتملون من أجل هدف ما ، فيعطيه الله اكتشاف أسرار أخرى ؛ لأن ميلاد تلك الأسرار قد جاء والناس لم يشتغلوا بها . ويتكرم الله على خلقه ويعطيهم هذه الأسرار من غير توقع ولا مقدمات

ويستمر مذاق الآية : فأمرنا بالله ورسله وإن تؤمنوا وتقفوا فلنكم أجر عظيم ، وهو سبحانه يخاطب المؤمنين والحق سبحانه وتعالى إذا خاطب قوماً بوصف ، ثم طلب منهم هذا الوصف في معناه ؟ ومثال ذلك قول الحق سبحانه

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا ﴾

( من الآية ١٣٦ سورة البقرة )

إنهم مؤمنون ، والحق قد ناداهم بهذا الوصف معنى ذلك أنه يطلب منهم الالتزام بمواصفات الإيمان على مر الأزمان ، لأن الإيمان هو يقين بموضوعات الإيمان في طرف رمي ، والأزمان متعاقبة لأن الرمز ظرف غير قار . وه غير قار ، نعى أن الحاضر يصير ماضياً ، والحاضر كان مستقبلاً من قبل . فالماضي كان في ابدية مستملاً ، ثم صار حاضراً ، ثم صار ماضياً . والرمز « ظرف » ، وبكـ ظرف غير قار . أي غير ثابت . لكن المكان ظرف ثابت قار . فكان الله يخاطبك إن الرمز الذي مر قبل أن يخاطبك شغل بإيمانك ، والرمز الذي يجي . أيضاً اشغله بالإيمان

إذن معنى ذلك يا أيها الذين آمنوا دوّموا على إيمانكم . « وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم اجر عظیم » ولنا أن نتصور عظمة عطاء الحق ، فالمنهج الإيماني يعود خيره عن من يؤديه ، ومع ذلك فانه يعطى أجراً لمن اتبع المنهج . إذن فعندما يضع الحق سبحانه وتعالى متبعاً فإنه قد فعله لصالح البشر وأيضاً بشيهم عليه ، وهو يقول

﴿ لَنِ اتَّبِعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَسْتَقِنُ ﴾ (١٧٧) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِىَ فَإِنَّ لىَّ  
مَعِيشَةً حَنْدَسًا وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٧٨﴾

(سورة طه)

إن المتبع للمنهج يأخذ معه ساعة تأدية هذا المنهج . ويزيد الله فوق ذلك أنه سبحانه يعطى المتبع للمنهج أجراً ، وهذا محض الفضل ، وقلت من قبل : إن العمر الذى يمهده الله للكافرين والمناقين ليس حيراً إذ عمل الناس أن يأخذوا المسائل والأرمة بتبعات وآثر ونتائج ما يحدث فيها .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ  
مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلّهِ مِيرَاتُ السَّمٰوٰتِ  
وَالْأَرْضِ وَاللّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ (١٨٠)

قد ظن بعض من المنافقين والكفار أن طول العمر ميزة لهم ، وهامحى أولاء بصدد قوم آخرين طنوا أن لماك الذى يجمعونه هو الخير فكلما زاد فرحوا . فيقول الحق : « ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله » . فإلك قد جاءهم من

فصل الله ، ذلك بأنهم دخلوا الدنيا بغير جيوب . ولا أحد فينا قد رأى كماً في جيوب . ولا أحد فينا قد رأى قباط طفل وليد له جيوب . فالإنسان يدخل الدنيا بلا جيب ، ويخرج بلا جيب . وكل ما باق للإنسان هو من فصل الله ، فلا أحد قد ابتكر الأشياء التي يأن منها الرق . ويمكن أن تبتكر من ررق موجود . فتطور في الوسائل والأسباب وللإنسان جزء من الحركة التي وهبها الله له ليصرف في الأرض ، ولكن لا أحد يأن بأرض من عده ليزرع فيها ، ولا أحد باق بيدور من عنده لم تكن موجودة من قبل ويررعها ، ولا أحد يأن بماء لم يوجد من قبل ليروي به ، فالأرض من الله ، واليدور عطاء من الله ، والماء من ررق الله ، وحتى الحركة التي تتحرك بها الإنسان هي من فضل الله

فما لله لو أراد إنسان أن يحمل العأس ليصرف في الأرض خربة ، فهل يعرف الإنسان كم عضبة من المصللات تتحرك ليرفع العأس ؟ وكم عضلة تتحرك حين ينزل العأس !!

وعندما يصرب الإنسان انفاس فهو يضربها في أرض الله . والذي أراد لنفسه كأساً فإنه يذهب إلى الحداد ليصنعها له ، لكن هل سأل الإنسان نفسه من أين أتى الحديد ؟ وفي هذه قال الحق .

﴿ وَأَرْكَنَ الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ ﴾

( من الآية ٢٥ سورة الحديد )

إذن فماذا توجد أت أيها الإنسان ؟

أنت تأخذ المواد الخام الأولية من عند الله ، وتبذل فيها الحركة المسموحة لك من الله ، وأنت لا توجد شيئاً من معدوم ، بل إنك توجد من موجود ، فكل شيء من فضل الله . وأنت أيها الإنسان مضارب في كون الله . فمفدك الذي يفكر ، من الذي خلقه ؟ إنه الله . وجوارحك التي تفعل للعقل من الذي خلقها ؟ إنه الله .

وجوارحك تفعل في متعمل هو لأرض ، بآلة هي العأس ، ثم ترونها بماء هو

نزل من السماء ، فما الذي هو لك أيها الإنسان ؟ إن عليك أن تعرف أنه ليس لك شيء في كل ذلك ، إنما أنت مصدوب لله . فتعطيه حين المصارفة .

والحق سبحانه لا يطلب إلا قدرًا بسيطاً من تاج وشعرة الأرض إن كانت بروى بجاء السماء فعليك عشر نتائجها وإن كانت لأرض بروى بالة انطبور أو الساقية فعليك نصف العشر

والذي يزرع أرضاً فإنه يحرقها في يوم ، ويرويه كل أسبوعين

أما الذي يتسحر في صعقات نيجرية فهي تتناح إلى عمل في كل لحظة ، وبذلك فإن الحق قدر الركة عليه بمقدار اثنين ونصف بالمائة إذن فكلما رادت حركة الإنسان قلل الله قدر الركة وهذه العملية على عكس البشر فكلما رادت حركته . فإهم يأخذون منه أكثر !!

والله سبحانه يريد أن توجد الحركة في الكون ، لأنه إن وجدت الحركة في الكون استمع الناس وإن لم يقصد التحرك . وبعد ذلك فإن يذهب الذي يأخذه الله منك ؟ إنه يعطيه لأح لك ولغيره . فإدام سبحانه يعطى أنسا لك ورميلاً لك من ثمره ونتيجة حركتك ، فهي هذا الطمأن وأمان لك ، لأن العبر سبحانه يعطيك لو صرت عاجراً غير قادر على الكسب . وفي هذا طمأنينة لأغبار الله فيك فإن جاءت لك الأعمار فتجد أنسا يساعونك ، وبذلك يتكاتف المجتمع ، وهذا هو التأمين الاجتماعي في أرقى معانيه . أليس التأمين أن تعطي وأنت ووجد وأن تأخذ وأنت فاقد ؟ إذن فهذا كله من فضل الله .

« ولا يحسن لدين يعملون بما اتهم الله من فضله هو خير لهم بل هو شر لهم » إن الذين يعملون بمصل الله يظنون أن النحل خير بمجرد أنه يكسب عندهم الأموال ، وليس ذلك صحيحاً ، لأن الحق يقول . « سيطوفون ما يبخوا به يوم القيامة » أي أب ما يخلوا به يصعبه الله طوقاً في رقعة النحل ، وساعة يرى الناس الصوف في رقعة النحل يقولون : هذا مع حق الله في ماله

و لرسول صلى الله عليه وسلم يصور هذه المسألة تصويراً دقيقاً حين يبين لنا أن من يطلب منه حق الله ولم يؤدّه ، يأق المال الذي معه ونفسه ويحلى به يتمثل لصاحبه يوم القيامة « شجاعاً أقرع » وهو ثعبان ضخم ، ويطلق ريقه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من أتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مثل له شجاعاً أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة بأحد بلهر منيه - يعنى شقيقه- يقول : « أنا مالك أنا كرك » ثم تلا قوله تعالى : « ولا يحسب الذين يحلون بما آتاهم الله من فضله » إلى آخر الآية (١)

إذن هالدى يدحر بحلاً على الله ههه برید من الطوق الذى يلتف حول رقبتنه يوم  
القمامه .

« والله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير » نعم فلله ميراث السموات والأرض ، ثم يضعها من يشاء ، فكل ما في الكون سبيته إلى الله ، ويورعه الله كيف يشاء . إن الإيمان يدعو أولاً لشغل الصدقة في حالة بلوغ الروح الخفوض ، فقد روى عن أبي هريرة أنه قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله أي الصدقة أعظم أجراً ؟ قال : « أن تصدق وأنت صحيح ضحيع تحشى المقر وتأمل المعنى ولا تفعل حتى إذا بلغت الخلقوم قمت لملاّن كذا ولملاّن كذا وقد كان لملاّن » (١) لأنه عند وصول الروح إلى الخلقوم لا يكون له مال

قول الحق : والله بما تعملون خبير ، قصبة تجعل القلب يرتجف خوفاً ورجياً ،  
 فقد يدلس الإنسان على الشر ، فتجد من يتهرب من الضرائب ويصبح تزويراً  
 دعتين للضرائب ، واحداً للكذب الصحيح وآخر للحجارة المخاطة ويكون هذا  
 المنهرب من الضرائب يملك المال ثم يكره ذلك ، هذا الإنسان عليه أن يعرف أن الله  
 خبير بكل ما يعمل . وبعد ذلك يقول الحق :

﴿لَمَّا سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الْبَيْتِ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ فَاقْرَءْ﴾

١٠) في بعض الحالات من هذا النوع قد لا يصح أن يجرى

٢٣٥ حرجه للمغازي وكتاب الزكاة باب في صدقه الفطر



## وَعَنْ أَعْيَانِهِ سَمَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِعَمْرٍ حَتَّى وَنَقُولُ دُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨﴾

روى - في سبب نزول هذه الآية الكريمة - قال سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضى الله عنهما - لما نزل قوله تعالى « من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة » قال اليهود يا محمد افتقر ربك ، سأل عباده القرض ؟ فانزل الله « لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ويحيى أعياء » (١) .

وانذين عايشوا الإسلام في المدينة كانوا من اليهود . واليهود كما نعرف كانوا يبدلون ويفجرون على العالم بأنهم أهل كتاب وعلم ومعرفة ، ويدلون عن البيعة التي عاشوا فيها أنهم ملوك الاقتصاد كما يقولون الآن عن أنفسهم كل من يريد شيئا يأخذه من اليهود وكانوا يبنون الحصون ويأتون بالأسلحة لتدل على القوة وحاء الإسلام وأحد منهم هذه السيدات كلها ، ثم تمتعوا بمرايا الإسلام من محافظة على أموالهم وأمنهم وحياتهم .

أكان الإسلام يتركهم هكذا يتمتعون بما يتمتع به المسلمون أمناً واطمئناناً ، وسلامة أيدان وسلامة أموال ثم لا بأحد منهم شيء ؟ لقد أخذ منهم الإسلام الجزية فلم يكن من المقبول أن يدفع المسلم الركة ويجلس اليهود في المجمع الإيماني دون أن يدفعوا تكلفة حمايتهم . ولذلك أرسى الرسول صلى الله عليه وسلم سيدنا أبا بكر إلى اليهود في المكان الذى يتدارسون فيه . فعن ابن عباس قال : دخل أبو بكر الصديق بيت المدراس فوجد من يهود باسماً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له فنحاص ، وكان من علمائهم وأخبارهم ومعه جبر يقال - أشيع ، فقال له أبو بكر : ويحك يا فنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله من عند الله قد جاء بالحق من عند الله ، فجدونه مكتوباً عندكم في التوراة والإنجيل ، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما ب إلى الله من حاجة من مقر ، إنه

إليها لعنير ، ما تنصرع إليه كما يتصرع إثينا وأنا عنه لأضياء ، ولو كان عنا عباً ما استقرهن ما كما يزعم صاحبكم ، ينهاكم عن الرب يعطيا ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا فنصب أبوبكر - رضى الله عنه - فصر وجهه فحاصر ضربا شديداً ، وقال - والذي نفسى بيده لولا الذى يسا ويسك من العهد لضررت عنك يا عدو الله فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين<sup>(١)</sup>

فذهب فحاصر إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم فقال : يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما حدثك عن ما صنعت يا أبا بكر ؟ فقال يا رسول الله : إن عدو الله قال قولاً عظيماً ، يزعم أن الله فقير وأهم عنه أغنياء فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضررت وجهه ، فحصد فحاصر ذلك وقال : ما قلب ذلك . فأنزل الله فيها قال فحاصر : لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء<sup>(٢)</sup>

هؤلاء لم يظنوا إلى سر التعبير الجميل في قوله سبحانه .

﴿ مَنْ ذَا الَّذِي قَرَضَ اللَّهَ قَرْضًا حَسًّا ﴾

( من الآية ١٦ سورة الحديد )

فإن هذا القول هو احترام من الحق - سبحانه - لحركة الإنسان في التملك لحدا احترام الله حق الإنسان في التملك ؟ هو سبحانه يريد أن يغري المتحرك بزيادة الحركة ، ويعمل غير المتحرك على أن يتحرك فإن طلب سبحانه شيئاً من هذا المثل فهو لا يقول للإنسان : أعطنى ما أعطيت لك . بل كآته سبحانه يقول : إني سأحترم عرقك ، وسأحترم حركتك ، وسأحترم فكرك ، وسأحترم حوارك وطاقاتك وكل ما فيه ، فإن أحدث منك شيئاً قلت أقول لك أعطنى ما أعطيت لك ، لكن أقول لك أقرضها لى ؟ وإن أقرضتها فسوف تقرضها لا لأنتفع بها ، ولكنها لأخيك وقد اقترض من الغادر في بعد وذلك لك أنت إذا أصابت الحاجة لحدا ؟ لأبى أنا الله الذى استدعيت خلقى إلى الوجود وما دمت أنا الله الذى استدعيت الخلق إلى

( ١ ) أكذبونا . يئوا وأظهروا كذبنا

( ٢ ) تفسير القرآن العظيم لابن كثير .

الوجود فلذا قههم مطلوبة من

إن الواحد من البشر عندما يدعو النور من أصدقائه فهو يصنع معلماً يكفى خمسة أو عشرة أشخاص . وما دام الله هو الذى استدعى الخلق إلى الوجود فهو الذى يكفلهم البرق . وعندما يكفل لهم البرق فلا بد أن يتحركوا . وعندما يتحركون فهو سبحانه يصمم آثار الحركة ، وذلك حتى يبال كل ما برصيه ، أو على الأقل ما يكفيه من الضروريات

ولذلك عندما جاءت آثار الحركى من المال وتدخل البشر فيها بامبياً وعبر ذلك من الإجراءات فلت الحركة . لكن الله سبحانه وبعلى يعلم حرص الإنسان على مبدعة نفسه فيعبره بذلك حتى يتحرك ويستمتع المجتمع بحركته ، سواء قصد الإنسان أو لم يقصد . إذن نحن بقرص الحق سبحانه وبعلى من بعض خلقه لبعض خلقه ، فهو سبحانه لا يتراجع فيها وهذا . بل يقول جل وعلا .

﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ أَهْزُؤًا وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ١١﴾

( سورة الحديد )

وأصرب هذا المثل - والله المثل الأعلى - نحن البشر قد نضطر إلى هذا الموقف ، بالواحد ما عندما يعطى أبناء مصروف ليد ، فكل ابن يدخر ما يبقى منه ، وبعد ذلك يأتي ظرف ببعض الأبناء يتطلب مالاً ليس في مكنة الوالد ساعة يأتي الحدث فيقول الوالد لأبنائه أقرضوني ما من حصالانكم ، وبأردها لكم مضاعفة ، هو أخذها لأخيهم ، لكن لأن الذى وهب أولاً فلم يرجع في الهبة ، لكنه طلبها قرضاً وعندما يأتي أول الشهر فهو يرد القرض مضاعفاً ، فإن كان ذلك ما يحدث في مجال البشر فما بالك بما يحدث من الخالق الوهاب لعباده ؟ هو سبحانه يقول : « مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا » .

لكن اليهودى لم يأخذ المسألة بهذا المعنى ، لكنه أخذها بمعناه المادى فقال : إن الله فقير ونحن أغنياء . لذلك قال الحق سبحانه : « لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا » .

ولماذا يكتب الله ذلك وهو العالم بكل شيء ؟ جاء هذا القول ليدل على التوثيق أيضاً ، فممن يأتي هذا الرجل ليقرأ كتابه يوم القيامة بمجدها مكتوبة ؛ فالكتابة لتوثيق ما يمكن أن ينكر - بادئنا للسجهرول - فهذا كان العلم من الله فقط فالعبد قد يقول .

- إنيك يارب الذي تعاقب علك أن تقول ما تقول فإذا ما كان مكتوباً عليهم ليقرأوه . فهذا توثيق لا يمكن إنكاره

ولم يفهم ذلك اليهودي أن لقرص الله هو تلطف من الحق سبحانه وتعالى واستندار لحسان الإنسان على الإنسان فقد شاء الحق أن يحترم أثر عهودك وعرقك أيها الإنسان ، فإن وصلت إلى شيء من المال فهو مالك ، ولم يقل الله بك أعط أحبك ، سبحانه وتعالى تعطى مع حلمه يقول أفرصى ؛ ليضمن الإنسان أن ما أعطاه إنما هو عدل . لكن أدب بني إسرائيل مع الله مفقود ، فقد قالوا من قبل .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ ﴾

( من الآية ٦٤ سورة المائدة )

وسب ذلك أنه أصابتهم سنة وجذب وذلك بسبب تكذيبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ابن عباس : « إن الله وسع على اليهود في الدنيا حتى كانوا أكثر الناس مالا ، فلما عصوا الله وكفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وكذبوه صبق الله عليهم في رمة صلى الله عليه وسلم ، فقال سبحانه بن عاروراء ومن معه من يهود : يد الله مغلولة فأنزل الله هذه الآية . إنهم قالوا : السباء بجلت عليا ويد الله مغلولة ، فلم تعطوا رزقاً . هكذا كان اجترؤهم في الحديث عن الله « يد الله مغلولة » ونعرف أن « العل » هو ربط اليليس سلسلة .

وهاهم أولاء يجترئون مرة أخرى فيقولون : « إن الله فقير » . ويورد الحق سبحانه كل ذلك تسلية لسيدنا محمد حتى إذا ما احتراوا عليه بكلمة أو على أصحابه باستهزاء ، سبحانه يوضح لرسوله . أنهم لم يصنعوا ذلك معك ولا مع أتباعك ،

إن هذا هو موقفهم مني أن . فإذا كان موقفهم وسوء أدبهم وصل بهم إلى أن يجترئوا على ادعاء المقدسة العلية ، ويقولون . « إن الله فقير ونحن أغنياء » ويقولون . « يد الله معلومة ، اقتحرون ونأسى عن أن يقولوا لك أو لأتباعك أي شيء يسوع إليكم ؟ »

إنها نعمت المواساة من الله لرسوله ونعمت التسلية ويضيف الحق : « سنكتب ما قالوا » . لماذا يكتب الله ما قالوا مع أن علمه أزلي لا ينسى ؟

﴿ لَا يَهْدِي رَبِّي وَلَا يَهْدِي ﴾

( من الآية ٥٢ سورة طه )

لقد جاءت كلمة « سنكتب » حتى لا يواجههم سبحانه وتعالى يوم القيامة بما يقولون هو إنهم فعلوه ، ولكن بما كتب عليهم وليقرأوه بأنفسهم ، وليكون حجة عليهم ، كأن الكتابة ليس كما نرى فقط ، ولكنها تسجيل لمصوت وللأحاسيس ، ويأتي يوم القيامة ليحدد كل إنسان ما فعله مسطور .

﴿ اقْرَأْ كُتِبَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ حَسْبًا ﴾

( سورة الإسراء )

وهذا القول يدل على أنه ساعة يرى الإنسان ما كتب في الكتاب فيعرف أنه منه ، وإذا كنا نحن الآن نسجل على خصوصاً أنفاسهم وكتابتهم أتسعد على من علمنا ذلك أن يسجل الأنفاس والأصوات والحركات بحيث إذا قرأها الإنسان ورآها لا يستطيع أن يكابر فيها أو ينكرها ؟ « سنكتب ما قالوا » وهم قالوا « إن الله فقير ونحن أغنياء » وهذا معصية في القمة ، وتسجيل على الذات انعمية ، ولم يكتفوا بذلك بل قتلوا الأنبياء الذين أرسلهم الله لهدايتهم ، لذلك يقول الحق « سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بخير حق » .

وعندما يأتي هذا التبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فهو تسلية له من الحق سبحانه . لقد قالوا في ربك يا محمد ما قالوا ، وقتلوا الأنبياء إخوانك ، فإذا صنعوا معك ما صنعوا فلا تحزن وسوف يجازون على ما كتبناه عليهم بشهادة أنفسهم ، ونقول ذوقوا عذاب الحريق والحريق يصح ، بلأماً إحساسياً في النفس

والإحساس يختلف من حساسة إلى أخرى ، فمرة يكون الإحساس بالبصر ، ومرة بالأذن ، ومرة بالشم أو باللمس أو بالذوق

والذوق هو سيد الأحاسيس ، فهو لا يضيع من أحد أبداً ، فقد نجد إنساناً أعمى ، وآخر أصم ، أو شخصاً ثالثاً أصيب بالشلل فلا تستطيع يده أن تلمس ، وقد يصاب واحد بركام مستر فلا يصبح قادراً على الشم ، أما الذوق فهو حساسة لا تحتفى من أى إنسان ، ذلك أن الذوق أمر من داخل اندابت ، لذلك فهو أبليغ في الإيلام ونجد الحق سبحانه وتعالى يقول

﴿ وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِيَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَرَّرْتَ بِأَنعَمِ اللَّهِ فَأَذْنَفَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٧﴾ ﴾

(سورة النحل)

انظر إلى لتعبير الفروى « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » . جاء لتعبير بالإدافة ، وجاء بشئ لا يذاق وهو اللباس . وهل اللباس يذاق ؟ لا ، لكنه سبحانه يريد أن ييبه الإنسان إلى أن كل الخواص التي فيه تحس ، حتى تلك الحاسة المختفية داخل النعس ، إن ذلك يشغل كل جزء في الإنسان .

فالإدافة تحيط بالإنسان في هذا التصوير البياى القرأى الكريم « فأذاقها الله لباس الجوع والخوف » . إذن فهي شدة وقع الإيلام ، واستيصاد العذاب المؤلم لكل أجزاء الجسم حتى صار الذوق في كل مكان . « دوفوا عذاب الحريق » ، والحريق هو لنار القوية التي تخرق . ومن بعد ذلك يقول الحق

﴿ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ ﴾

« ذلك » إشارة إلى عذاب الخريق والحق سبحانه لم يظلمهم ، لكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم « بما قدمت أيديكم » فهل معنى ذلك أن كل المعاصي من تقديم اليد \* إن هناك معصية بلعين ، ومعصية للسان ، ومعصية للرجل ، ومعصية للقلب ، ولا حصر للمعاصي فلماذا إذن قال الحق « بما قدمت أيديكم » ؟

قال الحق ذلك لأن الأعمال الطاهرة تُدرس عادة باليد ، فاليد هي المخرجة التي تفعل بها أكثر أمورنا ، ومعنى ذلك يكون قول الحق : « بما قدمت أيديكم » مقصود به : « بما قدمت أي جارية من الجوارح .

وبعد ذلك يجربنا سبحانه . « وأن الله ليس بظلام للعبيد » لقد أداقهم عذاب الخريق نتيجة ما كتبه عليهم ؛ من قول وفعل والقول هو الافتراء باللسان حين قلوا « إن الله فقير ونحن أغياء » والمعمل هو قتلهم الأنبياء فهم يستحقون ذلك المذاب

والقضية العامة في الإله وعدالة الإله أنه ليس بظلام للعبيد

وبما وقع لخصوم الإسلام من المستشرقين ، هم يقولون الله يقول في قرآنهم « وأن الله ليس بظلام للعبيد » ، وكلمة « ظلام » هي مبالغة في كلمة « ظلم » ، فيه « ظلم » وفيه « ظلام » ، و« نضام » هو الذي يظلم ظلماتاً قومياً ومتكرراً ، و« ظلام » هي صيغة مبالغة في « ظلم »

وحق نرد عليهم لا بد لنا أن نعرف أن صيغ المبالغة كثيرة ، حالقويون يعرفون أنها : فَمَالٌ ، فَعِيلٌ ، مَفْعَالٌ ، فَعُولٌ ، فَعِيلٌ ، فُظْلَامٌ مثل قول : « أكل » ، ومثل قولنا : « قَتَلَ » بدلاً من أن نقول « قَاتَلَ » فالقاتل يكون قد ارتكب جريمة القتل مرة واحدة ، لكن الـ « قَتَلَ » هو من فعل الجريمة مرات كثيرة وصار القتل حرفته ومثل ذلك « ناهب » ، ويقال لمن صار النهب حرفته : « نَهِبَ » أي أنه إن نهب ينهب كثيراً ، ويعد النهب في اناس

وهذه تسمى صيغة المبالغة وصيغة المبالغة إن وردت في الإثبات أي في الأمر

الموجب فهي تثبت الأقل ، فعندما يقال : « فلان ظلام » فالثابت أنه ظلام أيضاً ، لأننا ما دمت قد أثبتنا المبالغة قلنا تثبت الأقل . ومثل ذلك بقول : « فلان علام » أو « فلان علامة » فمعنى ذلك أن فلاناً هذا صلم . ولكن إذا قلنا « فلان عالم » فلا يثبت ذلك أنه « علامة » فصيغة المبالغة ليس معناها « اسم فاعل » محض ، إنها أيضاً اسم فاعل مبالغ فيه ، لأن الحدث يأتي منه قوياً ، أو لأن الحدث متكرر منه ومتعدد . فإذا ما أثبت صفة المبالغة فمن باب أولى تثبت صفة غير المبالغة . فإذا ما قال واحد : « فلان أكل » فإنه يثبت لنا أنه أكل ، هذا في الإثبات

والأمر يختلف في النفي . إننا إذا نفينا صفة المبالغة ، فلا يستلزم نفي الصفة الأصلية ، فإن قلت : « فلان ليس علامة » فقد يكون عادياً وهكذا بهم لأن الإثبات يختلف عن النفي . فإذا أثبت صفة المبالغة تثبت الصفة التي ليس فيها مبالغته من باب أولى . أما إذا نصبت صفة المبالغة فلا يستلزم ذلك نفي الصفة الأقل .

والنذيل للآية التي نحن بصددنا الآن هو : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » .

يقوم المستشرقون من هذا القول أنه مجرد نفي للمبالغة في الظلم ، لكنها لم تنف عنه أنه ظالم ولم بهم المستشرقون نادا تكون المبالغة هنا . إن الحق قد قال : إنه ليس بظلام للعبيد ، ولم يقل إنه ليس بظلام للعبيد . ومعنى ذلك أنه ليس بظلام للعبيد من أول آدم إلى أن تقوم الساعة ، ولو ظلم كل هؤلاء - والعياذ بالله - لقال إنه ظلام ، حتى ولو ظلم كل واحد أبسر ظلم . لأن الظلم تكرر وذلك يتكرر من ظلمهم وهم العبيد، فإن أريد تكثير الحديث فليقطع المعنى منهم إلى أن الله قال : « وأن الله ليس بظلام للعبيد » ولم يقل إنه ليس بظلام للعبيد .

وإذا كان الظالم لا يد أن يكون أقوى من المظلوم ، إذن فكل ظلم يتم تكيفه بقوة الظالم . ولو كان الله قد أباح لفسه أن يظلم فلن يكون ظالماً ، لأن عظم قوته لن يجعله ظالماً بل ظالماً .

فإن أردنا لحدث فيكون ظالماً ، وإن أردنا تكراراً للحدث فيكون ظالماً . ونحن



يحاول بعض المستشرقين أن يستدركوا على قول الحق «وأن الله ليس بظلام للعبيد» فهذا الاستدراك يدل على عجز في فهم مرامي الألفاظ في اللغة أو أن هؤلاء يعلمون مرامي الألفاظ ويحاولون عيش الناس الذين لا يملكون رصيداً لغويّاً يفهمون به مرامي الألفاظ . ولكن الله سبحانه وتعالى يسحر لكتابته من يبه إلى إظهار إعجازه في آياته .

وبعد أن انتهى الحق من عروة أخذ ، فهو سبحانه يريد أن يقرر مبادئ يبين فيها معسكرات العداء للإسلام ، معسكر أهل الكتاب ، ومعسكر مشركي قريش في مكة ، ومعسكر المشركين الذين حول المدينة وكانوا يعيرون على المدينة .

فبعد عروة أخذ التي صفت ، وربت ، وامتنحت وابتلت ، وعرفت الناس قضايا الدين ، أراد الحق بعدها أن يصحح المبادئ .

فلو صح القرآن : أن هؤلاء أعدائكم ، يذكروهم جيداً ، قتلوا في ربكم كذا ، ويقولون في رسولكم كذا ، وقتلوا أنبياءكم .

ومن بعد ذلك يقول الحق سبحانه :

﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا لَآ نُؤْمِنَ  
لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ  
جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّن قَبْلِ يَاسِينَتِ وَيَآلِذِي قُلُوبٍ قَلْبُهُ قَلْبٌ  
قَلْبُهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

هم يذمون ذلك ويقولون : ربنا قل لنا هذا في التوراة ، إياكم أن تؤمنوا برسول

يأتيتكم ، حتى يأتيتكم بمجرة نحسة ، هذه المعجزة السُّحرة هي أن يقدم الرسول قرناً فتزل نار من السماء تأكل

هذا كان صحيحاً ، وكلنا نسمع قصة قابيل وهابيل :

﴿ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ نَارَ آتِيَّةٍ أَدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُنْجَلِ  
مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَا أُقْبَلُكَ قَالَ إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾ لَهُمْ بَسُطَتْ إِلَى  
ذَلِكَ بُتُغَاتِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأُتِلَّكَ إِنَّي أَخَافُ أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨﴾ ﴾

(سورة المائدة)

ويزيد أن يقبل على القرآن وتدبر لماذا جاء هذا اللفظ : « فتقبل من أحدهما ولم يتصل من الآخر » ؟ إن القبول من الله ، وهو مسألة سرية عنه ، فكيف نعرف نحن أن الله تقبل أو لم يتقبل ؟ لا بد أنه الله قد جعل للقبول علامة حسية . ونحن نعرف أن الإنسان قد يعمل عملاً فقبله الله ، وسجد إنساناً آخر قد يعمل عملاً ولا يقبله الله والعياذ بالله ، فمن الذي أعلمنا أن الله قد قبل عمل إنسان وقربانه ، ولم يقبل عمل الآخر وقربانه ؟

وبما أن القول سر من أسرار الله إذن فلم نعرف علامة القبول إلا إذا كانت شيئاً حسياً ، مدليل قوله . « فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر » . وقال الذي لم يتقبل الله قربانه . « لأقْبَلْتُكَ » ، كأن الذي قبل الله قربانه قد عرف ، والذي لم يتقبل الله قربانه قد عرف أيضاً ، إذن فلا بد أن هناك أمراً حسياً قد حدث .

وقلنا إن الله كان يخاطب خلقه على قدر رشد عقولهم حساً ومعنى ، ولذلك كانت معجزاته سبحانه وتعالى للأنبياء السابقين لرسول الله هي من الأمور السُّحرة فالمعجزة التي آتاها الله لإبراهيم كانت ناراً لا تحرق ، وعصا سيدنا موسى تنقب حية ، وسيدنا عيسى عليه السلام يرى الأكمة والأبرص ويخبر الموتى بإذن الله . والمعجزة الحسية لها حيرة أنها تقنع الحواس ، ولكنها تنتهي بعد أن تقع لمرة واحدة لكن المعجزة العقلية التي تناسب رشد الإنسانية ، هي المعجزة الباقية ،

وسحق نطل معجزة ثانية فلا يمكن أن تكون حسبة .

إذنا عندما تأتي معجزة خالدة لرسول هو حاتم الرسل ، والذي سوف تقوم القيامة على المنهج الذي جاء به ، هذه المعجزة لا بد أن تكون ذات أمد عتد ، والامتداد يناقض الحسبة ؛ لأن الحسبة نطل محصورة طيس رآها ، والذي لم يرها لا يقوطا ولا يؤمن بها إلا إذا كان على ثقة عظيمة من أخبره بها . واسا آدم ، قابيل وهابيل قرب كل منها قربانا

وه قربان ، مثلها في اللغة مثل « عمران » وه « خلوان » والقربان هو شيء أو عمل يتقرب به العبد من الله . وقول- هذا العمل من امر هو سر من أسرار الله . فما الذي أدري هؤلاء أن قربان هابيل قد تقبله الله ولم تقبل لله قربان قابيل ؟ لا بد أن يكون المسألة حسبة . ولا بد أن قابيل وهابيل قد احتسبا ، وكى القرآن لم يقل لنا على ماذا احتسبا ، إنها دعوى أن واحدا منها مقرب إلى الله أكثر ، ولكن ماى شكل ؟ لم يظهر القرآن لب ذلك ، وبو كى المسألة مهمة لأطهرها الله لنا في القرآن الكريم ، فلا تقبل كان الخلاف على روح أو غير ذلك . فالذى ظهر لنا من القرآن أن خلافا قد وقع بينهما أو أمهما قد حكما الساء . ومبدأ التحكيم الساء لا يستطيع أحد أن يقصه وكان لكل واحد منهم شبهة . وعندما قامت الشبهة التى تقابل ضد الشبهة التى لهايل ، فلا إقناع من صاحب شبهة لصاحب شبهة ، ولذلك ذهب إلى التحكيم .

وسمن في عصرنا الحديث عندما يختلف على شيء . فإنا نقول . سجرى قرعة وذلك حتى لا يرصع إنسان لوى إنسان آخر ، بل يرصع الاثنان لنقد ، فيكتب كل منهما ورقة ثم يتركان ثالثا يحدد إحدى الورقتين . أما هابيل وقابيل فيذكر القرآن الكريم : « وائل عليهم بأبى دم بالحق إذا قربا قربانا فتقل من أحدهم ولم يتقبل من الآخر » .

إذن فكل واحد منها كانت له شبهة ، ولا أحد منها يقادر على إقناع الآخر ، لذلك قال قابيل بعد أن قبل الله قربان هابيل : « لأنتللك » فإذا قال هابيل ؟ قال : « إنما يتقبل الله من المتقين »

إدنى والذي يتقبل الله منه القربان هو الذي سبقت ، والذي بجلاء العبط هو من م  
يتقبل الله قربانه ، وهو الذي سوف يقبل . فإدنى قال صاحب القربان المفضل

لَنْ يَسُطَّ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْنَتِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْنَتِكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ  
رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾

(سورة المائدة)

إدنى بهذا أهل لأن يتقبل الله قربانه ، لأنه متيقظ الصمير عن هج الساء ، وهذه  
حيثية لتقبل القربان

وحق لا ظن أن الأحرار قابل ، كله شر لمجرد أن الشهوة سيطرت عليه ، لكن  
الحق يظهر لنا أن فيه بعض الخير ، ودليل ذلك قول الحق :

﴿ طَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِي فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿٢٩﴾

(سورة المائدة)

وهذا القول يدل على أنه تردد ، فلا يقال : « طَوَّعَتْ لَهَا » ، ولكن يقال  
« طَوَّعَتْ لِحَدِيدِ » ، فكان الإيمان كان يعارض النفس ، إلا أن النفس قد غلبت  
وطوَّعت له قتل أخي وعندما قتل قابيل أخاه وهدأت شره العصب وسُبحار  
الانتقام ، رأى أخاه ملقى في العراء :

﴿ فَجَعَلَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحِثُ فِي الْأَرْضِ لِيُخَبِّرَهُمْ كَبَفَ بُورِي سَوَةَ أَخِي قَالَ يَبْرِيَلَقَ  
أَجْمَزْتُ لَنْ أَسْكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأَوْرِي سَوَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ  
الْخَاسِرِينَ ﴾ ﴿٣٠﴾

(سورة المائدة)

وعلى هذا السبق قال اليهود إن الله أوصانا ألا مؤمن برسول إلا بعد أن يأتي  
بمعجزة من السموات لماذا قالوا ذلك ؟ قالوا ذلك لأن معجزة رسول الله  
الكبرى وهي القرآن الكريم لم تكن من ناحية المعجزة ونتهى عهد الإعجاز  
بالمعجزة فقط ، فمسلونا له معجرات حية كثيرة ، ونظروا لأن هذه ينتهى إعجازها  
بنقضائها فكان القرآن الكريم هو المعجزة الخالدة وهو الذي يناسب الرسالة

الخاتمة ، فهم طلبوا أن تكون المعجزة بالحسّات حتى يصمموا لأنفسهم شبه عذر في أنهم لم يؤمنوا ، فقالوا ما أورد القرآن

والذين قالوا إن الله عهد إلينا أن لا نؤمن برسول حتى يأتي .. إلخ .

وعلمنا ، الحق في هذه الآية أن لقربان تأكله النار ، ومن هذا يستط كيف تقبل الله قربان هابيل ولم يقبل قربان قابيل ، لكنّ نهم أن القرآن لا يوجد به أمر مكرّر . والحق سبحانه يرياً ردوده الإلهية المقصدة الممنعة .

« قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قسم .. » إلخ الآية

بعد جاءكم رسل قبل رسول الله بالقرآن وأكلته النار ومع ذلك كفرتم . هل كان كلامكم أيها اليهود صحيحاً ، لكنكم آستم بالرسول الذين جاءوكم بالقرآن الذي أكله النار . وهكذا يكشف لنا الحق أنهم يكذبون على أنفسهم ويكذبون على رسول الله ، وأنها مجرد « محاسنات » والحاج وفاد في المنزعة والخصومة

والحق سبحانه يأمر رسوله أن يسأل « ألم تقاتلوهم إن كنتم صادقين ؟ »

هو سبحانه يريد أن يضع لنا قضية توضح أن عهد المعجزات الحسية وحدها قد انتهى ، ورشد الإنسانية وبلوغ العقل مرتبة الكمال قد بدأ ، لذلك أن سبحانه تأتي عطية لتطل مع المبع إلى أن تقسم الساعة . وبو كانت الآية حسية لاقتصرت على المعاصر الذي شهدنا وتركت من يأتي بعده بعير معجزة ولا يرهان . أما بجيء المعجزة عقلية فيستطيع أي واحد مؤمن في عصره أن يقول . سيد محمد رسول الله وتلك معجزته ولكن لو كانت المعجزة حسية وكانت قرباناً تأكله النار ، فما الذي يصير إليه المؤمن ويستند إليه من بعد ذلك العصر ؟

إن الحق يريد أن يعلمنا أن الذي يأتي بالآيات هو سبحانه ، وسبحته لا يأتي بالآيات على وفق أمزجة البشر ، ولكنه يأتي بالآيات التي تثبت الدليل ؛ لذلك فليس للبشر أن يقترحوا الآية هو سبحانه الذي يأتي بالآية ، وفيها الدليل . لماذا ؟

لأن البعض قد قال للرسول .

﴿ وَقَالُوا لَنْ نَبُؤَ بِكَ بِشَيْءٍ مِّنَ السَّمَاءِ فَتُخَرِّجَنَا وَتَكُونَ لَكَ حَتَّةٌ مِّنْ ذُنُوبِنَا إِذْ تَقُولُ اتَّبِعُوا آلَ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُمْ حَمِيدٌ تَقْوِيَّةٌ ﴿١٩﴾ أَوْ سَمِعْتُمُوهُهُمْ عَلَيْهِمْ سُبْحَاتٌ وَيَوْمَئِذٍ يُرْمَى إِلَهُاتُهُمْ فِي السَّمَاءِ فَتُفَزَعُونَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا جَاءُوكَ قَالُوا إِنَّكُمْ كَذَّابُونَ ﴿٢١﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُ الْبَشَرِ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْمِعُوا لَكُمْ قُرْآنِي فَخُذُوا حُكْمِي إِنَّكُمْ لَعِندَ رَبِّكُمُ الْكَافِرُونَ ﴾

(سورة الإسراء)

لقد كانت كل هذه آيات حجة طلوعها ، والله سبحانه وتعالى يرد على ذلك حين قال لرسوله : إن الذي منعه من إرسال مثل هذه الآيات هو تكذيب الأولين بها

﴿ وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُرْسِلَ بِآيَاتٍ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ ﴾

(من الآية ٥٩ سورة الإسراء)

فحتى هؤلاء الذين هالوا لن يؤمن حتى تأتي بقرآن تأكله النار قد جاءهم من قبل من يحمل معجزة العريان الذي تأكله النار ، ومع ذلك كذبوا ، إذن فمصلحة عما حكمة وبنجاح في الخصومة ، ووسى الله رسوله صلى الله عليه وسلم ، ونسليه الله برسوله هما نسليه بالنظر والمثل إلى الرسل . كان الحق بوضح . إن كانوا قد كذبوك فلا تحزن ، فقد كذبوا من قبلك رسلاً كثيرين ، وأنت لست بدعاً من الرسل

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴿١٨٤﴾ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾

ويتسامى الحق سبحانه وتعالى بروح سيدنا رسول الله إلى مرتبة العلو الذي لا يرنى إليه بشر سواه ، فيقول .

﴿ قَدْ عَلِمَ بِمَا يَكْتُمُونَ الَّذِينَ يَقُولُونَ فَأَنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَ ﴾

( من الآية ٣٣ سورة الانعام )

هالمسألة ليست مسألتك أنت إهم يعرفون أمك يا محمد صادق لا تكذب أبداً ولكن الظالمين بآيات الله يجهلون ، أى هذا الأمر ليس خاصاً بك بل هو راجع إلى فلا أحد يقول عنك أنت كذاب هم يكذبون ، الظالمون يجهلون ويكفرون آيات الحق سبحانه يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم هو للتنسليه ويعطيه الأسوة التي يجعله غير حزين مما يفعله اليهود والمكذبون به فيقول

﴿ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَكْتَتِبَ

النَّصِيرِ ١٥١ ﴾

( سورة آل عمران )

ونعرف أن الشرط سبب في وجود جوابه . فإذا كان الجواب لم يأت بالشرط هو الذي يجعله باق ، وإذا كان الجواب قد حصل قبل الشرط فما الحال ؟ الحق يوضح : إن كذبوك يا محمد فقد كذبوا رسلاً من قبلك . أى أن جواب الشرط قد حصل هنا قبل الشرط وهذه عندما يتلفظها واحد من السطحين أدعية الإسلام ، أو من المستشرقين الذين لا يهمون مرامي البعة فمن الممكن أن يقول :

إن الجواب في هذه الآية قد حصل قبل الشرط وهذا مرد عليه فائليل أقوه تعالى " فقد كذب رسول من قبلك " هو جواب الشرط . أم هو دليل الجواب ؟ لقد جاء الحق بهذه الآية ليقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم

إِنْ كَذَّبُوكَ فَلَا تَحْزَنْ ، فقد سبقك أن كذب قوم رسلكم إن عله الجواب الشرط ، كانه يقول

فإن كذبوك فلا تحزن . إذن فمعنى ذلك أن المذكور ليس هو الجواب ، إنما هو

الحيثية للجواب « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبيان » .. إلخ .

وعندما يقول « جامي فلان بكذا » فقد يكون هو الذي أحضره ، وقد يكون هو مجرد مصاحب لمن جاء به .

ولضرب هذا المثل للإيضاح - والله المثل الأعلى - فلنفرض أن موظف أرسله رئيسه بمطروب إلى إنسان آخر ، فالموظف هو المصاحب للمطروب .

إذن فالبيانات جاءت من الله ، لكن هؤلاء الرسل جاءوا مصاحبين ومؤيدين بالبيانات كي تكون حجة لهم على صدق بلاعهم عن الله ، « فإن كذبوك فقد كذب رس من فملك جاءوا بالبيانات » . أي جاءوا بالآيات الواضحة الدلالة على المراد . والآيات قد تكون لغتاً للآيات الكونية ، وقد تكون المعجزات

ونعلم أن كل رسول من الرسل الذين سبفوا سيدنا رسول الله كانت معجزتهم منفصلة عن منهجهم ، فالمعجزة شيء وكتاب المنهج شيء آخر « صحف إبراهيم » فيها للنبي لكتب ليست هي المعجزة ، فالمعجزة هي الإحراق بالبار والنجاة ، وموسى عليه السلام معجزته العصا وتقلب حية ، وإسحاق البحر ، لكن كتاب منهجه هو « التوراة » ، وعيسى عليه السلام كتاب منهجه « الإنجيل » ومعجزته العلاج وإحياء الموتى بإذن الله ، إذن فقد كانت المعجزة منفصلة عن المنهج ، إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن معجزته هي عين منهجه ، معجزته القرآن ، ومنهجه في القرآن ، ماذا ؟

لأنه جاء رسولاً يحمل المنهج المكتمل وهو القرآن الكريم ، ومع ذلك فهو صلى الله عليه وسلم الرسول الخاتم ، فلا بد أن تظل المعجزة مع المنهج ، كي تكون حجة ، إذن فنقول الحق سبحانه وتعالى . « جاءوا بالبيانات » : أي المعجزات الدالات على صدقهم . « والزبر والكتاب المنير » أي لكتب التي جاءت بالمنهج ، فهم يحتاجون إلى أمرين اثنين : منهج ومعجزة

و البيانات « هي المعجزة أي الأمور البينة من عند الله وليست من عند أي واحد



منهم ، ثم جاء « المنهج » في « الزبور » والكتاب الكثير ، ومعنى « الزبور » الكتاب ، ومادام الشيء قد كُتِبَ فقد « رُبِر » أى كُتِبَ ، وهذا دليل على التوثيق أى مكتوب فلا ينطمس ولا يمحو فالزبور الكتابة ، و« الزبور » تعنى أيضا الوعظ ؛ لأنه يمنع الموعوظ أن يصنع ما عظم أى يمنع من الخطأ وإتيان الانحراف ، و« لزبور » أيضا تعنى العقل ؛ لأنه يمنع الإنسان من أن يورد موارد التهلكة .

والدين يريدون أن يأخذوا العقل فرصة للانطلاق والانملات ، نقول لهم افهموا معنى كلمة « العقل » ، معنى العقل هو التقييد ، فالمقل يقلدك أن تفعل أى أمر دون دراسة عواقبه . والعقل من « عقل » أى ربط ، كى يقال هذا ، ولا يقال هذا ، ومنع الإنسان أن يفعل الأشياء التى تؤخذ عليه « الزبور » أيضا : تحجير الشر ، فمتى سخر البشر يخرج لبناء ، لا تتركه . بن نصنع له حافة من الحجر ومنه من الداخل بالحجارة كى لا يُردم بالتراب وكل معنى الزبور ملتبعة ، فهو يعنى : المكتوبات ، والمكتوبات لها وصف ، إنها ميرة ، وهذه الإنارة معناها أنها تبيى للمالك عقبات الطريق وعراقيله ، كى لا يتعثر .

إذن فالحق سبحانه وتعالى يسئ رسول الله صلى الله عليه وسلم ويوضح له : لا تحزن إن كذبوك ، فقد كذب رسل من قبلك ، والرسول جاءوا بالمرج وبالعجوة ، وبعد أن يعطى الله للمؤمنين ولرسول الله ساعة صد ما يذيعه المرجفون من اليهود وحسد ما يقولون ، وتربية المناعة الإيمانية فى انفس تقضى أن يجهرا الله على لسان رسوله بما يمكن أن تواجه الدعوة ؛ حتى لا تنفك المواجهات ويكشف لنا سبحانه بما سيقولون وبما سيفعلون

ونحن نفعل ذلك فى العالم الملبى إذا خفا من مرض ما كالكوليرا - مثلاً - ماذا نفعل ؟ نأخذ الميكروب نفسه ونضعه بصورة معينة ثم نحن به السليم ؛ كى يرى فيه مناعة حتى يستطيع الجسم مقاومته المرض .

ثم بعد ذلك يأتى الحق سبحانه وتعالى بقضية إيمانية يجب أن نظل على بال المؤمن دائماً . هذه القضية : إن هم كذبوك فنكذبهم لا إلى خلود ؛ لأنهم سيتهون

بالموت ، فالنفسية معركتها موقوتة ، والحساب آخراً عند الحق سبحانه ، ولذلك يقول :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ  
أَجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَنْ زُحِرَ عَنِ الشَّارِ  
وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا  
مَتَاعُ الْفُرُورِ ﴾

وبلاحظ أن كلمة « ذائقة » جاءت أيضاً هنا ، ويعرف أن هناك « فلا » وهناك « موتاً » ، فالموت معناه أعم وهو : انتهاء الحياة سواء أكان بنقض السية مثل القتل ، أم يعبر بنقض البنية مثل خروج الروح ودهوقها حتف الأنف ، ولذلك فالعلماء الذين يدققون في الألفاظ يقولون : هذا القول لو لم يُقتل ، أكان يموت ؟ نقول نعم ، لأن المقتول ميت بأجله ، لكن الذي قتله هل كان يعرف مهلة الأجل ؟ لا ، إذن فهو يُعاقب على ارتكابه جريمة إزهاق الروح ، أما المقتول فقد كتب الله عليه أن يفارق الحياة بهذا العمل .

إذن فكل نفس ذائقة الموت إما حصص الألف وإما بالقتل . ولأن الغالب في المقتولين أنهم شهداء ، والشهداء أحياء ، لكن الكل سيَموت . يقول تعالى :

﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَمِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ﴾

(سورة الزمر ٦٨)

انظروا إلى دقة العبارة : « وإما توفون أجوركم يوم القيامة » أي إياكم أن تنتظروا سيجة إيمانكم في هذه الدنيا ، لأنكم إن كنتم متأكدون على إيمانكم ثواباً في الدنيا



فهذا زمن زائل ينتهي ، فلو كنتم على الإيمان لا بد أن يكون في الآخرة لكم يكون ثواباً لا ينتهي .

ونعرف ما حدث في بيعة الحقب الثانية ، حينما أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار عهداً ، قالوا : هياك . بذلك يا رسول الله إن نحن وبنا ؟ لم يقل لهم صلى الله عليه وسلم يستصرون أو يستملكون الدنيا ، بل قال : « الجنة » قالوا : أبسط يدك ، فبسط يده فباعوه ، ولو وعدهم بأي شيء في الدنيا لقال له أي واحد فطن منهم . ما لهنها ، ولذلك عندما قال واحد لصاحبه : « أن أحك قدر الدنيا » فقال له : وهل أنا نافع عندك لهذه الدرجة ؟

فكان الحق سبحانه ومعاني يقول : إنكم أن تفهموا أن حر ، الإيمان يكون في الدنيا ، لأنه لو كان في الدنيا لكان رائلاً ولكن قبلاً كجاء على الإيمان ، لأن الإيمان وصل بعير مت وهو الله ، فلا بد أن يكون الحراء غير مبيع وهو الجنة ، فقال : « وإنما نوفره أحرركم » . « وأحد أهل النجس من كلمة « نوفر » أن هناك مقدمات : لأن معنى « وفيه أجره » أي أعطيه رضى له حاجة وأكمل به ، نعم هو سبحانه يعطيهم حاجات إيمان ، ويكفي إشراف الإيمان في نفس المؤمن ، فالجواب لا بد أن يكون متمشياً مع منطق من يسمع هذه الآية : فقد يموت من يسمعها بعد قليل في معركة ، وما دام قد مات في معركة فهو لم ير انتصاراً ، ولم ير هاتم ولا أي شيء ، فإذا يكون نصيبه ؟ إنه يأخذ نصيبه يوم القيامة « تولون » فمن نال منها شيئاً في الدنيا بالنصر ، بالمعاقم ، بالرهو الإيمان على أنه انتصر على الكفر عهد ببعض الآخر ، إما الوفاء بكامل الأجر سيكون في الآخرة ، لأن كلمة التوبة تعيد أن توبة الأجر وتكملها يكون في يوم القيامة ، وأن ما يكون قل ذلك فهو بعض الأجر التي يستحقها العاملون

ويقول الحق : « فمن رُحِزَ عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » عن أبي هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مريض سوط في الجنة خير من الدنيا وما فيها اقرأوا » ثم : « فمن رُحِزَ عن النار وأدخل الجنة فقد فاز »<sup>(١)</sup>

(١) رواه ابن أبي حاتم ، ورواه البخاري وسنن من هو هذا الوجه ويروى عنه الزهري ، وهو حاتم بن عبد الله

وعندما تقول : زحزحت فلاناً ، معاًها أنه كان متوقفاً برعب ، فكيف يحدث ذلك عند النار ؟ . نعرف أن النار سببها المعصية ، والمعصية كانت لها جاذبية للمعصية ، وإلى الإيمان ليشدهم فتأخذهم جاذبية المعصية ، فكذاك يكون الخزاء بالنار . إذن فالنار لها جاذبية لأنها ستكون في حالة غيظ . . . وبذلك يقول ربنا :

﴿ تَكَادُ تَمَيِّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾

( من الآية ٨ سورة الملك )

النار تتميز من الغيظ هل الكافرين وما معنى تميز من الغيظ ؟ أما رأيت قديراً يفر ؟ ساعة يفر القدر فإن بعض العقاقير تخرج منه وتنفصل عما في القدر ، وهذا تميز ، أي تفرق ، والإنسان ما عندما يكون في حالة غيظ تخرج منه أشياء كعقاقير غليان القدر إنه يرغب ويريد أي اشتد غضبه ، هذه انفقاقير تخرج من ينف أمامها أو يلتمسها ، وهي من شدة الغوراك تميز بعضها وانفصل عن القدر ، كذلك النار ، ولذا تميز من الغيظ ؟ إنها تميز من الغيظ من الكافرين ؛ لأنها أصلها مسبوحة حامدة شاكرة ، وبعد ذلك يقول لها الحق :

﴿ هَلْ آمَنَّا بِكَ ﴾ وتقول : ﴿ هَلْ مِنْ شَرِيحٍ ﴾

( من الآية ٣٠ سورة ق )

وذلك مما يدل على أن كلمة « تميز من الغيظ » حقيقة ؛ ولذلك بين لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن النار لها جاذبية ، فالنار إنما كانت نتيجة المعصية في الدنيا ، والمعصية في الدنيا هي التي تجذب المعصية ، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم في ذلك . ( مثل ومثلكم كمثل رجل أوقد ناراً فجعل الفراش والجنادب يقفون فيها وهو يدبها ، وأنا أخذ بحمركم عن اسار وأنتم تفتنون من يدي )<sup>(١)</sup> انظر إلى التشبيه الجميل - حين توقد ناراً في -علاء فأول مظهر هو أن ترى الفراش والهلوم والبعوض تأن على النار ، ولذلك يقولون : رُبَّ نفس عشت مصرعها

لقد جاءت تلك الحشرات على أسس أنها جاءت للنور ، إنما ترى ذلك عندما نعمل موقداً في الخلاء فأتت تمجد حوله الكثير من هذه الحشرات مبرعى ، تلك

الحشرات عشقت مصرعها ، إنها قد جاءت إلى النور ولكن النار أحرقتها ، كذلك الإنسان العاصي يعشق مصرعه ، لأنه لا يعرف أن هذه الشهوة ستدخله النار

« فمن زُحِرَح عن النار ، أى أن النار لها جاذبية مثل جاذبية المعصية عندما تأخذ الإنسان ، ومجرد لزحرجة عن النار ، حتى وإن وقف بينها لآل النار ولا فى الجنة بهذا حس ، فما بالك إن زُحِرَح عن النار وأدخل الجنة ؟ لقد رآى منه عطف وأعطى صالحاً وهذه حاجة حسنة ، وهذا هو السبب فى أن النار مضروب على منها الصراط الذى سمر عليه ، ماذا ؟ حتى يرى المؤمن النار . وهو ماشى على الصراط التى لو لم يكن مؤمناً لتزل فيها ، يقول : الحمد لله الذى بجانى من تلك النار

« فمن زُحِرَح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز » والصورة هو النجاه مما تكره ، ولقاء ما تحب ، مجرد السجاة مما تكره بعمة ، وأن تذهب بعد السجاة مما تكره إلى نعمة ، فهذا فوز . ونلاحظ فى « زُحِرَح » أن أحداً غيره قد زحرجه . نعم لأن الله تكرم عليه أولاً فى حياته بنفيس الإيمان وهو الذى زحرجه عن النار أيضا .

ويبدل الحق الآية بقوله تعالى : « وما الحياة الدنيا إلا متاع الزور »

وعندما يصف الحق سبحانه الحياة التى يعرفها بأنها « دنيا » قسى ذلك ما يشير إلى أن هناك حياة توصف بأنها « غير دنيا » وغير الدنيا هى « العليا » ، ولذلك يقول الحق فى آية أخرى

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِىَ الْحَيَوانِ لَرَكَّانُوا يَعْلَمُونَ ﴾

( من الآية ٢٤ سورة العنكبوت )

أى هى الحياة التى تستحق أن تُسمى حياة ؛ لأن الدنيا لا يقاس زمانها بزمانها إلى قيام الساعة ، لأن تلك الحياة بالنسبة للكون كله ، ولكن لكل فرد فى الحياة دنيا ليس عمرها كذلك ، وإنما دنيا كل فرد هى مقدار حياته فيها . ومقدار حياته فيها لا يُعلم أهو لحظة أم يوم أم شهر أم قرن . وقصارى الأمر أنها محدودة جداً خاصة لكل عمر ، وحدد عاماً لكل الأعمار .

والمتعة في الدنيا على قدر حظ الإنسان في المتع ، فهي على قدر إمكاناته . فإذا نظرنا إلى التنبؤ بهذا المعيار فإن متاعها يعتبر قليلاً ، ولهذا لا يصح ولا يستقيم أن يفتخر الإنسان بهذه المتعة متذكراً قول الله :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآكْفُرٌ ۚ إِنَّ رَءَاهُ أَشْنَقُ ۚ ﴾

(سورة العلق)

فالحرور إذن أن تلهيك متعة قصيرة الأجل عن متعة عالية لا أمد لانتهاها ، محقق لا يفتخر عائش في الدنيا فيلهو بقليلها عن كثير عند الله في الآخرة يجب أن يقارن متعة أجها محدود وإن طال زمانها بمتعة لا أمد لانتهاها ، متعة على قدر إمكاناتك ومتعة على قدر سعة فضل الله ؛ لذلك كانت حياة الدنيا متاع عرور عن غر بالنافع القليل عن العظيم الخليل .

والله لم يظلم الذنوب فوصفها أنها متاع ، ولكن بهنا إلى أنها ليست المتاع الذي يُعتر به فيلهو عن متاع أبقي ، إنه الخلود . وبعد ذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ولأتباع رسوله قصبة تسوء عنهم وتؤكد لهم أن الإيمان وحده خير جزاء للمؤمن ، وإن لم يثبت له في الدنيا شيء من النعيم ، ولذلك أراد أن يوطنهم عن أن الذين يدخلون الإيمان ، لا يوطنون أنفسهم على أن الإيمان دائماً متعصر ، فلو كان دائماً متعصراً لوطن كل واحد نفسه عليه ورضيه لأنه يضمن له حياة مطمئنة ؛ لذلك كان لا بد أن يوضح هم : أن هناك ابتلاءات . فالحقضية الإيمانية أن تبطلوا ، وموقع البلاء في نفوسكم أو في أموالكم ، فقال .

﴿ تَتَّبِعُونَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ  
وَلَسَّمْعُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ  
قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ۚ ﴾

## وَإِنْ تَصَيَّرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾

والبلاء في المال بماذا ؟ بأن تأخذ تأكله ، وإن وجد يكون فيه بلاء من لون آخر ، وهي اختيارك هل تنفق هذا المال في مصارف الخير أو لا تعطيه لمحتاج ، فمرة يكون الابتلاء في المال بالإفناء ، ومرة في وجود المال ومراقبة كيفية تصرفك به ، والحق في هذه الآية قدم المال على النفس ، لأن البلاء في النفس يكون بالقتل ، أو بالحرج ، أو بالمرض . فإن كان القتل فليس كل واحد سيقن ، إنما كل واحد سيأتيه بلاء في ماله .

« ولسمع من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أدنى كثيرا » هما إذن معسكران للكفر . معسكر أهل الكتاب ، ومعسكر المشركين هذان المعسكران هم البلدان كانا يعاندان الإسلام ، والأدنى الكثير تمثل في محاولة إيذاء لرسول صلى الله عليه وسلم ، وأدى الاستهزاء بالمؤمنين ، وأهل الكفر والشرك يقتلون للمؤمنين ما يكرهون ، فوطئوا الحرم أي المسلمون أن تستقلوا ذلك منهم ومن انتلاءات السباه بالقبول والرحم .

ويحطىء الناس ويظنون أن الابتلاء في ذاته شر ، لا . إن الابتلاء مجرد اختبار ، والاختبار عرصة أن تنجح فيه وأن ترسب ، فإذا قال الله « لتبلون » ، أي سأختبركم . والله المثل الأعلى . كما يقول المدرس للتلميذ : سأمتحكك « فستليك » . يعنى يختبرك في الامتحان ، فهل معنى ذلك أن الابتلاء شر أو خير ؟ . إنه شر على من لم يتقن التصرف . هالذى ينجح في البلاء في المال يقول : كنه غائب ، وقلل الله مسؤوليتي ، لأنه قد يكون عندي مال ولا أحسن أداء في مراقبته الشرعية ، فيكون المال عن فتنة . فالله قد أخذ مني المال كي لا يدخلني النار ، ولذلك قال في سورة العنبر :

﴿ قَدْ مَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَنَاهُ رَبُّهُ رَحِيمًا وَنَعَّمَهُ فَتَبَقُولُوا رَبِّهِ أَحْسَنَ ﴾

وَأَمَّا زَكَاةُكَ فَتَدْرَعُهَا رِزْقُهُ قَبُولُ رَبِّكَ أَفْزَى ﴿٥٠﴾

(سورة النحل)

هنا قصتان اثنتان . الإنسان يأتيه المال فيقول رب اكرمي ، وهذا أفضل مما جاء فيه قول الحق :

﴿ قَالَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْفَقْرُ بِلَيْسَ فِي يَدَيْهِمْ وَأَنْتُمْ بِلَيْسَ فِي يَدَيْكُمْ أَنْ تَقُولُوا رَبِّ اكْرُمْنَا فَقَالَ أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنَّا نَنزِلُ السَّمَاءَ بِمِثْقَالِ ذَرَّةٍ فَنَقُصِّ عَلَيْكَ مَا يَشَاءُ لَكُم مِّنْ فَضْلٍ غَيْرِ الَّذِي تَقُولُونَ ﴾

(من الآية ٧٨ سورة القصص)

إذن فالذي نظر إلى المال وظن أن المعنى (كرم) ، ونظر إلى الفقر والتضييق وظن أنه إهانة ، هذا الإنسان لا يعطى إلى الحقيقة ، والحقيقة يقولها الحق : « كلا » أي أن هذا الظن غير صادق ، فلا مال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة ، ولكن متى يكون المال دليل الكرامة ؟ يكون المال دليل كرامة إن جاءك وكنت موقفاً أن تؤدي مطلوب المال عندك للمحتاج إليه ، وإن لم تؤد حق الله فإنا لك مدية لك وإهانة ، فقد أكون عنياً لا أعطى الحق ، فالمعنى هذه الحالة أفضل ، ولذلك قال الله للأنبياء : « كلا » ، وذلك يعني . لا إعطاء المال دليل الكرامة ولا الفقر دليل الإهانة

وإراد سبحانه أن يدل على ذلك فقال :

﴿ كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿٥١﴾ وَلَا تَحْضُونَ عَلَىٰ عَهْدِ أَيْمَانِكُمْ ﴿٥٢﴾ فَبَلَّغْ كَلِمَاتِ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

(سورة النحل)

« كلا بل لا تكرمون اليتيم ، وما همتم لا تكرمون اليتيم فكيف يكون المال دليل الكرامة ؟ إن المال هنا وور ، وكيف إن سلبك يا من لا تكرم اليتيم يكون إهانة ؟ . . إنه سبحانه قد مزعك أن تكون مهانا ، فلا تتحمل مسؤولية مال . إذن فلا مال دليل الكرامة ، ولا الفقر دليل الإهانة



« كلا بل لا تكرمون اليتم ولا تحاصون عن طعام المسكين » وحتى إن كنت لا تمثلك ولا تعطى أفلا تحت من عبء أن يعطى ؟ أنت صمس حتى بالكلمة ، فمعى تحض عنى طعام المسكين أى تحت غيرك فإذا كنت تنص حتى بالصبح فكيف تقول إن المال كرامة والفقر إهانة ؟ « كلا بل لا تكرمون اليتم ولا تحاصون عن طعام المسكين وتأكلون التراث أكلاً لما » أى تأكلون الميراث وتجسسون فى أكلكم بين نصيبكم من الميراث ويصيب غيركم دون أن يتحوى الواحد منكم هل هذا المال حلال أو حرام ؟ فإذا كانت المسألة هكذا فكيف يكون إتياء المال تكريباً وكيف يكون الفقر إهانة ؟ لا هذا ولا ذاك

« تنبلون فى أموالكم وأنفسكم ولستم من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أدى كثيراً » والذى يقول هذا الكلام هو الله ، إذن لا بد أن يتحقق - فإرب أنت قلت لنا - إن هذا سيحصل وقولك سيتحقق ، فإدأ أعطيتنا لواجبه ذلك ؟ - اسمعوا العلاج . « وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور » نصبر على الابتلاء فى المال ، نصبر على الابتلاء فى النفس ، نصبر على أدى المعسكر المحالف من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا ، إن صبرت فإن ذلك من عزم الأمور ، والعزم هو - القوة المكنمة عن العمل - فإت نوى أن تعمل ، وبعد ذلك تعزم على تجميع لقوة ، فقوله : « فإن ذلك من عزم الأمور » أى من عزوماتها التى تقتضى الثبات منك ، وقوة لتجميع والحشد لكل موهبت تعمل .

إذن فالمسألة امتحن فيه ابتلاء فى المال ، وابتلاء فى النفس وأدى كثير من الذين أشركوا ومن الذين أوتوا الكتاب ، وذلك كله يحتاج إلى صبر ، وه الصبر - كما قلنا - نوعان : « صبر على » وه صبر عن ، « ويختلف الصبر باختلاف حرف الجر ، صبر عن شهوات نفس التى تريد للإنسان أن يفعل هذه وهذه ، فيصبر عنها ، ولطاعة تكون شاقة على العبد فيصبر عليها ، إذن فعلى الطاعة يصبر المؤمن على المتاعب ، وفى المعصية يصبر عن المعربات

وه لنبلون فى أموالكم وأنفسكم » توصح أنه لا يوجد لك عريم وضح فى الأمر ، وإلافة تأتى لليال ، أو الإلابة تأتى للحسد فيعزمى ، عليس ها عريم لك قد تحدد ،

ولكن قوله . « ولستم من الذين آمنوا الكتاب من عندكم ومن الذين أشركوا أدى كثيرا » فهذا تحديد لغريم لك . فساعة ترى هذا الغريم فهو يبيع بك كوا من الانتقام . فأوضح الحق : « يا لك أن تكونهم من أن يجعلوك تعمل ، وأجل عملية العصب ، ولا تجعل كل أمر يستحقك . بل كن هادئا ، وإياك أن تستحق إلا وقت أن تبقى أمك ستنتصر ، ولذلك قال : « وإن نصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأسور » .

رائقوا مثل « اتقوا الله » أى اتقوا صواب الحلال وذلك بأن تضع يديك وبين ما يعطى الله وقاية . من أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ركب على حمار عليه قطعة فذكية وأردف أسامة بن زيد وراءه يعود سعد بن عباد بن عباد بن الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر حتى مر على مجلس فيه عبدالله بن أبي بن سلول وذلك قبل أن يسلم ابن أبي ، وإذا فى المجلس أسلاط من المسلمين والمشركون عبدة الأوثان وأهل الكتاب اليهود والمسلمين وفى المجلس عبد الله بن رواحة ، فلما غشيت المجلس عمامة الدابة أمر عبدالله بن أبي أنعه بردائه وقال : لا تضربوا عليا ، فسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم وقف فمرل ودعاهم إلى الله عز وجل وقرأ عليهم القرآن فقال عبدالله بن أبي : أيتها المرأة إنه لا أحسن مما تقول إن كان حيا فلا تؤذنا فى مجالسنا ، أرجع إلى رحلتك فمن جاءنا فاقصصى عليه ، فقال عبدالله بن رواحة رضى الله عنه . « يا رسول الله فاعنت به فى مجالسنا فيما يحب ذلك ، فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتجاوزون ، فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم يمحضهم حتى سكتوا ، ثم ركب النبي صلى الله عليه وسلم دابته فسار حتى دخل على سعد بن حادة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « يا سعد » ألم تسمع إلى ما قاله أبو حبيب ؟ يريد عبدالله بن أبي ، قال : كذا وكذا فقال سعد : يا رسول الله اعف عنه واصمح بوالدي أرسل عليك الكتاب لقد جاءك الله بالحق الذى نزل عليك ، ولقد اصططح أهل هذه البحيرة على أن يتوحوه فيعصوه بالعصية فيما أبى الله ذلك بالحق الذى أعطاك الله شرق بذلك ، فذلك الذى فعل به ما رأيت . معاف عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم »<sup>(١)</sup>

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّنَّ مَا بُيِّنُوا لَهُمْ﴾

ونعرف - من قبل - أن الله قد أخذ عهداً وميثاقاً على كل الأنبياء أن يؤمروا برعاية محمد عليه الصلاة والسلام في قوله :

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّنَّ مَا بُيِّنُوا لَهُمْ﴾

(سورة آل عمران)

ونأن هنا إلى عهد وميثاق أخذه الله على أهل الكتاب الذين أسوا بآياتهم ، هذا العهد هو : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أُوتوا الكتاب لبيِّنهُ للناس ولا تَكْتُمُونَهُ »

فما الذي يبيِّنه ؟ وما الذي يكتُمه ؟

وعمل هم يكتُمون لكتاب ؟ نعم لأنهم يسمون بعضاً من الكتاب ، وما داموا يسمون بعضاً من الكتاب فمعنى ذلك أنهم مشغولون عنه

﴿ فَسِرُّ حَقَّائِدٍ دُرُّوْا بِهِ ﴾

( من الآية ١٤ سورة النمل )

والذي لم ينسوه من المنهج ، ماذا فعلوا به ؟

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا آتَيْنَاهُمُ الْيَقِيْنَ وَأَعَدَّيْ مِنْ بَعْدِ مَا يَنْتَهِ لِلنَّاسِ فِي

الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَمْهَكُ اللَّهُ وَيَمْهَكُ النَّعْمُ ﴾

( سورة البقرة )

لقد كنتموا اليقات التي أنزل الله في الكتاب ، فكنتم حملة اختيارية ، أما النسيان فقد يكون لهم العذر أنهم سره ، لكنهم يتحملون ذنباً من جهة أخرى ، إذ لو كان المنهج على يالهم وكانوا يعيشون بالمنهج لما نسوه والذي لم ينسوه كنتموه بحسه ، والذي لم يكتمونه لووا به ألسنتهم وحرفوه .

وهل اقتصروا على ذلك ؟ لا بل جاءوا بشيء من عندهم وقالوا : هو من عند الله .

﴿ قَرِيبٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ

ثَمًّا قَلِيلاً مِمَّا قَدْ كُنْتُ يُبَدِّلُ لَهُمْ قَوْلَ اللَّهِ قَوْلًا بَشَرًا لِيُكْسِبُوا بِهِ

( سورة البقرة )

وقوم : « هذا من عند الله » ما يصح أن يقال إلا لبلاغ صادق من الله ، وكسبة و يشترى به ثمناً قليلاً ، لا بد أن توسع مدلولها قليلاً ، ولها معنى علم ، ونحن نعرف أن الثمن يشتري به ، فكيف تشتري أنت الثمن ؟ أنت إذن جعلت الثمن سلعة ، وما دام الثمن يجعل سلعة فيكون ذلك أوان مخالفة لمنطق لمبادلة ؛ لأن الأصل في الاتيان أن يشتري بـ ، أصل المسألة أن نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم كان موجوداً عندهم في الكتب ثم أنكروه .

﴿ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ﴾

( من الآية ٨٩ سورة البقرة )

إذن قوله : « ثبته » يعنى ثبتهن أمر الرسول صل الله عليه وسلم ، كما هو موجود صدكم دون تغيير أو تحريف ، وعندما يبينون أمر الرسول بأوصافه ودعوته بهم يبينون ما جاء حقاً في الكتاب الذي جاءهم من عند الله . وهكذا نجد أن المعاني تلتقي ، فإن بينوا الكتاب الذي جاء من عند الله ، فالكتاب الذي جاء من عند الله فيه نعت محمد ، وهكذا نجد أن معنى ثبتهن الكتاب ، وثبتهن نعت رسول الله بالكتاب أمران ملتقيان .

« ثبته للناس ولا تكتسبه فبدوه وراء ظهورهم » يقال يثبت الشيء أى طرحته بقوة ، وذلك دليل على الكراهية ؛ لأن الذى يكره شيئاً يحب أن يقصر أمده وجوده ، ومثال ذلك : لتعرض أن واحداً أعطى لآخر حاجة ثم وجدها حمرة قلسمه ، ماذا يفعل ؟ هو بلا شعور يلقبها بعيداً والبعد له جهات ، يبينه يمينه ، يبينه أمامه ، يبينه شماله، أما إذا تبده خلفه ، فهذا دليل على أنه يبينه لئلا لا تلمت إليها أيداً ، انظر التعبير القرآني « مبذوه وراء ظهورهم »

إن البعد وحده دليل الكراهية لوجود الشيء الذى يفضيه ، إمعان في الكراهية وابعض ، فنورمى إنسان شيئاً أمامه فقد يحزن له عدم يراه أو يتذكره ، لكن إن رماه وراء ظهره فهذا دليل البعد والكراهية تماماً ، ولذلك يقولون : لا تجعل حاجتي بظهر منك ، يعنى لا تجعل أمر أريد منك وراء ظهرك ، والحق يقوى : « فبذروه وراء ظهورهم » أى أنهم جماعة وهـ ظهور « جمع » ظهر « ، كأن كل واحد منهم يبذره وراء ظهره . وكان هناك إجماعاً على هذه الحكاية ، وكانهم اتفقوا على الضلال ، واشتروا به ثمناً قليلاً فبشس ما يشترون والمشتري هنا هو الثمن ، ولشس يشتري به : ولشقق النظر في التعبير لقراء ، فهناك واحد يشتري هذا الأمر بأكله ، وآخر يشتري هذه الحكاية بحلّة أو لباس ، وهناك من يشتري بحاجة وينتهي ، إنما هم يقولون : يريد نفوداً ويشتري بها ما يحب ، هذا معنى « واشتروا به ثمناً » .

ويعلق الحق هل ما يشتروه فائلاً : « فبشس ما يشترون » لماذا ؟ لأنك قد نظف أن بالمال - وهو الثمن - تستطيع أن تشتري به كل شيء ، ولكن النقود لا تنفع الإنسان كما تنفعه الحاجة المباشرة ؛ لأننا قلنا سابقاً ، هب أن إنساناً في مكان صحراوي ومعه

جبل من ذهب وليس معه كوب ماء ، صحيح أن المال يلقى بالأشياء ، إنما قد يوجد شيء نافع من الأشياء يعنى ما لا يعنيه المال ولا الذهب ، فهكون كوب الماء مثلاً بالدنيا كلها ، ولا يساويه أى مال وعشش ما يشتررون .

وبعد ذلك يقول الحق .

﴿ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا آتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ  
يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسِبْهُمْ سَفَاةَ قِرْمِينَ  
الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

والحسبان بالأمر أن يفضيه السامع دون حقيقته ، والأمور التى يطنها السامع تسير أولاً على ضوء الشيء الواضح دون التدرج لما وراء واجهات الأشياء ، فالذين يفرحون بما آتوا نوعان : نوع يفرح بما آتاه مناهضاً للدعوة الحق كالمنافقين الذين فرحوا بأنهم غشوا المؤمنين ، وتظاهروا بالإيمان معاملة المؤمنين بحق الأنعوة الإيمانية ، حدث هذا قبل أن يكشف الحق هؤلاء المنافقين برسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين من بعد ذلك

ونوع آخر يفرح لما آتاه وجاء به مناصراً للدعوة الحق فالفرح الأول - وهو فرح المنافقين - ممنوع ، والفرح اثنان مشروع . ولذلك يقول الحق :

﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ يَبْذِلُكَ قُلُوبُهُمْ ﴾

( من الآية ٥٨ سورة براء )

إذن فلم ينه الله عن مطلق الفرع ولكن لفرحوا بفضل الله إنه سبحانه قد هب عن نوع من الفرع في مسألة قارون .

﴿ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ أَنْ تَفْرَحَ ﴾

(من الآية ٧٦ سورة التوبة)

وهكذا نجد آيات نهي عن الفرح وأيت تثبت للمؤمنين المرح ، ونأمرهم به  
إذ قال لهم قومه لا تفرحوا ، ولكن المقوت بعض دواعي ذلك الفرح ، ودواعيه  
عند المؤمن أن يفرح بمر الله ، وأن يفرح بإعلاء كلمة الحق ، وهذه دواع  
مشروعة ودواعيه الممنوعة أن يفرح بأن يفرح أمام مبدأ من مبادئ الله ليدحض  
ذلك المبدأ ، وهذا ما يفرح به الكافر ، ولكن المرح الحقيقى هو المرح الذى  
لا يعقبه ندم ، مرح المؤمن موصول إلى أن تقوم الساعة ، وموصول بعد أن تقوم  
الساعة . ولكن مرح الكافر والمنافق وأهل الكتاب الذين يصورون الله على غير  
حقيقته مرفق موقوف وتعت ، إذن فذلك لا يعتبر فرحاً ؛ لأن الندم بعد المرح  
يعطى عاقلة شر ؛ لأن الندم يتحسر دانيا على نعمه فهو فى غم وحر

فالحن سبحانه وتعالى يريد أن يعطى للمؤمن ساعة ، إنكم أيها المؤمنون تواضعون  
معسكرات تعادىكم . هذه المعسكرات ستفرح بما آتته صدكم فيجب ألا يفت ذلك  
في عضدكم ، ولا تحسبهم إن فعلوا ذلك بمجاهة من العذاب ، وما دام فرحهم  
سيؤدى بهم إلى العذاب مهر فرح أحق

وماذا صبح الذين جاء فيهم القول : « لا تحسب الذين يفرحون بما أتوا » بمحتمل  
أن يكون المراد هم أهل الكتاب الذين كتبوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،  
لأن الآية السابقة تقول : « وإذا أحد الله مشاق الذين أتوا الكتاب لثبته للناس  
ولا تكتبونه فيلوه وراء ظهورهم » ماذا فعل هؤلاء ؟ لقد كتبوا أو صاف رسول  
الله ونعته الموجود في كتبهم وفرحوا بما كتبوا ، وبعد ذلك أحبوا أن يحمدا بما فعلوا  
من الدين على طريقتهن في الكفر والضلال

إذ الإنسان قد بأن اللب ولكنه يندم بعد أن يفعله ، ولكنه حين يستمرى لفرح  
بما فعل فذلك دس آخر ، وهكذا صار إتيان العمل دساً ، والمرح به دساً آخر ؛ لأنه  
لو يندم على ما فعله لكان الندم دليلاً على التوبة ، أما أن يأتى العمل وبعد ذلك يفرح

به ثم بأن بعد ذلك الأشد ، فيجب أن يُحمد بما لم يفعل ، فقلت من تمام الحق ،  
إنه جرم وذنوب مركب من فعل آثم ، قفرح به ، فحمد الحمد على شيء لم يفعله

كان يجب أن يُحمد بما فعل أو لم يفعل ؟ بما لم يفعل ، لأنه جميع على أمره غير  
الحق ، وإذا قال قائل : إنها برئت في المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله فالقول  
محتمل ، لأن هؤلاء تخلفوا عن الحرب مع رسول الله وفرحوا بأن متاعب السفر  
ومتاعب الجهاد لم تلهم ، وبعد ذلك اعتذروا لرسول الله صلى الله عليه وسلم  
اعتذارات كاذبة ولو علموا لكان خيراً لهم ولم يتطع بالمسلمين كذبهم فحمدوا لهم  
ذلك الاحتمار ، إنهم قد أتوا الذنب ، وفرحوا بأنهم أتوه ، ونجوا من معارم  
الحرب ، وبعد ذلك فرحوا أيضاً بأنهم أسوا أن يحمداً بما لم يفعلوا ، لأن  
اعتذارهم كان مفاقماً ، سواء كان هذا أو ذاك فالآية على إطلاقها ، للذين يفرحون  
بما أتوا من ماحضة الحق وذلك فعل ، والفرح به ذنب آخر ، والرغبة في الحمد  
عليه شيء ثالث ، إذن ملئت مركب ، فهم يسترون الأمر ويبون نقيضه كي  
نحمدهم ونشكرهم ، والحق سبحانه وتعالى يعطي لهذا دستوراً إلهامياً لطبق الحياة

ويعبون أن يحمداً بما لم يفعلوا ، وهل انتهى عليهم أنهم يعبون أن يحمداً ؟ أو  
لأنهم عليهم واليه يعبون أن يحمداً ؟ إن المعنى عليهم  
أنهم يعبون أن يحمداً بما لم يفعلوا ، لأن الإنسان إن أحب أن يمدح بما فعل  
فلا مانع ، والقرآن حين يعالج نساء بشرية خلقها الله بملكات ، فهو يعلم مطلوبات  
الملكات ، بعض الملكات قد تحتاج إلى شيء فلا يتجاوز الله هذا الشيء ، إن الإنسان  
مطروح على حب الثناء من المبر ، لأن حب الثناء يثبت له وجوداً ثانياً ، ووجودك  
الثاني هو أن نمر من نفسك بعملك الذي يكون حيث الثناء عليك ، والناس لا تنى  
على وجودك ، لكنها تنى على فعلك .

ومادام الإنسان يحب الثناء فسيخرجه ذلك بأن يعمل ما يثنى به عليه ، ومادام يُعربى  
بما يثنى عليه فسيحمل باتفاق أكثر ، وصاحبه يعمل لأن المحيط به يستمع من عمله ،  
والله يريد إشاعة النصح فلا يمحى سبحانه حب لثناء كي يزيد في الطاعة الفاعلة  
للأشياء ، لأنه لو حرم ذلك لثناء على من لا من كانت ملكاته سرية ، وسيقتد





أنت مثلاً جالس على الكرسي . وقد تقول : لقد صنع التجار والتجار جاء بالخشب من البائع ، والبائع جاء بالخشب من الغابة ، فمن أين جاء الخشب إلى الغابة ؟ تقول : لا أعرف ، أما إذا كان عندك الحس الإيمانى فأنت تقول : أوجده الله . وحين تنتهى الأسباب وسلسلتها نجد الله الخالق : « إنا مكنا له فى الأرض وأتينا من كل شئ ميسراً فأتبع ميسراً ، فعندما أعطاه الله الأسباب جاء هو بالوسائل فقط ، إذن فالأصل كله من الله .

ويتابع الحق : « حق إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب فى عين حثّة ، هذا فى عين الناظر فقط ، فأنت حين تتركب البحر ثم ترى الشمس عند الغروب تنعطف فى البحر ، وعندما تذهب للمنطقة التى غطت الشمس فيها تجد الشمس موجودة ، لأنها لا تغيب أبداً ، إنما «تغرب فى عين حثّة» أى فوجد الشمس فى نظره عند غروبها عنه كأنها تغرب فى مكان به عين ذات ماء حار وطين أسود . ويتابع الحق : « ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا .

والناس تفهم أن هذا تخيير ، يعنى إما أن تعذبهم ، وإما تحسن إلى من كنت تعذبهم ، لكن الدقة والتمعن بوضوحنا لنا أن الحق قد أعطى تفويضاً لذى القرنين ، بقوله : « إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » فهم ذو القرنين عن الله التفويض ، ولم يأخذ التفويض وافترى ، بل قال : « أما من ظلم فسوف نعذبه » . وليس هذا هو العذاب الذى يستحقه ، لا ، نحن سنعذبه فى «ديانا كى لا يشتري فيها الشر» . وفوق ذلك سيعذبه الله عذاباً آخر .

« أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذاباً نكراً » إنه أولاً لم يصف عذابه بنكر ، إنما وصف عذاب الله فقال : « فيعذبه عذاباً نكراً » ، لأن عذاب البشر للبشر على قدر البشر ، لكن عذاب الله يتناسب مع قدرة الله ، فهل لنا طاقة بهذا العذاب والعياذ بالله ؟ ليس لنا طاقة به ، وماذا عن موقف ذى القرنين من الذى آمن ؟ إنه موقف مختلف .

يقول الحق : « وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا

يسرا ، هو يجازيه بالحسنى ويعطيه المكافآت ويكرمه ، وعندما يشاء من يجب الثناء قائلًا : لماذا نكرم هذا ؟ ويرى أسباب التكريم فيقول لخصه لاصنعن مثله كي أكرم . ولذلك نحمد الشباب بتهافت حتى على اللعب بكره القدم لماذا ؟ لأنهم يجدون من يضع هدفًا في كرة القدم يكرم ، فيقول : أنا أريد أن أضع هدفًا .

هذا وإن ديننا الخفيف يدعونا إلى أن نشكر من قدم خيرًا أو أسدى معروفًا خفيًا للهمم وتشجيعًا لبذل الطاقات وفي الأثر : « من لم يشكر الناس لم يشكر الله » إذن فحبب الثناء من طبيعة الإنسان ، ولكن تغري الناس بأن يعملوا لأبد أن تأتي لهم بأعمال نستوعب طاقاتهم المتعددة ، أما إذا اقتصر إتيان العمل على من لا يحبون الثناء ، فسنتقل الأبدى التي نفضل ، ولذلك نحمد العمل حيث توجد المكافأة التشجيعية التي يأخذها من يستحقها ويقابلها من التجريم والعقوبة لمن يعمل في عمله ، فلا يمنح رئيس عمل مكافأة لمن عملوا على هراهم ، بل عليه أن يمنحها لمن أدى عمله بإتقان . وحين يعلم الناس أنه لا يجازى بالخير ولا يكرم بالقول إلا من فعل فعلًا حقيقياً فالكمل يفعل فعلًا حقيقياً ، لكن عندما نحمد الناس أن المكافآت لا يأخذها أحد إلا بالتزلف وبالتعاق وبالأشياء غير المشروعة فيفعلون ذلك ، وهكذا تأتي الحيلة .

وهكذا نحمد أن قوله الحق : « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا » .

إن هذا القول يضع أساساً ودستوراً إيمانياً لمطلق الحياة ، وعلاقة الحاكم بالمحكومين ، وعلاقة الفرد بنفسه وعن حوله . وعلاقة الإنسان بالعمل الصالح أو بالذنب ؛ فالإنسان إذا ما أتى ذنباً ، فربما يكون قد نفس عن نفسه بارتكاب الذنب ، لكن بعد ما تهدأ شدة المعصية يجب عليه أن يتبه فيندم ولا يفرح . هذه أول مرحلة . ولا يتهدى في ارتكاب الذنب ، أما إذا تمادى وخلع على فعله التقيض وادعى أنه قد أتى فعلاً حسناً حتى يناله مدح بدلاً من أن يناله ذم فذلك ذنب مركب ، ويحشره الله ضمن من قال فيهم : « فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب » .

والمفازة هي المكان الذي يظن الإنسان أن فيه نجاته ، أي أن في هذا المكان فوزاً

له ، ويطلقون كلمة « مفازة » على الصحراء إطلاقاً تفاؤلياً ، لا بسموها « مهلكة » لأن الذي كان يجربها يهلك فسموها « مفازة » تفاؤلاً بأن الذي يسلكها يفوز ، أو أن الصحراء أرض مكشوفة ، ومادام الإنسان قد وصل إلى أرض مكشوفة فلن يصادف ما يخافه من حيوانات شرسة أو من وافدات ضارة كالحيات ، أو من عدو راصد ، وفي ذلك فوز له ، لأنه تجنب هذه المخاطر ، إنه إن سار في الجبال والوديان فمن الممكن أن تستر عنه الوحوش المفترسة أو الهوام أو تستر عنه الذين يتبعونه فلا يتوقعهم وقد يصيبونه بالأذى ، فإذا ما ذهب إلى الأرض المكشوفة نجا من كل هذا لأنه بنأى وابتعد عنهم ، وتكون التسمية على حقيقتها ، ومن يرى أن الصحراء مهلكة فليعرف أنها سميت « مفازة » تفاؤلاً ، كما يسمون اللديغ الذي لدغه الثعبان بـ « السليم » .

ونحن في أعرفنا العادية نتفاعل فنضع للشيء اسماً ضد مسماه تفاؤلاً بالاسم ، مثال ذلك : إذا كنت في ضيافة إنسان وقدم شراباً : قهوة مثلاً ، ويعد أن تشرب القهوة يأتي الخادم فيقول من قدم لك القهوة لخادمه : تعال « خذ المملوء » ولا يقول : « خذ الفارغ » وهذا لون من التفاؤل .

وقلنا تحسبهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم « هم يظنون أنهم بمفازة من العذاب برغم أنهم لا يؤمنون بالحق ، ولا يؤمنون بسيطرة الحق على كل أحوالهم وكل أمورهم فهم يظنون أن انتصارهم في معركة الدنيا لا هزيمة بعده ، ولكن الحق بعد هذه الآية قال :

﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾